(١٣) سورة الرعد مدنية وآياتها ثلاث وأربعون

سورةُ الرعد من السور المكية التي تتناول المقاصد الأساسية للسور المكية ، من تقرير التوحيد ، والرسالة ، والبعث ، ودفعِ بعض الشبهات التي يثيرها المشركون حول الوحي والرسالة ، والبعث والنشور ، وإقامة الأدلة والبراهين على وحدانية رب العالمين جل وعـــلا.

سميت هذه السورةُ بسورةِ الرعد ، لتلكَ الظاهرةِ الكونيةِ العجيبة ، التي هي أثرٌ من آثار قدرةِ الله العليّ القدير ، في الخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والتدبير والتدمير ، وفي هذه الظواهر الكونية تتجلَّى قدرةُ اللهُ وسلطانُه ، ورحمتُه وانتقامُه ، وعظمته وجلالُه ، فالله جل وعلا الذي جعل الماء سبباً للحياة ، وأنزله بقدرته من السحب الكثيفة مدراراً ، قرنَ هذا السحابَ بالبرقِ والرعدِ والصواعق ، وفي الماءِ الإحياءُ ، وفي الصواعقِ الإفناءُ ، وفي البرق والرعد الهلعُ والجزعُ ، وكلُّها أمورٌ كونيةٌ عجيبة ، جمع الله فيها بين المتضادّ التي يعجِز عنها البشر ، فالماء يطفىء النار ، ومع ذلك فقد جعل الله في السحاب الرحمة والعذاب ، فهو يحمل المطرَ ، والبرقَ ، والرعدَ ، والصواعق ولله در القائل حيثُ يقول :

جَمْعُ النقيضَيْنِ من أسرارِ قدرتِـه : هذا السحـابُ بـه مَاءٌ بهِ نارُ

فمن حيث ينتظر الإنسان الرحمةَ يأتيه العذاب ، ومن حيثُ يخشى الهلاك تأتيه الحياة ، ﴿هو الذي يريكم البَرْقَ خوفاً وطَمَعاً ، ويُنْشىء

السحابَ الثقال . ويسبحّ الرعدُ بحمده ، والملائكةُ من خيفته ، ويُرسل الصواعقَ فيُصيبُ بها من يشاء ، وهم يجادلون في الله وهو شديدُ المِحَال﴾ . وفي ذلك عبرةٌ لمن كان له قلبٌ أو ألقى السمعَ وهو شهيد .
بدأت السورة الكريمة بالقضية الأساسية للعقيدة الإسلامية وهي « قضيةُ الوحي » الذي رافق نزولَ هذا الكتاب ، فمع سطوع الحقِ ووضوحه ، ومع بيانهِ القاطع الذي لا يحتمل الشكَّ أو التردد ، أنكر أكثر الناس وكذّبوا ، وجحدوا وعاندوا « تلك آياتُ الكتاب ، والذي أُنزِلَ إليك من ربِّك الحقُّ ولكنَّ أكثرَ الناسِ لا يؤمنون » . ثم استعرضت السورةُ آياتِ القدرة ، وعجائبَ الكون ، الدالةَ على قدرةِ الخالقِ المدبّر الحكيم ، في السماءِ والأرض ، والشمسِ والقمر . والليلِ والنهار ، والزروعِ والثمار ، وفي الأنهار والبحار ، وسائر ما خلق الله في آفاق الكون الفسيح ﴿ اللهُ الذي رفع السمواتِ بغير عَمَدٍ ترونها ، ثم استوى على العرش ، وسخَّر الشمس والقمر كلٌّ يجري لأجلٍ مسمًّى ، يدبِّرُ الأمرَ يفصّلُ الآياتِ ، لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ ومن العالَم العلوي إلى العالم السفلي يذكّرنا اللهُ بعظيم قدرته ، وباهر صَنْعَته ، فهو الذي منح الوجودَ الحياة ، وأضفى على الكون من آلائه التي لا تُحصى ، ونِعَمِه الجليلة التي بها دوام هذه الحياة ، بما شقَّ فيها من أنهار ، وأخرج فيها من ثمار « يُسقى بماء واحدٍ ونفضّل بعضَها على بعضٍ في الأُكُلِ ، إنَّ في ذلكَ لآياتٍ لقومٍ يعقلون » وإذا كان هناك ما يدعو للعَجَب ، فليعجب الإنسانُ من ذلك الكافر الجاحد لربه ، المكذِّب بالبعث بعد الموت ، وهو يرى الشمس تشرِق وتغرُب ، والشجرَ يُكسْى ثم يَعْرى ، والأرض هامدة فإذا أنزل الله عليها المطر اهتزَّتْ وربَتْ ، ثم هو ينكر البعث والنشور ﴿وإن تعجبْ فعجبٌ قولُهم أئذا كنا تراباً أئنا لفي خلقٍ جديد ؟ أولئك الذين كفروا بربهم ، وأولئك الأغلال في

أعناقهم ، وأولئكَ أصحابُ النارِ هم فيها خالدون﴾ .

والذي خلق هذا الكون الضخم ، ودبَّره على هذا النحو الدقيق ، قادرٌ على إعادة البشر بعد موتهم ، فهو الذي أحاط علْمه بكل ذرةٍ في الكائنات ، حتى الهَمَسات واللَّمَسات ، والأجنةُ في بطون الأمهات ، سواءٌ منها ما كان ظاهراً جلياً ، أو سِقْطاً خفياً لم يستكمل بعد تمام الحياة ﴿ اللهُ يعلم ما تحمل كلُّ أنثى وما تَغيضُ الأرحام وما تزداد ، وكلُّ شيءٍ عنده بمقدار ، عالمُ الغيبُ والشهادة الكبيرُ المتعال﴾ .

ومن العلم الشاملِ الكامل ، الناطق بعظمة الله ووحدانيته ، إلى البراهين الساطعة ، والأدلة القاطعة ، على انفراد الله جلَّ وعلا بالخلق والإيجاد ، والإحياء والإماتة ، والنفع والضر ، دون ما سواه من الآلهة المزعومة ﴿ قل من ربُّ السمواتِ والأرض ؟ قل اللهُ ؟ قل أفاتخذتُمْ من دونِهِ أولياءَ لا يملكونَ لأنفسهم نَفْعاً ولا ضَرّاً ؟ قل هل يستوي الأعمى والبصير ، أم هل تستوي الظلماتُ والنُور ؟ أم جعلوا للهِ شركاءَ خلقوا كخلقه فتشابَه الخلقُ عليهم ؟ قل اللهُ خالقُ كل شيءٍ وهو الواحدُ القهار ﴾

ثم يمضي السياق يضربُ مثلين للحق والباطل ، **أحدهما** في الماء ينزل من السماء ، فتسيل به الأودية والشِّعاب ، وهو يجرف في طريقه الغثاء ، فيطفو على وجهه في صورة الزَّبَد ، والزَّبَدُ مرتفعٌ منتفخ ولكنَّه بعد غثاء ، **والثاني** في المعادن التي تذاب لتُصاغ منها الحِلْيَة كالذهب والفضة ، أو الأواني كالحديد والنحاس ، فإنَّ الخَبَثَ يطفو حتَّى ليحجبُ المعدنَ الأصيل ، ولكنه بعدُ خبثٌ يذهب ويبقى المعدنُ في نقاء . ذلك مَثَلٍ الحق والباطل في هذه الحياة ، فالباطل يزهو ويعلو وينتفخ ، ويبدو رابياً طافياً ولكنَّه بعدُ زبدٌ أو خَبَث ، ما يلبثُ أن يذهب جفاءً ، والحقُّ يَظَلُّ هادئاً ساكناً ، وربما يحسبه البعض قد انزوى أو غار ، أو تلاشى وذهب ، ولكنه هو الباقي في الأرض كالماء المحيي للنفوس ، والمعدن

الثابت بعد الانصهار يبقى صافياً نقياً ﴿أنزل من السماء ماءً فسالتْ أوديةٌ بِقَدَرِهَا ، فاحتمل السيلُ زَبَداً رابياً ، ومّما يوقدون عليه في النارِ ابتغاء حليةٍ أو متاعٍ زبدٌ مثلُه ، كذلك يضرب الله الحقَّ والباطل ، فأما الزَّبَد فيذهب جُفاءً ، وأما ما ينفعُ الناسِ فيمكثُ في الأرض ، كذلك يضربُ الله الأمثال﴾ وتتناول السورة الكريمة أوصاف أهل السعادة ، وأوصاف أهل الشقاوة ، وتضرب لهم المثل بالأعمى والبصير ، ومآل كلٍ من الفريقين في الآخرة ، فالمؤمنون هم السعداء ، والكافرون هم الأشقياء ، ثم تختم السورة ببيان موقف الكافرين من أمر القرآنِ وأمر الوحي وإنكارهم لرسالة خاتم المرسلين ﴿ويقول الذين كفروا لست مرسلاً ، قل كفى بالله شهيداً بيني وبينكم ، ومَنْ عنده علم الكتاب﴾ .

سورة الرعد

[٥١٩م] أخرج الطبراني وغيره[١] عن ابن عباس: أن أربد بن قيس وعامر بن الطفيل قدما المدينة على رسول الله [ﷺ]، فقال عامر: يا محمد ما تجعل لي إن أسلمت؟ قال: «**لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم**»، قال: أتجعل لي الأمر من بعدك؟ قال: «**ليس ذلك لك ولا لقومك**». فخرجا فقال عامر لأربد: إني أشغل عنك وجه محمد الحديث. فاضربه بالسيف فرجعا، فقال عامر: يا محمد قم معي أكلمك، فقام معه ووقف يكلمه وسل أربد السيف، فلما وضع يده على قائم السيف يبست والتفت رسول الله [ﷺ]، فرآه فانصرف عنهما، فخرجا حتى إذا كانا بالرقم أرسل الله على أربد صاعقة فقتلته، فأنزل الله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾[٢].

[٥٢٠] وأخرج النسائي والبزار[٣] عن أنس قال: بعث رسول الله [ﷺ] رجلاً من أصحابه إلى رجل من عظماء الجاهلية يدعوه إلى الله فقال: ايش ربك الذي تدعوني إليه، أمن حديد، أو من نحاس، أو من فضة أو ذهب، فأتى النبي [ﷺ] فأخبره، فأعاده الثانية والثالثة، فأرسل الله عليه صاعقة فأحرقته، ونزلت هذه الآية: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾[٤] إلى آخرها.

[٥٢١] وأخرج الطبراني وغيره عن ابن عباس قال: قالوا للنبي [ﷺ] إن كان كما تقول فأرنا أشياخنا الأول نكلمهم من الموتى، وافسح لنا هذه الجبال جبال مكة التي قد ضمتنا، فنزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾[٥] الآية.

[٥١٩م](١) المعجم الكبير للطبراني (١٠/ ٣٨٠) والواحدي في أسباب النزول ـ وانظر مجمع الزوائد (٧/ ٤١).

(٢) سورة الرعد: الآية (٨و ١٣).

[٥٢٠] (٣) ورواه الواحدي في أسباب النزول (١٥٦) من طريق علي بن أبي سارة الشيباني قال حدثنا ثابت عن أنس بن مالك.

(٤) سورة الرعد: الآية (١٣).

[٥٢١] (٥) سورة الرعد: الآية (٣١)

[٥٢٢] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم وابن مردويه عن عطية العوفي قال: قالوا للنبي [ﷺ]: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها أو قطعت لنا الأرض كلها كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾(١) الآية.

[٥٢٣] ك.. وأخرج ابن أبي حاتم عن مجاهد قال: قالت قريش حين أنزل: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾(٢) ما نراك يا محمد تملك من شيء لقد فرغ من الأمر، فأنزل الله: ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾(٣).

* * *

[٥٢٢] (١) سورة الرعد الآية (٣١) ـ وقد روى الواحدي في أسباب النزول ص (٥١٧) من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبدالله بن عطاء عن جدته أم عطاء مولاة الزبير قالت سمعت الزبير بن العوام يقول: قالت قريش للنبي ﷺ تزعم أنك نبي يوحى إليك وأن سليمان سخر له الريح وأن موسى سخر له البحر وأن عيسى كان يحيي الموتى فادع الله تعالى أن يسير عنا هذه الجبال ويفجر لنا الأرض أنهاراً فنتخذها محارث ومزارع ونأكل وإلا فادع أن يحيي لنا موتانا فنكلمهم ويكلمونا وإلا فادع الله تعالى أن يصير هذه الصخرة التي تحتك ذهباً فننحت منها وتغنينا عن رحلة الشتاء والصيف فإنك تزعم أنك كهيئتهم فبينا نحن حوله إذ نزل عليه الوحي فلما سرى عنه قال: **«والذي نفسي بيده لقد أعطاني ما سألتم ولو شئت لكان ولكنه خيرني بين أن تدخلوا في باب الرحمة فيؤمن مؤمنكم وبين أن يكلكم إلى ما اخترتم لأنفسكم فتضلوا عن باب الرحمة فاخترت باب الرحمة وأخبرني إن أعطاكم ذلك ثم كفرتم أنه معذبكم عذاباً لا يعذبه أحداً من العالمين فنزلت ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ ونزلت ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾»**.

[٥٢٣] (٢) سورة الرعد: الآية (٣٨).

(٣) سورة الرعد: الآية (٣٩).

سورة الرعد

مدنية: وآياتها: ٤٣ نزلت بعد سورة محمد

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١﴾

اعلم أنا قد تكلمنا في هذه الألفاظ قال ابن عباس رضي الله عنهما معناه: أنا الله أعلم، وقال في رواية عطاء أنا الله الملك الرحمن، وقد أمالها أبو عمرو والكسائي وغيرهما وفخمها جماعة منهم عاصم وقوله: ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى آيات السورة المسماة بـ﴿الٓمٓرۚ﴾. ثم قال: إنها آيات الكتاب. وهذا الكتاب الذي أعطاه محمدًا بأن ينزله عليه ويجعله باقيًا على وجه الدهر وقوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مبتدأ وقوله: ﴿ٱلْحَقُّ﴾ خبره ومن الناس من تمسك بهذه الآية في نفي القياس فقال: الحكم المستنبط بالقياس غير نازل من عند الله وإلا لكان من لم يحكم به كافرًا لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَٰفِرُونَ﴾[المائدة: ٤٤] وبالإجماع لا يكفر فثبت أن الحكم المثبت بالقياس غير نازل من عند الله. وإذا كان كذلك وجب أن لا يكون حقًا لأجل أن قوله: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ يقتضي أنه لا حق إلا ما أنزله الله فكل ما لم ينزله الله وجب أن لا يكون حقًا، وإذا لم يكن حقًا وجب أن يكون باطلاً لقوله تعالى: ﴿فَمَاذَا بَعْدَ ٱلْحَقِّ إِلَّا ٱلضَّلَٰلُ﴾[يونس: ٣٢] ومثبتو القياس يجيبون عنه بأن الحكم المثبت بالقياس نازل أيضًا من عند الله، لأنه لما أمر بالعمل بالقياس كان الحكم الذي دل عليه القياس نازلاً من عند الله. ولما ذكر تعالى أن المنزل على محمدﷺ هو الحق بين أن أكثر الناس لا يؤمنون به على سبيل الزجر والتهديد.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّىۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر أن أكثر الناس لا يؤمنون ذكر عقيبه ما يدل على صحة التوحيد والمعاد وهو هذه الآية. وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱللَّهُ﴾ مبتدأ و﴿ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ والذي رفع

السموات خبره بدليل قوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ويجوز أن يكون الذي رفع السموات صفة وقوله: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ خبرًا بعد خبر، وقال الواحدي: العَمَد: الأساطين وهو جمع عِمَاد يقال عِمَاد وعَمَد مِثل إهَاب وأَهَب، وقال الفراء: العَمَد والعُمْد جمع العمود مثل أَدِيم وأَدَم وأُدْم، وقَضِيم وقَضَم وقُضْم، والعِمَاد والعَمُود ما يُعمدُ به الشيء، ومنه يقال: فلان عَمَد قومه إذا كانوا يعتمدونه فيما بينهم.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى استدل بأحوال السموات وبأحوال الشمس والقمر وبأحوال الأرض وبأحوال النبات، أما الاستدلال بأحوال السموات بغير عمد ترونها فالمعنى: أن هذه الأجسام العظيمة بقيت واقفة في الجو العالي ويستحيل أن يكون بقاؤها هناك لأعيانها ولذواتها لوجهين:

الأول: أن الأجسام متساوية في تمام الماهية، ولو وجب حصول جسم في حيز معين، لوجب حصول كل جسم في ذلك الحيز. والثاني: أن الخلاء لا نهاية له والأحياز المعترضة في ذلك الخلاء الصرف غير متناهية وهي بأسرها متساوية ولو وجب حصول جسم في حيز معين لوجب حصوله في جميع الأحياز ضرورة أن الأحياز بأسرها متشابهة فثبت أن حصول الأجرام الفلكية في أحيازها وجهاتها ليس أمرًا واجبًا لذاته بل لا بد من مخصص ومرجح، ولا يجوز أن يقال إنها بقيت بسلسلة فوقها ولا عمد تحتها، وإلا لعاد الكلام في ذلك الحافظ ولزم المرور إلى ما لا نهاية له وهو محال فثبت أن يقال الأجرام الفلكية في أحيازها العالية لأجل أن مدبر العالم تعالى وتقدس أوقفها هناك. فهذا برهان قاهر على وجود الإله القاهر القادر. ويدل أيضًا على أن الإله ليس بجسم ولا مختص بحيز، لأنه لو كان حاصلاً في حيز معين لامتنع أن يكون حصوله في ذلك الحيز لذاته ولعينه لما بينا أن الأحياز بأسرها متساوية فيمتنع أن يكون حصوله في حيز معين لذاته فلا بد وأن يكون بتخصيص مخصص وكل ما حصل بالفاعل المختار فهو محدث فاختصاصه بالحيز المعين محدث وذاته لا تنفك عن ذلك الاختصاص وما لا يخلو عن الحادث فهو حادث، فثبت أنه لو كان حاصلاً في الحيز المعين لكان حادثًا وذلك محال، فثبت أنه تعالى متعال عن الحيز والجهة، وأيضًا كل ما سماك فهو سماء، فلو كان تعالى موجودًا في جهة فوق جهة لكان من جملة السموات فدخل تحت قوله: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ فكل ما كان مختصًا بجهة فوق جهة فهو محتاج إلى حفظ الإله بحكم هذه الآية فوجب أن يكون الإله منزهًا عن جهة فوق. أما قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ ففيه أقوال:

الأول: أنه كلام مستأنف، والمعنى: رفع السموات بغير عمد. ثم قال: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ أي وأنتم ترونها أي مرفوعة بلا عماد.

الثاني: قال الحسن: في تقرير الآية تقديم وتأخير تقديره: رفع السموات ترونها بغير عمد. واعلم أنه إذا أمكن حمل الكلام على ظاهره كان المصير إلى التقديم والتأخير غير جائز.

والثالث: أن قوله: ﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفة للعمد، والمعنى: بغير عمد مرئية، أي للسموات عمد. ولكنا لا نراها قالوا: ولها عمد على جبل قاف وهو جبل من زبرجد محيط بالدنيا ولكنكم لا ترونها. وهذا التأويل في غاية السقوط، لأنه تعالى إنما ذكر هذا الكلام ليكون حجة على وجود الإله القادر ولو كان المراد ما ذكروه لما ثبتت الحجة لأنه يقال إن السموات لما كانت مستقرة على جبل قاف فأي دلالة لثبوتها على وجود الإله، وعندي فيه وجه آخر أحسن من الكل وهو أن العماد ما يعتمد عليه وقد دللنا على أن هذه الأجسام إنما بقيت واقفة في الجو العالي بقدرة الله تعالى وحينئذ يكون عمدها هو قدرة الله تعالى فنتج أن يقال إنه رفع السماء بغير عمد ترونها أي لها عمد في الحقيقة إلا أن تلك العمد هي قدرة الله تعالى وحفظه وتدبيره وإبقاؤه إياها في الجو العالي وأنهم لا يرون ذلك التدبير ولا يعرفون كيفية ذلك الإمساك.

وأما قوله: ﴿ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾ فاعلم أنه ليس المراد منه كونه مستقرًا على العرش، لأن المقصود من هذه الآية ذكر ما يدل على وجود الصانع ويجب أن يكون ذلك الشيء مشاهدًا معلومًا وأن أحدًا ما رأى أنه تعالى استقر على العرش فكيف يمكن الاستدلال به عليه وأيضًا بتقدير أن يشاهد كونه مستقرًا على العرش إلا أن ذلك لا يشعر بكمال حاله وغاية جلاله، بل يدل على احتياجه إلى المكان والحيز. وأيضًا فهذا يدل على أنه ما كان بهذه الحالة ثم صار بهذه الحالة، وذلك يوجب التغير وأيضًا الاستواء ضد الاعوجاج فظاهر الآية يدل على أنه كان معوجًا مضطربًا ثم صار مستويًا وكل ذلك على الله محال، فثبت أن المراد استواؤه على عالم الأجسام بالقهر والقدرة والتدبير والحفظ يعني أن من فوق العرش إلى ما تحت الثرى في حفظه وفي تدبيره وفي الاحتياج إليه. وأما الاستدلال بأحوال الشمس والقمر: فهو قوله سبحانه وتعالى: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾.

واعلم أن هذا الكلام اشتمل على نوعين من الدلالة:

النوع الأول: قوله: ﴿وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ﴾ وحاصله يرجع إلى الاستدلال على وجود الصانع القادر القاهر بحركات هذه الأجرام، وذلك لأن الأجسام متماثلة فهذه الأجرام قابلة للحركة والسكون فاختصاصها بالحركة الدائمة دون السكون لا بد له من مخصص. وأيضًا أن كل واحدة من تلك الحركات مختصة بكيفية معينة من البطء والسرعة فلا بد أيضًا من مخصص لا سيما عند من يقول الحركة البطيئة معناها حركات مخلوطة بسكنات وهذا يوجب الاعتراف بأنها تتحرك في بعض الأحياز وتسكن في البعض فحصول الحركة في ذلك الحيز المعين والسكون في الحيز الآخر لا بد فيه أيضًا من مرجح.

الوجه الثالث: وهو أن تقدير تلك الحركات والسكنات بمقادير مخصوصة على وجه تحصل عوداتها وأدوارها متساوية بحسب المدة حالة عجيبة فلا بد من مقدر.

والوجه الرابع: أن بعض تلك الحركات مشرقية وبعضها مغربية وبعضها مائلة إلى الشمال

وبعضها مائلة إلى الجنوب وهذا أيضًا لا يتم إلا بتدبير كامل وحكمة بالغة.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وفيه قولان:

الأول: قال ابن عباس: للشمس مائة وثمانون منزلاً كل يوم لها منزل وذلك يتم في ستة أشهر، ثم إنها تعود مرة أخرى إلى واحد منها في ستة أشهر أخرى وكذلك القمر له ثمانية وعشرون منزلاً، فالمراد بقوله: ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ هذا. وتحقيقه أنه تعالى قدر لكل واحد من هذه الكواكب سيرًا خاصًّا إلى جهة خاصة بمقدار خاص من السرعة والبطء وحيث كان الأمر كذلك لزم أن يكون لها بحسب كل لحظة ولمحة حالة أخرى ما كانت حاصلة قبل ذلك.

والقول الثاني: أن المراد كونهما متحركين إلى يوم القيامة، وعند مجيء ذلك اليوم تنقطع هذه الحركات وتبطل تلك السيرات كما وصف الله تعالى ذلك في قوله: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١، ٢] ﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنشَقَّتْ﴾ [الانشقاق: ١] و﴿إِذَا ٱلسَّمَآءُ ٱنفَطَرَتْ﴾ [الإنفطار: ١] ﴿وَجُمِعَ ٱلشَّمْسُ وَٱلْقَمَرُ﴾ [القيامة: ٩] وهو كقوله سبحانه وتعالى: ﴿ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ﴾ [الأنعام: ٢] ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل قال: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ وكل واحد من المفسرين حمل هذا على تدبير نوع آخر من أحوال العالم والأولى حمله على الكل فهو يدبرهم بالإيجاد والإعدام وبالإحياء والإماتة والإغناء والإفقار، ويدخل فيه إنزال الوحي وبعثة الرسل وتكليف العباد، وفيه دليل عجيب على كمال القدرة والرحمة وذلك لأن هذا العالم المعلوم من أعلى العرش إلى ما تحت الثرى أنواع وأجناس لا يحيط بها إلا الله تعالى، والدليل المذكور دل على أن اختصاص كل واحد منها بوضعه وموضعه وصفته وطبيعته وحليته، ليس إلا من الله تعالى ومن المعلوم أن كل من اشتغل بتدبير شيء فإنه لا يمكنه تدبير شيء آخر إلا الباري سبحانه وتعالى فإنه لا يشغله شأن عن شأن أما العاقل فإنه إذا تأمل في هذه الآية علم أنه تعالى يدبر عالم الأجسام وعالم الأرواح ويدبر الكبير كما يدبر الصغير فلا يشغله شأن عن شأن ولا يمنعه تدبير عن تدبير وذلك يدل على أنه تعالى في ذاته وصفاته وعلمه وقدرته غير مشابه للمحدثات والممكنات.

ثم قال: ﴿يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ﴾

وفيه قولان:

الأول: أنه تعالى يبين الآيات الدالة على إلهيته وعلمه وحكمته.

والثاني: أن الدلائل الدالة على وجود الصانع قسمان:

أحدهما: الموجودات الباقية الدائمة كالأفلاك والشمس والقمر والكواكب، وهذا النوع من الدلائل هو الذي تقدم ذكره.

والثاني: الموجودات الحادثة المتغيرة، وهي الموت بعد الحياة، والفقر بعد الغنى، والهرم بعد الصحة، وكون الأحمق في أهنأ العيش، والعاقل الذكي في أشد الأحوال، فهذا النوع من

الموجودات والأحوال دلالتها على وجود الصانع الحكيم ظاهرة باهرة. وقوله: ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ إشارة إلى أنه يحدث بعضها عقيب بعض على سبيل التمييز والتفصيل.

ثم قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ﴾ واعلم أن الدلائل المذكورة كما تدل على وجود الصانع الحكيم فهي أيضًا تدل على صحة القول بالحشر والنشر لأن من قدر على خلق هذه الأشياء وتدبيرها على عظمتها وكثرتها فلأن يقدر على الحشر والنشر كان أولى يروى أن رجلاً قال لعلي بن أبي طالب رضوان الله عليه أنه تعالى كيف يحاسب الخلق دفعة واحدة فقال كما يرزقهم الآن دفعة واحدة وكما يسمع نداءهم ويجيب دعاءهم الآن دفعة واحدة. وحاصل الكلام أنه تعالى كما قدر على إبقاء الأجرام الفلكية والنيرات الكوكبية في الجو العالي وإن كان الخلق عاجزين عنه، وكما يمكنه أن يدبر من فوق العرش إلى ما تحت الثرى بحيث لا يشغله شأن عن شأن، فكذلك يحاسب الخلق بحيث لا يشغله شأن عن شأن، ومن الأصحاب من تمسك بلفظ اللقاء على رؤية الله تعالى، وقد مر تقريره في هذا الكتاب مرارًا وأطوارًا.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما قرر الدلائل السماوية أردفها بتقرير الدلائل الأرضية فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾. واعلم أن الاستدلال بخلقه الأرض وأحوالها من وجوه: الأول: أن الشيء إذا تزايد حجمه ومقداره صار كأن ذلك الحجم وذلك المقدار يمتد فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ إشارة إلى أن الله سبحانه هو الذي جعل الأرض مختصة بذلك المقدار المعين الحاصل له لا أزيد ولا أنقص، والدليل عليه: أن كون الأرض أزيد مقدارًا مما هو الآن وأنقص منه أمر جائز ممكن في نفسه فاختصاصه بذلك المقدار المعين لا بد أن يكون بتخصيص وتقدير. الثاني: قال أبو بكر الأصم: المد: هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه فقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ يشعر بأنه تعالى جعل حجم الأرض حجمًا عظيمًا لا يقع البصر على منتهاه، لأن الأرض لو كانت أصغر حجمًا مما هي الآن عليه لما كمل الانتفاع به. والثالث: قال قوم: كانت الأرض مدورة فمدها ودحا من مكة تحت البيت فذهبت كذا وكذا. وقال آخرون: كانت مجتمعة عند البيت المقدس فقال لها: اذهبي كذا وكذا. اعلم أن هذا القول إنما يتم إذا قلنا: الأرض مسطحة لا كرة، وأصحاب هذا القول احتجوا عليه بقوله: ﴿وَٱلْأَرْضَ بَعْدَ ذَٰلِكَ دَحَىٰهَآ﴾ [النازعات: ٣٠] وهذا القول مشكل من وجهين: الأول: أنه ثبت بالدلائل أن الأرض كرة فكيف يمكن المكابرة فيه؟

فإن قالوا: وقوله: ﴿مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ ينافي كونها كرة فكيف يمكن مدها؟

قلنا: لا نسلم أن الأرض جسم عظيم والكرة إذا كانت في غاية الكبر كان كل قطعة منها تشاهد كالسطح، والتفاوت الحاصل بينه وبين السطح لا يحصل إلا في علم الله ألا ترى أنه قال: ﴿وَٱلْجِبَالَ أَوْتَادًا﴾ [النبأ: ٧] فجعلها أوتادًا مع أن العالم من الناس يستقرون عليها فكذلك هاهنا. والثاني: أن هذه الآية إنما ذُكِرت ليُستدل بها على وجود الصانع، والشرط فيه أن يكون ذلك أمرًا مشاهدًا معلومًا حتى يصح الاستدلال به على وجود الصانع، وكونها مجتمعة تحت البيت أمر غير مشاهد ولا محسوس، فلا يمكن الاستدلال به على وجود الصانع، فثبت أن التأويل الحق هو ما ذكرناه.

والنوع الثاني: من الدلائل الاستدلال بأحوال الجبال وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ من فوقها ثابتة باقية في أحيازها غير منتقلة عن أماكنها يقال: رسا هذا الوتد وأرسيته والمراد ما ذكرنا.

واعلم أن الاستدلال بوجود الجبال على وجود الصانع القادر الحكيم من وجوه: الأول: أن طبيعة الأرض واحدة فحصول الجبل في بعض جوانبها دون البعض لا بد وأن يكون بتخليق القادر الحكيم. قالت الفلاسفة: هذه الجبال إنما تولدت لأن البحار كانت في هذا الجانب من

العالم فكانت تتولد في البحر طينًا لزجًا. ثم يقوي تأثير الشمس فيها فينقلب حجرًا كما يشاهد في كوز الفقاع ثم إن الماء كان يغور ويقل فيتحجر البقية، فلهذا السبب تولدت هذه الجبال قالوا: وإنما كانت البحار حاصلة في هذا الجانب من العالم لأن أوج الشمس وحضيضها متحركان، ففي الدهر الأقدم كان حضيض الشمس في جانب الشمال والشمس متى كانت في حضيضها كانت أقرب إلى الأرض فكان التسخين أقوى، وشدة السخونة توجب انجذاب الرطوبات، فحين كان الحضيض في جانب الشمال كانت البحار في جانب الشمال، والآن لما انتقل الأوج إلى جانب الشمال والحضيض إلى جانب الجنوب انتقلت البحار إلى جانب الجنوب فبقيت هذه الجبال في جانب الشمال، هذا حاصل كلام القوم في هذا الباب، وهو ضعيف من وجوه: الأول: أن حصول الطين في البحر أمر عام ووقوع الشمس عليها أمر عام فلم يتصل هذا الجبل في بعض الجوانب دون البعض. والثاني: وهو أنا نشاهد في بعض الجبال كأن تلك الأحجار موضوعة سافا فسافًا فكأن البناء لبنات كثيرة موضوع بعضها على بعض ويبعد حصول مثل هذا التركيب من السبب الذي ذكروه. والثالث: أن أوج الشمس الآن قريب من أول السرطان فعلى هذا من الوقت الذي انتقل أوج الشمس إلى الجانب الشمالي مضى قريب من تسعة آلاف سنة، وبهذا التقدير أن الجبال في هذه المدة الطويلة كانت في التفتت فوجب أن لا يبقى من الأحجار شيء، لكن ليس الأمر كذلك، فعلمنا أن السبب الذي ذكروه ضعيف.

والوجه الثاني: من الاستدلال بأحوال الجبال على وجود الصانع ذي الجلال ما يحصل فيها من معادن الفلزات السبعة ومواضع الجواهر النفيسة وقد يحصل فيها معادن الزاجات والأملاح وقد يحصل فيها معادن النفط والقير والكبريت، فكون الأرض واحدة في الطبيعة، وكون الجبل واحدًا في الطبع، وكون تأثير الشمس واحدًا في الكل يدل دليلاً ظاهرًا على أن الكل بتقدير قادر قاهر متعال عن مشابهة المحدثات والممكنات.

والوجه الثالث: من الاستدلال بأحوال الجبال أن بسببها تتولد الأنهار على وجه الأرض، وذلك أن الحجر جسم صلب فإذا تصاعدت الأبخرة من قعر الأرض ووصلت إلى الجبل احتبست هناك فلا تزال تتكامل، فيحصل تحت الجبل مياه عظيمة، ثم إنها لكثرتها وقوتها تثقب وتخرج وتسيل على وجه الأرض، فمنفعة الجبال في تولد الأنهار هو من هذا الوجه، ولهذا السبب ففي أكثر الأمر أينما ذكر الله الجبال قرن بها ذكر الأنهار مثل ما في هذه الآية، ومثل قوله: ﴿وَجَعَلْنَا فِيهَا رَوَاسِيَ شَامِخَاتٍ وَأَسْقَيْنَاكُم مَّاءً فُرَاتًا﴾ [المرسلات: ٢٧].

والنوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بعجائب خلقة النبات، وإليه الإشارة بقوله: ﴿وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: أن الحبة إذا وضعت في الأرض وأثرت فيها نداوة الأرض ربت وكبرت

وبسبب ذلك ينشق أعلاها وأسفلها فيخرج من الشق الأعلى الشجرة الصاعدة في الهواء، ويخرج من الشق الأسفل العروق الغائصة في أسفل الأرض وهذا من العجائب، لأن طبيعة تلك الحبة واحدة وتأثير الطبائع والأفلاك والكواكب فيها واحد ثم إنه خرج من الجانب الأعلى من تلك الحبة جرم صاعد إلى الهواء من الجانب الأسفل منه جرم غائص في الأرض، ومن المحال أن يتولد من الطبيعة الواحدة طبيعتان متضادتان، فعلمنا أن ذلك إنما كان بسبب تدبير المدبر الحكيم، والمقدر القديم لا بسبب الطبع والخاصية، ثم إن الشجرة الثابتة من تلك الحبة بعضها يكون خشبًا وبعضها يكون نورًا وبعضها يكون ثمرة، ثم إن تلك الثمرة أيضًا يحل فيها أجسام مختلفة الطبائع، فالجوز له أربعة أنواع من القشور، فالقشر الأعلى وتحته القشرة الخشبة وتحته القشرة المحيطة باللبنة، وتحت تلك القشرة قشرة أخرى في غاية الرقة تمتاز عما فوقها حال كون الجوز رطبًا وأيضًا فقد يحصل في الثمرة الواحدة الطباع المختلفة، فالأترج قشره حار يابس ولحمه حار رطب وحماضه بارد يابس وبزره حار يابس ونوره حار يابس، وكذلك العنب قشره وعجمه باردان يابسان ولحمه وماؤه حاران رطبان فتولد هذه للطبائع المختلفة من الحبة الواحدة مع تساوي تأثيرات الطبائع وتأثيرات الأنجم والأفلاك لا بد وأن يكون لأجل تدبير الحكيم القادر القديم.

المسألة الثانية: المراد بزوجين اثنين، صنفين اثنين، والاختلاف إما من حيث الطعم كالحلو والحامض أو الطبيعة كالحار والبارد أو اللون كالأبيض والأسود.

فإن قيل: الزوجان لا بد وأن يكون اثنين، فما الفائدة في قوله: ﴿زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾.

قلنا: قيل: إنه تعالى أول ما خلق العالم وخلق فيه الأشجار خلق من كل نوع من الأنواع اثنين فقط، فلو قال: خلق زوجين لم يعلم أن المراد النوع أو الشخص. أما لما قال اثنين: علمنا أن الله تعالى أول ما خلق من كل زوجين اثنين لا أقل ولا أزيد. والحاصل أن الناس فيهم الآن كثرة إلا أنهم لما ابتدؤا من زوجين اثنين بالشخص هما آدم وحواء، فكذلك القول في جميع الأشجار والزرع، والله أعلم.

النوع الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الاستدلال بأحوال الليل والنهار وإليه الإشارة بقوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ والمقصود أن الإنعام لا يكمل إلا بالليل والنهار وتعاقبهما كما قال: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢] ومنه قوله: ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ يَطْلُبُهُۥ حَثِيثًا﴾ [الأعراف: ٥٤] وقد سبق الاستقصاء في تقريره فيما سلف من هذا الكتاب، قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر عن عاصم: (يُغَشِّي) بالتشديد وفتح الغين والباقون بالتخفيف، ثم إنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل النيرة والقواطع القاهرة قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

واعلم أنه تعالى في أكثر الأمر حيث يذكر الدلائل الموجودة في العالم السفلي يذكر عقبها: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ لو ما يقرب منه بحسب المعنى، والسبب فيه أن الفلاسفة

يسندون حوادث العالم السفلي إلى الاختلافات الواقعة في الأشكال الكوكبية، فما لم تقم الدلالة على دفع هذا السؤال لا يتم المقصود، فلهذا المعنى قال: ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ كأنه تعالى يقول: مجال الفكر باق بعد ولا بد بعد هذا المقام من التفكر والتأمل ليتم الاستدلال.

واعلم أن الجواب عن هذا السؤال من وجهين: الأول: أن نقول: هب أنكم أسندتم حوادث العالم السفلي إلى الأحوال الفلكية والاتصالات الكوكبية إلا أنا أقمنا الدليل القاطع على أن اختصاص كل واحد من الأجرام الفلكية وطبعه ووضعه وخاصيته لا بد أن يكون بتخصيص المقدر القديم والمدبر الحكيم، فقد سقط هذا السؤال وهذا الجواب قد قرره الله تعالى في هذا المقام، لأنه تعالى ابتدأ بذكر الدلائل السماوية وقد بينا أنها كيف تدل على وجود الصانع. ثم إنه تعالى أتبعها بالدلائل الأرضية.

فإن قال قائل: لم لا يجوز أن تكون هذه الحوادث الأرضية لأجل الأحوال الفلكية، كان جوابنا أن نقول: فهب أن الأمر كذلك إلا أنا دللنا فيما تقدم على افتقار الأجرام الفلكية إلى الصانع الحكيم فحينئذ لا يكون هذا السؤال قادحًا في غرضنا.

والوجه الثاني: من الجواب أن نقيم الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث السفلية لأجل الاتصالات الفلكية، وذلك هو المذكور في الآية التي تأتي بعد هذه الآية، ومن تأمل في هذه اللطائف ووقف عليها علم أن هذا الكتاب اشتمل على علوم الأولين والآخرين.

قوله تعالى: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن المقصود من هذه الآية إقامة الدلالة على أنه لا يجوز أن يكون حدوث الحوادث في هذا العالم لأجل الاتصالات الفلكية، والحركات الكوكبية، وتقريره من وجهين، الأول: أنه حصل في الأرض قطع مختلفة بالطبيعة والماهية وهي مع ذلك متجاورة، فبعضها تكون سبخية، وبعضها تكون رخوة، وبعضها تكون صلبة، وبعضها تكون منبتة، وبعضها تكون حجرية أو رملية وبعضها يكون طينًا لزجًا، ثم إنها متجاورة وتأثير الشمس وسائر الكواكب في تلك القطع على السوية فدل هذا على أن اختلافها في صفاتها بتقدير العليم القدير. والثاني: أن القطعة الواحدة من الأرض تسقى بماء واحد فيكون تأثير الشمس فيها متساويًا، ثم إن تلك الثمار تجيء مختلفة في الطعم واللون والطبيعة والخاصية حتى أنك قد تأخذ عنقودًا من

العنب فيكون جميع حباته حلوة نضيجة إلا حبة واحدة فإنها بقيت حامضة يابسة، ونحن نعلم بالضرورة أن نسبة الطباع والأفلاك للكل على السوية، بل نقول: هاهنا ما هو أعجب منه، وهو أنه يوجد في بعض أنواع الورد ما يكون أحد وجهيه في غاية الحمرة، والوجه الثاني في غاية السواد مع أن ذلك الورد يكون في غاية الرقة والنعومة فيستحيل أن يقال: وصل تأثير الشمس إلى أحد طرفيه دون الثاني، وهذا يدل دلالة قطعية على أن الكل بتدبير الفاعل المختار، لا بسبب الاتصالات الفلكية وهو المراد من قوله سبحانه وتعالى: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ فهذا تمام الكلام في تقرير هذه الحجة وتفسيرها وبيانها.

واعلم أن بذكر هذا الجواب قد تمت الحجة فإن هذه الحوادث السفلية لا بد لها من مؤثر وبينا أن ذلك المؤثر ليس هو الكواكب والأفلاك والطبائع فعند هذا يجب القطع بأنه لا بد من فاعل آخر سوى هذه الأشياء، وعندها يتم الدليل، ولا يبقى بعده للفكر مقام ألبتة، فلهذا السبب قال هاهنا: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ لأنه لا دافع لهذه الحجة إلا أن يقال: إن هذه الحوادث السفلية حدثت لا لمؤثر ألبتة وذلك يقدح في كمال العقل، لأن العلم بافتقار الحادث إلى المحدث لما كان علمًا ضروريًا كان عدم حصول هذا العلم قادحًا في كمال العقل فلهذا قال: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ وقال في الآية المتقدمة: ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ [الرعد: ٣] فهذه اللطائف نفيسة من أسرار علم القرآن ونسأل الله العظيم أن يجعل الوقوف عليها سببًا للفوز بالرحمة والغفران.

المسألة الثانية: قوله: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ قال أبو بكر الأصم: أرض قريبة من أرض أخرى واحدة طيبة، وأخرى سبخة، وأخرى حرة، وأخرى رملة، وأخرى تكون حصباء، وأخرى تكون حمراء، وأخرى تكون سوداء. وبالجملة فاختلاف بقاع الأرض في الارتفاع والانخفاض والطباع والخاصية أمر معلوم، وفي بعض المصاحف (قطعًا متجاورات) والتقدير: وجعل فيها رواسي وجعل في الأرض قطعًا متجاورات. وأما قوله: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ فنقول: الجنة البستان الذي يحصل فيه النخل والكرم والزرع وتحفه تلك الأشجار والدليل عليه قوله تعالى: ﴿جَعَلْنَا لِأَحَدِهِمَا جَنَّتَيْنِ مِنْ أَعْنَٰبٍ وَحَفَفْنَٰهُمَا بِنَخْلٍ وَجَعَلْنَا بَيْنَهُمَا زَرْعًا﴾ [الكهف: ٣٢] قرأ ابن كثير وأبو عمرو وحفص عن عاصم: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ كلها بالرفع عطفًا على قوله (وجنات) والباقون بالجر عطفًا على الأعناب. وقرأ حفص عن عاصم في رواية القواس: (صنوان) بضم الصاد والباقون بكسر الصاد وهما لغتان، والصنوان جمع صنو مثل قنوان وقنو ويجمع على أصناء مثل اسم وأسماء. فإذا كثرت فهو الصني، والصني بكسر الصاد وفتحها، والصنو أن يكون الأصل واحدًا وتنبت فيه النخلتان والثلاثة فأكثر فكل واحدة صنو. وذكر ثعلب عن ابن الأعرابي: الصنو: المثل، ومنه قوله ﷺ: «أَلاَ إِنَّ عَمَّ الرَّجُلِ صِنْوُ أَبِيهِ» أي مثله.

إذا عرفت هذا فنقول: إذا فسرنا الصنو بالتفسير الأول كان المعنى: أن النخيل منها ما ينبت من أصل واحد شجرتان وأكثر ومنها ما لا يكون كذلك، وإذا فسرناه بالتفسير الثاني كان المعنى: أن أشجار النخيل قد تكون متماثلة متشابهة، وقد لا تكون كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿تُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ قرأ عاصم وابن عامر ﴿يُسْقَىٰ﴾ بالياء على تقدير يسقى كله أو لتغليب المذكر على المؤنث، والباقون بالتاء لقوله: (جنات) قال أبو عمرو: ومما يشهد للتأنيث قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قرأ حمزة والكسائي (يفضل) بالياء عطفًا على قوله: ﴿يُدَبِّرُ﴾ [الرعد: ٢] و﴿يُفَصِّلُ﴾ [الرعد: ٢]، و﴿يُغْشِى﴾ [الرعد: ٣]، والباقون بالنون على تقدير: ونحن نفضل، و﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ قولان: حكاهما الواحدي حكي عن الزجاج أن الأُكل: الثمر الذي يؤكل، وحكى عن غيره أن الأكل: المهيأ للأكل، وأقول: هذا أولى لقوله تعالى في صفة الجنة: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ [الرعد: ٣٥] وهو عام في جميع المطعومات وابن كثير ونافع يقرآن الأكل ساكنة الكاف في جميع القرآن، والباقون بضم الكاف، وهما لغتان.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾

فيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر الدلائل القاهرة على ما يحتاج إليه في معرفة المبدأ، ذكر بعده مسألة المعاد فقال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: قال ابن عباس - رضي الله عنهما: إن تعجب من تكذيبهم إياك بعد ما كانوا قد حكموا عليك أنك من الصادقين فهذا عجب. والثاني: إن تعجب يا محمد من عبادتهم ما لا يملك لهم نفعًا ولا ضرًا بعد ما عرفوا الدلائل الدالة على التوحيد فهذا عجب. والثالث: تقدير الكلام إن تعجب يا محمد فقد عجبت في موضع العجب لأنهم لما اعترفوا بأنه تعالى مدبر السموات والأرض وخالق الخلائق أجمعين، وأنه هو الذي رفع السموات بغير عمد، وهو الذي سخر الشمس والقمر على وفق مصالح العباد، وهو الذي أظهر في العالم أنواع العجائب والغرائب، فمن كانت قدرته وافية بهذه الأشياء العظيمة كيف لا تكون وافية بإعادة الإنسان بعد موته، لأن القادر على الأقوى الأكمل فأن يكون قادرًا على الأقل الأضعف أولى، فهذا تقرير موضع التعجب.

ثم إنه تعالى لما حكى هذا الكلام حكم عليهم بثلاثة أشياء: أولها: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ

كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ﴾ وهذا يدل على أن كل من أنكر البعث والقيامة فهو كافر، وإنما لزم من إنكار البعث الكفر بربهم من حيث إن إنكار البعث لا يتم إلا بإنكار القدرة والعلم والصدق أما إنكار القدرة فكما إذا قيل: إن إله العالم موجب بالذات لا فاعل بالاختيار فلا يقدر على الإعادة. أو قيل: إنه وإن كان قادرًا لكنه ليس تام القدرة، فلا يمكنه إيجاد الحيوان إلا بواسطة الأبوين وتأثيرات الطبائع والأفلاك، وأما إنكار العلم فكما إذا قيل: إنه تعالى غير عالم بالجزئيات، فلا يمكنه تمييز هذا المطيع عن العاصي وأما إنكار الصدق فكما إذا قيل: إنه وإن أخبر عنه لكنه لا يفعل لأن الكذب جائز عليه ولما كان كل هذه الأشياء كفرًا ثبت أن إنكار البعث كفر بالله.

الصفة الثانية: قوله: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ﴾ وفيه قولان: الأول: قال أبو بكر الأصم: المراد بالأغلال: كفرهم وذلتهم وانقيادهم للأصنام، ونظيره قوله تعالى: ﴿إِنَّا جَعَلۡنَا فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ أَغۡلَٰلٗا﴾ [يس: ٨] قال الشاعر:

لَـهُـمْ عَـنِ الـرُّشْـدِ أَغْـلَالٌ وَأَقْـيَـادُ

ويقال للرجل: هذا غل في عنقك للعمل الرديء معناه: أنه لازم لك وأنك مجازى عليه بالعذاب. قال القاضي: هذا وإن كان محتملاً إلا أن حمل الكلام على الحقيقة أولى، وأقول: يمكن نصرة قول الأصم بأن ظاهر الآية يقتضي حصول الأغلال في أعناقهم في الحال وذلك غير حاصل وأنتم تحملون اللفظ على أنه سيحصل هذا المعنى ونحن نحمله على أنه حاصل في الحال إلا أن المراد بالأغلال ما ذكرناه، فكل واحد منا تارك للحقيقة من بعض الوجوه فلم كان قولكم أولى من قولنا؟

والقول الثاني: المراد أنه تعالى يجعل الأغلال في أعناقهم يوم القيامة، والدليل عليه قوله تعالى: ﴿إِذِ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَٰقِهِمۡ وَٱلسَّلَٰسِلُ يُسۡحَبُونَ ٧١ فِي ٱلۡحَمِيمِ ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسۡجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١، ٧٢].

والصفة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ والمراد منه التهديد بالعذاب المخلد المؤبد، واحتج أصحابنا رحمهم الله تعالى على أن العذاب المخلد ليس إلا للكفار بهذه الآية فقالوا: قوله: ﴿هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ يفيد أنهم هم الموصوفون بالخلود لا غيرهم، وذلك يدل على أن أهل الكبائر لا يخلدون في النار.

المسألة الثانية: قال المتكلمون العجب هو الذي لا يعرف سببه وذلك في حق الله تعالى محال، فكان المراد وإن تعجب فعجب عندك.

ولقائل أن يقول: قرأ بعضهم في الآية الأخرى بإضافة العجب إلى نفسه تعالى فحينئذ يجب تأويله وقد بينا أن أمثال هذه الألفاظ يجب تنزيهها عن مبادىء الأعراض، ويجب حملها على نهايات الأعراض فإن الإنسان إذا تعجب من الشيء أنكره فكان هذا محمولاً على الإنكار.

المسألة الثالثة: اختلف القراء في قوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ﴾ وأمثاله إذا كان

على صورة الاستفهام في الأول والثاني فمنهم من يجمع بين الاستفهامين في الحرفين وهم ابن كثير وأبو عمرو وعاصم وحمزة، ثم اختلف هؤلاء فابن كثير يستفهم بهمزة واحدة إلا أنه لا يمد، وأبو عمرو يستفهم بهمزة مطولة يمد فيها وحمزة وعاصم بهمزتين في كل القرآن، ومنهم من لا يجمع بين الاستفهامين، ثم اختلفوا فنافع وابن عامر (١) والكسائي يستفهم في الأول ويقرأ على الخبر في الثاني، وابن عامر على الخبر في الأول والاستفهام في الثاني، ثم اختلف هؤلاء من وجه آخر فنافع بهمزة غير مطولة وابن عامر والكسائي بهمزتين أما نافع فكذلك إلا في الصافات وكذلك ابن عامر إلا في الواقعة، وكذلك الكسائي إلا في العنكبوت والصافات.

المسألة الرابعة: قال الزجاج: العامل في ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ محذوف تقديره: أئذا كنا ترابًا نبعث، ودل ما بعده على المحذوف.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

اعلم أنه ﷺ كان يهددهم تارة بعذاب القيامة وتارة بعذاب الدنيا، والقوم كلما هددهم بعذاب القيامة أنكروا القيامة والبعث والحشر والنشر وهو الذي تقدم ذكره في الآية الأولى وكلما هددهم بعذاب الدنيا قالوا له: فجئنا بهذا العذاب وطلبوا منه إظهاره وإنزاله على سبيل الطعن فيه، وإظهار أن الذي يقوله كلام لا أصل له فلهذا السبب حكى الله عنهم أنهم يستعجلون الرسول بالسيئة قبل الحسنة والمراد بالسيئة هاهنا نزول العذاب عليهم كما قال الله تعالى عنهم في قوله: ﴿فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً﴾ [الأنفال: ٣٢] وفي قوله: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ ٱلْأَرْضِ يَنۢبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] إلى قوله: ﴿أَوْ تُسْقِطَ ٱلسَّمَآءَ كَمَا زَعَمْتَ عَلَيْنَا كِسَفًا﴾ [الإسراء: ٩٢] وإنما قالوا ذلك طعنًا منهم فيما ذكره الرسول، وكان ﷺ يعدهم على الإيمان بالثواب في الآخرة وبحصول النصر والظفر في الدنيا فالقوم طلبوا منه نزول العذاب ولم يطلبوا منه حصول النصر والظفر فهذا هو المراد بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ ومنهم من فسر الحسنة هاهنا بالإمهال والتأخير وإنما سموا العذاب سيئة لأنه يسوءهم ويؤذيهم.

أما قوله: ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ﴾ فاعلم أن العرب يقولون: العقوبة مثلة ومثلة صدقة وصدقة، فالأولى لغة الحجاز، والثانية لغة تميم، فمن قال مَثُلة: فجمعه مَثُلات، ومن قال مُثْلة فجمعه مَثْلات ومُثْلات بإسكان الثاء، هكذا حكاه الفراء والزجاج، وقال ابن الأنباري رحمه الله: المثلة العقوبة المبينة في المعاقب شيئًا، وهو تغيير تبقى الصورة معه قبيحة، وهو من قولهم، مَثَّلَ فلانٌ بفلان إذا قبّح صورته إما بقطع أذنه أو أنفه أو سمل عينيه أو بقر بطنه فهذا

(١) كذا في الأصل المطبوع ولعل قوله (وابن عامر) مكرر هنا لأنه قال بعدها (وابن عامر على الخبر الأول... إلخ) لئلا يلزم التناقض في قراءة ابن عامر ومن المحتمل أن ابن عامر كان يقرأ على الوجهين.

هو الأصل، ثم يقال للعار الباقي، والخزي اللازم مثلة. قال الواحدي: وأصل هذا الحرف من المثل الذي هو الشبه، ولما كان الأصل أن يكون العقاب مشابهًا للمعاقب ومماثلاً له لا جرم سمي بهذا الاسم. قال صاحب (الكشاف): قرىء (المُثُلات) بضمتين لاتباع الفاء العين، (والمَثْلات) بفتح الميم وسكون الثاء كما يقال: السمرة، والمُثْلات، بضم الميم وسكون الثاء تخفيف المثلات بضمتين، والمثلات جمع مثلة كركبة وركبات.

إذا عرفت هذا فنقول معنى الآية: ويستعجلونك بالعذاب الذي لم نعاجلهم به، وقد علموا ما نزل من عقوباتنا بالأمم الخالية فلم يعتبروا بها، وكان ينبغي أن يردعهم خوف ذلك عن الكفر اعتبارًا بحال من سلف.

أما قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ فاعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية على أنه تعالى قد يعفو عن صاحب الكبيرة قبل التوبة، ووجه الاستدلال به أن قوله تعالى: ﴿لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أي حال اشتغالهم بالظلم كما أنه يقال: رأيت الأمير على أكله أي حال اشتغاله بالأكل فهذا يقتضي كونه تعالى غافرًا للناس حال اشتغالهم بالظلم، ومعلوم أن حال اشتغال الإنسان بالظلم لا يكون تائبًا فدل هذا على أنه تعالى قد يغفر الذنب قبل الاشتغال بالتوبة. ثم نقول: ترك العمل بهذا الدليل في حق أهل الكفر، فوجب أن يبقى معمولاً به في حق أهل الكبيرة وهو المطلوب، أو نقول: إنه تعالى لم يقتصر على قوله: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ بل ذكر معه قوله ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ فوجب أن يحمل الأول على أصحاب الكبائر، وأن يحمل الثاني على أحوال الكفار.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يكون المراد: لذو مغفرة لأهل الصغائر لأجل أن عقوبتهم مكفرة ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: إن ربك لذو مغفرة إذا تابوا وأنه تعالى إنما لا يعجل العقاب إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة لهم ويكون من هذه المغفرة تأخير العقاب إلى الآخرة بل نقول: يجب حمل اللفظ عليه لأن القوم لما طلبوا تعجيل العقاب، فالجواب المذكور فيه يجب أن يكون محمولاً على تأخير العقاب حتى ينطبق الجواب على السؤال ثم نقول: لم لا يجوز أن يكون المراد: وإن ربك لذو مغفرة أنه تعالى إنما لا يعجل العقوبة إمهالاً لهم في الإتيان بالتوبة، فإن تابوا فهو ذو مغفرة، وإن عظم ظلمهم ولم يتوبوا فهو شديد العقاب.

والجواب عن الأول: أن تأخير العقاب لا يسمى مغفرة، وإلا لوجب أن يقال: الكفار كلهم مغفور لهم لأجل أن الله تعالى أخر عقابهم إلى الآخرة، وعن الثاني: أنه تعالى تمدح بهذا، والتمدح إنما يحصل بالتفضل. أما بأداء الواجب فلا تمدح فيه وعندكم يجب غفران الصغائر وعن الثالث: أنا بينَّا أن ظاهر الآية يقتضي حصول المغفرة حال الظلم، وبينا أن حال حصول الظلم يمنع حصول التوبة، فسقطت هذه الأسئلة وصح ما ذكرناه.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ ۝٧﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن الكفار أنهم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في الحشر والنشر أولاً، ثم طعنوا في نبوته بسبب طعنهم في صحة ما ينذرهم به من نزول عذاب الاستئصال ثانيًا، ثم طعنوا في نبوته بأن طلبوا منه المعجزة والبينة ثالثًا، وهو المذكور في هذه الآية.

واعلم أن السبب فيه: أنهم أنكروا كون القرآن من جنس المعجزات وقالوا: هذا كتاب مثل سائر الكتب، وإتيان الإنسان بتصنيف معين وكتاب معين لا يكون معجزًا ألبتة، وإنما المعجز ما يكون مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام.

واعلم أن من الناس من زعم أنه لم يظهر معجز في صدق محمد عليه الصلاة والسلام سوى القرآن. قالوا: إن هذا الكلام، إنما يصح إذا طعنوا في كون القرآن معجزًا، مع أنه ما ظهر عليه نوع آخر من المعجزات، لأن بتقدير أن يكون قد ظهر على يده نوع آخر من المعجزات لامتنع أن يقولوا: ﴿لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٞ مِّن رَّبِّهِۦٓۗ﴾ فهذا يدل على أنه عليه السلام ما كان له معجز سوى القرآن.

واعلم أن الجواب عنه من وجهين: الأول: لعل المراد منه طلب معجزات سوى المعجزات التي شاهدوها منه ﷺ كحنين الجذع ونبوع الماء من بين أصابعه وإشباع الخلق الكثير من الطعام القليل، فطلبوا منه معجزات قاهرة غير هذه الأمور: مثل فلق البحر بالعصا، وقلب العصا ثعبانًا.

فإن قيل: فما السبب في أن الله تعالى منعهم وما أعطاهم؟

قلنا: إنه لما أظهر المعجزة الواحدة فقد تم الغرض فيكون طلب الباقي تحكمًا وظهور القرآن معجزة، فما كان مع ذلك حاجة إلى سائر المعجزات، وأيضًا فلعله تعالى علم أنهم يصرون على العناد بعد ظهور تلك المعجزات الملتمسة، وكانوا يصيرون حينئذ مستوجبين لعذاب الاستئصال، فلهذا السبب ما أعطاهم الله تعالى مطلوبهم، وقد بين الله تعالى ذلك بقوله: ﴿وَلَوۡ عَلِمَ ٱللَّهُ فِيهِمۡ خَيۡرٗا لَّأَسۡمَعَهُمۡۖ وَلَوۡ أَسۡمَعَهُمۡ لَتَوَلَّواْ وَّهُم مُّعۡرِضُونَ﴾ [الأنفال: ٢٣] بين أنه لم يعطهم مطلوبهم لعلمه تعالى أنهم لا ينتفعون به، وأيضًا ففتح هذا الباب يفضي إلى ما لا نهاية له. وهو أنه كلما أتى بمعجزة جاء واحد آخر، فطلب منه معجزة أخرى، وذلك يوجب سقوط دعوة الأنبياء عليهم السلام، وأنه باطل.

الوجه الثاني: في الجواب لعل الكفار ذكروا هذا الكلام قبل مشاهدة سائر المعجزات. ثم إنه تعالى لما حكى عن الكفار ذلك قال: ﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٞۖ وَلِكُلِّ قَوۡمٍ هَادٍ﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اتفق القراء على التنوين في قوله: ﴿هَادٍ﴾ وحذف الياء في الوصل،

واختلفوا في الوقف، فقرأ ابن كثير: بالوقف على الياء، والباقون: بغير الياء، وهو رواية ابن فليح عن ابن كثير للتخفيف.

المسألة الثانية: في تفسير هذه الآية وجوه. **الأول**: المراد أن الرسول عليه السلام منذر لقومه مبين لهم، ولكل قوم من قبله هاد ومنذر وداع، وأنه تعالى سوى بين الكل في إظهار المعجزة إلا أنه كان لكل قوم طريق مخصوص لأجله استحق التخصيص بتلك المعجزة المخصوصة، فلما كان الغالب في زمان موسى عليه السلام هو السحر جعل معجزته ما هو أقرب إلى طريقتهم، ولما كان الغالب في أيام عيسى عليه السلام الطب، جعل معجزته ما كان من جنس تلك الطريقة وهو إحياء الموتى وإبراء الأكمه والأبرص، ولما كان الغالب في أيام الرسول ﷺ الفصاحة والبلاغة جعل معجزته ما كان لائقًا بذلك الزمان وهو فصاحة القرآن فلما كان العرب لم يؤمنوا بهذه المعجزة مع كونها أليق بطباعهم فبأن لا يؤمنوا عند إظهار سائر المعجزات أولى فهذا هو الذي قرره القاضي وهو الوجه الصحيح الذي يبقى الكلام معه منتظمًا.

والوجه الثاني: وهو أن المعنى أنهم لا يجحدون كون القرآن معجزًا فلا يضيق قلبك بسببه إنما أنت منذر فما عليك إلا أن تنذر إلى أن يحصل الإيمان في صدورهم ولست بقادر عليهم، ولكل قوم هاد، قادر على هدايتهم بالتخليق وهو الله سبحانه وتعالى فيكون المعنى ليس لك إلا الإنذار، وأما الهداية فمن الله تعالى.

واعلم أن أهل الظاهر من المفسرين ذكروا هاهنا أقوالاً: الأول: المنذر والهادي شيء واحد والتقدير: إنما أنت منذر ولكل قوم منذر على حدة ومعجزة كل واحد منهم غير معجزة الآخر. الثاني: المنذر محمد ﷺ والهادي هو الله تعالى روي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما وسعيد بن جبير، ومجاهد، والضحاك. والثالث: المنذر: النبي. والهادي: علي. قال ابن عباس رضي الله عنهما: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره فقال: «**أَنَا الْمُنْذِرُ**» ثم أومأ إلى منكب علي رضي الله عنه وقال: «**أَنْتَ الْهَادِي يَا عَلِيُّ بِكَ يَهْتَدِي المهتدون من بعدي**»(١).

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَىْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾ سَوَآءٌ

---

(١) موضوع: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٣٥٧) حديث رقم/ ٢٠١٦١، وابن الأعرابي في (معجمه) (٥/ ٢٧٥) حديث رقم/ ٢٢٦٧، وابن عساكر في (تاريخ دمشق) (٤٢/ ٣٥٩)، جميعا من طريق معاذ بن مسلم عن عطاء بن السائب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس. . . به، وأورده الذهبي في (ميزان الأعتدال) (١/ ٤٨٤)، من طريق الحسن بن الحسين الأنصاري عن معاذ بن مسلم. . . وساقه، وقال: ومعاذ نكرة فلعل الآفة منه، وأورده ابن كثير في (تفسيره) (٢/ ٥٠٣)، وقال: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة، وأورده الألباني في (الضعيفة) (٤٨٩٩)، وقال: موضوع.

﴿مِنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

في الآية مسائل:

المسألة الأولى: في وجه النظم وجوه: الأول: أنه تعالى لما حكى عنهم أنهم طلبوا آيات أخرى غير ما أتى به الرسول ﷺ بين أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فيعلم من حالهم أنهم هل طلبوا الآية الأخرى للاسترشاد وطلب البيان أو لأجل التعنت والعناد، وهل ينتفعون بظهور تلك الآيات، أو يزداد إصرارهم واستكبارهم، فلو علم تعالى أنهم طلبوا ذلك لأجل الاسترشاد وطلب البيان ومزيد الفائدة، لأظهره الله تعالى وما منعهم عنه، لكنه تعالى لما علم أنهم لم يقولوا ذلك إلا لأجل محض العناد لا جرم أنه تعالى منعهم عن ذلك وهو كقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَقُلْ إِنَّمَا ٱلْغَيْبُ لِلَّهِ فَٱنتَظِرُوٓاْ﴾ [يونس: ٢٠] وقوله: ﴿قُلْ إِنَّمَا ٱلْءَايَٰتُ عِندَ ٱللَّهِ﴾ [العنكبوت: ٥٠]. والثاني: أن وجه النظم أنه تعالى لما قال: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ [الرعد: ٥] في إنكار البعث وذلك لأنهم أنكروا البعث بسبب أن أجزاء أبدان الحيوانات عند تفرقها وتفتتها يختلط بعضها ببعض ولا يبقى الامتياز فبين تعالى أنه إنما لا يبقى الامتياز في حق من لا يكون عالمًا بجميع المعلومات، أما في حق من كان عالمًا بجميع المعلومات، فإنه يبقى تلك الأجزاء بحيث يمتاز بعضها عن البعض، ثم احتج على كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات بأنه يعلم ما تحمل كل أنثى وما تغيض الأرحام. الثالث: أن هذا متصل بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] والمعنى: أنه تعالى عالم بجميع المعلومات فهو تعالى إنما ينزل العذاب بحسب ما يعلم كونه فيه مصلحة، والله أعلم.

المسألة الثانية: لفظ (ما) في قوله: ﴿مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ إما أن تكون موصولة وإما أن تكون مصدرية، فإن كانت موصولة، فالمعنى أنه يعلم ما تحمله من الولد أنه من أي الأقسام أهو ذكر أم أنثى وتام أو ناقص وحسن أو قبيح وطويل أو قصير وغير ذلك من الأحوال الحاضرة والمترقبة فيه.

ثم قال: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ﴾ والغيض هو النقصان سواء كان لازمًا أو متعديًا يقال: غاض الماء وغضته أنا ومنه قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلْمَآءُ﴾ [هود: ٤٤] والمراد من الآية وما تغيضه الأرحام إلا أنه حذف الضمير الراجع وقوله: ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ أي تأخذه زيادة تقول: أخذت منه حقي وازددت منه كذا، ومنه قوله تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥] ثم اختلفوا فيما تغيضه الرحم وتزداده على وجوه. الأول: عدد الولد فإن الرحم قد يشتمل على واحد واثنين وعلى ثلاثة وأربعة يروى أن شريكًا كان رابع أربعة في بطن أمه. الثاني: الولد قد يكون مخدجًا، وقد يكون تامًا. الثالث: مدة ولادته قد تكون تسعة أشهر وأزيد عليها إلى سنتين عند أبي حنيفة رحمه الله

تعالى، وإلى أربعة عند الشافعي وإلى خمس عند مالك، وقيل: إن الضحاك ولد لسنتين، وهرم بن حيان بقي في بطن أمه أربع سنين ولذلك سمي هرمًا. الرابع: الدم فإنه تارة يقل وتارة يكثر. الخامس: ما ينقص بالسقط من غير أن يتم وما يزداد بالتمام. السادس: ما ينقص بظهور دم الحيض، وذلك لأنه إذا سال الدم في وقت الحمل ضعف الولد ونقص. وبمقدار حصول ذلك النقصان يزداد أيام الحمل لتصير هذه الزيادة جابرة لذلك النقصان قال ابن عباس رضي الله عنهما: كلما سال الحيض في وقت الحمل يومًا زاد في مدة الحمل يومًا ليحصل به الجبر ويعتدل الأمر. السابع: أن دم الحيض فضلة تجتمع في بطن المرأة فإذا امتلأت عروقها من تلك الفضلات فاضت وخرجت، وسالت من دواخل تلك العروق، ثم إذا سالت تلك المواد امتلأت تلك العروق مرة أخرى هذا كله إذا قلنا إن كلمة (ما) موصولة. أما إذا قلنا: إنها مصدرية فالمعنى: أنه تعالى يعلم حمل كل أنثى ويعلم غيض الأرحام وازديادها لا يخفى عليه شيء من ذلك ولا من أوقاته وأحواله.

وأما قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ فمعناه: بقدر واحد لا يجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] وقوله في أول الفرقان: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ [الفرقان: ٢].

واعلم أن قوله: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ يحتمل أن يكون المراد من العندية العلم ومعناه: أنه تعالى يعلم كمية كل شيء وكيفيته على الوجه المفصل المبين ومتى كان الأمر كذلك امتنع وقوع التغيير في تلك المعلومات ويحتمل أن يكون المراد من العندية أنه تعالى خصص كل حادث بوقت معين وحالة معينة بمشيئته الأزلية وإرادته السرمدية، وعند حكماء الإسلام أنه تعالى وضع أشياء كلية وأودع فيها قوى وخواص، وحركها بحيث يلزم من حركاتها المقدرة بالمقادير المخصوصة أحوال جزئية معينة ومناسبات مخصوصة مقدرة، ويدخل في هذه الآية أفعال العباد وأحوالهم وخواطرهم، وهو من أدل الدلائل على بطلان قول المعتزلة.

ثم قال تعالى: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد علم ما غاب عنه خلقه وما شهدوه. قال الواحدي: فعلى هذا (الغيب) مصدر يريد به الغائب، (والشهادة) أراد بها الشاهد. واختلفوا في المراد بالغائب والشاهد. قال بعضهم: الغائب هو المعلوم، والشاهد هو الموجود، وقال آخرون: الغائب ما غاب عن الحس، والشاهد ما حضر، وقال آخرون: الغائب ما لا يعرفه الخلق، والشاهد ما يعرفه الخلق. ونقول: المعلومات قسمان: المعدومات والموجودات، والمعدومات منها معدومات يمتنع وجودها ومنها معدومات لا يمتنع وجودها، والموجودات أيضًا قسمان: موجودات يمتنع عدمها، وموجودات لا يمتنع عدمها، وكل واحد من هذه الأقسام الأربعة له أحكام وخواص، والكل معلوم لله تعالى، وحكى الشيخ الإمام الوالد عن أبي القاسم الأنصاري عن إمام الحرمين - رحمهم الله تعالى - أنه كان يقول لله تعالى

معلومات لا نهاية لها، وله في كل واحد من تلك المعلومات، معلومات أخرى لا نهاية لها، لأن الجوهر الفرد يعلم الله تعالى من حاله أنه يمكن وقوعه في أحياز لا نهاية لها على البدل وموصوفًا بصفات لا نهاية لها على البدل، وهو تعالى عالم بكل الأحوال على التفصيل، وكل هذه الأقسام داخل تحت قوله تعالى: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ .

ثم إنه تعالى ذكر عقيبه قوله: ﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ وهو تعالى يمتنع أن يكون كبيرًا بحسب الجثة والحجم والمقدار، فوجب أن يكون كبيرًا بحسب القدرة والمقادير الإلهية ثم وصف تعالى نفسه بأنه المتعال وهو المتنزه عن كل ما لا يجوز عليه وذلك يدل على كونه منزهًا في ذاته وصفاته وأفعاله فهذه الآية دالة على كونه تعالى موصوفًا بالعلم الكامل والقدرة التامة، ومنزهًا عن كل ما لا ينبغي، وذلك يدل على كونه تعالى قادرًا على البعث الذي أنكروه وعلى الآيات التي اقترحوها وعلى العذاب الذي استعجلوه، وأنه إنما يؤخر ذلك بحسب المشيئة الإلهية عند قوم وبحسب المصلحة عند آخرين، وقرأ ابن كثير (المتعالي) بإثبات الياء في الوقف والوصل على الأصل. والباقون بحذف الياء في الحالتين للتخفيف ثم إنه تعالى أكد بيان كونه عالمًا بكل المعلومات فقال: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: لفظ (سواء) يطلب اثنين تقول سواء زيد وعمرو ثم فيه وجهان: الأول: أن سواء مصدر والمعنى: ذو سواء كما تقول: عدل زيد وعمرو أي ذوا عدل. الثاني: أن يكون سواء بمعنى مستو وعلى هذا التقدير فلا حاجة إلى الإضمار إلا أن سيبويه يستقبح أن يقول مستو زيد وعمرو لأن أسماء الفاعلين إذا كانت نكرات لا يبدأ بها.

ولقائل أن يقول: بل هذا الوجه أولى لأن حمل الكلام عليه يغني عن التزام الإضمار الذي هو خلاف الأصل.

المسألة الثانية: في المستخفي والسارب قولان:

القول الأول: يقال: أخفيت الشيء أخفيه إخفاء فخفي واستخفى فلان من فلان أي توارى واستتر. وقوله: ﴿وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ قال الفراء والزجاج: ظاهر بالنهار في سربه أي طريقه. يقال: خلا له سربه، أي طريقه. وقال الأزهري: تقول العرب سربت الإبل تسرب سربًا، أي مضت في الأرض ظاهرة حيث شاءت، فإذا عرفت ذلك فمعنى الآية سواء كان الإنسان مستخفيًا في الظلمات أو كان ظاهرًا في الطرقات، فعلم الله تعالى محيط بالكل. قال ابن عباس رضي الله عنهما: سواء ما أضمرته القلوب وأظهرته الألسنة. وقال مجاهد: سواء من يقدم على القبائح في ظلمات الليالي، ومن يأتي بها في النهار الظاهر على سبيل التوالي.

والقول الثاني: نقله الواحدي عن الأخفش وقطرب أنه قال: المستخفي الظاهر والسارب المتواري ومنه يقال: خفيت الشيء وأخفيته أي أظهرته. واختفيت الشيء استخرجته ويسمى

النباش المستخفي والسارب المتواري ومنه يقال: للداخل سربًا، والسرب الوحش إذا دخل في السرب أي في كناسة. قال الواحدي: وهذا الوجه صحيح في اللغة، إلا أن الاختيار هو الوجه الأول لاطباق أكثر المفسرين عليه، وأيضًا فالليل يدل على الاستتار، والنهار على الظهور والانتشار.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

اعلم أن الضمير في (له) عائد إلى (من) في قوله: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ [الرعد: ١٠] وقيل على اسم الله في عالم الغيب والشهادة، والمعنى: لله معقبات، وأما المعقبات فيجوز أن يكون أصل هذه الكلمة معتقبات فأدغمت التاء في القاف كقوله: ﴿وَجَآءَ ٱلۡمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلۡأَعۡرَابِ﴾ [التوبة: ٩٠] والمراد المعتذرون ويجوز أن يكون من عقبه إذا جاء على عقبه فاسم المعقب من كل شيء ما خلف يعقب ما قبله، والمعنى في كلا الوجهين واحد.

إذا عرفت هذا فنقول: في المراد بالمعقبات قولان. الأول: وهو المشهور الذي عليه الجمهور أن المراد منه الملائكة الحفظة وإنما صح وصفهم بالمعقبات، إما لأجل أن ملائكة الليل تعقب ملائكة النهار وبالعكس، وإما لأجل أنهم يتعقبون أعمال العباد ويتبعونها بالحفظ والكتب، وكل من عمل عملاً ثم عاد إليه فقد عقب، فعلى هذا المراد من المعقبات ملائكة الليل وملائكة النهار. روي عن عثمان رضي الله عنه أنه قال: يا رسول الله أخبرني عن العبد كم معه من ملك فقال عليه السلام: «**مَلَكٌ عَنْ يَمِينِكَ يَكْتُبُ الْحَسَنَاتِ وَهُوَ أَمِينٌ عَلَى الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ فَإِذَا عَمِلْتَ حَسَنَةً كُتِبَتْ عَشْرًا، وَإِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً قَالَ الَّذِي عَلَى الشِّمَالِ لِصَاحِبِ الْيَمِينِ أَكْتُبُ؟ فَيَقُولُ لاَ لَعَلَّهُ يَتُوبُ فَإِذَا قَالَ ثَلاَثًا قَالَ نَعَمْ اكْتُبْ أَرَاحَنَا اللَّهُ مِنْهُ فَبِئْسَ الْقَرِينُ مَا أَقَلَّ مُرَاقَبَتَهُ لِلَّهِ تَعَالَى وَاسْتِحْيَاءَهُ مِنَّا، وَمَلَكَانِ مِنْ بَيْنِ يَدَيْكَ وَمِنْ خَلْفِكَ فَهُوَ قَوْلُهُ تَعَالَى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٞ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ وَمَلَكٌ قَابِضٌ عَلَى نَاصِيَتِكَ فَإِذَا تَوَاضَعْتَ لِرَبِّكَ رَفَعَكَ وَإِنْ تَجَبَّرْتَ قَصَمَكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى شَفَتَيْكَ يَحْفَظَانِ عَلَيْكَ الصَّلاَةَ عَلَيَّ، وَمَلَكٌ عَلَى فِيكَ لاَ يَدَعُ أَنْ تَدْخُلَ الْحَيَّةُ فِي فِيكَ، وَمَلَكَانِ عَلَى عَيْنَيْكَ فَهَؤُلاَءِ عَشَرَةُ أَمْلاَكٍ عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ تُبَدَّلُ مَلاَئِكَةُ اللَّيْلِ بِمَلاَئِكَةِ النَّهَارِ فَهُمْ عِشْرُونَ مَلَكًا عَلَى كُلِّ آدَمِيٍّ**»(١) وعنه ﷺ: «**يَتَعَاقَبُ فِيكُمْ مَلاَئِكَةٌ بِاللَّيْلِ وَمَلاَئِكَةٌ بِالنَّهَارِ وَيَجْتَمِعُونَ فِي صَلاَةِ الصُّبْحِ وَصَلاَةِ**

---

(١) الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٣٧٠) حديث رقم/ ٢٠٢١١، من طريق حماد بن سلمة عن عبد الحميد بن جعفر عن كنانة العدوي قال دخل عثمان بن عفان علي رسول الله ﷺ... فذكره، وابن أبي الدنيا في (المرضي والكفارات) (١/ ١٩٢) حديث رقم/ ٢٤٨، من طريق حماد بن سلمة عن أبي عمران. فذكره مرفوعا، وأخرجه هناد في (الزهد) (٢/ ٤٦٢) حديث رقم/ ٩٢٠، من طريق حماد بن سلمة عن جعفر بن الزبير عن القاسم عن أبي امامة... به.

الْعَصْرِ»(١) وهو المراد من قوله: ﴿وَقُرْءَانَ ٱلْفَجْرِۖ إِنَّ قُرْءَانَ ٱلْفَجْرِ كَانَ مَشْهُودًا﴾ [الإسراء: ٧٨] قيل: تصعد ملائكة الليل وهي عشرة وتنزل ملائكة النهار، وقال ابن جريج: هو مثل قوله تعالى: ﴿عَنِ ٱلْيَمِينِ وَعَنِ ٱلشِّمَالِ قَعِيدٌ﴾ [ق: ١٧] صاحب اليمين يكتب الحسنات والذي عن يساره يكتب السيئات. وقال مجاهد: ما من عبد إلا وله ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته. وفي الآية سؤالات:

السؤال الأول: الملائكة ذكور، فلم ذكر في جمعها جمع الإناث وهو المعقبات؟

والجواب: فيه قولان.

الأول: قال الفراء: المعقبات ذكران جمع ملائكة معقبة، ثم جمعت معقبة بمعقبات، كما قيل: ابناوات سعد ورجالات بكر جمع رجال، والذي يدل على التذكير قوله: ﴿يَحْفَظُونَهُۥ﴾.

والثاني: وهو قول الأخفش: إنما أنثت لكثرة ذلك منها، نحو: نسابة، وعلامة، وهو ذكر.

السؤال الثاني: ما المراد من كون أولئك المعقبات من بين يديه ومن خلفه؟

والجواب: أن المستخفي بالليل والسارب بالنهار قد أحاط به هؤلاء المعقبات فيعدون عليه أعماله وأقواله بتمامها، ولا يشذ من تلك الأعمال والأقوال من حفظهم شيء أصلاً، وقال بعضهم: بل المراد يحفظونه من جميع المهالك من بين يديه ومن خلفه، لأن السارب بالنهار إذا سعى في مهماته فإنما يحذر من بين يديه ومن خلفه.

السؤال الثالث: ما المراد من قوله: ﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾.

والجواب: ذكر الفراء فيه قولين:

القول الأول: أنه على التقديم والتأخير والتقدير: له معقبات من أمر الله يحفظونه.

القول الثاني: أن فيه إضمارًا أي ذلك الحفظ من أمر الله أي مما أمر الله به فحذف الاسم وأبقى خبره كما يكتب على الكيس، ألفان والمراد الذي فيه ألفان.

والقول الثالث: ذكره ابن الأنباري أن كلمة (من) معناها الباء والتقدير: يحفظونه بأمر الله وباعانته، والدليل على أنه لا بد من المصير إليه أنه لا قدرة للملائكة ولا لأحد من الخلق على أن يحفظوا أحدًا من أمر الله ومما قضاه عليه.

السؤال الرابع: ما الفائدة في جعل هؤلاء الملائكة موكلين علينا؟

والجواب: أن هذا الكلام غير مستبعد، وذلك لأن المنجمين اتفقوا على أن التدبير في كل يوم لكوكب على حدة وكذا القول في كل ليلة، ولا شك أن تلك الكواكب لها أرواح عندهم، فتلك التدبيرات المختلفة في الحقيقة لتلك الأرواح، وكذا القول في تدبير القمر والهيلاج والكدخدا

---

(١) **متفق عليه**: أخرجه البخاري في كتاب (مواقيت الصلاة) باب (فضل صلاة العصر)، (٢/ ٤١) حديث رقم/ ٥٥٥، من طريق مالك... به، ومسلم في كتاب (المساجد) باب (فضل صلاة الصبح والعصر والمحافظة عليهما) (٣/ ١٤٣) (٢١٠/ ٦٣٢/ نووي)، كلاهما من طريق مالك.. به.

على ما يقوله المنجمون. وأما أصحاب الطلسمات فهذا الكلام مشهور في ألسنتهم ولذلك تراهم يقولون: أخبرني الطباعي التام. ومرادهم بالطباعي التام: أن لكل إنسان روحًا فلكية يتولى إصلاح مهماته ودفع بلياته وآفاته، وإذا كان هذا متفقًا عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام فكيف يستبعد مجيئه من الشرع؟ وتمام التحقيق فيه: أن الأرواح البشرية مختلفة في جواهرها وطبائعها فبعضها خيرة، وبعضها شريرة، وبعضها معزة، وبعضها مذلة، وبعضها قوية القهر والسلطان، وبعضها ضعيفة سخيفة. وكما أن الأمر في الأرواح البشرية كذلك، فكذا القول في الأرواح الفلكية، ولا شك أن الأرواح الفلكية في كل باب وكل صفة أقوى من الأرواح البشرية وكل طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركة في طبيعة خاصة وصفة مخصوصة، لما أنها تكون في تربية روح من الأرواح الفلكية مشاكلة لها في الطبيعة والخاصية، وتكون تلك الأرواح البشرية كأنها أولاد لذلك الروح الفلكي. ومتى كان الأمر كذلك كان ذلك الروح الفلكي معينًا لها على مهماتها ومرشدًا لها إلى مصالحها وعاصمًا لها عن صنوف الآفات، فهذا كلام ذكره محققو الفلاسفة، وإذا كان الأمر كذلك علمنا أن الذي وردت به الشريعة أمر مقبول عند الكل، فكيف يمكن استنكاره من الشريعة؟ ثم في اختصاص هؤلاء الملائكة وتسلطهم على بني آدم فوائد كثيرة سوى التي مر ذكرها من قبل. الأول: أن الشياطين يدعون إلى الشرور والمعاصي، وهؤلاء الملائكة يدعون إلى الخيرات والطاعات. والثاني: قال مجاهد: ما من عبد إلا ومعه ملك يحفظه من الجن والإنس والهوام في نومه ويقظته. الثالث: أنا نرى أن الإنسان قد يقع في قلبه داع قوي من غير سبب ثم يظهر بالآخرة أن وقوع تلك الداعية في قلبه كان سببًا من أسباب مصالحه وخيراته، وقد ينكشف أيضًا بالآخرة أنه كان سببًا لوقوعه في آفة أو في معصية، فيظهر أن الداعي إلى الأمر الأول كان مريدًا للخير والراحة وإلى الأمر الثاني كان مريدًا للفساد والمحنة، والأول هو الملَك الهادي، والثاني هو الشيطان المغوي. الرابع: أن الإنسان إذا علم أن الملائكة تحصي عليه أعماله كان إلى الحذر من المعاصي أقرب، لأن من آمن يعتقد جلالة الملائكة وعلو مراتبهم فإذا حاول الإقدام على معصية واعتقد أنهم يشاهدونها زجره الحياء منهم عن الإقدام عليها كما يزجره عنها إذا حضره من يعظه من البشر. وإذا علم أن الملائكة تحصي عليه تلك الأعمال كان ذلك أيضًا رادعًا له عنها وإذا علم أن الملائكة يكتبونها كان الردع أكمل.

السؤال الخامس: ما الفائدة في كتبة أعمال العباد؟ قلنا هاهنا مقامات:

المقام الأول: أن تفسير الكتبة بالمعنى المشهور من الكتبة. قال المتكلمون: الفائدة في تلك الصحف وزنها ليعرف رجحان إحدى الكفتين على الأخرى، فإنه إذا رجحت كفة الطاعات ظهر للخلائق أنه من أهل الجنة، وإن كان بالضد فبالضد. قال القاضي: هذا بعيد لأن الأدلة قد دلت على أن كل واحد قبل مماته عند المعاينة يعلم أنه من السعداء أو من الأشقياء فلا يتوقف حصول

تلك المعرفة على الميزان، ثم أجاب القاضي عن هذا الكلام وقال: لا يمتنع أيضًا ما روينا لأمر يرجع إلى حصول سروره عند الخلق العظيم أنه من أولياء الله في الجنة وبالضد من ذلك في أعداء الله.

والمقام الثاني: وهو قول حكماء الإسلام أن الكتابة عبارة عن نقوش مخصوصة وضعت بالاصطلاح لتعريف المعاني المخصوصة فلو قدرنا كون تلك النقوش دالة على تلك المعاني لأعيانها وذواتها كانت تلك الكتبة أقوى وأكمل.

إذا ثبت هذا فنقول: إن الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرات وكرات كثيرة متوالية حصل في نفسه بسبب تكررها ملكة قوية راسخة، فإن كانت تلك الملكة ملكة سارة بالأعمال النافعة في السعادات الروحانية عظم ابتهاجه بها بعد الموت؛ وإن كانت تلك الملكة ملكة ضارة في الأحوال الروحانية عظم تضرره بها بعد الموت.

إذا ثبت هذا فنقول: إن التكرير الكثير لما كان سببًا لحصول تلك الملكة الراسخة كان لكل واحد من الأعمال المتكررة أثر في حصول تلك الملكة الراسخة، وذلك الأثر وإن كان غير محسوس إلا أنه حاصل في الحقيقة. وإذا عرفت هذا ظهر أنه لا يحصل للإنسان لمحة ولا حركة ولا سكون، إلا ويحصل منه في جوهر نفسه أثر من آثار السعادة، أو آثار الشقاوة قل أو كثر، فهذا هو المراد من كتبة الأعمال عند هؤلاء والله أعلم بحقائق الأمور وهذا كله إذا فسرنا قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ بالملائكة.

القول الثاني: وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما، واختاره أبو مسلم الأصفهاني المراد: أنه يستوي في علم الله تعالى السر والجهر، والمستخفي بظلمة الليل، والسارب بالنهار المستظهر بالمعاونين والأنصار وهم الملوك والأمراء، فمن لجأ إلى الليل فلن يفوت الله أمره، ومن سار نهارًا بالمعقبات وهم الأحراس والأعوان الذين يحفظونه لم ينجه أحراسه من الله تعالى، والمعقب العون، لأنه إذا أبصر هذا ذاك فلا بد أن يبصر ذاك هذا، فتصير بصيرة كل واحد منهم معاقبة لبصيرة الآخرة، فهذه المعقبات لا تخلص من قضاء الله ومن قدره، وهم إن ظنوا أنهم يخلصون مخدومهم من أمر الله ومن قضائه فإنهم لا يقدرون على ذلك ألبتة، والمقصود من هذا الكلام بعث السلاطين والأمراء والكبراء على أن يطلبوا الخلاص من المكاره عن حفظ الله وعصمته ولا يعولوا في دفعها على الأعوان والأنصار، ولذلك قال تعالى بعده: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾.

أما قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ فكلام جميع المفسرين يدل على أن المراد لا يغير ما هم فيه من النعم بإنزال الانتقام إلا بأن يكون منهم المعاصي والفساد. قال القاضي: والظاهر لا يحتمل إلا هذا المعنى لأنه لا شيء مما يفعله تعالى سوى العقاب إلا وقد يبتدىء به في الدنيا من دون تغيير يصدر من العبد فيما تقدم لأنه تعالى ابتدأ بالنعم دينا ودنيًا

ويفضل في ذلك من شاء على من يشاء، فالمراد مما ذكره الله تعالى التغيير بالهلاك والعقاب، ثم اختلفوا فبعضهم قال هذا الكلام راجع إلى قوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ [الرعد: ٦] فبين تعالى أنه لا ينزل بهم عذاب الاستئصال إلا والمعلوم منهم الإصرار على الكفر والمعصية، حتى قالوا: إذا كان المعلوم أن فيهم من يؤمن أو في عقبه من يؤمن فإنه تعالى لا ينزل عليهم عذاب الاستئصال وقال بعضهم: بل الكلام يجري على إطلاقه، والمراد منه أن كل قوم بالغوا في الفساد وغيروا طريقتهم في إظهار عبودية الله تعالى فإن الله يزيل عنهم النعم وينزل عليهم أنواعًا من العذاب، وقال بعضهم: إن المؤمن الذي يكون مختلطًا بأولئك الأقوام فربما دخل في ذلك العذاب.

روي عن أبي بكر رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ: **«أن النَّاسَ إِذَا رَأَوُا الظَّالِمَ فَلَمْ يَأْخُذُوا عَلَى يَدَيْهِ يُوشِكُ أَنْ يَعُمَّهُمُ اللَّهُ تَعَالَى بِعِقَابٍ»**(١) واحتج أبو علي الجبائي والقاضي بهذه الآية في مسألتين:

المسألة الأولى: أنه تعالى لا يعاقب أطفال المشركين بذنوب آبائهم، لأنهم لم يغيروا ما بأنفسهم من نعمة فيغير الله حالهم من النعمة إلى العذاب.

المسألة الثانية: قالوا: الآية تدل على بطلان قول المجبرة إنه تعالى يبتدىء العبد بالضلال والخذلان أول ما يبلغ وذلك أعظم من العقاب، مع أنه ما كان منه تغيير.

والجواب: أن ظاهر هذه الآية يدل على أن فعل الله في التغيير مؤخر عن فعل العبد، إلا أن قوله تعالى: ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَن يَشَاءَ اللَّهُ﴾ [الإنسان: ٣٠] يدل على أن فعل العبد مؤخر عن فعل الله تعالى، فوقع التعارض.

وأما قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فقد احتج أصحابنا به على أن العبد غير مستقل في الفعل. قالوا: وذلك لأنه إذا كفر العبد فلا شك أنه تعالى يحكم بكونه مستحقًا للذم في الدنيا والعقاب في الآخرة، فلو كان العبد مستقلاً بتحصيل الإيمان لكان قادرًا على رد ما أراده الله تعالى، وحينئذ يبطل قوله: ﴿وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ﴾ فثبت أن الآية السابقة وإن أشعرت بمذهبهم، إلا أن هذه الآية من أقوى الدلائل على مذهبنا. قال الضحاك عن ابن عباس: لم تغن المعقبات شيئًا، وقال عطاء عنه: لا راد لعذابي ولا ناقض لحكمي: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ أي ليس لهم من دون الله من يتولاهم، ويمنع قضاء الله عنهم، والمعنى: ما لهم والٍ يلي أمرهم، ويمنع العذاب عنهم.

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الملاحم) باب (الأمر والنهي) (٤/ ١٨٥٤) حديث رقم/ ٤٣٣٨، والترمذي في كتاب (الفتن) باب (ما جاء في نزول العذاب إذا لم يغير المنكر) (٤/ ٤٠٦) حديث رقم/ ٢١٦٨، وابن ماجه في كتاب (الفتن) باب (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) (٢/ ١٣٢٧) حديث رقم/ ٤٠٠٥، وأحمد في (مسنده) (١/ ٥/ ٧). جميعًا من طريق إسماعيل... به.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما خوف العباد بإنزال ما لا مرد له أتبعه بذكر هذه الآيات وهي مشتملة على أمور ثلاثة، وذلك لأنها دلائل على قدرة الله تعالى وحكمته، وأنها تشبه النعم والإحسان من بعض الوجوه، وتشبه العذاب والقهر من بعض الوجوه.

واعلم أنه تعالى ذكر هاهنا أمورًا أربعة. الأول: البرق وهو قوله تعالى: ﴿يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال صاحب (الكشاف) في انتصاب قوله: ﴿خَوْفًا وَطَمَعًا﴾ وجوه.

الأول: لا يصح أن يكونا مفعولاً لهما لأنهما ليسا بفعل فاعل الفعل المعلل إلا على تقدير حذف المضاف أي إرادة خوف وطمع أو على معنى إخافة وإطماعًا.

الثاني: يجوز أن يكونا منتصبين على الحال من البرق كأنه في نفسه خوف وطمع والتقدير: ذا خوف وذا طمع أو على معنى إيخافًا وإطماعًا. الثالث: أن يكونا حالاً من المخاطبين أي خائفين وطامعين.

المسألة الثانية: في كون البرق خوفًا وطمعًا وجوه.

الأول: أن عند لمعان البرق يخاف وقوع الصواعق ويطمع في نزول الغيث قال المتنبي:

فَتًى كَالسَّحَابِ الْجَوْنِ يَخْشَى وَيَرْتَجِي ... يُرَجِّي الْحَيَا منها ويخشى الصواعق

الثاني: أنه يخاف المطر من له فيه ضرر كالمسافر وكمن في جرابه التمر والزبيب ويطمع فيه من له فيه نفع. الثالث: أن كل شيء يحصل في الدنيا فهو خير بالنسبة إلى قوم، وشر بالنسبة إلى آخرين، فكذلك المطر خير في حق من يحتاج إليه في أوانه، وشر في حق من يضره ذلك، إما بحسب المكان أو بحسب الزمان.

المسألة الثالثة: اعلم أن حدوث البرق دليل عجيب على قدرة الله تعالى وبيانه أن السحاب لا شك أنه جسم مركب من أجزاء رطبة مائية، ومن أجزاء هوائية ونارية ولا شك أن الغالب عليه الأجزاء المائية والماء جسم بارد ورطب، والنار جسم حار يابس وظهور الضد من الضد التام على خلاف العقل فلا بد من صانع مختار يظهر الضد من الضد.

فإن قيل: لم لا يجوز أن يقال: إن الريح احتقن في داخل جرم السحاب واستولى البرد على ظاهره فانجمد السطح الظاهر منه، ثم إن ذلك الريح يمزقه تمزيقًا عنيفًا فيتولد من ذلك التمزيق

الشديد حركة عنيفة، والحركة العنيفة موجبة للسخونة وهي البرق؟

والجواب: أن كل ما ذكرتموه على خلاف المعقول وبيانه من وجوه. الأول: أنه لو كان الأمر كذلك لوجب أن يقال: أينما يحصل البرق فلا بد وأن يحصل الرعد وهو الصوت الحادث من تمزق السحاب ومعلوم أنه ليس الأمر كذلك فإنه كثيرًا ما يحدث البرق القوي من غير حدوث الرعد. الثاني: أن السخونة الحاصلة بسبب قوة الحركة مقابلة للطبيعة المائية الموجبة للبرد، وعند حصول هذا العارض القوي كيف تحدث النارية؟ بل نقول: النيران العظيمة تنطفىء بصب الماء عليها، والسحاب كله ماء فكيف يمكن أن يحدث فيه شعلة ضعيفة نارية؟ الثالث: من مذهبكم أن النار الصرفة لا لون لها البتة، فهب أنه حصلت النارية بسبب قوة المحاكة الحاصلة بأجزاء السحاب لكن من أين حدث ذلك اللون الأحمر؟ فثبت أن السبب الذي ذكروه ضعيف وأن حدوث النار الحاصلة في جرم السحاب مع كونه ماء خالصًا لا يمكن إلا بقدرة القادر الحكيم.

النوع الثاني: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله تعالى: ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ قال صاحب (الكشاف): السحاب اسم جنس والواحدة سحابة والثقال جمع ثقيلة لأنك تقول سحابة ثقيلة وسحاب ثقال كما تقول امرأة كريمة ونساء كرام وهي الثقال بالماء.

واعلم أن هذا أيضًا من دلائل القدرة والحكمة، وذلك لأن هذه الأجزاء المائية إما أن يقال إنها حدثت في جو الهواء أو يقال إنها تصاعدت من وجه الأرض، فإن كان الأول وجب أن يكون حدوثها بإحداث محدث حكيم قادر وهو المطلوب، وإن كان الثاني، وهو أن يقال إن تلك الأجزاء تصاعدت من الأرض فلما وصلت إلى الطبقة الباردة من الهواء بردت فثقلت فرجعت إلى الأرض فنقول هذا باطل، وذلك لأن الأمطار مختلفة فتارة تكون القطرات كبيرة وتارة تكون صغيرة وتارة تكون متقاربة، وأخرى تكون متباعدة وتارة تدوم مدة نزول المطر زمانًا طويلاً وتارة قليلاً فاختلاف الأمطار في هذه الصفات مع أن طبيعة الأرض واحدة، وطبيعة الشمس المسخنة للبخارات واحدة لا بد وأن يكون بتخصيص الفاعل المختار وأيضًا فالتجربة دلت على أن للدعاء والتضرع في نزول الغيث أثرًا عظيمًا ولذلك كانت صلاة الاستسقاء مشروعة، فعلمنا أن المؤثر فيه هو قدرة الفاعل لا الطبيعة والخاصية.

النوع الثالث: من الدلائل المذكورة في هذه الآية الرعد وهو قوله: ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: إن الرعد اسم ملك من الملائكة وهذا الصوت المسموع هو صوت ذلك الملك بالتسبيح والتهليل عن ابن عباس رضي الله عنهما: أن اليهود سألت النبي ﷺ عن الرعد ما هو؟ فقال: **«مَلَكٌ مِنَ الْمَلَائِكَةِ مُوَكَّلٌ بِالسَّحَابِ مَعَهُ مَخَارِيقُ مِنْ نَارٍ يَسُوقُ بِهَا السَّحَابَ حَيْثُ شَاءَ اللَّهُ»**

قالوا: فما الصوت الذي نسمع؟ قال: «زَجْرُهُ السَّحَابَ»[١] وعن الحسن أنه خلق من خلق الله ليس بمَلَك، فعلى هذا القول الرعد هو الملك الموكل بالسحاب وصوته تسبيح لله تعالى وذلك الصوت أيضًا يسمى بالرعد ويؤكد هذا ما روي عن ابن عباس رضي الله عنهما: كان إذا سمع الرعد قال: سبحان الذي سبحت له. وعن النبي ﷺ قال: «**إِنَّ اللَّهَ يُنْشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ فَيَنْطِقُ أَحْسَنَ النُّطْقِ وَيَضْحَكُ أَحْسَنَ الضَّحِكِ فَنُطْقُهُ الرَّعْدُ وَضَحِكُهُ الْبَرْقُ**»[٢].

واعلم أن هذا القول غير مستبعد وذلك لأن عند أهل السنة البنية ليست شرطًا لحصول الحياة فلا يبعد من الله تعالى أن يخلق الحياة والعلم والقدرة والنطق في أجزاء السحاب فيكون هذا الصوت المسموع فعلاً له وكيف يستبعد ذلك ونحن نرى أن السمندل يتولد في النار، والضفادع تتولد في الماء البارد، والدودة العظيمة ربما تتولد في الثلوج القديمة، وأيضًا فإذا لم يبعد تسبيح الجبال في زمن داود عليه السلام، ولا تسبيح الحصى في زمان محمد ﷺ[٣]، فكيف يستبعد

---

(١) **حسن**: أخرجه الترمذي في (سننه) (٥/ ٢٩٤) حديث رقم/ ٣١١٧، وقال: هذا حديث حسن غريب، والنسائي في (سننه الكبرى) (٥/ ٣٣٦) حديث رقم/ ٩٠٧٢، كلاهما من طريق بكير بن شهاب عن سعيد بن جبير عن بن عباس... به.

(٢) أورده الهيثمي في (المجمع) (٢/ ٤٥٩) حديث رقم/ ٣٢٩٧، وقال: رواه أحمد ورجاله رجال الصحيح.

(٣) وهذا إشارة إلى حديث تسبيح الحصي بين يدي النبي ﷺ وهو حديث حسن، أخرجه البيهقي في (دلائل النبوة) (٦/ ٥٧) حديث رقم/ ٢٣١٢ بتحقيقنا من طريق الكديمي حدثنا قريش بن أنس... به، واللالكائي في (اعتقاد أهل السنة والجماعة) (١/ ٥١٩) حديث رقم/ ١٤٨٥ بتحقيقنا من طريق علي بن حرب قال حدثنا قريش بن أنس... به، ورواه الطبراني في (الأوسط) (٤/ ٢٤٥) حديث رقم/ ٤٠٩٧، من طريق محمد بن حميد عن ابن شهاب عن سعيد بن المسيب عن أبي هريرة... به، ومحمد بن حميد ضعيف. ورواه خثيمه في حديثه (١/ ١٠٥) من طريق قريش بن أنس... به، وابن عاصم في (السنة) (٢/ ٥٤٣) حديث رقم/ ١١٤٦، من طريق حميد بن عبد الرحمن بن أبي عوف حدثه أنه سمع عبد ربه أنه سمع عاصم بن حميد يقول أن أبا ذر... فذكره، وقال ابن الجوزي في (العلل المتناهية) (١/ ٢٠٦) من طريق قريش حديث لايصح.

ورواه البزار في مسنده (٩/ ٤٣١) حديث رقم/ ٤٠٤٠، من طريق قريشُ بنُ أنسٍ، عنْ صالحِ بنِ أبي الأخضرِ، عنِ الزُّهريِّ، عنْ سويد بنِ يزيد، قال: رأيتُ أبا ذرٍّ جالسًا وحدهُ في المسجدِ، فاغتنمْتُ ذلكَ، فجلستُ إليه فذكَرتُ لهُ عثمانَ، فقالَ: لا أقولُ لعثمانَ أبدًا إلا خيرًا الشيء رأيته عندَ رسولِ اللهِ ﷺ، كنت أتبعُ خلواتِ رسولِ اللهِ ﷺ وأتعلم منهُ، فذهبتُ يومًا، فإذا هو قد خرجَ فاتبعتهُ، فجلسَ في موضع فجلستُ عندهُ، فقال: يا أبا ذر ما جاء بك؟ قال: قلتُ: الله ورسوله، قال: فجاءَ أبو بكر، فسلمَ وجلسَ عن يمينِ النبي، فقال له: ما جاءَ بك يا أبا بكرٍ؟ قال: اللهُ ورسولهُ، قال: فجاء عمر فجلسَ عن يمينِ أبي بكر، فقال: يا عمر ما جاء بك؟ قال: الله ورسولهُ، ثم جاء عثمانُ فجلس عن يمين عمر، فقال: يا عثمان ما جَاء بك قال: الله ورسولهُ، قال: فتناول النبي سبع حصيات أو تسعَ حصيات، فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا كحنين النحل، ثم وضعهنّ فخرسن، ثم وضعن في يد أبي بكر فسبحن في يده حتى سمع لهن حنينًا كحنين النحل، فوضعهنّ فخرسن، ثم تناولهن فوضعن في يد عمر فسبحن في يده حتى سمعت لهن حنينًا كحنينِ النحلِ، ثم وضعن فخرسن، ثم تناولهن فوضعن في يد عثمانَ فسبحن في يدهِ حتى سمعت لهنّ حنينًا كحنينِ النحلِ، ثم وضعن فخرسن.

وقال البزار: وهذا الحديثُ لا نعلمهُ يروى إلا من حديثِ سويد بن يزيد، عن أبي ذر ورواهُ جبير بن نفير وزاد=

تسبيح السحاب؟ وعلى هذا القول فهذا الشيء المسمى بالرعد ملك أو ليس بملك فيه قولان: أحدهما: أنه ليس بملك لأنه عطف عليه الملائكة، فقال: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ والمعطوف عليه مغاير للمعطوف. والثاني: وهو أنه لا يبعد أن يكون من جنس الملائكة وإنما إفراده بالذكر على سبيل التشريف كما في قوله: ﴿وَمَلَٰٓئِكَتِهِۦ وَرُسُلِهِۦ وَجِبْرِيلَ وَمِيكَىٰلَ﴾ [البقرة: ٩٨] وفي قوله: ﴿وَإِذْ أَخَذْنَا مِنَ ٱلنَّبِيِّۦنَ مِيثَٰقَهُمْ وَمِنكَ وَمِن نُّوحٍ﴾ [الأحزاب: ٧].

القول الثاني: أن الرعد اسم لهذا الصوت المخصوص، ومع ذلك فإن الرعد يسبح الله سبحانه، لأن التسبيح والتقديس وما يجري مجراهما ليس إلا وجود لفظ يدل على حصول التنزيه والتقديس لله سبحانه وتعالى، فلما كان حدوث هذا الصوت دليلاً على وجود موجود متعال عن النقص والإمكان، كان ذلك في الحقيقة تسبيحًا، وهو معنى قوله تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِۦ﴾ [الإسراء: ٤٤].

القول الثالث: أن المراد من كون الرعد مسبحًا أن من يسمع الرعد فإنه يسبح الله تعالى، فلهذا المعنى أضيف هذا التسبيح إليه.

القول الرابع: من كلمات الصوفية الرعد صعقات الملائكة، والبرق زفرات أفئدتهم، والمطر بكاؤهم.

فإن قيل: وما حقيقة الرعد؟

قلنا: استقصينا القول في سورة (البقرة) في قوله: ﴿فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [البقرة: ١٩].

أما قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ فاعلم أن من المفسرين من يقول: عنى بهؤلاء الملائكة أعوان الرعد، فإنه سبحانه جعل له أعوانًا، ومعنى قوله: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي وتسبح الملائكة من خيفة الله تعالى وخشيته. قال ابن عباس رضي الله عنهما: إنهم خائفون من الله لا كخوف ابن آدم، فإن أحدهم لا يعرف من على يمينه ومن على يساره، ولا يشغله عن عبادة الله طعام ولا شراب ولا شيء.

واعلم أن المحققين من الحكماء يذكرون أن هذه الآثار العلوية إنما تتم بقوى روحانية فلكية، فللسحاب روح معين من الأرواح الفلكية يدبره، وكذا القول في الرياح وفي سائر الآثار العلوية، وهذا عين ما نقلناه من أن الرعد اسم ملك من الملائكة يسبح الله، فهذا الذي قاله المفسرون

=فيه جبيرٌ كلامًا ليس في حديث سويد ولا نعلم رواه عن سويد غير الزهريِّ ولا رواه عن الزهري غير صالح بن أبي الأخضرِ، وصالح لينُ الحديث، وقداحتملَ حديثهُ جماعةٌ من أهل العلم، وحدثوا عنهُ.

وصححه الألباني في ظلال الجنة وقال حديث صحيح وإن كان عبد الحميد بن إبراهيم وهو أبو تقي فيه ضعف من قبل حفظه ولكنه توبع.

وأورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ٢٩٩)، وقال: رواه البزار بإسنادين ورجال أحدهما تفاح وفي بعضهم ضعف(قلت) في إسناد البزار صالح بن أبي الأخضر قال ابن حجر ضعيف يغير ولينه البخاري: وضعفه النسائي كذا عند الذهبي.

بهذه العبارة هو ما ذكره المحققون عن الحكماء، فكيف يليق بالعاقل الإنكار؟

النوع الرابع: من الدلائل المذكورة في هذه الآية قوله: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ واعلم أنا قد ذكرنا معنى الصواعق في سورة البقرة. قال المفسرون: نزلت هذه الآية في عامر بن الطفيل وأربد بن ربيعة أخي لبيد بن ربيعة أتيا النبي ﷺ يخاصمانه ويجادلانه، ويريدان الفتك به، فقال أربد بن ربيعة أخو لبيد بن ربيعة: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس هو أم من حديد[1]؟ ثم إنه لما رجع أربد أَرسِل عليه صاعقةً فأحرقته، ورمى عامرًا بغدة كغدة البعير، ومات في بيت سلولية.

واعلم أن أمر الصاعقة عجيب جدًا وذلك لأنها تارة تتولد من السحاب، وإذا نزلت من السحاب فربما غاصت في البحر وأحرقت الحيتان في لجة البحر، والحكماء بالغوا في وصف قوتها، ووجه الاستدلال أن النار حارة يابسة وطبيعتها ضد طبيعة السحاب، فوجب أن تكون طبيعتها في الحرارة واليبوسة أضعف من طبيعة النيران الحادثة عندنا على العادة، لكنه ليس الأمر كذلك، فإنها أقوى نيران هذا العالم، فثبت أن اختصاصها بمزيد تلك القوة لا بد وأن يكون بسبب تخصيص الفاعل المختار.

واعلم أنه تعالى لما ذكر هذه الدلائل الأربعة قال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ والمراد أنه تعالى بين دلائل كمال علمه في قوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الرعد: ٨] وبين دلائل كمال القدرة في هذه الآية.

ثم قال: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني هؤلاء الكفار مع ظهور هذه الدلائل يجادلون في الله وهو يحتمل وجوهًا:

أحدها: أن يكون المراد الرد على الكافر الذي قال: أخبرنا عن ربنا أمن نحاس أم من حديد.

وثانيها: أن يكون المراد الرد على جدالهم في إنكار البعث وإبطال الحشر والنشر.

وثالثها: أن يكون المراد الرد عليهم في طلب سائر المعجزات.

ورابعها: أن يكون المراد الرد عليهم في استنزال عذاب الاستئصال. وفي هذه الواو قولان: الأول: أنها للحال، والمعنى: فيصيب بالصاعقة من يشاء في حال جداله في الله، وذلك أن أربد لما جادل في الله أحرقته الصاعقة. والثاني: أنها واو الاستئناف كأنه تعالى لما تمم ذكر هذه الدلائل قال بعد ذلك: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾.

---

(١) إسناده ضعيف: وأخرجه النسائي في (سننه الكبرى) (٦/ ٣٧٠)، وأبو يعلى في (مسنده) (٦/ ١٨٣) حديث رقم/ ٣٤٦٨، والمقري في (ذم الكلام وأهله) (٤/ ٩٧) حديث رقم/ ٦٣١، جميعا من طريق علي بن أبي سارة حدثنا ثابت البناني عن أنس بن مالك قال بعث النبي ﷺ مرة رجلا إلى رجل من فراعنة العرب أن ادعه لي قال يا رسول الله إنه أعتى من ذلك قال اذهب إليه فادعه قال فأتاه فقال رسول الله ﷺ يدعوك قال أرسول الله وما الله أمن ذهب هو أم من فضة هو أمن نحاس... الحديث، وفي إسناده علي بن أبي سارة وهو ضعيف.

ثم قال تعالى: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ وفي لفظ المحال أقوال: قال ابن قتيبة: الميم زائدة وهو من الحول، ونحوه ميم مكان، وقال الأزهري: هذا غلط، فإن الكلمة إذا كانت على مثال فعال أوله ميم مكسورة فهي أصلية، نحو مهاد ومداس ومداد، واختلفوا مم أخذ على وجوه: **الأول:** قيل من قولهم مَحَلَ فلان بفلان إذا سعى به إلى السلطان وعرضه للهلاك، وتمحل لكذا إذا تكلف استعمال الحيلة واجتهد فيه، فكان المعنى: أنه سبحانه شديد المكر لأعدائه يهلكهم بطريق لا يتوقعونه. **الثاني:** أن المحال عبارة عن الشدة، ومنه تسمى السنة الصعبة سنة المحل وماحلت فلانًا محالاً. أي قاومته أينا أشد، قال أبو مسلم: ومحال فعال من المحل وهو الشدة ولفظ فعال يقع على المجازاة والمقابلة، فكأن المعنى: أنه تعالى شديد المغالبة، وللمفسرين هاهنا عبارات فقال مجاهد وقتادة: شديد القوة، وقال أبو عبيدة: شديد العقوبة، وقال الحسن: شديد النقمة، وقال ابن عباس: شديد الحول. **الثالث:** قال ابن عرفة: يقال ماحل عن أمره أي جادل، فقوله: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الجدال. **الرابع:** روي عن بعضهم: ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي شديد الحقد. قالوا: هذا لا يصح، لأن الحقد لا يمكن في حق الله تعالى، إلا أنا قد ذكرنا في هذا الكتاب أن أمثال هذه الألفاظ إذا وردت في حق الله تعالى فإنها تحصل على نهايات الأعراض لا على مبادىء الأعراض، فالمراد بالحقد هاهنا هو أنه تعالى يريد إيصال الشر إليه مع أنه يخفي عنه تلك الإرادة.

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

اعلم أن قوله: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي لله دعوة الحق.

وفيه بحثان:

البحث الأول: في أقوال المفسرين وهي أمور: أحدها: ما روى عكرمة عن ابن عباس رضي الله عنهما أنه قال: ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ قول لا إله إلا الله. وثانيها: قول الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه هو الحق، كأنه يومىء إلى أن الانقطاع إليه في الدعاء هو الحق. وثالثها: أن عبادته هي الحق والصدق.

واعلم أن الحق هو الموجود، والموجود قسمان: قسم يقبل العدم وهو حق يمكن أن يصير باطلاً وقسم لا يقبل العدم فلا يمكن أن يصير باطلاً وذلك هو الحق الحقيقي، وإذا كان واجب الوجود لذاته موجودًا لا يقبل العدم كان أحق الموجودات بأن يكون حقًا هو هو وكان أحق الاعتقادات وأحق الأذكار بأن يكون حقًا هو اعتقاد ثبوته وذكر وجوده، فثبت بهذا أن وجوده هو الحق في الموجودات واعتقاد وجوده هو الحق في الاعتقادات. وذكره بالثناء والإلهية والكمال هو الحق في الأذكار فلهذا قال: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾.

البحث الثاني: قال صاحب (الكشاف) ﴿دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ فيه وجهان: أحدهما: أن تضاف الدعوة إلى الحق الذي هو نقيض الباطل كما تضاف إليه الكلمة في قوله: (كَلِمَةُ الْحَقِّ) والمقصود منه الدلالة على كون هذه الدعوة مختصة بكونها حقة وكونها خالية عن أمارات كونه باطلاً، وهذا من باب إضافة الشيء إلى صفته. والثاني: أن تضاف إلى الحق الذي هو الله سبحانه على معنى دعوة المدعو الحق الذي يسمع فيجيب، وعن الحسن: الحق هو الله وكل دعاء إليه فهو دعوة الحق.

ثم قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ﴾ يعني الآلهة الذين يدعونهم الكفار من دون الله: ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ مما يطلبونه إلا استجابة كاستجابة باسط كفيه إلى الماء، والماء جماد لا يشعر ببسط كفيه ولا بعطشه وحاجته إليه، ولا يقدر أن يجيب دعاءه ويبلغ فاه، فكذلك ما يدعونه جماد، لا يحس بدعائهم ولا يستطيع إجابتهم، ولا يقدر على نفعهم وقيل شبهوا في قلة فائدة دعائهم لآلهتهم، بمن أراد أن يغرف الماء بيديه ليشربه فيبسطها ناشرًا أصابعه ولم تصل كفاه إلى ذلك الماء ولم يبلغ مطلوبه من شربه، وقرىء (تدعون) بالتاء ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ بالتنوين، ثم قال: ﴿وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَالٍ﴾ أي إلا في ضياع لا منفعة فيه، لأنهم إن دعوا الله لم يجبهم وإن دعوا الآلهة لم تستطع إجابتهم.

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾

واعلم أن في المراد بهذا السجود قولين:

القول الأول: أن المراد منه السجود بمعنى وضع الجبهة على الأرض، وعلى هذا الوجه ففيه وجهان: **أحدهما:** أن اللفظ وإن كان عامًا إلا أن المراد به الخصوص وهم المؤمنون، فبعض المؤمنين يسجدون لله طوعًا بسهولة ونشاط، ومن المسلمين من يسجد لله كرهًا لصعوبة ذلك عليه مع أنه يحمل نفسه على أداء تلك الطاعة شاء أم أبى. **والثاني:** أن اللفظ عام والمراد منه أيضًا العام وعلى هذا ففي الآية إشكال، لأنه ليس كل من في السموات والأرض يسجد لله بل الملائكة يسجدون لله، والمؤمنون من الجن والإنس يسجدون لله تعالى، وأما الكافرون فلا يسجدون.

الجواب عنه من وجهين:

الأول: أن المراد من قوله: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ أي ويجب على كل من في السموات والأرض أن يسجد لله فعبر عن الوجوب بالوقوع والحصول.

والثاني: وهو أن المراد من السجود التعظيم والاعتراف بالعبودية، وكل من في السموات ومن في الأرض يعترفون بعبودية الله تعالى على ما قال: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ اللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥].

وأما القول الثاني في تفسير الآية فهو: - أن السجود عبارة عن الانقياد والخضوع وعدم

الامتناع وكل من في السموات والأرض ساجد لله بهذا المعنى، لأن قدرته ومشيئته نافذة في الكل وتحقيق القول فيه أن ما سواه ممكن لذاته والممكن لذاته هو الذي تكون ماهيته قابلة للعدم والوجود على السوية وكل من كان كذلك امتنع رجحان وجوده على عدمه أو بالعكس، إلا بتأثير موجود ومؤثر فيكون وجود كل ما سوى الحق سبحانه بإيجاده وعدم كل ما سواه بإعدامه، فتأثيره نافذ في جميع الممكنات في طرفي الإيجاد والإعدام، وذلك هو السجود وهو التواضع والخضوع والانقياد، ونظير هذه الآية قوله: ﴿بَل لَّهُۥ مَا فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ كُلٌّ لَّهُۥ قَٰنِتُونَ﴾ [البقرة: ١١٦] وقوله: ﴿وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ [آل عمران: ٨٣].

وأما قوله تعالى: ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ فالمراد: أن بعض الحوادث مما يميل الطبع إلى حصوله كالحياة والغنى، وبعضها مما ينفر الطبع عنه كالموت والفقر والعمى والحزن والزمانة وجميع أصناف المكروهات، والكل حاصل بقضائه وقدره وتكوينه وإيجاده، ولا قدرة لأحد على الامتناع والمدافعة.

ثم قال تعالى: ﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾.

وفيه قولان:

القول الأول: قال المفسرون، كل شخص سواء كان مؤمنًا أو كافرًا فإن ظله يسجد لله. قال مجاهد: ظل المؤمن يسجد لله طوعًا وهو طائع، وظل الكافر يسجد لله كرهًا وهو كاره، وقال الزجاج: جاء في التفسير أن الكافر يسجد لغير الله وظله يسجد لله، وعند هذا قال ابن الأنباري: لا يبعد أن يخلق الله تعالى للظلال عقولاً وأفهامًا تسجد بها وتخشع كما جعل الله للجبال أفهامًا حتى اشتغلت بتسبيح الله تعالى وحتى ظهر أثر التجلي فيها كما قال: ﴿فَلَمَّا تَجَلَّىٰ رَبُّهُۥ لِلْجَبَلِ جَعَلَهُۥ دَكًّا﴾ [الأعراف: ١٤٣].

والقول الثاني: وهو أن المراد من سجود الظلال ميلانها من جانب إلى جانب وطولها بسبب انحطاط الشمس وقصرها بسبب ارتفاع الشمس، فهي منقادة مستسلمة في طولها وقصرها وميلها من جانب إلى جانب وإنما خصص الغدو والآصال بالذكر، لأن الظلال إنما تعظم وتكثر في هذين الوقتين.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما بين أن كل من في السموات والأرض ساجد له بمعنى كونه خاضعًا له، عاد

إلى الرد على عبدة الأصنام فقال: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ﴾ ولما كان هذا الجواب جوابًا يقر به المسؤول ويعترف به ولا ينكره أمره ﷺ أن يكون هو الذاكر لهذا الجواب تنبيهًا على أنهم لا ينكرونه ألبتة ولما بين أنه سبحانه هو الرب لكل الكائنات قال: قل لهم فلم اتخذتم من دون الله أولياء وهي جمادات وهي لا تملك لأنفسها نفعًا ولا ضرًا ولما كانت عاجزة عن تحصيل المنفعة لأنفسها، فبأن تكون عاجزة عن تحصيل المنفعة لغيرها ودفع المضرة عن غيرها كان ذلك أولى، فإذا لم تكن قادرة على ذلك كانت عبادتها محض العبث والسفه، ولما ذكر هذه الحجة الظاهرة بين أن الجاهل بمثل هذه الحجة يكون كالأعمى والعالم بها كالبصير، والجهل بمثل هذه الحجة كالظلمات، والعلم بها كالنور، وكما أن كل أحد يعلم بالضرورة أن الأعمى لا يساوي البصير، والظلمة لا تساوي النور كذلك كل أحد يعلم بالضرورة أن الجاهل بهذه الحجة لا يساوي العالم بها.

قرأ حمزة والكسائي وأبو بكر وعمرو عن عاصم (يَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ) بالياء، لأنها مقدمة على اسم الجمع والباقون بالتاء، واختاره أبو عبيدة ثم أكد هذا البيان فقال: ﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ يعني هذه الأشياء التي زعموا أنها شركاء لله ليس لها خلق يشبه خلق الله حتى يقولوا إنها تشارك الله في الخالقية، فوجب أن تشاركه في الإلهية، بل هؤلاء المشركون يعلمون بالضرورة أن هذه الأصنام لم يصدر عنها فعل ألبتة، ولا خلق ولا أثر، وإذا كان الأمر كذلك كان حكمهم بكونها شركاء لله في الإلهية محض السفه والجهل.

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أن أصحابنا استدلوا بهذه الآية في مسألة خلق الأفعال من وجوه.

الأول: أن المعتزلة زعموا أن الحيوانات تخلق حركات وسكنات مثل الحركات والسكنات التي يخلقها الله تعالى، وعلى هذا التقدير فقد جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه، ومعلوم أن الله تعالى إنما ذكر هذه الآية في معرض الذم والإنكار. فدلت هذه الآية على أن العبد لا يخلق فعل نفسه.

قال القاضي: نحن وإن قلنا: إن العبد يفعل ويحدث، إلا أنا لا نطلق القول بأنه يخلق ولو أطلقناه لم نقل إنه يخلق كخلق الله، لأن أحدنا يفعل بقدرة الله، وإنما يفعل لجلب منفعة ودفع مضرة، والله تعالى منزه عن ذلك كله، فثبت أن بتقدير كون العبد خالقًا، إلا أنه لا يكون خلقه كخلق الله تعالى، وأيضًا فهذا الإلزام لازم للمجبرة، لأنهم يقولون عين ما هو خلق الله تعالى فهو كسب العبد وفعل له، وهذا عين الشرك لأن الإله والعبد في خلق تلك الأفعال بمنزلة الشريكين اللذين لا مال لأحدهما إلا وللآخر فيه حق. وأيضًا فهو تعالى إنما ذكر هذا الكلام عيبًا للكفار وذمًا لطريقتهم، ولو كان فعل العبد خلقًا لله تعالى لما بقي لهذا الذم فائدة، لأن للكفار أن يقولوا على هذا التقدير إن الله سبحانه وتعالى لما خلق هذا الكفر فينا فلم يذمنا عليه ولِمَ ينسبنا إلى الجهل والتقصير مع أنه قد حصل فينا لا بفعلنا ولا باختيارنا.

والجواب عن السؤال الأول: أن لفظ الخلق إما أن يكون عبارة عن الإخراج من العدم إلى الوجود، أو يكون عبارة عن التقدير، وعلى الوجهين فبتقدير أن يكون العبد محدثًا فإنه لا بد وأن يكون حادثًا. أما قوله: والعبد وإن كان خالقًا إلا أنه ليس خلقه كخلق الله.

قلنا: الخلق عبارة عن الإيجاد والتكوين والإخراج من العدم إلى الوجود، ومعلوم أن الحركة الواقعة بقدرة العبد لما كانت مثلاً للحركة الواقعة بقدرة الله تعالى، كان أحد المخلوقين مثلاً للمخلوق الثاني، وحينئذ يصح أن يقال: إن هذا الذي هو مخلوق العبد مثل لما هو مخلوق لله تعالى بل لا شك في حصول المخالفة في سائر الاعتبارات، إلا أن حصول المخالفة في سائر الوجوه لا يقدح في حصول المماثلة من هذا الوجه وهذا القدر يكفي في الاستدلال. وأما قوله هذا لازم على المجبرة حيث قالوا: إن فعل العبد مخلوق لله تعالى، فنقول هذا غير لازم، لأن هذه الآية دالة على أنه لا يجوز أن يكون خلق العبد مثلاً لخلق الله تعالى، ونحن لا نثبت للعبد خلقًا ألبتة، فكيف يلزمنا ذلك؟ وأما قوله: لو كان فعل العبد خلقًا لله تعالى، لما حسن ذم الكفار على هذا المذهب.

قلنا: حاصله يرجع إلى أنه لما حصل المدح والذم وجب أن يكون العبد مستقلاً بالفعل، وهو منقوض، لأنه تعالى ذم أبا لهب على كفره مع أنه عالم منه أنه يموت على الكفر، وقد ذكرنا أن خلاف المعلوم محال الوقوع، فهذا تقرير هذا الوجه في هذه الآية.

وأما الوجه الثاني: في التمسك بهذه الآية قوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولا شك أن فعل العبد شيء فوجب أن يكون خالقه هو الله وسؤالهم عليه ما تقدم.

والوجه الثالث: في التمسك بهذه الآية قوله: ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ﴾ وليس يقال فيه إنه تعالى واحد في أي المعاني، ولما كان المذكور السابق هو الخالقية وجب أن يكون المراد هو الواحد في الخالقية، القهار لكل ما سواه، وحينئذ يكون دليلاً أيضًا على صحة قولنا.

المسألة الثانية: زعم جهم أن الله تعالى لا يقع عليه اسم الشيء. اعلم أن هذا النزاع ليس إلا في اللفظ وهو أن هذا الاسم هل يقع عليه أم لا، وزعم أنه لا يقع هذا الاسم على الله تعالى واحتج عليه بأنه لو كان شيئًا لوجب كونه خالقًا لنفسه، لقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ ولما كان ذلك محالاً، وجب أن لا يقع عليه اسم الشيء، ولا يقال: هذا عام دخله التخصيص، لأن العام المخصوص إنما يحسن إذا كان المخصوص أقل من الباقي وأخس منه كما إذا قال: أكلت هذه الرمانة مع أنه سقطت منها حبات ما أكلها، وهاهنا ذات الله تعالى أعلى الموجودات وأشرفها، فكيف يمكن ذكر اللفظ العام الذي يتناوله مع كون الحكم مخصوصًا في حقه؟

والحجة الثانية: تمسك بقوله تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾ [الشورى: ١١] والمعنى: ليس مثل مثله شيء، ومعلوم أن كل حقيقة فإنها مثل مثل نفسها، فالباري تعالى مثل مثل نفسه، مع أنه تعالى نبه على أن مثل مثله ليس بشيء، فهذا تنصيص على أنه تعالى غير مسمى باسم الشيء.

والحجة الثالثة: قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا﴾ [الأعراف: ١٨٠] دلت هذه الآية على أنه لا يجوز أن يدعى الله إلا بالأسماء الحسنى، ولفظ الأشياء يتناول أخس الموجودات، فلا يكون هذا اللفظ مشعرًا بمعنى حسن، فوجب أن لا يكون هذا اللفظ من الأسماء الحسنى، فوجب أن لا يجوز دعاء الله تعالى بهذا اللفظ، والأصحاب تمسكوا في إطلاق هذا الاسم عليه تعالى بقوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩].

وأجاب الخصم عنه: بأن قوله: ﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَٰدَةً﴾ [الأنعام: ١٩] سؤال متروك الجواب، وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ [الأنعام: ١٩] كلام مبتدأ مستقل بنفسه لا تعلق له بما قبله.

المسألة الثالثة: تمسك المعتزلة بهذه الآية في أنه تعالى عالم لذاته لا بالعلم وقادر لذاته لا بالقدرة. قالوا: لأنه لو حصل لله تعالى علم وقدرة وحياة، لكانت هذه الصفات إما أن تحصل بخلق الله أو لا بخلقه، والأول باطل وإلا لزم التسلسل، والثاني: باطل لأن قوله: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ يتناول الذات والصفات حكمنا بدخول التخصيص فيه في حق ذات الله تعالى فوجب أن يبقى فيما سوى الذات على الأصل. وهو أن يكون تعالى خالقًا لكل شيء سوى ذاته تعالى، فلو كان لله علم وقدرة لوجب كونه تعالى خالقًا لهما وهو محال، وأيضًا تمسكوا بهذه الآية في خلق القرآن. قالوا: الآية دالة على أنه تعالى خالق لكل الأشياء، والقرآن ليس هو الله تعالى، فوجب أن يكون مخلوقًا وأن يكون داخلًا تحت هذا العموم.

والجواب: أقصى ما في الباب أن الصيغة عامة، إلا أنا نخصصها في حق صفات الله تعالى بسبب الدلائل العقلية.

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما شبه المؤمن والكافر والإيمان والكفر بالأعمى والبصير والظلمات والنور ضرب للإيمان والكفر مثلًا آخر فقال: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا﴾ ومن حق الماء أن يستقر في الأودية المنخفضة عن الجبال والتلال بمقدار سعة تلك الأودية وصغرها، ومن حق الماء إذا زاد على قدر الأودية أن ينبسط على الأرض ومن حق الزبد الذي يحتمله الماء فيطفو

ويربو عليه أن يتبدد في الأطراف ويبطل، سواء كان ذلك الزبد ما يجري مجرى الغليان من البياض أو ما يحفظ بالماء من الأجسام الخفيفة، ولما ذكر تعالى هذا الزبد الذي لا يظهر إلا عند اشتداد جري الماء ذكر الزبد الذي لا يظهر إلا بالنار، وذلك لأن كل واحد من الأجساد السبعة إذا أذيب بالنار لابتغاء حلية أو متاع آخر من الأمتعة التي يحتاج إليها في مصالح البيت، فإنه ينفصل عنها نوع من الزبد والخبث، ولا ينتفع به بل يضيع ويبطل ويبقى الخالص. فالحاصل: أن الوادي إذا جرى طفا عليه زبد، وذلك الزبد يبطل ويبقى الماء. والأجساد السبعة إذا أذيبت لأجل اتخاذ الحلي أو لأجل اتخاذ سائر الأمتعة انفصل عنها خبث وزبد فيبطل ويبقى ذلك الجوهر المنتفع به، فكذا هاهنا أنزل من سماء الكبرياء والجلالة والإحسان ماء وهو القرآن، والأودية قلوب العباد وشبه القلوب بالأودية، لأن القلوب تستقر فيها أنوار علوم القرآن، كما أن الأودية تستقر فيها المياه النازلة من السماء، وكما أن كل واحد فإنما يحصل فيه من مياه الأمطار ما يليق بسعته أو ضيقه، فكذا هاهنا كل قلب إنما يحصل فيه من أنوار علوم القرآن ما يليق بذلك القلب من طهارته وخبثه وقوة فهمه وقصور فهمه، وكما أن الماء يعلوه زبد الأجساد السبعة المذابة يخالطها خبث، ثم إن ذلك الزبد والخبث يذهب ويضيع ويبقى جوهر الماء وجوهر الأجساد السبعة، كذا هاهنا بيانات القرآن تختلط بها شكوك وشبهات، ثم إنها بالآخرة تزول وتضيع ويبقى العلم والدين والحكمة والمكاشفة في العاقبة، فهذا هو تقرير هذا المثل ووجه انطباق المثل على الممثل به، وأكثر المفسرين سكتوا عن بيان كيفية التمثيل والتشبيه.

المسألة الأولى: في المباحث اللفظية التي في هذه الآية في لفظ الأودية أبحاث:

البحث الأول: الأودية جمع واد وفي الوادي قولان:

القول الأول: أنه عبارة عن الفضاء المنخفض عن الجبال والتلال الذي يجري فيه السيل، هذا قول عامة أهل اللغة.

والقول الثاني: قال السهروردي: يسمى الماء واديًا إذا سال قال: ومنه سمي الودى وديًا لخروجه وسيلانه، وعلى هذا القول فالوادي اسم للماء السائل كالمسيل. والأول هو القول المشهور إلا أن على هذا التقدير يكون قوله: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ﴾ مجازًا فكان التقدير: سالت مياه الأودية إلا أنه حذف المضاف وأقيم المضاف إليه مقامه.

البحث الثاني: قال أبو علي الفارسي رحمه الله: الأودية جمع واد ولا نعلم فاعلاً جمع على أفعلة قال: ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد كعالم وعليم، وشاهد وشهيد، وناصر ونصير، ثم إن وزن فاعل يجمع على أفعال كصاحب وأصحاب، وطائر وأطيار، ووزن فعيل يجمع على أفعلة، كجريب وأجربة ثم لما حصلت المناسبة المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرم يجمع الفاعل جمع الفعيل. فيقال: واد وأودية ويجمع الفعيل على جمع الفاعل فيقال: يتيم وأيتام وشريف وأشراف هذا ما قاله أبو علي الفارسي رحمه الله. وقال

غيره: نظير واد وأودية، ناد وأندية للمجالس.

البحث الثالث: إنما ذكر لفظ أودية على سبيل التنكير، لأن المطر لا يأتي إلا على طريق المناوبة بين البقاع فتسيل بعض أودية الأرض دون بعض. أما قوله تعالى: ﴿بِقَدَرِهَا﴾ ففيه بحثان:

البحث الأول: قال الواحدي: القَدْر والقَدَرَ: مبلغ الشيء يقال: كم قَدْرُ هذه الدراهم وكم قدرها ومقدارها؟ أي كم تبلغ في الوزن، فما يكون مساويًا لها في الوزن فهو قدرها.

البحث الثاني: ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أي من الماء، فإن صغر الوادي قل الماء، وإن اتسع الوادي كثر الماء.

أما قوله: ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾.

ففيه بحثان:

البحث الأول: قال الفراء: يقال أزبد الوادي إزبادًا، والزبد الاسم، وقوله: ﴿رَّابِيًا﴾ قال الزجاج: طافيًا عاليًا فوق الماء. وقال غيره: زائدًا بسبب انتفاخه، يقال: ربا يربو إذا زاد.

أما قوله تعالى: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ فاعلم أنه تعالى لما ضرب المثل بالزبد الحاصل من الماء، أتبعه بضرب المثل بالزبد الحاصل من النار، وفيه مباحث:

البحث الأول: قرأ حمزة والكسائي وحفص عن عاصم ﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء، واختاره أبو عبيدة لقوله: ﴿يَنفَعُ النَّاسَ﴾ وأيضًا فليس هاهنا مخاطب. والباقون بالتاء على الخطاب، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان. الأول: أنه خطاب للمذكورين في قوله: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ﴾[الرعد: ١٦] والثاني: أنه يجوز أن يكون خطابًا عامًا يراد به الكافة، كأنه قال: ومما توقدون عليه في النار أيها الموقدون.

البحث الثاني: الإيقاد على الشيء على قسمين: **أحدهما:** أن لا يكون ذلك الشيء في النار، وهو كقوله تعالى ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَا هَامَانُ عَلَى الطِّينِ﴾[القصص: ٣٨]. **والثاني:** أن يوقد على الشيء ويكون ذلك الشيء في النار فإن من أراد تذويب الأجساد السبعة جعلها في النار، فلهذا السبب قال ههنا: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾.

البحث الثالث: في قوله: ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ قال أهل المعاني: الذي يوقد عليه لابتغاء حلية الذهب والفضة، والذي يوقد عليه لابتغاء الأمتعة الحديد والنحاس والرصاص، والأسرب يتخذ منها الأواني والأشياء التي ينتفع بها، والمتاع كل ما يتمتع به وقوله: ﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾ أي زبد مثل زبد الماء الذي يحمله السيل.

ثم قال تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ والمعنى كذلك يضرب الله الأمثال للحق والباطل. ثم قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ﴾ قال الفراء: الجفاء: الرمي والاطراح يقال: جفا الوادي غثاءه يجفوه جفاء إذا رماه، والجفاء اسم للمجتمع منه المنضم بعضه إلى بعض وموضع جفاء نصب على الحال، والمعنى: أن الزبد قد يعلو على وجه الماء

ويربو وينتفخ إلا أنه بالآخرة يضمحل ويبقى الجوهر الصافي من الماء ومن الأجساد السبعة، فكذلك الشبهات والخيالات قد تقوى وتعظم إلا أنها بالآخرة تبطل وتضمحل وتزول ويبقى الحق ظاهرًا لا يشوبه شيء من الشبهات، وفي قراءة رؤبة بن العجاج جفالاً، وعن أبي حاتم لا يقرأ بقراءة رؤبة لأنه كان يأكل الفار.

أما قوله تعالى: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ففيه وجهان: **الأول:** أنه تم الكلام عند قوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ ثم استأنف الكلام بقوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ ومحله الرفع بالابتداء وللذين خبره وتقديره لهم الخصلة الحسنى والحالة الحسنى. **الثاني:** أنه متصل بما قبله والتقدير: كأنه قال الذي يبقى هو مثل المستجيب والذي يذهب جفاء مثل من لا يستجيب ثم بين الوجه في كونه مثلاً وهو أنه لمن يستجيب الحسنى وهو الجنة، ولمن لا يستجيب أنواع الحسرة والعقوبة، وفيه وجه آخر وهو أن يكون التقدير: كذلك يضرب الله الأمثال للذين استجابوا لربهم الاستجابة الحسنى، فيكون الحسنى صفة لمصدر محذوف.

واعلم أنه تعالى ذكر ههنا أحوال السعداء وأحوال الأشقياء، أما أحوال السعداء فهي قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسۡتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلۡحُسۡنَىٰۚ﴾ والمعنى: أن الذين أجابوه إلى ما دعاهم إليه من التوحيد والعدل والنبوة وبعث الرسل والتزام الشرائع الواردة على لسان رسوله فلهم الحسنى. قال ابن عباس: الجنة، وقال أهل المعاني: الحسنى: هي المنفعة العظمى في الحسن، وهي المنفعة الخالصة عن شوائب المضرة الدائمة الخالية عن الانقطاع المقرونة بالتعظيم والإجلال. ولم يذكر الزيادة هاهنا لأنه تعالى قد ذكرها في سورة أخرى، وهو قوله: ﴿لِّلَّذِينَ أَحۡسَنُواْ ٱلۡحُسۡنَىٰ وَزِيَادَةٌۖ﴾[يونس: ٢٦] وأما أحوال الأشقياء، فهي قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمۡ يَسۡتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ فلهم أنواع أربعة من العذاب والعقوبة.

فالنوع الأول: قوله: ﴿لَوۡ أَنَّ لَهُم مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ جَمِيعٗا وَمِثۡلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفۡتَدَوۡاْ بِهِۦٓۚ﴾ والافتداء جعل أحد الشيئين بدلاً من الآخر، ومفعول لافتدوا به محذوف تقديره: لافتدوا به أنفسهم أي جعلوه فداء أنفسهم من العذاب، والكناية في (به) عائدة إلى (ما) في قوله: ﴿مَّا فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾.

واعلم أن هذا المعنى حق، لأن المحبوب بالذات لكل إنسان هو ذاته، وكل ما سواه فإنما يحبه لكونه وسيله إلى مصالح ذاته، فإذا كانت النفس في الضرر والألم والتعب وكان مالكًا لما يساوي عالم الأجساد والأرواح فإنه يرضى بأن يجعله فداء لنفسه، لأن المحبوب بالعرض لا بد وأن يكون فداء لما يكون محبوبًا بالذات.

والنوع الثاني: من أنواع العذاب الذي أعده الله لهم هو قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ سُوٓءُ ٱلۡحِسَابِ﴾ قال الزجاج: ذاك لأن كفرهم أحبط أعمالهم. وأقول ههنا حالتان: فكل ما شغلك بالله وعبوديته ومحبته فهي الحالة السعيدة الشريفة العلوية القدسية، وكل ما شغلك بغير الله فهي الحالة الضارة المؤذية الخسيسة، ولا شك أن هاتين الحالتين يقبلان الأشد والأضعف والأقل والأزيد، ولا شك أن المواظبة على الأعمال المناسبة لهذه الأحوال توجب قوتها ورسوخها لما ثبت في

المعقولات أن كثرة الأفعال توجب حصول الملكات الراسخة، ولا شك أنه لما كانت كثرة الأفعال توجب حصول تلك الملكات الراسخة وكل واحدة من تلك الأفعال حتى اللمحة واللحظة والخطور بالبال والالتفات الضعيف فإنه يوجب أثرًا ما في حصول تلك الحالة في النفس فهذا هو الحساب، وعند التأمل في هذه الفصول يتبين للإنسان صدق قوله: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۝ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

إذا ثبت هذا فالسعداء هم الذين استجابوا لربهم في الإعراض عما سوى الله وفي الإقبال بالكلية على عبودية الله تعالى ولا جرم حصل لهم الحسنى.

وأما الأشقياء فهم الذين لم يستجيبوا لربهم، فلهذا السبب وجب أن يحصل لهم سوء الحساب، والمراد بسوء الحساب أنهم أحبوا الدنيا وأعرضوا عن المولى فلما ماتوا بقوا محرومين عن معشوقهم الذي هو الدنيا وبقوا محرومين عن الفوز بخدمة حضرة المولى.

والنوع الثالث: قوله تعالى: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ وذلك لأنهم كانوا غافلين عن الاستعداد بخدمة حضرة المولى عاكفين على لذات الدنيا، فإذا ماتوا فارقوا معشوقهم فيحترقون على مفارقتها وليس عندهم شيء آخر يجبر هذه المصيبة، فلذلك قال: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ ثم إنه تعالى وصف هذا المأوى فقال: ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ ولا شك أن الأمر كذلك.

ثم قال تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ فهذا إشارة إلى المثل المتقدم ذكره وهو أن العالم بالشيء كالبصير، والجاهل به كالأعمى، وليس أحدهما كالآخر، لأن الأعمى إذا أخذ يمشي من غير قائد، فالظاهر أنه يقع في البئر وفي المهالك، وربما أفسد ما كان على طريقه من الأمتعة النافعة، أما البصير فإنه يكون آمنًا من الهلاك والإهلاك.

ثم قال: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ والمراد أنه لا ينتفع بهذه الأمثلة إلا أرباب الألباب الذين يطلبون من كل صورة معناها، ويأخذون من كل قشرة لبابها ويعبرون بظاهر كل حديث إلى سره ولبابه.

قوله عزَّ وجلَّ: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١ وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٢ جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ۝٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ۝٢٤﴾

اعلم أن هذه الآية هل هي متعلقة بما قبلها أم لا؟

فيه قولان:

القول الأول: إنها متعلقة بما قبلها، وعلى هذا التقدير ففيه وجهان: **الأول:** أنه يجوز أن يكون

قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ صفة لأولي الألباب. **والثاني:** أن يكون ذلك صفةً لقوله: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد: ١٩].

والقول الثاني: أن يكون قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ مبتدأ: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ خبره كقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ [الرعد: ٢٥] واعلم أن هذه الآية من أولها إلى آخرها جملة واحدة: شرط وجزاء، وشرطها مشتمل على قيود، وجزاؤها يشتمل أيضًا على قيود. أما القيود المعتبرة في الشرط فهي تسعة:

القيد الأول: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ وفيه وجوه: الأول: قال ابن عباس رضي الله عنهما: يريد الذي عاهدهم عليه حين كانوا في صلب آدم وأشهدهم على أنفسهم: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡۖ قَالُواْ بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢] والثاني: أن المراد بعهد الله كل أمر قام الدليل على صحته وهو من وجهين: أحدهما: الأشياء التي أقام الله عليها دلائل عقلية قاطعة لا تقبل النسخ والتغيير. والآخر: التي أقام الله عليها الدلائل السمعية وبين لهم تلك الأحكام، والحاصل أنه دخل تحت قوله: ﴿يُوفُونَ بِعَهۡدِ ٱللَّهِ﴾ كل ما قام الدليل عليه. ويصح إطلاق لفظ العهد على الحجة بل الحق أنه لا عهد أوكد من الحجة والدلالة على ذلك أن من حلف على الشيء فإنما يلزمه الوفاء به، إذا ثبت بالدليل وجوبه لا بمجرد اليمين ولذلك ربما يلزمه أن يحدث نفسه إذا كان ذلك خيرًا له فلا عهد أوكد من إلزام الله تعالى إياه ذلك بدليل العقل أو بدليل السمع. ولا يكون العبد موفيًا للعهد إلا بأن يأتي بكل تلك الأشياء كما أن الحالف على أشياء كثيرة لا يكون بارًا في يمينه إلا إذا فعل الكل، ويدخل فيه الاتيان بجميع المأمورات والانتهاء عن كل المنهيات ويدخل فيه الوفاء بالعقود في المعاملات، ويدخل فيه أداء الأمانات، وهذا القول هو المختار الصحيح في تأويل الآية.

القيد الثاني: قوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلۡمِيثَٰقَ﴾.

وفيه أقوال:

القول الأول: وهو قول الأكثرين: إن هذا الكلام قريب من الوفاء بالعهد، فإن الوفاء بالعهد قريب من عدم نقض الميثاق والعهد، وهذا مثل أن يقول: إنه لما وجب وجوده، لزم أن يمتنع عدمه، فهذان المفهومان متغايران إلا أنهما متلازمان، فكذلك الوفاء بالعهد يلزمه أن لا ينقض الميثاق.

واعلم أن الوفاء بالعهد من أجل مراتب السعادة. قال عليه السلام: «**لاَ إِيمَانَ لِمَنْ لاَ أَمَانَةَ لَهُ وَلاَ دِينَ لمن عَهْدَ لَهُ**»(١) والآيات الواردة في هذا الباب كثيرة في القرآن.

والقول الثاني: أن الميثاق ما وثقه المكلف على نفسه، فالحاصل: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهۡدِ

---

(١) صحيح: أخرجه أحمد في (مسنده) (٣/ ١٣٥) حديث رقم/ ١٢٤٠٦، وأبو يعلي في (مسنده) (٥/ ٢٤٦) حديث رقم/ ٢٨٦٣، كلاهما من طريق أبي هلال عن قتادة عن أنس. . . به، وابن حبان في (صحيحه) (١/ ٤٢٢) حديث رقم/ ١٩٤، من طريق حماد بن سلمة عن ثابت عن أنس. . . به.

ٱللَّهِ﴾ إشارة إلى ما كلف الله العبد به ابتداء. وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إشارة إلى ما التزمه العبد من أنواع الطاعات بحسب اختيار نفسه: كالنذر بالطاعات والخيرات.

والقول الثالث: أن المراد بالوفاء بالعهد: عهد الربوبية والعبودية، والمراد بالميثاق: المواثيق المذكورة في التوراة والإنجيل وسائر الكتب الإلهية على وجوب الإيمان بنبوة محمد ﷺ عند ظهوره.

واعلم أن الوفاء بالعهد أمر مستحسن في العقول والشرائع، قال عليه السلام: «**مَنْ عَاهَدَ اللَّهَ فَغَدَرَ، كَانَتْ فِيهِ خَصْلَةٌ مِنَ النِّفَاقِ**» وعنه عليه السلام: «**ثلاثة أنا خصمهم يوم القيام وَمَنْ كُنْتُ خَصْمَهُ خَصَمْتُهُ رَجُلٌ أَعْطَى عَهْدًا ثُمَّ غَدَرَ، وَرَجُلٌ اسْتَأْجَرَ أَجِيرًا اسْتَوْفَى عَمَلَهُ وَظَلَمَهُ أَجْرَهُ، وَرَجُلٌ بَاعَ حُرًّا فَاسْتَرَقَّ الْحُرَّ وَأَكَلَ ثَمَنَهُ**» وقيل: كان بين معاوية وملك الروم عهد فأراد أن يذهب إليهم وينقض العهد فإذا رجل على فرس يقول: وفاء بالعهد لا غدر. سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**مَنْ كَانَ بَيْنَهُ وَبَيْنَ قَوْمٍ عَهْدٌ فَلَا يَنْبِذَنَّ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُ وَلاَ يَحُلَّهَا حَتَّى يَنْقَضِيَ الْأَمَدُ وَيَنْبِذَ إِلَيْهِمْ عَلَى سَوَاءٍ**»(١) قال من هذا؟ قالوا: عمرو بن عيينة فرجع معاوية.

القيد الثالث: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وههنا سؤال: وهو أن الوفاء بالعهد وترك نقض الميثاق اشتمل على وجوب الإتيان بجميع المأمورات والاحتراز عن كل المنهيات فما الفائدة في ذكر هذه القيود المذكورة بعدهما؟

والجواب من وجهين: الأول: أنه ذكر لئلا يظن ظان أن ذلك فيما بينه وبين الله تعالى فلا جرم أفرد ما بينه وبين العباد بالذكر. والثاني: أنه تأكيد.

إذا عرفت هذا فنقول: ذكروا في تفسيره وجوهًا: الأول: أن المراد منه صلة الرحم قال عليه السلام: «**ثَلَاثٌ يَأْتِينَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ لَهَا ذَلَقٌ الرَّحِمُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ قُطِعْتُ، وَالْأَمَانَةُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ تُرِكْتُ، وَالنِّعْمَةُ تَقُولُ: أَيْ رَبِّ كُفِرْتُ**»(٢).

---

(١) صحيح: أخرجه أبو داود في كتاب (الجهاد) باب (في الإمام يكون بينه وبين العدو عهد فيسير إليه) (٣/ ١٢٠٠) حديث رقم/ ٢٧٥٩، والترمذي في كتاب (السير) باب (ما جاء في القدر) (٤/ ١٢١) حديث رقم/ ١٥٨٠، وأخرجه النسائي في (السنن) (٥/ ٢٢٣) حديث رقم/ ٨٧٣٢، وأحمد في (مسنده) (٤/ ١١١/ ١١٣/ ٣٨٦) والبيهقي في (سننه) (٩/ ٢٣١)، جميعا من طريق شعبة... به.

(٢) لم اجده بهذا اللفظ: ورواه البزار في (مسنده) (١٠/ ٤٠) حديث رقم/ ٤١١٨، والبيهقي في (الأسماء والصفات) (٢/ ٣٢٧) حديث رقم/ ٧٦٠، كلاهما إسناده ضعيف، من طريق يزيد بن ربيعة عن أبي الأشعث عن أبي عثمان عن ثوبان رضي الله عنه قال قال رسول الله ﷺ: (ثلاث متعلقات بالعرش الرحم تقول اللهم إني بك فلا أقطع والأمانة تقول اللهم إني بك فلا أخان والنعمة تقول اللهم إني بك فلا أكفر). واللفظ لهما

وقال البزار: وهذا الحديث لا نعلمه يروى بهذا اللفظ إلا عن ثوبان بهذا الإسناد وقد روى بعض كلامه بغير لفظة من غير وجه فذكرنا حديث ثوبان هذا لأنه جمع معنيين اختلاف لفظه وزيادة في حديث لا يحفظ إلا من هذا الوجه. وقد تقدم ذكرنا ليزيد بن ربيعة ولأبي عثمان هذا فاستغنينا عن إعادة ذكرهما، أورده الهيثمي في (المجمع) (٨/ ١٤٩)، وقال: رواه البزار وفيه يزيد بن ربيعة الرجي وهو متروك، وقال ابن عدي أرجو أنه لابأس به، وأورده المنذري في (الترغيب) (٢/ ٧٧) حديث رقم/ ١٤٩٣، وقال الألباني: ضعيف جدًا.

والقول الثاني: أن المراد صلة محمد ﷺ ومؤازرته ونصرته في الجهاد.

والقول الثالث: رعاية جميع الحقوق الواجبة للعباد، فيدخل فيه صلة الرحم وصلة القرابة الثابتة بسبب أخوة الإيمان كما قال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ [الحجرات: ١٠] ويدخل في هذه الصلة امدادهم بإيصال الخيرات ودفع الآفات بقدر الإمكان وعيادة المريض وشهود الجنائز وإفشاء السلام على الناس والتبسم في وجوههم وكف الأذى عنهم ويدخل فيه كل حيوان حتى الهرة والدجاجة، وعن الفضيل بن عياض رحمه الله أن جماعة دخلوا عليه بمكة فقال: من أين أنتم؟ قالوا: من خراسان. فقال: اتقوا الله وكونوا من حيث شئتم، واعلموا أن العبد لو أحسن كل الإحسان وكان له دجاجة فأساء إليها لم يكن من المحسنين، وأقول: حاصل الكلام: أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ إشارة إلى التعظيم لأمر الله وقوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ إشارة إلى الشفقة على خلق الله.

القيد الرابع: قوله: ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ والمعنى: أنه وإن أتى بكل ما قدر عليه في تعظيم أمر الله، وفي الشفقة على خلق الله إلا أنه لا بد وأن تكون الخشية من الله والخوف منه مستوليًا على قلبه وهذه الخشية نوعان:

أحدهما: أن يكون خائفًا من أن يقع زيادة أو نقصان أو خلل في عباداته وطاعاته، بحيث يوجب فساد العبادة أو يوجب نقصان ثوابها.

والثاني: وهو خوف الجلال وذلك لأن العبد إذا حضر عند السلطان المهيب القاهر فإنه وإن كان في عين طاعته إلا أنه لا يزول عن قلبه مهابة الجلالة والرفعة والعظمة.

القيد الخامس: قوله: ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ اعلم أن القيد الرابع إشارة إلى الخشية من الله وهذا القيد الخامس إشارة إلى الخوف والخشية وسوء الحساب، وهذا يدل على أن المراد من الخشية من الله ما ذكرناه من خوف الجلال والمهابة والعظمة وإلا لزم التكرار.

القيد السادس: قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فيدخل فيه الصبر على فعل العبادات والصبر على ثقل الأمراض والمضار، والغموم والأحزان، والصبر على ترك المشتهيات وبالجملة الصبر على ترك المعاصي وعلى أداء الطاعات. ثم إن الإنسان قد يقدم على الصبر لوجوه:

أحدها: أن يصبر ليقال ما أكمل صبره وأشد قوته على تحمل النوازل.

وثانيها: أن يصبر لئلا يعاب بسبب الجزع.

وثالثها: أن يصبر لئلا تحصل شماتة الأعداء.

ورابعها: أن يصبر لعلمه بأن لا فائدة في الجزع فالإنسان إذا أتى بالصبر لأحد هذه الوجوه لم يكن ذلك داخلًا في كمال النفس وسعادة القلب، أما إذا صبر على البلاء لعلمه بأن ذلك البلاء قسمة حكم بها القسام العلام المنزه عن العيب والباطل والسفه، بل لا بد أن تكون تلك القسمة

مشتملة على حكمة بالغة ومصلحة راجحة ورضي بذلك، لأنه تصرف المالك في ملكه ولا اعتراض على المالك في أن يتصرف في ملكه أو يصبر لأنه صار مستغرقًا في مشاهدة المبلي فكان استغراقه في تجلي نور المبلي أذهله على التألم بالبلاء وهذا أعلى مقامات الصديقين، فهذه الوجوه الثلاثة هي التي يصدق عليها أنه صبر ابتغاء وجه ربه ومعناه أنه صبر لمجرد ثوابه، وطلب رضا الله تعالى.

واعلم أن قوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ فيه دقيقة، وهي أن العاشق إذا ضربه معشوقه، فربما نظر العاشق لذلك الضارب وفرح به فقوله: ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ محمول على هذا المجاز، يعني كما أن العاشق يرضى بذلك الضرب لالتذاذه بالنظر إلى وجه معشوقه، فكذلك العبد يصبر على البلاء والمحنة، ويرضى به لاستغراقه في معرفة نور الحق وهذه دقيقة لطيفة.

القيد السابع: قوله: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾.

واعلم أن الصلاة والزكاة وإن كانتا داخلتين في الجملة الأولى إلا أنه تعالى أفردها بالذكر تنبيهًا على كونها أشرف من سائر العبادات وقد سبق في هذا الكتاب تفسير إقامة الصلاة ولا يمتنع إدخال النوافل فيه أيضًا.

القيد الثامن: قوله تعالى: ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الحسن: المراد الزكاة المفروضة فإن لم يتهم بترك أداء الزكاة فالأولى أداؤها سرًا وإن اتهم بترك الزكاة فالأولى أداؤها في العلانية. وقيل السر: ما يؤديه بنفسه والعلانية: ما يؤديه إلى الإمام، وقال آخرون: بل المراد الزكاة الواجبة والصدقة التي يؤتى بها على صفة التطوع فقوله: ﴿سِرًّا﴾ يرجع إلى التطوع وقوله: ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ يرجع إلى الزكاة الواجبة.

المسألة الثانية: قالت المعتزلة: إنه تعالى رغب في الانفاق من كل ما كان رزقًا، وذلك يدل على أنه لا رزق إلا الحلال إذ لو كان الحرام رزقًا لكان قد رغب تعالى في إنفاق الحرام وأنه لا يجوز.

القيد التاسع: قوله: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ **وفيه وجهان:**

الأول: أنهم إذا أتوا بمعصية درؤها ودفعوها بالتوبة كما روي أن النبي ﷺ قال لمعاذ بن جبل: «إِذَا عَمِلْتَ سَيِّئَةً فَاعْمَلْ بِجَنْبِهَا حَسَنَةً تَمْحُهَا»(١).

---

(١) **إسناده ضعيف:** أخرجه الطبراني في (الكبير) (٢٠/ ١٧٥) حديث رقم/ ٣٧٤، وهناد في (الزهد) (٢/ ٥٣١) حديث رقم/ ١٠٩٢، وابن أبي شيبة في مصنفه (١١/ ٢٣٥) حديث رقم/ ٣٥٤٦٦، جميعا من طريق مُحَمَّدُ بْنُ عَمْرٍو قَالَ: حَدَّثَنَا أَبُو سَلَمَةَ، قَالَ: قَالَ مُعَاذُ بْنُ جَبَلٍ: أَيْ رَسُولَ اللهِ، أَوْصِنِي، وأورده الهيثمي في (المجمع) (٤/ ٢١٨)، وقال: رواه الطبراني وأبو سلمة لم يدرك معاذا ورجاله ثقات (قلت) يعني إسناد منقطع.

والثاني: أن المراد أنهم لا يقابلون الشر بالشر بل يقابلون الشر بالخير كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَرُّواْ بِٱللَّغْوِ مَرُّواْ كِرَامًا﴾ [الفرقان: ٧٢] وعن ابن عمر رضي الله عنهما «**ليس الوَصُول من وصل ثم وصل تلك المجازاة لكنه من قطع ثم وصل وعطف على من لم يصله، وليس الحليم من ظلم ثم حلم حتى إذا هيجه قوم اهتاج، لكن الحليم من قدر ثم عفا**». وعن الحسن: هم الذين إذا حرموا أعطوا وإذا ظلموا عفوا، ويروى أن شقيق بن إبراهيم البلخي دخل على عبد الله بن المبارك متنكرًا، فقال من أين أنت؟ فقال: من بلخ، فقال: وهل تعرف شقيقًا قال نعم، فقال: كيف طريقة أصحابه؟ فقال: إذا منعوا صبروا وإن أعطوا شكروا، فقال عبد الله: طريقة كلابنا هكذا. فقال: فكيف ينبغي أن يكون فقال الكاملون: هم الذين إذا منعوا شكروا وإذا أعطوا آثروا.

واعلم أن جملة هذه القيود التسعة هي القيود المذكورة في الشرط. أما القيود المذكورة في الجزاء فهي أربعة:

القيد الأول: قوله: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي عاقبة الدار وهي الجنة، لأنها هي التي أراد الله أن تكون عاقبة الدنيا ومرجع أهلها. قال الواحدي: العقبى كالعاقبة، ويجوز أن تكون مصدرًا كالشورى والقربى والرجعى، وقد يجيء مثل هذا أيضًا على فَعلى كالنجوى والدعوى، وعلى فِعلى كالذكرى والضيزى، ويجوز أن يكون اسمًا وهو ههنا مصدر مضاف إلى الفاعل، والمعنى: أولئك لهم أن تعقب أعمالهم الدار التي هي الجنة.

القيد الثاني: قوله: ﴿جَنَّٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: قال الزجاج: جنات عدن بدل من عقبى والكلام في جنات عدن ذكرناه مستقصى عند قوله تعالى: ﴿وَمَسَٰكِنَ طَيِّبَةً فِي جَنَّٰتِ عَدْنٍ﴾ [التوبة: ٧٢] وذكرنا هناك مذهب المفسرين، ومذهب أهل اللغة.

المسألة الثانية: قرأ ابن كثير وأبو عمرو ﴿يُدْخَلُونَهَا﴾ بضم الياء وفتح الخاء على ما لم يسم فاعله والباقون بفتح الياء وضم الخاء على إسناد الدخول إليهم.

القيد الثالث: قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قرأ ابن علية (صلح) بضم اللام قال صاحب الكشاف: والفتح أفصح.

المسألة الثانية: قال الزجاج: موضع من رفع لأجل العطف على الواو في قوله ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾ ويجوز أن يكون نصبًا كما تقول قد دخلوا وزيدًا أي مع زيد.

المسألة الثالثة: في قوله: ﴿وَمَن صَلَحَ﴾ قولان: الأول: قال ابن عباس: يريد من صدَّق بما صدقوا به وإن لم يعمل مثل أعمالهم. وقال الزجاج: بين تعالى أن الأنساب لا تنفع إذا لم يحصل معها أعمال صالحة بل الآباء والأزواج والذريات لا يدخلون الجنة إلا بالأعمال

الصالحة. قال الواحدي: والصحيح ما قال ابن عباس، لأن الله تعالى جعل من ثواب المطيع سروره بحضور أهله معه في الجنة وذلك يدل على أنهم يدخلونها كرامة للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة، ولو دخلوها بأعمالهم الصالحة لم يكن في ذلك كرامة للمطيع ولا فائدة في الوعد به، إذ كل من كان مصلحًا في عمله فهو يدخل الجنة.

واعلم أن هذه الحجة ضعيفة، لأن المقصود بشارة المطيع بكل ما يزيده سرورًا وبهجة فإذا بشر الله المكلف بأنه إذا دخل الجنة فإنه يحضر معه آباؤه وأزواجه وأولاده فلا شك أنه يعظم سرور المكلف بذلك وتقوى بهجته به، ويقال: إن من أعظم موجبات سروره: هم أن يجتمعوا فيتذاكروا أحوالهم في الدنيا ثم يشكرون الله على الخلاص منها والفوز بالجنة ولذلك قال تعالى في صفة أهل الجنة إنهم يقولون: ﴿يَٰلَيۡتَ قَوۡمِي يَعۡلَمُونَ﴾ [يس: ٢٦، ٢٧].

المسألة الرابعة: قوله: ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ﴾ ليس فيه ما يدل على التمييز بين زوجة وزوجة، ولعل الأولى من مات عنها أو ماتت عنه، وما روي عن سودة أنه لما هم الرسول ﷺ بطلاقها قالت: دعني يا رسول الله أحشر في زمرة نسائك [١]، كالدليل على ما ذكرناه.

القيد الرابع: قوله: ﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣﴾.

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: قال ابن عباس: لهم خيمة من درة مجوفة طولها فرسخ وعرضها فرسخ لها ألف باب مصاريعها من ذهب يدخلون عليهم الملائكة من كل باب يقولون لهم: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ على أمر الله. وقال أبو بكر الأصم: من كل باب من أبواب البر كباب الصلاة وباب الزكاة وباب الصبر ويقولون: ونعم ما أعقبكم الله بعد الدار الأولى.

واعلم أن دخول الملائكة إن حملناه على الوجه الأول فهو مرتبة عظيمة، وذلك لأن الله تعالى أخبر عن هؤلاء المطيعين أنهم يدخلون جنة الخلد، ويجتمعون بآبائهم وأزواجهم وذرياتهم على أحسن وجه، ثم إن الملائكة مع جلالة مراتبهم يدخلون عليهم لأجل التحية والإكرام عند الدخول عليهم يكرمونهم بالتحية والسلام ويبشرونهم بقوله: ﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ ولا شك أن هذا غير ما يذكره المتكلمون من أن الثواب منفعة خالصة دائمة مقرونة بالإجلال والتعظيم، وعن رسول الله ﷺ أنه كان يأتي قبور الشهداء رأس كل حول فيقول: «السَّلَامُ عَلَيْكُمْ

---

(١) صحيح: الطبري في (تفسيره) (٢٠/ ٣٠٢)، من طريق ابن جريج عن عطاء عن عبيد بن عمير عن عائشة... به، ورواه البيهقي في (سننه الكبرى) (٧/ ٧٥)، من طريق حفص بن غياث عن هشام بن عروة عن أبيه... به، ورواه أيضا في (٧/ ٢٩٦)، وأبو نعيم في (معرفة الصحابة) (٢٢/ ٣١٥) حديث رقم/ ٦٨٠٣، كلاهما من طريق عقبة بن خالد عن هشام بن عروة عن أبيه عن عائشة... به.

وأخرجه البخاري في (صحيحه) (٥/ ١٩٩٩) حديث رقم/ ٤٩١٤، من طريق زهير عن هشام عن أبيه عن عائشة أن سودة وهبت يومها لعائشة.

بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ» (١) والخلفاء الأربعة هكذا كانوا يفعلون، وأما إن حملناه على الوجه الثاني فتفسير الآية أن الملائكة طوائف، منهم روحانيون ومنهم كروبيون. فالعبد إذا راض نفسه بأنواع الرياضات كالصبر والشكر والمراقبة والمحاسبة، ولكل مرتبة من هذه المراتب جوهر قدسي وروح علوي يختص بتلك الصفة مزيد اختصاص؛ فعند الموت إذا أشرقت تلك الجواهر القدسية تجلت فيها من كل روح من الأرواح السماوية ما يناسبها من الصفة المخصوصة بها فيفيض عليها من ملائكة الصبر كمالات مخصوصة نفسانية لا تظهر إلا في مقام الصبر، ومن ملائكة الشكر، كمالات روحانية لا تتجلى إلا في مقام الشكر وهكذا القول في جميع المراتب.

المسألة الثانية: تمسك بعضهم بهذه الآية على أن الملك أفضل من البشر فقال: إنه سبحانه ختم مراتب سعادات البشر بدخول الملائكة عليهم على سبيل التحية والإكرام والتعظيم فكانوا به أجل مرتبة من البشر ولو كانوا أقل مرتبة من البشر لما كان دخولهم عليهم لأجل السلام والتحية موجبًا علو درجاتهم وشرف مراتبهم، ألا ترى أن من عاد من سفره إلى بيته فإذا قيل في معرض كمال مرتبته أنه يزوره الأمير والوزير والقاضي والمفتي، فهذا يدل على أن درجة ذلك المزور أقل وأدنى من درجات الزائرين فكذلك هاهنا.

المسألة الثالثة: قال الزجاج: هاهنا محذوف تقديره الملائكة يدخلون عليهم من كل باب ويقولون سلام عليكم فأضمر القول ههنا لأن في الكلام دليلاً عليه، وأما قوله: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ ففيه وجهان: أحدهما: أنه متعلق بالسلام. والمعنى أنه إنما حصلت لكم هذه السلامة بواسطة صبركم على الطاعات، وترك المحرمات. والثاني: أنه متعلق بمحذوف، والتقدير: أن هذه الكرامات التي ترونها، وهذه الخيرات التي تشاهدونها إنما حصلت بواسطة ذلك الصبر.

قوله تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الْأَرْضِ أُولَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما ذكر صفات السعداء وذكر ما يترتب عليها من الأحوال الشريفة العالية أتبعها بذكر حال الأشقياء، وذكر ما يترتب عليها من الأحوال المخزية المكروهة، وأتبع الوعد بالوعيد والثواب بالعقاب، ليكون البيان كاملاً فقال: ﴿وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِن بَعْدِ مِيثَاقِهِ﴾ وقد بينا أن عهد الله ما ألزم عباده بواسطة الدلائل العقلية والسمعية لأنها أوكد من كل عهد وكل يمين إذ الأيمان إنما تفيد التوكيد بواسطة الدلائل الدالة على أنها توجب الوفاء بمقتضاها، والمراد من نقض هذه العهود أن لا ينظر المرء في الأدلة أصلاً، فحينئذ لا يمكنه العمل بموجبها أو بأن ينظر

(١) لم أجده.

فيها ويعلم صحتها ثم يعاند فلا يعمل بعمله أو بأن ينظر في الشبهة، فيعتقد خلاف الحق والمراد من قوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ أي من بعد أن وثق الله تلك الأدلة وأحكمها، لأنه لا شيء أقوى مما دل الله على وجوبه في أنه ينفع فعله ويضر تركه.

فإن قيل: إذا كان العهد لا يكون إلا مع الميثاق فما فائدة اشتراطه تعالى بقوله: ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾.

قلنا: لا يمتنع أن يكون المراد بالعهد هو ما كلف الله العبد، والمراد بالميثاق الأدلة المؤكدة لأنه تعالى قد يؤكد إليك العهد بدلائل أخرى سواء كانت تلك المؤكدة دلائل عقلية أو سمعية.

ثم قال تعالى: ﴿وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ وذلك في مقابلة قوله: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ [الرعد: ٢١] فجعل من صفات هؤلاء القطع بالضد من ذلك الوصل، والمراد به قطع كل ما أوجب الله وصله ويدخل فيه وصل الرسول بالموالاة والمعاونة ووصل المؤمنين، ووصل الأرحام، ووصل سائر من له حق، ثم قال: ﴿وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ وذلك الفساد هو الدعاء إلى غير دين الله وقد يكون بالظلم في النفوس والأموال وتخريب البلاد، ثم إنه تعالى بعد ذكر هذه الصفات قال: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ﴾ واللعنة من الله الإبعاد من خيري الدنيا والآخرة إلى ضدهما من عذاب ونقمة: ﴿وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ لأن المراد جهنم، وليس فيها إلا ما يسوء الصائر إليها.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا وَمَا ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٞ ٢٦﴾

اعلم أنه تعالى لما حكم على من نقض عهد الله في قبول التوحيد والنبوة بأنهم ملعونون في الدنيا ومعذبون في الآخرة فكأنه قيل: لو كانوا أعداء الله لما فتح الله عليهم أبواب النعم واللذات في الدنيا، فأجاب الله تعالى عنه بهذه الآية وهو أنه يبسط الرزق على البعض ويضيقه على البعض ولا تعلق له بالكفر والإيمان، فقد يوجد الكافر موسعًا عليه دون المؤمن، ويوجد المؤمن مضيقًا عليه دون الكافر، فالدنيا دار امتحان. قال الواحدي: معنى القدر في اللغة: قطع الشيء على مساواة غيره من غير زيادة ولا نقصان. وقال المفسرون: معنى (يقدر) ههنا يضيق، ومثله قوله تعالى: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيۡهِ رِزۡقُهُۥ﴾ [الطلاق: ٧] أي ضيق، ومعناه: أنه يعطيه بقدر كفايته لا يفضل عنه شيء.

وأما قوله: ﴿وَفَرِحُواْ بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ فهو راجع إلى من بسط الله له رزقه، وبين تعالى أن ذلك لا يوجب الفرح لأن الحياة العاجلة بالنسبة إلى الآخرة كالحقير القليل بالنسبة إلى ما لا نهاية له.

قوله تعالى: ﴿ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ﴾

اعلم أن الكفار قالوا: يا محمد إن كنت رسولاً فأتنا بآية ومعجزة قاهرة ظاهرة مثل معجزات موسى وعيسى عليهما السلام. فأجاب عن هذا السؤال بقوله: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ وبيان كيفية هذا الجواب من وجوه: أحدها: كأنه تعالى يقول: إن الله أنزل عليه آيات ظاهرة ومعجزات قاهرة، ولكن الإضلال والهداية من الله، فأضلكم عن تلك الآيات القاهرة الباهرة، وهدى أقوامًا آخرين إليها، حتى عرفوا بها صدق محمد ﷺ في دعوى النبوة، وإذا كان كذلك فلا فائدة في تكثير الآيات والمعجزات، وثانيها: أنه كلام يجري مجرى التعجب من قولهم وذلك لأن الآيات الباهرة المتكاثرة التي ظهرت على رسول الله ﷺ كانت أكثر من أن تصير مشتبهة على العاقل، فلما طلبوا بعدها آيات أخرى كان موضعًا للتعجب والاستنكار، فكأنه قيل لهم: ما أعظم عنادكم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ من كان على صفتكم من التصميم وشدة الشكيمة على الكفر فلا سبيل إلى اهتدائكم وإن أنزلت كل آية ﴿وَيَهْدِىٓ﴾ من كان على خلاف صفتكم. وثالثها: أنهم لما طلبوا سائر الآيات والمعجزات فكأنه قيل لهم لا فائدة في ظهور الآيات والمعجزات، فإن الإضلال والهداية من الله فلو حصلت الآيات الكثيرة ولم تحصل الهداية فإنه لم يحصل الانتفاع بها ولو حصلت آية واحدة فقط وحصلت الهداية من الله فإنه يحصل الانتفاع بها فلا تشتغلوا بطلب الآيات ولكن تضرعوا إلى الله في طلب الهدايات. ورابعها: قال أبو علي الجبائي: المعنى إن الله يضل من يشاء عن رحمته وثوابه عقوبة له على كفره فلستم ممن يجيبه الله تعالى إلى ما يسأل لاستحقاقكم العذاب والإضلال عن الثواب: ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي يهدي إلى جنته من تاب وآمن قال وهذا يبين أن الهدى هو الثواب من حيث أنه عقبه بقوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ أي تاب والهدى الذي يفعله بالمؤمن هو الثواب، لأنه يستحقه على إيمانه، وذلك يدل على أنه تعالى إنما يضل عن الثواب بالعقاب، لا عن الدين بالكفر على ما ذهب إليه من خالفنا. هذا تمام كلام أبي علي وقوله: (أناب) أي أقبل إلى الحق وحقيقته دخل في نوبة الخير.

قوله تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ﴾

اعلم أن قوله: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل من قوله: ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ قال ابن عباس: يريد إذا سمعوا القرآن خشعت قلوبهم واطمأنت.

فإن قيل: أليس أنه تعالى قال في سورة الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾

[الأنفال: ٢] والوجل ضد الاطمئنان، فكيف وصفهم ههنا بالاطمئنان؟

والجواب من وجوه: الأول، أنهم إذا ذكروا العقوبات ولم يأمنوا من أن يقدموا على المعاصي فهناك وصفهم بالوجل، وإذا ذكروا وعده بالثواب والرحمة، سكنت قلوبهم إلى ذلك، وأحد الأمرين لا ينافي الآخر، لأن الوجل هو بذكر العقاب والطمأنينة بذكر الثواب، ويوجد الوجل في حال فكرهم في المعاصي، وتوجد الطمأنينة عند اشتغالهم بالطاعات. الثاني: أن المراد: أن علمهم بكون القرآن معجزًا يوجب حصول الطمأنينة لهم في كون محمد ﷺ نبيًا حقًا من عند الله. أما شكهم في أنهم أتوا بالطاعات على سبيل التمام والكمال فيوجب حصول الوجل في قلوبهم. الثالث: أنه حصلت في قلوبهم الطمأنينة في أن الله تعالى صادق في وعده ووعيده، وأن محمدًا ﷺ صادق في كل ما أخبر عنه، إلا أنه حصل الوجل والخوف في قلوبهم أنهم هل أتوا بالطاعة الموجبة للثواب أم لا، وهل احترزوا عن المعصية الموجبة للعقاب أم لا.

واعلم أن لنا في قوله: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أبحاثًا دقيقة غامضة وهي من وجوه:

الوجه الأول: أن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثر لا يتأثر، ومتأثر لا يؤثر، وموجود يؤثر في شيء ويتأثر عن شيء، فالمؤثر الذي لا يتأثر هو الله سبحانه وتعالى، والمتأثر الذي لا يؤثر هو الجسم، فإنه ذات قابلة للصفات المختلفة والآثار المتنافية، وليس له خاصية إلا القبول فقط. وأما الموجود الذي يؤثر تارة ويتأثر أخرى، فهي الموجودات الروحانية، وذلك لأنها إذا توجهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلة للآثار الفائضة عن مشيئة الله تعالى وقدرته وتكوينه وإيجاده وإذا توجهت إلى عالم الأجسام اشتقات إلى التصرف فيها، لأن عالم الأرواح مدبر لعالم الأجسام. وإذا عرفت هذا فالقلب كلما توجه إلى مطالعة عالم الأجسام حصل فيه الاضطراب والقلق والميل الشديد إلى الاستيلاء عليها والتصرف فيها، أما إذا توجه القلب إلى مطالعة الحضرة الإلهية حصل فيه أنوار الصمدية والأضواء الإلهية، فهناك يكون ساكنًا فلهذا السبب قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

الوجه الثاني: أن القلب كلما وصل إلى شيء فإنه يطلب الانتقال منه إلى حالة أخرى أشرف منها، لأنه لا سعادة في عالم الأجسام إلا وفوقها مرتبة أخرى في اللذة والغبطة. أما إذا انتهى القلب والعقل إلى الاستسعاد بالمعارف الإلهية والأضواء الصمدية بقي واستقر فلم يقدر على الانتقال منه ألبتة، لأنه ليس هناك درجة أخرى في السعادة أعلى منها وأكمل؛ فلهذا المعنى قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

والوجه الثالث: في تفسير هذه الكلمة أن الإكسير إذا وقعت منه ذرة على الجسم النحاسي انقلب ذهبًا باقيًا على كر الدهور والأزمان، صابرًا على الذوبان الحاصل بالنار، فإكسير جلال الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلبه جوهرًا باقيًا صافيًا نورانيًا لا يقبل التغيير والتبدل، فلهذا قال: ﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾.

ثم قال تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: في تفسير كلمة ﴿طُوبَىٰ﴾.

ثلاثة أقوال:

القول الأول: أنها اسم شجرة في الجنة، روي عن رسول الله ﷺ أنه قال: «**طُوبَى شَجَرَةٌ فِي الْجَنَّةِ غَرَسَهَا اللَّهُ بِيَدِهِ تُنْبِتُ الْحُلِيَّ وَالْحُلَلَ وَإِنَّ أَغْصَانَهَا لِتُرَى مِنْ وَرَاءِ سُورِ الْجَنَّةِ**»[(١)]، وحكى أبو بكر الأصم رضي الله عنه: أن أصل هذه الشجرة في دار النبي ﷺ وفي دار كل مؤمن منها غصن.

والقول الثاني: وهو قول أهل اللغة إن طوبى مصدر من طاب، كبشرى وزلفى، ومعنى طوبى لك، أصبت طيبًا، ثم اختلفوا على وجوه: فقيل: فرح وقرة عين لهم. عن ابن عباس رضي الله عنهما وقيل: نعم ما لهم عن عكرمة، وقيل غبطة لهم عن الضحاك. وقيل: حسنى لهم عن قتادة. وقيل: خير وكرامة عن أبي بكر الأصم، وقيل: العيش الطيب لهم عن الزجاج. واعلم أن المعاني متقاربة والتفاوت يقرب من أن يكون في اللفظ. والحاصل أنه مبالغة في نيل الطيبات ويدخل فيه جميع اللذات، وتفسيره أن أطيب الأشياء في كل الأمور حاصل لهم.

والقول الثالث: أن هذه اللفظة ليست عربية، ثم اختلفوا فقال بعضهم: طوبى اسم الجنة بالحبشية، وقيل اسم الجنة بالهندية. وقيل البستان بالهندية، وهذا القول ضعيف، لأنه ليس في القرآن إلا العربي لا سيما واشتقاق هذا اللفظ من اللغة العربية ظاهر.

المسألة الثانية: قال صاحب (الكشاف): ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ مبتدأ و ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ خبره، ومعنى طوبى لك أي أصبت طيبًا، ومحلها النصب أو الرفع، كقولك طيبًا لك وطيب لك وسلامًا لك وسلام لك، والقراءة في قوله: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالرفع والنصب تدلك على محلها، وقرأ مكوزة

---

(١) الطبري في (تفسيره) (١٦/ ٤٤٣) حديث رقم/ ٢٠٣٩٤، قال حديث الحسن بن شبيب قال حدثنا محمد بن زياد الجزري عن فرات بن أبي الفرات عن معاوية بن قرة عن أبيه... به، وفي إسناده (الحسن بن شبيب بن راشد)، شيخ الطبري، سلف برقم: ٩٦٤٢، ١١٣٨٣، قال ابن عدي، (حدث عن الثقات بالبواطيل، ووصل أحاديث هي مرسلة)، و(محمد بن زياد الجزري)، لعله هو (الرقي)، لأن الرقة معددة من الجزيرة. وهو (محمد بن زياد اليشكري الطحان، الميمون الرقي)، وهو كذاب خبيث يضع الحديث، روى عن شيخه الميمون بن مهران وغيره الموضوعات. مترجم في التهذيب، وتاريخ بغداد ٥: ٢٧٩، وابن أبي حاتم ٣/ ٢/ ٢٥٨، وميزان الاعتدال ٣: ٦٠، و(فرات بن أبي الفرات)، قال ابن أبي حاتم: (صدوق، لابأس به)، وذكره ابن حبان في الثقات قال: (هو حسن الاستقامة والروايات)، ولم يذكر البخاري فيه جرحًا (ولكن قال يحي بن معين ليس بشيء)، وقال ابن عدي: (الضعف بيّن على رواياته)، وقال الساجي (ضعيف، يحدث بأحاديث فيها بعض المناكير). مترجم في (الكبير) (٤/ ١/ ١٢٩)، وابن أبي حاتم (٣/ ٢/ ٨٠)، و(ميزان الاعتدال) (٢: ٣١٦)، و(لسان الميزان) (٤: ٤٣٢)، وهذا خبر هالك الإسناد، وحسبه ما فيه من أمر (محمد بن زياد)، ولم أجده عند غير الطبري.

الأعرابي (طيب لهم). أما قوله: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾ فالمراد حسن المرجع والمقر وكل ذلك وعد من الله بأعظم النعيم ترغيبًا في طاعته وتحذيرًا عن المعصية.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

اعلم أن الكاف في ﴿كَذَٰلِكَ﴾ للتشبيه فقيل وجه التشبيه أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء قبلك في أمة قد خلت من قبلها أمم، وهو قول ابن عباس والحسن وقتادة، وقيل: كما أرسلنا إلى أمم وأعطيناهم كتبًا تتلى عليهم، كذلك أعطيناك هذا الكتاب وأنت تتلوه عليهم فلماذا اقترحوا غيره، وقال صاحب (الكشاف): ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ﴾ أي مثل ذلك الإرسال ﴿أَرْسَلْنَٰكَ﴾ يعني أرسلناك إرسالاً له شأن وفضل على سائر الإرسالات. ثم فسر كيف أرسله فقال: ﴿فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي أرسلناك في أمة قد تقدمتها أمم فهي آخر الأمم وأنت آخر الأنبياء.

أما قوله: ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ فالمراد: لتقرأ عليهم الكتاب العظيم الذي أوحينا إليك: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي وحال هؤلاء أنهم يكفرون بالرحمن الذي رحمته وسعت كل شيء وما بهم من نعمة فمنه، وكفروا بنعمته في إرسال مثلك إليهم وإنزال هذا القرآن المعجز عليهم ﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾ الواحد المتعالي عن الشركاء: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نصرتي عليكم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ فيعينني على مصابرتكم ومجاهدتكم قيل: نزل قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ في عبد الله بن أمية المخزومي وكان يقول أما الله فنعرفه، وأما الرحمن فلا نعرفه، إلا صاحب اليمامة يعنون مسيلمة الكذاب فقال تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ ۖ أَيًّا مَّا تَدْعُوا۟ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠] وكقوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ ٱسْجُدُوا۟ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُوا۟ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [الفرقان: ٦٠] وقيل: إنه عليه السلام حين صالح قريشًا من الحديبية كتب: «**هَذَا مَا صَالَحَ عَلَيْهِ مُحَمَّدٌ رَسُولُ اللَّهِ**» فقال المشركون: إن كنت رسول الله وقد قاتلناك فقد ظلمنا. ولكن اكتب، هذا ما صالح عليه محمد بن عبد الله، فكتب كذلك، ولما كتب في الكتاب: ﴿بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ﴾ قالوا: أما الرحمن فلا نعرفه، وكانوا يكتبون باسمك اللهم، فقال عليه السلام: «**اكتبوا كما تُرِيدُونَ**»(١). واعلم أن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ إذا حملناه على هاتين الروايتين كان معناه أنهم كفروا بإطلاق هذا الإسم على الله تعالى، لا أنهم كفروا بالله تعالى. وقال آخرون: بل كفروا بالله إما جحدًا له وإما لإثباتهم الشركاء معه. قال القاضي: وهذا القول أليق

---

(١) **صحيح**: أخرجه مسلم في (صحيحه) (٣/ ١٤١١/ ١٧٨٤)، قال حدثنا أبو بكر بن أبي شيبة. . . به، وأحمد في (مسنده) (٣/ ٢٦٨) حديث رقم/ ١٣٨٥٤، قال حدثنا عفان. . . به، وابن أبي شيبة في مصنفه (١٤/ ٤٣٩) حديث رقم/ ٣٨٠٠٣، من طريق حماد عن ثابت عن أنس. . . به.

بالظاهر، لأن قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ يقتضي أنهم كفروا بالله وهو المفهوم من الرحمن، وليس المفهوم منه الاسم كما لو قال قائل: كفروا بمحمد وكذبوا به لكان المفهوم هو، دون اسمه.

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

اعلم أنه روي أن أهل مكة قعدوا في فناء مكة، فأتاهم الرسول ﷺ وعرض الإسلام عليهم، فقال له عبد الله بن أمية المخزومي: سير لنا جبال مكة حتى ينفسخ المكان علينا واجعل لنا فيها أنهارًا نزرع فيها، أو أَحْي لنا بعض أمواتنا لنسألهم أحق ما تقول أو بطال، فقد كان عيسى يحيى الموتى، أو سخر لنا الريح حتى نركبها ونسير في البلاد فقد كانت الريح مسخرة لسليمان فلست بأهون على ربك من سليمان، فنزل قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ أي من أماكنها ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ﴾ أي شققت فجعلت أنهارًا وعيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ﴾ لكان هو هذا القرآن الذي أنزلناه عليك. وحذف جواب (لو) لكونه معلومًا، وقال الزجاج: المحذوف هو أنه ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ وكذا وكذا لما آمنوا به كقوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ﴾ [الأنعام: ١١١].

ثم قال تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ يعني إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل، وليس لأحد أن يتحكم عليه في أفعاله وأحكامه. ثم قال تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾.

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى: في قوله: ﴿أَفَلَمْ يَيْأَسِ﴾ قولان:

القول الأول: أفلم يعلموا وعلى هذا التقدير ففيه وجهان:

الوجه الأول: ﴿يَيْأَسْ﴾ يعلم في لغة النخع وهذا قول أكثر المفسرين مثل مجاهد والحسن وقتادة. واحتجوا عليه بقول الشاعر:

أَلَمْ يَيْأَسِ الْأَقْوَامُ أَنِّي أَنَا ابْنُهُ ... إِنْ كُنْتَ عَنْ أَرْضِ الْعَشِيرَةِ نَائِيًا[1]

---

(١) وجدت هذا البيت ضمن قصيدة للشاعر أحمد فارس الشدياق وهو أحمد فارس بن يوسف بن منصور الشدياق، ١٢١٩- ١٣٠٤هـ/ ١٨٠٤- ١٨٨٧م، عالم باللغة والأدب، ولد في قرية عشقوت (بلبنان) وأبواه مسيحيان مارونيان سمياه فارساً، ورحل إلى مصر فتلقى الأدب من علمائها، ورحل إلى مالطا فأدار فيها أعمال المطبعة=

وأنشد أبو عبيدة:

أَقُولُ لَهُمْ بِالشِّعْبِ إِذْ يَأْسِرُونَنِي أَلَمْ تَيْأَسُوا أَنِّي ابْنُ فَارِسِ زَهْدَمِ

أي ألم تعلموا. وقال الكسائي: ما وجدت العرب تقول يئست بمعنى علمت ألبته.

والوجه الثاني: ما روي أن عليًا وابن عباس كانا يقرآن: ﴿أَفَلَمْ يأس ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا﴾ فقيل لابن عباس (أفلم ييأس) فقال: أظن أن الكاتب كتبها وهو ناعس أنه كان في الخط يأس فزاد الكاتب سنة واحدة فصار ييأس فقرىء ييأس وهذا القول بعيد جدًا لأنه يقتضي كون القرآن محلاً للتحريف والتصحيف وذلك يخرجه عن كونه حجة.

قال صاحب (الكشاف): ما هذا القول والله إلا فرية بلا مرية.

والقول الثاني: قال الزجاج: المعنى أو يئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء لأن الله لو شاء لهدى الناس جميعًا. وتقريره أن العلم بأن الشيء لا يكون يوجب اليأس من كونه والملازمة توجب حسن المجاز، فلهذا السبب حسن إطلاق لفظ اليأس لإرادة العلم.

المسألة الثانية: احتج أصحابنا بقوله: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ وكلمة (لو) تفيد انتفاء الشيء لانتفاء غيره. والمعنى: أنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس، والمعتزلة تارة يحملون هذه المشيئة على مشيئة الإلجاء، وتارة يحملون الهداية على الهداية إلى طريق الجنة، وفيهم من يجري الكلام على الظاهر، ويقول إنه تعالى ما شاء هداية جميع الناس لأنه ما شاء هداية الأطفال والمجانين فلا يكون شائيًا لهداية جميع الناس.

والكلام في هذه المسألة قد سبق مرارًا.

أما قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾.

ففيه مسألتان:

المسألة الأولى: قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾.

فيه قولان:

القول الأول: قيل: أراد به جميع الكفار لأن الوقائع الشديدة التي وقعت لبعض الكفار من القتل والسبي أوجب حصول الغم في قلب الكل، وقيل: أراد بعض الكفار وهم جماعة معينون والألف واللام في لفظ الكفار للمعهود السابق وهو ذلك الجمع المعين.

المسألة الثانية: في الآية وجهان. الأول: ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا من كفرهم وسوء أعمالهم قارعة داهية تقرعهم بما يحل الله بهم في كل وقت من صنوف البلايا والمصائب في نفوسهم وأولادهم وأموالهم، أو تحل القارعة قريبًا منهم، فيفزعون ويضطربون

=الأميركانية، وتنقل في أوروبا ثم سافر إلى تونس فاعتنق فيها الدين الإسلامي وتسمى (أحمد فارس) فدعي إلى الآستانة فأقام بضع سنوات، ثم أصدر بها جريدة (الجوائب) سنة ١٢٧٧هـ فعاشت ٢٣ سنة، وتوفي بالأستانة، ونقل جثمانه إلى لبنان.

ويتطاير إليهم شرارها، ويتعدى إليهم شرورها حتى يأتي وعد الله وهو موتهم أو القيامة.

والقول الثاني: ولا يزال كفار مكة تصيبهم بما صنعوا برسول الله ﷺ من العداوة والتكذيب قارعة، لأن رسول الله ﷺ كان لا يزال يبعث السرايا فتغير حول مكة وتختطف منهم وتصيب مواشيهم، أو تحل أنت يا محمد قريبًا من دارهم بجيشك كما حل بالحديبية حتى يأتي وعد الله وهو فتح مكة، وكان الله قد وعده ذلك.

ثم قال: ﴿ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴾ والغرض منه تقوية قلب الرسول ﷺ وإزالة الحزن عنه.

قال القاضي: وهذا يدل على بطلان قول من يجوز الخلف على الله تعالى في ميعاده، وهذه الآية وإن كانت واردة في حق الكفار إلا إن العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، إذ بعمومه يتناول كل وعيد ورد في حق الفساق.

وجوابنا: أن الخلف غير، وتخصيص العموم غير، ونحن لا نقول بالخلف، ولكنا نخصص عمومات الوعيد بالآيات الدالة على العفو.

قوله تعالى: ﴿ وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْـَٔاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾ ﴾

اعلم أن القوم لما طلبوا سائر المعجزات من الرسول ﷺ على سبيل الاستهزاء والسخرية وكان ذلك يشق على رسول الله ﷺ وكان يتأذى من تلك الكلمات فالله تعالى أنزل هذه الآية تسلية له وتصبيرًا له على سفاهة قومه فقال له إن أقوام سائر الأنبياء استهزؤا بهم كما أن قومك يستهزئون بك: ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ﴾ أي أطلت لهم المدة بتأخير العقوبة ثم أخذتهم فكيف كان عقابي لهم.

واعلم أني سأنتقم من هؤلاء الكفار كما انتقمت من أولئك المتقدمين والإملاء الإمهال وأن يتركوا مدة من الزمان في خفض وأمن كالبهيمة يملى لها في المرعى، وهذا وعيد لهم وجواب عن اقتراحهم الآيات على رسول الله ﷺ على سبيل الاستهزاء، ثم إنه تعالى أورد على المشركين ما يجري مجرى الحجاج وما يكون توبيخًا لهم وتعجيبًا من عقولهم فقال: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ﴾ والمعنى: أنه تعالى قادر على كل الممكنات عالم بجميع المعلومات من الجزئيات والكليات وإذا كان كذلك كان عالمًا بجميع أحوال النفوس، وقادرًا على تحصيل مطالبها من تحصيل المنافع ودفع المضار ومن إيصال الثواب إليها على كل

الطاعات، وإيصال العقاب إليها على كل المعاصي. وهذا هو المراد من قوله: ﴿قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ وما ذاك إلا الحق سبحانه ونظيره قوله تعالى: ﴿قَآئِمًا بِٱلْقِسْطِ﴾ [آل عمران: ١٨].

واعلم أنه لا بد لهذا الكلام من جواب واختلفوا فيه على وجوه:

الوجه الأول: التقدير: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ كمن ليس بهذه الصفة؟ وهي الأصنام التي لا تنفع ولا تضر، وهذا الجواب مضمر في قوله تعالى: ﴿وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ والتقدير: أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت كشركائهم التي لا تضر ولا تنفع، ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ ٱللَّهُ صَدْرَهُۥ لِلْإِسْلَٰمِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر: ٢٢] وما جاء جوابه لأنه مضمر في قوله: ﴿فَوَيْلٌ لِّلْقَٰسِيَةِ قُلُوبُهُم مِّن ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٢] فكذا ههنا، قال صاحب (الكشاف): يجوز أن يقدر ما يقع خبرًا للمبتدأ، أو يعطف عليه قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ والتقدير: أفمن هو بهذه الصفة لم يوحدوه ولم يمجدوه وجعلوا له شركاء.

الوجه الثاني: وهو الذي ذكره السيد صاحب (حل العقد) فقال: نجعل الواو في قوله: ﴿وَجَعَلُوا۟﴾ واو الحال ونضمر للمبتدأ خبرًا يكون المبتدأ معه جملة مقررة لإمكان ما يقارنها من الحال، والتقدير: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ موجود. والحال أنهم جعلوا له شركاء ثم أقيم الظاهر وهو قوله (لله) مقام المضمر تقريرًا للإلهية وتصريحًا بها، وهذا كما تقول: جواد يعطي الناس ويغنيهم موجود ويحرم مثلي.

واعلم أنه تعالى لما قرر هذه الحجة زاد في الحجاج فقال: ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ وإنما يقال ذلك في الأمر المستحقر الذي بلغ في الحقارة إلى أن لا يذكر ولا يوضع له اسم، فعند ذلك يقال: سمه إن شئت. يعني أنه أخس من أن يسمى ويذكر، ولكنك إن شئت أن تضع له اسمًا فافعل، فكأنه تعالى قال: سموهم بالآلهة على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سميتموهم بهذا الاسم أو لم تسموهم به، فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها، ثم زاد في الحجاج فقال: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ والمراد: أتقدرون على أن تخبروه وتعلموه بأمر تعلمونه وهو لا يعلمه، وإنما خص الأرض بنفي الشريك عنها، وإن لم يكن شريك ألبته، لأنهم ادعوا أن له شركاء في الأرض لا في غيرها ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ يعني تموهون بإظهار قول لا حقيقة له، وهو كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ثم إنه تعالى بين بعد هذا الحجاج سوء طريقتهم فقال على وجه التحقير لما هم عليه: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ﴾ قال الواحدي: معنى (بل) ههنا كأنه يقول: دع ذكر ما كنا فيه زين لهم مكرهم، وذلك لأنه تعالى لما ذكر الدلائل على إفساد قولهم، فكأنه يقول: دع ذكر الدليل فإنه لا فائدة فيه، لأنه زين لهم كفرهم ومكرهم فلا ينتفعون بذكر هذه الدلائل. قال القاضي: لا شبهة في أنه تعالى إنما ذكر ذلك لأجل أن يذمهم به، وإذا كان كذلك امتنع أن يكون ذلك المزين هو الله، بل لا بد وأن يكون إما شياطين الإنس وإما شياطين الجن.

واعلم أن هذا التأويل ضعيف لوجوه: **الأول:** أنه لو كان المزين أحد شياطين الجن أو الإنس فالمزين في قلب ذلك الشيطان إن كان شيطانًا آخر لزم التسلسل، وإن كان هو الله فقد زال السؤال، **والثاني:** أن يقال: القلوب لا يقدر عليها إلا الله. **والثالث:** أنا قد دللنا على أن ترجيح الداعي لا يحصل إلا من الله تعالى وعند حصوله يجب الفعل.

أما قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ فاعلم أنه قرأ عاصم وحمزة والكسائي (وَصُدُّوا) بضم الصاد وفي حم ﴿وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧] على ما لم يسم فاعله بمعنى أن الكفار صدهم غيرهم، وعند أهل السنة أن الله صدهم.

وللمعتزلة فيه وجهان: قيل الشيطان، وقيل أنفسهم وبعضهم لبعض كما يقال: فلان معجب وإن لم يكن ثمة غيره وهو قول أبي مسلم والباقون، وصدوا بفتح الصاد في السورتين يعني أن الكفار صدوا عن سبيل الله، أي أعرضوا وقيل: صرفوا غيرهم، وهو لازم ومتعد، وحجة القراءة الأولى مشاكلتها لما قبلها من بناء الفعل للمفعول، وحجة القراءة الثانية قوله: ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [النساء: ١٦٧].

ثم قال: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ اعلم أن أصحابنا تمسكوا بهذه الآية من وجوه: **أولها:** قوله: ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكْرُهُمْ﴾ وقد بينا بالدليل أن ذلك المزين هو الله. **وثانيها:** قوله: ﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ بضم الصاد، وقد بينا أن ذلك الصاد هو الله. **وثالثها:** قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وهو صريح في المقصود وتصريح بأن ذلك المزين وذلك الصاد ليس إلا الله. **ورابعها:** قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَاۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّۖ﴾ أخبر عنهم أنهم سيقعون في عقاب الآخرة وإخبار الله ممتنع التغير وإذا امتنع وقوع التغير في هذا الخبر، امتنع صدور الإيمان منه وكل هذه الوجوه قد لخصناها في هذا الكتاب مرارًا، قال القاضي: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي عن ثواب الجنة لكفره وقوله: ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ منبيء بذلك أن الثواب لا ينال إلا بالطاعة خاصة فمن زاغ عنها لم يجد إليها سبيلا، وقيل: المراد بذلك من حكم بأنه ضال وسماه ضالاً، وقيل المراد من يضلله الله عن الإيمان بأن يجده كذلك، ثم قال والوجه الأول أقوى.

واعلم أن الوجه الأول ضعيف جدًا لأن الكلام إنما وقع في شرح إيمانهم وكفرهم في الدنيا ولم يجر ذكر ذهابهم إلى الجنة ألبتة فصرف الكلام على المذكور إلى غير المذكور بعيد. وأيضًا فهب أنا نساعد على أن الأمر كما ذكروه، إلا أنه تعالى لما أخبر أنهم لا يدخلون الجنة فقد حصل المقصود لأن خلاف معلوم الله ومخبره محال ممتنع الوقوع.

واعلم أنه تعالى لما أخبر عنهم بتلك الأمور المذكورة بين أنه جمع لهم بين عذاب الدنيا، وبين عذاب الآخرة الذي هو أشق، وأنه لا دافع لهم عنه لا في الدنيا ولا في الآخرة. أما عذاب الدنيا فبالقتل، والقتال، واللعن، والذم، والإهانة، وهل يدخل المصائب والأمراض في ذلك أم

لا؟ اختلفوا فيه، قال بعضهم: إنها تدخل فيه، وقال بعضهم: إنها لا تكون عقابًا، لأن كل أحد نزلت به مصيبة فإنه مأمور بالصبر عليها، ولو كان عقابًا لم يجب ذلك، فالمراد على هذا القول من الآية القتل، والسبيء، واغتنام الأموال، واللعن، وإنما قال: ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لأنه أزيد إن شئت بسبب القوة والشدة، وإن شئت بسبب كثرة الأنواع، وإن شئت بسبب أنه لا يختلط بها شيء من موجبات الراحة، وإن شئت بسبب الدوام وعدم الانقطاع، ثم بين بقوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي أن أحدًا لا يقيهم ما نزل بهم من عذاب الله. قال الواحدي: أكثر القراء وقفوا على القاف من غير إثبات ياء في قوله: ﴿وَاقٍ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ وكذلك في قوله: ﴿وَالٍ﴾ [الرعد: ١١] وهو الوجه لأنك تقول في الوصل: هذا هاد ووال وواق، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين، فإذا وقفت انحذف التنوين في الوقف في الرفع والجر، والياء كانت انحذفت فيصادف الوقف الحركة التي هي كسرة في غير فاعل فتحذفها كما تحذف سائر الحركات التي تقف عليها فيصير هاد، ووال، وواق. وكان ابن كثير يقف بالياء في هادي ووالي وواقي ووجهه ما حكى سيبويه أن بعض من يوثق به من العرب يقول: هذا داعي فيقفون بالياء.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

وفي الآية مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى لما ذكر عذاب الكفار في الدنيا والآخرة، أتبعه بذكر ثواب المتقين وفي قوله: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أقوال: **الأول:** قال سيبويه: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ مبتدأ وخبره محذوف والتقدير: فيما قصصنا عليكم مثل الجنة. **والثاني:** قال الزجاج: مثل الجنة جنة من صفتها كذا وكذا. والثالث: مثل الجنة مبتدأ وخبره تجري من تحتها الأنهار، كما تقول صفة زيد اسم. والرابع: الخبر هو قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لأنه الخارج عن العادة كأنه قال: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ كما تعلمون من حال جناتكم إلا أن هذه أكلها دائم.

المسألة الثانية: اعلم أنه تعالى وصف الجنة بصفات ثلاث: **أولها:** تجري من تحتها الأنهار. **وثانيها:** أن أكلها دائم. والمعنى: أن جنات الدنيا لا يدوم ورقها وثمرها ومنافعها. أما جنات الآخرة فثمارها دائمة غير منقطعة. **وثالثها:** أن ظلها دائم أيضًا، والمراد أنه ليس هناك حر ولا برد ولا شمس ولا قمر ولا ظلمة ونظيره قوله تعالى: ﴿لَا يَرَوْنَ فِيهَا شَمْسًا وَلَا زَمْهَرِيرًا﴾ [الإنسان: ١٣] ثم إنه تعالى لما وصف الجنة بهذه الصفات الثلاثة بين أن ذلك عقبى الذين اتقوا يعني عاقبة أهل التقوى هي الجنة، وعاقبة الكافرين النار. وحاصل الكلام من هذه الآية أن ثواب المتقين منافع خالصة عن الشوائب موصوفة بصفة الدوام.

واعلم أن قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾.

فيه مسائل ثلاث:

المسألة الأولى: أنه يدل على أن أكل الجنة لا تفنى كما يحكى عن جهم وأتباعه.

المسألة الثانية: أنه يدل على أن حركات أهل الجنة لا تنتهي إلى سكون دائم، كما يقوله أبو الهذيل وأتباعه.

المسألة الثالثة: قال القاضي: هذه الآية تدل على أن الجنة لم تخلق بعد، لأنها لو كانت مخلوقة لوجب أن تفنى وأن ينقطع أكلها لقوله تعالى: ﴿كُلُّ مَنْ عَلَيْهَا فَانٍ﴾ [الرحمن: ٢٦]. و﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ [القصص: ٨٨] لكن لا ينقطع أكلها لقوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ فوجب أن لا تكون الجنة مخلوقة. ثم قال: فلا ننكر أن يحصل الآن في السموات جنات كثيرة يتمتع بها الملائكة ومن يعد حيًا من الأنبياء والشهداء وغيرهم على ما روي في ذلك، إلا أن الذي نذهب إليه أن جنة الخلد خاصة إنما تخلق بعد الإعادة.

والجواب: أن دليلهم مركب من آيتين: أحدهما: قوله: ﴿كُلُّ شَيْءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجْهَهُۥ﴾ والأخرى قوله: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا﴾ فإذا أدخلنا التخصيص في أحد هذين العمومين سقط دليلهم فنحن نخصص أحد هذين العمومين بالدلائل الدالة على أن الجنة مخلوقة، وهو قوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران: ١٣٣].

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

اعلم أن في المراد بالكتاب قولين: الأول: أنه القرآن والمراد أن أهل القرآن يفرحون بما أنزل على محمد من أنواع التوحيد والعدل والنبوة والبعث والأحكام والقصص، ومن الأحزاب الجماعات من اليهود والنصارى وسائر الكفار من ينكر بعضه وهو قول الحسن وقتادة.

فإن قيل: الأحزاب ينكرون كل القرآن.

قلنا: الأحزاب لا ينكرون كل ما في القرآن، لأنه ورد فيه إثبات الله تعالى وإثبات علمه وقدرته وحكمته وأقاصيص الأنبياء، والأحزاب ما كانوا ينكرون كل هذه الأشياء.

والقول الثاني: إن المراد بالكتاب التوراة والإنجيل، وعلى هذا التقدير ففي الآية قولان: الأول: قال ابن عباس: الذين آتيناهم الكتاب هم الذين آمنوا بالرسول ﷺ من أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأصحابهما ومن أسلم من النصارى وهم ثمانون رجلاً أربعون بنجران وثمانية باليمن واثنان وثلاثون بأرض الحبشة وفرحوا بالقرآن، لأنهم آمنوا به وصدقوه والأحزاب بقية أهل الكتاب وسائر المشركين. قال القاضي: وهذا الوجه أولى من الأول لأنه لا شبهة في أن

من أوتي القرآن فإنهم يفرحون بالقرآن، أما إذا حملناه على هذا الوجه ظهرت الفائدة ويمكن أن يقال: إن الذين أوتوا القرآن يزداد فرحهم به لما رأوا فيه من العلوم الكثيرة والفوائد العظيمة، فلهذا السبب حكى الله تعالى فرحهم به. والثاني: والذين آتيناهم الكتاب اليهود أعطوا التوارة، والنصارى أعطوا الإنجيل، يفرحون بما أنزل في هذا القرآن، لأنه مصدق لما معهم ومن الأحزاب من سائر الكفار من ينكر بعضه، وهو قول مجاهد. قال القاضي: وهذا لا يصح، لأن قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعم جميع ما أنزل إليه، ومعلوم أنهم لا يفرحون بكل ما أنزل إليه ويمكن أن يجاب فيقال إن قوله: ﴿بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ لا يفيد العموم بدليل جواز ادخال لفظتي الكل والبعض عليه، ولو كانت كلمة (ما) للعموم لكان إدخال لفظ الكل عليه تكريرًا وإدخال لفظ البعض عليه نقضًا. ثم إنه تعالى لما بين هذا جمع كل ما يحتاج المرء إليه في معرفة المبدأ والمعاد في ألفاظ قليلة منه فقال: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وهذا الكلام جامع لكل ما ورد التكليف به، وفيه فوائد: **أولها:** أن كلمة (إنما) للحصر ومعناه إني ما أمرت إلا بعبادة الله تعالى، وذلك يدل على أنه لا تكليف ولا أمر ولا نهي إلا بذلك. **وثانيها:** أن العبادة غاية التعظيم، وذلك يدل على أن المرء مكلف بذلك. **وثالثها:** أن عبادة الله تعالى لا تمكن إلا بعد معرفته ولا سبيل إلى معرفته إلا بالدليل، فهذا يدل على أن المرء مكلف بالنظر والاستدلال في معرفة ذات الصانع وصفاته، وما يجب ويجوز ويستحيل عليه. **ورابعها:** أن عبادة الله واجبة، وهو يبطل قول نفاة التكليف، ويبطل القول بالجبر المحض. **وخامسها:** قوله: ﴿وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ وهذا يدل على نفي الشركاء والأنداد والأضداد بالكلية، ويدخل فيه إبطال قول كل من أثبت معبودًا سوى الله تعالى سواء قال: إن ذلك المعبود هو الشمس أو القمر أو الكواكب أو الأصنام والأوثان والأرواح العلوية أو يزدان وأهرمن على ما يقوله المجوس أو النور والظلمة على ما يقوله الثنوية. وسادسها: قوله: ﴿إِلَيْهِ أَدْعُواْ﴾ والمراد منه أنه كما وجب عليه الإتيان بهذه العبادات فكذلك يجب عليه الدعوة إلى عبودية الله تعالى وهو إشارة إلى نبوته. وسابعها: قوله: ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ وهو إشارة إلى الحشر والنشر والبعث والقيامة فإذا تأمل الإنسان في هذه الألفاظ القليلة ووقف عليها عرف أنها محتوية على جميع المطالب المعتبرة في الدين.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

وفيه مسائل:

المسألة الأولى: اعلم أنه تعالى شبه إنزاله حكمًا عربيًا بما أنزل إلى ما تقدم من الأنبياء، أي كما أنزلنا الكتب على الأنبياء بلسانهم، كذلك أنزلت عليك القرآن. والكناية في قوله: ﴿أَنزَلْنَـٰهُ﴾ تعود إلى (ما) في قوله: ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن.

المسألة الثانية: قوله: ﴿أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾.

فيه وجوه:

الأول: حكمة عربية مترجمة بلسان العرب.

الثاني: القرآن مشتمل على جميع أقسام التكاليف، فالحكم لا يمكن إلا بالقرآن، فلما كان القرآن سببًا للحكم جعل نفس الحكم على سبيل المبالغة.

الثالث: أنه تعالى حكم على جميع المكلفين بقبول القرآن والعمل به فلما حكم على الخلق بوجوب قبوله جعله حكمًا.

واعلم أن قوله: ﴿حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ نصب على الحال، والمعنى: أنزلناه حال كونه حكمًا عربيًا.

المسألة الثالثة: قالت المعتزلة: الآية دالة على حدوث القرآن من وجوه: الأول: أنه تعالى وصفه بكونه منزلاً وذلك لا يليق إلا بالمحدث. الثاني: أنه وصفه بكونه عربيًا والعربي هو الذي حصل بوضع العرب واصطلاحهم وما كان كذلك كان محدثًا. الثالث: أن الآية دالة على أنه إنما كان حكمًا عربيًا، لأن الله تعالى جعله كذلك ووصفه بهذه الصفة، وكل ما كان كذلك فهو محدث.

والجواب: أن كل هذه الوجوه دالة على أن المركب من الحروف والأصوات محدث ولا نزاع فيه والله أعلم.

المسألة الرابعة: روي أن المشركين كانوا يدعونه إلى ملة آبائه فتوعده الله تعالى على متابعتهم في تلك المذاهب مثل أن يصلي إلى قبلتهم بعد أن حوله الله عنها. قال ابن عباس: الخطاب مع النبي ﷺ والمراد أمته، وقيل: بل الغرض منه حث الرسول عليه السلام على القيام بحق الرسالة وتحذيره من خلافها، ويتضمن ذلك أيضًا تحذير جميع المكلفين، لأن من هو أرفع منزلة إذا حذر هذا التحذير فهم أحق بذلك وأولى.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

اعلم أن القوم كانوا يذكرون أنواعًا من الشبهات في إبطال نبوته.

فالشبهة الأولى: قولهم: ﴿مَالِ هَٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ وَيَمْشِى فِى ٱلْأَسْوَاقِ﴾ [الفرقان: ٧] وهذه الشبهة إنما ذكرها الله تعالى في سورة أخرى.

والشبهة الثانية: قولهم: الرسول الذي يرسله الله إلى الخلق لا بد وأن يكون من جنس الملائكة كما حكى الله عنهم في قوله: ﴿لَّوْ مَا تَأْتِينَا بِٱلْمَلَٰٓئِكَةِ﴾ [الحجر: ٧] وقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ مَلَكٌ﴾ [الأنعام: ٧].

فأجاب الله تعالى عنه هاهنا بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ يعني أن الأنبياء الذين كانوا قبله كانوا من جنس البشر لا من جنس الملائكة فإذا جاز ذلك في حقهم فلم لا يجوز أيضًا مثله في حقه.

الشبهة الثالثة: عابوا رسول الله ﷺ بكثرة الزوجات وقالوا: لو كان رسولاً من عند الله لما كان مشتغلاً بأمر النساء بل كان معرضًا عنهن مشتغلاً بالنسك والزهد، فأجاب الله تعالى عنه بقوله: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ وبالجملة فهذا الكلام يصلح أن يكون جوابًا عن الشبهة المتقدمة ويصلح أن يكون جوابًا عن هذه الشبهة، فقد كان لسليمان عليه السلام ثلثمائة امرأة مهيرة، وسبعمائة سرية. ولداود مائة امرأة.

والشبهة الرابعة: قالوا لو كان رسولاً من عند الله لكان أي شيء طلبنا منه من المعجزات أتى به ولم يتوقف ولما لم يكن الأمر كذلك علمنا أنه ليس برسول، فأجاب الله عنه بقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ وتقريره: أن المعجزة الواحدة كافية في إزالة العذر والعلة، وفي إظهار الحجة والبينة، فأما الزائد عليها فهو مفوض إلى مشيئة الله تعالى إن شاء أظهرها وإن شاء لم يظهرها ولا اعتراض لأحد عليه في ذلك.

الشبهة الخامسة: أنه عليه السلام كان يخوفهم بنزول العذاب وظهور النصرة له ولقومه. ثم إن ذلك الموعود كان يتأخر فلما لم يشاهدوا تلك الأمور احتجوا بها على الطعن في نبوته، وقالوا: لو كان نبيًا صادقًا لما ظهر كذبه.

فاجاب الله عنه بقوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ يعني نزول العذاب على الكفار وظهور الفتح والنصر للأولياء قضى الله بحصولها في أوقات معينة مخصوصة، ولكل حادث وقت معين ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ فقبل حضور ذلك الوقت لا يحدث ذلك الحادث فتأخر تلك المواعيد لا يدل على كونه كاذبًا.

الشبهة السادسة: قالوا: لو كان في دعوى الرسالة محقًا لما نسخ الأحكام التي نص الله تعالى على ثوبتها في الشرائع المتقدمة نحو التوراة والإنجيل، لكنه نسخها وحرفها نحو تحريف القبلة، ونسخ أكثر أحكام التوراة والإنجيل، فوجب أن لا يكون نبيًا حقًا.

فأجاب الله سبحانه وتعالى عنه بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ ويمكن أيضًا أن يكون قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ كالمقدمة لتقرير هذا الجواب، وذلك لأنا نشاهد أنه تعالى يخلق حيوانًا عجيب الخلقة بديع الفطرة من قطرة من النطفة ثم يبقيه مدة مخصوصة ثم يميته ويفرق أجزاءه وأبعاضه فلما لم يمتنع أن يحيي أولاً، ثم يميت ثانيًا فكيف يمتنع أن يشرع الحكم في بعض الأوقات، ثم ينسخه في سائر الأوقات فكان المراد من قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ ما ذكرناه، ثم إنه تعالى لما قرر تلك المقدمة قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ والمعنى: أنه يوجد تارة ويعدم أخرى، ويحيي تارة ويميت أخرى،

ويغني تارة ويفقر أخرى فكذلك لا يبعد أن يشرع الحكم تارة ثم ينسخه أخرى بحسب ما اقتضته المشيئة الإلهية عند أهل السنة أو بحسب ما اقتضته رعاية المصالح عند المعتزلة فهذا اتمام التحقيق في تفسير هذه الآية، ثم ههنا مسائل:

المسألة الأولى: قوله تعالى: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾.

فيه أقوال.

الأول: أن لكل شيء وقتًا مقدرًا فالآيات التي سألوها لها وقت معين حكم الله به وكتبه في اللوح المحفوظ فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكماتهم الفاسدة ولو أن الله أعطاهم ما التمسوا لكان فيه أعظم الفساد.

الثاني: أن لكل حادث وقتًا معينًا قضى الله حصوله فيه كالحياة والموت والغنى والفقر والسعادة والشقاوة، ولا يتغير ألبتة عن ذلك الوقت.

والثالث: أن هذا من المقلوب والمعنى: أن لكل كتاب منزل من السماء أجلًا ينزله فيه، أي لكل كتاب وقت يعمل به، فوقت العمل بالتوراة والإنجيل قد انقضى ووقت العمل بالقرآن قد أتى وحضر.

والرابع: لكل أجل معين كتاب عند الملائكة الحفظة فللإنسان أحوال أولها نطفة ثم علقة ثم مضغة ثم يصير شابًا ثم شيخًا، وكذا القول في جميع الأحوال من الإيمان والكفر والسعادة والشقاوة والحسن والقبح.

الخامس: كل وقت معين مشتمل على مصلحة خفية ومنفعة لا يعلمها إلا الله تعالى، فإذا جاء ذلك الوقت حدث ذلك الحادث ولا يجوز حدوثه في غيره. واعلم أن هذه الآية صريحة في أن الكل بقضاء الله وبقدره وأن الأمور مرهونة بأوقاتها، لأن قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ معناه أن تحت كل أجل حادث معين، ويستحيل أن يكون ذلك التعيين لأجل خاصية الوقت فإن ذلك محال، لأن الأجزاء المعروضة في الأوقات المتعاقبة متساوية، فوجب أن يكون اختصاص كل وقت بالحادث الذي يحدث فيه بفعل الله تعالى واختياره وذلك يدل على أن الكل من الله تعالى وهو نظير قوله عليه السلام: «**جَفَّ الْقَلَمُ بِمَا هُوَ كَائِنٌ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ**».

المسألة الثانية: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ساكنة الثاء خفيفة الباء من أثبت يثبت، والباقون بفتح الثاء وتشديد الباء من التثبيت، وحجة من خفف أن ضد المحو الإثبات لا التثبيت. ولأن التشديد للتكثير، وليس القصد بالمحو التكثير، فكذلك ما يكون في مقابلته، ومن شدد احتج بقوله: ﴿وَأَشَدَّ تَثْبِيتًا﴾[النساء: ٦٦] وقوله: ﴿فَثَبِّتُوا﴾[الأنفال: ١٢].

المسألة الثالثة: المحو ذهاب أثر الكتابة، يقال: محاه يمحوه محوًا إذا أذهب أثره، وقوله: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ قال النحويون: أراد ويثبته إلا أنه استغنى بتعدية للفعل الأول عن تعدية الثاني، وهو كقوله تعالى: ﴿وَالْحَافِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَالْحَافِظَاتِ﴾[الأحزاب: ٣٥].

المسألة الرابعة: في هذه الآية قولان:

القول الأول: إنها عامة في كل شيء كما يقتضيه ظاهر اللفظ. قالوا: إن الله يمحو من الرزق ويزيد فيه، وكذا القول في الأجل والسعادة والشقاوة والإيمان والكفر، وهو مذهب عمر وابن مسعود. والقائلون بهذا القول كانوا يدعون ويتضرعون إلى الله تعالى في أن يجعلهم سعداء لا أشقياء، وهذا التأويل رواه جابر عن رسول الله ﷺ.

والقول الثاني: أن هذه الآية خاصة في بعض الأشقياء دون البعض، وعلى هذا التقرير ففي الآية وجوه:

الأول: المراد من المحو والإثبات: نسخ الحكم المتقدم وإثبات حكم آخر بدلاً عن الأول.

الثاني: أنه تعالى يمحو من ديوان الحفظة ما ليس بحسنة ولا سيئة، لأنهم مأمورون بكتابة كل قول وفعل ويثبت غيره، وطعن أبو بكر الأصم فيه فقال: إنه تعالى وصف الكتاب بقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] وقال أيضًا: ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُۥ ۞ وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُۥ﴾ [الزلزلة: ٧، ٨].

أجاب القاضي عنه: بأنه لا يغادر صغيرة ولا كبيرة من الذنوب والمباح لا صغيرة ولا كبيرة، وللأصم أن يجيب عن هذا الجواب فيقول: إنكم باصطلاحكم خصصتم الصغيرة بالذنب الصغير، والكبيرة بالذنب الكبير، وهذا مجرد اصطلاح المتكلمين. أما في أصل اللغة فالصغير والكبير يتناولان كل فعل وعرض، لأنه إن كان حقيرًا فهو صغير، وإن كان غير ذلك فهو كبير، وعلى هذا التقرير فقوله: ﴿لَا يُغَادِرُ صَغِيرَةً وَلَا كَبِيرَةً إِلَّآ أَحْصَىٰهَاۚ﴾ [الكهف: ٤٩] يتناول المباحات أيضًا. **الثالث:** أنه تعالى أراد بالمحو أن من أذنب أثبت ذلك الذنب في ديوانه، فإذا تاب عنه محي من ديوانه. **الرابع:** ﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ وهو من جاء أجله. ويدع من لم يجيء أجله ويثبته. **الخامس:** أنه تعالى يثبت في أول السنة حكم تلك السنة فإذا مضت السنة محيت، وأثبت كتاب آخر للمستقبل. **السادس:** يمحو نور القمر، ويثبت نور الشمس. **السابع:** يمحو الدنيا ويثبت الآخرة. **الثامن:** أنه في الأرزاق والمحن والمصائب يثبتها في الكتاب ثم يزيلها بالدعاء والصدقة، وفيه حث على الانقطاع إلى الله تعالى. **التاسع:** تغير أحوال العبد فما مضى منها فهو المحو، وما حصل وحضر فهو الإثبات. **العاشر:** يزيل ما يشاء ويثبت ما يشاء من حكمه لا يطلع على غيبه أحدًا فهو المنفرد بالحكم كما يشاء، وهو المستقل بالإيجاد والإعدام والإحياء والإماتة والإغناء والإفقار بحيث لا يطلع على تلك الغيوب أحد من خلقه.

واعلم أن هذا الباب فيه مجال عظيم.

فإن قال قائل: ألستم تزعمون أن المقادير سابقة قد جف بها القلم وليس الأمر بأنف، فكيف يستقيم مع هذا المعنى المحو والإثبات؟

قلنا: ذلك المحو والإثبات أيضًا مما جف به القلم فلا يمحو إلا ما سبق في علمه وقضائه محوه.

المسألة الخامسة: قالت الرافضة: البداء جائز على الله تعالى، وهو أن يعتقد شيئًا ثم يظهر له أن الأمر بخلاف ما اعتقده، وتمسكوا فيه بقوله: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ .

واعلم أن هذا باطل لأن علم الله من لوازم ذاته المخصوصة، وما كان كذلك كان دخول التغير والتبدل فيه محالاً.

المسألة السادسة: أما ﴿أُمُّ الْكِتَابِ﴾ فالمراد أصل الكتاب، والعرب تسمي كل ما يجري مجرى الأصل للشيء أمًا له ومنه أم الرأس للدماغ، وأم القرى لمكة، وكل مدينة فهي أم لما حولها من القرى، فكذلك أم الكتاب هو الذي يكون أصلاً لجميع الكتب.

وفيه قولان:

القول الأول: أن أم الكتاب هو اللوح المحفوظ، وجميع حوادث العالم، العالم العلوي والعالم السفلي مثبت فيه عن النبي ﷺ أنه قال: «**كَانَ اللَّهُ وَلاَ شَيْءَ مَعَهُ ثُمَّ خَلَقَ اللَّوْحَ وَأَثْبَتَ فِيهِ أَحْوَالَ جَمِيعِ الْخَلْقِ إِلَى قِيَامِ السَّاعَةِ**» قال المتكلمون: الحكمة فيه أن يظهر للملائكة كونه تعالى عالمًا بجميع المعلومات على سبيل التفصيل، وعلى هذا التقدير: فعند الله كتابان: أحدهما: الكتاب الذي يكتبه الملائكة على الخلق وذلك الكتاب محل المحو والإثبات. والكتاب الثاني: هو اللوح المحفوظ، وهو الكتاب المشتمل على تعين جميع الأحوال العلوية والسفلية، وهو الباقي. روى أبو الدرداء عن النبي ﷺ: «**أَنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى فِي ثَلاَثِ سَاعَاتٍ بَقِينَ مِنَ اللَّيْلِ يَنْظُرُ فِي الْكِتَابِ الَّذِي لاَ يَنْظُرُ فِيهِ أَحَدٌ غَيْرُهُ، فَيَمْحُو مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ مَا يَشَاءُ**»[1] وللحكماء في تفسير هذين الكتابين كلمات عجيبة وأسرار غامضة.

والقول الثاني: إن أم الكتاب هو علم الله تعالى، فإنه تعالى عالم بجميع المعلومات من الموجودات والمعدومات وإن تغيرت، إلا أن علم الله تعالى بها باق منزه عن التغير، فالمراد بأم الكتاب هو ذاك، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝﴾

اعلم أن المعنى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ من العذاب: ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك، والمعنى: سواء أريناك ذلك أو توفيناك قبل ظهوره، فالواجب عليك تبليغ أحكام الله تعالى وأداء أمانته ورسالته وعلينا الحساب. والبلاغ اسم أقيم مقام التبليغ كالسراج والأداء.

---

(١) إسناده ضعيف جدًا: أخرجه الطبري في (تفسيره) (١٠/ ١٨٠)، من طريق ابن أبي مريم قال حدثنا سنان بن سعد عن زيادة بن محمد عن محمد بن كعب القرظي عن فضالة بن عبيد عن أبي الدرداء... به، وفي إسناده زيادة بن محمد الأنصاري منكر الحديث، وأورده الذهبي في ميزان الاعتدال وقال: بعد أن ذكر الحديث بطولة وفيه ذكر الساعة الثالثة ثم قال: وهذه ألفاظ منكره لم يأت بها غير زيادة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿٤١﴾ وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

اعلم أنه تعالى لما وعد رسوله بأن يريه بعض ما وعدوه أو يتوفاه قبل ذلك، بين في هذه الآية أن آثار حصول تلك المواعيد وعلاماتها قد ظهرت وقويت. وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾.

فيه أقوال:

القول الأول: المراد أنا نأتي أرض الكفرة ننقصها من أطرافها وذلك لأن المسلمين يستولون على أطراف مكة ويأخذونها من الكفرة قهرًا وجبرًا فانتقاص أحوال الكفرة وازدياد قوة المسلمين من أقوى العلامات والأمارات على أن الله تعالى ينجز وعده. ونظيره قوله تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] وقوله: ﴿سَنُرِيهِمْ آيَاتِنَا فِي الْآفَاقِ﴾ [فصلت: ٥٣].

والقول الثاني: وهو أيضًا منقول عن ابن عباس رضي الله عنهما أن قوله: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ المراد: موت أشرافها وكبرائها وعلمائها وذهاب الصلحاء والأخيار، وقال الواحدي: وهذا القول، وإن احتمله اللفظ، إلا أن اللائق بهذا الوضع هو الوجه الأول. ويمكن أن يقال هذا الوجه أيضًا لا يليق بهذا الموضع، وتقريره أن يقال: أولم يروا ما يحدث في الدنيا من الاختلافات خراب بعد عمارة، وموت بعد حياة، وذل بعد عز، ونقص بعد كمال، وإذا كانت هذه التغيرات مشاهدة محسوسة فما الذي يؤمنهم من أن يقلب الله الأمر على هؤلاء الكفرة فيجعلهم ذليلين بعد أن كانوا عزيزين، ويجعلهم مقهورين بعد أن كانوا قاهرين، وعلى هذا الوجه فيحسن اتصال هذا الكلام بما قبله، وقيل: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بموت أهلها وتخريب ديارهم وبلادهم فهؤلاء الكفرة كيف أمنوا من أن يحدث فيهم أمثال هذه الوقائع؟

ثم قال تعالى مؤكدًا لهذا المعنى: ﴿وَاللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾ معناه: لا راد لحكمه، والمعقب هو الذي يعقبه بالرد والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحق معقب لأنه يعقب غريمه بالاقتضاء والطلب.

فإن قيل: ما محل قوله: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ﴾.

قلنا: هو جملة محلها النصب على الحال كأنه قيل: والله يحكم نافذًا حكمه خاليًا عن المدافع والمعارض والمنازع.

ثم قال: ﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ قال ابن عباس: يريد سريع الانتقام يعني أن حسابه للمجازاة

بالخير والشر يكون سريعًا قريبًا لا يدفعه دافع .

أما قوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ يعني أن كفار الأمم الماضية قد مكروا برسلهم وأنبيائهم مثل نمروذ مكر بإبراهيم ، وفرعون مكر بموسى ، واليهود مكروا بعيسى .

ثم قال: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ قال الواحدي : معناه أن مكر جميع الماكرين له ومنه ، أي هو حاصل بتخليقه وإرادته ، لأنه ثبت أن الله تعالى هو الخالق لجميع أعمال العباد ، وأيضًا فذلك المكر لا يضر إلا بإذن الله تعالى ولا يؤثر إلا بتقديره ، وفيه تسلية للنبي ﷺوأمان له من مكرهم ، كأنه قيل له : إذا كان حدوث المكر من الله وتأثيره من الممكور به أيضًا من الله وجب أن لا يكون الخوف إلا من الله تعالى وأن لا يكون الرجاء إلا من الله تعالى ، وذهب بعض الناس إلى أن المعنى : فلله جزاء المكر ، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بين الله تعالى أنه يجازيهم على مكرهم . قال الواحدي : والأول أظهر لقولين بدليل قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ يريد أن أكساب العباد بأسرها معلومة لله تعالى وخلاف المعلوم ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فكل ما علم الله وقوعه فهو واجب الوقوع ، وكل ما علم الله عدمه كان ممتنع الوقوع ، وإذا كان كذلك فلا قدرة للعبد على الفعل والترك ، فكان الكل من الله تعالى . قالت المعتزلة : الآية الأولى إن دلت على قولكم فالآية الثانية وهي قوله : ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ دلت على قولنا ، لأن الكسب هو الفعل المشتمل على دفع مضرة أو جلب منفعة ، ولو كان حدوث الفعل بخلق الله تعالى لم يكن لقدرة العبد فيه أثر ، فوجب أن لا يكون للعبد كسب .

وجوابه: أن مذهبنا أن مجموع القدرة مع الداعي مستلزم للفعل وعلى هذا التقدير فالكسب حاصل للعبد . ثم إنه تعالى أكد ذلك التهديد فقال : ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ .

وفيه مسألتان:

المسألة الأولى : قرأ نافع وابن كثير وأبو عمرو : (وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ) على لفظ المفرد والباقون على الجمع قال صاحب (الكشاف) قرىء : (الكفار ، والكافرون ، والذين كفروا ، والكفر) أي أهله قرأ جناح بن حبيش : (وسيعلم الكافر) من أعلمه أي سيخبر .

المسألة الثانية : المراد بالكافر الجنس كقوله تعالى : ﴿إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَفِى خُسْرٍ﴾ [العصر : ٢] والمعنى : إنهم وإن كانوا جهالاً بالعواقب فسيعلمون لمن العاقبة الحميدة ، وذلك كالزجر والتهديد .

والقول الثاني: وهو قول عطاء يريد المستهزئين وهم خمسة ، والمقتسمين وهم ثمانية وعشرون .

والقول الثالث: وهو قول ابن عباس يريد أبا الجهل . والقول الأول هو الصواب .

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾

اعلم أنه تعالى حكى عن القوم أنهم أنكروا كونه رسولاً من عند الله. ثم إنه تعالى احتج عليهم بأمرين: الأول: شهادة الله على نبوته، والمراد من تلك الشهادة أنه تعالى أظهر المعجزات الدالة على كونه صادقًا في ادعاء الرسالة، وهذا أعلى مراتب الشهادة لأن الشهادة قول يفيد غلبة الظن بأن الأمر كذلك. أما المعجز فإنه فعل مخصوص يوجب القطع بكونه رسولاً من عند الله تعالى، فكان إظهار المعجزة أعظم مراتب الشهادة. والثاني: قوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وفيه قراءتان: إحداهما: القراءة المشهورة: ﴿وَمَنْ عِندَهُ﴾ يعني والذي عنده علم الكتاب. والثانية: ﴿وَمِنْ عِندِهِ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ وكلمة (من) ههنا لابتداء الغاية أي ومن عند الله حصل علم الكتاب. أما على القراءة الأولى.

ففي تفسير الآية أقوال:

القول الأول: أن المراد شهادة أهل الكتاب من الذين آمنوا برسول الله ﷺ وهم: عبد الله بن سلام، وسلمان الفارسي، وتميم الداري. ويروى عن سعيد بن جبير: أنه كان يبطل هذا الوجه ويقول: السورة مكية فلا يجوز أن يراد به ابن سلام وأصحابه، لأنهم آمنوا في المدينة بعد الهجرة. وأجيب عن هذا السؤال بأن قيل: هذه السورة وإن كانت مكية إلا أن هذه الآية مدنية، وأيضًا فإثبات النبوة بقول الواحد والإثنين مع كونهما غير معصومين عن الكذب لا يجوز، وهذا السؤال واقع.

القول الثاني: أراد بالكتاب القرآن، أي أن الكتاب الذي جئتكم به معجز قاهر وبرهان باهر، إلا أنه لا يحصل العلم بكونه معجزًا إلا لمن علم ما في هذا الكتاب من الفصاحة والبلاغة، واشتماله على الغيوب وعلى العلوم الكثيرة. فمن عرف هذا الكتاب على هذا الوجه علم كونه معجزًا. فقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾ أي ومن عنده علم القرآن وهو قول الأصم.

القول الثالث: ومن عنده علم الكتاب المراد به: الذي حصل عنده علم التوراة والإنجيل، يعني: أن كل من كان عالمًا بهذين الكتابين علم اشتمالهما على البشارة بمقدم محمد ﷺ، فإذا أنصف ذلك العالم ولم يكذب كان شاهدًا على أن محمدًا ﷺ رسول حق من عند الله تعالى.

القول الرابع: ومن عنده علم الكتاب هو الله تعالى، وهو قول الحسن، وسعيد بن جبير، والزجاج قال الحسن: لا والله ما يعني إلا الله، والمعنى: كفى بالذي يستحق العبادة وبالذي لا يعلم علم ما في اللوح إلا هو شهيدًا بيني وبينكم، وقال الزجاج: الأشبه أن الله تعالى لا يستشهد على صحة حكمه بغيره، وهذا القول مشكل، لأن عطف الصفة على الموصوف وإن كان جائزًا في الجملة إلا أنه خلاف الأصل. لا يقال: شهد بهذا زيد والفقيه، بل يقال: شهد به

زيد الفقيه، وأما قوله إن الله تعالى لا يستشهد بغيره على صدق حكمه: فبعيد، لأنه لما جاز أن يقسم الله تعالى على صدق قوله بقوله: ﴿وَٱلتِّينِ وَٱلزَّيْتُونِ﴾[التين: ١] فأي امتناع فيما ذكره الزجاج.

وأما القراءة الثانية: وهي قوله: ﴿وَمَنْ عِندِهِۦ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على من الجارة فالمعنى: ومن لدنه علم الكتاب، لأن أحدًا لا يعلم الكتاب إلا من فضله وإحسانه وتعليمه، ثم على هذه القراءة ففيه أيضًا قراءتان: ومن عنده علم الكتاب، والمراد العلم الذي هو ضد الجهل، أي هذا العلم إنما حصل من عند الله.

والقراءة الثالثة: ومن عنده علم الكتاب بضم العين وبكسر اللام وفتح الميم على ما لم يسم فاعله، والمعنى: أنه تعالى لما أمر نبيه أن يحتج عليهم بشهادة الله تعالى على ما ذكرناه، وكان لا معنى لشهادة الله تعالى على نبوته إلا إظهار القرآن على وفق دعواه، ولا يعلم كون القرآن معجزًا إلا بعد الإحاطة بما في القرآن وأسراره، بين تعالى أن هذا العلم لا يحصل إلا من عند الله، والمعنى: أن الوقوف على كون القرآن معجزًا لا يحصل إلا إذا شرف الله تعالى ذلك العبد بأن يعلمه علم القرآن، والله تعالى أعلم بالصواب.

تم تفسير هذه السورة يوم الأحد الثامن عشر من شعبان سنة إحدى وستمائة. وأنا ألتمس من كل من نظر في كتابي هذا وانتفع به، أن يخص ولدي محمدًا بالرحمة والغفران، وأن يذكرني بالدعاء. وأقول في مرثية ذلك الولد شعرًا:

أَرَى مَعَالِمَ هَذَا الْعَالَمِ الْفَانِي ... مَمْزُوجَةً بِمَخَافَاتٍ وَأَحْزَانِ
خَيْرَاتُهُ مِثْلُ أَحْلَامٍ مُفَزِّعَةٍ ... وَشَرُّهُ فِي الْبَرَايَا دَائِمٌ دانـي

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

سورة الرعد

مكيَّةٌ في قول الحسنِ وعِكْرمةَ وعطاء وجابر، ومدنيةٌ في قول الكَلْبيِّ ومقاتل. وقال ابن عباس وقتادة: مدنية إلا آيتين منها نزلتا بمكة؛ وهما قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ [إلى آخرهما](1).

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾

قوله تعالى: ﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ تقدَّم القولُ فيها(2). ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: وهذا القرآنُ الذي أُنزل إليك. «مِنْ رَبِّكَ» هو(3) «الْحَقُّ»، لا كما يقول المشركون: إنك تأتي به من تلقاء نفسِك، فاعتصِمْ به، واعمَلْ بما فيه. قال مقاتل: نزلتْ حين قال المشركون: إنَّ محمداً أتى بالقرآن من تِلقاء نفسِه(4).

«والذي» في موضع رَفْع عطفاً على «آياتُ»، أو على الابتداء، و«الحقُّ» خبره؛ ويجوز أنْ يكون موضعُه جرًّا على تقدير: وآياتُ الذي أنزل إليك، وارتفاع «الحقّ» على هذا على إضمار مبتدأ، تقديره: ذلك الحقُّ؛ كقوله تعالى: ﴿وَهُمْ يَعْلَمُونَ . ٱلْحَقُّ﴾ [البقرة:١٤٦-١٤٧]. يعني: ذلك الحقُّ(5).

---

(1) النكت والعيون ٣/ ٩١ ، وما بين حاصرتين منه، وينظر زاد المسير ٤/ ٢٩٩ .

(2) ١/ ٢٣٧ وما بعدها.

(3) قوله: هو، ليس في (م).

(4) تفسير البغوي ٣/ ٥ .

(5) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٤٩ ، ومشكل إعراب القرآن لمكي ١/ ٣٩٦ .

قال الفرَّاء[1]: وإنْ شئت جعلت «الذي» خفضاً نعتاً للكتاب، وإن كانت فيه الواو كما يقال: أتانا هذا الكتابُ عن أبي حفص والفاروق [وأنت تريد عمر بن الخطاب]؛ ومنه قول الشاعر:

إلى المَلِكِ القَرْمِ وابنِ الهُمَام   ولَيْثِ الكتيبةِ في المُزْدَحَمْ[2]

يريد: إلى المَلِك القَرْمِ ابنِ الهُمَام ليثِ الكتيبة. ﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا﴾ الآية. لمّا بيَّن تعالى أنَّ القرآن حقٌّ، بيَّن أن مَن أنزله قادرٌ على الكمال؛ فانظروا في مصنوعاته لِتعرفوا كمالَ قُدرتِه. وقد تقدَّم هذا المعنى.

وفي قوله: «بغيرِ عَمَدٍ تَرَوْنَها» قولان: أحدهما: أنها مرفوعةٌ بغير عَمَدٍ ترونها، قاله قتادة وإياس بنُ معاوية وغيرهما. الثاني: لها عَمَدٌ، ولكننا لا نراه[3]. قال ابن عباس: لها عَمَدٌ على جبل[4] قاف؛ ويمكنُ أنْ يقالَ على هذا القول: العَمَد قُدرتُه التي يُمسِك بها السماواتِ والأرضَ، وهي غيرُ مرئية لنا، ذكره الزجّاج[5].

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٥٨ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٢) سلف هذا البيت ٢/ ٨٥ ، وقوله: القَرْم: السيِّد.

(٣) أخرج هذين القولين الطبري ١٣/ ٤٠٩ - ٤١١ ، وقال القول الأول أولى الأقوال بالصحة.

(٤) قوله: جبل، من (م)، وقاف: جبل محيط بالدنيا، كما في معاجم اللغة. والأثر أورده ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٠١ . وهو بنحو القول الثاني السالف. قال الرازي في تفسيره ١٨/ ٢٣٢ : وهذا التأويل في غاية السقوط.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ١٣٦ .

وقال ابن عباس أيضاً: هي توحيدُ المؤمن. أُعْمِدَت السماءُ حين كادت تَنفطِر من كفر الكافرِ، ذكره الغزْنَويّ[١]. والعَمَد جمعُ عمود؛ قال النابغة:

وخَيِّسِ الجِنَّ إني قد أَذِنْتُ لهم ... يَبْنُون تَدْمُرَ بالصُّفَّاحِ والعَمَدِ[٢]

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ تقدَّم الكلامُ فيه[٣]. ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾، أي: ذَلَّلهما لمنافع خَلْقِه ومصالح عبادِه، وكلُّ مخلوقٍ مُذلَّلٌ للخالق. ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾، أي: إلى وقت معلوم، وهو فَناءُ الدنيا وقيامُ الساعة التي عندها تُكوَّرُ الشمس، ويَخسِفُ القمر، وتَنكدِرُ النُّجوم، وتنتثر الكواكب[٤].

وقال ابن عباس: أراد بالأجل المسمَّى درجاتِهما ومنازلَهما التي يَنتهيان إليها لا يُجاوزانها[٥].

وقيل: معنى الأجلِ المُسمَّى أنَّ القمر يَقطَع فَلَكه في شهر، والشمسَ في سنة[٦]. ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾، أي: يصرفه على ما يريد. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَـٰتِ﴾، أي: يُبيِّنها، أي: من قدَر على هذه الأشياء يقدر على الإعادة[٧]؛ ولهذا قال: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ لمّا بيَّن آياتِ السّماوات بيَّن آياتِ الأرض،

---

(١) صاحب كتاب عيون المعاني، كما ذكر المصنف ٢/ ٢٧٤، وتنظر ترجمته ثمة.

(٢) ديوان النابغة الذبياني ص٣٣. وقوله: خيّس، أي: ذَلِّل. والصُّفَّاح: حجارةٌ رقاقٌ عِراضٌ، واحدتها: صُفَّاحة. اللسان (خيس) و(صفح).

(٣) ٩/ ٢٣٨ - ٢٤٠.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤١١ - ٤١٢.

(٥) تفسير البغوي ٣/ ٦.

(٦) ينظر تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٣، ومجمع البيان ١٣/ ١٣٨.

(٧) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٦.

أي: بَسط الأرضَ طولاً وعرضاً. ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾، أي: جبالاً ثوابتَ؛ واحدُها راسية؛ لأنَّ الأرضَ ترسو بها، أي: تثبتُ، والإرساء الثُّبوت[١]؛ قال عَنْتَرة[٢]:

فَصَبَرْتُ عَارِفَةً لذلك حُرَّةً ... تَرْسُو إذا نَفْسُ الجَبَانِ تَطَلَّعُ

وقال جميل[٣]:

أُحِبُّه[٤] والذي أَرْسَى قواعِدَهُ ... حُبّاً إذا ظَهَرَت آياتُه بَطَنَا

وقال ابن عباس وعطاء: أوَّلُ جبلٍ وُضع على الأرض أبو قُبَيس[٥].

مسألة[٦]: في هذه الآية ردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ كالكرة، وردٌّ على من زعم أنَّ الأرضَ تهوي أبداً بما عليها[٧]؛ وزعم ابن الرَّاونديّ[٨] أنَّ تحتَ الأرضِ جسماً صَعَّاداً كالرِّيح الصعَّادة؛ وهي منحدرةٌ فاعتدل الهاوي والصعادي في الجِرْم والقوّة فتوافقا.

وزعم آخرون أنَّ الأرضَ مُركبةٌ من جسمين، أحدهما منحدر، والآخَرُ مصعد،

---

(١) تفسير الطبري ١٣/ ٤١٣ - ٤١٤، والنكت والعيون ٣/ ٩٢.

(٢) في ديوانه ص٤٩، وسلف ٢/ ٦٥.

(٣) كذا نسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٩٢، ونقله المصنف عنه، ولم نقف عليه في ديوانه، ونسب في الأزمنة والأمكنة للمرزوقي ٢/ ٣٢٦، ومعجم البلدان ٤/ ٣٧٤ لأعرابيٍّ.

(٤) في النسخ: أحبُّها، والمثبت من المصادر السابقة، والضمير في قوله: «أحبُّه» يعود على ما في البيت الذي قبله:

سلِّم على قَطَنٍ إن كنت نازِلَه ... سلامَ مَنْ كان يهوى مرةً قَطَنا

وقَطَن: جبلٌ كثير النخل والمياه لبني عبس.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٣، وتفسير البغوي ٣/ ٦. وأبو قُبيس: جبل مشرف على مسجد مكة. معجم البلدان ٤/ ٣٠٨.

(٦) كلام المصنف في هذه المسألة لا يُلتفَت إليه. ووقع في (ظ): قلت، بدل: مسألة.

(٧) في (د) و(ز) و(م): تهوي أبوابها عليها. والمثبت من (ظ).

(٨) أحمد بن يحيى بن إسحاق أبو الحسين الزنديق الشهير، كان أولاً من متكلمي المعتزلة، ثم تزندق، واشتهر بالإلحاد، صنف كتباً كثيرة يطعن فيها على الإسلام. مات سنة (٢٩٨هـ) لسان الميزان ١/ ٣٢٣.

فاعتدلا، فلذلك وقفت. والذي عليه المسلمون وأهلُ الكتاب القولُ بوقوفِ الأرض وسكونِها ومدِّها، وأنَّ حركتها إنما تكون في العادة بزلزلة تصيبُها.

وقوله تعالى: ﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ أي: مياهاً جاريةً في الأرض، فيها منافعُ الخلق.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ يعني[(١)] صنفين. قال أبو عُبيدة[(٢)]: الزوج واحدٌ، ويكون اثنين. الفراء[(٣)]: يعني بالزوجين هاهنا الذكرَ والأنثى. وهذا خلافُ النصّ.

وقيل: معنى «زَوْجَين» نوعان، كالحُلْو والحامض، والرَّطبِ واليابس، والأبيضِ والأسود، والصغيرِ والكبير[(٤)].

﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ﴾، أي: دلالاتٍ وعلاماتٍ ﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾.

قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَأَيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

فيه خمس مسائل:

الأولى: قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ في الكلام حذفٌ، المعنى: وفي الأرض قِطَعٌ متجاوراتٌ وغيرُ متجاورات، كما قال: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١]، والمعنى: وتقيكم البَرْدَ، ثم حذف لعلم السَّامع. والمتجاوراتُ: المدنُ وما كان عامراً، وغيرُ متجاورات: الصحارى وما كان غيرَ عامر[(٥)].

---

(١) في (د) و(م): بمعنى.

(٢) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٣.

(٣) في معاني القرآن ٢/ ٥٨.

(٤) زاد المسير ٤/ ٣٠٢.

(٥) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٦٩.

الثانية: قوله تعالى: ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾، أي: قُرًى متدانياتٌ، ترابُها واحدٌ، وماؤها واحد، وفيها زروعٌ وجنات، ثم تتفاوتُ في الثّمار والتَّمر؛ فيكون البعض حُلْواً، والبعض حامضاً، والغصنُ الواحد من الشجرة قد يختلف الثّمرُ فيه من الصِّغَر والكِبر واللون والطَّعم، وإن انبسط الشمسُ والقمر على الجميع على نَسَقٍ واحد، وفي هذا أدلُّ دليلٍ على وحدانيته وعِظم صَمَدِيَّته، والإرشادُ لمن ضلَّ عن معرفته، فإنه نَبَّه سبحانه بقوله: «تُسْقَى بِماءٍ واحدٍ» على أنَّ ذلك كلَّه ليس إلا بمشيئته وإرادتِه، وأنه مقدورٌ بقدرته؛ وهذا أدلُّ دليلٍ على بطلان القول بالطَّبع؛ إذ لو كان ذلك بالماء والتراب والفاعلُ له الطبيعةُ لمَا وقع الاختلاف.

وقيل: وجهُ الاحتجاج أنه أثبت التفاوتَ بين البِقاع، فمِن تربة عَذْبة، ومن تربة سَبِخة مع تجاورهما(١)، وهذا أيضاً من دلالات كمال قُدرته، جلَّ وعزَّ؛ تعالى عما يقول الظالمون والجاحدون عُلُوًّا كبيراً(٢).

الثالثة: ذهبت الكفرةُ ـ لعنهم الله ـ إلى أنَّ كلَّ حادثٍ يَحدُث بنفسه لا من صانع، وادَّعوا ذلك في الثمار الخارجةِ من الأشجار، وقد أقرُّوا بحدوثها، وأنكروا مُحدِثَها، وأنكروا الأعراضَ. وقالت فرقة بحدوث الثمار لا من صانع، وأثبتوا للأعراض فاعلاً.

والدليلُ على أنَّ الحادثَ لابدَّ له مِن مُحدِث أنه يَحدُث في وقت، ويَحدُث ما هو من جِنسه في وقت آخرِ، فلو كان حدوثُه في وقته لاختصاصه به؛ لوجب أنْ يَحدُث في وقته كلُّ ما هو من جِنسه، وإذا بطَل اختصاصُه بوقته؛ صحَّ أنَّ اختصاصَه به لأجل مُخصِّصٍ خَصَّصه به، ولولا تخصيصُه إيَّاه به لم يكن حدوثُه في وقته أَولى من حدوثه قبلَ ذلك أو بعدَه، واستيفاءُ هذا في علم الكلام.

---

(١) في النسخ الخطية: تجاورها، والمثبت من (م).

(٢) ينظر تفسير الرازي ١٩/٦ - ٧، وزاد المسير ٤/٣٠٣ - ٣٠٤.

الرابعة: قوله تعالى: ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ قرأ الحسن: «وَجَنَّاتٍ»[١] بكسر التاء على تقدير[٢]: وجعل فيها جناتٍ، فهو محمولٌ على قوله: «وجَعَلَ فيها رَوَاسِيَ». ويجوز أنْ تكونَ مجرورةً على الحمل على «كلِّ». التقدير: ومن كلِّ الثمرات، ومن جنَّات[٣]. الباقون: «جَنَّاتٌ» بالرفع على تقدير: وبينهما جناتٌ[٤].

﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ بالرفع: ابن كثير وأبو عمرو وحفص عطفاً على الجنَّات، أي: على تقدير: وفي الأرض زَرْعٌ ونخيل. وخَفَضَها الباقون نَسَقاً على الأعناب[٥]، فيكون الزرع والنخيلُ من الجنّات، ويجوز أنْ يكونَ معطوفاً على «كُلّ» حسب ما تقدَّم في «جنّات».

وقرأ مجاهد والسُّلَميُّ وغيرهما: «صُنْوَانٌ»[٦] بضم الصاد، الباقون بالكسر، وهما لغتان، وهما جمع صِنْو، وهي النَّخَلات والنَّخلتان، يجمعهنَّ أصلٌ واحدٌ، وتتشعَّب منه رؤوسٌ فتصير نخيلاً، نظيرُها قِنْوان، واحدُها قِنو[٧].

وروى أبو إسحاق عن البَرَاء قال: الصِّنْوان: المُجتَمِع، وغيرُ الصِّنْوان: المُتفرِّق[٨]، النحاس[٩]: وكذلك هو في اللغة، يقال للنخلة إذا كانت فيها نخلةٌ أخرى أو أكثر: صِنْوان.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦ .

(٢) في (ظ): وتقدير، وفي (م): على التقدير.

(٣) ينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ .

(٤) أو بالعطف على «قطع».

(٥) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ ، وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٠ ، والحجة لأبي علي الفارسي ٥/ ٦ .

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦ ، والمحتسب ١/ ٣٥١ .

(٧) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١ ، وتهذيب اللغة ١٢/ ٢٤٣ .

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٢١ . وأبو إسحاق: هو عمرو بن عبد الله السَّبيعي.

(٩) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٠ . وما قبله منه.

والصِّنو: المِثلُ؛ ومنه قولُ النبيِّ ﷺ: «عَمُّ الرَّجُل صِنْوُ أبيه»[١]. ولا فرقَ فيها بين التّثنية والجمع، إلا بالإعراب[٢]، فتعربُ نون الجمع، وتكسر نون التّثنية؛ قال الشاعر:

العِلْمُ والحِلْمُ خَلَّتَا كَرَمٍ ... للمرءِ زَيْنٌ إذا هُمَا اجْتَمَعا
صِنْوانِ لا يُسْتَتَمُّ حُسْنُهُما ... إلَّا بجمعٍ لِذا[٣] وذاكَ مَعا

الخامسة: قولُه تعالى: ﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ﴾ كصالح بَني آدمَ وخَبيثِهم، أبوهم واحد؛ قاله البخاريُّ[٤].

وقرأ عاصمٌ وابنُ عامر: «يُسْقَى» بالياء، أي: يُسقى ذلك كلُّه. وقرأ الباقون بالتاء[٥]، لقوله: «جَنَّاتٌ»، واختاره أبو حاتم وأبو عُبيد[٦]؛ قال أبو عمرو: والتأنيثُ أحسن؛ لقوله: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾ ولم يقل: بعضَه[٧].

وقرأ حمزةُ والكسائيّ وغيرهما: «وَيُفَضِّلُ»[٨] بالياء ردًّا على قوله: «يُدَبِّرُ الأمْرَ»، و«يُفَصِّلُ»، و«يُغْشِي». الباقون بالنون على معنى: ونحن نُفضِّل[٩].

ورَوى جابر بنُ عبد الله قال: سمعتُ النبيَّ ﷺ يقول لعليٍّ ﷺ: «الناسُ من شجرٍ

(١) أخرجه أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣) من حديث أبي هريرة ﷺ، وفيه قصة مَنْع ابن جَميل وخالد بن الوليد والعبَّاس ﷺ الصدقةَ، وهي عند البخاري (١٤٦٨) دون قوله: «عم الرجل صنو أبيه».

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولا بالإعراب. وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٢١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): بجمع ذا، وهو كذلك في النكت والعيون ٣/ ٩٣ (والبيتان فيه) والمثبت من (ظ)، والبيتان أيضاً في عيون الأخبار ٢/ ١٢١ ، وتاريخ دمشق ٧/ ٦ ، ونسبهما ابن عساكر لسابق بن عبد الله اليزيدي.

(٤) في (م): قاله النحاس والبخاري. وعلَّقه البخاري عن مجاهد في أول تفسير سورة الرعد.

(٥) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ .

(٦) في (م): وأبو عبيدة، وبعده في (ز): قال أبو عبيدة: قال أبو عمرو...

(٧) الكلام بنحوه في إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١ .

(٨) وقرأ بها خلف من العشرة. النشر ٢/ ٢٩٧ .

(٩) السبعة ص٣٥٦ ، والتيسير ص١٣١ . وينظر إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥١ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٨ .

شتَّى، وأنا وأنت من شجرةٍ واحدةٍ»، ثم قرأ النبيُّ ﷺ: ﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ حتى بلغ قولَه: «يُسْقَى بِماءٍ واحِدٍ»(١).

و«الأُكُل» الثمر، قال ابن عباس: يعني: الحلوَ والحامضَ، والفارسيَّ والدَّقَل(٢).

ورُوي مرفوعاً من حديث أبي هريرة أنَّ رسول الله ﷺ قال في قوله تعالى: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي ٱلْأُكُلِ﴾، قال: «الفارسيُّ والدَّقَل، والحُلْو والحامضُ»(٣). ذكره الثعلبيّ.

قال الحسن: المرادُ بهذه الآية المَثَل؛ ضربه الله تعالى لبني آدم، أصلُهم واحدٌ، وهم مختلفون في الخير والشرِّ والإيمانِ والكفر، كاختلاف الثمارِ التي تُسقى بماء واحد(٤)، ومنه قولُ الشاعر:

بنو آدمَ كالنَّبتِ ... ونَبْتُ الأرض ألوان(٥)
فمنه(٦) شجرُ الصندل ... والكافور والبان
ومنه(٧) شجرٌ ينضحُ ... طول الدَّهر قطران

---

(١) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٢٤١ ، وقال: حديث صحيح ولم يخرجاه. وتعقَّبه الذهبي في التلخيص بقوله: لا والله، هارون بن حاتم (أحد رجال الإسناد) هالك.

(٢) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٠ . وقوله: الفارسي: يعني: تمراً فارسيًّا، وهو نوع جيد. والدَّقَل: أردأ التمر. المصباح المنير (فرس) و(دقل).

(٣) أخرجه الترمذي (٣١١٨) وقال: حديث حسن غريب! قال ابن الجوزي في العلل المتناهية ٢/ ٦٥٨ : هذا الحديث لا يصح عن رسول الله ﷺ [في إسناده] سيف بن محمد الثوري متفق على كذبه. قال أحمد: كان يضع الحديث. اهـ وأخرجه من طريق أخرى الطبري ١٣/ ٤٣١ . قال العقيلي في الضعفاء ٢/ ١٣١ : وهذا الحديث إنما يعرف بسيف بن محمد.

(٤) النكت والعيون للماوردي ٣/ ٩٤ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): الناس كالنبت والنبت ألوان. والمثبت من (ظ) وهو الموافق للمصادر. والأبيات في التمثيل والمحاضرة للثعالبي ص٢٧٥ ، والتدوين في أخبار قزوين ١/ ٧٠ وقائلها منصور الفقيه.

(٦) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فمنها، والمثبت من المصادر.

(٧) في النسخ: ومنها، والمثبت من المصادر.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ أي: لَعلاماتٍ لمن كان له قلبٌ يَفهم عن الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَاقِهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾، أي: إنْ تعجَبْ يا محمدُ من تكذيبهم لك بعد ما كنتَ عندَهم الصادقَ الأمينَ؛ فأعجبُ منه تكذيبُهم[1] بالبَعْث؛ والله تعالى لا يَتعجَّب، ولا يجوز عليه التعجُّب؛ لأنه تَغيُّر النفسِ بما تخفى أسبابُه، وإنما ذَكَر ذلك ليتعجَّب منه نَبيُّه ﷺ والمؤمنون[2].

وقيل: المعنى: أي: إنْ عَجِبتَ يا محمد من إنكارهم الإعادةَ مع إقرارهم بأني خالقُ السَّماواتِ والأرضِ والثمار المختلفة من الأرض الواحدة؛ فقولُهم عَجَبٌ يَعجَبُ منه الخَلْق؛ لأنَّ الإعادة في معنى الابتداء[3].

وقيل: الآية في مُنكري الصانع، أي: إنْ تَعْجَبْ من إنكارهم الصانعَ مع الأدلَّة الواضحة بأنَّ المتغير لابدَّ له من مُغيِّر؛ فهو محلُّ التعجّب. ونَظْمُ الآية يدلُّ على الأوّل والثاني؛ لقوله: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ أي: أنُبعث إذا كنا تراباً؟!.

﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ وقُرئ: «إنَّا»[4]. و﴿ٱلْأَغْلَٰلُ﴾ جمع غُلّ؛ وهو طَوْقٌ تُشَدُّ به اليدُ إلى العُنُق، أيْ: يُغلُّون يومَ القيامة؛ بدليل قوله: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِيٓ أَعْنَٰقِهِمْ﴾ إلى قوله: ﴿ثُمَّ فِي ٱلنَّارِ يُسْجَرُونَ﴾ [غافر: ٧١-٧٢]. وقيل: الأغلالُ: أعمالُهم السيئةُ التي هي لازمةٌ لهم[5].

(١) في (ظ): فاعجب من تكذيبهم.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٤ - ٩٥.

(٣) ينظر تفسير زاد المسير ٤/ ٣٠٤، وتفسير الرازي ١٩/ ٨ - ٩.

(٤) قرأ بها نافع والكسائي. السبعة ص٣٥٧، والتيسير ص١٣٢.

(٥) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٣٩، والوسيط للواحدي ٣/ ٥، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦.

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ۝٦ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: لِفَرْط إنكارهم وتكذيبِهم يطلبون العذاب. قيل: هو قولُهم: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ﴾ [الأنفال: ٣٢].

قال قتادة: طلبوا العقوبةَ قبل العافية[١]، وقد حكم سبحانه بتأخير العقوبةِ عن هذه الأمة إلى يوم القيامة.

وقيل: «قَبْلَ الحسنةِ»، أي: قبل الإيمان الذي يُرجى به الأمانُ والحسنات[٢].

و﴿الْمَثُلَاتُ﴾: العقوبات، الواحدة مَثُلَة. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: [: «المُثُلات، بضم الميم والثاء[٣]، وهذا جمع: مُثْلَة، ورُوي عنه أنه قرأ] «المُثْلات» بضم الميم وإسكان الثاء[٤]، وهذا أيضاً جمعُ مُثْلَة، ويجوز: «المُثَلات»؛ تُبدلُ من الضمة فتحة لِثقلِها، وقيل: يُؤتى بالفتحة عِوضاً من الهاء. ورُوي عن الأعمش أنه قرأ: «المَثْلات» بفتح الميم وإسكان الثاء[٥]؛ فهذا جمعُ مَثْلة، ثم حَذف الضمةَ لثقلها؛ ذكره جميعَه النحاسُ رحمه الله[٦].

وعلى قراءة الجماعة واحده: مَثُلة، مثل: صَدُقة وصَدُقات[٧].

---

(١) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٢ ، وقول قتادة أخرجه الطبري ١٣/ ٤٣٦ .

(٢) ينظر النكت والعيون ٣/ ٩٥ .

(٣) ذكرها عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٠ ، ونسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ لعيسى بن عمر، وذكرها ابن جني ١/ ٣٥٤ دون نسبة.

(٤) نسبها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ ليحيى بن وثّاب.

(٥) نسبها في القراءات الشاذة ص٦٦ ليحيى بن وثّاب، وفي المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثّاب.

(٦) في معاني القرآن ٢/ ٤٧٢ – ٤٧٣ ، وما بين حاصرتين منه. وجمع: مَثْلَة على: مَثَلات؛ على غير قياس، ينظر المحتسب ١/ ٣٥٤ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): نحو صدقة وصدقة، والمثبت من (ظ)، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

وتميمٌ تضم الثاءَ والميم جميعاً، واحدُها على لغتهم مُثْلة، بضم الميم وجزم الثاء؛ مثل: غُرْفة وغُرُفات؛ والفعلُ منه: مَثَلْتُ به أَمْثُلُ مَثْلاً، بفتح الميم وسكون الثاء[1].

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾، أي: لذو تجاوز عن المشركين إذا آمنوا وعن المذنبين إذا تابوا. وقال ابن عباس: أرجى آية في كتاب الله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾[2]. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ إذا أصرّوا على الكفر.

وروى حمّاد بنُ سَلَمَة عن عليّ بن زيد، عن سعيد بن المسيّب قال: لما نزلت: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ اللهِ ورحمتُه وتجاوزُه لَما هَنَأ أحداً عيشٌ، ولولا عقابُه ووعيدُه وعذابُه لاتَّكل كلُّ أحد»[3].

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا﴾ أي: هلَّا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾. لما اقترحوا الآياتِ وطلبوها قال الله تعالى لنبيه ﷺ: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أي: مُعْلِم. ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: نبيٌّ يدعوهم إلى الله. وقيل: الهادي الله، أي: عليك الإنذارُ، والله هادي كل قومٍ إنْ أراد هدايتَهم[4].

قوله تعالى: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ ۝٨ عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ ۝٩﴾

فيه تسع[5] مسائل:

---

(١) الكلام بنحوه في تفسير الطبري ١٣/ ٤٣٥ .

(٢) أورده النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٥٢ ، وابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٦ .

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٣ ، وأخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٤ (١٢١٤٥)، والواحدي في الوسيط ٣/ ٦ ، وهو مرسل.

(٤) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٤٠ .

(٥) في (د) و(ز): ثمانية، وفي (م): ثمان، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لعدد المسائل المذكورة.

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: من ذكر وأنثى، صبيح وقبيح، صالح وطالح؛ وقد تقدّم في سورة الأنعام[1] أنَّ اللهَ سبحانه منفردٌ بعلم الغيبِ وحدَه لا شريكَ له؛ وذكرنا هناك حديثَ البخاريِّ عن ابن عمر أنَّ رسولَ الله ﷺ قال: «مفاتيحُ الغيب خمسٌ» الحديث، وفيه: «ولا يعلم ما تغِيض الأرحام إلا اللهُ»[2].

واختلف العلماء في تأويل قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ﴾ فقال قَتَادة المعنى: ما تُسقِط قبلَ التسعة الأشهر، وما تزداد فوقَ التسعة، وكذلك قال ابن عباس.

وقال مجاهد: إذا حاضت المرأة في حملها كان ذلك نقصاناً في ولدها؛ فإنْ زادت على التسعة كان تماماً لِمَا نقص. وعنه: الغيضُ ما تنقصه الأرحامُ من الدم، والزيادةُ ما تزداد منه[3].

وقيل: الغيض[4] والزيادةُ يرجعان إلى الولد، كنقصان إصبعٍ أو غيرها، وزيادةِ إصبع أو غيرها.

وقيل: الغيض: انقطاعُ دمِ الحيض [في الحمل]. «وَمَا تَزْدَادُ»: بدمِ النفاسِ بعد الوضع[5].

الثانية: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ تحيض؛ وهو مذهبُ مالك والشافعيِّ في أحد قوليه. وقال عطاء والشَّعبيُّ وغيرُهما: لا تحيضُ. وبه قال أبو حنيفة[6].

---

(١) ٨/ ٤٠١.

(٢) صحيح البخاري (٤٦٩٧)، وسلف ٨/ ٤٠١.

(٣) أخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٤٥ - ٤٥١.

(٤) في (ظ): النقص.

(٥) النكت والعيون ٣/ ٩٦، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٦) ينظر الأوسط لابن المنذر ٢/ ٢٣٨ - ٢٤٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩.

ودليلُنا[(١)] الآية؛ قال ابن عباس في تأويلها: إنه حيضُ الحبالى. وكذلك رُويَ عن عِكْرمة ومجاهد[(٢)]. وهو قولُ عائشةَ، وأنها كانت تفتي النِّساء الحواملَ إذا حِضْن أن يتركنَ الصَّلاة[(٣)]؛ والصحابةُ إذ ذاك متوافرون، ولم يُنكِر منهم أحدٌ عليها، فصار كالإجماع؛ قاله ابن القصَّار. وذكر أنَّ رجلين تَنازعَا ولداً، فَتَرافَعا إلى عمرَ ﷺ، فعرضه على القَافَة، فألحقه القائِفُ بهما، فَعَلاه عمر بالدِّرَّة، وسأل نِسوةً من قريش فقال: انظُرْنَ ما شأنُ هذا الولد؟ فقُلْنَ: إنَّ الأوّل خلا بها وخلَّاها، فحاضت على الحمل، فظنَّت أنَّ عِدَّتَها انقضت، فدخل بها الثاني، فانتعش الولد بماء الثاني. فقال عمر: الله أكبر! وألحقه بالأول[(٤)]، ولم يقل: إنَّ الحاملَ لا تحيض، ولا قال ذلك أحدٌ من الصحابة؛ فدلَّ على أنه إجماعٌ، والله أعلم.

احتجَّ المخالف بأنْ قال: لو كانت الحاملُ تحيض، وكان ما تراه من الدم[(٥)] حيضاً لَمَا صَحَّ استبراءُ الأمةِ بحيض[(٦)]؛ وهو إجماعٌ[(٧)]. ورُوي عن مالك في كتاب محمد ما يقتضي أنه ليس بحيض[(٨)].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ودليله.

(٢) خبر مجاهد تقدم في المسألة الأولى، وخبر عكرمة أخرجه الطبري ١٣/٤٤٨ ، وينظر عن ابن عباس ما أخرجه الطبري ١٣/ ٤٤٤ ، وابن أبي حاتم ٧/٢٢٢٦ (١٢١٦١)، وينظر أيضاً أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٨٠ - ١٨٢ .

(٣) أخرجه ابن المنذر في الأوسط ٢/ ٢٣٩ - ٢٤٠ ، وهو في المدونة ١/ ٥٥ ، وأخرج الدارمي (٩٢٤) عن يحيى بن سعيد قال: أمر لا يختلف فيه عندنا عن عائشة: المرأة الحبلى إذا رأت الدم أنها لا تصلي حتى تطهر.

(٤) أخرجه بنحوه مالك في الموطأ ٢/ ٧٤٠ - ٧٤١ ، وعبد الرزاق (١٣٤٥٠) و(١٣٤٥١).

(٥) في (م): ما تراه المرأة من الدم.

(٦) في (ظ): بحيضة، وهو أشبه. وينظر ما سلف ٦/ ٢٠١ .

(٧) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ ، وينظر أحكام القرآن للجصاص ٣/ ١٨١ ، والأوسط ٢/ ٢٤٠ . وذكر ابن المنذر عن بعض أصحاب هذا القول قوله: إن في إجماعهم على أن الأَمَة إذا حاضت حلَّ وَطْؤها، مع إجماعهم على أن الحامل لا يحل وطؤها حتى تضع، دليل بيِّن على أن الحامل مُحالٌ وجود الحيض فيها.

(٨) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ . وقد ثبت علمياً أن الحامل لا تحيض، وأما الدم الذي يخرج أثناء الحمل =

الثالثة: في هذه الآية دليلٌ على أنَّ الحاملَ قد تضع حملَها لأقلَّ من تسعة أشهر وأكثر، وأجمع العلماء على أنَّ أقلَّ الحملِ ستَّةُ أشهر، ورُوي أنَّ عبدَ الملك[(١)] بنَ مروان وُلد لستة أشهر.

الرابعة: وهذه السِّتةُ الأشهر هي بالأَهِلَّة كسائر أشهرِ الشريعة؛ ولذلك قد رُوي في المذهب عن بعضِ أصحاب مالك ـ وأظنُّه في كتاب ابنِ حارث[(٢)] ـ أنه إنْ نقص من[(٣)] الأشهر الستة ثلاثةُ أيام، فإنَّ الولدَ يلحق لعلة نقص الشهورِ وزيادتها؛ حكاه ابن عطية[(٤)].

الخامسة: واختلف العلماء في أكثر الحمل؛ فروى ابن جُرَيج عن جَمِيلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكونُ الحملُ أكثرَ من سنتين قَدْرَ ما يتحوَّل ظِلُّ المِغْزَل؛ ذكره الدَّارَقُطْنِي[(٥)]. وقال[(٦)]: جَميلة بنتُ سعد أختُ عُبيد بنِ سعد[(٧)].

= فإنه راجع إلى أسباب مرضية مختلفة، تطول مدة خروجه أو تقصر على حسب أسبابه، وليس هو بدم حيض.

(١) في (د) و(ز) و(م): وإن عبد الملك، بدل: وروي أن عبد الملك، والمثبت موافق لما في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ ، والكلام منه.

(٢) لعله محمد بن حارث بن إسماعيل الخشني، أبو عبد الله، تفقَّه بالقيروان، كان حافظاً للفقه عالماً بالفتيا، ألف كتابه في الاتِّفاق والاختلاف في مذهب مالك، وكتاب الفتيا، وكتاب فقهاء المالكية، وغير ذلك، توفي سنة (٣٦١هـ). ترتيب المدارك ٤/ ٥٣١ .

(٣) في (م): عن.

(٤) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩ .

(٥) في سننه (٣٨٧٥)، وأخرجه بنحوه سعيد بن منصور في سننه (٢٠٧٧)، قال ابن حزم في المحلَّى ١٠/ ٢١٦ : جميلة بنت سعد مجهولة، لا يُدرى من هي، فبطل هذا القول. اهـ. قوله: ظل المغزل: هو مَثَل لقلته؛ لأن ظله حالة الدوران أسرع من جميع الظلال، وهو على حذف مضاف تقديره: ولو بقدر ظل المغزل. ينظر البحر الرائق ٤/ ١٧٧ .

(٦) في النسخ: وقالت، والمثبت هو الصواب، وقاله الدارقطني إثر الحديث السالف.

(٧) الدِّيلي، طائفي، أبو امرأة ابن جريج، سمع عبد الله بن عمر، قال فيه ابن معين: مشهور. الجرح والتعديل لابن أبي حاتم ٥/ ٤٠٧ .

وعن الليث بن سعد: إنَّ أكثرَه ثلاثُ سنين. وعن الشافعيِّ: أربعُ سنين؛ ورُوي عن مالك في إحدى روايتيه، والمشهورُ عنه خمسُ سنين، ورُوي عنه: لا حدَّ له ولو زاد على العشرة الأعوام، وهي الرواية الثالثةُ عنه. وعن الزهريِّ: ستٌّ وسبع[١].

قال أبو عمر[٢]: [فمالك يجعله خمس سنين] ومِن أصحابه[٣] مَن يجعله إلى سبع. والشافعيُّ مُدَّتُه[٤] [عنده] الغايةُ فيها[٥] أربع سنين. والكوفيون يقولون: سنتان لا غير. ومحمد بن عبد الحكم يقول: سنة لا أكثر. وداود يقول: تسع أشهر، لا يكون عنده حملٌ أكثر منها.

قال أبو عمر: وهذه مسألةٌ لا أصلَ لها إلا الاجتهاد، والردُّ إلى ما عُرِفَ من أمر النِّساءِ، وبالله التوفيق.

رَوى[٦] الدَّارَقُطْني[٧] عن الوليد بن مسلم قال: قلتُ لمالك بن أنس: إني حُدِّثتُ عن عائشة أنها قالت: لا تزيد المرأة في حملها على سنتين قَدْرَ ظِلِّ المِغْزَل، فقال: سبحان الله! مَن يقول هذا؟! هذه جارتُنا امرأةُ محمد بنِ عَجْلان امرأةُ صِدْقٍ، وزوجُها رجلُ صدقٍ، حملت ثلاثةَ أَبْطُنٍ في اثنتي عَشْرةَ سنةً، تحمل كلَّ بطنٍ أربعَ سنين.

وذَكَر عن المبارك بنِ مجاهد قال: مشهورٌ عندنا كانت امرأةُ محمد بنِ عَجْلان تحمل وتضع في أربع سنين، وكانت تُسمَّى حاملةَ الفيل[٨].

---

(١) أحكام القرآن لابن العربي ٣/١٠٩٧ .

(٢) في الاستذكار ٢٢/١٧٨ - ١٧٩ ، وما سيرد بين حاصرتين منه.

(٣) في النسخ: ومن الصحابة، والمثبت من الاستذكار.

(٤) في (د) و(ز) و(م): مدة، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في الاستذكار.

(٥) في (د) و(ز) و(م): منها، وفي (ظ): فيه، والمثبت من الاستذكار.

(٦) قبلها في (ظ): قلت.

(٧) في سننه (٣٨٧٧).

(٨) سنن الدارقطني (٣٨٧٨).

ورَوَى أيضاً قال: بينما مالك بن دينار يوماً جالسٌ، إذ جاءه رجل فقال: يا أبا يحيى! ادعُ لامرأةٍ حُبلَى منذُ أربعِ سنين قد أصبحت في كَرْبٍ شديدٍ، فغضب مالك وأطبق المُصحَف، ثم قال: ما يرى هؤلاء القومُ إلا أنَّا أنبياء! ثم قرأ، ثم دعا، ثم قال: اللهمَّ هذه المرأةُ إنْ كان في بطنها ريحٌ فأخرِجْه عنها الساعةَ، وإنْ كان في بطنها جاريةٌ فأبْدِلْها بها غلاماً، فإنك تَمْحُو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب، ثم رفع مالكٌ يدَه، ورفع الناس أيديَهم، وجاء الرسول إلى الرجل فقال: أدرِكْ امرأتَكَ فذهب الرجل؛ فما حطَّ مالكٌ يدَه حتى طلع الرجل من باب المسجد على رقبته غلامٌ جَعْدٌ قَطَطٌ، ابنُ أربعِ سنينَ، قد استوت أسنانُه، ما قُطِعت سِرارُه[(١)].

ورَوَى أيضاً: أنَّ رجلاً جاء إلى عمر بن الخطاب فقال: يا أمير المؤمنين، إني غِبتُ عن امرأتي سنتين، فجئت وهي حُبلى! فشاوَرَ عمر الناسَ في رجمها، فقال معاذ ابن جبل: يا أمير المؤمنين، إنْ كان لك عليها سبيلٌ فليس لك على ما في بطنها سبيلٌ، فاتركْها حتى تضَعَ. فتركها، فولَدت[(٢)] غلاماً قد خرجت ثنيَّتاه، فعرف الرجل الشَّبه [فيه]، فقال: ابني وربِّ الكعبة! فقال عمر: عجزت النساءُ أنْ يَلِدْنَ مثلَ معاذ، لولا معاذٌ لهلك عمر[(٣)].

وقال الضحَّاك: وضعتني أمي وقد حملت بي في بطنها سنتين، فولدتني وقد خرجت سِنِّي[(٤)].

---

(١) سنن الدارقطني (٣٨٧٩)، وقوله: جَعْد قَطَط؛ الجعدُ من الشعر خلاف السَّبط، والسَّبْط: المنبسط المسترسل، والقطط: الشديد الجعودة. اللسان (جعد، قطط).

(٢) في (د) و(ز) و(م): فوضعت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لسنن الدارقطني.

(٣) سنن الدارقطني (٣٨٧٦)، وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٨٨، وسعيد بن منصور (٢٠٧٦). وذكر ابن حزم في المحلى ١٠/ ٣١٦ أن هذا الخبر باطل؛ لأنه عن أبي سفيان، وهو ضعيف، عن أشياخ لهم، وهم مجهولون.

(٤) أورده ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩.

ويُذكر عن مالكٍ أنه حُمل به في بطن أُمِّه سنتين، وقيل: ثلاث سنين[١].

ويقال: إنَّ محمد بن عَجلان مكث في بطن أمه ثلاثَ سنين، فماتت به وهو يضطربُ اضطراباً شديداً، فشُقَّ بطنُها وأُخرج وقد نبَتت أسنانه[٢].

وقال حمَّاد بن سلمة: إنما سُمي هَرِمُ بن حيَّان هَرِماً؛ لأنه بقيَ في بطن أُمه أربعَ سنين[٣].

وذكر الغَزْنَويُّ أنَّ الضحَّاك وُلد لسنتين، وقد طلعت سِنُّه فسُمِّي ضحَّاكاً[٤].

عبَّاد بنُ العوَّام: ولدت جارةٌ لنا[٥] لأربع سنين غلاماً شعرُه إلى مَنْكِبيه، فمرَّ به طيرٌ، فقال: كش[٦].

السادسة: قال ابن خُوَيْزِمَنْدَاد: أقلُّ الحيض والنفاس وأكثرُه، وأقلُّ الحمل وأكثرُه، مأخوذٌ من طريق الاجتهاد؛ لأنَّ علمَ ذلك استأثر الله به، فلا يجوزُ أنْ يُحكمَ

---

(١) أخرج البيهقي ٧/٤٤٣ عن الواقدي عن مالك قال: قد يكون الحمل سنين وأعرف مَن حملت به أمه أكثر من سنتين، يعني نفْسَه. وأخرج عن الواقدي أيضاً أن أم مالك حملت به في البطن ثلاث سنين.

(٢) أورده الذهبي في السير ٦/٣١٨، وذكره ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥ بنحوه.

(٣) أورده ابن قتيبة في المعارف ص٥٩٥. وهرم بن حيان هو العبدي، ويقال: الأزدي، أحد العابدين، وولي بعض الحروب في أيام عمر وعثمان ببلاد فارس. السير ٤/٤٨.

(٤) ذكره السَّرخسي في المبسوط ٦/٤٥، إلا أنه قال: لأربع سنين، بدل: سنتين.

(٥) في (ظ): ولدت جارية له.

(٦) قال ابن حزم في المحلى ١٠/٣١٦: لا يجوز أن يكون حملٌ أكثَر من تسعة أشهر، ولا أقلَّ من ستة أشهر؛ لقول الله تعالى: ﴿وحملُه وفصالُه ثلاثون شهراً﴾ وقال تعالى: ﴿والوالدات يرضعن أولادهن حولين كاملين لمن أراد أن يتم الرضاعة﴾ فمن ادَّعى أن حملاً وفصالاً يكون في أكثر من ثلاثين شهراً فقد قال الباطل والمحال، وردَّ كلام الله عزَّ وجلَّ جهاراً. اهـ.

وقد ثبت علمياً أن الدورة الطمثية قد تنقطع لسبب فيزيولوجي، كما هو الحال عند المرضعة، أو لسبب مرضي، كما هو الحال عند وجود ضعف في الإباضة، أو وجود خلل في الهرمونات، مما يؤدي إلى عدم حدوث الدورة الطمثية لأشهر، أو لسنين أحياناً، ثم تنشط الإباضة فجأة، ويحدث الحمل، فيُظن أن المدة السالفة كلها هي مدة الحمل، وليس كذلك، فالحمل الحقيقي لن يزيد عن وقته (وهو تسعة أشهر) أكثر من شهر، وإلا لمات الجنين في بطن أمه.

في شيء منه إلا بقَدْرِ ما أظهره لنا، ووُجد ظاهراً في النساء؛ نادراً أو معتاداً؛ ولمَّا وَجَدْنا امرأةً قد حملت أربعَ سنين وخمسَ سنين حَكَمْنا بذلك، والنفاسُ والحيضُ لمَّا لم نجد فيه أمراً مُستقرًّا رجعنا فيه إلى ما يوجد في النادر منهنَّ.

السابعة: قال ابن العربي[١]: نقل بعضُ المتساهلين من[٢] المالكيين أنَّ أكثر الحملِ تسعةُ أشهر! وهذا ما لم ينطق به قطُّ إلا هالِكيٌّ، وهم الطَّبائِعيُّون الذين يزعمون أنَّ مدبِّرَ الحملِ في الرَّحِم الكواكبُ السبعة؛ تأخذه شهراً شهراً، ويكونُ الشهر الرابعُ منها للشمس؛ ولذلك يتحرَّك ويضطرب، وإذا تكامَلَ التَّدَاوُلُ في السبعة الأشهرِ بين الكواكب السبعةِ عاد في الشهر الثامن إلى زُحل، فيُبْقِله[٣] بِبَرْده، فياليتني تمكَّنتُ من مناظرتهم أو مقاتلتِهم[٤]! ما بالُ المَرْجِع بعدَ تمامِ الدَّور يكون إلى زُحلَ دونَ غيره؟ آللهُ أخبركم بهذا أم على الله تفترون؟! وإذا جاز أنْ يعودَ إلى اثنين منها[٥]، لِمَ لا يجوزُ أنْ يعودَ التدبير إلى ثلاثٍ أو أربع، أو يعودَ إلى جميعها مرتين أو ثلاثاً؟! ما هذا التحكُّم بالظنون الباطلةِ على الأمور الباطنة!.

الثامنة: قوله تعالى: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ يعني من النقصان والزيادة. ويقال: «بمقدار»: قَدْرَ خروجِ الولد من بطن أمِّه، وقَدْرَ مُكْثِه في بطنها إلى خروجه. وقال قَتَادةُ: في الرزق والأجل[٦]. والمقدارُ: القَدْرُ. وعمومُ الآيةِ يتناول كلَّ ذلك، والله سبحانه أعلم.

---

(١) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عن، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٣) في (د) و(ز) و(ظ): فيلقيه، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن ومعنى يبقله: يخرجه. ينظر اللسان (بقل).

(٤) في (د) و(ز): مقابلتهم، والمثبت من (ظ) و(م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٥) في (د) و(ز) و(ظ): إلى شيء منها، والمثبت من (م)، وهو الموافق لأحكام القرآن.

(٦) النكت والعيون ٣/ ٩٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٢ بنحوه.

التاسعة[١]: هذه الآيةُ تَمدَّحَ الله سبحانه وتعالى بها بأنه: ﴿عَٰلِمُ ٱلۡغَيۡبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: هو عالمٌ بما غاب عن الخلق، وبما شَهِدوه. فالغيبُ مصدرٌ بمعنى الغائب. والشهادةُ مصدرٌ بمعنى الشاهد، فنبَّه سبحانه على انفراده بعلم الغيبِ، والإحاطةِ بالباطن الذي يَخْفَى على الخَلْق، فلا يجوزُ أنْ يشاركَه في ذلك أحدٌ. فأما أهلُ الطبِّ الذين يستدلُّون بالأمارات والعلاماتِ، فإنْ قطعوا بذلك فهو كفرٌ[٢]، وإنْ قالوا: إنها تجربة، تُركوا وما هم عليه، ولم يَقدَح ذلك في الممدوح[٣]؛ فإنَّ العادةَ يجوز انكسارُها، والعلمُ لا يجوزُ تبدُّلُه.

و﴿ٱلۡكَبِيرُ﴾ الذي كلُّ شيءٍ دونه. ﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾ عما يقول المشركون، المستعلي على كلِّ شيءٍ بقدرته وقَهْرِه؛ وقد ذكرناهما في شرح الأسماء مستوفًى[٤]، والحمد لله.

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ وَسَارِبُۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠﴾

قوله تعالى: ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ إسْرارُ القول: ما حَدَّث به المرءُ نفسَه، والجهرُ ما حَدَّث به غيرَه؛ والمرادُ بذلك أنَّ الله سبحانه يَعلم ما أَسَرَّه الإنسان من خيرٍ وشرّ، كما يعلم ما جَهَر به من خيرٍ وشرّ.

و«مِنْكُمْ» يحتمل أنْ يكونَ وصفاً لـ «سواءٌ»، التقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ وَجَهْرُ مَن جَهَر سواءٌ منكم. ويجوزُ أنْ يتعلق بـ «سواء» على معنى: يستوي منكم، كقولك: مررتُ بزيد. ويجوز أنْ يكونَ على تقدير: سِرُّ مَن أَسَرَّ منكم وجَهْرُ مَن جَهَر منكم.

---

(١) في (د) و(م): قلت، والمثبت من (ز) و(ظ).

(٢) وقعت العبارة في أحكام القرآن لابن العربي ٣/ ١٠٩٦ (والكلام منه): وأهل الطب يقولون: إذا ظهر النفخ في ثدي الحامل الأيمن فالحمل ذكر، وإن ظهر في الثدي الأيسر فالحمل أنثى، وإذا كان الثقل للمرأة في الجانب الأيمن فالحمل ذكر، وإن وجدت الثقل في الجانب الأيسر فالولد أنثى، فإن قطعوا بذلك فهو كفر. وينظر ما سلف ٨/ ٤٠٣ .

(٣) في أحكام القرآن: التمدح.

(٤) الأسنى ص٢٠٨ و ٢١٠ وما بعدها.

ويجوزُ أنْ يكونَ التقدير: ذو سواءٍ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جَهَر به، كما تقول: عدلٌ زيدٌ وعمرو، أي: ذوا عدلٍ. وقيل: «سواء»، أي: مُسْتوٍ، فلا يحتاج إلى تقدير حذفِ مضاف(١).

﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ﴾ أي: يستوي في علم الله السرُّ والجهر، والظاهِرُ في الطُّرقات والمُسْتَخْفي في الظُّلُمات(٢).

وقال الأخفش وقُطْرُب(٣): المستخفي بالليل: الظاهرُ؛ ومنه خَفَيتُ الشيءَ وأَخْفَيته، أي: أظهرتُه، واختفيت(٤) الشيءَ، أي: استخرجتُه، ومنه قيل لِلنَّبَّاش: المختفي(٥). وقال امرؤ القيس:

خَفَاهُنَّ مِن أَنْفَاقِهِنَّ كَأَنَّمَا ... خَفَاهُنَّ وَدْقٌ مِن عَشِيٍّ مُجَلِّبِ(٦)

والسَّاربُ: المتواري، أي: الداخلُ سَرَباً؛ ومنه قولُهم: انْسَرَب الوحش: إذا دخل في كِناسه(٧). وقال ابن عباس: «مُسْتَخْفٍ»: مستتر، «وَسَارِبٌ»: ظاهر(٨).

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤١، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٣، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٧ والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٣.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢.

(٣) قول الأخفش في معاني القرآن له ٢/ ٥٩٥، وقول قطرب ذكره الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٢، وأبو الطيب اللغوي في الأضداد ١/ ٢٤٧، وذكر هذا القول عنهما الرازي ١٩/ ١٧ - ١٨.

(٤) في (د) و(ز) و(م): أخفيت، والمثبت من (ظ)، وهو الموافق لما في تفسير الرازي ١٩/ ١٧، واللسان (خفي)، ومثلها: استخفيت، ذكرها الجوهري في الصحاح (خفي). وينظر الأضداد لأبي الطيب ١/ ٢٤٧، وتهذيب اللغة ٧/ ٥٩٧.

(٥) الأضداد لابن الأنباري ص٧٦، والصحاح (خفي).

(٦) ديوان امرئ القيس ص٥١. وجاء في شرحه للأصمعي: الوَدْق: المطر، وخَصَّ مطر العَشيِّ لأنه أغزر. والمجلِّب: الذي تُسمع له جَلَبة لشدةِ وَقْعِه، أي: وَدْقٌ من عَشيٍّ فيه جلبةٌ للمطر. والمعنى: أن الفرس لشدة جَرْيِه أخرج الفِئرةَ من جِحَرتهنَّ ظنَّه مطراً، فخشينَ أن يُسيل الأرض فيغرقهن.

(٧) في (م): الوحشي، ومثله في معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢، والصحاح (سرب)، والمثبت موافق لما في معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦، وتهذيب اللغة ١٢/ ٤١٤، وتفسير الرازي ١٩/ ١٧. والكِناس: هو مستتر الظبي في الشجر. القاموس (كنس).

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٣ - ٤٥٤.

مجاهد: مُسْتَخْفٍ [بالليل، أي: مستتر] بالمعاصي، «وَسَارِبٌ»: ظاهر[(١)].

وقيل: معنى «سَارِبٌ»: ذاهبٌ؛ قال الكسائيُّ: سَرَبَ يَسْرُبُ سَرَباً وسُرُوباً: إذا ذهب[(٢)]؛ وقال الشاعر:

وكُلُّ أُناسٍ قَارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهِمْ ونَحْنُ خَلَعْنَا قَيْدَهُ فهو سَارِبُ[(٣)]

أي: ذاهبٌ. وقال أبو رجاء: السَّاربُ: الذَّاهب على وجهه في الأرض[(٤)]؛ قال الشاعر:

أَنَّى سَرَبْتِ وكنتِ غيرَ سَرُوبِ[(٥)]

وقال القُتَبيُّ: «سَارِبٌ بِالنَّهَارِ»، أي: متصرِّفٌ[(٦)] في حوائجه بسرعة، من قولهم: انْسَرَب الماء. وحكى الأصمعيُّ: خَلِّ سَرْبَه، أي: طريقه[(٧)].

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾، أي: لله ملائكةٌ يتعاقبون بالليل والنهار؛ فإذا

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٦ ، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٧٧ .

(٣) قائله الأخنس بن شهاب التغلبي، كما في إصلاح المنطق ص٢٢٥ ، وشرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٣٧٨ ، والصحاح (سرب)، وشرح اختيارات المفضل للتبريزي ٢/ ٩٣٨ . قال السيرافي: يعني بالفحل هنا السيد، يقول: كلُّ أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعدَ عنهم خشيةً عليه من القتل، ونحن لعزِّنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٤ .

(٥) وعجزه: وتقرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريب، والبيت لقيس بن الخَطيم كما في تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٣ ، والأضداد لابن الأنباري ص٧٧ ، وبلا نسبة في الصحاح (سرب)، وسلف ١/ ١٠١ .

(٦) في (د) و(م): منصرف، والمثبت من (ز) و(ظ) وتفسير الغريب لابن قتيبة ص٢٢٤ .

(٧) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٧٧ .

صعِدت ملائكةُ الليل أعقبتها ملائكةُ النهار.

وقال: «مُعَقِّبَاتٌ» والملائكة ذُكْران؛ لأنه جمعُ مُعقِّبة؛ يقال: مَلَك مُعقِّب، وملائكة مُعقِّبة، ثم مُعقِّبات جمعُ الجمع(١).

وقرأ بعضهم: «له مَعَاقيبُ مِن بَيْنِ يَدَيْه ومن خَلْفِه». ومعاقيبُ جمع مُعقِّب(٢)؛ وقيل: للملائكة: معقِّبة؛ على لفظ الملائكة. وقيل: أنّث لكثرة ذلك منهم؛ نحو نسَّابة وعلَّامة وراوِيَة؛ قاله الجوهريُّ وغيره(٣).

والتعقيب(٤): العَودُ بعد البدء؛ قال الله تعالى: ﴿وَلَّىٰ مُدْبِرًا وَلَمْ يُعَقِّبْ﴾ [النمل: ١٠]، أي: لم يَرجع، وفي الحديث: «مُعقِّباتٌ لا يَخِيبُ قائِلُهنَّ ـ أو: فاعلهن ـ» فذكر التسبيحَ والتحميدَ والتكبير(٥)؛ قال أبو الهيثم(٦): سُمِّين «مُعقِّبات»؛ لأنها عادت مرَّة بعد مرَّة، وكلُّ(٧) مَن عَمِل عَملاً ثم عاد إليه فقد عَقَّب.

والمعقِّبات من الإبل: اللواتي يَقُمْنَ عند أعجازِ الإبل المُعْتَرِكات على الحوض، فإذا انصرفت ناقةٌ دخلت مكانَها أخرى(٨).

وقوله: ﴿مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ﴾، أي: المستخفي بالليل والساربِ بالنهار. ﴿يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ اختلف في هذا الحفظِ؛ فقيل: يَحتَمِل أنْ يكونَ توكيلُ الملائكةِ بهم

(١) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٠ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٥٦ .

(٢) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٦ عن زياد بن أبي سفيان، وفي المحتسب ١/ ٣٥٥ عن عبيد الله بن زياد. قال ابن جني: ينبغي أن يكون هذا تكسير معقِّبٍ أو معقِّبة، إلا أنه لمَّا حذف إحدى القافين عوض منها الياء.

(٣) الصحاح (عقب)، ومعاني القرآن للأخفش ٢/ ٥٩٦ .

(٤) في النسخ: والتعقب، والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٣ ، والكلام منه، وتفسير البغوي ٣/ ٩ .

(٥) أخرجه مسلم (٥٩٦) من حديث كعب بن عُجرة ﷺ.

(٦) هو الرازي، مشهور بكنيته، وسلفت ترجمته ٥/ ١٣٦ ، وكلامه في تهذيب اللغة ١/ ٢٧٢ - ٢٧٣ .

(٧) في (د) و(ز) و(م): فعل.

(٨) الصحاح (عقب).

لحِفْظِهم من الوحوش والهوامِّ والأشياءِ المُضرَّة، لطفاً منه به، فإذا جاء القَدَر خلَّوا بينَه وبينه. قاله ابن عباس وعلي بنُ أبي طالب رضي الله عنهما[1]؛ قال أبو مِجلَز: جاء رجلٌ من مُرَاد إلى عليٍّ فقال: احترس؛ فإنَّ ناساً من مُرَاد يريدون قتلَك، فقال: إنَّ مع كلِّ رجل مَلَكين يحفظانِه مما لم[2] يُقدَّر، فإذا جاء القَدَر خَلَّيا بينه وبينَ قَدَرِ الله، وإنَّ الأجلَ حِصنٌ حَصينة. وعلى هذا: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ» أي: بأمر الله وبإذنه، فـ«مِن» بمعنى الباء؛ وحروفُ الصِّفات يقوم بعضُها مقامَ بعض[3].

وقيل: «مِن» بمعنى «عن»، أي: يحفظونه عن أمر الله. وهذا قريبٌ من الأوّل؛ أي: حِفْظُهم عن أمر الله لا مِن عند أنفسِهم. وهذا قولُ الحسن[4]؛ تقول: كسوتُه عن عُرْيٍ ومن عُرْي، ومنه قوله عزَّ وجلَّ: ﴿أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ﴾ [قريش: ٤]، أي: عن جوع[5].

وقيل: يحفظونه من ملائكة العذابِ حتى لا تَحِلَّ به عقوبةٌ؛ لأنَّ اللهَ لا يغيِّر ما بقومٍ من النعمة والعافية حتى يُغيِّروا ما بأنفسهم بالإصرار على الكفر، فإذا أصرُّوا حان الأجلُ المضروب، ونزلت بهم النّقمة، وتزولُ عنهم الحَفَظة المعقِّبات.

وقيل: يحفظونه من الجِنِّ؛ قال كعب: لولا أنَّ الله وَكَّل بكم ملائكةً يَذبُّون عنكم في مَطْعَمكم وَمَشْرَبِكم وعوراتكم لتَخَطَّفتْكم [الجن][6] فإذاً[7] الجِنُّ وملائكةُ

(١) أخرجه عبد الرزاق في تفسيره ١/ ٣٣٢، والطبري ١٣/ ٤٥٨ عن ابن عباس.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ما لم، والمثبت من (ظ) وتفسير الطبري ١٣/ ٤٦٦ وفيه تخريج الخبر.

(٣) زاد المسير ٤/ ٣١١، وذكر هذا القول أبو عبيدة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٤، والبغوي ٣/ ٩، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٢، والطبري ١٣/ ٤٦٤ عن قتادة. وقاله مجاهد أيضاً كما في تفسيره ١/ ٣٢٦.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠، وذكر الطبري ١٣/ ٤٧٤ هذا القول عن بعض نحويِّي البصرة، وينظر معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٢.

(٥) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٤.

(٦) تفسير البغوي ٣/ ٩، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ٣/ ٤٦٦.

(٧) قوله: فإذاً ليس في (م).

العذابِ من أمر الله، وخصَّهم بأنْ قال: «مِنْ أَمْرِ اللهِ»؛ لأنهم غيرُ مُعايَنين، كما قال: ﴿قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى﴾ [الإسراء: ٨٥]، أي: ليس مما تشاهدونه أنتم.

وقال الفرَّاء[١]: في الكلام تقديمٌ وتأخير، تقديره: له معقِّباتٌ من أمر الله من بين يديه ومن خلفه يحفظونه. وهو مرويٌّ عن مجاهد وابنِ جُبير والنَّخعيِّ[٢]. وعلى أنَّ ملائكةَ العذابِ والجِنَّ من أمر اللهِ لا تقديمَ فيه ولا تأخير.

وقال ابن جريج: إنَّ المعنى: يحفظون عليه عملَه[٣]، فحذف المضاف. وقال قتادة: يكتبون أقواله وأفعاله.

ويجوز إذا كانت المعقِّباتُ الملائكة أن تكون الهاء في «له» لله عزَّ وجلَّ، كما ذكرنا. ويجوز أنْ تكونَ للمستخفي، فهذا قول.

وقيل: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ﴾ يعني به النبيَّ ﷺ[٤]؛ أي: إنَّ الملائكةَ تحفظه من أعدائه، وقد جرى ذكرُ الرسول في قوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾، أي: سواءٌ منكم مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به في أنه لا يضرُّ النبيَّ ﷺ، بل له معقباتٌ يحفظونه عليه الصلاة والسلام. ويجوز أنْ يرجعَ هذا إلى جميع الرسل؛ لأنه قد قال: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أي: يحفظون الهاديَ مِن بين يديه ومِن خَلْفه.

وقول رابع: أنَّ المرادَ بالآية: السلاطينُ والأمراءُ الذين لهم قومٌ من بين أيديهم ومن خلفهم يحفظونهم؛ فإذا جاء أمر الله لم يُغنوا عنهم من الله شيئاً؛ قاله ابن عباس

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦٠.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وابن جريج والنخعي، والمثبت من (ظ)، ينظر تخريج قولهم في تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٣.

(٣) ذكره ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٢ بلفظ: يحفظون عليه الحسنات والسيئات، وأخرجه بنحوه الطبري ٣/ ٤٥٩ - ٤٦٠ و ٤٦٧، وينظر المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢.

(٤) ذكره الطبري ١٣/ ٤٧٠، وابن عطية ٣/ ٣٠١ عن عبد الرحمن بن زيد، ونسبه ابن الجوزي ٤/ ٣١٠ لابن عباس رضي الله عنهما.

وعِكْرِمة. وكذلك قال الضَّحاك: هو السلطانُ المتحرِّسُ من أمر الله، المشرِكُ[١]. وقد قيل: إنَّ في الكلام على هذا التأويلِ نفياً محذوفاً تقديره: لا يحفظونه من أمر الله تعالى؛ ذكره الماوَرْديُّ[٢].

قال المَهْدَويُّ: ومَن جَعَل المعقِّباتِ الحرسَ؛ فالمعنى: يحفظونه من أمر الله على ظنِّه وزَعْمه.

وقيل: سواءٌ مَن أسرَّ القولَ ومَن جهر به، فله حرَّاسٌ وأعوانٌ يتعاقبون عليه فيحملونه على المعاصي، ويحفظونه من أنْ يَنْجَع فيه وعظٌ؛ قال القُشَيرِيُّ: وهذا لا يمنع الربَّ من الإمهال إلى أنْ يحقَّ العذاب؛ وهو إذا غَيَّر هذا العاصي ما بنفسه بطول الإصرارِ، فيصير ذلك سبباً للعقوبة؛ فكأنَّه الذي يُحِلُّ العقوبةَ بنفسه، فقوله: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ»، أي: من امتثال أمرِ الله.

وقال عبد الرحمن بنُ زيد: المعقِّباتُ: ما يتعاقبُ من أمر اللهِ تعالى وقضائه في عباده؛ قال الماورديُّ[٣]: ومَن قال بهذا القول؛ ففي تأويل قولِه: «يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللهِ» وجهان:

أحدهما: يحفظونه من الموت ما لم يأت أجلٌ؛ قاله الضحاك.

الثاني: يحفظونه من الجِنِّ والهوامِّ المؤذية، ما لم يأت قَدَرٌ. قاله أبو أمامة وكعب الأحبار[٤]. فإذا جاء المقدورُ خلَّوا عنه.

والصّحيحُ أنَّ المعقِّباتِ الملائكةُ، وبه قال الحسن ومجاهد وقتادة وابن جريج؛ ورُوي عن ابن عباس، واختاره النَّحاس[٥]، واحتجَّ بقول النبيِّ ﷺ: «يتعاقبون فيكم

---

(١) أخرج قولهم الطبري ٣/ ٤٦٠ - ٤٦١ .

(٢) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ٩٨ ، وما قبله منه.

(٤) خبر أبي أمامة أخرجه الطبري بنحوه ١٣/ ٤٦٦ ، وخبر كعب سلف قريباً.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٧٩ ، وأخرج قول الأئمة المذكورين الطبري ١٣/ ٤٥٦ - ٤٦٠ و ٤٦٣ - ٤٦٤ .

ملائكةٌ بالليل وملائكة بالنهار» الحديثَ، رواه الأئمة[١].

ورَوى ابنُ عيينةَ[٢] عن عمرو، عن ابن عباس أنه قرأ: «له معقِّباتٌ من بين يديه ورُقباءُ من خلفه من أمر الله يحفظونه». فهذا قد بيَّن المعنى[٣].

وقال كِنانةُ العَدَويُّ[٤]: دخل عثمان رضي الله تعالى عنه على النبيِّ ﷺ فقال: يا رسول الله! أخبرني عن العبد، كم معه مِن مَلَك؟ قال: «مَلَكٌ عن يمينك يكتب الحسناتِ، وآخَرُ عن الشمال يكتب السَّيِّئاتِ، والذي على اليمين أميرٌ[٥] على الذي على الشِّمال، فإذا عُمِلتْ حسنةٌ كُتبت عشراً، وإذا عُمِلت سيئة، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتبُ؟ قال: لا، لعله يستغفرُ اللهَ تعالى أو يتوبُ[٦]. فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتبْ أراحنا الله تعالى منه، فبئس القرينُ هو، ما أقلَّ مُراقبتَه لله عزَّ وجلَّ وأقلَّ استحياءَه منَّا، يقول الله تعالى: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨]. ومَلَكان من بين يديك ومِن خَلْفِك يقولُ الله تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾. [ومَلَك قابضٌ على ناصيتك، فإذا تواضَعْتَ لله رفعك، وإذا تَجبَّرْتَ على الله قَصَمكَ]. ومَلَكان على شَفَتيك، وليس يحفظان عليك إلا الصَّلاةَ على محمد وآله. ومَلَكٌ قائمٌ على فِيك لا يدَع أنْ تدخلَ الحيَّةُ في فِيك، ومَلَكان على عينيك. فهؤلاء عشرةُ أملاكٍ على كلِّ آدميٍّ يتداولون[٧]؛

---

(١) قطعة من حديث أبي هريرة ﷺ أخرجه أحمد (٧٤٩١)، والبخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وسلف ٤/ ١٧٩.

(٢) في (د) و(ز) و(م): وروى الأئمة، والمثبت من (ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٠. وأخرجه سعيد بن منصور في سننه (١١٥٩ - تفسير) عن سفيان بالإسناد المذكور، ولفظه: «له معقبات من بين يديه ورقباء من خلفه يحفظونه من أمر الله».

(٤) ابن نعيم، أبو بكر البصري، تابعي ثقة روى له مسلم. التهذيب ٣/ ٤٧٦. والخبر أخرجه الطبري ١٣/ ٤٥٧. وذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وما سيأتي بين حاصرتين منهما.

(٥) في (د) و(ز): أمين، وهي كذلك في مطبوع تفسير الطبري، وفي تفسير ابن كثير: آمر.

(٦) في (م): أو يتوب إليه، وفي تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ويتوب.

(٧) في تفسير الطبري وتفسير ابن كثير: ينزلون.

ملائكةُ الليلِ على ملائكة النهار؛ لأنَّ ملائكةَ الليلِ ليسوا بملائكة النهار، فهؤلاء عشرون مَلكاً على كلِّ آدميٍّ، وإبليس مع ابنِ آدمَ بالنهار، وولدُه بالليل»[١]. ذكره الثعلبيُّ.

قال الحسن: المعقِّبات أربعةُ أملاكٍ [اثنان بالنهار واثنان بالليل] يجتمعون عند صلاة الفجر[٢].

واختيار الطَّبريِّ[٣]: أنَّ المعقِّباتِ المواكبُ بين أيدي الأمراءِ وخَلْفَهم، والهاء في «له» لـ «مَنْ»[٤]، على ما تقدَّم[٥].

وقال العلماء رضوانُ الله عليهم: إنَّ الله سبحانه جعل أوامرَه على وجهين؛ أحدهما قضى حلولَه ووقوعَه بصاحبه، فذلك لا يدفَعُه أحدٌ ولا يغيِّره. والآخَرُ قضى مجيئه، ولم يقضِ حلولَه ووقوعَه، بل قضى صرفَه بالتَّوبة والدعاء والصَّدَقة والحفظ.

قوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ﴾ أخبر الله تعالى في هذه الآية أنه لا يغيِّر ما بقوم حتى يقعَ تغيير[٦]؛ إما منهم، أو من الناظر لهم، أو ممن هو منهم بسبب؛ كما غيَّر الله بالمنهزمين يومَ أُحُد بسبب تغيير الرّماةِ [ما] بأنفسهم، إلى غير هذا من أمثلة الشَّريعة. فليس معنى الآية أنه ليس ينزلُ بأحد عقوبةٌ إلا بأنْ يتقدَّم منه ذنبٌ، بل قد تنزل المصائبُ بذنوب الغير، كما قال ﷺ وقد سُئل: أَنهلِك

---

(١) قال ابن كثير: حديث غريب جدًّا. قلنا: وفي إسناده إبراهيم بن عبد السلام بن صالح وعلي بن جرير، ولم نقف لهما على ترجمة.

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٨، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) في تفسيره ١٣/ ٤٦١ - ٤٦٢.

(٤) يعني في قوله تعالى: ﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ﴾ وهذا هو اختيار الطبري في تفسيره، ووقع في النسخ: لهنَّ، بدل: لمن. والصواب ما أثبتناه.

(٥) ص٢٩ من هذا الجزء.

(٦) قبلها في النسخ: منهم، والمثبت من المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢، والكلام وما سيأتي بين حاصرتين منه.

وفينا الصّالحون؟ قال: «نعم، إذا كَثُر الْخَبَث»[١]. والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا﴾، أي: هلاكاً وعذاباً ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾. وقيل: إذا أراد بهم بلاءً من أمراضٍ وأسقامٍ، فلا مَرَدَّ لبلائه[٢].

وقيل: إذا أراد الله بقوم سوءاً أعمى أبصارهم حتى يختاروا ما فيه البلاءُ ويعملوه، فيمشون إلى هلاكهم بأقدامهم، حتى يبحثَ أحدُهم عن حتفة بكفِّه، ويسعى بقدمه إلى إراقة دمِه.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ أي: من ملجأ؛ وهو معنى قول السُّدِّيِّ. وقيل: مِن ناصِرٍ يمنعُهم من عذابه؛ وقال الشاعر:

ما في السماء سوى الرحمنِ من وَالِ[٣]

ووَالٍ ووَليٌّ كقادر وقدير.

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ۝١٢ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾، أي: بالمطر. «والسَّحاب» جمعٌ، والواحدة سَحَابة، وسُحُبٌ وسَحَائبُ في الجمع أيضاً[٤].

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ قد مضى في «البقرة»[٥] القولُ في الرعد والبرق والصواعق، فلا معنى للإعادة.

---

(١) قطعة من حديث زينب بنت جحش رضي الله عنها، وقد سلف ٩/ ١٤٦ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ٩٩ .

(٣) ذكره مع ما قبله الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٠ .

(٤) الصحاح (سحب).

(٥) ١/ ٣٢٧ وما بعدها.

والمرادُ بالآية بيانُ كمالِ قدرته، وأنَّ تأخيرَ العقوبةِ ليس عن عجز، أي: يريكم البرقَ في السماء خوفاً للمسافر؛ فإنه يخاف أذاهُ لِمَا ينالُهُ من المطر والهولِ والصواعق؛ قال الله تعالى: ﴿أَذًى مِّن مَّطَرٍ﴾ [النساء: ١٠٢]. وطمعاً للحاضر أنْ يكونَ عقِبه مطرٌ وخِصْب؛ قال معناه قَتَادة ومجاهد وغيرهما[١].

وقال الحسن: خوفاً من صواعق البرق، وطمعاً في غيثه المزيلِ للقحط[٢].

﴿وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ﴾ قال مجاهد: أي: [الثقال] بالماء[٣]. ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ﴾ مَن قال: إنَّ الرَعدَ صوتُ السحاب، فيجوز أنْ يُسبِّح الرعدُ بتقدير[٤] خلقِ الحياةِ فيه، ودليلُ صحةِ هذا القولِ قولُه: ﴿وَالْمَلَائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ﴾ فلو كان الرعد ملَكاً لدخل في جملة الملائكة.

ومَن قال: إنه ملَك قال: معنى «مِنْ خِيفَتِهِ»: من خيفة الله؛ قاله الطَّبَريُّ[٥] وغيره. قال ابن عباس: إنَّ الملائكةَ خائفون من الله ليس كخوف ابنِ آدم، لا يعرفُ أحدهم مَن على يمينه ومَن على يساره، لا يشغلُهم عن عبادة الله طعامٌ ولا شرابٌ[٦].

وعنه قال: الرّعدُ ملَكٌ يَسوق السَّحابَ، وإنَّ بحارَ[٧] الماء لفي نُقْرةِ إبهامِه، وإنه مُوَكَّلٌ بالسَّحاب يصرفُه حيثُ يؤمرُ، وإنه يسبِّح اللهَ؛ فإذا سبَّح الرّعدُ لم يبق مَلَكٌ في

---

(١) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٣ ، والطبري ١٣/ ٤٧٥ ، وذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨١ عن قتادة ومجاهد والحسن.

(٢) النكت والعيون ٣/ ١٠٠ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٠ ، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٧٦ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٦ .

(٤) في (د) و(ز) و(م): بدليل، والمثبت من (ظ).

(٥) في تفسيره ١٣/ ٤٧٨ .

(٦) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٠ .

(٧) في (م): بخار.

السّماء إلا رفع صوتَه بالتّسبيح، فعندها ينزل القَطْر(١).

وعنه أيضاً: كان إذا سمع صوت الرّعد قال: سبحان الذي سَبَّحْتَ له(٢).

وروى مالك، عن عامر بن عبد الله، عن أبيه: أنه كان إذا سمع صوت الرّعد [لَهِي من حديثه و] قال: سبحان الذي يسبِّح الرّعد بحمده والملائكةُ من خيفته، ثم يقول: إنَّ هذا وعيدٌ لأهل الأرض شديدٌ(٣).

وقيل: إنه مَلَك جالسٌ على كرسيٍّ بين السماء والأرض، وعن يمينه سبعون ألف مَلَك، وعن يساره مثلُ ذلك، فإذا أقبل على يمينه وسبَّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله، وإذا أقبل على يساره وسَبّح؛ سبَّح الجميعُ من خوف الله.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ ذكر الماورديُّ عن ابن عباس وعليّ بنِ أبي طالب ومجاهد: نزلت في يهوديٍّ قال للنبيِّ ﷺ: أَخبِرْني! مِن أيِّ شيءٍ ربُّك؟ أمِن لؤلؤ أم من ياقوت؟ فجاءت صاعقةٌ، فأحرقته(٤).

وقيل: نزلت في بعض كفَّار العرب؛ قال الحسن: كان رجلٌ من طواغيت العربِ، بَعثَ النبيُّ ﷺ إليه نَفَراً يدعونه إلى الله ورسولِه والإسلام، فقال لهم: أخبروني عن ربِّ محمد ما هو، ومِمّ هو، أمِن ذهب أم من فضة(٥) أم من حديد أم نحاس؟ فاستعظم القومُ مقالتَه، فقال: أُجيبُ محمداً إلى ربٍّ لا أعرفه! فبعث

(١) ذكره البغوي ٣/ ١١، من طريق جويبر، عن الضحاك، عن ابن عباس. وينظر تفسير الطبري ١/ ٣٥٧ - ٣٥٩.

(٢) أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٢)، والطبري ١٣/ ٤٧٧.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٣، وما سلف بين حاصرتين منه. ومن طريق مالك أخرجه البخاري في الأدب المفرد (٧٢٣). ووقع في الموطأ ٢/ ٩٩٢ : مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير أنه كان إذا سمع...، قال ابن عبد البر في الاستذكار ٢٧/ ٣٨٠ : هكذا رواه يحيى، لم يجاوز به عامراً، ورواه غيره من رواة الموطأ فقالوا فيه: مالك، عن عامر بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١٠١، وأخرجه عن علي ﷺ ومجاهد الطبري ١٣/ ٤٧٩ - ٤٨٠.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ومم هو أمن فضة، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

النبيُّ ﷺ إليه مراراً وهو يقول مثلَ هذا، فبينا النَّفَر ينازِعونه ويدعونه إذ ارتفعت سحابةٌ فكانت فوقَ رؤوسهم، فرَعدت وأبرقَتْ ورمتْ بصاعقة، فأحرقت الكافرَ وهم جلوس، فرجعوا إلى النبيِّ ﷺ، فاستقبلهم بعضُ أصحابِ رسولِ الله ﷺ فقالوا: احترق صاحبُكم، فقالوا: مِن أين علمتم؟ قالوا: أوحى الله إلى النبيِّ ﷺ: ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾. ذكره الثعلبيُّ عن الحسن[١]، والقشيريُ بمعناه عن أنس، وسيأتي[٢].

وقيل: نزلت الآية في أربد بن ربيعة أخي لَبيد بن ربيعة، وفي عامر بن الطُّفَيْل؛ قال ابن عباس: أقبل عامر بنُ الطُّفَيْل وأرْبَد بنُ ربيعة العامِريَّان يريدان النبيَّ ﷺ وهو في المسجد جالسٌ في نفر من أصحابه، فدخلا المسجد، فاستشرف الناس لجمال عامرٍ وكان أعورَ، وكان من أجمل الناس، فقال رجل من أصحاب النَّبيِّ ﷺ: هذا يا رسولَ الله عامر بنُ الطُّفَيْل قد أقبل نحوَك، فقال: «دَعْه فإنْ يُرِد اللهُ به خيراً يَهْدِه» فأقبل حتى قام عليه فقال: يا محمد ما لي إنْ أسلمت؟ فقال: «لك ما للمسلمين وعليك ما على المسلمين» قال: أتجعلُ لي الأمرَ من بعدك؟ قال: «ليس ذاك إليَّ، إنما ذلك إلى الله يجعلُه حيثُ يشاء». قال: أفتجعلُني على الوَبَر وأنت على المَدَر؟ قال: «لا». قال: فما تجعلُ لي؟ قال: «أجعلُ لك أعِنَّةَ الخيلِ تغزو عليها في سبيل الله». قال: أو ليس لي أعنَّةُ الخيلِ اليومَ؟ قم معي أُكلِّمْكَ. فقام معه رسول الله ﷺ، وكان عامرٌ أومأ إلى أَرْبَد: إذا رأيتني أكلمه فدُرْ من خلفه واضرِبْه بالسيف؛ فجعل يخاصم النبيَّ ﷺ ويراجعه، فاخترط أَرْبَد من سيفه شبراً، ثم حبسه الله؛ فلم يقدرْ على سَلِّه، ويَبِستْ يدُه على سيفه، وأرسل الله عليه صاعقةً في يوم صائفٍ صاحٍ فأحرقتْه، وولَّى عامرٌ هارباً وقال: يا محمد! دعوتَ ربَّك على أربدَ حتى قتلته[٣]، والله

(١) وذكره عن الحسن أيضاً البغوي ٣/ ١١ .

(٢) ص٣٩ من هذا الجزء.

(٣) في (ظ): حتى قتله الله.

لأملأنَّها عليك خيلاً جُرْداً، وفتيانا مُرْداً، فقال عليه الصلاة والسلام: «يمنعُك الله من ذلك وأبناءُ قَيْلَةَ»[١] يعني الأوْسَ والخَزْرَج؛ فنزل عامرٌ بيت امرأةٍ سَلُولية، وأصبح وهو يقول: واللهِ لئن أَصْحَرَ[٢] لي محمدٌ وصاحبُه ـ يريد مَلَك الموت ـ لأُنفِذَنَّهما[٣] برمحي. فأرسل الله مَلَكاً فلطمه بجناحه فأذراه في التراب؛ وخرجت على ركبته غُدَّةٌ عظيمةٌ في الوقت، فعاد إلى بيت السَّلُولية وهو يقول: غُدَّةٌ كغدة البعير، وموتٌ في بيت سَلُولية! ثم ركب على فرسه، فمات على ظهره[٤]. ورَثَى لَبيد بنُ ربيعة أخاه أَرْبَد فقال:

يـا عـيـنُ هـلَّا بَـكَـيـتِ أَرْبَـد إذ ... قُـمـنـا وقـام الـخُـصُـوم فـي كَـبَـدِ
أَخْـشَـى عـلـى أَرْبَـد الـحُـتُـوفَ وَلَا ... أَرْهَـبُ نَـوْءَ الـسِّـمَـاك وَالْأَسَـدِ
فَـجَّـعـنِـي الـرَّعْـدُ والـصَّـوَاعِـقُ بـالـ ... ـفـارس يَـوْمَ الْـكَـرِيـهَـة الـنَّـجُـدِ[٥]

وفيه قال:

إنَّ الـرَّزِيَّـةَ لَا رَزِيَّـةَ مِـثْـلُـهَـا ... فِـقْـدَانُ كُـلِّ أخٍ كـضـوءِ الـكَـوْكَـبِ
يـا أَرْبَـدَ الـخـيـرِ الـكَـرِيـمَ جُـدُودُهُ ... أَفْـرَدْتَـنـي أَمـشـي بـقَـرْنٍ أعْـضَـبِ[٦]

---

(١) في تفسير البغوي ٣/ ١٠ (والكلام منه): وابنا قيلة وكذلك وقع في بعض المصادر التي ذكرت الخبر مثل الكامل للمبرد ٣/ ١٣٩٣، ومجمع الأمثال للميداني ٢/ ٥٧، وينظر ما سلف ١٠/ ٦٨.

(٢) أي: خرج إلى الصحراء. الصحاح (صحر).

(٣) في النسخ عدا (ظ): لأنفذتهما، وكذلك هو في مطبوع تفسير البغوي، والمثبت من (ظ) ومجمع الأمثال.

(٤) ذكره البغوي ٣/ ٩ - ١٠ من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٦٧-٤٧٠ عن ابن زيد مطولاً، وأخرجه بنحوه ١٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ عن ابن جريج.

(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص١٥٨ - ١٦٠، والكامل ٣/ ١٣٩٤ على اختلاف في الترتيب. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: كبد، هو القيام على الأمر الشديد. والنَّجُد: البطل ذو نجدة. وقال في شرح البيت الثاني: كنت أخشى عليه كلَّ سبب من أسباب المنية، ولم أكن أَفْرَقُ عليه صاعقة. وسلف البيت الأخير ١/ ٣٢٨.

(٦) شرح ديوان لبيد ص١٥٤ - ١٥٧، والكامل ٣/ ١٣٩٤، وقد تقدم فيهما البيت الثاني على الأول. قال الطوسي شارح الديوان: الأعضب: المكسور أحد قرنَيْه، وهذا مَثَل، أي: ذهب حَدِّي.

وأسلمَ لبِيد بعد ذلك ﷺ.

مسألة: روى أَبَان عن أنس قال: قال رسول الله ﷺ: «لا تأخذُ الصاعقةُ ذاكراً لله عزَّ وجلَّ»[(١)].

وقال أبو هريرة ﷺ: كان النبيُّ ﷺ إذا سمع صوتَ الرعدِ يقول: «سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خِيفته»[(٢)]. قال ابن عبَّاس: مَن سمع صوتَ الرعد فقال: سبحان مَن يسبِّح الرعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته[(٣)] وهو على كلِّ شيء قديرٌ، فإنْ أصابته صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه[(٤)].

وذكر الخطيب من حديث سليمان بنِ عليّ بن عبد الله بن عباس، عن أبيه، عن جدِّه قال: كنا مع عمرَ في سفرٍ، فأصابنا رعدٌ وبردٌ، فقال لنا كعبٌ: مَن قال حين يسمع الرعدَ: سبحان مَنْ يسبِّحُ الرّعدُ بحمده والملائكةُ من خِيفته ثلاثاً، عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، ففعلنا فعُوفينا، ثم لقيت عمر بنَ الخطاب ﷺ، فإذا بَرَدَةٌ قد أصابت أنفَه فأثَّرتْ به، فقلتُ: يا أميرَ المؤمنين، ما هذا؟ قال: بَرَدَةٌ أصابت أنفي فأثَّرت، فقلت: إنَّ كعباً حين سمع الرعدَ قال لنا: مَن قال حين يَسمعُ الرعدَ: سبحان مَن يُسبِّحُ الرعد بحمده والملائكةُ من خيفته ثلاثاً عُوفي مما يكون في ذلك الرعد، فقلنا فعوفِينا. فقال عمر: أفلا قلتم لنا حتى نقولَها؟ وقد تقدَّم هذا المعنى في «البقرة»[(٥)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠١ ، وأبان هو ابن أبي عياش، قال الحافظ في التقريب: متروك. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٠٢٣) من طريق معمر عمن سمع عطاءً يقول، وذكره. وأخرجه ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨ (١٤٧١٦) عن أبي جعفر محمد بن علي الباقر.

(٢) أخرج الطبري ١٣/ ٤٧٧ .

(٣) من قوله: قال ابن عباس إلى هذا الموضع من (ظ).

(٤) أخرجه سعيد بن منصور (١١٦٥)، وفي إسناده سلَّام الطويل، قال أحمد: منكر الحديث. وقال يحيى: ضعيف لا يكتب حديثه. وقال النسائي: متروك. الميزان ٢/ ١٧٥ .

(٥) ١/ ٣٢٩ ، وسلف ثَمَّ تخريج الخبر.

قوله تعالى: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ يعني جدالَ اليهوديِّ حين سأل عن الله تعالى: من أيِّ شيءٍ هو؟ قاله مجاهد. وقال ابن جُرَيج: جدال أَرْبَدَ فيما همَّ به من قتل النبيِّ ﷺ[1]. ويجوزُ أنْ يكون: «وهم يُجَادِلُون في الله» حالاً، ويجوز أنْ يكونَ منقطعاً.

وروى أنس: أنَّ رسولَ الله ﷺ بعثَ إلى عظيمٍ من المشركين يدعوه إلى الله عزَّ وجلَّ، فقال لرسوله[2]: أخبرني عن إلهك هذا! أهو من ذهب، أم من فضة، أم من نحاس؟ فاستعظم ذلك، فرجع إليه فأعلَمه، فقال: «ارجعْ إليه فادعُه». فرجع إليه وقد أصابته صاعقة، وعاد إلى رسول الله ﷺ وقد نزل: ﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾[3].

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ قال ابنُ الأعرابي: «المِحال»: المكر، والمكرُ من الله عزَّ وجلَّ: التدبيرُ بالحقِّ[4].

النحَّاس[5]: المكر من الله: إيصالُ المكروه إلى مَن يَستحقُّه من حيثُ لا يشعر.

وروى ابن اليزيديِّ عن أبي زيد: «وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ» أي: النقمة[6].

وقال الأزهريُّ: «المِحال» أي: القوة والشدة. والمَحْل: الشدَّة؛ الميم أصلية، وماحَلْتُ فلاناً مِحَالاً، أي: قاوَيْتُه حتى يتبيَّنَ أيُّنا أشدُّ[7].

---

(١) أخرج القولين الطبري ١٣/ ٤٧٩، ٤٨١.

(٢) في (م): لرسول الله.

(٣) أخرجه النسائي في الكبرى (١١١٩٥)، والبزار (٢٢٢١ - زوائد)، وأبو يعلى (٣٣٤١)، والطبري ١٣/ ٤٨٠، والعقيلي في الضعفاء ٣/ ٢٣٢، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٥.

(٤) ياقوتة الصراط في تفسير غريب القرآن ص٢٨٠.

(٥) في معاني القرآن ٣/ ٤٨٥.

(٦) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٧ والرازي ١٩/ ٢٨ عن الحسن. وابن اليزيدي هو أحمد بن محمد بن يحيى بن المبارك أبو جعفر، كان متقناً في العلوم، راوية للشعر والأخبار، شاعراً، قال ابن عساكر: كان من ندماء المأمون، وقدم معه دمشق، وتوجه منها غازياً للروم. إنباه الرواة ٢/ ١٢٦.

(٧) ينظر تهذيب اللغة ٥/ ٩٦، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٣.

وقال أبو عبيدة[١]: «المِحالُ»: العقوبةُ والمكر[٢].

قال ابن عَرَفة: «المِحال»: الجدالُ؛ يقال: ماحَلَ عن أمره، أي: جادل[٣].

وقال القُتَبيُّ[٤]: أي: شديدُ الكيد [والمكرِ]، وأصلُه من الحيلة. جَعَل ميمَه كميم المكان؛ وأصلُه من الكون، ثم يقال: تمكَّنت. وقال الأزهري[٥]: غَلِطَ ابنُ قتيبة أنَّ الميمَ فيه زائدةٌ، بل هي أصليَّةٌ، وإذا رأيتَ الحرفَ على مثال فِعال أوّلُه ميمٌ مكسورةٌ فهي أصليَّةٌ، مثل: مِهاد ومِلَاك ومِرَاس، وغير ذلك من الحروف. ومِفْعَل إذا كان من بنات الثلاثةِ، فإنه يجيءُ بإظهار الواو [والياء] مثل: مِزْوَد ومِحْوَل ومِحْوَر [ومِزْيَل ومِغْيَر]، وغيرها من الحروف.

وقال: وقرأ الأعرج: «وهو شديدُ المَحَال» بفتح الميم[٦]. وجاء تفسيره على هذه القراءة عن ابن عباس أنه الحَوْل[٧].

ذَكَر هذا كلَّه أبو عبيد الهَرَويّ[٨] ـ إلا ما ذكرناه أوّلاً عن ابن الأعرابيِّ ـ وأقاويلُ الصحابة والتابعين بمعناها، وهي ثمانية: أولها: شديد العداوة؛ قاله ابن عباس. وثانيها: شديد الحَوْل؛ قاله ابن عباس أيضاً. وثالثها: شديد الأخذ؛ قاله عليّ بن أبي طالب. ورابعها: شديد الحقد؛ قاله الحسن[٩]. وخامسها: شديد القوة؛ قاله مجاهد.

---

(١) في (د) و(م): أبو عبيد، والقول في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥.

(٢) في النسخ: والمكروه، والمثبت من مجاز القرآن، وكذا ذكره عنه الطبري ١٣/ ٤٨٣.

(٣) ذكره الرازي ١٩/ ٢٨، وابن منظور في اللسان (محل).

(٤) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٦، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٥) في تهذيب اللغة ٥/ ٩٥، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٦.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٨٤، وذكره الأزهري في تهذيب اللغة ٥/ ٩٦، والكلام منه.

(٨) هو أحمد بن محمد بن محمد بن عبد الرحمن الشافعي اللغوي، صاحب الغريبين.

(٩) في النسخ: قاله ابن عباس، والمثبت من النكت والعيون ٣/ ١٠٢، والكلام منه. وقال ابن الجوزي ٤/ ٣١٦: قاله الحسن البصري فيما سمعناه عنه مسنداً من طرق، وقد رواه عنه جماعة من المفسرين منهم ابن الأنباري والنقاش، ولا يجوز هذا في صفات الله. قال النقاش: هذا قول منكر. وينظر تفسير الرازي ١٩/ ٢٨.

وسادسها: شديد الغضب؛ قاله وهب بن مُنَبِّهٍ. وسابعها: شديد الهلاك بالمَحْل، وهو القَحْط؛ قاله الحسن أيضاً. وثامنها: شديد الحيلة؛ قاله قَتَادة[١].

وقال أبو عبيدة مَعْمَر: المِحَال والمُمَاحَلة: المُمَاكَرة والمُغالبة[٢]، وأنشد للأعشى:

فـرعُ نَبْـعٍ يَـهْـتَـزُّ فـي غُـصُـنِ الْـمَـجْـ ... ـدِ كـثـيـرُ الـنَّـدَى شـديـدُ الـمِـحـالِ[٣]

وقال آخر:

ولَــبْــسَ بَــيْــنَ أقــوَامٍ فــكُــلٌّ ... أعَــدَّ لــه الــشَّــغَــازِبَ والـمِـحَـالَا[٤]

وقال عبد المطلب:

لاهُـــمَّ إنَّ الْـــعَـــبْـــدَ يَـــمْـــ ... ـنَـعُ رَحْـلَـهُ فـامْـنَـعْ حِـلالَـك

لَا يَــغْــلِــبَــنَّ صَــلِــيــبُــهُــمْ ... ومِـحَـالُـهـم عَـدْواً مِـحَـالَـك[٥]

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: لله دعوةُ الصدق[٦]. قال ابن عباس وقَتَادةُ

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠٢، وأخرج أغلب هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٤٨٣ - ٤٨٤.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١١، وقول أبي عبيدة في مجاز القرآن له ١/ ٣٢٥: «شديد المحال» أي: العقوبة والمكر والنكال، وقد سلف بعضه.

(٣) مجاز القرآن ١/ ٣٢٥، وهو في ديوان الأعشى ميمون بن قيس ص٥٧، وهو فيهما برواية: غزير الندى. ووقع في النسخ الخطية: عظيم المحال، وهي رواية الطبري للبيت ١٣/ ٤٨٣.

(٤) مجاز القرآن ١/ ٣٢٦، وقائله ذو الرمَّة، وهو في ديوانه ٣/ ١٥٤٤ برواية: السِّفارة والمحالا. قال أبو نصر الباهلي شارح الديوان: اللَّبْس: الاختلاط. والسفارة: الصلح بين القوم. ويروى: الشغازب، أي: الكيد والخصومة. والمحال: الجدال.

(٥) سيرة ابن هشام ١/ ٥١، والحيوان للجاحظ ٧/ ١٩٨ - ١٩٩، وسلف البيت الأول ٢/ ٨٣. ووقع في (د) و(م): المرء، بدل: العبد، وهو موافق لما في كتاب الحيوان. قوله: حِلالك بكسر الحاء: القوم المقيمون المتجاورون، يريد بهم سكان الحرم. النهاية (حلل).

(٦) تفسير البغوي ٣/ ١٢.

وغيرهما: لا إله إلا الله[١].

وقال الحسن: إن الله هو الحق، فدعاؤه دعوةُ الحق[٢].

وقيل: إنَّ الإخلاص في الدعاء هو دعوةُ الحق؛ قاله بعضُ المتأخِّرين. وقيل: دعوةُ الحق: دعاؤه عند الخوف؛ فإنه لا يُدْعى فيه إلا إيَّاه، كما قال: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٣٧]؛ قال الماوَرْديُّ[٣]: وهو أشْبهُ بسياق الآية؛ لأنه قال: ﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ﴾ يعني الأصنامَ والأوثان ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ﴾ أي: لا يُجيبون لهم دعاءً، ولا يسمعون لهم نداء ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ضرب الله عزَّ وجلَّ الماءَ مثلاً لإيَاسهم[٤] من الإجابة لدعائهم؛ لأن العرب تضرب لمن سعى فيما لا يُدركه مَثَلاً بالقابض الماءَ باليد؛ قال:

فأصبحت مما[٥] كان بَيْني وبينَها ... من الودِّ مثلَ القابِضِ الماءَ باليدِ[٦]

وفي معنى هذا المَثَل ثلاثةُ أوْجُه:

أحدها: أنَّ الذي يدعو إلهاً من دون الله كالظمآن الذي يدعو الماء إلى فِيه من بعيد - يريد تَناوُلَه ولا يقدر عليه - بلسانه، ويشير إليه بيده، فلا يأتيه أبداً؛ لأنَّ الماء لا يستجيب، وما الماءُ ببالغٍ إليه؛ قاله مجاهد.

الثاني: أنه كالظمآن الذي يرى خيالَه في الماء وقد بسط كفَّه فيه ليبلغ فاه وما هو

---

(١) أخرجه عنهما الطبري ١٣/ ٤٨٥ - ٤٨٦ .

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١١ ، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٧ .

(٣) في النكت والعيون ٣/ ١٠٣ .

(٤) في النسخ: ليأسهم، والمثبت من النكت والعيون. قال صاحب كتاب العين ٧/ ٣٣١ : يئست منه يأساً، وآيَسْتُ فلاناً إياساً. وتقول: أيأسته فاستيأس، والمصدر منه: إياس.

(٥) في (م): فيما.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٣ ، ونسبه فيه الماوردي لأبي الهذيل، وهو دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٨٨ . ونسبه صاحب الأغاني ٧/ ١٣٩ لأبي دهبل الجمحي برواية: سوى ذكرها كالقابض، بدل: من الود مثل القابض.

ببالغه؛ لكذب ظنِّه، وفساد تَوَهُّمِه؛ قاله ابن عباس.

الثالث: أنه كباسطِ كفِّه إلى الماء ليقبض عليه فلا يحصل[١] في كفِّه شيءٌ منه.

وزعم الفراء أنَّ المراد بالماء هاهنا البئر؛ لأنها معدنٌ للماء، وأنَّ المَثَل: كَمَن مدَّ يده إلى البئر بغير رِشاء[٢]، وشاهِدُه قولُ الشاعر:

فـإنَّ الـمـاءَ مـاءُ أَبِـي وجَـدِّي وبِـئـري ذُو حَـفَـرْتُ وذُو طَـوَيْـتُ[٣]

قال عليٌّ ﷺ: هو كالعطشان على شفة البئر، فلا يبلغُ قعر البئر، ولا الماءُ يرتفع إليه[٤].

ومعنى «إلَّا كباسِط»: إلا كاستجابة باسط كفَّيه إلى الماء، فالمصدرُ مضافٌ إلى الباسط، ثم حذف المضاف، وفاعلُ المصدرِ المضافِ مرادٌ في المعنى وهو الماء، والمعنى: إلا كإجابة باسط كفَّيه إلى الماء[٥]، واللامُ في قوله: «لِيَبْلُغَ فاهُ» متعلِّقةٌ بالبَسْط.

وقولُه: «وما هو ببالغه» كنايةٌ عن الماء، أي: وما الماءُ ببالغِ فاه. ويجوز أن يكون «هو» كناية عن الفم، أي: ما الفمُ ببالغِ الماء[٦].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ليست عبادة الكافرين الأصنامَ إلا في ضلال؛ لأنها شرك. وقيل: إلا في ضلال، أي: يَضلُّ عنهم ذلك الدعاء، فلا يجدون منه

---

(١) في (د) و(ز): فلا يجعل، وفي (م): فلا يجمد، والمثبت من (ظ) والنكت والعيون.

(٢) أي: حبل. القاموس (رشا).

(٣) النكت والعيون ٢/ ١٠٤ ، والبيت لسنان بن الفحل الطائي كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ٢/ ٥٩١ ، وأمالي ابن الشجري ٣/ ٥٥ ، والخزانة ٦/ ٣٥ . قال البغدادي: ذو اسم موصول، وهو هنا بمعنى التي.

(٤) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٤٨٨ .

(٥) أي: إلا كإجابة الماءِ مَن بسط كفيه إليه يطلب منه أن يبلغ فاه. الكشاف ٢/ ٣٥٤ ، والإملاء (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٧٨ ، والدر المصون ٧/ ٣٤ .

(٦) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٥ .

شيئاً[١]، كما قال: ﴿أَيْنَ مَا كُنتُمْ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ قَالُوا۟ ضَلُّوا۟ عَنَّا﴾ [الأعراف: ٣٧] وقال ابن عباس: أي: أصواتُ الكافرين محجوبةٌ عن الله فلا يسمع دعاءهم[٢].

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ۝١٥﴾

قوله تعالى: ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ قال الحسن وقَتادة وغيرهما: المؤمن يسجد طوعاً، والكافر يسجد كَرهاً بالسيف[٣]. وعن قَتادة أيضاً: يسجد الكافر كارهاً حين لا ينفعه الإيمان. وقال الزجاج: سجودُ الكافر كَرهاً: ما فيه من الخضوع وأثرِ الصَّنعة[٤].

وقال ابن زيد: «طَوْعاً»: مَن دخل في الإسلام رغبةً، و«كَرها»: مَن دخل فيه رَهْبةً بالسيف[٥].

وقيل: «طوعاً» مَن طالت مدةُ إسلامه فألِفَ السجود[٦]، و«كَرها» مَن يُكره نفسَه لله تعالى، فالآية في المؤمنين، وعلى هذا يكون معنى «والأرض»[٧]: وبعضُ مَن في الأرض.

قال القُشَيْريُّ: وفي الآية مَسْلَكان: أحدهما: أنها عامةٌ والمرادُ بها التخصيص، فالمؤمن يسجد طوعاً، وبعضُ الكفار يسجدون إكراهاً وخوفاً كالمنافقين، فالآية

---

(١) في (د) و(ز) و(م): سبيلا.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٢، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٨.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١ عن قتادة، وذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٥٨ عن الحسن.

(٤) بنحوه في معاني القرآن له ٣/ ١٤٤.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١٠٤، وأخرجه الطبري ١٣/ ٤٩١.

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٤.

(٧) في (ظ): وعلى هذا يكون معنى ومن في الأرض.

محمولة على هؤلاء؛ ذكره الفرَّاء[1]. وقيل: على هذا القول: الآية في المؤمنين؛ منهم مَن يسجد طوعاً لا يَثْقُل عليه السجود، ومنهم مَن يثقل عليه؛ لأن الْتزامَ التكليف مشقَّة، ولكنهم يتحمَّلون المشقَّة إخلاصاً وإيماناً، إلى أنْ يَأْلَفوا الحقَّ ويَمْرُنوا عليه.

والمسلك الثاني ـ وهو الصحيح ـ: إجراءُ الآية على التعميم؛ وعلى هذا طريقان: أحدهما: أنَّ المؤمن يسجد طوعاً، وأما الكافر فمأمورٌ بالسجود مؤاخَذٌ به. والثاني ـ وهو الحقُّ ـ أنَّ المؤمن يسجد ببدنه طوعاً، وكلّ مخلوقٍ من المؤمن والكافر يسجد من حيث إنه مخلوق[2] سجودَ[3] دلالةٍ وحاجةٍ إلى الصانع، وهذا كقوله: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ﴾ [الإسراء: ٤٤] وهو تسبيحُ دلالةٍ لا تسبيحُ عبادة.

﴿وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ﴾ أي: ظلال الخلقِ ساجدةٌ لله تعالى بالغدوِّ والآصال؛ لأنها تتفيّأ[4] في هذين الوقتين، وتميل من ناحية إلى ناحية، وذلك تصريفُ الله إياها على ما يشاء، وهو كقوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّؤُا ظِلَٰلُهُۥ عَنِ ٱلْيَمِينِ وَٱلشَّمَآئِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَٰخِرُونَ﴾ [النحل: ٤٨] قاله ابن عباس وغيره[5].

وقال مجاهد: ظِلُّ المؤمن يسجد طوعاً وهو طائع؛ وظلُّ الكافر يسجد كرهاً[6] وهو كارِه.

---

(١) في معاني القرآن ٢/ ٦١ .

(٢) بعدها في (ظ): مربوب مكوّن، أي: بتكوين الربّ إياه، ويبقى بإبقائه، فسجود كل مخلوق.

(٣) في (د) و(ز) و(م): يسجد.

(٤) في (د) و(ز) و(م): تبين.

(٥) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ . ومعنى «يتفيأ ظلاله»: تدور ظلاله وترجع من جانب إلى جانب. شرح غريب القرآن لابن قتيبة ص٢٤٣ .

(٦) كذا في النسخ، ووقع بدلاً منها في تفسير الطبري ١٣/ ٤٩٢ ، والوسيط للواحدي ٣/ ١١ ، وتفسير البغوي ٣/ ١٢ : طوعاً. وذكره بلفظ: كرها، الرازي ١٩/ ٣٠ ، والسيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٢-٥٣ وعزاه للطبري وابن المنذر.

وقال ابن الأنباريِّ[١]: يُجعل للظلال عقولٌ تسجد بها وتخشع بها، كما جُعل للجبال أفهامٌ حتى خاطبت وخوطبت. قال القُشَيري: في هذا نظر؛ لأنَّ الجبل عين، فيمكن أن يكون له عقلٌ بشرطِ تقديرِ الحياة، وأمَّا الظلالُ فآثارٌ وأعراضٌ، ولا يُتَصوَّر تقديرُ الحياة لها، والسجودُ بمعنى الميل؛ فسجودُ الظلال: ميلُها من جانب إلى جانب؛ يقال: سجدت النخلة، أي: مالت.

و«الآصال» جمع أُصُل، والأُصُل جمع أَصِيل؛ وهو ما بين العصر إلى الغروب[٢]، ثم أصائِل جمعُ جَمْعِ الجمع[٣]؛ قال أبو ذؤيب الهذليُّ:

لَعَمْري لَأَنْتَ البيتُ أُكرِمُ أهلَهُ ... وأقعُدُ في أَفْيَائه[٤] بالأَصائِلِ[٥]

و«ظِلَالُهُمْ» يجوز أن يكون معطوفاً على «مَنْ»، ويجوز أن يكون ارتفع بالابتداءِ، والخبرُ محذوف، التقدير: وظلالُهم سُجَّدٌ بالغدوِّ والآصال. و«الغدوّ» يجوز أن يكون مصدراً، ويجوز أن يكون جمعَ غداة، يقوِّي كونَه جمعاً مقابلةُ الجمع ـ الذي هو «الآصال» ـ به.

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ أمر الله تعالى نبيَّه ﷺ أن يقول

---

(١) قوله في تفسير الرازي ١٩/ ٣٠.

(٢) مجاز القرآن ١/ ٢٣٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٩٨، والنكت والعيون ٣/ ١٠٤.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ثم أصائل جمع الجمع، والمثبت من (ظ)، والروض الأنف ٢/ ٢٤ - ٢٥ والكلام منه، وقد ردَّه السهيلي فقال: وهذا خطأ بيِّن من وجوه؛ منها: أن جمع الجمع لم يوجد قط في الكلام فيكونَ هذا نظيره...، ثم ذكر في ردِّه وجوهاً كثيرة لا يتسع المجال لذكرها هنا.

(٤) في النسخ الخطية: أفنائه، والمثبت من (م) والمصادر.

(٥) ديوان الهذليين ١/ ١٤١، ومجاز القرآن ١/ ٢٣٩ و ٣٢٣، والخزانة ٥/ ٤٨٤.

للمشركين: ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ ثم أمره أن يقول لهم: هو الله؛ إلزاماً للحجة إن لم يقولوا ذلك وجَهِلوا مَن هو.

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ هذا يدلُّ على اعترافهم بأن الله هو الخالق، وإلَّا لم يكن للاحتجاج[١] بقوله: ﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ معنى، دليله قوله: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ أي: فإذا اعترفتم فلِمَ تعبدون غيره؟! وذلك الغير لا ينفع ولا يضرُّ. وهو إلزام صحيح.

ثم ضرب لهم مثلاً فقال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾ فكذلك لا يستوي المؤمنُ الذي يبصر الحقَّ، والمشركُ الذي لا يبصر الحق. وقيل: الأعمى مَثَلٌ لِمَا عَبَدوه من دون الله، والبصيرُ مَثَلُ الله تعالى.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ أي: الشرك والإيمان. وقرأ ابن محيصِن وأبو بكر والأعمش وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿يَسْتَوِى﴾ بالياء[٢] لتَقَدُّم الفعل؛ ولأن تأنيث «الظلمات» ليس بحقيقي. الباقون بالتاء، واختاره أبو عبيد، قال: لأنه لم يَحُلْ بين المؤنَّثِ والفعلِ حائل[٣]. و«الظلمات والنور» مَثَل الإيمان والكفر، ونحن لا نقف على كيفية ذلك.

﴿أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ هذا من تمام الاحتجاج، أي: خَلَقَ غيرُ الله مِثْلَ خَلْقِه فتشابه الخلقُ عليهم، فلا يدرون خَلْقَ اللهِ مِن خَلْقِ آلهتهم؟! ﴿قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾، فلَزِمَ لذلك أن يعبده كلُّ شيء. والآيةُ ردٌّ على المشركين والقَدَريَّةِ الذين زعموا أنهم خَلَقوا كما خَلَق

---

(١) في (ظ): إذ لو لم يكونوا مقرين بأن الله هو الخالق لم يكن للاحتجاج. بدل: وإلا لم يكن للاحتجاج. . .

(٢) السبعة ص٣٥٨ ، والتيسير ص١٣٣ عن أبي بكر ـ وهو شعبة ـ وحمزة والكسائي.

(٣) ينظر الحجة للفارسي ٥/ ١٥ .

الله[١]. ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ قبلَ كلِّ شيء ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾: الغالبُ لكلِّ شيء، الذي يَغلب في مراده كلَّ مُريد.

قال القُشَيريُّ أبو نصر: ولا يَبْعُدُ أن تكون الآيةُ واردةً فيمَن لا يعترف بالصانع، أي: سَلْهم عن خالقِ السماوات والأرض، فإنه يسهِّل تقريرَ الحجة فيه عليهم، ويقرِّب الأمرَ من الضرورة؛ فإنَّ عَجزَ الجماد وعَجْزَ كلِّ مخلوق عن خلق السماوات والأرض معلوم، وإذا تقرَّر هذا وبانَ أنَّ الصانع هو الله، فكيف يجوز اعتقادُ[٢] الشريك له؟! وبيَّن في أثناء الكلام أنه لو كان للعالم صانعان لاشْتَبه الخلقُ، ولم يتميَّز فِعْلُ هذا عن فعلِ ذلك، فبم يُعلم أنَّ الفعل من اثنين؟!

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءًۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ۞ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًاۚ﴾ ضرب تعالى مَثَلين[٣] للحقِّ والباطل؛ فشبَّه الكفرَ بالزَّبَد الذي يعلو الماءَ، فإنه يضمحلُّ

(١) حز الغلاصم ص٦٨ – ٦٩، وضرب مصنفه مثالاً لقول القدرية حركةَ اليد فقال: وذلك أن حركة الارتعاش في يد العبد هم موافقون لنا أنها خَلْقُ الله تعالى لأنها واقعة بقدرة الله وإرادته، فإذا أراد العبد أن يحرك يده باختياره وإرادته حركة تشبه الارتعاش، قالوا: هذه خلقٌ للعبد لأنها وقعت بقدرته وإرادته!

(٢) في (د) و(ز) و(م): اعتداد.

(٣) في (د) و(ز) و(م): ضرب مثلاً.

ويَعْلَق[١] بجنبات الأودية، وتدفعه الرياح، فكذلك الكفر تُمحَقُ آثارُه. ومَثَّلَ الحقَّ بالجواهر التي تُذاب ليُتَّخذَ منها ما يَنفع الناسَ، فيعلوها الزَّبَد والخَبَثُ، فأمَّا ما ينفع الناسَ فيبقى، وأمَّا الخَبَثُ فيذهب، فكذلك[٢] يذهب الكفر ويضمَحِلّ، على ما نبيِّنه.

قال مجاهد: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا» قال: بقَدَر مَلْئِها. وقال ابن جُرَيج: بقدر صِغَرِها وكِبَرِها[٣]. وقرأ الأشْهَب العُقَيْلي والحسن: «بقَدْرِها» بسكون الدال، والمعنى واحد. وقيل: معناها بما قدّر لها[٤].

والأودية جمع الوادي؛ وسمِّي وادياً لخروجه وسَيَلانه؛ فالوادي على هذا اسمٌ للماء السائل[٥].

وقال أبو علي: «فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ» توسُّع، أي: سال ماؤها، فحذف، قال: ومعنى «بِقَدَرِهَا»: بقدر مياهها؛ لأنَّ الأودية ما سالت بقدر أنفُسها[٦].

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أي: طالِعاً عالياً مرتفعاً فوق الماء. وتمَّ الكلام؛ قاله مجاهد[٧].

ثم قال: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ وهو المَثَل الثاني ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ﴾ أي: حليةِ

---

(١) في (ظ): فيعلو.

(٢) من قوله: الكفر تمحق آثاره، إلى هذا الموضع من (ظ).

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨ وقول مجاهد في تفسيره ١/ ٣٢٧ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٠٠ - ٥٠١ . وأخرج أيضاً قول ابن جريج ١٣/ ٥٠٣ عنه عن ابن عباس.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٨ ، وذكر القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٦ .

(٥) تفسير الرازي ١٩/ ٣٦ . وقال الأزهري في تهذيب اللغة ١٤/ ٢٣٢ : قال شمر: ودى أي: سال، ومنه: الوَدْيُ فيما أرى لخروجه وسيلانه، ومنه: الوادي.

(٦) ينظر زاد المسير ٤/ ٣٢١ .

(٧) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧ ، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠٠ .

الذهب والفضة ﴿أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ﴾ قال مجاهد: المتاع[1]: الحديد والنحاس والرصاص. وقوله: «زَبَدٌ مِثْلُهُ» أي: يعلو هذه الأشياءَ زَبَدٌ كما يعلو السيل، وإنما احتَمَل السيل الزبدَ لأنَّ الماء خالَطه ترابُ الأرض، فصار ذلك زبداً، كذلك ما يوقَد عليه في النار من الجوهر ومن الذهب والفضة مما يَنبتُّ فِي الأرض من المعادن فقد خالَطَه التراب، فإنما يوقد عليه ليذوب فيزايله ترابُ الأرض.

وقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ قال مجاهد: جُموداً[2]. وقال أبو عبيدة[3]: قال أبو عمرو بن العلاء: أَجْفَأَتِ القِدْرُ: إذا غَلَت حتى ينصبَّ زَبَدُها، وإذا جَمَد في أسفلها[4]. والجُفاء: ما أجفأه الوادي، أي: رَمى به[5].

وحكى أبو عبيدة أنه سمع رُؤْبة يقرأ: «جُفَالاً». قال أبو عبيدة: يقال: أَجْفَلَت القِدْرُ: إذا قذفت بزَبَدها[6]. وأجفلت الريح السحاب: إذا قطعته [وأذهبته][7].

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ قال مجاهد: هو الماءُ الخالصُ الصَّافي[8]. وقيل: الماءُ وما خلص من الذهب والفضة والحديد والنحاس والرصاص. وهذان[9] المَثَلان ضَرَبهما الله للحقِّ في ثباته، والباطلِ في اضمحلاله، فالباطلُ وإن علا في

---

(١) قوله: المتاع، من (ظ) وهو الموافق لما في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠٠ .

(٢) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧ ، وهو عند الطبري ١٣/ ٥٠١ .

(٣) في مجاز القرآن ١/ ٣٢٩ ، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٤٨٩ .

(٤) قوله: وإذا جمد في أسفلها، وقع بدلاً منه في مجاز القرآن: أو سكنت فلا يبقى منه شيء.

(٥) ينظر القاموس (جفأ).

(٦) النكت والعيون ٣/ ١٠٧ ، والقراءة عن رؤبة في القراءات الشاذة ص٦٦ . قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨ : قال أبو حاتم: لا تعتبر قراءة الأعراب في القرآن.

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٨٩ ، وما بين حاصرتين منه، ووقع فيه: جفلت، بدل: أجفلت.

(٨) تفسير مجاهد ١/ ٣٢٧ ، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٠١ .

(٩) في (د) و(ز) و(م): وهو أن، بدل: وهذان.

بعض الأحوال؛ فإنه يضمحلُّ كاضمحلال الزَّبَد والخَبَث.

وقيل: المراد مَثَلٌ ضربه الله للقرآن وما يدخل منه [في] القلوب، فَشبَّه القرآنَ بالمطر لعموم خيره وبقاءِ نَفْعِه، وشَبَّه القلوب بالأودية، يدخل فيها من القرآن مثلُ ما يدخل في الأودية [من الماء] بحسَب سعتها وضيقها. قال ابن عباس: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ قال: قرآناً ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ بِقَدَرِهَا﴾ قال: الأوديةُ قلوبُ العباد[١]. قال صاحب «سوق العروس»[٢]: إن صحَّ هذا التفسير فالمعنى فيه: أنَّ الله سبحانه مَثَّل القرآنَ بالماء. ومَثَّل القلوب بالأودية، و مثَّل المُحْكَم بالصَّافي، ومثَّل المتشابه بالزَّبد.

وقيل: الزَّبَد مَخايِلُ النفس وغوائلُ الشك[٣]، ترتفع من خبثِ[٤] ما فيها، فتضطرب من سلطان تَلْعها[٥]، كما أنَّ ماء السّيل يجري صافياً، فيرفع ما يجد في الوادي باقياً. وأمَّا حليةُ الذهب والفضة فمَثَل الأحوال السَّنِيَّة والأخلاق الزَّكية؛ التي بها جمال الرجال، وقِوامُ صالح الأعمال، كما أنَّ من الذَّهب والفضَّة زينةَ النّساء، وبهما قيمةُ الأشياء.

وقرأ حميد وابن محيصن ويحيى والأعمش وحمزة والكسائي وحفص:

(١) النكت والعيون ٣/ ١٠٦، وما سلف بين حاصرتين منه. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨: وهذا قول لا يصح ـ والله أعلم ـ عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى أقوال أصحاب الرموز، ولا وجه لإخراج اللفظ عن مفهوم كلام العرب لغير علة تدعو لذلك.

(٢) لعله عبد الكريم بن عبد الصمد، أبو معشر الطبري المقرئ، شيخ أهل مكة، صنف كتاب سوق العروس في القراءات المشهورة والغريبة، وكتاب الدرر في التفسير وغيرهما، توفي سنة (٤٧٨هـ). معرفة القراء الكبار ٢/ ٨٢٧. وثمة كتاب آخر بهذا الاسم لابن الجوزي ذكره ونقل عنه الألوسي في روح المعاني ٨/ ٦٣.

(٣) في (ظ): الشرك.

(٤) في (د) و(ز) و(م): حيث، والمثبت من (ظ).

(٥) في (د) و(ز): تلفها، وفي (ظ): ما فيها، والمثبت من (م). والتَّلْع جمع تَلْعَة، وهي مجرى الماء من أعلى الوادي إلى بطون الأرض يحفر فيها كهيئة الخندق، أو هي أرض غليظة مرتفعة يتردَّد فيها السيل ثم يدفع منها إلى أخرى أسفل منها. معجم متن اللغة (تلع).

﴿يُوقِدُونَ﴾ بالياء[1]. واختارها أبو عبيد؛ لقوله: «يَنْفَعُ النَّاس» فأخبر، ولا مخاطبة هاهنا. الباقون بالتاء؛ لقوله في أول الكلام: ﴿قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ الآية[2].

وقوله: «في النَّار» متعلِّقٌ بمحذوف، وهو في موضع الحال، وذو الحال الهاءُ التي في «عليه»، التقدير: ومما توقدون عليه ثابتاً في النار أو كائناً. وفي قوله: «في النار» ضميرٌ مرفوعٌ يعود إلى الهاء التي هي اسمُ ذي الحال، ولا يستقيم أن يتعلَّق: «في النار» بـ«يوقدون» من حيث لا يستقيم: أوقدتُ عليه في النار؛ لأن الموقَد عليه يكون في النَّار، فيصير قوله: «في النار» غيرَ مفيد[3].

وقوله: «ابتغاءَ حِلْيَةٍ» مفعول له. «زَبَدٌ مِثْلُهُ» ابتداء وخبر، أي: زبدٌ مثل زَبَد السيل. وقيل: إنَّ خبر «زَبد» قولُه: «في النارِ». الكسائيُّ: «زَبَدٌ» ابتداء، و«مِثْلُهُ» نعتٌ له، والخبر في الجملة التي قبله، وهو: «مما يُوقِدُون»[4].

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ أي: كما بيَّن لكم هذه الأمثالَ فكذلك يضربُها بيِّنات. تم الكلام. ثم قال: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ أي: أجابوا، استجاب بمعنى أجاب؛ قال:

فـلَـمْ يَـسـتـجِـبْـهُ عـنـد ذاكَ مُـجِـيـبُ

وقد تقدم[5].

---

(١) السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣ عن حمزة والكسائي وحفص. وذكرها عن ابن محيصن ويحيى ابنُ عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٨.

(٢) ينظر الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٢، وتفسير الرازي ١٩/ ٣٦.

(٣) ذكر هذا القول ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٧ عن مكِّي وغيره، وقال: وذهب أبو علي الفارسي إلى تعلُّقها بـ«يوقدون» وقال: قد يوقَد على شيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ فذلك البناء الذي أمر به يوقد عليه وليس في النار، لكن يصيبه لهبها. اهـ وقول أبي علي في الحجة له ٥/ ١٦ - ١٧.

(٤) مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨.

(٥) ١/ ٣٢١، وقائله كعب بن سعد الغَنَوي، وصدره: وداعٍ دعا يا مَن يجيب إلى النَّدى.

أي: أجاب إلى ما دعاه الله من التوحيد والنبوّات. ﴿ٱلْحُسْنَىٰٓ﴾ لأنها في نهاية الحُسْن. وقيل: مِن الحسنى: النصرُ في الدنيا، والنعيمُ المقيم غداً.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ أي: لم يُجيبوا إلى الإيمان به ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أي: من الأموال ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ﴾ مِلْكٌ لهم ﴿لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ من عذابِ يوم القيامة، نظيره في «آل عمران»: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَن تُغْنِىَ عَنْهُمْ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُم مِّنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ١٠]، و﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَمَاتُوا۟ وَهُمْ كُفَّارٌ فَلَن يُقْبَلَ مِنْ أَحَدِهِم مِّلْءُ ٱلْأَرْضِ ذَهَبًا وَلَوِ ٱفْتَدَىٰ بِهِۦٓ﴾ [آل عمران: ٩١] حَسْبَ ما تقدَّم بيانه هناك.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ أي: لا يقبل لهم حسنة، ولا يتجاوز لهم عن سيئة. وقال فَرْقَد السَّبَخِيُّ: قال لي إبراهيم النَّخعيُّ: يا فَرْقَد! أتدري ما سوءُ الحساب؟ قلت: لا! قال: هو أن يحاسَب الرجل بذنبه كلِّه، لا يفقد منه شيء[1]. ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مسكنُهم ومقامهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: الفِراش الذي مَهَدوا لأنفسهم.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ هذا مَثَلٌ ضربه الله للمؤمن والكافر، ورُوِيَ أنَّها نزلت في حمزةَ بن عبد المطلب ﷺ، وأبي جهل لعنه الله[2]. والمرادُ بالعَمَى: عَمَى القلب، والجاهلُ بالدين أعمى القلب ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ﴿٢٠﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ هذا من صفة ذوي الألباب، أي:

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/٥٠٦ و ٥٠٩، وفيه: لا يغفر، بدل: لا يفقد. وفرقد السبخي هو ابن يعقوب، أبو يعقوب البصري، توفي سنة (١٣١هـ). التهذيب ٣/ ٣٨٤.

(٢) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

إنما يتذكر أولو الألباب الموفُون بعهد الله. والعهدُ اسمٌ للجنس، أي: بجميع عهود الله، وهي أوامرُه ونَواهيهِ التي وصَّى بها عَبيدَه، ويدخل في هذه الألفاظ التزامُ جميعِ الفروض، وتجنُّبُ جميع المعاصي(١).

وقوله: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ يَحتمِلُ أن يريد به جنسَ المواثيق، أي: إذا عقدوا في طاعة الله عهداً لم ينقُضوه؛ قال قَتادة: تقدَّم الله إلى عباده في نقض الميثاق ونهى عنه في بضعٍ وعشرين آية(٢). ويحتمل أن يشير إلى ميثاقٍ بعينه، وهو الذي أخذه الله على عباده حين أخرجهم من صُلْبِ أبيهم آدم(٣). وقال القَفَّال: هو ما ركَّب في عقولهم من دلائل التوحيد والنبوَّات.

الثانية: روى أبو داود وغيره(٤) عن عوف بن مالك قال: كنَّا عند رسول الله ﷺ سبعةً أو ثمانيةً أو تسعةً، فقال: «ألا تُبايعون رسولَ الله ﷺ؟» وكنَّا حديثَ عهد ببيعةٍ، فقلنا: قد بايعناك [حتى قالها ثلاثاً؛ فبسطنا أيدينا فبايعناه، فقال قائل: يا رسول الله! إنَّا قد بايعناك] فعلى ماذا نُبايعك؟ قال: «أن تعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً، وتُصلُّوا الصلواتِ الخمسَ، وتسمعوا وتُطيعوا - وأَسَرَّ كلمةً خفيةً - قال: ولا تسألوا الناس شيئاً». قال: فلقد كان بعض أولئك النفر يسقط سَوْطُه، فما يسأل أحداً أن يناولَه إيَّاه.

قال ابن العربي(٥): مِن أعظم المواثيق في الذكر ألَّا يُسأل سواه؛ فقد كان أبو حمزةَ الخراسانيُّ من كبار العبَّاد(٦)، سمع أنَّ ناساً بايعوا رسولَ الله ﷺ ألَّا يسألوا

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩، وأخرجه مطولاً الطبري ١٣/ ٥٠٧ - ٥٠٨.

(٣) تفسير البغوي ٣/ ١٤، والمحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩ بنحوه.

(٤) سنن أبي داود (١٦٤٢)، وما سيأتي بين حاصرتين منه، وهو عند مسلم (١٠٤٣).

(٥) في أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٩، وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٦) قال ابن عساكر في تاريخ دمشق ٦٦/ ١٥٤، ١٥٦: من مشايخ الصوفية المعروفين، ينسب إلى دمشق، ويحتمل أن يكون سكنها وإلا فهو من أهل خراسان المعروفين، وصحب مشايخ بغداد، وهو من أقران الجنيد. وقيل: إن صاحب القصة (التي ستأتي) أبو حمزة البغدادي، وقيل: الدمشقي. اهـ والقصة بنحوها في الحلية ١٠/ ١٧٧ - ١٧٨، وتاريخ بغداد ١/ ٣٩١ - ٣٩٢، وتلبيس إبليس ص٢٩٣.

أحداً شيئاً، الحديث. فقال أبو حمزة: ربِّ إنَّ هؤلاء عاهَدوا نبيَّك إذ رأوه، وأنا أعاهدك ألّا أسأل أحداً شيئاً. قال: فخرج حاجًّا من الشام يريد مكةَ، فبينما هو يمشي في الطريق من الليل إذ بقي(١) عن أصحابه لعذرٍ، ثم اتَّبعهم، فبينما هو يمشي إليهم إذ سقط في بئر على حاشية الطريق، فلما حلَّ في قعره قال: أستغيث؛ لعل أحداً يسمعني [فيخرجني]. ثم قال: إن الذي عاهدتُه يراني ويسمعني، والله لا تكلمتُ بحرف للبشر. ثم لم يلبث إلا يسيراً إذ مرَّ بذلك البئرِ نفر، فلما رأوْه على حاشية الطريق قالوا: إنه لينبغي سدُّ هذا البئر، ثم قطعوا خشباً ونصبوها على فم البئر وغطَّوْها بالتراب، فلما رأى ذلك أبو حمزةَ قال: هذه مهلكة، ثم أراد أن يستغيث بهم، ثم قال: والله لا أخرج منها أبداً، ثم رجع إلى نفسه فقال: أليس قد عاهدتَ مَن يراك(٢)؟ فسكَتَ وتوكَّل، ثم استند في قعر البئر مفكِّراً في أمره، فإذا بالتراب يقع عليه والخشبِ يرفع عنه، وسمع في أثناء ذلك مَن يقول: هات يدك! قال: فأعطيتُه يدي فأقلَّني في مرةٍ واحدة إلى فم البئر، فخرجت فلم أرَ أحداً(٣)؛ فسمعت هاتفاً يقول: كيف رأيت ثمرةَ التوكُّل؟ وأنشد:

نَهاني حَيائي منكَ أن أكشفَ الهوى ... وأغنيتَني(٤) بالعِلْم منكَ عن الكَشْفِ
تَلَطَّفْتَ في أمري فأبديتَ شاهدي ... إلى غائبي واللُّطفُ يُدرَكُ باللُّطْفِ
تَراءيتَ لي بالعلم حتى كأنَّما ... تُخَبِّرُني بالغيب أنَّكَ في كفِّ(٥)
أراني(٦) وبي من هَيْبتي لَكَ وَحْشَةٌ ... فتؤنِسُني باللُّطف مِنكَ وبالعطفِ

---

(١) في (ظ): انقطع.

(٢) في أحكام القرآن: أليس الذي عاهدت يرى ذلك كله.

(٣) كذا في أحكام القرآن، وفي باقي المصادر أن الذي أخرجه هو سَبُع، وسيأتي ذكر ذلك.

(٤) في (د) و(ز) و(م) وتلبيس إبليس: فأغنيتني، والمثبت من (ظ) وباقي المصادر.

(٥) في تاريخ بغداد: بالكف، وفي تاريخ ابن عساكر وتلبيس إبليس: في الكف، وفي الحلية: في كفي.

(٦) في المصادر عدا أحكام القرآن: أراك.

وتُحيي مُحبًّا أنت في الحبِّ حَتْفُهُ ... وذا عَجبٌ كيف[1] الحياةُ مع الْحَتْفِ

قال ابن العربي[2]: هذا رجلٌ عاهد الله؛ فوجد الوفاءَ على التمام والكمال، فاقتدوا به إن شاء الله تهتدوا.

قال أبو الفرج الجوزيُّ[3]: سكوتُ هذا الرجل في هذا المقام على التوكُّل بزعمه إعانةٌ على نفسه، وذلك لا يَحِلُّ، ولو فَهِمَ معنى التوكُّلِ لعَلِمَ أنه لا يُنافي استغاثتَه في تلك الحالة، كما لم يخرج رسول الله ﷺ من التوكُّل بإخفائه الخروجَ من مكة، واستئجاره دليلاً، واستكتامه ذلك الأمرَ، واسْتِتَاره في الغار، وقوله لسُرَاقَةَ: «أخْفِ عَنَّا»[4]. فالتوكُّلُ الممدوحُ لا يُنال بفعل محظورٍ؛ وسكوتُ هذا الواقعِ في البئر محظورٌ عليه، وبيانُ ذلك أنَّ الله تعالى قد خلق للآدميِّ آلَةً يدفع عنه بها الضررَ، وآلَةً يجتلب بها النفع، فإذا عطَّلهما[5] مدَّعياً للتوكُّل كان ذلك جهلاً بالتوكُّل، وردًّا لحكمةِ الواضع[6]؛ لأنَّ التوكُّلَ إنما هو اعتمادُ القلب على الله تعالى، وليس من ضرورته قطعُ الأسباب؛ ولو أنَّ إنساناً جاع فلم يسأل حتى مات دخل النار؛ قاله سفيان الثَّوري[7] وغيره، لأنه قد دلَّ على طريق السلامة، فإذا تقاعَدَ عنها أعان على نفسه.

وقال أبو الفرج[8]: ولا الْتِفاتَ إلى قول أبي حمزةَ: فجاء أسدٌ فأخرجني! فإنه إنْ صحَّ ذلك فقد يقع مثلُه اتفاقاً، وقد يكونُ لطفاً من الله تعالى بالعبد الجاهل، ولا يُنكر

---

(١) في المصادر عدا أحكام القرآن: كون.

(٢) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٠ .

(٣) في صفة الصفوة ١/ ٢٦ - ٢٨ ، وبنحوه في تلبيس إبليس ص٢٩٤ - ٢٩٥ .

(٤) أخرجه أحمد (١٧٥٩١)، والبخاري (٣٦٠٩) مطولاً من حديث سراقة ﷺ.

(٥) في (د) و(ز) و(م): عطلها.

(٦) في النسخ: التواضع، والمثبت من صفة الصفوة.

(٧) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٧/ ٦٦ .

(٨) في صفة الصفوة ١/ ٢٨ .

أن يكون الله تعالى لَطفَ به، إنَّما يُنكَر فعلُه الذي هو كَسْبُه، وهو إعانتُه على نفسه التي هي وديعةٌ لله تعالى عنده، وقد أمره بحفظها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ﴿٢٣﴾ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ ظاهِرُه[1] في صِلَة الأرحام؛ وهو قولُ قَتَادةَ وأكثرِ المفسِّرين[2]، وهو مع ذلك يتناول جميعَ الطاعات. ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ قيل: في قطع الرَّحم. وقيل: في جميع المعاصي ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ سوءُ الحساب: الاستقصاءُ فيه والمناقشةُ، ومَن نُوقِشَ الحساب عُذِّب.

وقال ابن عباس وسعيد بن جُبَير: معنى «يَصِلُون ما أَمَرَ اللهُ به»: الإيمانُ بجميع الكتب والرسلِ كلِّهم.

الحسن: هو صلةُ محمدٍ ﷺ.

ويحتمل رابعاً: أنْ يَصِلُوا الإيمانَ بالعمل الصالح ﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ فيما أمرهم بوَصْلِه ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ في تركه[3].

والقولُ الأول يتناول هذه الأقوال كما ذكرنا، وبالله توفيقنا.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ قيل: «ٱلَّذِينَ» مستأنَفٌ؛ لأنَّ «صَبَرُوا» ماضٍ فلا ينعطف على «يُوفُونَ». وقيل: هو مِن وَصْفِ مَن تقدَّم، ويجوز الوصفُ تارةً

---

(١) في (د) و(ز) و(م): ظاهر.

(٢) ينظر تفسير البغوي ٣/ ١٤ ، وخبر قتادة ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٨ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١٠٨ ، وذكره عن ابن عباس الواحدي في الوسيط ٣/ ١٣ .

بلفظِ الماضي، وتارةً بلفظ المستقبل؛ لأنَّ المعنى: مَن يفعلُ كذا فله كذا، ولمَّا كان «الذين» يتضمَّن الشرط، والماضي في الشرط كالمستقبل، جاز ذلك؛ ولهذا قال: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ﴾، ثم قال: ﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾، ثم عطف عليه فقال: ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾.

قال ابن زيد: صبروا على طاعة الله، وصبروا عن معصية الله[١]. وقال عطاء: صبروا على الرَّزَايا والمصائب، والحوادثِ والنوائب[٢]. وقال أبو عِمْران الجَوْنيُّ: صبروا على دينهم ابتغاءَ وجه الله.

﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾: أدَّوْها بفُروضها وخُشوعها في مَوَاقيتها ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ يعني الزكاةَ المفروضة؛ عن ابن عباس، وقد مضى القولُ في هذا في «البقرة»[٣] وغيرها.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون بالعمل الصالحِ السَّيِّئَ من الأعمال؛ قاله ابن عباس[٤]. ابنُ زيد: يدفعون الشرَّ بالخير. سعيد بنُ جُبير: يدفعون المنكر بالمعروف. الضَّحَّاك: يدفعون الفُحْشَ بالسلام. جُوَيبر: يدفعون الظلم بالعفو. ابنُ شجرة: يدفعون الذنبَ بالتوبة[٥]. القُتَبيُّ[٦]: يدفعون سَفَه الجاهل بالحِلْم، فالسَّفَهُ السَّيئةُ، والحِلْمُ الحسنة. وقيل: إذا همُّوا بسيئةٍ رجعوا عنها واستغفروا. وقيل: يدفعون الشِّرْكَ بشهادة أنْ لا إله إلا الله[٧].

---

(١) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٥١٠.

(٢) ذكره البغوي ٣/ ١٦.

(٣) ١/ ٢٧٣، وخبر ابن عباس أخرجه الطبري ١٢/ ٥٠٩.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤، والبغوي ٣/ ١٦.

(٥) ذكر هذه الأقوال الماوردي في النكت العيون ٣/ ١٠٩، وقول ابن زيد أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٠.

(٦) في تفسير غريب القرآن ص٢٢٧.

(٧) ذكر القول الأخير ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.

فهذه تسعة أقوال، معناها كلُّها متقارِبٌ، والأولُ يتناولُها بالعموم، ونظيرُه: ﴿إِنَّ ٱلۡحَسَنَٰتِ يُذۡهِبۡنَ ٱلسَّيِّـَٔاتِۚ﴾ [هود: ١١٤]، ومنه قوله عليه الصلاة والسلام لمعاذ: «وأَتْبِعِ السيِّئةَ الحَسَنَةَ تَمْحُها، وخَالِقِ الناسَ بخُلُقٍ حَسَنٍ»(١).

قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ الآخرة، وهي الجنة بدلَ النار، والدارُ غداً داران: الجنةُ للمطيع، والنارُ للعاصي؛ فلمَّا ذَكَر وصفَ المطيعين فدارُهم الجنةُ لا مَحالةَ. وقيل: عنَى بالدار دارَ الدنيا، أي: لهم جزاءُ ما عملوا من الطاعات في دار الدنيا.

قوله تعالى: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا﴾ أي: لهم جناتُ عدن، فـ «جَنَّاتُ عَدْنٍ» بدلٌ من «عُقْبَى»(٢)، ويجوز أن يكون تفسيراً لـ «عُقْبَى الدَّارِ» أي: لهم دخولُ جناتِ عدن؛ لأنَّ «عُقْبَى الدَّارِ» حَدَثٌ، و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» عين، والحدثُ إنما يفسَّر بحدَثٍ مثلِه؛ فالمصدرُ المحذوفُ مضافٌ إلى المفعول. ويجوز أن يكون «جَنَّاتُ عَدْنٍ» خبر ابتداءٍ محذوف(٣).

و«جَنَّاتُ عَدْنٍ» وسطُ الجنة وقَصَبتها، وسقفُها عرشُ الرحمن(٤)؛ قاله القُشَيريُّ أبو نصرٍ عبدُ الرحيم(٥). وفي «صحيح» البخاريِّ: «إذا سألتم الله فاسألوه الفردوسَ، فإنه أَوْسَطُ الجنة وأَعْلى الجنة، وفوقه عرشُ الرحمن، ومنه تَفَجَّر أنهارُ الجنة»(٦) فيحتمل أن تكون «جنات عدن» كذلك إنْ صحَّ بذلك(٧) خبر. وقال عبد الله بن عمرو:

---

(١) أخرجه أحمد (٢١٩٨٨)، والترمذي (١٩٨٧) من حديث معاذ ﷺ. وأخرجه أحمد (٢١٣٥٤) والترمذي (١٩٨٧) من حديث أبي ذر رضي الله عنه.

(٢) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٦.

(٣) ينظر الإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٨٢ - ٣٨٣، والدر المصون ٧/ ٤٤، وقال السمين: ويجوز أن يكون «جنات عدن» مبتدأ خبره: «يدخلونها».

(٤) ينظر ما سلف ١٠/ ٢٩٩ - ٣٠٠.

(٥) في (د) و(ز): عبد الكريم، وفي (م): عبد الملك.

(٦) قطعة من حديث أخرجه أحمد (٨٤١٩)، والبخاري (٢٧٩٠) عن أبي هريرة ﷺ.

(٧) في (د) و(ف) و(م): فذلك.

إنَّ في الجنة قصراً يقال له: عَدْن، حوله البُرُوج والمروج؛ فيه خمسةُ آلافِ باب[١]، على كلِّ بابٍ خمسةُ آلافِ خَيْرَة[٢]، لا يدخله إلا نبيٌّ أو صدِّيقٌ أو شهيد.

و«عدن» مأخوذٌ من عَدَن بالمكان: إذا أقام فيه؛ على ما يأتي بيانُه في سورة الكهف إن شاء الله تعالى[٣].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآيِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّٰتِهِمْ﴾ يجوز أن يكون معطوفاً على «أُولَئِكَ»، المعنى: أولئك ومَن صَلَح من آبائهم وأزواجهم وذرِّياتهم لهم عقبى الدار[٤]. ويجوز أن يكون معطوفاً على الضمير المرفوع في «يَدْخُلُونَهَا»، وحَسُنَ العطفُ لمَّا حالَ الضميرُ المنصوبُ بينهما[٥]. ويجوز أن يكون المعنى: يدخلونها ويدخلها مَن صلح من آبائهم، أي: مَن كان صالحاً، لا يدخلونها بالأنساب. ويجوز أن يكون موضعُ «مَنْ» نصباً على تقدير: يدخلونها مع مَن صلح من آبائهم[٦]، أي: فإن[٧] لم يعمل مثل أعمالهم يُلحقه الله بهم كرامةً لهم.

وقال ابن عباس: هذا الصلاحُ الإيمانُ بالله والرسول، ولو كان لهم مع الإيمان طاعاتٌ أخرى لدخلوها بطاعتهم لا على وجه التَّبَعيَّة. قال القُشَيريُّ: وفي هذا نظر؛ لأنه لابدَّ من الإيمان، فالقول في اشتراط العمل الصالح كالقول في اشتراط الإيمان. فالأظهرُ أنَّ هذا الصلاحَ في جملة الأعمال، والمعنى: أنَّ النعمة غداً تَتمُّ عليهم بأنْ

(١) في (د) و(ز) و(م): فيه ألف باب، والمثبت من (ظ)، وهو موافق لما في مصنف ابن أبي شيبة ٥/ ٣٠٧، وتفسير الطبري ١١/ ٥٦٣ و ١٣/ ٥١٢.

(٢) أي: ذات خير، والجمع: خيرات، ويعني النساء. وسيرد الخبر في تفسير الآية (٥٠) من سورة ص.

(٣) عند تفسير الآية (٣١) منها.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٧.

(٥) البيان لابن الأنباري ٢/ ٥١، والإملاء للعكبري (على هامش الفتوحات الإلهية) ٣/ ٣٨٣.

(٦) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧، ومشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨، والبيان ٢/ ٥١، والإملاء ٣/ ٣٨٣.

(٧) في (د) و(ز) و(م): وإن، بدل: أي فإن.

جعلهم مجتمعين مع قَرَاباتهم في الجنة، وإن دخلها كلٌّ إنسان بعمل نفسه، بل برحمة الله تعالى.

قوله تعالى: ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ أي: بالتُّحَف والهدايا من عند الله تكرمةً لهم. ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: يقولون: سلام عليكم، فأضمر القول، أي: قد سلمتم من الآفات والمحن. وقيل: هو دعاءٌ لهم بدوام السلامة، وإن كانوا سالمين، أي: سلَّمكم الله، فهو خبرٌ معناه الدعاء، ويتضمَّن الاعتراف بالعبودية.

﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ أي: بصبركم، فـ «ما» مع الفعل بمعنى المصدر، والباءُ في «بما» متعلقةٌ بمعنى «سَلَامٌ عَلَيْكُمْ»، ويجوز أن تتعلق بمحذوف، أي: هذه الكرامةُ بصبركم، أي: على أمر الله تعالى ونهيه؛ قاله سعيد بن جُبَير. وقيل: على الفقر في الدنيا؛ قاله أبو عِمران الجَوْنيّ. وقيل: على الجهاد في سبيل الله[(١)]؛ كما روي عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «هل تدرون مَن يدخل الجنة من خَلْقِ الله؟» قالوا: الله ورسولُه أعلم. قال: «المجاهدون الذين تُسدُّ بهم الثغور، وتُتَّقى بهم المكارِهُ، فيموت أحدهم وحاجتُه في نفسه لا يستطيع لها قضاءً، فتأتيهم الملائكة فيدخلون عليهم من كلِّ باب: سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»[(٢)].

وقال محمد بن إبراهيم: كان النبيُّ ﷺ يأتي قبورَ الشهداء على رأس كلِّ حول فيقول: «السلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار»، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان[(٣)]؛

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٠٩.

(٢) أخرجه مطولاً أحمد (٦٥٧٠)، وعبد بن حميد في المنتخب (٣٥٢)، والبزار (٣٦٦٥ - كشف)، وابن حبان (٧٤٢١)، وأبو نعيم في الحلية ١/ ٣٤٧. وقد وقع في جميع المصادر: الفقراء المهاجرون، بدل: المجاهدون.

(٣) أخرجه عبد الرزاق (٦٧١٦)، والطبري ١٣/ ٥١٣. ومحمد بن إبراهيم: هو التيمي المدني الحافظ من علماء المدينة مع سالم ونافع، وكان جده الحارث بن خالد بن صخر القرشي من أصحاب رسول الله ﷺ المهاجرين، توفي سنة (١١٩هـ). السير ٥/ ٢٩٤.

وذكره البَيْهَقيُّ[١] عن أبي هُريرة قال: كان النبيُّ ﷺ يأتي الشهداء، فإذا أَتى فُرْضَةَ الشِّعْب يقول: «السلامُ عليكم بما صبرتُم فنعمَ عقبى الدار». ثم كان أبو بكر بعد النبيِّ ﷺ يفعلُه، وكان عمرُ بعد أبي بكر يفعله، وكان عثمانُ بعد عمرَ يفعله.

وقال الحسن البصريُّ رحمه الله: بما صبرتم عن فُضول الدنيا. وقيل: بما صبرتم على ملازمة الطاعة، ومُفارقة المعصية؛ قال معناه الفُضَيْل بن عِيَاض. ابن زيد: بما صبرتم عمَّا تحبُّونه إذا فقدتموه. ويحتمل سابعاً: بما صبرتم عن اتباع الشهوات[٢].

وعن عبد الله بن سَلَام وعلي بن الحسين ﷺ أنهما قالا[٣]: إذا كان يومُ القيامة ينادي منادٍ: ليقُمْ أهل الصبر، فيقوم ناسٌ من الناس، فيقال لهم: انطلقوا إلى الجنة، فتتلقَّاهم الملائكة فيقولون: إلى أين؟ فيقولون: إلى الجنة، قالوا: قبل الحساب؟ قالوا: نعم. فيقولون: مَن أنتم؟ فيقولون: نحن أهلُ الصبر، قالوا: وما كان صبرُكم؟ قالوا: صبَّرنا أنفسنا على طاعة الله، وصبَّرناها عن معاصي الله، وصبَّرناها على البلاء والمحن في الدنيا. قال علي بن الحسين: فتقول لهم الملائكة: ادخلوا الجنة فنعم أجر العاملين. وقال ابن سَلَام: فتقول لهم الملائكة: ﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ﴾[٤].

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: نعم عاقبةُ الدار التي كنتم فيها؛ عملتم فيها ما أَعْقَبَكم هذا الذي أنتم فيه، فالعقبى على هذا اسم، و«الدار» هي الدنيا. وقال أبو عِمران الجَوْني: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن النار[٥]. وعنه: «فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ»: الجنة عن الدنيا[٦].

---

(١) في دلائل النبوة ٣/٣٠٦.

(٢) النكت والعيون ٣/١٠٩.

(٣) في النسخ: أنه قال، والمثبت هو الجادة.

(٤) أخرجه أبو نعيم في الحلية ٣/١٣٩ - ١٤٠ عن علي بن الحسين مطولاً، ولم نقف عليه عن عبد الله بن سلام.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٤.

(٦) النكت والعيون ٣/١٠٩.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾ ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ لمَّا ذَكر المُوفين بعهده، والواصِلِين[1] لأمره، وذَكَر ما لهم، ذكر عكسَهم. فنقضُ[2] الميثاقِ: تركُ أمرِه. وقيل: إهمالُ عقولِهم؛ فلا يتدبرون بها ليعرفوا الله تعالى. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ أي: من الأرحام، والإيمانِ بجميع الأنبياء ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالكفر وارتكاب المعاصي ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: الطَّردُ والإبعادُ من الرحمة ﴿وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوء المُنقلَب، وهو جهنم. وقال سعد بن أبي وقَّاص: واللهِ الذي لا إله إلا هو، إنهم الحَرُورِية[3].

قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾ لمَّا ذكر عاقبة المؤمن وعاقبةَ المشرك، بيَّن أنه ـ تعالى ـ الذي يبسط الرزق ويَقْدِرُ في الدنيا؛ لأنها دار امتحان، فبَسْطُ الرزق على الكافرين لا يدلُّ على كرامتهم، والتَّقتير على بعض المؤمنين لا يدلُّ على إهانتهم.

﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيِّق، ومنه: ﴿وَمَن قُدِرَ عَلَيْهِ رِزْقُهُۥ﴾ [الطلاق:٧] أي: ضيِّق. وقيل: «يقدر»: يعطي بقَدْرِ الكفاية.

﴿وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ يعني مشركي مكة[4]؛ فرحوا بالدنيا ولم يعرفوا غيرها، وجَهِلوا ما عند الله. وهو معطوفٌ على ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾.

وفي الآية تقديمٌ وتأخير؛ التقدير: والذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه،

---

(١) في (د) و(ز) و(م): والمواصلين، والمثبت من (ظ).

(٢) في (د) و(ز): بنقض، وفي (م): نقض، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه مطولاً البخاري (٤٧٢٨)، والطبري ١٣/ ٣١٤ دون ذكر القسم.

(٤) ذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ١٤ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل، ويفسدون في الأرض، وفرحوا بالحياة الدنيا.

﴿وَمَا الْحَيَوٰةُ الدُّنْيَا فِي الْآخِرَةِ﴾ أي: في جَنْبِها ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ أي: متاعٌ من الأمتعة، كالقَصْعة والسُّكُرُّجَة[١]. وقال مجاهد: شيءٌ قليلٌ ذاهِب[٢]. مِن مَتَعَ النهارُ: إذا ارتفع، فلابدَّ له من زوال[٣]. ابن عباس: زادٌ كزاد الراعي[٤]. وقيل: متاع الحياة الدنيا: ما يُستمتع بها منها. وقيل: ما يُتزوَّد منها إلى الآخرة من التقوى والعمل الصالح[٥]. ﴿أُولَٰئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ﴾ ثم ابتدأ: ﴿اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ﴾ أي: يوسِّع ويضيِّق؟.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلَا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ بيَّن في مواضعَ أنَّ اقتراح الآيات على الرسل جَهْلٌ، بعد أن رأَوْا آيةً واحدةً تدلُّ على الصدق، والقائلُ عبد الله بن أبي أمية[٦] وأصحابُه حين طالبوا النبيَّ ﷺ بالآيات. ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ﴾ أي: كما أضلَّكم بعد ما أنزل من الآيات وحَرمَكم الاستدلالَ بها يُضلُّكم عند نزول غيرها. ﴿وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أي: مَن رَجَع. والهاء في «إليه» للحقِّ، أو

(١) إناء صغير يؤكل فيه الشيء القليل من الأدم، وهي فارسية. اللسان (سكرج).

(٢) أخرجه الطبري ١٣/٤١٦ - ٤١٧، وهو في تفسير مجاهد ١/٣٢٨.

(٣) ينظر تهذيب اللغة ٢/٢٩٥.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/٤١٧.

(٥) ذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٠.

(٦) أخو أمِّ سلمة زوجِ النبي ﷺ، وابنُ عمته عاتكة، كان شديداً على المسلمين، وهو الذي قال: ﴿لَن نُّؤْمِنَ لَكَ حَتَّىٰ تَفْجُرَ لَنَا مِنَ الْأَرْضِ يَنبُوعًا﴾ [الإسراء: ٩٠] ثم أسلم وشهد الفتح وحنيناً والطائف. الإصابة ٦/١١. وينظر سيرة ابن هشام ١/٣٠٩.

للإسلام، أو لله عزَّ وجلَّ؛ على تقدير: ويهدي إلى دِينه وطاعته مَن رَجَع إليه بقلبه. وقيل: هي للنبيِّ ﷺ.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟﴾ «الذين» في موضع نصب؛ لأنه مفعول؛ أي: يهدي الله الذين آمنوا. وقيل: بدلٌ من قوله: «مَنْ أَنَابَ» فهو في محلِّ نصبٍ أيضاً[١].

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أي: تسكُن وتستأنس بتوحيد الله، فـ «تطمئنُّ» حال[٢]، أي: وهم تطمئنُّ قلوبهم على الدوام بذكر الله بألسنتهم؛ قاله قَتَادة[٣]. وقال مجاهد وغيره[٤]: بالقرآن. وقال سفيان بن عيينة: بأمره. مقاتل: بوعده. ابن عباس: بالحلف باسمه[٥]، أو تطمئنُّ بذكر فضله وإنعامه، كما تَوْجَل بذكر عَدْلِه وانتقامه وقضائه. وقيل: «بذكرِ الله» أي: يذكرون الله ويتأمَّلون آياته، فيعرفون كمالَ قدرته عن[٦] بصيرة.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ أي: قلوب المؤمنين. قال ابن عباس: هذا في الحلف؛ فإذا حلف خَصْمُه بالله سَكَن قلبه[٧].

وقيل: «بذِكر الله» أي: بطاعة الله. وقيل: بثواب الله. وقيل: بوعد الله[٨]. وقال مجاهد: هم أصحابُ النبيِّ ﷺ[٩].

---

(١) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٧. ويجوز الرفع على الابتداء. ينظر الدر المصون ٧/ ٤٦.

(٢) في (د) و(ز) و(م): قال، والمثبت من (ظ).

(٣) أخرجه بنحوه الطبري ١٣/ ٥١٨، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٤) في (د) و(ز): وقال مجاهد وقتادة وغيره، وفي (م): وقال مجاهد وقتادة وغيرهما، والمثبت من (ظ)، وقول مجاهد ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٥) ذكره البغوي ٣/ ١٧.

(٦) في (ظ): على.

(٧) ذكره البغوي ٣/ ١٧، وقد سلف قريباً.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٠.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٥١٩، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٨.

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ۝٢٩﴾

قوله تعالى: ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ ابتداء وخبر. وقيل: معناه: لهم طُوبَى، فـ «طُوبَى» رفع بالابتداء، ويجوز أن يكون موضعه نصباً على تقدير: جَعَل لهم طُوبى، ويُعطف عليه «وَحُسْنُ مَآبٍ» على الوجهين المذكورين، فترفع أو تنصب[1].

وذكر عبد الرزاق: أخبرنا مَعْمَر، عن يحيى بن أبي كَثير، عن عمرو بن زيد[2] البِكَالِي، عن عُتْبة بنِ عبْدِ السُّلَميِّ قال: جاء أعرابيٌّ إلى النبيِّ ﷺ فسأله عن الجنة وذكر الحوض، فقال: فيها فاكهةٌ؟ قال: «نعم، شجرةٌ تدعى طوبى». قال: يا رسول الله! أيَّ شجرِ أرضِنا تُشبه؟ قال: «لا تُشبه شيئاً من شجر أرضك، أأتيتَ الشام؟ هناك شجرةٌ تدعى الجوزة تَنْبُتُ على ساقٍ ويفترش أعلاها». قال: يا رسول الله! فما عِظَمُ أصلها! قال: لو ارْتَحَلْتَ جَذَعةً من إبل أهلك ما أَحَطْتَ بأصلها حتى تنكسر تَرْقُوتُها هَرَماً» وذكر الحديث[3]، وقد ذكرناه بكماله في أبواب الجنة من كتاب «التذكرة»[4]، والحمد لله.

وذكر ابن المبارك قال: أخبرنا مَعْمَر، عن الأشعث بن[5] عبد الله، عن شَهْر بن

---

(١) ينظر معاني القرآن للزجاج ٣/١٤٨ ، وإعراب القرآن للنحاس ٢/٣٥٧ ، والبيان لابن الأنباري ٢/٥١ . وقرأ: «وحسنَ مآب» بالنصب ابن محيصن. القراءات الشاذة ص٦٧ .

(٢) في (د) و(ز) و(ظ): عمرو بن يزيد، وفي (م): عمرو بن أبي يزيد، والمثبت هو الصواب، ويقال له: عامر، كما سيرد.

(٣) لم نقف عليه عند عبد الرزاق، وأخرجه ابن أبي عاصم في السنة (٧١٦)، والطبراني في الكبير ١٧/٣١٣ ، وابن عبد البر في التمهيد ٣/ ٣٢٠ - ٣٢١ من طريق عبد الرزاق به. وأخرجه أحمد (١٧٦٤٢) من طريق معمر به، إلا أنه قال: عامر بن زيد، وكذلك ذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل ٦/ ٣٢٠ ، وابن حبان في الثقات ٥/ ١٩١ .

(٤) ص٤٥١ - ٤٥٢ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): عن، والمثبت من (ظ) والمصادر على ما يأتي.

حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: في الجنة شجرةٌ يقال لها: طوبى، يقول الله تعالى: تفتَّقي لعبدي عمَّا شاء، فتتَفتَّق له عن فرسٍ بسرجه ولجامه وهيئته كما شاء، وتَفتَّقُ عن الراحلة برَحْلِها وزمامها وهيئتها كما شاء، وعن النَّجائب والثياب[١].

وذكر ابنُ وهبٍ من حديث شَهْر بن حَوْشَب، عن أبي أُمامة الباهليِّ قال: «طُوبَى» شجرةٌ في الجنة ليس منها دارٌ إلا وفيها غصنٌ منها، ولا طيرٌ حَسَنٌ إلا هو فيها، ولا ثمرةٌ إلا هي فيها[٢].

وقد قيل: إنَّ أَصْلَها في قصر النبيِّ ﷺ في الجنة، ثم تنقسم فروعها على [جميع] منازل أهل الجنة، كما انتشر منه العلمُ والإيمانُ على جميع أهل الدنيا[٣].

وقال ابن عباس: «طُوبَى لَهُمْ»: فرحٌ[٤] وقرةُ عينٍ. وعنه أيضاً: أن «طوبى» اسمُ الجنة بالحبشية. وقاله سعيد بن جُبَير[٥].

الربيع بن أنس: هو البستان بلغة الهند[٦]؛ قال القُشَيريُّ: إن صح هذا فهو وفاقٌ بين اللغتين.

وقال قَتَادة: «طُوبَى لَهُمْ»: حُسْنَى لهم[٧]. عِكْرمة: نُعمى لهم[٨]. إبراهيم

(١) الزهد لابن المبارك (٢٦٥ - زوائد نعيم)، ومن طريق ابن المبارك أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٤، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ١/ ٣٣٦ عن معمر به.

(٢) لم نقف عليه، وأخرج نحوه ابن المبارك في الزهد (٢٦٨ - زوائد نعيم)، وابن أبي شيبة ١٣/ ١٣٦، والطبري ١٣/ ٥٢٥ عن مغيث بن سُمَيّ.

(٣) التعريف والإعلام للسهيلي ص٨٤، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٤) بعدها في (د) و(ز) و(م): لهم، والمثبت من (ظ)، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٢١.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من طريق سعيد بن جبير عن ابن عباس رضي الله عنهما.

(٦) ذكره البغوي ٣/ ١٨، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٢ من قول سعيد بن مسجوح.

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢١.

(٨) زاد المسير ٤/ ٣٢٨، وهو في تفسير الطبري ١٣/ ٥٢٠، ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٢٩٣، والنكت والعيون ٣/ ١١١ بلفظ: نِعْمَ ما لهم.

النَّخَعيُّ: خير لهم. وعنه أيضاً: كرامة من الله لهم. الضَّحاك: غِبْطَة لهم[١].

النحاس[٢]: وهذه الأقوالُ متقاربةٌ؛ لأن طُوبَى فُعْلَى من الطِّيب، أي: العيشُ الطَّيِّبُ لهم، وهذه الأشياء ترجعُ إلى الشيء الطَّيِّب.

وقال الزجَّاج: طُوبَى فُعْلى من الطِّيب[٣]. وهي الحالةُ المُسْتَطابةُ لهم، والأصل: طُيْبَى، فصارت الياء واواً لسكونها وضمِّ ما قَبْلَها، كما قالوا: موسِرٌ وموقِن.

قلت: والصحيحُ أنها شجرة؛ للحديث المرفوع الذي ذكرناه، وهو صحيح على ما ذكره السُّهَيْلي[٤]. ذكره أبو عمر في «التمهيد»[٥]، ومنه نقلناه، وذكره أيضاً الثعلبيُّ في تفسيره.

وذكر أيضاً المَهْدَويُّ والقُشَيريُّ عن معاوية بن قُرَّة، عن أبيه، أنَّ رسول الله ﷺ قال: «طوبى شجرةٌ في الجنة غَرَسَها الله بيده، ونفخ فيها من روحه، تُنبت الحُلِيَّ والحُلَل، وإنَّ أغصانها لَتُرى من وراء سور الجنة»[٦] ومَن أراد زيادةً على هذه الأخبار فلْيُطالع الثعلبيّ.

وقال ابن عباس: «طُوبَى» شجرة في الجنة أصلُها في دار عليٍّ، وفي دار كلِّ مؤمنٍ منها غُصْن[٧].

---

(١) زاد المسير ٤/ ٣٢٨، وأخرج هذه الأقوال الطبري ١٣/ ٥٢٠ - ٥٢٢.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٤٩٤.

(٣) معاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٨، ونقله المصنف عنه بواسطة ابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣٢٨، وما سيأتي بعده ذكرَه ابن الجوزي عن ابن الأنباري. وذكر قول الزجاج وابن الأنباري أيضاً الواحدي في الوسيط ٣/ ١٦.

(٤) في التعريف والإعلام ص٨٤.

(٥) ٣/ ٣٢٠.

(٦) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٢٨.

(٧) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ من طريق الكلبي عن أبي صالح عن ابن عباس، وعزاه للثعلبي.

وقال أبو جعفر محمد بنُ علي: سئل النبيُّ ﷺ عن قوله تعالى: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ قال: «شجرةٌ أصلُها في داري، وفروعُها في الجنة». ثم سئل عنها مرةً أخرى فقال: «شجرةٌ أصلُها في دار عليٍّ، وفروعُها في الجنة»، فقيل له: يا رسول الله، سُئلتَ عنها فقلت: «أصلها في داري وفروعُها في الجنة» ثم سئلت عنها فقلت: «أصلُها في دار عليٍّ وفروعُها في الجنة» فقال النبيُّ ﷺ: «إنَّ داري ودارَ عليٍّ غداً في الجنة واحدةٌ في مكان واحد»[1].

وعنه ﷺ: «هي شجرةٌ أصلُها في داري، وما مِن دارٍ من دوركم إلا تَدَلَّى فيها غُصنٌ منها»[2] ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ أي: مرجع[3]؛ آبَ: إذا رجع. وقيل: تقدير الكلام: الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبُهم بذكْرِ الله وعملوا الصالحات طوبى لهم.

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ أي: أرسلناك كما أرسلنا الأنبياء من قبلك؛ قاله الحسن[4]. وقيل: شبَّه الإنعام على مَن أُرسل إليه محمدٌ عليه الصلاة والسلام بالإنعام على مَن أرسل إليه الأنبياءُ قبله. ﴿لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ يعني القرآن ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾. قال مقاتل وابن جُريج: نزلت في صُلح الحُدَيْبِيَة حين أرادوا أن يكتبوا كتابَ الصُّلْح، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتُبْ: بسم الله الرحمن الرحيم» فقال سُهَيْل بن عمرو والمشركون: ما نَعْرِفُ الرحمن إلَّا صاحبَ اليمامة ـ يعنون مُسَيْلِمة الكذاب ـ اكتب: باسمك اللهم. وهكذا

(١) ذكره الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٧٣ وهو ضعيف لإرساله.

(٢) ينظر مجمع البيان ١٣/ ١٧٢ .

(٣) قوله: أي مرجع، من (ظ).

(٤) ذكره الرازي ١٩/ ٥١ .

كان أهلُ الجاهلية يكتبون، فقال النبيُّ ﷺ لعليٍّ: «اكتب: هذا ما صالَحَ عليه محمدٌ رسول الله» فقال مشركو قريش: لئن كنتَ رسول الله ثم قاتلناك وصَدَدْناك لقد ظلمناك، ولكن اكتب: هذا ما صالح عليه محمد بنُ عبد الله، فقال أصحاب النبيِّ ﷺ: دعنا نقاتلهم، فقال: «لا، ولكن اكتب ما يريدون» فنزلت(١).

وقال ابن عباس: نزلت في كفار قريش حين قال لهم النبيُّ ﷺ: «اسْجُدُوا للرَّحمن» قالوا: وَمَا الرَّحْمَنُ؟ فنزلت: ﴿قُلْ﴾ لهم يا محمد: الذي أنكرتم ﴿هُوَ رَبِّي لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾(٢) ولا معبودَ سواه، هو واحدٌ بذاته وإن اختلفت أسماء صفاته ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ واعتمدت ووثقت ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾ أي: مرجعي غداً، واليوم أيضاً عليه توكلتُ ووثقت، رِضاً بقضائه، وتسليماً لأمره.

وقيل: سمع أبو جهل رسول الله ﷺ يدعو في الحِجْر ويقول: «يا الله، يا رحمن» فقال: كان محمدٌ ينهانا عن عبادة الآلهة، وهو يدعو إلهين! فنزلت هذه الآية، ونزل: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾(٣) [الإسراء: ١١٠].

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَا۟يْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ هذا متَّصلٌ بقوله: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ

---

(١) أخرجه عن قتادة ومجاهد الطبري ١٣/ ٥٣٠ - ٥٣١، وذكره عنهما البغوي ٣/ ١٩، وذكره الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٧ عن أهل التفسير. وحديث صلح الحديبية ليس فيه ذكر لنزول هذه الآية، وقد أخرجه مطولاً أحمد (١٨٩١٠) و(١٨٩٢٨)، والبخاري (٢٧٣١ و ٢٧٣٢) من حديث المسور بن مخرمة ومروان بن الحكم. وينظر حديث ابن عباس رضي الله عنهما عند أحمد (٣١٨٧)، وحديث أنس عند أحمد (١٣٨٢٧)، ومسلم (١٧٨٤).

(٢) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٧، وتفسير البغوي ٣/ ١٩.

(٣) ذكره البغوي ٣/ ١٩، وابن الجوزي ٤/ ٣٢٩.

ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ .وذلك أنَّ نَفَراً من مشركي مكةَ فيهم أبو جهل وعبدُ الله بن أبي أمية المخزوميَّان جلسوا خلف الكعبة، ثم أرسلوا إلى رسول الله ﷺ فأتاهم، فقال له عبد الله: إنْ سرَّك أن نتَّبعك فسَيِّر لنا جبالَ مكة بالقرآن، فأَذْهبها عنَّا حتى تنفسح؛ فإنها أرضٌ ضيِّقة، واجعل لنا فيها عيوناً وأنهاراً حتى نغرس ونزرع، فلستَ ـ كما زعمتَ ـ بأهونَ على ربِّك من داودَ حيث سخَّر له الجبال تُسبِّح معه[1]، وسَخِّر لنا الريح فنركَبَها إلى الشام نقضي عليها مِيرتَنا وحوائجنا، ثم نرجع من يومنا؛ فقد كان سليمان سخِّرت له الريح كما زعمتَ، فلستَ بأهونَ على ربِّك من سليمانَ بنِ داود، وأَحْيِ[2] لنا قُصيًّا جدَّك ـ أو مَن شئتَ أنت من مَوْتانا ـ نسأله: أحقٌّ ما تقول أنت أم باطل؟ فإنَّ عيسى كان يُحيي الموتى، ولست بإهونَ على الله منه، فأنزل الله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ الآية؛ قال معناه الزبير بنُ العوام[3]. ومجاهد وقَتَادة والضَّحاك[4].

والجواب محذوفٌ تقديره: لكان هذا القرآن، لكن حذف إيجازاً، لمَا في ظاهر الكلام من الدلالة عليه[5]، كما قال امرؤ القيس:

فَلَوْ أَنَّهَا نَفْسٌ تَمُوتُ جَمِيعَةً ولكِنَّها نفسٌ تَساقَطُ أَنْفُسَا[6]

يعني: لَهَانَ عليَّ، وهذا معنى قولِ قَتَادةَ؛ قال: لو فَعَل هذا قرآنٌ قبل قرآنكم لفعله قرآنكم[7].

---

(١) في (د) و(ز) و(م): حين سخر له الجبال تسير معه، والمثبت من (ظ)، وتفسير البغوي ٣/ ١٩، والكلام منه.

(٢) في تفسير البغوي: أو سخر لنا الريح فنركبها... أو أحي.

(٣) أخرجه عن الزبير أبو يعلى (٦٧٩)، والواحدي في أسباب النزول ص٢٧٨ .

(٤) أخرج قولهم الطبري ١٣/ ٥٣٢ و ٥٣٤ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٨ ، وعن قتادة أخرجه أيضاً عبد الرزاق ١/ ٣٣٦ .

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٢ .

(٦) ديوان امرئ القيس ص١٠٧ .

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٤ ، وذكره البغوي ٣/ ٢٠ ، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٠ ، ولفظه عندهم: لو فعل هذا بقرآن قبل قرآنكم لفعل بقرآنكم.

وقيل: الجوابُ متقدِّم، وفي الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: وهم يكفرون بالرحمن ولو[1] أنزلنا هذا[2] القرآنَ وفعلنا بهم ما اقترحوا.

الفراء: يجوز أن يكون الجوابُ: لو فعل بهم هذا لكفروا بالرحمن[3].

الزّجاج[4]: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ إلى قوله: ﴿ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لمَا آمنوا، والجوابُ المضمَر هنا ما أُظهر في قوله: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ إلى قوله: ﴿مَّا كَانُوا۟ لِيُؤْمِنُوٓا۟ إِلَّآ أَن يَشَآءَ ٱللَّهُ﴾ [الأنعام: ١١١].

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: هو المالِكُ لجميع الأمور، الفاعلُ لمَا يشاء منها، فليس ما تلتمسونه مما يكون بالقرآن، إنما يكون بأمر الله.

قوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ قال الفرَّاء: قال الكلبيُّ: «ييئس» بمعنى يعلم، لغة النَّخَع[5]. وحكاه القُشَيْريُّ عن ابن عباس، أي: أفلم يعلموا، وقاله الجوهريُّ في «الصحاح»[6].

وقيل: هي لغةُ هَوَازِن[7]، أي: أفلم يعلم؛ عن ابن عباس ومجاهدٍ والحسن[8].

وقال أبو عبيدة: أفلم يعلموا ويتبيَّنوا، وأنشد في ذلك أبو عبيدة لمالك بن عوف النَّصْري:

---

(١) في النسخ: لو، والمثبت هو الصواب. ينظر معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٣١، وتفسير البغوي ٣/ ٢٠، والمحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، وزاد المسير ٤/ ٣٣١.

(٢) قوله: هذا، من (ظ).

(٣) بنحوه في معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٣.

(٤) في معاني القرآن له ٣/ ١٤٨.

(٥) معاني القرآن للفراء ٢/ ٦٤، وقد ذكره من طريق الكلبي، عن أبي صالح، عن ابن عباس. وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٨ من طريق علي بن أبي طلحة عن ابن عباس.

(٦) مادة (يئس).

(٧) تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وسلف تخريجه عن ابن عباس.

أقولُ لهم بِالشِّعْب إذْ يَيْسِرُونَني ... ألم تَيْأَسُوا أنّي ابنُ فارسِ زَهْدَمِ[١]

يَيْسرونني من المَيْسر[٢]، وقد تقدَّم في «البقرة»، ويروى: يأسرونني من الأَسْر[٣].

وقال رَبَاح بن عديٍّ:

ألم يَيْئَسِ الأقوامُ أنّي أنا[٤] ابْنُهُ ... وإنْ كنتُ عن أرضِ العشيرةِ نائياً[٥]

في كتاب «الردّ»: أني أنا ابنه، وكذا ذكره الغزنوي[٦]، أي: ألم يعلم.

والمعنى على هذا: أفلم يعلم الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً من غير أن يشاهدوا الآيات.

وقيل: هو من اليأس المعروف، أي: أفلم ييئس الذين آمنوا من إيمان هؤلاء الكفار؛ لعلمهم أنَّ الله تعالى لو أراد هدايتهم لهداهم[٧]؟ لأن المؤمنين تَمنَّوا نزول الآيات طمعاً في إيمان الكفار.

وقرأ عليٌّ وابن عباس: «أفلم يَتَبَيَّن الذين آمنوا»[٨] من البيان. قال القُشَيْريُّ: وقيل لابن عباس: المكتوبُ: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْئَسِ﴾ قال: أظنُّ الكاتبَ كتبها وهو ناعِس[٩]،

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٣٢ برواية: يأسرونني (وسيذكرها المصنف)، وقد نسبه لسُحيم بن وَثيل، وكذلك نسبه لسحيم الطبري ١٣/ ٥٣٥، وابن منظور في اللسان (يئس)، وقال ابن منظور: وذكر بعض العلماء أنه لولده جابر بن سحيم. اهـ.ولم نقف على مَن نسبه لمالك بن عوف.

(٢) قال ابن منظور في اللسان يئس: كان وقع عليه سباء، فضربوا عليه بالميسر يتحاسبون على قِسْمة فدائه، وينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥.

(٣) ينظر تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥، واللسان (يئس). وقد سلف البيت ٣/ ٤٣٦ برواية: ييسرونني.

(٤) قوله: أنا، من (ظ) والمصادر.

(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٣، وذكره أبو الليث ٢/ ١٩٤ من أجوبة ابن عباس على سؤالات نافع بن الأزرق منسوباً لمالك بن عوف، وهو بلا نسبة في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦، وأساس البلاغة (يئس).

(٦) من قوله: في كتاب الرد، إلى هذا الموضع ليس في (ظ).

(٧) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ ونسب القول للكسائي، وينظر معاني القرآن للفراء ١/ ٦٣ - ٦٤.

(٨) القراءات الشاذة ص٦٧، والمحتسب ١/ ٣٥٧.

(٩) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٣٧ من طريق عكرمة عن ابن عباس.

أي: زاد بعضَ الحروف حتى صار ﴿يَاْيْئَسِ﴾.

قال أبو بكر الأنباريُّ: روى عِكرمة عن ابن عباس[١] أنه قرأ: «أفلم يتبيَّن الذين آمنوا» وبها احتجَّ مَن زعم أنه الصوابُ في التلاوة، وهو باطلٌ عن ابن عباس؛ لأنَّ مجاهداً وسعيد بن جُبَير حَكَيا الحرفَ عن ابن عباس على ما هو في المصحف بقراءة أبي عمرو وروايتِه عن مجاهد وسعيد بن جُبَير عن ابن عباس. ثم إن معناه: أفلم يتبيَّن، فإن كان مرادُ الله تحت اللفظة التي خالفوا بها الإجماعَ فقراءتُنا تقع عليها، وتأتي بتأويلها. وإن أراد الله المعنى الآخَرَ - الذي اليأسُ فيه ليس من طريق العلم - فقد سَقَط ممَّا أوردوا، وأمَا سقوطُه يُبْطِل القرآن، ويلزم[٢] أصحابه البهتان.

﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ «أنْ» مخفَّفة من الثقيلة، أي: أنه لو يشاء الله لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعاً﴾ وهو يردُّ على القَدَرية وغيرهم.

قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ أي: داهيةٌ تَفْجَؤُهم بكُفرهم وعتوِّهم؛ ويقال: قرعه أمرٌ: إذا أصابه، والجمعُ: قَوارِع؛ والأصل في القَرْع: الضَّرب؛ قال:

أَفْنَى تِلَادِي وَمَا جَمَّعْتُ مِن نَشَبٍ قَرْعُ الْقَوَاقِيزِ أَفْوَاهَ الأَبَارِيقِ[٣]

أي: لا يزال الكافرون تصيبهم داهيةٌ مُهْلِكةٌ؛ من صاعقة كما أصاب أَرْبَد[٤]،

---

(١) وقع في (د) و(ز) و(م): ابن أبي نجيح، بدل: ابن عباس، والمثبت من (ظ)، وينظر التعليق السابق.

(٢) في (د) و(ز) و(م): ولزوم.

(٣) البيت للأُقَيْشر الأسدي كما في الأغاني ١١/ ٢٧٦، واللسان (قفز)، وبلا نسبة في إصلاح المنطق ص٣٧٢، والمقتضب ١/ ٢١، والإنصاف ١/ ٢٣٣. قوله: تلادي، التلاد: المال الذي له أصل عند صاحبه مما جمع أبوه وغيره له، والنَّشَب: المال، والقواقيز: آنية من آنية الشراب. يقول: أفنى مالي كثرة شربي وإنفاقي فيه. ويجوز في أفواه الأباريق الرفع على أنه فاعل للمصدر «قَرْع» والقواقيز مفعولة، والنصب على أنه مفعول والقواقيز فاعلة. ينظر شرح أبيات إصلاح المنطق للسيرافي ص٥٤١.

(٤) سلفت قصته ص٣٦-٣٧ من هذا الجزء.

أو من قتلٍ أو أسرٍ أو جَدْبٍ، أو غير ذلك من العذاب والبلاء، كما نزل بالمستهزئين، وهم رؤساء المشركين.

وقال عِكرِمة عن ابن عباس: القارعة: النكبة[١].

وقال ابن عباس أيضاً وعكْرمة: القارعة: الطلائعُ والسرايا التي كان يُنفِذُها رسول الله ﷺ لهم[٢].

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ أي: القارعة ﴿قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ﴾ قاله الحسن[٣]. وقال ابن عباس: أو تَحُلُّ أنت قريباً من دارهم[٤].

وقيل: نزلت الآية بالمدينة؛ أي: لا تزال تصيبهم القوارعُ، فتنزل بساحتهم، أو بالقرب منهم، كقُرى المدينة ومكة، ﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ﴾ في فتح مكة؛ قاله مجاهد وقتادة[٥].

وقيل: نزلت بمكة، أي: تصيبهم القوارع، أو تخرج[٦] عنهم إلى المدينة يا محمد، فتحلُّ قريباً من دارهم، أو تحلُّ بهم محاصراً لهم؛ وهذه المحاصرةُ لأهل الطائف، ولقِلاع خَيْبَر، أو يأتي[٧] وعدُ الله بالإذن لك في قتالهم وقَهْرِهم. وقال الحسن: وعدُ الله: يوم القيامة[٨].

---

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٤٩٩ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٣ عن عكرمة، وأخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٤١ .

(٣) في (د) و(ز) و(م): قاله قتادة والحسن، والمثبت من (ظ)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٣ من طريق قتادة عن الحسن.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٠ ، وأخرجه أيضاً عن عكرمة ومجاهد وابن أبي نجيح وسعيد بن جبير وقتادة.

(٥) أخرج عنهما الطبري ١٣/ ٥٤٠ - ٥٤٣ .

(٦) في (م): وتخرج.

(٧) في (د) و(ز) و(م): ويأتي.

(٨) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٤ .

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾ أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾ لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ﴾ تقدَّم معنى الاستهزاءِ في «البقرة»، ومعنى الإملاء في «آل عمران»[1]. أي: سُخِر بهم، وأُزرِيَ عليهم، فأمهلتُ الكافرين مدةً ليؤمنَ مَن كان في عِلْمي أنه يؤمن منهم، فلمَّا حقَّ القضاء أخذتُهم بالعقوبة. ﴿فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: فكيف رأيتَ ما صنعتُ بهم، فكذلك أصنع بمشركي قومك.

قوله تعالى: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ ليس هذا القيامُ القيامَ الذي هو ضدُّ القعود، بل هو بمعنى: التولِّي لأمور الخَلْق، كما يقال: قام فلانٌ بشُغْل كذا. فالله[2] قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت، أي: يُقْدِرُها على الكسب، ويخلقها ويرزقها ويحفظها ويجازيها على عملها، فالمعنى: أنه حافظٌ لا يغفل، والجوابُ محذوف، والمعنى: أفمن هو حافظٌ لا يغفل؛ كمن يغفل؟

وقيل: «أفَمَن هو قائمٌ» أي: عالم؛ قاله الأعمش[3]. قال الشاعر:

فلولا رِجالٌ من قريشٍ أعِزَّةٌ ... سَرَقْتُمْ ثيابَ البيتِ واللهُ قائمُ[4]

---

(١) في البقرة ١/ ٣١٤، وفي آل عمران ٥/ ٤٣٢.

(٢) في (م): فإنه.

(٣) في (ظ): الأخفش، وذكر هذا القول الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة.

(٤) النكت والعيون ٣/ ١١٤ دون نسبة، وهو في الشعر والشعراء ٢/ ٦٤٦، وأمالي اليزيدي ص٩٦ عن خداش بن زهير برواية: والبيت قائم. وفي الشعر والشعراء: من علي، بدل: من قريش؛ قال ابن قتيبة: يقال لبني كنانة بنو علي.

أي: عالم؛ فالله عالمٌ بكسب كلِّ نفس.

وقيل: المراد بذلك الملائكةُ الموكَّلون ببني آدم؛ عن الضحاك(١).

﴿وَجَعَلُوا﴾ حال، أي: وقد(٢) جعلوا، أو عطفٌ على «اسْتُهْزِئَ» أي: استهزؤوا وجعلوا، أي: سَمَّوا ﴿لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ يعني أصناماً جعلوها آلهة ﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أي: قل لهم يا محمد: «سَمُّوهُمْ» أي: بيِّنوا أسماءهم؛ على جهة التهديد(٣)، أي: إنما يسمَّوْن: اللّات والعُزَّى ومَنَاة وهُبَل.

﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ «أم» استفهامُ توبيخ، أي: أتنبِّئونه، وهو على التحقيق عطفٌ على استفهامٍ متقدِّم في المعنى؛ لأن قوله: «سَمُّوهُمْ» معناه: أَلَهُمْ أسماءُ الخالقين ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ﴾؟.

وقيل: المعنى قل لهم: أتنبِّئون الله بباطنٍ لا يعلمه، أَمْ بِظَاهِرٍ(٤) يعلمه؟ فإن قالوا: بباطنٍ لا يعلمه؛ أحالوا(٥)، وإن قالوا: بظاهر يعلمه؛ فقل لهم: سمُّوهم، فإذا سمَّوْهم اللَّاتَ والعُزَّى، فقل لهم: إن الله لا يعلم لنفسه شريكاً.

وقيل: ﴿أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ عطفٌ على قوله: ﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: أفمن هو قائم، أم تُنبِّئون الله بما لا يعلم، أي: أنتم تَدَّعون لله شريكاً، والله لا يعلم لنفسه شريكاً، أفتنبِّئونه بشريكٍ له في الأرض وهو لا يعلمه! وإنما خَصَّ الأرضَ بنفيِ الشريك عنها وإن لم يكن له شريكٌ في غير الأرض؛ لأنهم ادَّعوا له شركاءَ في الأرض.

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١١٤ .

(٢) في (د) و(ز): قد، وفي (م): أو قد، والمثبت من (ظ).

(٣) ينظر النكت والعيون ٣/ ١١٤ ، وتفسير الرازي ١٩/ ٥٦ ، قال الرازي: فكأنه تعالى قال: سمُّوهم بالآلهة، على سبيل التهديد، والمعنى: سواء سمَّيتموهم بهذا الاسم أو لم تسمُّوهم به فإنها في الحقارة بحيث لا تستحق أن يلتفت العاقل إليها.

(٤) بعدها في (م): من القول.

(٥) أحال: أتى بالمحال وتكلم به. معجم متن اللغة (حول).

ومعنى: ﴿أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ﴾ أي: أم بظَنٍّ من القول؛ عن مجاهد[١]. وقيل: أم بظاهرٍ من القول[٢] الذي أنزل الله على أنبيائه. وقال قَتَادة: معناه: أم[٣] بباطل من القول؛ ومنه قولُ الشاعر:

أَعَيَّرْتَنَا أَلْبَانَهَا وَلُحُومَهَا ... وذلِك عارٌ يا ابنَ رَيْطَةَ ظاهِرُ[٤]

أي: باطل. وقال الضَّحَّاك: بكَذِب من القول. ويحتمل خامساً: أن يكون الظاهرُ من القول حجَّةً يُظهرونها بقولهم، ويكون معنى الكلام: أتُخبِرونه بذلك مُشاهِدين، أم تقولون محتجِّين[٥].

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾ أي: دع هذا! بل زُيِّن للذين كفروا مكرُهم؛ قيل: استدراكٌ على هذا الوجه، أي: ليس لله شريك، لكنْ زُيِّن للذين كفروا مكرُهم.

وقرأ ابن عباس ومجاهد: «بل زَيَّنَ لِلَّذِينَ كَفروا مَكرُهُم»[٦] مُسَمَّى الفاعل. وعلى قراءة الجماعة، فالذي زَيَّن للكافرين مكرَهم اللهُ تعالى، وقيل: الشيطان. ويجوز أن يُسمَّى الكفر مكراً؛ لأنَّ مكرهم بالرسول كان كفراً.

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ﴾ أي: صدَّهم الله، وهي قراءةُ حمزةَ والكسائي[٧]. الباقون بالفتح، أي: صَدُّوا غيرَهم، واختاره أبو حاتم، اعتباراً بقوله: ﴿وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾ [الحج: ٢٥]، وقوله: ﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَصَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ﴾

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٢٩ .
(٢) من قوله: أي أم بظن، إلى هذا الموضع من (ظ).
(٣) قوله: أم، من (ظ)، والخبر أخرجه الطبري ١٣/ ٥٤٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٤ .
(٤) قائله سَبْرةُ بن عمرو الفَقْعَسي، كما في شرح ديوان الحماسة للمرزوقي ١/ ٢٣٨ ، والخزانة ٩/ ٥٠٤ وهو في النكت والعيون ٣/ ١١٤ بلا نسبة. ويخاطب الشاعر ضمرة بن ضمرة النهشلي وقد عيَّره كثرة إبله، كما ذكر المرزوقي.
(٥) النكت والعيون ٣/ ١١٥ .
(٦) القراءات الشاذة ص٦٧ .
(٧) وقرأ بها أيضاً من السبعة عاصم. السبعة ص٣٥٩ ، والتيسير ص١٣٣ .

[الفتح: ٢٥]. وقراءةُ الضم أيضاً حسنةٌ في «زُيِّن» و«صُدُّوا»؛ لأنه معلومٌ أنَّ الله فاعلُ ذلك في مذهبِ أهل السنَّة، ففيه إثباتُ القَدَر، وهو اختيار أبي عبيد.

وقرأ يحيى بنُ وثَّاب وعلقمة: «وصِدُّوا» بكسر الصاد[١]، وكذلك: «هَذِهِ بِضَاعَتُنَا رِدَّتْ إِلَيْنَا» [يوسف: ٦٥]، بكسر الراء وهي[٢] أيضاً على ما لم يُسمَّ فاعلُه، وأصلُهما: صُدِدُوا ورُدِدَتْ، فلمَّا أُدغمت الدال الأولى في الثانية نُقِلت حركتها إلى[٣] ما قَبْلَها فانكسر[٤].

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ بخذلانه. ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ أي: موفِّق، وفي هذا إثباتُ قراءةِ الكوفيين ومَن تابَعَهم؛ لقوله: ﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾، فكذلك قوله: ﴿وَصُدُّواْ﴾.

ومعظَمُ القُرَّاء يقفون على الدَّال من غير الياء، وكذلك ﴿وَالٍ﴾ [الآية: ١١] و﴿وَاقٍ﴾ [الآية: ٣٤-٣٧][٥]؛ لأنك تقول في الرجل: هذا قاضٍ ووالٍ وهادٍ، فتحذف الياء لسكونها والتقائها مع التنوين.

وقُرئ: «فَمَا لَهُ مِنْ هَادي» و«وَالي» و«وَاقي» بالياء؛ وهو على لغة مَن يقول: هذا داعي ووالي وواقي، بالياء؛ لأن حذف الياء في حالة الوَصْل لالتقائها مع التنوين، وقد أَمِنَّا هذا في الوقف، فرُدَّت الياء، فصار: هادي ووالي وواقي[٦]. وقال الخليل[٧] في نِداء قاضٍ: يا قاضي، بإثبات الياء؛ إذ لا تنوينَ مع النداء، كما لا تنوينَ في نحوِ: الدَّاعي والمُتعالي.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٧، وإعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨ كلاهما عن يحيى بن وثاب وحده.

(٢) قوله: وهي، من (ز) و(ظ) و(ف)، والقراءة في المحتسب ١/ ٣٤٥.

(٣) في (د) و(ز) و(ف) و(م): على.

(٤) إعراب القرآن للنحاس ٢/ ٣٥٨.

(٥) وهي قراءة السبعة ما عدا ابن كثير، فقد قرأ بها بالتنوين في الوصل، فإذا وقف وقف بالياء. السبعة ص٣٦٠، والتيسير ص١٣٣.

(٦) الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢١. وقال مكي: والحذف والإثبات لغتان للعرب، والحذف أكثر.

(٧) قوله في الكتاب ٤/ ١٨٤.

قوله تعالى: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: للمشركين الصَّادِّين، بالقتل والسَّبي والإسار[١]، وغيرِ ذلك من الأسقام والمصائب ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ أي: أشدُّ؛ من قولك: شَقَّ عليَّ كَذا يَشُقُّ. ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ﴾ أي: مانعٍ يمنعهم من عذابه ولا دافع. و«مِن» زائدة.

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا وَّعُقْبَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

قوله تعالى: ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ اختلف النحاة في رفع «مَثَلُ»، فقال سيبويه: ارتفع بالابتداء والخبر محذوف، والتقدير: وفيما يتلى عليكم مَثَلُ الجنة[٢].

وقال الخليل: ارتفع بالابتداء، وخبره: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ أي: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار[٣]، كقولك: قَوْلي يقوم زيد، فقولي مبتدأ، ويقوم زيد خبره، والمَثَل بمعنى الصفة موجود؛ قال الله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ مَثَلُهُمْ فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَمَثَلُهُمْ فِى ٱلْإِنجِيلِ﴾ [الفتح: ٢٩]، وقال: ﴿وَلِلَّهِ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [النحل: ٦٠] أي: الصفةُ العليا. وأنكره أبو عليٍّ وقال: لم يُسمع مَثَل بمعنى الصِّفة، إنما معناه الشَّبه، ألا تَراه يَجري مَجراه في مواضعه ومتصرَّفاته، كقولهم: مررت برجل مثلِك؛ كما تقول: مررت برجل شِبْهِك. قال: ويَفْسُد أيضاً من جهة المعنى؛ لأن مَثلاً إذا كان معناه صفةً، كان تقدير الكلام: صفةُ الجنة التي فيها أنهار، وذلك غيرُ مستقيم؛ لأنَّ الأنهار في الجنة نفسِها لا صفتِها.

وقال الزجَّاج[٤]: مَثَّلَ الله عزَّ وجلَّ لنا ما غاب عنَّا بما نراه، والمعنى: مَثَلُ

(١) في (ظ): والأسر.

(٢) الكتاب ١/ ١٤٣، ومعاني القرآن للزجاج ٣/ ١٤٩، والكشف عن وجوه القراءات ١/ ٣٩٨، وعنه نقل المصنف. واختاره أبو علي الفارسي كما في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢.

(٣) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠١، وذكر الزجاج في معاني القرآن ٣/ ١٤٩ هذا القول دون نسبة إثر قول سيبويه، ثم قال: وكِلَا القولين حسن جميل.

(٤) في معاني القرآن ٣/ ١٥٠، ونقله المصنف عنه بواسطة النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠١، وما سيرد بين حاصرتين منهما.

الجنة [التي وُعد المتقون] جَنَّةٌ تجري من تحتها الأنهار. وأنكره أبو عليٍّ فقال: لا يخلو المَثَل على قوله أن يكون الصفةَ أو الشَّبَه، وفي كلا الوجهين لا يصِحُّ ما قاله؛ لأنه إذا كان بمعنى الصفة لم يصحَّ؛ لأنك إذا قلتَ: صفةُ الجنَّة جنَّةٌ، فجعلتَ «جنةٌ»(١) خبراً لم يَستقِم ذلك؛ لأنَّ الجنة لا تكون الصفة(٢)، وكذلك أيضاً: شَبَهُ الجنة جنة، ألا ترى أنَّ الشَّبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين المتماثلين، وهو حَدَث، والجنّة غيرُ حَدَث، فلا يكون الأول الثاني(٣).

وقال الفرَّاء: المَثَل مُقْحَم للتأكيد، والمعنى: الجنَّة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار، والعرب تفعل ذلك كثيراً بالمَثَل والمِثْل(٤)، كقوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] أي: ليس كهو شيء(٥).

وقيل: التقدير: صفةُ الجنة التي وُعِد المتقون صفةُ جنَّةٍ تَجْري مِنْ تَحْتِهَا الأَنْهَارُ.

وقيل: معناه: شَبَهُ الجنة التي وُعد المتقون في الحُسْن والنعمة والخلود كشَبَه النار في العذاب والشدَّة والخلود؛ قاله مقاتل.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع، وفي الخبر: «إذا أُخذت ثمرةٌ عادت مكانَها أخرى»، وقد بيَّنَّاه في «التذكرة»(٦). ﴿وَظِلُّهَا﴾ أي: وظلُّها كذلك، فحذف، أي: ثمرُها لا ينقطع وظلُّها لا يزول، وهذا ردٌّ على الجَهْمِيَّة في زعمهم أنَّ نعيم الجنة يزول

---

(١) في (م): الجنة.

(٢) في (ظ): صفة.

(٣) ينظر البحر المحيط ٥/ ٣٩٦ ، والدر المصون ٧/ ٥٩ .

(٤) قوله: والمثل، من (د) و(ز) و(ف)، وهو موافق لما في البحر ٥/ ٣٩٦ ، والكلام فيه.

(٥) في (د) و(ز) و(م): ليس هو كشيء، والمثبت من (ظ) و(ف) والبحر. وذكر الكلام بنحوه عن الفراء مكي في مشكل إعراب القرآن ١/ ٣٩٨ - ٣٩٩ . قال أبو حيان: وإقحام الأسماء لا يجوز.

(٦) ص٤٥٢ ، وأخرجه ابن أبي شيبة ١٣/ ٩٧ ، والطبري ١/ ٤٠٦ - ٤٠٧ ، وأبو نعيم في صفة الجنة (٣١٥) من طريق أبي عبيدة عن مسروق. وأخرجه ابن المبارك في الزهد (١٤٨٩) و(١٤٩٠)، وهناد في الزهد (١٠٣)، والطبري ١/ ٤٠٩ عن أبي عبيدة، وهو عامر بن عبد الله بن مسعود ﷺ.

ويفنى[١]. ﴿تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ أي: عاقبةُ أَمْرِ المكذِّبين وآخرتُهم النارُ يَدخلونها.

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُواْ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أي: بعضُ مَنْ أُوتيَ الكتاب يفرح بالقرآن، كابن سَلَام وسَلْمان، والذين جاؤوا من الحبشة، فاللفظُ عامٌّ والمرادُ الخصوص. وقال قَتَادة: هم أصحابُ محمدٍ ﷺ يفرحون بنور القرآن. وقاله مجاهد وابن زيد[٢]. وعن مجاهد أيضاً: أنهم مؤمنو أهلِ الكتاب[٣]. وقيل: هم جماعةُ أهل الكتاب من اليهود والنصارى، يفرحون بنزول القرآن لتصديقه كُتُبَهم[٤].

وقال أكثر العلماء: كان ذِكْرُ الرحمن في القرآن قليلاً في أوّل ما أُنزِل، فلمَّا أسلم عبد الله بنُ سَلَام وأصحابُه؛ ساءهم قِلّة ذِكْر الرحمن في القرآن مع كثرة ذكره في التوراة، فسألوا النبيَّ ﷺ عن ذلك، فأنزل الله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُواْ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُواْ ٱلرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُواْ فَلَهُ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾ [الإسراء: ١١٠]، فقالت قريش: ما بالُ محمدٍ يدعو إلى إلهٍ واحد، فأصبح اليوم يدعو إلى[٥] إلهين؛ الله والرحمن؟! واللهِ ما نعرف الرحمن إلَّا رحمانَ اليمامة ـ يعنُون مُسَيْلِمَةَ الكذَّاب ـ فنزلت: ﴿وَهُم بِذِكْرِ ٱلرَّحْمَٰنِ هُمْ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢١ .

(٢) النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن قتادة وابن زيد، وأخرج قول قتادة الطبري ١٣/ ٥٥٦ .

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٦ .

(٤) ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٦ عن ابن عيسى. قال ابن عطية في المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦ : ويضعِّفُ هذا التأويلَ بأنَّ همَّهم به أكثر من فرحهم، ويضعِّف أيضاً بأن اليهود والنصارى ينكرون بعضه، وقد فرق الله في هذه الآية بين الذين ينكرون بعضه، وبين الذين آتيناهم الكتاب.

(٥) قوله: إلى، من (ظ).

كَـٰفِرُونَ﴾ [الأنبياء: ٣٦]، ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ [الرعد: ٣٠]، ففرح مؤمنو أهل الكتاب بذكر الرحمن، فأنزل الله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَـٰهُمُ ٱلْكِتَـٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾[1].

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني مشركي مكةَ، ومَن لم يؤمن من اليهود والنصارى؛ قال قتادة والحسن ومجاهد: الأحزاب: اليهود والنصارى[2] والمجوس. وقيل: هم العرب المُتحزِّبون على النبيِّ ﷺ. وقيل: ومِن أعداء المسلمين مَن ينكر بعضَ ما في القرآن؛ لأنَّ فيهم مَن كان يعترف ببعض الأنبياء، وفيهم مَن كان يعترف بأن الله خالقُ السماوات والأرض.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ قراءة الجماعة بالنصب عطفاً على «أعْبُدَ». وقرأ أبو خليد[3] بالرفع على الاستئناف، أي: أُفْرِدُه بالعبادة وحده لا شريك له، وأتبرَّأُ عن المشركين ومَن قال: المسيحُ ابنُ الله وعزيرٌ ابن الله، ومَن اعتقد التشبيه كاليهود. ﴿إِلَيْهِ أَدْعُوا۟﴾ أي: إلى عبادته أدعو الناس ﴿وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ﴾ أي: أرجع في أموري كلِّها.

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَـٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أي: وكما أنزلنا عليك القرآن فأنكره بعضُ الأحزاب، كذلك أنزلناه حكماً عربياً، وإنما وَصَفَه بذلك لأنه أنزله على محمد ﷺ،

---

(١) الوسيط ٣/ ١٨، وتفسير البغوي ٣/ ١٩ و ٢٢، وينظر ما سلف ٩/ ٣١٨.

(٢) قوله: قال قتادة والحسن ومجاهد الأحزاب اليهود والنصارى، من (ظ)، وذكر قولهم الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٨٢ - ١٨٣.

(٣) في (د) و(م): أبو خالد، وفي (ظ): أبو جليد، والمثبت من (ز) و(ف) والكشاف ٢/ ٣٦٢ وفيه ذكر القراءة. وأبو خليد هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي، روى القراءة عن نافع وله عنه نسخة. طبقات القراء ١/ ٤٩٨. وذكرها ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧، وتحرف فيه: خليد، إلى خليل.

وهو عربيٌّ، فكذَّب الأحزابُ بهذا الحكم أيضاً. وقيل: نَظْمُ الآية: وكما أنزلنا الكتب على الرُّسُل بلغاتهم، كذلك أنزلنا إليك القرآن حُكْماً عربياً[١]، أي: بلسان العرب. ويريد بالحكم: ما فيه من الأحكام. وقيل: أراد بالحكم العربيِّ القرآنَ كلَّه؛ لأنه يفصِل بين الحق والباطل ويَحْكُم.

﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أي: أهواءَ المشركين في عبادة ما دونَ الله، وفي التوجُّه[٢] إلى غير الكعبة ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ﴾ أي: ناصر ينصرك ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يمنعك من عذابه، والخطاب للنبيِّ ﷺ، والمرادُ الأُمَّة.

قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

فيه مسألتان:

الأولى: قيل: إن اليهود عابوا على النبيِّ ﷺ الأزواج، وعَيَّرتْه[٣] بذلك وقالوا: ما نرى لهذا الرجل همَّةً إلا النِّساءَ والنكاح، ولو كان نبيًّا لشغله أمر النبوَّة عن النِّساء، فأنزل الله هذه الآية[٤]، وذكَّرهم أمرَ داودَ وسليمانَ فقال: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: جعلناهم بشراً يقضُون ما أحلَّ الله من شهوات الدنيا، وإنما التخصيصُ في الوحي.

الثانية: هذه الآية تدلُّ على الترغيب في النكاح والحضِّ عليه، وتَنْهَى عن التَّبَتُّل، وهو تركُ النكاح، وهذه سنَّة المرسلين كما نصَّت عليه هذه الآية، والسنَّةُ واردةٌ بمعناها؛ قال ﷺ: «تزوَّجوا، فإنِّي مُكَاثِرٌ[٥] بكم الأمم» الحديث. وقد تقدَّم في «آل

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٢.

(٢) في (م): التوجيه.

(٣) في (ظ): وعيروه.

(٤) أسباب النزول للواحدي ص٢٧٩ عن الكلبي.

(٥) في (ظ): مباه.

عمران»[1]، وقال: «مَن تزوَّجَ فقد استكمل نِصْفَ الدِّين، فلْيتَّقِ الله في النِّصْفِ الثاني»[2]. ومعنى ذلك أنَّ النكاح يُعِفُّ عن الزنى، والعَفافُ أحدُ[3] الخَصْلَتين اللتين ضَمِن رسول الله ﷺ عليهما الجنةَ، فقال: «مَن وَقَاه الله شرَّ اثنتين وَلَجَ الجنَّة، ما بين لَحْيَيْه وما بين رجليه» خرَّجه «الموطَّأ» وغيره[4].

وفي «صحيح» البخاري[5] عن أنس قال: جاء ثلاثةُ رَهْطٍ إلى بيوتِ أزواجِ النبيِّ ﷺ يسألون عن عبادة النبيِّ ﷺ، فلمَّا أُخبروا كأنهم تَقَالُّوها فقالوا: وأين نحن من النبيِّ ﷺ؟! قد غفر الله له ما تقدَّم من ذنبه وما تأخَّر. فقال أحدهم: أمَّا أنا، فإنِّي أُصلِّي الليل أبداً، وقال الآخر: أنا[6] أصومُ الدهر، فلا أُفطر. وقال الآخر: أنا أعتزل النساء فلا أتزوَّج، فجاء رسول الله ﷺ[7] فقال: «أنتم الذين قلتم كذا وكذا، أمَا والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له، لكني أصوم وأُفطر، وأُصلِّي وأرْقُد، وأتزوَّج النساء، فمن رَغِب عن سنَّتي فليس منِّي». خرَّجه مسلم بمعناه[8]، وهذا أبْيَن.

وفي «صحيح» مسلم عن سعد بن أبي وقَّاص قال: أراد عثمان أن يتبتَّل، فنهاه

---

(١) ٥/ ١١٠ - ١١١ من حديث عائشة ومعقل بن يسار رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه الطبراني في الأوسط (٧٦٤٣) و(٨٧٨٩)، والبيهقي في الشعب (٥٤٨٦)، والخطيب في موضح أوهام الجمع والتفريق ٢/ ٦٨، وابن الجوزي في العلل المتناهية (١٠٠٥) عن أنس ﷺ. وأخرجه الحاكم ٢/ ١٦١ بلفظ: «مَن رَزَقَه الله امرأةً صالحةً فقد أعانه على شَطْر دينه، فليتَّق الله في الشطر الثاني». وينظر التلخيص الحبير ٣/ ١١٧، وفيض القدير ٦/ ١٣٧.

(٣) في (ظ): إحدى.

(٤) الموطأ ٢/ ٩٨٧ - ٩٨٨ عن عطاء بن يسار عن النبي ﷺ مرسلاً، وأخرجه أحمد (٢٣٠٦٥) عن رجل من أصحاب رسول الله ﷺ عن النبي ﷺ مطولاً. ويشهد له حديث سهل بن سعد ﷺ عند أحمد (٢٢٨٢٣)، والبخاري (٦٤٧٤)، ولفظه عند البخاري: «من يضمن لي ما بين لحييه وما بين رجليه أضمن له الجنة».

(٥) برقم (٥٠٦٣). وسلف ٨/ ١١٦.

(٦) في (ظ): أما أنا، وفي (ف) و(م): إني، والمثبت من (د) و(ز) وصحيح البخاري.

(٧) بعدها في (ف) و(م): إليهم.

(٨) صحيح مسلم (١٤٠١).

النبيُّ ﷺ، ولو أجاز له ذلك لاخْتَصَيْنَا[1]. وقد تقدَّم في «آل عمران»[2] الحضُّ على طلب الولد، والردُّ على مَن جَهِل ذلك.

وقد رُوِيَ عن عمرَ بنِ الخطاب ﷺ أنه كان يقول: إني لَأتزوَّجُ المرأة وما لي فيها من حاجة، وأَطَؤُها وما أشتهيها، فقيل له: وما يَحمِلك على ذلك يا أمير المؤمنين؟ قال: حبِّي أن يُخرِجَ الله منِّي مَن يُكاثِر به النبيُّ ﷺ النبيين يوم القيامة، وإنِّي سمعته يقول: «عليكم بالأبكار، فإنهنَّ أَعْذبُ[3] أفواهاً، وأحسنُ أخلاقاً، وأَنْتَقُ أرحاماً، وإنِّي مُكاثرٌ بكم الأممَ يوم القيامة»[4]. يعني بقوله: «أنتقُ أرحاماً» أَقْبَلُ للولد، ويقال للمرأة الكثيرة الولد: ناتِق؛ لأنها ترمي بالأولاد رمياً[5].

وخرَّج أبو داود[6] عن مَعْقِل بن يَسَار قال: جاء رجل إلى رسول الله ﷺ فقال: إنِّي أصبتُ امرأةً ذاتَ حَسَبٍ وجمال، وإنَّها لا تَلِد، أفأتزوَّجُها؟ قال: «لا». ثم أتاه الثانيةَ، فنهاه، ثم أتاه الثالثةَ، فقال: «تزوَّجوا الودود الولود، فإنِّي مُكَاثِرٌ بكم الأمم». صحَّحه أبو محمد عبدُ الحقِّ[7] وحَسْبُك.

قوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ عاد الكلام إلى ما اقترحوا من الآيات مما[8] تقدَّم ذكره في هذه السورة، فأنزل الله ذلك فيهم، وظاهرُ

---

(١) صحيح مسلم (١٤٠٢): (٨) وسلف ٥/ ١١٠ و ٨/ ١١٧ ، وعثمان المذكور: هو ابنُ مظعون.

(٢) ٥/ ١١٠ .

(٣) في (ظ): أطيب.

(٤) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج ابن أبي شيبة ٤/ ٢١٦ نحوه عن عمر موقوفاً وإسناده ضعيف لانقطاعه. وأخرجه مرفوعاً ابن ماجه (١٨٦١) من طريق عبد الرحمن بن سالم بن عتبة بن عويم بن ساعدة الأنصاري، عن أبيه، عن جده، عن النبي ﷺ. وهو حديث ضعيف لاضطراب إسناده، وجهالة عبد الرحمن ابن سالم كما ذكر الحافظ في الإصابة ٦/ ٣٧٨ - ٣٧٩ ، وينظر مصباح الزجاجة ١/ ٣٢٦ - ٣٢٧ .

(٥) تهذيب اللغة ٩/ ٦١ .

(٦) في سننه (٢٠٥٠)، وسلف ٥/ ١١١ .

(٧) في الأحكام الصغرى ٢/ ٦٠٦ .

(٨) المثبت من (ظ)، وفي غيرها: ما.

الكلام حَظْرٌ ومعناه النفي؛ لأنه لا يُحظَر على أحدٍ ما لا يقدِر عليه.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أي: لكلِّ أمرٍ قضاه الله كتابٌ عند الله؛ قاله الحسن[1]. وقيل: فيه تقديمٌ وتأخير، المعنى: لكلِّ كتابٍ أجلٌ؛ قاله الفراء والضّحاك[2]، أي: لكلِّ أمر كتبه الله أجلٌ مؤقَّت، ووقتٌ معلوم، نظيرُه: ﴿لِكُلِّ نَبَإٍ مُسْتَقَرٌّ﴾ [الأنعام:٦٧]. بيَّن أنَّ المراد ليس على اقتراح الأمم في نزول العذاب، بل لكلِّ أجلٍ كتاب[3]. وقيل: المعنى: لكلِّ مدة كتابٌ مكتوبٌ وأمرٌ مقدَّر لا تقف عليه الملائكة.

وذكر الترمذيُّ الحكيم في «نوادر الأصول» عن شَهْر بنِ حَوْشَب، عن أبي هريرة قال: لمَّا ارتقى موسى صلوات الله عليه وسلامه طُورَ سَيناء، رأى الجَبَّارُ في أصبعه خاتماً، فقال: يا موسى ما هذا؟ وهو أعلم به، قال: شيءٌ من حُلِيِّ الرجال، قال: فهل عليه شيءٌ من أسمائي مكتوبٌ أو كلامي؟ قال: لا، قال: فاكتب عليه ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾[4].

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾

قوله تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ أي: يمحو من ذلك الكتابِ ما يشاء أن يُوقِعَه بأهله ويأتي به، «وَيُثْبِتُ» ما يشاء، أي: يُؤَخِّره إلى وقته، يقال: محوتُ الكتاب مَحْواً، أي: أذهبت أثره. «وَيُثْبِتُ» أي: ويُثْبِته، كقوله: ﴿وَالذَّاكِرِينَ اللَّهَ كَثِيرًا وَالذَّاكِرَاتِ﴾ [الأحزاب:٣٥]، أي: والذاكرات اللهَ.

---

(١) ذكر الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٧ هذا القول عن الطبري، وذكر عن الحسن قوله: لكلِّ أجلٍ من آجال الخَلْق كتابٌ عند الله.

(٢) أخرجه عن الضحاك الطبري ١٣/ ٥٥٨ - ٥٥٩ ، وذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ٥٥٩ ، وقول الفراء في معاني القرآن له ٢/ ٦٥ .

(٣) ينظر تفسير الرازي ١٩/ ٦٤ . وقال الرازي: فالآيات التي سألوها لها وقتٌ معيَّن حَكَم الله به، وكتبه في اللوح المحفوظ، فلا يتغير عن ذلك الحكم بسبب تحكُّماتهم الفاسدة.

(٤) لم نقف عليه في المطبوع من نوادر الأصول، وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٣/ ١١٨ له، وشهر بن حوشب قال عنه الحافظ في التقريب: صدوق كثير الإرسال والأوهام.

وقرأ ابن كثير وأبو عمرو وعاصم: ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بالتخفيف، وشَدَّد الباقون[١]، وهي قراءة ابن عباس[٢]، واختيارُ أبي حاتم وأبي عبيد[٣] لكثرة مَن قرأ بها، ولقوله: ﴿يُثَبِّتُ اللَّهُ الَّذِينَ ءَامَنُوا﴾ [إبراهيم: ٢٧].

وقال ابن عمر: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «يمحو الله ما يشاء ويُثْبت، إلَّا السعادةَ والشقاوةَ والموت»[٤].

وقال ابن عباس: يمحو الله ما يشاء ويُثْبِت إلا ستًّا[٥]: الخَلْقَ والخُلُق، والأجل والرزق، والسعادة والشقاوة[٦]. وعنه: هما كتابان؛ [كتابٌ] سوى أمِّ الكتاب يمحو الله منه[٧] ما يشاء ويُثْبِت، وعنده أُمُّ الْكتاب الذي لا يتغيَّر منه شيء.

قال القُشَيْريُّ: وقيل: السعادةُ والشَّقاوة، والخَلْق والخُلُق والرِّزق، لا تتغيَّر؛ فالآيةُ فيما عدا هذه الأشياء. وفي هذا القول نوعُ تحكُّم.

قلت: مثلُ هذا لا يُدرَك بالرأي والاجتهاد، وإنما يُؤخذ توقيفاً، فإن صحَّ فالقولُ به يجب، ويُوقف عنده، وإلَّا فتكون الآية عامَّةً في جميع الأشياء، وهو الأظهرُ، والله أعلم؛ وهذا يُروى معناه عن عمرَ بن الخطاب ﷺ وابنِ مسعود وأبي وائلٍ وكعب

---

(١) السبعة ص٣٥٩ ، والتيسير ص١٣٤ .

(٢) ذكرها عنه النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٢ .

(٣) ذكر اختيار أبي عبيد النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٣ ، ومكي في الكشف عن وجوه القراءات ٢/ ٢٣ ، وقال النحاس: على أن أبا حاتم قد أومأ إلى أنَّ معناهما واحد.

(٤) أخرجه الطبراني في الأوسط (٩٤٦٨) وفيه: «...إلا الشِّقوة والسعادة والحياة والموت» بزيادة: «الحياة». قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٣ : فيه محمد بن جابر اليمامي، وهو ضعيف من غيرِ تعمُّدِ كذب.

(٥) في (م): إلا أشياء.

(٦) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرجه عبد الرزاق في التفسير ٢/ ٣٣٨ ، وعبد الله بن أحمد في السنة (٧٣١)، والطبري ١٣/ ٥٥٩ بلفظ: ...إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت.

(٧) في النسخ: منهما، والمثبت من تفسير البغوي ٣/ ٢٣ ، والكلام وما سلف بين حاصرتين منه، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٢ ، والحاكم ٢/ ٣٤٩ ، وذكره الواحدي في الوسيط ٣/ ٢٠ ، وابن الجوزي ٤/ ٣٣٩ .

الأحبار وغيرِهم، وهو قولُ الكلبيّ.

وعن أبي عثمان النَّهْديِّ: أنَّ عمرَ بنَ الخطاب ﷺ كان يطوف بالبيت وهو يبكي ويقول: اللهم إن كنتَ كتبتني في أهل السعادة فأَثْبِتني فيها، وإن كنت كتبتني في أهل الشقاوة والذنبِ، فامحُني وأَثْبِتني في أهل السعادة والمغفرة، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[1].

وقال ابن مسعود: اللهمَّ إنْ كنتَ كتبتني في السعداء فأَثْبتني فيهم، وإن كنت كتبتني في الأشقياء، فامحُني من الأشقياء واكتبني في السُّعَداء، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب[2].

وكان أبو وائل يُكْثر أن يدعو: اللهمَّ إن كنت كتبتنا أشقياء فامْحُ واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأَثْبِتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتُثْبِت، وعندك أمُّ الكتاب[3].

وقال كعب لعمرَ بنِ الخطاب: لولا آيةٌ في كتاب الله، لأنبأتك بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَٰبِ﴾[4].

وقال مالك بن دينار في المرأة التي دعا لها: اللهمَّ إن كان في بطنها جاريةٌ، فأبْدِلْها غلاماً، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أمُّ الكتاب. وقد تقدَّم[5].

وفي[6] الصحيحين عن أبي هريرةَ قال: سمعت النبيَّ ﷺ يقول: «مَن سَرَّه أن يُبْسَط له في رزقه، ويُنْسَأَ له في أثَرِه، فلْيَصِلْ رَحِمَه»[7]. ومثلُه عن أنس بن مالك، أنَّ

---

(١) أخرجه الدولابي في الكنى ١/ ١٥٥ ، والطبري ١٣/ ٥٦٤ .

(٢) أخرجه مطولاً ابن أبي شيبة ١٠/ ٣٣١ - ٣٣٢ ، ومقطَّعاً الطبري ١٣/ ٤٦٤ و ٤٦٥ .

(٣) أخرجه عبد الرزاق ٣/ ٣٣٨ ، والطبري ١٣/ ٥٦٣ .

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٥ ، والنكارة فيه ظاهرة.

(٥) ص٢١ من هذا الجزء.

(٦) في (د) و(م): في.

(٧) صحيح البخاري (٥٩٨٥)، ولم نقف عليه عند مسلم، وسلف ١٠/ ٢٠٢ .

رسول الله ﷺ قال: «مَنْ أَحَبَّ»، فذكره بلفظه سواء[1]، وفيه تأويلان:

أحدُهما: معنوي، وهو ما يبقى بعده من الثناء الجميل والذِّكر الحسن، والأَجْرِ المتكرِّر، فكأنه لم يمت.

والآخَر: يُؤخِّر أجلُه المكتوبُ في اللوح المحفوظ، والذي في علم الله ثابتٌ لا تبديل[2] له، كما قال: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾.

وقيل لابن عباس لمَّا رَوى الحديثَ الصحيحَ عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مَن أحبَّ أن يَمُدَّ اللهُ في عمرِه وأجَلِه، ويَبْسُط له في رِزْقه، فليتَّقِ اللهَ ولْيَصِلْ رَحِمَه»: كيف يُزاد في العمر والأجل؟ فقال: قال الله عزَّ وجلَّ: ﴿هُوَ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰ أَجَلًا وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُ﴾ [الأنعام: ٢]، فالأجلُ الأوَّلُ أجلُ العبد من حينِ ولادته إلى حين موته، والأجلُ الثاني - يعني المُسمَّى عنده - من حينِ وفاته إلى يوم يلقاه في البَرْزخ، لا يعلمه إلا الله، فإذا اتقى العبد ربَّه ووَصَل رَحِمه، زاده الله في أَجَلِ عمره الأولِ من أَجَل البَرْزخ ما شاء، وإذا عصى وقَطَع رَحِمَه، نَقَصَه الله من أَجَل عمره في الدنيا[3] ما شاء، فيزيدُه في أَجَل البَرْزَخ، فإذا تحتَّم الأجَلُ في علمه السابق، امتنع الزيادةُ والنقصان؛ لقوله تعالى: ﴿فَإِذَا جَاءَ أَجَلُهُمْ لَا يَسْتَأْخِرُونَ سَاعَةً وَلَا يَسْتَقْدِمُونَ﴾[4] [النحل: ٦١]. فتوافَقَ الخبر والآية. وهذه زيادةٌ في نَفْس العمر وذاتِ الأَجَل على ظاهر اللفظ، في اختيار حَبْر الأمة، والله أعلم.

وقال مجاهد: يُحْكِم الله أَمْرَ السَّنَة في رمضان، فيمحو ما يشاء ويُثْبت ما يشاء، إلَّا الحياةَ والموت، والشقاءَ والسعادة[5]؛ وقد مضى القول فيه.

---

(١) صحيح البخاري (٥٩٨٦)، وصحيح مسلم (٢٥٥٧): (٢١)، وهو عند أحمد (١٣٥٨٥).

(٢) في النسخ عدا (ظ): لا تبدل، والمثبت من (ظ)، والمفهم ٦/ ٥٢٨، والكلام منه.

(٣) في (ظ): نقص الله من أجله في الدنيا.

(٤) أخرج المرفوع منه البزار (١٨٨٠ - كشف)، وفي أوله: «في التوراة مكتوب من أحب...». والطبراني في الكبير (١١٨٢٢)، ولم نقف على باقي الخبر، وذكر معناه ابن حجر في الفتح ٤/ ٣٠٢ عن الحكيم الترمذي وقال: أغرب الحكيم الترمذي فقال: المراد بذلك قلة البقاء في البرزخ.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦١ - ٥٦٢ بنحوه، وفيه: يقضي في ليلة القدر...

وقال الضَّحاك: يمحو الله ما يشاء من ديوان الحفَظَة ما ليس فيه ثواب ولا عقاب، ويُثْبِت ما فيه ثواب وعقاب؛ وروى معناه أبو صالح عن ابن عباس[(١)].

وقال الكلبيُّ: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، ورواه عن النبيِّ ﷺ[(٢)]. ثم سُئِل الكلبيُّ عن هذه الآية فقال: يكتب القول كلَّه، حتى إذا كان يومُ الخميس، طَرَح منه كلَّ شيء ليس فيه ثوابٌ ولا عقاب[(٣)]، مثل قولك: أكلت وشربت ودخلت وخرجت ونحوه، وهو صادق، ويُثْبت ما فيه الثواب والعقاب[(٤)].

وقال قَتَادة وابن زيد وسعيد بن جبير: يمحو الله ما يشاء من الشرائع والفرائض[(٥)]، فيَنْسخُه ويُبدِّله، ويُثْبت ما يشاء فلا ينسخه، وجملةُ الناسخ والمنسوخ عنده في أمِّ الكتاب. ونحوه ذكره النحاس والمهدويُّ عن ابن عباس؛ قال النحاس: وحدَّثنا بَكْر بن سهل، قال: حدَّثنا أبو صالح، عن معاويةَ بنِ صالح، عن عليِّ بن أبي طلحةَ، عن ابن عباس: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يقول: يُبدِّل الله من القرآن ما يشاء فيَنْسخُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما يشاء فلا يبدِّله، ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يقول: جملةُ ذلك عنده في أمِّ الكتاب؛ الناسخُ والمنسوخ[(٦)].

---

(١) النكت والعيون ٣/ ١١٨ ، وزاد المسير ٤/ ٣٣٨ .

(٢) ذكره النحاس في معاني القرآن ٣/ ٥٠٢ . وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٦ أيضاً عن أبي صالح قوله، وذكره عنه الحافظ في الفتح ١١/ ٣٠٩ بنحوه وقال: وهذا لو ثبت كان نصًّا في ذلك، ولكنه من رواية الكلبي، وهو ضعيف جدًّا.

(٣) أخرجه ابن سعد ٣/ ٥٧٤ ، والطبري ١٣/ ٥٦٥ - ٥٦٦ ، وابن عدي ٦/ ٢١٣١ من طريق الكلبي عن أبي صالح، عن جابر بن عبد الله رضي الله عنهما مرفوعاً، وهذا إسناد ضعيف جداً.

(٤) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٦ .

(٥) في (د) و(ز) و(م): من الفرائض والنوافل، والمثبت من (ظ) و(ف) وتفسير البغوي، والكلام منه، وأخرجه عن قتادة وابن زيد الطبري ١٣/ ٥٦٧ .

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٢ - ٥٠٣ ، وأخرجه أيضاً أبو عبيد في الناسخ والمنسوخ (٤)، والطبري ١٣/ ٥٦٦ عن أبي صالح به.

وقال سعيد بن جُبَير أيضاً: يغفر ما يشاء من[1] ذنوب عباده، ويترك ما يشاء، فلا يغفره.

وقال عكرمة: يمحو ما يشاء ـ يعني بالتوبة ـ جميعَ الذنوب، ويُثْبِت بَدَل الذنوب حسناتٍ [كما قال الله تعالى]: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا﴾ [الفرقان: ٧٠] الآية[2].

وقال الحسن: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ مَن جاء أَجلُه، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ مَن لم يأت أجله[3]. وعنه أيضاً[4]: يمحو الآباءَ، ويُثْبت الأبناء. وعنه أيضاً: يُنْسي الحَفَظَةَ من الذنوب ولا يُنْسي.

وقال السدِّي: ﴿يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ يعني: القمر، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ يعني: الشمس، بيانُه قولُه: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء: ١٢].

وقال الربيع بن أنس: هذا في الأرواح حالةَ النوم يقبضها؛ مَن أراد[5] موته فجأةً أمسكه[6]، ومَن أراد بقاءه أثبته وردَّه إلى صاحبه، بيانُه قولُه: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر: ٤٢].

وقال علي بن أبي طالب: يمحو الله ما يشاء من القرون، كقوله: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُمْ مِنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١]، ويُثْبت ما يشاء منها، كقوله: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ

(١) قبلها في (م): يعني.

(٢) ذكر قول سعيد بن جبير وعكرمة البغوي ٣/ ٢٣، وما سلف بين حاصرتين منه.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٨.

(٤) في النسخ عدا (ظ): وقال الحسن، والمثبت من (ظ)؛ إلا أنها وقعت فيها بعد قول عكرمة ووقع قول الحسن فيها آخِراً، فيكون هذا القول وما بعده ـ على ما في نسخة (ظ) ـ منسوباً لعكرمة.

(٥) في النسخ عدا (ظ): يقبضها عند النوم ثم إذا أراد، والمثبت من (ظ). ووقع في تفسير البغوي ٣/ ٢٣: هذا في الأرواح يقبضها الله عند النوم فمن أراد...

(٦) في تفسير البغوي: محاه فأمسكه، بدل: فجأة أمسكه.

﴿قَرْنًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٣١]، فيمحو قَرْناً، ويُثْبت قَرْناً[١].

وقيل: هو الرجل يعمل الزمنَ الطويلَ بطاعة الله، ثم يعمل بمعصية الله فيموتُ على ضلاله، فهذا[٢] الذي يمحو. والذي يُثْبت: الرجلُ يعمل بمعصية الله الزمانَ الطويلَ ثم يتوب، فيمحوه الله من ديوان السيئات، ويُثْبته في ديوان الحسنات؛ ذكره الثعلبيُّ والماورديُّ عن ابن عباس[٣].

وقيل: يمحو الله ما يشاء ـ يعني الدنيا ـ ويُثْبت الآخرة.

وقال قيس بن عُبَاد في اليوم العاشر من رجب: هو اليوم الذي يمحو الله فيه ما يشاء، ويثبت ما يشاء؛ وقد تقدَّم عن مجاهد أن ذلك يكون في رمضان[٤].

وقال ابن عباس: إن لله لوحاً محفوظاً مسيرةَ خمسِ مئة عام، من دُرَّة بيضَاء لها دَفَّتان من ياقوتة حمراءَ، [والدفَّتان لوحان]، للهِ فيه كلَّ يوم ثلاثُ مئة وسِتُّون نَظْرةً، يُثْبِتُ ما يشاء، ويمحو ما يشاء[٥].

وروى أبو الدرداء عن النبيِّ ﷺ قال: «إنَّ الله سبحانه يفتح الذِّكْر في ثلاث ساعات يَبْقَيْنَ من الليل، فينظر في الكتاب الذي لا ينظر فيه أحدٌ غيره، فيمحو ما يشاء، ويُثْبت ما يشاء»[٦].

---

(١) لم نقف عليه.

(٢) في النسخ عدا (ظ): فهو، والمثبت من (ظ).

(٣) النكت والعيون ٣/ ١١٨ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٦٤ - ٥٦٥ .

(٤) ص٩٠ من هذا الجزء، وخبر قيس بن عباد أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧١ من طريق رجل، عن أبيه، عن قيس به. وهذا إسناد ضعيف إلى قيس، ثم هو مقطوع عليه.

(٥) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٠ ، وما سلف بين حاصرتين منه، وفيه: لحظة، بدل: نظرة.

(٦) أخرجه الدارمي في الرد على الجهمية ص٣٢ ، والبزار (٣٥١٦ - كشف) والطبري ١٣/ ٥٧٠ ، والعقيلي في الضعفاء (٥٥٢)، والدارقطني في المؤتلف والمختلف ٣/ ١١٥١ - ١١٥٢ ، وابن الجوزي في العلل (٢١) وقال: هذا الحديث من عمل زيادة بن محمد، لم يتابعه عليه أحد، قال البخاري: هو منكر الحديث. وقال ابن حبان: هو منكر الحديث جدًّا، يروي المناكير عن المشاهير فاستحق الترك.

والعقيدةُ أنه لا تبديلَ لقضاء الله، وهذا المحوُ والإثباتُ مما سبق به القضاء، وقد تقدَّم أنَّ من القضاء ما يكون واقعاً محتوماً، وهو الثابت، ومنه ما يكون مصروفاً بأسباب، وهو الممحوُّ، والله أعلم.

الغَزْنَويُّ: وعندي أنَّ ما في اللوح خرج عن الغيب لإحاطة بعض الملائكة، فيَحتمِل التبديل؛ لأن إحاطة الخلق بجميع عِلم الله مُحالٌ، وما في علمه من تقدير الأشياء لا يُبدَّل.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾، أي: أصلُ ما كتب من الآجال وغيرها.

وقيل: أمُّ الكتاب: اللوحُ المحفوظ الذي لا يُبدَّل ولا يُغيَّر[(١)]. وقد قيل: إنه يجري فيه التبديل. وقيل: إنما يجري في الجرائد الأُخَر.

وسُئِل ابن عباس عن أمّ الكتاب فقال: [قال كعب:] عِلْمُ الله ما هو خالِقٌ، وما خَلْقُه عامِلون، فقال لعِلْمه: كن كتاباً [فكان كتاباً][(٢)]، ولا تبديلَ في علم الله. وعنه: إنه الذِّكْر[(٣)]، دليله قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِى ٱلزَّبُورِ مِنۢ بَعْدِ ٱلذِّكْرِ﴾ [الأنبياء: ١٠٥]، وهذا يرجع معناه إلى الأوَّل؛ وهو معنى قول كعب. قال كعبُ الأحبار: أمُّ الكتاب: عِلمُ الله تعالى بما خَلَقَ وبما هو خالق[(٤)].

قوله تعالى: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ «ما» زائدة، والتقدير: وإنْ نُرِينَّك بعضَ

---

(١) تفسير البغوي ٣/ ٢٣.

(٢) أخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٨، وما بين حاصرتين منه، وهو في تفسير الطبري بنحوه ١٣/ ٥٣٢.

(٣) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٢ - ٥٧٣.

(٤) ذكره عن كعب بهذا اللفظ الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٨.

الذي نَعِدُهم، أي: من العذاب؛ لقوله: ﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا﴾ [الرعد: ٣٤]، وقوله: ﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ﴾ [الرعد: ٣١]، أي: إن أريناك بعضَ ما وعدناهم ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلَٰغُ﴾ فليس عليك إلا البلاغُ، أي: التبليغ ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أي: الجزاءُ والعقوبة.

قوله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ يعني أهل مكة، ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: نقصِدُها. ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ اختُلِف فيه؛ فقال ابن عباس ومجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ موتُ علمائها وصُلَحائها(١). قال القُشَيري: وعلى هذا فالأطرافُ الأشراف(٢)، وقد قال ابن الأعرابي: الطَّرَف والطَّرْف الرجل الكريم. ولكنَّ هذا القول بعيدٌ؛ لأنَّ مقصود الآية: أنَّا أرَيْناهم النقصانَ في أمورهم، ليعلموا أنَّ تأخير العقاب عنهم ليس عن عجز، إلَّا أن يُحمل قولُ ابن عباس على موت أحبار اليهود والنصارى.

وقال مجاهد أيضاً وقتادة والحسن: هو ما يَغلِبُ عليه المسلمون ممَّا في أيدي المشركين. ورُوي ذلك عن ابن عباس(٣). وعنه أيضاً: هو خرابُ الأرض حتى يكون العمران في ناحية منها(٤). وعن مجاهد: نُقصانها: خَرابُها وموتُ أهلها(٥).

وذكر وكيع بن الجَرَّاح، عن طلحةَ بنِ عمرو(٦)، عن عطاء بن أبي رباح في قول الله تعالى: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: ذهابُ فقهائها وخِيارِ أهلها(٧).

---

(١) أخرجه عن ابن عباس الطبري ١٣/ ٥٧٩ ، والحاكم ٢/ ٣٥٠ من طريق طلحة بن عمرو عن عطاء عن ابن عباس، وطلحة بن عمرو، قال عنه الحافظ في التقريب: متروك. وسيأتي تخريجه عن مجاهد.

(٢) وذكر هذا المعنى الأزهري في تهذيب اللغة ١٣/ ٣٢٠ .

(٣) أخرجه عن ابن عباس والحسن الطبري ١٣/ ٥٧٤ - ٥٧٥ ، وذكره عن قتادة الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١١٩ ، ولفظ خبر ابن عباس عن الطبري: أوَ لم يروا أنَّا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥ ، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦ .

(٥) جامع بيان العلم (١٠٣٣)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٦ - ٥٧٧ ، وهو في تفسير مجاهد ١/ ٣٣٠ .

(٦) في (ظ): عمر، وفي باقي النسخ: عمير، والمثبت هو الصواب.

(٧) أخرجه ابن عبد البر في جامع بيان العلم (١٠٣٠)، وقد سلف من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس.

قال أبو عمر بنُ عبد البَرّ[١]: قولُ عطاءٍ في تأويل الآية حسنٌ جدًّا، تلقَّاه أهل العلم بالقَبول.

قلت: وحكاه المهدويُّ عن مجاهد وابن عمر، وهذا نصُّ القول الأوَّل نفسِه[٢]؛ روى سفيان، عن منصور، عن مجاهد: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَاۚ﴾ قال: الموت[٣]؛ موتُ الفقهاء والعلماء[٤]. ومعروفٌ في اللغة أنَّ الطَّرَف: الكريمُ من كلِّ شيء[٥]، وهذا خلافُ ما ارتضاه أبو نصرٍ عبدُ الرحيم بنُ عبد الكريم من قول ابن عباس.

وقال عكرمةُ والشَّعبيُّ: هو النقصان وقبضُ الأنفس؛ قال أحدهما: ولو كانت الأرض تَنْقُص لضاق عليك حَشُّك. وقال الآخر: لضاق عليك حَشٌّ تتبرَّزُ فيه[٦].

قيل: المراد به هلاكُ مَن هَلَكَ من الأمم قبل قريش، وهلاكُ أرضِهم بعدهم، والمعنى: أو لم تر قريشٌ هلاكَ مَن قَبْلَهم، وخرابَ أرضهم بعدهم؟! أفلا يخافون أن يَحُلَّ بهم مثلُ ذلك. ورُوِيَ ذلك أيضاً عن ابن عباس ومجاهد وابن جُرَيج.

وعن ابن عباس أيضاً: أنه نقصُ بركات الأرض وثمارِها وأهلِها[٧].

وقيل: نَقْصُها بِجَوْر وُلَاتها[٨].

قلت: وهذا صحيحٌ معنًى، فإن الجَوْر والظُّلم يُخَرِّب البلاد بقتل أهلها

---

(١) في جامع بيان العلم إثر الخبر (١٠٣٤).

(٢) في (ظ): وهذا هو القول الأول بعينه.

(٣) قوله: الموت، من (ظ) وهو الموافق لما في المصادر على ما يأتي.

(٤) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٥، وأخرجه عبد الرزاق ١/ ٣٣٩، وأخرجه من طريق آخر بنحوه الطبري ١٣/ ٥٧٩.

(٥) ذكر النحاس في إعراب القرآن ٢/ ٣٦٠ هذا المعنى عن عبد الله بن عبد العزيز.

(٦) جامع بيان العلم (١٠٣٢)، وأخرج قول الشعبيِّ الطبريُّ ١٣/ ٥٧٧ من طريق طلحة القنَّاد عمن سمع الشعبي. وأخرج الطبري ١٣/ ٥٧٨ أيضاً قول عكرمة بنحوه. والحَش: الكنيف. معجم متن اللغة (حش).

(٧) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٧٧.

(٨) النكت والعيون ٣/ ١١٩.

وانجلائهم[١] عنها، وتُرفع من الأرض البركة، والله أعلم.

قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ يَحۡكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكۡمِهِۦ﴾ أي: ليس يَتعقَّب حكمَه أحدٌ بنقضٍ[٢] ولا تغيير. ﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلۡحِسَابِ﴾ أي: الانتقام من الكافرين، سريعُ الثواب للمؤمن. وقيل: لا يحتاج في حسابه إلى رَوِيَّةِ قلبٍ، ولا عَقْدِ بَنَان؛ حَسْبَ ما تقدَّم في «البقرة» بيانُه[٣].

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ وَسَيَعۡلَمُ ٱلۡكُفَّٰرُ لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسۡتَ مُرۡسَلٗاۚ قُلۡ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡ وَمَنۡ عِندَهُۥ عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

قوله تعالى: ﴿وَقَدۡ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ﴾ أي: مِن قَبْل مشركي مكة، مَكَروا بالرسل وكادوا لهم وكفروا بهم. ﴿فَلِلَّهِ ٱلۡمَكۡرُ جَمِيعٗاۖ﴾ أي: هو مخلوقٌ له مكرُ الماكرين، فلا يضرُّ إلا بإذنه[٤]. وقيل: فلله خيرُ المكر، أي: يجازيهم به[٥]. ﴿يَعۡلَمُ مَا تَكۡسِبُ كُلُّ نَفۡسٖۗ﴾ من خير وشر، فيجازي عليه.

﴿وَسَيَعْلَمُ الْكَافِرُ﴾ كذا قراءةُ نافعٍ وابنِ كثير وأبي عمرو. والباقون: ﴿ٱلۡكُفَّٰرُ﴾ على الجمع[٦]. وقيل: عني به أبو جهل[٧]. ﴿لِمَنۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبةُ دار الدنيا ثواباً وعقاباً، أو[٨] لِمن الثوابُ والعقاب في الدَّار الآخرة، وهذا تهديد ووعيد.

---

(١) في (ظ): وجلائهم.

(٢) في النسخ عدا (ظ): بنقص، والمثبت من(ظ) ومعاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٦ والكلام منه.

(٣) ٣/ ٣٥٩ - ٣٦١.

(٤) الوجيز للواحدي (على هامش مراح لبيد) ١/ ٣٣٤، وزاد المسير ٤/ ٣٤١.

(٥) ذكر الرازي ١٩/ ٦٨ هذا القول بلفظ: فلله جزاء المكر، وذلك لأنهم لما مكروا بالمؤمنين بيَّن تعالى أنه يجازيهم على مكرهم. ووقع في (ظ): خير الماكرين.

(٦) السبعة ص٣٥٩، والتيسير ص١٣٤.

(٧) في (ظ): أبا جهل، وذكر الواحدي في الوسيط ٣/ ٢١ هذا القول عن ابن عباس.

(٨) في (د): و، وفي (ظ): أي.

قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ﴾ قال قَتَادة: هم مشركو العرب[1]، أي: لستَ بنبيٍّ ولا رسول، وإنما أنت متقوِّلٌ، أي: لمَّا لم يأتهم بما اقترحوا؛ قالوا ذلك. ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: قل لهم يا محمد: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ أي: كفى اللهُ ﴿شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ بصِدْقي وكَذِبكم.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ وهذا احتجاجٌ على مشركي العرب؛ لأنهم كانوا يَرجعون إلى أهل الكتاب ـ مَن آمَنَ منهم ـ في التفاسير. وقيل: كانت شهادتهم قاطعةً لقول الخصوم، وهم مؤمنو أهلِ الكتاب؛ كعبد الله بن سَلَام، وسَلْمانَ الفارسيِّ، وتميمٍ الداريِّ، والنجاشيِّ وأصحابه؛ قاله قَتَادة وسعيد بن جُبَيْر[2].

وروى الترمذيُّ عن ابن أخي عبدِ الله بن سَلَام قال: لمَّا أُريد[3] عثمانُ، جاء عبد الله بنُ سَلَام، فقال له عثمان: ما جاء بك؟ قال: جئت في نُصرتك. قال: اخرج إلى الناس فاطْرُدهم عني، فإنك خارجٌ خيرٌ لي منك[4] داخل. فخرج عبد الله بنُ سَلَام إلى الناس فقال: أيُّها الناس، إنه كان اسمي في الجاهلية فلان[5]، فسمَّاني رسول الله ﷺ عبدَ الله، ونزلت فيَّ آيات من كتاب الله؛ نزلت فيَّ: ﴿وَشَهِدَ شَاهِدٌ مِّنۢ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ عَلَىٰ مِثْلِهِۦ فَـَٔامَنَ وَٱسْتَكْبَرْتُمْۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾ [الأحقاف: ١٠]، ونزلت فيَّ: ﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ الحديث[6].

---

(١) أخرجه الطبري ١٣/ ٥٨٣ .

(٢) أخرجه عن قتادة عبد الرزاق ١/ ٣٣٩ ، والطبري ١٣/ ٥٨٣ - ٥٨٤ . أما سعيد بن جبير فقد روي عنه عكس هذا القول على ما يأتي.

(٣) بعدها في (م): قتل.

(٤) في النسخ: من، والمثبت من سنن الترمذي.

(٥) في (ف): سفيان، وفي (ظ): فلانا، والمثبت من باقي النسخ وسنن الترمذي. قال المباركفوري في تحفة الأحوذي ٩/ ١٣٨ : الظاهر أن يكون فلاناً...، وأمَّا الرفع فعَلى أنَّ في «كان» ضمير الشأن، و«اسمي» مبتدأ، وفلان خبره، والجملة خبر كان.

(٦) سنن الترمذي (٣٢٥٦). وابن أخي عبد الله بن سلام مجهول كما قال الحافظ في التقريب.

وقد كتبناه بكماله في كتاب «التذكرة»[١]. وقال فيه أبو عيسى: هذا حديثٌ حسن غريب.

وكان اسمه في الجاهلية حُصَين، فسمَّاه النبيُّ ﷺ عبدَ الله[٢].

وقال أبو بِشْر: قلت لسعيد بن جُبَيْر: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ هو عبد الله بن سَلَام؟ قال: وكيف يكون[٣] عبدَ الله بنَ سَلَام وهذه السورة مكية، وابنُ سَلَام ما أسلم إلا بالمدينة؟! ذكره الثعلبي.

وقال القُشَيريُّ: وقال ابن جُبَير: السورة مكِّيةٌ، وابن سَلَام أسلم بالمدينة بعد هذه السورة، فلا يجوز أن تُحمل هذه الآية على ابن سَلَام، فمَن عنده علم الكتاب جبريلُ، وهو قول ابن عباس[٤].

وقال الحسن ومجاهد والضَّحَّاك: هو الله تعالى، وكانوا يقرؤون: «ومِن عِنْدِهِ عِلْمُ الكتاب»، ويُنكِرون على مَن يقول: هو عبد الله بنُ سَلَام وسَلْمانُ؛ لأنهم يَرَوْن أنَّ السورة مكيةٌ، وهؤلاء أسلموا بالمدينة[٥].

ورُوي عن النبيِّ ﷺ أنه قرأ: «ومِن عِندِه عِلم الكِتابِ»، وإن كان في الرواية ضعفٌ، وروى ذلك سليمان بنُ أرْقَم، عن الزهري، عن سالم، عن أبيه، عن النبيِّ ﷺ[٦].

---

(١) ص٥٣٤.

(٢) الاستيعاب (على هامش الإصابة) ٦/٢٢٨.

(٣) في النسخ: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ قال: هو عبد الله بن سلام قلت: وكيف يكون... وهو خطأ، والمثبت من مصادر التخريج، فقد أخرجه سعيد بن منصور (١١٧٧ - تفسير)، والطبري ١٣/٥٨٦، والنحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٩. وأبو بشر هو جعفر بن إياس.

(٤) قول سعيد بن جبير أنَّ مَن عنده عِلْمُ الكتاب هو جبريل، ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/١١٩، وأخرج النحاس في الناسخ والمنسوخ ٢/٤٧٨ عن ابن عباس قال: سورة الرعد نزلت بمكة، فهي مكية.

(٥) النكت والعيون ٣/١١٩، وذكر القراءة عنهم ابن جني في المحتسب ١/٣٥٨.

(٦) معاني القرآن للنحاس ٣/٥٠٨، وأخرجه أبو يعلى (٥٥٧٤) بهذا الإسناد، وسليمان بن أرقم ضعيف =

وروى محبوبٌ، عن إسماعيلَ بنِ محمدٍ اليمانيِّ أنه قرأ كذلك: «ومِن عِندِهِ» بكسر الميم والعين والدال «عُلِمَ الكتابُ» بضمِّ العين ورَفْعِ الكتاب[١].

قال عبد الله بن عطاء: قلت لأبي جعفر بن عليِّ بن الحسين بن عليِّ بن أبي طالب ﷺ: زعموا أن الذي عنده علم الكتاب عبدُ الله بنُ سَلَام، فقال: إنما ذلك عليُّ بن أبي طالب ﷺ[٢]، وكذلك قال محمد ابن الحنفية. وقيل: جميعُ المؤمنين، والله أعلم.

قال القاضي أبو بكر بنُ العربي[٣]: أمَّا مَن قال: إنه عليٌّ، فَعوَّل على أحد وجهين: إمَّا لأنه عنده أعلمُ المؤمنين، وليس كذلك، بل أبو بكر وعمرُ وعثمانُ أعلمُ منه. أو لقول[٤] النبيِّ ﷺ: «أنا مدينةُ العلم وعليٌّ بابُها»، وهو حديثٌ باطل[٥]؛ النبيُّ ﷺ مدينةُ عِلم، وأصحابُه أبوابُها؛ فمنهم الباب المنفسِح، ومنهم المتوسط، على قَدْر منازلهم في العلوم.

وأمَّا مَن قال: إنهم جميع المؤمنين، فصَدَق؛ لأنَّ كلَّ مؤمنٍ يَعْلَم الكتاب ويُدرِك وجه إعجازه يشهد[٦] للنبيِّ ﷺ بصدقه.

= كما ذكر الحافظ في التقريب. وأخرجه الطبري ٣/ ٥٨٦ - ٥٨٧ من طريق هارون الأعور عن الزهري به، قال الطبري: هذا خبر ليس له أصل عند الثقات من أصحاب الزهري. وذكر هذه القراءة ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ ، وابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٨ ، كما سلف.

(١) معاني القرآن للنحاس ٣/ ٥٠٩ ، وهي في القراءات الشاذة ص٦٧ ، والمحتسب ١/ ٣٥٨ عن علي بن محمد وابن السميفع.

(٢) ذكر قول أبي جعفر الطبرسي في مجمع البيان ١٣/ ١٩٣ ، وذكره ابن العربي في أحكام القرآن ٣/ ١١٠١ دون نسبة.

(٣) في أحكام القرآن ٣/ ١١٠٢ . والقول الأخير وما سيأتي بين حاصرتين منه.

(٤) في النسخ عدا (ظ): ولقول، والمثبت من (ظ) وأحكام القرآن.

(٥) وقال الحاكم ٣/ ١٢٦ بعد أن أخرجه من حديث ابن عباس: هذا حديث صحيح الإسناد. فتعقبه الذهبي بقوله: بل موضوع. وقال أيضاً ٣/ ١٢٧ : العجب من الحاكم وجرأته في تصحيحه هذا وأمثاله من البواطيل. وقال ابن الجوزي في الموضوعات ٢/ ٤٥٦ بعد أن ذكر طرقه: والحديث لا أصل له.

(٦) في النسخ: ويشهد، والمثبت من أحكام القرآن.

قلت: فالكتاب على هذا هو القرآن.

وأمَّا مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام، فَعوَّل على حديث الترمذيِّ، وليس يمتنع أن تنزل في عبد الله بن سَلَام سبباً وتتناولَ[1] جميعَ المؤمنين لفظاً، ويعضُدُه من النِّظام أنَّ قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ يعني [به] قريشاً، فالذين عندهم علمُ الكتاب هم المؤمنون من اليهود والنصارى، الذين هم إلى معرفة النبوَّة والكتاب أقربُ من عبدة الأوثان.

قال النحاس[2]: وقول مَن قال: هو عبد الله بن سَلَام وغيرُه، يُحتمَل أيضاً؛ لأن البراهين إذا صحَّت وعرَفها مَن قرأ الكتب التي أُنزِلت قبل القرآن؛ كان أمراً مؤكَّداً، والله أعلم بحقيقة ذلك.

تمَّ تفسير سورة الرعد، والحمد لله.

---

(١) في النسخ عدا (ظ): أن ينزل في عبد الله بن سلام شيئاً ويتناول، وفي (ظ): أن ينزل شيء في عبد الله ابن سلام ويتناول، والمثبت من أحكام القرآن.

(٢) في معاني القرآن ٣/ ٥٠٩ .

سُورَةُ الرَّعْدِ

مَدَنيَّةٌ، وقيل: مَكِّيَّةٌ إلَّا قولَه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ...﴾ الآية[1]

وآيُها خَمْسٌ وأَرْبعونَ[2]

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

(١) - ﴿الٓمٓر﴾ قيل: معناه: أنا اللهُ أعلَمُ وأَرى[3].

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ يعني بالكتاب: السُّورَةَ، و﴿تِلْكَ﴾ إشارةٌ إلى آياتِها؛ أي: تلكَ الآياتُ آياتُ السُّورَةِ الكامِلَةِ. أو: القُرآنَ[4].

---

(١) ذكره ابن الجوزي في «زاد المسير» (٢/ ٤٧٩) من رواية أبي صالح عن ابن عباس مع استثناء آية أخرى وهي قوله تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ﴾. وذكر الداني في «البيان في عد آي القرآن» (ص: ١٦٩) عن ابن عباس وعطاء ومجاهد وسعيد بن جبير أنها مكية ولم يستثن. وهكذا رواه النحاس في «الناسخ والمنسوخ» (ص: ٥٣٥) عن ابن عباس وسعيد بن جبير.

(٢) انظر: «البيان في عد آي القرآن» للداني (ص: ١٦٩)، وفيه: «وهي أربعون وثلاث آيات في الكوفي وأربع في المدنيين والمكي وخمس بَصري وسبع شامي، اختلافها خمس آيات..».

(٣) رواه الداني في «المكتفى في الوقف والابتدا» (٦٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما، وذكره عنه السمرقندي في «تفسيره» (٢/ ٢١٥)، والثعلبي في «تفسيره» (٥/ ٢٦٧)، والواحدي في «البسيط» (١٢/ ٢٧٩). وروى الطبري في «تفسيره» (١/ ٢٠٧) عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: ﴿الٓر﴾: أنا الله أعلم.

(٤) قوله: «أو القرآنَ» بالنصب عطف على (السورةَ) في قوله: «يعني بالكتاب: السورةَ»؛ فالمعنى آيات هذهِ السُّورة آيات القرآن.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ هـو القـرآنُ كلُّـهُ، ومحلُّـهُ الجَـرُّ بالعطـفِ علـى ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾ عَطْـفَ العـامِّ علـى الخـاصِّ، أو إِحْـدَى الصِّفَتيـنِ على الأخـرى[١]، أو الرَّفـعُ بالابتداءِ وخبـرُه: ﴿ٱلْحَقُّ﴾.

والجملَةُ كالحُجَّةِ على الجُمْلَةِ الأُولى، وتَعريفُ الخبرِ وإنْ دلَّ على اختصاصِ المنزلِ بكونهِ حقًّا فهو أعَمُّ مِن المنزلِ صَرِيحًا أو ضِمْنًا، كالمثبَتِ بالقِياسِ وغيرِه ممَّا نطقَ المنزَلُ بحُسنِ اتِّباعِه.

﴿وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ لإخلالِهم بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه.

(٢) ـ ﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾ مبتدأٌ وخَبرٌ، ويجوزُ أَنْ يكونَ الموصولُ صِفَةً والخبرُ: ﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾: أساطينَ، جمعُ عِمادٍ، كإِهَابٍ وأَهَبٍ، أو عَمُودٍ، كأَدِيمٍ وأَدَم[٢].

وقُرِئَ (عُمُد) كرُسُلٍ[٣].

﴿تَرَوْنَهَا﴾ صفةٌ لـ﴿عَمَدٍ﴾، أو استئنافٌ للاستشهادِ برُؤْيَتِهم السَّماواتِ كذلك، وهو دَليلٌ على وجودِ الصَّانعِ الحَكيمِ، فإنَّ ارتفاعَهَا على سائرِ الأجسامِ المُساوِيَةِ لها في حقيقةِ الجِرْمِيَّةِ، واختصاصَها بما يَقتَضِي ذلك، لا بدَّ وأَنْ يكونَ بمُخصِّصٍ

---

(١) في نسخة الخيالي: «أو أحد الوصفين على الآخر».

(٢) قوله: «كأَدِيمٍ وأَدَمْ» قال ابن التمجيد: هذا لا يناسب الممثل؛ فإن العمود ليس على صيغة الأديم. وقال القونوي: شبهه بأديم لأن فعولاً كعمود وفعيلاً كأديم يشتركان في الأحكام، ولا يخفى ما فيه من التشويش والاضطراب...إلى آخر ما قال. انظر: «حاشية ابن التمجيد» مع «حاشية القونوي» (١٠/ ٤٤٧).

(٣) انظر: «الكامل في القراءات» للهذلي (ص: ٥٧٧) عن أبي حيوة، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٢٩١) عن يحيى بن وثاب، و«البحر» (١٣/ ١٢) عنهما.

ليسَ بجسمٍ ولا جسمانيٍّ يرجِّح بعضَ المُمكِناتِ على بعضٍ بإرادَتِه، وعلى هذا المنهاجِ سائرُ ما ذُكرَ مِن الآياتِ.

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ بالحفظِ والتَّدبيرِ.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾: ذلَّلهما لِمَا أرادَ مِنهُما، كالحركةِ المُستمرَّةِ على حدٍّ مِن السُّرعةِ ينفعُ في حُدوثِ الكائناتِ وبَقائِها.

﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ لِمُدَّةٍ مُعيَّنَةٍ يُتِمُّ فيها أدوارَهُ، أو لغايةٍ مضروبةٍ ينقطِعُ دونَها سَيْرُه، وهي ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٢].

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾: أمرَ مَلَكوتِه مِن الإيجادِ والإعدامِ والإحياءِ والإماتَةِ وغيرِ ذلك.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ﴾: يُنزِّلُها ويُبيِّنُها مُفصَّلَةً، أو: يحدِثُ الدَّلائلَ واحدًا بعدَ واحدٍ.

﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ لكي تَتفكَّرُوا فيها وتَتحقَّقُوا كمالَ قُدرَتِه، فتعلَمُوا أنَّ مَن قَدَرَ على خلقِ هذه الأشياءِ وتدبيرِها قَدَرَ على الإعادةِ والجزاءِ.

(٣) ـ ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾: بسَطَها طولًا وعرضًا لتثبُتَ عليها الأقدامُ ويَنقَلِبَ عليها الحيوانُ.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾: جبالًا ثوابتَ، مِن رَسَا الشَّيءُ: إذا ثَبتَ، جمع راسِيَةٍ، والتَّاءُ للتَّأنيثِ على أنَّها صِفةُ أَجْبُلٍ، أو للمُبالغةِ.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ ضمَّها إلى الجبالِ وعلَّقَ بهما فعلًا واحدًا من حيثُ إنَّ الجبالَ أسبابٌ لتولُّدِها.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ مُتعلِّقٌ بقولِه: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾؛ أي: وجعلَ فيها مِن جميعِ أنواعِ الثَّمراتِ صنفينِ اثنينِ كالحلوِ والحامضِ، والأسودِ والأبيضِ، والصَّغيرِ والكبيرِ.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾: يُلْبِسُهُ مكانَهُ فيصيرُ الجوُّ مُظلِمًا بعدَما كانَ مضيئًا.

وقرَأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بكرٍ: ﴿يُغَشِّي﴾ بالتَّشديدِ[١].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فيها، فإنَّ تكوُّنَها وتخصيصَها[٢] بوجهٍ دونَ وَجهٍ دليلٌ على وجودِ صانعٍ حَكيمٍ دبَّرَ أمرَها وهيَّأَ أسبابَها[٣].

(٤) - ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ بعضُها طَيِّبَةٌ وبعضُها سَبْخَةٌ، وبعضُها رِخْوَةٌ وبعضُها صُلبَةٌ، وبعضُها يَصلُحُ للزرعِ دونَ الشَّجرِ وبعضُها بالعَكسِ، ولولا تَخصيصُ قادرٍ مُوقعٍ لأفعالِه على وَجهٍ دونَ وجهٍ لم تَكُن كذلكَ؛ لاشتراكِ تلك القِطَعِ في الطَّبيعةِ الأرضيَّةِ وما يلزَمُها ويَعرِضُ لها بتوسُّطِ ما يَعْرِضُ مِن الأَسبابِ السَّماويَّةِ مِن حيثُ إنَّها مُتضامَّةٌ متشاركةٌ في النِّسَبِ والأَوضاعِ.

﴿وَجَنَّاتٌ مِنْ أَعْنَابٍ وزرعٍ ونخيلٍ﴾: وبَساتينُ فيها أنواعُ الأَشجارِ والزُّروعِ، وتَوحيدُ الزَّرعِ لأنَّه مَصدَرٌ في أصلِه.

وقرأَ ابنُ كثيرٌ وأبو عمرٍو ويَعقوبُ وحَفصٌ: ﴿وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ﴾ بالرَّفع[٤] عطفًا على ﴿وَجَنَّاتٌ﴾.

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣٠).

(٢) في نسخة التفتازاني: «وتخصصها».

(٣) قال الفخر الرازي: إنَّه تعالى في غالبِ الأمرِ يذكرُ الدَّلائلَ المَوجودةَ في العالمِ السُّفليِّ ويجعلُ مَقطعَها ﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾، أو ما يقربُ منه. والسَّببُ فيه أنَّ الفلاسفةَ يُسنِدونَ حوادِثَ العالمِ السُّفليِّ إلى الاختلافاتِ الواقعةِ في الأشكالِ الكوكبيَّةِ، فأرادَ اللهُ ردَّ ذلك فقال: ﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ يعني: مَن أمعَنَ الفِكرَ عَلِمَ أنَّه لا يجوزُ أن يكونَ حدوثُ الحوادثِ لأجلِ الاتِّصالاتِ الفلكيَّةِ، ومن ثم عقَّبَ هذا الإرشادَ بقولِه: ﴿وَفِي الْأَرْضِ قِطَعٌ مُتَجَاوِرَاتٌ﴾ الآية.

ثم قال: ومَن تأمَّلَ في هذه اللَّطائفِ ووقفَ على دقائقِها عَلِمَ أنَّ هذا الكتابَ الكريمَ اشتملَ على علومِ الأوَّلينَ والآخرينَ. انظر: «تفسير الرازي» (١٩/ ٧-٨).

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١)، و«النشر» (٢/ ٢٩٧).

﴿صِنْوَانٌ﴾: نخلاتٌ أصلُها واحدٌ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: ومُتفرِّقاتٌ مختلفةُ الأُصولِ، وقرأ حَفصٌ بالضمِّ[1]، وهو لغةُ تميمٍ كقُنْوانٍ في جمعِ قِنْوٍ.

﴿تُسْقَى بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾: في الثَّمرِ شَكلًا وقَدْرًا ورائحةً وطَعْمًا، وذلك أيضًا ممَّا يدلُّ على الصَّانعِ الحَكيمِ، فإن اختلافَها مع اتِّحادِ الأُصولِ والأَسبابِ لا يكونُ إلا بتَخصيصِ قادرٍ مُختارٍ.

وقرأ ابنُ عامرٍ وعاصِمٌ ويَعقوبُ: ﴿يُسْقَى﴾ بالتَّذكيرِ[2] على تأويلِ ما ذكرَ.

وحمزةُ والكِسائيُّ: ﴿يُفَضِّلُ﴾ بالياءِ ليطابقَ قولَه: ﴿يُدَبِّرُ الْأَمْرَ﴾.

﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾ يَستعملونَ عُقولَهُم بالتَّفكُّرِ.

(٥) ـ ﴿وَإِنْ تَعْجَبْ﴾ يا محمَّدُ مِن إنكارِهِم البعثَ ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ حقيقٌ بأن يُتعجَّبَ منه، فإنَّ مَن قدَرَ على إنشاءِ ما قُصَّ عليك كانت الإعادَةُ أيسرَ شيءٍ عليه، والآياتُ المَعدودَةُ كمَا هيَ دالَّةٌ على وُجودِ المبدأ فهيَ دالَّةٌ على إمكانِ الإعادَةِ مِن حيثُ إنَّها تدلُّ على كمالِ قُدرَتِه وقَبولِ الموادِّ لأنواعِ تَصرُّفاتِه.

﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿قَوْلُهُمْ﴾[3]، أو مَفعولٌ له والعامِلُ في (إذا) محذوفٌ دلَّ عليه ﴿أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾.

﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ لأنَّهُم كفرُوا بقدرتِهِ على البَعثِ.

---

(١) أي بضم الصاد من (صنوان)، وهي قراءة شاذة، ونسبت أيضاً لأبي عبد الرحمن السلمي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥١).

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٦)، و«التيسير» (ص: ١٣١).

(٣) قال أبو حيَّان في «البحر» (١٤/ ٢٨): هذا إعرابٌ متكلَّفٌ وعدولٌ عن الظَّاهرِ، والظاهرُ أنَّ ﴿أَإِذَا﴾ مَعمولٌ لـ﴿قَوْلُهُمْ﴾ مُحلًّى به.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡ﴾ مُقيَّدونَ بالضَّلالِ[1] لا يُرْجَى خَلاصُهُم، أو: يُغَلُّونَ يومَ القيامَةِ.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ﴾ لا يُنقلونَ عنها. وتوسيطُ الفَصلِ لتَخصيصِ الخُلودِ بالكُفَّارِ.

(٦) ـ ﴿وَيَسۡتَعۡجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبۡلَ ٱلۡحَسَنَةِ﴾: بالعُقوبَةِ قبلَ العافيَةِ، وذلك أنَّهم استَعجَلُوا بما هُدِّدُوا بهِ مِن عذابِ الدُّنيا استهزاءً.

﴿وَقَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلِهِمُ ٱلۡمَثُلَٰتُۗ﴾: عقوباتُ أمثالِهم مِن المُكذِّبينَ، فما لَهُم لَم يَعتَبِرُوا بها ولم يُجَوِّزُوا حلولَ مِثلِهَا عَلَيهِم؟ و(المثلَةُ) بضمِّ الثَّاءِ وفَتحِهَا ـ كالصَّدُقَةِ والصَّدَقَةِ ـ العُقوبَةُ؛ لأنَّها مِثْلُ المعاقَبِ عليه، ومنه: المِثالُ للقِصاصِ، وأَمْثَلْتُ الرَّجُلَ مِن صاحبِهِ: إذا اقتصَصْتَهُ منه.

وقُرِئَ: (المَثْلات) بالتَّخفيفِ، و: (المُثُلات) بإتباعِ الفاءِ العينَ، و: (المُثْلات) بالتخفيفِ بعدَ الإتباعِ[2]، و(المُثَلات) بفتحِ الثَّاءِ[3] على أنَّها جمعُ مُثْلة كرُكْبَة ورُكَبَاتٍ.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغۡفِرَةٖ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلۡمِهِمۡۖ﴾: مع ظُلْمِهم أنفسَهُم، ومحلُّهُ النَّصبُ على الحَالِ، والعامِلُ فيه المَغفِرَةُ[4]، والتَّقييدُ بِهِ دَليلُ جَوازِ العَفْوِ قبلَ التَّوبَةِ، فإنَّ التَّائبَ ليسَ على ظُلمِه، ومَن مَنعَ ذلك خَصَّ الظُّلمَ بالصَّغائرِ المُكفَّرَةِ لِمُجتنبِ الكَبائرِ، أو أوَّلَ المَغفِرَةَ بالسَّترِ والإِمْهالِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «بالضلالة».

(٢) انظر هذه القراءات مع من قرأ بها في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٠)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٣).

(٣) انظر: «الكشاف» (٤/ ٣٧٣) دون نسبة وعنه نقل المصنف جميع هذه القراءات.

(٤) أي: الجارُّ والمجرورُ حالٌ مِن النَّاسِ، والعامل فيها هو العامل في صاحبِهِ، وهوَ المغفرَة.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ للكُفَّارِ، أَوْ لِمَن شاءَ.

وعن النبيِّ ﷺ: «لولا عَفْوُ اللهِ وتَجاوزُهُ ما هنأَ أحدًا العَيشُ، ولولا وَعيدُه وعِقابُه لاتَّكلَ كلُّ أحدٍ»[1].

(٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ لعدمِ اعتدادِهِم بالآياتِ المنزلةِ عليه، واقتراحًا لنحوِ ما أُوتِيَ مُوسى وعِيسى.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾: مُرسَلٌ للإنذارِ كغَيرِكَ مِن الرُّسلِ، وما عليك إلا الإتيانُ بما تَصِحُّ به نبوَّتُكَ مِن جنسِ المُعجِزاتِ لا بما يُقترَحُ عليك.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ نبيٌّ مَخصوصٌ بمُعجِزاتٍ مِن جنسِ ما هوَ الغالِبُ علَيْهِم يَهديهِمْ إلى الحقِّ ويَدعوهُمْ إلى الصَّوابِ، أو: قادرٌ على هِدايَتِهِم وهوَ اللهُ تعالى، لكنْ لا يَهدي إلَّا مَن يَشاءُ هِدايَتَهُ بما ينزلُ مِن الآياتِ. ثمَّ أردفَ ذلك بما يَدُلُّ على كمالِ عِلْمِه وقُدرَتِه وشُمولِ قَضائِه وقَدَرِه تنبيهًا على أنَّه تعالى قادِرٌ على إنزالِ ما اقترَحُوه، وإنَّما لم يُنزِلْ لعلمِه بأنَّ اقتراحَهُم للعنادِ دون الاسترشادِ، وأنه قادِرٌ على هِدايَتِهِم، وإنَّما لم يَهدِهِم لسَبقِ قَضائِه عليهم بالكُفرِ فقال:

(٨) ـ ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾؛ أي: حَمْلَها، أو: ما تحمِلُه أنَّه على أيِّ حالٍ مِن الأحوالِ الحاضرَةِ والمُترقَّبَةِ ﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: وما تنقصُهُ وما تزدادُه في الجُثَّةِ والمدَّةِ والعَدَدِ.

وأقصى مُدَّةِ الحملِ أربعُ سنينَ عِندَنا، وخمسٌ عندَ مالكٍ، وسَنتانِ عندَ أبي حنيفةَ.

---

(١) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٤٥)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢١٧ ـ ٢١٨)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٦) عن سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ مرسلاً.

رُوِيَ أن الضَّحَّاكَ ولدَ لسَنَتينِ[١]، وهَرِمَ بنَ حيَّانَ لأربعِ سنينَ[٢]، وأعلى عددِه لا حدَّ له.

وقيل: نهايَةُ ما عُرفَ أربعَةٌ، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ، وقال الشَّافعي: أخبرَني شيخٌ باليَمَنِ: أنَّ امرأتَهُ ولدَت بطونًا في كلِّ بطنٍ خمسَةٌ.

وقيل: المرادُ: نقصانُ دَمِ الحيضِ وازدِيادُهُ.

و(غاضَ) جاءَ مُتعدِّيًا ولازمًا، وكذا (ازدادَ)، قال تعالى: ﴿وَٱزْدَادُواْ تِسْعًا﴾ [الكهف: ٢٥]، فإنْ جَعَلْتَهُما لازِمَيْنِ تعيَّنَ ﴿مَا﴾ أن تكونَ مَصدَرِيَّةً[٣]، وإسنادُهُما إلى الأرحامِ على المجازِ، فإنَّهُما للهِ أو لِمَا فيها.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾: بقَدَرٍ لا يُجاوِزُهُ ولا ينقصُ عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾، فإنَّه تَعالى خصَّ كلَّ حادثٍ بوَقتٍ وحالٍ مُعيَّنينِ، وهيَّأَ له أَسبابًا مَسُوقةً إليه تَقتَضي ذلك.

وقرأ ابنُ كثير: ﴿هَادٍ﴾ [الرعد: ٧]، و﴿وَالٍ﴾ [الرعد: ١١]، و﴿وَاقٍ﴾ [الرعد: ٣٤]، ﴿وَمَا عِندَ ٱللَّهِ بَاقٍ﴾ [النحل: ٩٦] بالتنوينِ في الوصلِ، فإذا وقفَ وقفَ بالياءِ في هذه الأحرف الأربعةِ حيثُ وقعت لا غيرُ، والباقون يَصِلُونَ بالتنوينِ ويقِفُونَ بغيرِ ياءٍ[٤].

(٩) ـ ﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾: الغائبِ عَن الحسِّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾: الحاضرِ له.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾: العَظيمُ الشَّأنِ الذي لا يَخرجُ عَن علمِه شيءٌ.

---

(١) رواه ابن سعد في «الطبقات الكبرى» (٦/ ٣٠٠) عن الضحاك.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٢٩) عن حماد بن سلمة.

(٣) كذا في جميع النسخ، قال الخفاجي: وفي نسخةٍ: (تعين أن تكونَ «ما» مصدريَّة)، وهي أحسن.

(٤) انظر: «السبعة» (ص: ٣٦٠)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

﴿ٱلۡمُتَعَالِ﴾: المُستَعلي على كلِّ شَيءٍ بقُدرَتِه، أو الذي كبرَ عَن نَعتِ المَخلوقينَ وتعالى عنه.

(١٠) ـ ﴿سَوَآءٞ مِّنكُم مَّنۡ أَسَرَّ ٱلۡقَوۡلَ﴾ في نفسِه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ لغيرِه.

﴿وَمَنۡ هُوَ مُسۡتَخۡفِۭ بِٱلَّيۡلِ﴾: طالبٌ للخَفاءِ في مُختبَأٍ بالليلِ.

﴿وَسَارِبُۢ﴾: بارزٌ ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ يراهُ كلُّ أحدٍ، مِن سَرَبَ سُروبًا: إذا برزَ، وهو عطفٌ على ﴿مَنۡ﴾، أو ﴿مُسۡتَخۡفِۭ﴾ على أنَّ ﴿مَنۡ﴾ في مَعنى الاثنين، كقولِه:

نَكُـنْ مِثْـلَ مَن يـا ذِئْـبُ يَصْطَحِبَانِ[١]

كأنَّه قال: سواءٌ مِنكُم اثنانِ: مُستخفٍ بالليلِ وسارِبٌ بالنَّهارِ.

والآيةُ مُتَّصلَةٌ بما قبلَها مُقرِّرَةٌ لكمالِ علمِه وشُمولِه.

(١١) ـ ﴿لَهُۥ﴾: لِمَـن أَسَـرَّ أو جَهَرَ، واستَخْفَى أو سَـرِبَ ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ ملائكةٌ تَعْتَقِـبُ فـي حِفظِـه، جمـعُ مُعَقِّبَـةٍ، مِـن عَقَّـبَ مُبالَغَـةُ عَقَبَـه: إذا جـاءَ علـى عَقِبـه، كأنَّ بعضَهُـم يعقُـبُ بعضًـا، أو لأنَّهُـم يعقِّبـونَ أقوالَهُ وأفعالَـهُ فيكتبونَـه، أو اعتقبَ، فأُدغِمَـت التَّـاءُ في القـافِ[٢].

---

(١) هو للفرزدق من شعر مشهور ذكر فيهِ ذئباً لقيهِ بفلاةٍ فصحبه وأضافه، وأوَّله:

تَعَـشَّ فـإنْ عَاهَدْتَنِـي لا تَخُونُنِـي

انظـر: «ديـوان الفـرزدق» (٢/ ٣٢٩)، و«الكتـاب» لسـيبويه (٢/ ٤١٦)، و«الكامـل» للمبـرد (١/ ٢٨٩).

(٢) تبعَ فيهِ الزمخشريَّ في «الكشاف»، وقد اتَّفقُوا على ردِّهِ بأنَّ التَّاء لا تدغم في القافِ من كلمَة، أو كلمتينِ، وقد قالَ أهل التَّصريف إنَّ القافَ والكاف كلّ منهما لا يدغم في الآخر، ولا يدغمان في غيرِهما. «حاشية الخفاجي». وانظر: «البحر المحيط» لأبي حيان (١٣/ ٤٣).

والتَّاءِ للمُبالغةِ، أو لأنَّ المرادَ بالمُعقِّباتِ: جَماعاتٌ[(١)].

وقُرِئَ: (مَعَاقِيبُ)[(٢)] جمع مُعقِّبٍ أو مُعَقِّبَةٍ على تعويضِ الياءِ مِن إحدى القافَيْنِ.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾: مِن جَوانبِهِ، أو من الأعمالِ ما قَدَّمَ وأَخَّرَ.

﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾: مِن بَأسِهِ مَتى أَذنبَ بالاستمهالِ والاستغفارِ له، أو: يحفظونَهُ مِن المضارِّ، أو: يراقبونَ أحوالَهُ مِن أَجلِ أَمرِ اللهِ، وقد قُرِئَ به[(٣)].

وقيل: ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباءِ.

وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صِفَةٌ ثانيَةٌ لـ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾.

وقيل: المُعقِّبَاتُ: الحَرَسُ والجَلَاوِزَةُ[(٤)] حولَ السُّلطانِ يَحفظونَهُ في تَوهُّمِه مِن قَضاءِ اللهِ.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ مِن العافيَةِ والنِّعمَةِ ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ مِن الأَحوالِ الجَميلَةِ بالأَحوالِ القَبيحَةِ.

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾: فلا ردَّ له، فالعامِلُ في ﴿إذا﴾ ما دلَّ عليهِ الجَوابُ ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾: ممَّنْ يَلِي أَمْرَهُم فيدفعُ عَنْهُم السُّوءَ.

---

(١) قوله: «والتاء»؛ أي: في مفرد ﴿مُعَقِّبَٰتٞ﴾ وهو: مُعقِّبةٌ «للمبالغة»؛ أي: كعلاَّمة ونسَّابة؛ أي: ملَكٌ معقِّبٌ، ثم جُمِعَ هذا الجمعَ كعلَّامات ونسَّابات، أو هي للتأنيث كما ذكره بقوله: «أو لأن المراد...» إلى آخره. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٣٥).

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١) عن زياد بن أبي سفيان، و«المحتسب» (١/ ٣٥٥) عن عبيد الله بن زياد، و«المحرر الوجيز» (٢/ ٥١٧) عن أبي البرهسم.

(٣) أي: (يَحفظونه بأمر الله). نسبت لعليٍّ وابنِ عباس رضي الله عنهم وزيدِ بن عليٍّ وجعفرِ بن محمد وعكرمةَ. انظر: «المحتسب» (١/ ٣٥٥)، و«الكشاف» (٤/ ٣٧٨)، و«البحر» (١٣/ ٤٥).

(٤) الجلاوزة أعوان السلطان، جمع جلواز وهو الشرطي، من الجلوزة، وهي سرعة الذَّهاب والمجيء.

وفيه دليلٌ عَلى أنَّ خِلافَ مرادِ اللهِ مُحالٌ.

(١٢) ـ ﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ مِن أذاه ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغَيثِ، وانتصابُهُما على العِلَّةِ بتقديرِ المُضافِ؛ أي: إرادةَ خوفٍ وطمعٍ، أو التَّأويلِ بالإخافَةِ والإطماعِ، أو الحالِ مِن ﴿ٱلْبَرْقَ﴾، أو المخاطبينَ على إضمارِ: ذوو، أو إطلاقِ المَصدَرِ بمعنى المَفعولِ أو الفَاعلِ للمُبالغَةِ.

وقيل: يخافُ المطرَ مَن يَضرُّهُ، ويَطمَعُ فيه مَن يَنفَعُه.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾: الغيمَ المُنسَحِبَ في الهواءِ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ وهو جمعُ ثَقِيلَةٍ، وإنَّما وصفَ بِهِ السَّحابُ لأنَّه اسمُ جنسٍ في معنى الجَمعِ.

(١٣) ـ ﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾: ويسبِّحُ سامِعوهُ ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ مُلتبسِينَ بِه، فيَضجُّونَ بـ(سُبحانَ اللهِ والحَمدُ للهِ)، أو يدلُّ الرَّعدُ بنفسِهِ على وَحدانيَّةِ اللهِ تَعالى وكمالِ قُدرَتِه مُلتَبِسًا بالدَّلالةِ على فَضلِه ونُزولِ رَحمَتِه.

وعن ابنِ عباسٍ: سُئِلَ النَّبيُّ صلَّى اللهُ عليه عَن الرَّعدِ فقال: «مَلَكٌ موكَّلٌ بالسَّحابِ معَه مَخاريقُ مِن نارٍ يَسوقُ السَّحابَ»(١).

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾: مِن خَوفِ اللهِ وإجلالِه، وقيل: الضَّميرُ لـ﴿ٱلرَّعْدُ﴾.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيُهلِكُه.

﴿وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ﴾ حيثُ يكذِّبونَ رسولَ اللهِ فيما يَصِفُه به مِن كَمالِ العلمِ والقُدرةِ، والتَّفرُّدِ بالألوهيَّةِ، وإعادةِ النَّاسِ ومُجازاتِهم.

---

(١) رواه الترمذي (٣١١٧)، وقال: حسن غريب، والنسائي في «السنن الكبرى» (٩٠٢٤)، والإمام أحمد في «المسند» (٢٤٨٣). والمخاريق جمع مِخراق: آلةٌ تزجرُ بها الملائكةُ السَّحابَ وتَسوقُه. «النهاية» (مادة: خرق).

والجدالُ: التَّشدُّدُ في الخُصومَةِ، مِن الجَدْلِ وهو الفَتلُ.

والـواوُ: إمَّـا لعَطـفِ الجُملَةِ علـى الجُملَـةِ، أو للحَـالِ فإنَّـه رُوِيَ أنَّ عامرَ بنَ الطُّفَيـلِ وأَرْبَـدَ بـنَ رَبيعةَ أخا لَبيـدٍ وَفَدَا على رَسـولِ اللهِ ﷺ قاصدَيـنِ لقَتلِه، فأخذَهُ عامِـرٌ بالمُجادَلـةِ ودارَ أَربَـدُ مِـن خَلفِـهِ ليَضربَـهُ بالسَّـيفِ، فتنبَّـهَ له الرَّسـولُ وقال: «اللهـمَّ اكفِنِيهِمَـا بمَـا شِـئتَ»، فأرسـلَ اللهُ على أَربَـدَ صاعقَـةً فقتَلَتْهُ، ورمـى عامرًا بغُـدَّةٍ فمـاتَ فـي بيـتِ سَـلُولِيَّةٍ، وكانَ يقـول: غُـدَّةٌ كغُـدَّةِ البَعيـرِ ومَـوتٌ فـي بيتِ سَـلُولِيَّةٍ، فنزلَت[١].

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ المُمَاحَلَةُ: المُكايدَةُ لأَعدائِهِ، مِن مَحَل بفلانٍ: إذا كادَهُ وعرَّضَهُ للهَلاكِ، ومِنه تمحَّلَ: إذا تكلَّفَ استِعمالَ الحِيلَةِ. لعلَّ أصلَهُ المَحْلَ بمعنى القَحطِ.

وقيل: فِعَالٌ مِن المَحْلِ بمَعنى القوَّةِ.

وقيل: مِفْعَلٌ مِن الحَوْلِ أو الحِيلَةِ أُعِلَّ على غيرِ قِياسٍ، ويَعضُدُه أنَّه قُرِئَ بفَتحِ الميمِ[٢] على أنَّه مَفعَلٌ مِن حَالَ يَحولُ: إذا احتالَ.

---

(١) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٤١ - ٢٤٤) من طريق محمد بن مروان عن الكلبي عن أبي صالح (وتسمى سلسلة الكذب) عن ابن عباس. ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (١٠٧٦٠)، و«المعجم الأوسط» (٩١٢٧)، من طريق عبد العزيز بن عمرانَ، عن عبد الرحمن وعبد الله ابنَا زيدِ بنِ أسلَمَ، عن أبيهما، عن عطاء بنِ يسارٍ، عن ابن عباس رضي الله عنهما، قال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٤٢): وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران وهو ضعيف.

ورواه الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٤٦٧ - ٤٧٠) عن عبد الرحمن بن زيد أسلم، و(١٣/ ٤٨١) عن ابن جريج. وكلاهما مرسل.

(٢) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٦)، عن الأعرج.

ويجوزُ أن يكونَ بمعنى الفَقَارِ، فيكونُ مَثَلًا في القوَّةِ والقُدرَةِ، كقولهم: «فسَاعِدُ اللهِ أَشَدُّ ومُوسَاهُ أَحَدُّ»(١).

(١٤) - ﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾: الدُّعاءُ الحقُّ، فإنَّه الذي يحقُّ أن يُعبَدَ ويُدعى إلى عبادَتِه دونَ غيرِه.

أو: له الدَّعوَةُ المُجابَةُ، فإنَّ مَن دعاهُ أجابَ، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

و﴿ٱلْحَقِّ﴾ على الوَجهينِ: ما يُناقِضُ الباطِلَ، وإضافَةُ الدَّعوَةِ إليهِ لِمَا بينَهُما مِن المُلابسَةِ، أو عَلى تَأويلِ: دَعوَةُ المَدعوِّ الحقِّ.

وقيل: الحقُّ هو اللهُ، وكلُّ دعاءٍ إليه دَعوَةُ الحَقِّ.

والمرادُ بالجُملتَينِ إنْ كانَت الآيةُ في عامرٍ وأَربَدَ أنَّ إهلاكَهُما مِن حيثُ لَمْ يَشْعُرَا به محالٌ مِن اللهِ وإجابَةٌ لدَعوَةِ رَسولِه، أو دلالةٌ على أنَّه على الحَقِّ، وإن كانَتْ عامَّةً فالمُرادُ وَعيدُ الكَفَرَةِ على مُجادَلَةِ رَسولِ اللهِ ﷺ بحُلولِ محالِه بهم، وتَهديدُهُم بإجابَةِ دعاءِ الرَّسولِ عليهم، أو بيانُ ضَلالِهم وفَسادِ رأيِهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ﴾؛ أي: والأصنامُ الذين يَدْعُوهُم المُشرِكُونَ، فحُذِفَ الرَّاجِعُ، أو: والمُشركونَ الذينَ يَدعونَ الأَصنامَ، فحُذِفَ المَفعولُ لدَلالةِ ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليهِ.

﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ﴾ مِن الطَّلباتِ ﴿إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ﴾: إلا استجابةً كاستِجَابةِ مَن بسطَ كفَّيْهِ ﴿إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾ يطلبُ مِنه أنْ يبلُغَه ﴿وَمَا هُوَ بِبَـٰلِغِهِۦ﴾ لأنَّه جَمادٌ لا يشعرُ بدُعائِه ولا يَقدِرُ على إجابَتِه والإتيانِ بغَيرِ ما جُبِلَ عليه، وكذلك آلهتُهم.

---

(١) قطعة من حديث رواه الإمام أحمد في «المسند» (١٧٢٢٨)، والنسائي في «الكبرى» (١١٠٩٠)، من حديث مالك بن نضلة الجشمي رضي الله عنه مرفوعاً بإسناد صحيح.

وقيل: شُبِّهُوا في قِلَّةِ جَدْوَى دُعائِهِم لها بمَنْ أرادَ أنْ يغرفَ[١] الماءَ ليشربَهُ فبسطَ كفَّيْهِ ليشربَهُ.

وقُرِئَ: (تدعون) بالتَّاءِ، و: (باسطٍ) بالتَّنوينِ[٢].

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَـٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَـٰلٍ﴾: في ضَياعٍ وخَسارٍ وباطلٍ.

(١٥) ـ ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ يحتمِلُ أَنْ يكونَ السُّجودُ على حقيقَتِه، فإنَّه يَسجدُ لهُ المَلائِكَةُ والمؤمنونَ مِن الثَّقلينِ طَوْعًا حالَتَي الشِّدَّةِ والرَّخاءِ، والكفرَةُ كرهًا حالَ الشِّدَّةِ والضَّرورةِ ﴿وَظِلَـٰلُهُم﴾ بالعَرَضِ.

وأَنْ يرادَ بهِ انقِيادُهُم لإحداثِ ما أرادَهُ فيهِمْ شَاؤوا أو كرهُوا، وانقيادُ ظلالِهِم لتَصريفِه إيَّاها بالمدِّ والتَّقليصِ.

وانتصابُ ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ بالحالِ، أو بالمفعولِ له[٣].

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ﴾ ظرفٌ لـ﴿يَسْجُدُ﴾، والمرادُ بهِمَا الدَّوامُ، أو حالٌ مِن الظِّلالِ، وتَخصيصُ الوَقتَيْنِ لأنَّ الظِّلالَ إنَّما تَعظُمُ وتَكثُرُ[٤] فيهما.

والغُـدُوُّ: جَمـعُ غَـداةٍ، كقُنِيٍّ جمـعُ قَنَاةٍ، والآصـالُ: جمعُ أَصيـلٍ، وهو ما بينَ العَصرِ والمَغربِ.

---

(١) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يغترف».

(٢) القراءتان في «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، الأولى عن أبي عمرو في رواية، والثانية عن يحيى بن يعمر.

(٣) في نسخة التفتازاني: «بالحال أو العلة وقوله».

(٤) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «لأن الامتداد والتقلص أظهر فيهما».

وقيل: الغُدُوُّ مصدَرٌ، ويؤيِّدُه أنَّه قُرِئَ: (والإيصالُ)[1]، وهو الدُّخولُ في الأصيلِ.

(١٦) ـ ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾: خالِقُهما ومُتولِّي أَمرِهما ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾: أَجِبْ عَنْهُم بذلك، إِذْ لا جوابَ لَهُم سِواهُ، ولأَنَّه البَيِّنُ الذي لا يمكنُ المِراءُ فيهِ، أو: لَقِّنْهُم الجوابَ به.

﴿قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ﴾ ثمَّ أَلْزِمْهُم بذلك لأنَّ[2] اتِّخاذَهُم مُنكَرٌ بعيدٌ عَن مُقتَضى العَقلِ.

﴿أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا﴾ لا يقدِرونَ أن يَجلِبوا إليها نفعاً أو يدفَعُوا عنها ضرًّا، فكيفَ يَستَطِيعونَ إنفاعَ الغيرِ[3] ودفعَ الضرِّ عَنْه، وهو دَليلٌ ثانٍ على ضَلالِهِم وفَسادِ رَأْيِهِم في اتِّخاذِهِم أولياءَ رجاءَ أَنْ يَشفَعُوا لَهُم.

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ﴾: المشركُ الجاهِلُ بحَقيقَةِ العِبادَةِ والموجِبِ لها، والمُوحِّدُ العالِمُ بذلك.

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، عن عمران بن حدير، و«المحتسب» (١/ ٣٥٦) عن أبي مجلز، واسمه لاحق بن حميد.

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «أنَّ». وكذا وقع في «حاشية الشهاب»، و«حاشية القونوي» (١٠/ ٤٨٣)، و«حاشية شيخ زاده» (٥/ ١١٣)، قال القونوي: أي: في أن.

(٣) كذا وقع في جميع النسخ هنا «إنفاع الغير»، وهو ليس مسموعاً، وكان حقه أن يقول: «نفع الغير»، أو: «فكيف يستطيعونه لغيرهم» كما عبر به «الكشاف». قاله الأنصاري في «حاشيته» (٣/ ٣٤٠). وقد نقل الخفاجي عن الشيخ سعدي أن المصنف استعمل لفظ (الإنفاع) في غير هذا المحل كسورة الجن وهو خطأ. وذكر الخفاجي أن أصح النسخ هنا ذكرت: «فكيف يستطيعون إيقاع الخير ودفع الضرّ عنهم»، قال: ولا إشكال على هذه النسخة، انتهى. وإنما أثبتنا لفظ (الإنفاع) لتوارد النسخ الخطية المعتمدة لدينا عليه، ولأن المصنف استعمله في غير محل في تفسيره هذا كما تقدم.

وقيل: المعبودُ الغَافِلُ عنكم والمَعبودُ المُطَّلِعُ على أَحوالِكُم.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى الظُّلُمَٰتُ وَالنُّورُ﴾: الشِّركُ والتَّوحيدُ. وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وأبو بَكرٍ بالتَّاءِ[1].

﴿أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾: بل أَجَعَلوا، والهمزةُ للإنكارِ، وقولُه: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ﴾ صفَةٌ لـ﴿شُرَكَاءَ﴾ داخِلَةٌ في حكمِ الإنكارِ.

﴿فَتَشَٰبَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾: خَلْقُ اللهِ وخَلْقُهُم، والمعنى: أَنَّهُم ما اتَّخذُوا للهِ شُركاءَ خالِقينَ مِثلَهُ حتَّى يتشابَهَ عليهِم الخَلْقُ فيقولوا: (هؤلاء خَلَقُوا كما خَلقَ اللهُ فاستَحَقُّوا العبادةَ كما استحَقَّها)، ولكنَّهُم اتَّخذوا شُركاءَ عاجِزينَ لا يقدِرونَ على ما يقدِرُ عليهِ الخَلْقُ فَضْلاً عمَّا يقدرُ عليه الخالِقُ.

﴿قُلِ اللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ﴾ لا خالقَ غَيرُه فيُشارِكَهُ في العبادَةِ، جعلَ الخلقَ مُوجِبَ العِبادَةِ ولازمَ استِحقاقِهَا، ثمَّ نَفاهُ عَمَّنْ سِواهُ ليدلَّ على قولِه: ﴿وَهُوَ الْوَٰحِدُ﴾؛ أي: المُتَوَحِّدُ بالألوهيَّةِ ﴿الْقَهَّٰرُ﴾ الغالِبُ على كُلِّ شيءٍ.

(١٧) ـ ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾: مِن السَّحابِ، أو: مِن جانبِ السَّماءِ، أو: مِن السَّماءِ نَفسِها، فإنَّ المبادئَ مِنه.

﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ﴾: أنهارٌ، جمعُ وادٍ، وهو الموضِعُ الذي يسيلُ الماءُ فيهِ بكَثْرَةٍ، فاتُّسِعَ فيه واستعملَ للماءِ الجاري فيه، وتنكيرُها لأنَّ المطرَ يأتي على تناوُبٍ بينَ البِقاعِ.

﴿بِقَدَرِهَا﴾: بمقدارِها الذي عَلِمَ اللهُ أَنَّه نافِعٌ غيرُ ضارٍّ، أو: بمقدارِها في الصِّغَرِ والكِبَرِ[2].

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٨)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٢) في نسخة التفتازاني: «الصغير والكبير».

﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا﴾: رَفعَهُ، والزَّبَدُ: وَضَرُ[١] الغَلَيانِ ﴿رَّابِيًا﴾: عاليًا.

﴿وَمِمَّا تُوْقِدون عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾ يَعُمُّ الفِلِزَّاتِ[٢] كالذَّهَبِ والفِضَّةِ والحَديدِ والنُّحاسِ على وجهِ التَّهاوُنِ بها إظهارًا لكِبريائِه.

﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾: طلبَ حِليَةٍ ﴿أَوْ مَتَاعٍ﴾ كالأَواني وآلاتِ الحَربِ والحَرثِ، والمقصودُ مِن ذلك: بيانُ مَنافِعِها.

﴿زَبَدٌ مِّثْلُهُ﴾؛ أي: وممَّا تُوقِدونَ عليه زَبدٌ مثلُ زبدِ الماءِ[٣]، وهو خَبَثُه، و(مِن) للابتداءِ أو التَّبعيضِ.

وقرأَ حمزَةُ والكِسائيُّ وحفصٌ باليَاءِ[٤] على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ، وإضمارُهُ للعلمِ به.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾: مَثَلَ الحَقِّ والباطلِ، فإنَّه مَثَّلَ الحقَّ في إفادتِه وثباتِه بالماءِ الذي يَنزِلُ من السَّماءِ فتسيلُ به الأَودِيَةُ على قَدْرِ الحاجةِ والمَصلَحَةِ، فيُنتفعُ به أنواعَ المَنافعِ، ويَمكُثُ في الأرضِ بأنْ يَثبتَ بعضُهُ في مَناقعِه[٥] ويَسلُكَ

---

(١) الوضر: وسخ الدَّسَم ونحوه.

(٢) الفِلِزُّ بكسرِ الفاء واللامِ وتَشديدِ الزَّايِ: ما في الأرض مِن الجَواهرِ المَعدنيَّةِ كالذَّهبِ والفِضَّةِ والنُّحاسِ والرَّصاصِ. «النهاية» (مادة: فلز).

(٣) في نسخة الخيالي: «ذلك الماء».

(٤) قراءة حمزة والكسائي وحفص، والباقون بالتاء. انظر: «السبعة» (ص: ٢٥٨)، و«التيسير» (ص: ٣٣).

(٥) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «منابعه». قال الأنصاري: «مناقعه» بالقاف: جمع مِنقَع بالكسر، وهو محلُّ نَقْع الماءِ؛ أي: اجتماعه، وفي نسخة: «في منابعه» بالباء، وكلٌّ منهما صحيحٌ؛ لأنه محلُّ نقعِ الماء ونبعِه. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٤٢). وذكر الخفاجي أن (مناقعه) أظهر؛ لأنَّهُ الَّذي يُناسبُ السُّلوكَ بعدَهُ.

بعضُه في عروقِ الأرضِ إلى العيونِ والقُنيِّ والآبارِ، وبالفِلزِّ[١] الذي يُنتفعُ به في صَوغِ الحليِّ واتخاذِ الأمتعةِ المختلفةِ، ويدومُ ذلك مدَّةً مُتطاولةً، والباطلَ[٢] في قلَّةِ نفعِه وسرعةِ زَوالِه بزَبَدِهما، وبيَّنَ ذلك بقولِه: ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾: يُجفأُ به؛ أي: يرمي به السَّيلُ، أو الفِلزُّ المُذابُ، وانتصابُه على الحالِ.

وقُرِئَ: (جُفالًا)[٣]، والمعنى واحِدٌ.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ كالماءِ وخُلاصةِ الفِلزِّ ﴿فَيَمْكُثُ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ ينتفعُ به أهلُها.

﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾ لإيضاحِ المُشتبِهاتِ.

(١٨) ـ ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾: للمُؤمنينَ الذين استجابوا ﴿لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ﴾: الاستجابةُ الحُسْنَى.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ وهم الكَفَرةُ، واللامُ مُتعلِّقةٌ بـ﴿يَضْرِبُ﴾ على أنَّه جَعَلَ ضَرْبَ المثلِ لشأنِ الفَريقينِ ضَرْبَ المثلِ لهما.

وقيل: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟﴾ خبرُ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾[٤]، وهي المثوبةُ والجنَّةُ.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ مبتدأٌ خبرُه ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ وهو على الأوَّلِ كلامٌ مُبتدأٌ لبيانِ مآلِ غيرِ المُستجيبينَ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وهو المناقشَةُ فيه بأن يحاسَبَ الرَّجلُ بذَنبِه لا يُغفرُ منه شيءٌ.

---

(١) قوله: «وبالفلز» عطف على (بالماء).

(٢) قوله: «والباطل» بالنصب عطف على «الحقَّ» في قوله: «مَثَّل الحقَّ في إفادته».

(٣) انظر: «معاني القرآن» للنحاس (٣/ ٤٨٩)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«الكشاف» (٤/ ٣٨٩)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣٠٨)، عن رؤبة.

(٤) قال أبو حيان في «البحر» (١٣/ ٧٠): هذا الوجه أولى.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾: المستَقَرُّ، والمَخصوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

(١٩) ـ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ﴾ فيستجيبُ ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عَمَى[1] القلبِ لا يَستَبْصِرُ فيَستجيب، والهمزةُ لإنكارِ أن يقعَ شبهةٌ في تَشابُهِهما بعدمَا ضُربَ مِن المثلِ.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الْأَلْبَٰبِ﴾: ذَوُو العُقولِ المبرَّأَةِ مِن مُشايعَةِ الإلفِ ومعارضَةِ الوَهمِ.

(٢٠) ـ ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾: ما عقدوهُ على أَنفُسِهم مِن الاعترافِ برُبوبيَّتِهِ حينَ قالوا: ﴿بَلَىٰ﴾ [الأعراف: ١٧٢]، أو ما عَهِدَ اللهُ عليهم في كتبهِ.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ﴾: ما وثَّقُوه مِن المَواثيقِ بينَهُم وبينَ اللهِ وبينَ العِبادِ، وهو تَعميمٌ بعدَ تخصيصٍ[2].

(٢١) ـ ﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الرَّحِمِ ومُوالاةِ المُؤمنينَ والإيمانِ بجَميعِ الأَنبياءِ، ويندرجُ في ذلك مُراعاةُ جميعِ حُقوقِ النَّاسِ.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾: وعيدَه عمومًا ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ﴾ خصوصًا، فيحاسِبونَ أَنفُسَهُم قبلَ أَنْ يُحاسَبُوا.

(٢٢) ـ ﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على ما تكرهُه النَّفسُ ويخالِفُه الهوى ﴿ابْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾: طلبًا لِرضَاهُ لا فخوراً وسُمْعَةً ونَحوَهما.

﴿وَأَقَامُوا الصَّلَوٰةَ﴾ المفروضَةَ ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ﴾: بعضَه الذي وجبَ عليهِمْ إنفاقُه.

﴿سِرًّا﴾ لمَنْ لم يُعرفْ بالمالِ ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ لمَن عُرفَ به.

---

(١) في نسخة التفتازاني: «أعمى».

(٢) يعني: عطفَ قولِه: ﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَٰقَ﴾ وهو عامٌّ، على قولِه: ﴿يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ﴾، وهو خاصٌّ.

﴿وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ﴾: ويدفعونَها بها فيجازونَ الإساءةَ بالإحسانِ، أو يُتْبِعونَ الحسنةَ السَّيِّئةَ فتَمحوها.

﴿أُولَٰئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ﴾: عاقبةُ الدُّنيا، وما ينبغي أن يكونَ مآلُ أهلِها، وهي الجنَّةُ، والجملَةُ خبرُ المَوصولاتِ إن رُفعَتْ بالابتداءِ، وإن جُعِلَت صفاتٍ لأُولي الألبابِ فاستئنافٌ بذكرِ ما استوجبُوا بتلكَ الصِّفاتِ.

(٢٣) ـ ﴿جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ بدلٌ مِن ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، أو مُبتدأٌ خبرُه: ﴿يَدْخُلُونَهَا﴾.

والعَدْن: الإقامَةُ؛ أي: جناتٌ يُقيمونَ فيها، وقيل: هو بُطْنانُ الجنَّةِ.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ﴾ عطفٌ على المرفوعِ في (يدخلون)، وإنَّما ساغَ للفصلِ بالضَّميرِ الآخرِ، أو مفعولٌ معه، والمعنى: أنَّه يُلحَقُ بهم مَن صلحَ مِن أهلِهم ـ وإن لم يَبلُغْ مَبلغَ فضلِهم ـ تبعًا لهم وتعظيمًا لشأنِهم، وهو دليلٌ على أنَّ الدَّرجةَ تَعلُو بالشَّفاعةِ، أو أن المَوصوفينَ بتلكَ الصِّفاتِ يُقرنُ بَعضُهُم ببعضٍ ـ لِمَا بينَهُم مِن القرابةِ والوُصْلةِ ـ في دخولِ الجنَّةِ زيادةً في أُنسِهم، والتَّقييدُ بالصَّلاحِ دلالَةٌ على أنَّ مُجرَّدَ الأنسابِ لا تَنفَعُ.

﴿وَالْمَلَائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ من أبوابِ المَنازلِ، أو مِن أَبوابِ الفُتوحِ والتُّحَفِ[1]، قائلين:

(٢٤) ـ ﴿سَلَامٌ عَلَيْكُم﴾ بشارةٌ بدَوامِ السَّلامَةِ ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ مُتعلِّقٌ بـ﴿عَلَيْكُم﴾[2]، أو بمَحذوفٍ؛ أي: هذا بما صَبرتُم لا بـ﴿سَلَامٌ﴾ فإنَّ الخبرَ فاصِلٌ، والباءُ للسَّببيَّةِ أو البَدَليَّةِ.

---

(١) قوله: (أو من أبواب الفتوح والتحف) الفتوح جمع فتح، وهر الرزق الذي يفتح الله به عليهم مما لم يكن على بال من الأرزاق وليس التحف عطف تفسير له. انظر: «حاشية الشهاب».

(٢) قال السفاقسي: الصَّحيحُ أنَّه إنَّما يتعلَّقُ به ﴿عَلَيْكُم﴾. «حاشية السيوطي على البيضاوي» (٨/ ٣٩).

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ وقُرِئَ: (فَنَعْمَ) بفتحِ النُّونِ[١]، والأصلُ: نَعِم، فسكَّنَ العينَ بنَقلِ كَسرَتِها إلى الفاءِ وبغيرِه.

(٢٥) ـ ﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ﴾ يعني: مُقابلي الأوَّلين[٢].

﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾: مِن بعدِمَا أَوْثَقوهُ به مِن الإقرارِ والقَبُولِ.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ بالظُّلمِ وتَهييجِ الفِتَنِ.

﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ عذابُ جهنَّم، أو سوءُ عاقِبَةِ الدُّنيا لأنَّه في مُقابلةِ ﴿عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾.

(٢٦) ـ ﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ﴾: يوسعُهُ ويُضيِّقُهُ.

﴿وَفَرِحُوا۟﴾؛ أي: أهلُ مكَّةَ ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾: بما بُسِطَ لهم في الدُّنيا ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾: في جَنْبِ الآخرةِ ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾: إلا مُتعةٌ لا تَدومُ؛ كعُجالَةِ الرَّاكبِ وزادِ الرَّاعي، والمعنى: أنَّهم أَشِرُوا[٣] بما نَالُوا مِن الدُّنيا، ولم يَصْرِفُوه فيما يَستوجبونَ بِهِ نَعيمَ الآخرةِ، واغترُّوا بما هو في جنبِهِ نَزْرٌ قليلُ النَّفعِ سَريعُ الزَّوالِ.

(٢٧) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظُهورِ المُعجِزاتِ ﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾: أَقبَلَ إلى الحَقِّ ورجعَ عَن العِنادِ، وهو جوابٌ يَجري مجرى التَّعجُّبِ مِن قَولِهِم؛ كأنَّه قال: قُلْ لهم: ما أعظَمَ عِنادَكُم! إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ ممَّنْ كان على صِفَتِكُم، فلا سَبيلَ إلى اهتِدائِهِم وإن أُنزلَتْ كلُّ آيةٍ، ويَهدي إليه مَن أنابَ بما جئتُ به، بل بأدنى مِنه مِن الآياتِ.

---

(١) انظر: «المحتسب» (١/ ٣٥٦) عن يحيى بن وثاب.

(٢) في نسخة الخيالي: «المقابل للأولين»، وفي نسخة التفتازاني: «مقابل الأولين».

(٣) الأَشَرُ: الفَرَحُ بطرًا وكفرًا بالنِّعمَةِ.

(٢٨) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدلٌ مِن ﴿مَنْ﴾ أو خبرُ مُبتدأٍ مَحذوفٍ، ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ أُنسًا به واعتمادًا عليه ورجاءً مِنه، أو بذكرِ رَحمَتِه بعد القلقِ مِن خَشيَتِه، أو بذكرِ دَلائلِه الدالَّةِ عَلى وُجودِه ووَحدانيَّتِه، أو بكلامِه؛ يعني: القرآنَ الذي هو أقوى المُعجزاتِ.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾: تَسكنُ إليه.

(٢٩) ـ ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ مُبتدأٌ خبرُه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ وهو فُعْلَى مِن الطِّيبِ، قُلِبَت ياؤُه واوًا لضمَّةِ ما قبلَها مصدراً لـ(طاب)، كبُشْرَى وزُلْفَى، ويجوزُ فيه الرَّفعُ والنَّصبُ، ولذلك قُرِئَ: (وحُسنَ مآبٍ) بالنَّصبِ[١].

(٣٠) ـ ﴿كَذَٰلِكَ﴾: مثلَ ذلك ـ يعني: إرسالَ الرُّسلِ قبلكَ ـ ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ﴾: تَقَدَّمَتْها ﴿أُمَمٌ﴾ أُرْسِلُوا إليهم، فليسَ ببِدْعٍ إرسالُكَ إليها.

﴿لِّتَتْلُوَاْ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾: لتقرأَ عليهم الكتابَ الذي أوحيناهُ إليك.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾: وحالُهم أنَّهم يكفرونَ بالبَليغِ الرَّحمَةِ، الذي أحاطَتْ بهِمْ نِعمَتُه، ووسِعَتْ كلَّ شيءٍ رَحْمَتُه، فلم يَشكُروا نِعمَهُ وخُصوصًا ما أنعمَ عليهِم بإرسالِكَ إليهِم، وإنزالِ القرآنِ ـ الذي هو مناطُ المَنافعِ الدِّينيَّةِ والدُّنيويَّةِ ـ عليهِم.

وقيلَ: نزلَتْ في مُشرِكي مكَّةَ حينَ قيلَ لهم: ﴿ٱسْجُدُواْ لِلرَّحْمَٰنِ قَالُواْ وَمَا ٱلرَّحْمَٰنُ﴾ [لقمان: ٦٠][٢].

﴿قُلْ هُوَ رَبِّى﴾؛ أي: الرَّحمنُ خالقي ومُتولِّي أَمْري.

---

(١) نسبت لابن محيصن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١). وقراءة الجمهور: ﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾.

(٢) ذكره الواحدي في «أسباب النزول» (ص: ٢٧٣) من رواية الضحاك عن ابن عباس رضي الله عنهما.

﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾: لا مستحقَّ للعِبادةِ سِواه ﴿عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ﴾ في نُصرَتي عَلَيكُم ﴿وَإِلَيْهِ مَتَابِ﴾: مَرجِعِي ومَرجِعُكُم.

(٣١) ـ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾ شَرطٌ حُذِفَ جَوابُهُ، والمراد منه: تَعظيمُ شَأنِ القُرآنِ، أو المبالغةُ في عِنادِ الكَفَرَةِ وتصميمِهم؛ أي: ولو أنَّ كتابًا زُعزِعَتْ به الجبالُ عَن مَقارِّهَا ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾: تصدَّعَتْ مِن خشيَةِ اللهِ عندَ قِراءتِه، أو شُقِّقَت فجُعِلَت أنهارًا وعيونًا ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ فتَقرؤُهُ، أو: فتَسمعُ وتجيبُ عندَ قِراءَتِه= لكانَ هذا القُرآنَ؛ لأنَّه الغايةُ في الإعجازِ والنِّهايةُ في التَّذكيرِ والإنذارِ.

أو: لَمَا آمَنُوا بهِ؛ كقولِه: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١].

وقيل: إنَّ قريشًا قالوا: يا محمَّد! إنْ سَرَّكَ أن نتَّبعكَ فسيِّر بقرآنِك الجبالَ عَن مكَّةَ حتَّى تتسِعَ لنا فنتَّخِذَ فيها بَساتينَ وقَطائِعَ، أو سخِّرْ لَنا بِهِ الرِّيحَ لنركبَها ونتَّجِرَ إلى الشَّامِ، أو ابعَثْ لَنا به قُصَيَّ بنَ كلابٍ وغيرَه مِن آبائِنا ليكلِّمُونا فيك، فنزلَتْ[1]. وعلى هذا فتَقطيعُ الأرضِ: قطعُها بالسَّيرِ.

وقيل: الجوابُ مُقدَّمٌ، وهو: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينَهُما اعتراضٌ.

وتذكيرُ ﴿كُلِّمَ﴾ خاصةً لاشتِمالِ المَوْتَى على المذكَّرِ الحقيقيِّ.

---

(١) رواه أبو يعلى الموصلي في «مسنده» (٦٧٩)، وفي سنده عبد الجبار بن عمر، أبو عمر الأيلي، قال عنه يحيى بن معين: ليس بشيء، ولا يكتب حديثه. انظر: «الكامل» لابن عدي (٧/ ١٣). وقال الهيثمي في «مجمع الزوائد» (٧/ ٨٥): رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي عن عبدالله بن عطاء بن إبراهيم وكلاهما وثق، وقد ضعفهما الجمهور.

وروى نحوه أيضاً الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٤ ـ ٥٣٥)، عن قتادة والضحاك وابن زيد.

وقد ذكره مقاتل في «تفسيره» (٢/ ٣٧٩)، والثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٩٨)، والبغوي في «تفسيره» (٤/ ٣١٩)، دون راو ولا سند.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًا﴾: بَل للهِ القُدرةُ على كلِّ شيءٍ، وهو إضرابٌ عمَّا تَضمَّنَه ﴿لو﴾ مِن مَعنى النَّفيِ؛ أي: بل اللهُ قادرٌ على الإتيانِ بما اقترَحُوهُ مِن الآياتِ، إلَّا أنَّ إرادَتَهُ لم تَتعلَّق بذلك لعِلْمِه بأنَّه لا تَلينُ لهُ شَكِيمَتُهُم، ويؤيِّدُ ذلك قولُه:

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ عَن إيمانِهم مع ما رَأَوْا مِن أَحْوالِهم.

وذهبَ أكثرُهُم إلى أنَّ مَعناه: أفلَمْ يَعْلَم، لِمَا رُوِيَ أنَّ عَلِيًّا وابنَ عبَّاسٍ وجماعةً مِن الصَّحابةِ والتَّابعينَ قَرؤوا: (أفلَمْ يَتبيَّن)[١]، وهو تفسيرُه، وإنَّما استُعملَ اليَأسُ بمعنى العلمِ لأنَّه مُسبَّبٌ عَن العلمِ بأنَّ المَيؤوسَ عَنْه لا يكونُ[٢]، ولذلك عَلَّقَه بقولِه: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ فإنَّ مَعناه: نفيُ هُدى بَعضِ النَّاسِ لعَدَمِ تَعلُّقِ المَشيئَةِ باهتِدائِهم.

وهو على الأوَّلِ مُتعلِّقٌ بمَحذوفٍ تَقديرُه: أفلَمْ يَيْأَس الذينَ آمنوا مِن إيمانِهم علمًا مِنْهُم أَنْ لَوْ شاءَ[٣] اللهُ لهدَى النَّاسَ جميعًا، أو بـ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾[٤].

---

(١) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٧). ورواه عن علي وابن عباس الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٣٧ ـ ٥٣٨).

(٢) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «عن العلم، فإن المأيوس عنه لا يكون إلا معلومًا»، وهكذا جاءت العبارة في «حاشية الشهاب» وقال الشهاب: قوله: «فإن» بالفاء، وفي نسخة: «بأنّ» بالباء الموحدة، والأُولى أَولى، وفي نسخة: «لا يكون» بدون قوله: «إلا معلوما» فهي (كان) التامَّة، وهذه تؤيِّد ما قيل: إنّ المعنى: معلوماً انتفاؤه.

(٣) في نسخة التفتازاني والطبلاوي: «يشاء».

(٤) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ «على الأول»؛ أي: وهو أنَّ ﴿يَاْيۡـَٔسِ﴾ باقٍ على معناه «متعلق بمحذوف»؛ أي: وهو (عِلماً) في قوله: «تقديره: أفلم ييأس الذينَ آمنوا مِن إيمانِهم علمًا...»، وقوله: «أو بـ ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾» عطف على «محذوف». انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٤٩).

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ﴾ مِن الكُفرِ وسُوءِ الأعمالِ ﴿قَارِعَةٌ﴾: داهيةٌ تقرَعُهُم وتُقَلْقِلُهُم ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ فيفزعونَ مِنْها ويتطايرُ إليهِمْ شَرَرُها.

وقيلَ: الآيةُ في كُفَّارِ مكَّةَ، فإنَّهُم لا يزالونَ مُصابينَ بما صنَعُوا برسولِ اللهِ، فإنَّهُ عليهِ السَّلامُ كان لا يزالُ يَبعَثُ السَّرايَا فتُغِيرُ حوالَيهِم وتختَطِفُ مواشيَهم، وعلى هذا يجوزُ أَنْ يكونَ ﴿تَحُلُّ﴾ خطابًا للرَّسولِ، فإنَّه حلَّ بجَيشِهِ قريبًا مِن دارِهِم عامَ الحُديبيَةِ.

﴿حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾: الموتُ، أو القِيامةُ، أو فَتحُ مكَّةَ، ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ﴾ لامتناعِ الكَذِبِ في كلامِه.

(٣٢) - ﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ تسليةٌ لرَسولِ اللهِ، ووعيدٌ للمُستهزئينَ به والمقترِحِينَ عليه، والإملاءُ: أَنْ يُتْرَكَ ملاوةً[1] مِن الزَّمانِ في دعَةٍ وأَمْنٍ.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾؛ أي: عِقابي إيَّاهُم.

(٣٣) - ﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ رقيبٌ عليهِ ﴿بِمَا كَسَبَتۡۗ﴾ مِن خيرٍ أو شرٍّ، لا يَخْفَى عليه شَيءٌ مِن أَعمالِهِم، ولا يفوتُ عِنْدَهُ شَيءٌ مِن جزائِهِم، والخبرُ محذوفٌ تَقديرُه: كمَنْ ليسَ كذلك ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ استئنافٌ، أو عطفٌ على ﴿كَسَبَتۡ﴾ إنْ جعلت (ما) مصدرية.

ويجوز أن يقدَّر ما هو خبرٌ للمبتدأ ويعطَفَ عليه (جعلوا)؛ أي: أفمَن هو بهذِهِ الصِّفَةِ لم يوحِّدُوه وجعلوا له شركاءَ، ويكونُ الظَّاهرُ فيه مَوضِعَ الضَّميرِ للتَّنبيهِ على أنَّه المُستَحِقُّ للعِبادَةِ.

---

(١) بفتحِ الميمِ وكَسرِهَا وضَمِّها، أي: حينًا وبُرهَةً. «فتوح الغيب» للطيبي (٨/ ٥٢٢).

وقوله: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ تنبيهٌ على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يَستَحِقُّونَها، والمعنى: صِفُوهُم فانظُرُوا هل لهم ما يَستَحِقُّونَ به العبادةَ ويَستَأهِلُونَ الشَّرِكَةَ.

﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾: بَلْ أَتُنَبِّئُونَه، وقرئ: (تُنْبِئُونَهُ) بالتَّخفيفِ[(١)].

﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾: بشُرَكاءَ يَستَحِقُّونَ العِبادةَ لا يَعْلَمُهُم، أو بصفاتٍ لَهُم يَستَحِقُّونَها لأَجلِها لا يَعْلَمُها، وهو العالِمُ بكُلِّ شَيءٍ.

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾: أَمْ تُسَمُّونَهُم شُركاءَ بظاهِرٍ مِـن القَولِ مِن غيرِ حقيقةٍ واعتبارِ مَعْنًى، كتَسمِيَةِ الزِّنجيِّ كافورًا، وهذا احتجاجٌ بَليغٌ على أسلوبٍ عجيبٍ يُنادِي على نفسهِ بالإعجازِ.

﴿بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ﴾: تمويهُهُم، فتَخيَّلُوا أباطيلَ ثُمَّ خالوها حقًّا، أو: كيدُهُم للإسلامِ بشِرْكِهم.

﴿وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾: سبيلِ الحَقِّ. وقرأَ ابنُ كثيرٍ ونافعٌ وأبو عمرٍو وابنُ عامرٍ: ﴿وصَدُّوا﴾ بالفتح[(٢)]؛ أي: وصَدُّوا النَّاسَ عَنِ الإيمانِ، وقُرِئَ بالكسرِ[(٣)]، و: (صَدٌّ) بالتَّنوينِ[(٤)].

﴿وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ﴾: يخذُلْه ﴿فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ﴾ يوفِّقُه للهُدى.

(٣٤) - ﴿لَّهُمۡ عَذَابٞ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا﴾ بالقَتلِ والأَسْرِ وسائرِ ما يُصيبهُمْ مِن المَصائبِ ﴿وَلَعَذَابُ ٱلۡأٓخِرَةِ أَشَقُّ﴾ لشِدَّتِه ودَوامِه ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾: مِن عَذابِه، أو مِن رَحمَتِه ﴿مِن وَاقٖ﴾: حافظٍ.

---

(١) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٤)، و«البحر» (١٣/ ١٠٢)، عن الحسن.

(٢) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٣).

(٣) نسبت ليحيى بن وثاب، ورويت عن الكسائي. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١).

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١) عن ابن أبي إسحاق.

(٣٥) - ﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ صِفَتُها التي هي مَثَلٌ في الغَرابَةِ، وهو مُبتدأٌ خبرُه مَحذوفٌ عند سيبويه؛ أي: فيما قَصَصْنا عليكُم مثلُ الجنَّةِ[1].

وقيل: خبرُه: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ على طريقةِ قولِك: صِفَةُ زيدٍ أَسمَرُ، أو على حذفِ موصوفٍ؛ أي: مثلُ الجنَّةِ جنَّةٌ تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ[2]، أو على زيادةِ المثلِ.

وهو[3] على قولِ سِيبويه حالٌ مِن العائدِ المَحذوفِ مِن الصِّلَةِ.

﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ﴾؛ أي: لا يَنقَطِعُ ثَمَرُها ﴿وَظِلُّهَا﴾؛ أي: وظِلُّها كذلك لا يُنسَخُ كما يُنْسَخُ في الدُّنيَا بالشَّمسِ.

﴿تِلْكَ﴾؛ أي: الجنَّةُ المَوصوفَةُ ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْ﴾ مآلُهم ومُنتَهى أَمرِهم.

﴿وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير. وفي تَرتيبِ النَّظمَيْنِ إطماعٌ للمُتَّقين وإقناطٌ للكَافرينَ.

(٣٦) - ﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يعني: المُسلمينَ مِن أَهلِ الكتابِ، كابنِ سلَامٍ وأصحابِهِ ومَن آمنَ مِن النَّصارى، وهم ثَمانونَ رَجلًا، أربعونَ بنَجْرانَ وثمانيةٌ باليَمنِ واثنانِ وثلاثونَ بالحَبشَةِ، أو عامَّتُهم فإنَّهُم كانوا يفرَحُونَ بما يُوافِقُ كتبَهُم.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ يعني: كَفرَتَهُم الذين تحزَّبُوا على رَسولِ اللهِ ﷺ بالعَداوَةِ، ككَعْبِ بنِ الأَشرَفِ وأصحابِهِ والسَّيِّدِ والعاقِبِ وأَشياعِهِمَا.

---

(١) انظر: «الكتاب» (١/ ١٤٣).

(٢) انظر: «معاني القرآن» للزجاج (٣/ ١٥٠). وما سبق من قول سيبويه والذي بعده مذكور فيه.

(٣) قوله: «وهو»؛ أي: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾.

﴿مَن يُنكِرُ بَعۡضَهُۥ﴾ وهو ما يُخالِفُ شَرائِعَهُم، أو يوافِقُ ما حَرَّفوهُ مِنْها.

﴿قُلۡ إِنَّمَآ أُمِرۡتُ أَنۡ أَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشۡرِكَ بِهِۦٓ﴾ جوابٌ للمُنكرينَ[1]؛ أي: قُلْ لهم: إنِّي أُمِرْتُ فيما أُنزِلَ إليَّ بأَنْ أَعبُدَ اللهَ وأوحِّدَه، وهو العمدةُ في الدِّينِ، ولا سبيلَ لَكُم إلى إنكارِهِ، وأمَّا ما تُنكِرُونَه لِمَا يخالِفُ شرائِعَكُم فليسَ ببِدْعٍ مخالفَةُ الشَّرائعِ والكتبِ الإلهيَّةِ في جُزئيَّاتِ الأَحكامِ.

وقُرِئَ: (ولا أشركُ) بالرَّفعِ على الاستئنافِ[2].

﴿إِلَيۡهِ أَدۡعُواْ﴾ لا إلى غيرِه ﴿وَإِلَيۡهِ مَـَٔابِ﴾: وإليه مَرجِعي للجَزاءِ لا إلى غَيرِه، وهذا هو القَدْرُ المُتَّفَقُ عليه بينَ الأَنبياء، وأمَّا ما عدا ذلكَ مِن التَّفاريعِ فمِمَّا يَختَلِفُ بالأَعصارِ والأُمَمِ فلا مَعنى لإنكارِهم[3] المُخالفَةَ فيه.

(٣٧) ـ ﴿وَكَذَٰلِكَ﴾ ومِثْلَ ذلك الإنزالِ المُشتمِلِ على أصولِ الدِّياناتِ المُجْمَعِ عليها ﴿أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا﴾ يحكمُ في القَضايَا والوقائعِ بما تَقتضيهِ الحِكمَةُ.

﴿عَرَبِيّٗا﴾: مُترجَمًا بلسانِ العربِ لِيَسْهُلَ لهم فهمُهُ وحفظُهُ. وانتصابُهُ على الحالِ.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعۡتَ أَهۡوَآءَهُم﴾ التي يَدْعُونَكَ إليها لتَقريرِ دينِهم والصَّلاةِ إلى قِبلَتِهم بعدَمَا حُوِّلْتَ عنها ﴿بَعۡدَمَا جَآءَكَ مِنَ ٱلۡعِلۡمِ﴾ بنسخِ ذلك ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيّٖ وَلَا

---

(١) في نسخة الخيالي: «للمشركين».

(٢) قراءة نافعٍ في رواية أبي خُلَيْد. انظر: «الكشاف» (٤/ ٤٠٥)، و«المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧١)، ووقع في مطبوعه: (خليل عن نافع)، وهو تحريف، وأبو خليد هو عتبة بن حماد الدمشقي. وقراءة نافع المشهورة عنه بالنصب كالباقين.

(٣) في نسخة الخيالي والتفتازاني: «لإنكار»، والمثبت من نسخة الطبلاوي.

وَاقٍ﴾ ينصرُكَ ويَمنَعُ العقابَ[١] عَنْكَ، وهو حَسمٌ لأَطماعِهِم وتهييجٌ للمُؤمنين على الثَّباتِ في دِينِهِم.

(٣٨) ـ ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ﴾ بشرًا مِثْلَك ﴿وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نِساءً وأَوْلادًا كما هي لكَ ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾: وما صَحَّ له ولَمْ يَكُن في وسعِه ﴿أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ﴾ تُقترَحُ عليهِ وحُكمٍ يلتمسُ منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ فإنَّهُ المُمْلي بذلك.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾: لكلِّ وَقتٍ وأَمَدٍ حكمٌ يُكتبُ على العبادِ على ما يَقتَضِيهِ استِصلاحُهُم.

(٣٩) ـ ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾: يَنسَخُ ما يَستصوِبُ نَسخَه ﴿وَيُثْبِتُ﴾ ما تَقتَضِيهِ حِكْمَتُه.

وقيل: يَمْحُو سيِّئاتِ التَّائبِ ويُثبتُ الحَسَناتِ مَكانَها.

وقيل: يَمْحُو مِن كتابِ الحَفَظَةِ ما لا يَتعلَّقُ بِهِ جزاءٌ ويتركُ غيرَهُ مُثبتًا، أو: يُثبتُ ما رآهُ وحدَهُ في صميمِ قَلبِه[٢].

وقيل: يَمْحُو قَرْنًا ويُثْبِتُ آخرينَ.

وقيل: يَمْحُو الفَاسِدَاتِ ويُثْبِتُ الكَائِنَاتِ.

وقرأَ نافِعٌ وابنُ عامرٍ وحَمزَةُ والكِسائيُّ: ﴿ويُثَبِّتُ﴾ بالتَّشديدِ[٣].

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ الْكِتَابِ﴾: أصلُ الكتبِ، وهو اللوحُ المَحفوظُ، إذ ما مِن كائنٍ إلَّا وهوَ مَكتوبٌ فيه.

---

(١) في نسخة الخيالي: «العذاب».

(٢) قوله: «أو يثبت» عطف على (ويترك غيره) «ما رآه»؛ أي: اللهُ «وحده»؛ أي: دونَ الملائكةِ «في صميم قلبه»؛ أي: قلبِ العبدِ. انظر: «حاشية الأنصاري» (٣/ ٣٥٤).

(٣) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩).

(٤٠) ـ ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾: وكيفَمَا دارت الحالُ: أَرَيْناكَ بعضَ ما أَوْعَدْناهُم أو تَوَفَّيْناكَ قبلَه ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ لا غير ﴿وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ﴾: المُجازاةُ لا عليكَ، فلا تَحْتَفِلْ بإعراضِهِم ولا تَسْتَعْجِلْ بعذَابِهِم، فإنَّا فاعلونَ لهُ وهذا طلائِعُه:

(٤١) ـ ﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾: أرضَ الكَفَرَةِ ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بما نفتحُه على المُسلمينَ مِنها.

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾: لا رادَّ له، وحقيقتُهُ: الذي يُعقِّبُ الشَّيءَ بالإبطالِ، ومنه قيلَ لصاحبِ الحقِّ: مُعَقِّبٌ؛ لأنَّه يَقْفُو غَرِيمَهُ بالاقتضاءِ، والمعنى: أنَّه حكمٌ للإسلامِ بالإقبالِ وعلى الكُفرِ بالإدبارِ، وذلك كائنٌ لا يمكِنُ تغييرُهُ، ومَحلُّ ﴿لَا﴾ مع المنفيِّ النَّصبُ على الحالِ؛ أي: يحكمُ نافذًا حكمُهُ.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فيحاسِبُهُم عمَّا قَليلٍ في الآخرَةِ بعدَمَا عَذَّبَهم بالقَتلِ والإجلاءِ في الدُّنيا.

(٤٢) ـ ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ بأنبيائِهِم والمُؤمنينَ مِنْهُم ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا﴾ إذ لا يُؤبَهُ بمكرٍ دونَ مَكرِهِ، فإنَّه القادِرُ على ما هو المقصودُ مِنْهُ دونَ غيرِه.

﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ فيُعِدُّ جزاءَها ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ مِن الحِزبَيْنِ حيثُما يَأتيهِم العَذابُ المُعَدُّ لهم وهُم في غَفْلَةٍ منه، وهذا كالتَّفسيرِ لِمَكرِ اللهِ بِهِم.

واللامُ تَدُلُّ على أنَّ المُرادَ بالعُقبَى: العاقِبَةُ المَحمودَةُ، مع ما في الإضافَةِ إلى ﴿ٱلدَّارِ﴾ كما عرفتَ.

وقَرَأَ ابنُ كَثيرٍ ونافِعٌ وأبو عَمرٍو: ﴿الكافِرُ﴾[1] على إرادةِ الجنسِ، وقُرِئَ:

---

(١) انظر: «السبعة» (ص: ٣٥٩)، و«التيسير» (ص: ١٣٤).

(الكافرون)[١]، و: (الذين كفروا)[٢]، و: (الكـفرُ)[٣]؛ أي: أهلُه، و:(سيُعْلَم)[٤] مِن أَعْلَمَهُ: إذا أخبرَهُ.

(٤٣) ـ ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: المرادُ بهم: رُؤسَاءُ اليَهودِ.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنَّه أظهَرَ مِن الأدلَّةِ على رِسالتي ما يُغني عن شاهدٍ يشهَدُ عَلَيْها.

﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ علمُ القُرآنِ وما أُلِّفَ عليه مِـن النَّظمِ المُعجِزِ، أو: علمُ التَّوراةِ، وهو ابنُ سَلَامٍ وأَضرابُه[٥]، أو: علمُ اللَّوحِ المَحفوظِ، وهو اللهُ؛ أي: وكَفَى بالذي يَستَحِقُّ العبادةَ وبالذي لا يعلَمُ ما في اللوحِ إلا هو شَهِيدًا بَيْنَنَا، فيُخْزِي الكاذبَ مِنَّا.

ويؤيِّدُه قراءَةُ مَن قرأَ: (ومِنْ عِنْدِه) بالكسرِ[٦].

---

(١) انظر: «المصاحف» لابن أبي داود (ص: ١٧٨)، و«المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٩)، عن ابن مسعود.

(٢) انظر: «المحرر الوجيز» (٣/ ٣١٩) عن أبي بن كعب.

(٣) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن بعضهم.

(٤) انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٦١) عن جناح بن حبيش.

(٥) اعتـرضَ عليـهِ أبـو حيَّـانَ ـ رحمَـهُ اللهُ ـ بأنَّـهُ لا يستقيمُ إلاَّ أن تكونَ الآيَـةُ مدنيَّـةً، والجمهورُ على أنَّهـا مكيَّةٌ.

وقيلَ: إنَّهُ لا يُنافي كونَ الآيَةِ مكيَّةً، وهيَ إخبارٌ عمَّا سيشهدُوا بِهِ، أو أنَّهُم قيلَ لهُم لستُم بأهلِ كتابٍ فاسألوا أهلَهُ، فإنَّهُم في جوارِكُم، فتأمَّلْ. «حاشية الشهاب».

(٦) نسبت للنبي ﷺ، وعليٍّ وابن عباس وأبيٍّ رضي الله عنهم، وسعيد بن جبير وعكرمة، ومجاهد بخلاف، والحسن بخلاف، وعبد الرحمن بن أبي بكرة وابن أبي إسحاق والضحاك والحكم بن عتيبة، ورُويت عن الأعمش. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» لابن خالويه (ص: ٧٢)، و«المحتسب» لابن جني (١/ ٣٥٨). =

و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ على الأوَّلِ يَرْتَفِعُ بالظَّرفِ، فإنَّه مُعتَمِدٌ على الموصولِ، ويجوزُ أَنْ يكونَ مبتدأً والظَّرفُ خبرُهُ، وهو مُتعيِّنٌ للثَّانيةِ.

وقرئ: (ومِن عِندِهِ عُلِمَ) بالحرفِ والبِناءِ للمَفعولِ[١].

عَن رَسولِ اللهِ ﷺ: «مَن قرأ سُورةَ الرَّعدِ أُعْطِيَ مِن الأَجرِ عشرَ حَسناتٍ بوزنِ كلِّ سَحابٍ مَضَى وكلِّ سَحابٍ يكونُ إلى يومِ القِيامَةِ، وبُعِثَ يومَ القِيامَةِ مِن الموقنينَ بعَهْدِ اللهِ»[٢].

* * *

= ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٤ ـ ٥٨٦) عن ابن عباس رضي الله عنهما ومجاهد وسعيد بن جبير والضحاك.

وأما نسبتها للنبي ﷺ فقد قال الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٦) بعد أن ذكر خبرًا مرفوعًا عن النبيِّ ﷺ يؤيد هذه القراءة: وهذا خبر ليس له أصلٌ عند الثِّقات من أصحاب الزُّهري، فإذا كان ذلك كذلك، وكانت قراء الأمصار من أهل الحجاز والشَّام والعراق على القراءة الأخرى، وهي: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَـٰبِ﴾ [الرعد: ٤٣]، كان التَّأويل الذي على المعنى الذي عليه قرَّاء الأمصار أولى بالصَّواب ممَّن خالفه، إذ كانت القراءة بما هم عليه مجمعون أحق بالصواب.

(١) نسبت لعلي رضي الله عنه وابن السميفع والحسن. انظر: «المختصر في شواذ القراءات» (ص: ٧٢)، و«المحتسب» (١/ ٣٥٨). ورواها الطبري في «تفسيره» (١٣/ ٥٨٥ ـ ٥٨٦) عن الحسن.

(٢) رواه الثعلبي في «تفسيره» (١٥/ ٢٠٠)، والواحدي في «الوسيط» (٣/ ٣)، من حديث أبيٍّ رضي الله عنه، وهو قطعة من الحديث الموضوع في فضائل السور. انظر: «الفتح السماوي» (٢/ ٧٤٢)، و«الفوائد المجموعة في الأحاديث الموضوعة» للشوكاني (ص: ٢٩٦).

(١٣) سورة الرعد مدنية
وآياتها ثلاث وأربعون

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَٰنِ الرَّحِيمِ

﴿الٓمٓر ۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ ۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴿١﴾﴾

أما الكلام على الحروف المقطعة في أوائل السور فقد تقدم في أول سورة البقرة، وقدمنا: أن كل سورة ابتدئت بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب، ولهذا قال: ﴿تلك آيات الكتاب﴾ أي هذه آيات الكتاب وهو القرآن، ثم عطف على ذلك عطف صفات فقال: ﴿والذي أنزل إليك﴾ أي يا محمد ﴿من ربك الحق﴾، وقوله: ﴿ولكنَّ أكثر الناس لا يؤمنون﴾ كقوله: ﴿وما أكثر الناس ولو حرصت بمؤمنين﴾ اي مع هذا البيان والجلاء والوضوح لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق، والعناد، والنفاق .

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ۖ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۖ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ ۖ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى ۚ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ﴿٢﴾﴾

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه، أنه الذي بإذنه وأمره رفع السماوات بغير عمد، بل بإذنه وأمره وتسخيره رفعها عن الأرض بعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء، من جميع نواحيها وجهاتها وأرجائها ، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وهكذا إلى السابعة، وفي الحديث: « ما السموات السبع وما فيهن وما بينهن في الكرسي إلا كحلقة ملقاة بأرض فلاة، والكرسي في العرش المجيد كتلك الحلقة في تلك الفلاة». وفي رواية: « العرش لا يقدر قدره إلا الله عزّ وجلّ » . وجاء عن بعض السلف: أن بعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء، وقوله: ﴿بغير عمد ترونها﴾ السماء على الأرض مثل القبة، يعني بلا عمد، وهذا هو اللائق بالسياق، والظاهر من قوله تعالى: ﴿ويمسك السماء أن تقع على الأرض إلا بإذنه﴾ فعلى هذا يكون قوله: ﴿ترونها﴾

تأكيداً لنفي ذلك، أي هي مرفوعة بغير عمد كما ترونها، وهذا هو الأكمل في القدرة[1] ، وقوله تعالى: ﴿ثم استوى على العرش﴾ تقدم تفسيره في سورة الأعراف، وأنه يمر كما جاء من غير تكييف ولا تشبيه ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علواً كبيراً، وقوله: ﴿وسخر الشمس والقمر كل يجري لأجل مسمى﴾ قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كقوله تعالى: ﴿والشمس تجري لمستقر لها﴾، وقيل: المراد إلى مستقرهما وهو تحت العرش، وذكر الشمس والقمر لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة التي هي أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه فلأن يدخل في التسخير سائر الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه بقوله تعالى: ﴿لا تسجدوا للشمس ولا للقمر واسجدوا لله الذي خلقهن إن كنتم إياه تعبدون﴾، مع أنه قد صرح بذلك بقوله: ﴿والشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره ألا له الخلق والأمر تبارك الله رب العالمين﴾، وقوله: ﴿يفصل الآيات لعلكم بلقاء ربكم توقنون﴾ أي يوضح الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما بدأه .

﴿ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَٰرًا ۖ وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ ۖ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٣﴾ وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴿٤﴾

لما ذكر تعالى العالم العلوي، شرع في ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلي، فقال: ﴿وهو الذي مد الأرض﴾ أي جعلها متسعة ممتدة في الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون، ليسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم ﴿ومن كل الثمرات جعل فيها زوجين اثنين﴾ أي من كل شكل صنفان ﴿يغشي الليل النهار﴾ أي جعل كلاً منهما يطلب الآخر طلباً حثيثاً، فإذا ذهب هذا غشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر فيتصرف أيضاً في الزمان كما يتصرف في المكان والسكان ﴿إن في ذلك لآيات لقوم يتفكرون﴾ أي في آلاء الله وحكمه ودلائله ، وقوله : ﴿وفي الأرض قطع متجاورات﴾ أي أراض يجاور بعضها بعضاً، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينفع الناس وهذه سبخة مالحة لا تنبت شيئاً، ويدخل في هذه الآية اختلاف الوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء ، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة، وهذه سهلة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار لا إله إلا هو ، وقوله: ﴿وجنات من أعناب وزرع ونخيل﴾ يحتمل أن تكون عاطفة على جنات، فيكون ﴿وزرع ونخيل﴾ مرفوعين؛ ويحتمل أن يكون معطوفاً على أعناب فيكون مجروراً، ولهذا قرأ بكل منهما طائفة

(١) وروي عن ابن عباس ومجاهد والحسن أنهم قالوا: لها عمد ولكن لا ترى فتكون جملة (ترونها) صفة لـ (عمد) أي بغير عمد مرئية، وهذا التأويل خلاف الظاهر المتبادر وقد أشار ابن كثير رحمه الله لضعف هذا القول .

من الأئمة، وقوله: ﴿ صنوان وغير صنوان﴾ الصنوان هو الأصول المجتمعة في منبت واحد كالرمان والتين وبعض النخيل ونحو ذلك، وغير الصنوان ما كان على أصل واحد كسائر الأشجار، وفي الصحيح أن رسول الله ﷺ قال لعمر: « أما شعرت أن عم الرجل صنو أبيه »، وقال سفيان الثوري عن البراء رضي الله عنه: الصنوان هي النخلات في أصل واحد، وغير الصنوان المتفرقات، وقوله: ﴿ يُسقى بماء واحد ونفضّل بعضها على بعض في الأكل﴾ قال الأعمش، عن أبي هريرة عن النبي ﷺ: ﴿ ونفضل بعضها على بعض في الأكل﴾ قال: « الدقل والفارسي والحلو والحامض »[١]، أي هذا الاختلاف في أجناس الثمرات والزروع في أشكالها وألوانها وطعومها وروائحها وأوراقها وازهارها، فهذا في غاية الحلاوة، وهذا في غاية الحموضة، وذا في غاية المرارة، وذا عفص، وهذا عذب، وهذا أصفر، وهذا أحمر، وهذا أبيض، وكذلك الزهورات مع أنها كلها تستمد من طبيعة واحدة وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذي لا ينحصر ولا ينضبط، ففي ذلك آيات لمن كان واعياً، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار الذي بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد، ولهذا قال تعالى: ﴿ إن في ذلك لآيات لقوم يعقلون﴾ .

* وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ۗ أُولَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ ۖ وَأُولَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٥﴾

يقول تعالى لرسوله محمد ﷺ: ﴿ وإن تعجب﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بالمعاد، مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلائله في خلقه، ومع ما يعترفون به من أنه ابتدأ خلق الأشياء بعد أن لم تكن شيئاً مذكوراً، ثم هم بعد هذا يكذبون في أنه سيعيد العالم خلقاً جديداً، فالعجب من قولهم: ﴿ أئذاً كنا تراباً أئنا لفي خلق جديد﴾ وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السماوات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة عليه أسهل، كما قال تعالى: ﴿ أو لم يروا أن الله الذي خلق السموات والأرض ولم يعي بخلقهن بقادر على أن يحيي الموتى ؟ بلى إنه على كل شيء قدير﴾، ثم نعت المكذبين بهذا، فقال: ﴿ أولئك الذين كفروا بربهم وأولئك الأغلال في أعناقهم﴾ أي يسحبون بها في النار، ﴿ وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون﴾ أي ماكثون فيها أبداً لا يحولون عنها ولا يزولون .

* وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَٰتُ ۗ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ۖ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٦﴾

يقول تعالى: ﴿ ويستعجلونك﴾ أي هؤلاء المكذبون، ﴿ بالسيئة قبل الحسنة﴾ أي بالعقوبة، كما أخبر عنهم في قوله: ﴿ ويستعجلونك بالعذاب﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿ سأل سائل بعذاب واقع﴾، وقال: ﴿ يستعجل

---

(١) رواه الترمذي وقال حسن غريب .

بها الذين لا يؤمنون بها﴾، وقال: ﴿وقالوا ربنا عجل لنا قطنا﴾ الآية، أي عقابنا وحسابنا، فكانوا من شدة تكذيبهم وعنادهم وكفرهم، يطلبون أن يأتيهم بعذاب الله، قال الله تعالى: ﴿وقد خلت من قبلهم المثلات﴾ أي قد أوقعنا نقمنا بالأمم الخالية، وجعلناهم عبرة وعظة لمن اتعظ بهم؛ ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه لعاجلهم بالعقوبة كما قال: ﴿ولو يؤاخذ الله الناس بما كسبوا ما ترك على ظهرها من دابة﴾، وقال تعالى في هذه الآية الكريمة: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ أي إنه تعالى ذو عفو وصفح وستر للناس، مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار، ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿فإن كذبوك فقل ربكم ذو رحمة واسعة ولا يرد بأسه عن القوم المجرمين﴾، وقال: ﴿إن ربك لسريع العقاب وإنه لغفور رحيم﴾ إلى أمثال ذلك من الآيات التي تجمع الرجاء والخوف، عن سعيد بن المسيب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم﴾ قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هنأ أحداً العيش، ولولا وعيده وعقابه لا تكل كل أحد»[1].

* ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ﴿٧﴾﴾

يقول تعالى إخباراً عن المشركين إنهم يقولون كفراً وعناداً: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعنتوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهباً، وأن يزيح عنهم الجبال ويجعل مكانها مروجاً وأنهاراً، قال تعالى: ﴿وما منعنا أن نرسل بالآيات إلا أن كذب بها الأولون﴾ الآية، قال الله تعالى: ﴿إنما أنت منذر﴾ إي إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التي أمرك بها، و﴿ليس عليك هداهم ولكن الله يهدي من يشاء﴾، وقوله: ﴿ولكل قوم هاد﴾ قال ابن عباس: أي ولكل قوم داع، وقال العوفي عن ابن عباس في الآية: أنت يا محمد منذر وأنا هادي كل قوم[2] عن مجاهد ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي نبي كقوله: ﴿وإن من أمة إلا خلا فيها نذير﴾، وقال يحيى بن رافع: ﴿ولكل قوم هاد﴾ أي قائد، وعن عكرمة: ﴿ولكل قوم هاد﴾: هو محمد ﷺ، وقال مالك ﴿ولكل قوم هاد﴾: يدعوهم إلى الله عزّ وجلّ.

﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ ﴿٨﴾ عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾

يخبر تعالى عن تمام علمه الذي لا يخفى عليه شيء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل الإناث، كما قال تعالى: ﴿ويعلم ما في الأرحام﴾ أي ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقي أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كقوله تعالى: ﴿هو أعلم بكم إذ أنشأكم من الأرض وإذ أنتم أجنة﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿يخلقكم في بطون أمهاتكم خلقاً من بعد خلق في ظلمات ثلاث﴾ أي خلقكم طوراً من بعد طور، كما قال تعالى:

---

(١) أخرجه ابن أبي حاتم.
(٢) وكذا قال الضحاك وسعيد بن جبير وغير واحد.

﴿ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ثم جعلناه نطفة في قرار مكين﴾. وفي الصحيحين عن ابن مسعود قال، قال رسول الله ﷺ: «إن خلق أحدكم يجمع في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث الله إليه ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، بكتب رزقه وعمره وعمله وشقي أو سعيد»، وفي الحديث الآخر: «فيقول الملك أي رب! أذكر أم أنثى! أشقي أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله ويكتب الملك».

وقوله تعالى: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾، قال البخاري، عن ابن عمر، أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمهن إلا الله، لا يعلم ما في غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتي المطر أحد إلا الله، ولا تدري نفس بأي أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»، وقال ابن عباس: ﴿وما تغيض الأرحام﴾ يعني السقط ﴿وما تزداد﴾، يقول ما زادت الرحم في الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماماً، وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومن تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد في الحمل، ومنهن من تنقص، فلذلك الغيض والزيادة التي ذكر الله تعالى وكل ذلك بعلمه تعالى، وعنه: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها، وقال الضحاك: وضعتني أمي وقد حملتني في بطنها سنتين، وولدتني وقد نبتت ثنيتي، وقال ابن جريج، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين قدر ما يتحرك ظل مغزل، وقال مجاهد: ﴿وما تغيض الأرحام وما تزداد﴾ قال: ما ترى من الدم في حملها وما تزداد على تسعة أشهر[1]، وقال مجاهد أيضاً ﴿وما تغيض الأرحام﴾: إراقة الدم حتى يخس الولد، ﴿وما تزداد﴾ إن لم تهرق الدم تم الولد وعظم، وقال مكحول: الجنين في بطن أمه لا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه في بطن أمه من دم حيضتها فمن ثم لا تحيض الحامل، فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكاره لمكانه، فإذا قطعت سرته حوّل الله رزقه إلى ثديي أمه، حتى لا يحزن ولا يطلب ولا يغتم، ثم يصير طفلاً يتناول الشيء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويحك، غذاك وأنت في بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل أنى لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿والله يعلم ما تحمل كل أنثى﴾ الآية، وقال قتادة: ﴿وكل شيء عنده بمقدار﴾ أي بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم وجعل لذلك أجلاً معلوماً، وفي الحديث الصحيح: ان إحدى بنات النبي ﷺ بعثت إليه أن ابناً لها في الموت، وأنها تحب أن يحضره، فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ وله ما أعطى، وكل شيء عنده بأجل مسمى، فمروها فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه، وقوله: ﴿عالم الغيب والشهادة﴾ أي يعلم كل شيء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم ولا يخفى عليه منه شيء ﴿الكبير﴾ الذي هو أكبر من كل شيء، ﴿المتعال﴾ أي على كل شيء، ﴿قد أحاط بكل شيء علماً﴾ وقهر كل شيء فخضعت له الرقاب ودان له العباد طوعاً وكرهاً.

سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ

(١) وبه قال الحسن البصري وقتادة والضحّاك.

يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ﴿١١﴾

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، وأنه سواء منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه لا يخفى عليه شيء كقوله: ﴿وإن تجهر بالقول فإنه يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿ويعلم ما تخفون وما تعلنون﴾، وقوله: ﴿ومن هو مستخف بالليل﴾ أي مختف في قعر بيته في ظلام الليل، ﴿وسارب بالنهار﴾ أي ظاهر ماش في بياض النهار وضيائه، فإن كلاهما في علم الله على السواء، كقوله تعالى: ﴿ألا حين يستغشون ثيابهم﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿وما تكون في شأن وما تتلو منه من قرآن ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقوله: ﴿له معقبات من بين يديه ومن خلفه يحفظونه من أمر الله﴾ أي للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حرس بالليل، وحرس بالنهار، يحفظونه من الأسواء والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين والشمال، يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحد من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلاً، حافظان وكاتبان، كما جاء في الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار» الحديث، وفي الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع فاستحيوهم وأكرموهم»، وقال ابن عباس: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قال: ملائكه يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خلوا عنه، وقال مجاهد: ما من عبد إلا له ملك موكل يحفظه في نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شيء يأتيه يريده إلا قال له الملك: وراءك، إلا شيء أذن الله فيه فيصيبه.

وقال الإمام أحمد رحمه الله، عن عبدالله قال، قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن، وقرينه من الملائكة» قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياي، ولكن الله أعانني عليه فلا يأمرني إلا بخير»[1]. وقوله: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ قيل: المراد حفظهم له من أمر الله، قاله ابن عباس، وإليه ذهب مجاهد وسعيد بن جبير، وقال قتادة ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ يحفظونه بأمر الله، وقال كعب الأحبار: لو تجلى لابن آدم كل سهل وكل حزن لرأى كل شيء من ذلك شيئاً يقيه، ولولا أن الله وكل بكم ملائكة يذبون عنكم في مطعمكم ومشربكم وعوراتكم إذاً لتُخُطفتم، قال أبو أمامة: ما من آدمي إلا ومعه ملك يذود عنه حتى يسلمه للذي قدر له. وقال أبو مجلز: جاء رجل إلى علي رضي الله عنه وهو يصلي، فقال: احترس، فإن ناساً يريدون قتلك، فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدر، فإذا جاء القدر خليا بينه وبينه، إن الأجل جنة حصينة. وقال بعضهم: ﴿يحفظونه من أمر الله﴾ بأمر الله، كما جاء في الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله أرأيت رقيا نسترقي بها، هل ترد من قدر الله شيئاً؟ فقال: «هي من قدر الله»، وقال ابن أبي حاتم: «أوحى الله إلى نبي من أنبياء بني إسرائيل أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها

(١) رواه مسلم وأحمد عن عبدالله بن مسعود.

إلى معصية الله إلا حوّل الله عنهم ما يحبون إلى ما يكرهون »، ثم قال: إن تصديق ذلك في كتاب الله: ﴿إن الله لا يغيّر ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾[1]

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾ وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ﴿١٣﴾﴾

يخبر تعالى أنه هو الذي يسخر البرق، وهو ما يرى من النور اللامع ساطعاً من خلل السحاب، ﴿خوفاً وطمعاً﴾، قال قتادة: خوفاً للمسافر يخاف أذاه ومشقته، وطمعاً للمقيم يرجو بركته ومنفعته ويطمع في رزق الله. ﴿وينشئ السحاب الثقال﴾ أي ويخلقها منشأة جديدة، وهي لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض، قال مجاهد: السحاب الثقال: الذي فيه الماء، ﴿ويسبح الرعد بحمده﴾، كقوله: ﴿وإن من شيء إلا يسبح بحمده﴾، وكان رسول الله ﷺ إذا سمع الرعد والصواعق قال: « اللهم لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك »[2]. وعن أبي هريرة رفعه، أنه كان إذا سمع الرعد قال: « سبحان من يسبح الرعد بحمده »، وعن عبد الله ابن الزبير أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث، وقال: سبحان الذي يسبّح الرعد بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد شديد لأهل الأرض[3] وروى الطبراني عن ابن عباس قال، قال رسول الله ﷺ: « إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله، فإنه لا يصيب ذاكراً »، وقوله تعالى: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء﴾ أي يرسلها نقمة ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر في آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد عن أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: « تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتي الرجل القوم فيقول: من صعق قبلكم الغداة؟ فيقولون: صعق فلان وفلان وفلان ».

وقد روي في سبب نزولها أن رسول الله ﷺ بعث رجلاً مرة إلى رجل من فراعنة العرب، فقال: « اذهب فادعه لي »، قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ، فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمن ذهب هو، أم من فضة هو، أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ، فأخبره، فقال: يا رسول الله قد خبرتك أنه أعتى من ذلك، قال لي: كذا وكذا. فقال لي: « ارجع إليه ثانية »، فذهب فقال له مثلها، فرجع إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك؛ فقال: « ارجع إليه فادعه »، فرجع إليه الثالثة قال: فأعاد عليه ذلك الكلام، فبينما هو يكلمه إذ بعث الله عزّ وجلّ سحابة حيال رأسه فرعدت، فوقعت منها صاعقة فذهبت بقحف رأسه، فأنزل الله عزّ وجلّ: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية[4]. وعن مجاهد قال: جاء يهودي فقال: يا محمد أخبرني عن ربك من أي شيء هو؟ من نحاس هو؟ أم من لؤلؤ، أو ياقوت؟ قال، فجاءت

(١) أخرجه ابن أبي حاتم عن إبراهيم النخعي موقوفاً، وقد ورد نحوه في حديث مرفوع رواه ابن أبي شيبة.

(٢) رواه الترمذي والنسائي والحاكم وأحمد، وأخرجه البخاري في كتاب الأدب.

(٣) رواه مالك في الموطأ والبخاري في كتاب الأدب.

(٤) رواه الحافظ أبو يعلى الموصلي وابن جرير عن أنس رضي الله عنه وأخرجه الحافظ البزار بنحوه.

صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وقال قتادة: ذكر لنا أن رجلاً أنكر القرآن، وكذّب النبي ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته، وأنزل الله: ﴿ويرسل الصواعق﴾ الآية، وذكروا في سبب نزولها قصة (عامر بن الطفيل) و (أربد بن ربيعة) لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر، فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلاً جرداً، ورجالاً مرداً، فقال له رسول الله ﷺ: «يأبى الله عليك ذلك وأبناء قيلة» يعني الأنصار، ثم أنهما همّا بالفتك برسول الله ﷺ فجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله تعالى منهما وعصمه، فخرجا من المدينة، فانطلقا في أحياء العرب يجمعان الناس لحربه عليه الصلاة والسلام، فأرسل الله على (أربد) سحابة فيها صاعقة فأحرقته، وأما (عامر بن الطفيل) فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غدة عظيمة، فجعل يقول: يا أهل عامر غدةٌ كغدة البكر، وموتٌ في بيت سلولية، حتى ماتا لعنهما الله، وأنزل الله في مثل ذلك: ﴿ويرسل الصواعق فيصيب بها من يشاء وهم يجادلون في الله﴾[1]، وقوله: ﴿وهم يجادلون في الله﴾ أي يشكون في عظمته وأنه لا إله إلا هو ﴿وهو شديد المحال﴾. قال ابن جرير: شديدة مماحلته في عقوبة من طغى عليه، وعتا وتمادى في كفره، وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون * فانظر كيف كان عاقبة مكرهم أنا دمرناهم وقومهم أجمعين﴾، وعن علي رضي الله عنه: ﴿وهو شديد المحال﴾ أي شديد الأخذ، وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿له دعوة الحق﴾ التوحيد، لا إله إلا الله[2] ﴿والذين يدعون من دونه﴾ أي ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله ﴿كباسط كفيه إلى الماء ليبلغ فاه﴾، قال علي بن أبي طالب: كمثل الذي يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبداً بيده، فكيف يبلغ فاه؟ وقال مجاهد: ﴿كباسط كفيه﴾ يدعو الماء بلسانه ويشير إليه فلا يأتيه أبداً، وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شيء، كما قال الشاعر:

فأصبحت مما كان بيني وبينها من الود مثل القابض الماء باليد

ومعنى هذا الكلام أن الذي يبسط يده إلى الماء إما قابضاً، وإما متناولاً له من بعد، كما أنه لا ينتفع بالماء الذي لم يصل إلى فيه الذي جعله محلاً للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلهاً غيره لا ينتفعون بهم أبداً في الدنيا ولا في الآخرة، ولهذا قال: ﴿وما دعاء الكافرين إلا في ضلال﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ﴿١٥﴾﴾

(١) روى هذه القصة الحافظ الطبراني عن عطاء بن يسار عن ابن عباس مفصلة أكثر من هذا.

(٢) قاله ابن عباس وقتادة.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذي قهر كل شيء ودان له كل شيء، ولهذا يسجد له كل شيء طوعاً من المؤمنين وكرهاً من الكافرين، ﴿وظلالهم بالغدو﴾ أي البكور، ﴿والآصال﴾ وهو آخر النهار، كقوله تعالى: ﴿أو لم يروا إلى ما خلق الله من شيء يتفيؤ ظلاله﴾ الآية.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو لأنهم معترفون بأنه هو الذي خلق السماوات والأرض وهو ربها ومدبرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لا لنفسها ولا لعابديها بطريق الأولى نفعاً ولا ضراً، أي لا تحصل لهم منفعة ولا تدفع عنهم مضرة، فهل يستوي من عبد هذه الآلهة مع الله ومن عبد الله وحده لا شريك له فهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قل هل يستوي الأعمى والبصير أم هل تستوي الظلمات والنور أم جعلوا لله شركاء خلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم﴾ أي أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الرب وتماثله في الخلق، فخلقوا كخلقه فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره، أي ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شيء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدل، ولا وزير له ولا ولد ولا صاحبة، ﴿تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً﴾، فأنكر تعالى عليهم ذلك، حيث اعتقدوا ذلك وهو تعالى لا يشفع أحد عنده إلا بإذنه، ﴿ولا تنفع الشفاعة عنده إلا لمن أذن له﴾، ﴿وكم من ملك في السموات﴾ الآية، وقال: ﴿إن كل من في السموات والأرض إلا آتي الرحمن عبداً﴾، فإذا كان الجميع عبيداً فلم يعبد بعضهم بعضاً بلا دليل ولا برهان؟ بل بمجرد الرأي والاختراع والابتداع فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿ولا يظلم ربك أحداً﴾.

أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق في ثباته وبقائه، والباطل في اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أنزل من السماء ماء﴾ أي مطراً، ﴿فسالت أودية بقدرها﴾ أي أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيراً من الماء، وهذا صغير وسع بقدره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علماً كثيراً، ومنها من لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها ﴿فاحتمل السيل زبداً رابياً﴾، أي فجاء على وجه الماء الذي سال في هذه الأودية زبد عالٍ عليه؛ هذا مثل، وقوله: ﴿ومما يوقدون عليه في النار ابتغاء حلية أو متاع﴾ الآية؛ هذا هو المثل

الثاني وهو ما يسبك في النار من ذهب أو فضة ﴿ ابتغاء حلية ﴾ أي ليجعل حلية أو نحاساً أو حديداً فيجعل متاعاً، فإنه يعلوه زبد منه، كما يعلو ذلك زبد منه، ﴿ كذلك يضرب الله الحق والباطل ﴾، أي إذا اجتمعا لاثباتَ للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب والفضة مما يسبك في النار، بل يذهب ويضمحل، ولهذا قال: ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء ﴾ أي لا ينتفع بـه بل يتفرق ويتمزق ويذهب في جانبي الوادي، ويعلق بالشجر وتنسفه الرياح، وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب ولا يرجع منه شيء ولا يبقى إلا الماء، وذلك الذهب ونحوه ينتفع بـه، ولهذا قال: ﴿ وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض كذلك يضرب الله الأمثال ﴾، كقوله تعالى: ﴿ وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون ﴾. وقال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكيت على نفسي لأن الله تعالى يقول: ﴿ وما يعقلها إلا العالمون ﴾، قال ابن عباس: هذا مثل ضربه الله احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله بـه أهله، وهو قوله: ﴿ فأما الزبد ﴾ وهو الشك ﴿ فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض ﴾ وهو اليقين، وكما يجعل الحلي في النـار فيؤخذ خالصه ويترك خبثه في النار، فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك. وقال العوفي عن ابن عباس قوله: ﴿ أنزل من السماء ماء فسالت أودية بقدرها فاحتمل السيل زبداً رابياً ﴾ يقول: احتمل السيل ما في الوادي من عود ودمنة، ﴿ ومما يوقدون عليه في النار ﴾ فهو الذهب والفضة والحلية والمتـاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خبث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، واما ما ينفع الأرض فما شربت من المـاء فأنبتت فجعل ذاك مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيء يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، وكذلك الهدى والحق، جاءا من عند الله فمن عمل بالحق كان له وبقي كما بقي مـا ينفع الناس في الأرض، وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل في النار فتأكل خبثه ويخرج جيده فينتفع به، فكذلك يضمحل الباطل، فإذا كان يوم القيامة وأقيم الناس وعرضت الأعمال فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وفي الصحيحين عن أبي موسى الأشعري رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: «إن مثل ما بعثني الله بـه من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها أخرى، إنمـا هي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ؛ فذلك مثل من فقه في دين الله ونفعه الله بما بعثني ونفع به فعلم وعلم؛ ومثل من لم يرفـع بذلك رأساً ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به».

﴿ لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾ ﴾

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء: ﴿ للذين استجابوا لربهم ﴾ أي أطاعوا الله ورسوله وانقادوا لأوامره وصدّقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الحسنى ﴾ وهو الجزاء الحسن كقوله تعالى: ﴿ وأما من آمن وعمل صالحاً

فله جزاء الحسنى وسنقول له من أمرنا يسراً﴾، وقال تعالى: ﴿للذين أحسنوا الحسنى وزيادة﴾، وقوله: ﴿والذين لم يستجيبوا له﴾ أي لم يطيعوا الله، ﴿لو أن لهم ما في الأرض جميعاً﴾ أي في الدار الآخرة، لو أنه يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهباً ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم، لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفاً ولا عدلاً ﴿أولئك لهم سوء الحساب﴾ أي في الدار الآخرة، أي يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عذب، ولهذا قال: ﴿ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾.

* أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَـٰبِ ﴿١٩﴾

يقول تعالى: لا يستوي من يعلم من الناس أن الذي ﴿أنزل إليك﴾ يا محمد ﴿من ربك﴾ هو الحق الذي لا شك فيه ولا مرية، بل هو كله حق يصدق بعضه بعضاً، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، فلا يستوي من تحقق صدق ما جئت بـه يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدي إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له ولا صدّقه ولا اتبعه، كقوله تعالى: ﴿لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة﴾، وقال هنا: ﴿أفمن يعلم أنما أنزل إليك من ربك الحق كمن هو أعمى﴾ أي أفهذا كهذا؟ لا استواء. وقوله: ﴿إنما يتذكر أولو الألباب﴾ أي إنما يتعظ ويعتبر أولو العقول السليمة الصحيحة؛ جعلنا الله منهم.

* ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَـٰقَ ﴿٢٠﴾ وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ﴿٢١﴾ وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾ جَنَّـٰتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ ءَابَآئِهِمْ وَأَزْوَٰجِهِمْ وَذُرِّيَّـٰتِهِمْ ۖ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ ۚ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة بأن لهم عقبى الدار، وهي العـاقبة والنصرة في الدنيا والآخرة ﴿الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق﴾ وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا ائتمن خان ﴿والذين يصلون ما أمر الله بـه أن يوصل﴾ من صلة الأرحام والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج وبذل المعروف، ﴿ويخشون ربهم﴾ أي فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله في ذلك ويخافون سوء الحساب في الدار الآخرة، فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة في جميع حركاتهم وسكناتهم، ﴿والذين صبروا ابتغاء وجه ربهم﴾ أي عن المحارم والمـآثم ففطموا أنفسهم عنها لله عزّ وجلّ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه، ﴿وأقاموا الصلاة﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها وخشوعها على الوجه الشرعي المرضي، ﴿وأنفقوا مما رزقناهم﴾ أي على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم، من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سراً وعلانية﴾ أي في السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ويدرؤون

بالحسنة السيئة﴾ أي يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحـد قابلوه بالجميل صبراً واحتمالاً وصفحاً وعفواً، كقوله تعالى: ﴿ادفع بالتي هي أحسن فإذا الذي بينك وبينه عداوة كأنه ولي حميم﴾، ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهؤلاء الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿جنات عدن﴾ والعدن: الإقامة، أي جنات إقامة يخلدون فيها. وقال الضحاك في قوله: ﴿جنات عدن﴾ مدينة الجنة فيها الرسل والأنبياء والشهداء، وأئمة الهدى والناس حولهم بعد والجنات حولها، وقوله: ﴿ومن صلح من آبائهم وأزواجهم وذرياتهم﴾ أي يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين لتقر أعينهم بهم، حتى إنه ترفع درجة الأدنى إلى درجة الأعلى امتناناً من الله، وإحساناً من غير تنقيص للأعلى عن درجته، كما قال تعالى: ﴿والذين آمنوا واتبعتهم ذريتهم بإيمان ألحقنا بهم ذريتهم﴾ الآية. وقوله: ﴿والملائكة يدخلون عليهم من كل باب سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾ أي وتدخل عليهم الملائكة من ههنا ومن ههنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة في دار السلام، في جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

روى الإمام أحمد، عن عبدالله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هـل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم، قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون الذين تسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم، فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتي هؤلاء ونسلم عليهم؟ فيقول: إنهم كانوا عباداً يعبدونني لا يشركون بي شيئاً، وتسد بهم الثغور، وتتقى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته في صدره لا يستطيع لهـا قضاء - قال - فتأتيهم الملائكة عند ذلـك فيدخلون عليهم من كل باب ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾»، ورواه أبو القاسم الطبراني، عن عبدالله بن عمرو عن النبي ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت منهم حاجة إلى سلطان لم تقض حتى يموت وهي في صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتي بزخرفها وزينتها فيقول: أين عبادي الذين قاتلوا في سبيلي وأوذوا في سبيلي وجاهدوا في سبيلي؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتي الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبّح بحمدك الليل والنهار ونقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عزّ وجلّ: هؤلاء عبادي الذين جاهدوا في سبيلي، وأوذوا في سبيلي، فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿سلام عليكم بمـا صبرتم فنعم عقبى الدار﴾»، وقد جـاء في الحديث أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء في رأس كل حول فيقول لهم: ﴿سلام عليكم بما صبرتم فنعم عقبى الدار﴾، وكذلك أبو بكر وعمر وعثمان.

وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾

هذا حال الأشقياء وصفاتهم وذكر مآلهم في الآخرة، ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم في الدنيا فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله بـه أن يوصل ويفسدون في الأرض﴾ كما ثبت في الحديث: « آية المنافق ثلاث إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان » ولهذا قال: ﴿ أولئك لهم اللعنة﴾ وهي الإبعاد عن الرحمة ﴿ ولهم سوء الدار﴾، وهي سوء العاقبة والمآل ﴿ ومأواهم جهنم وبئس المهاد﴾. وقال أبو العالية: هي ست خصال في المنافقين، وإذا كان فيهم الظهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله بعد ميثاقـه، وقطعوا مـا أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا في الأرض، وإذا كانت الظهرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا .

ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ وَفَرِحُوا۟ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾

يذكر تعالى أنه هو الذي يوسع الرزق على من يشاء ويقتر على من يشاء، لما له في ذلك من الحكمة والعدل، وفرح هؤلاء الكفار بمـا أوتوا من الحياة الدنيا استدراجاً لهم وإمهالا كما قال: ﴿ أيحسبون أنمـا نمدهم به من مال وبنين نسارع لهم في الخيرات بل لا يشعرون﴾، ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخر تعالى لعباده المؤمنين في الدار الآخرة فقال: ﴿ وما الحياة الدنيا في الآخرة إلا متاع﴾، كما قال: ﴿ قل متاع الدنيا قليل والآخرة خير لمن اتقى ولا تظلمون فتيلاً﴾، وقال: ﴿ بل تؤثرون الحياة الدنيا والآخرة خير وأبقى﴾، وقال الإمام أحمد، عن المستورد أخي بني فهر قال، قال رسول الله ﷺ: « ما الدنيا في الآخرة إلا كما يجعل أحدكم أصبعه هذه في اليم فلينظر بم ترجع »، وأشار بالسبابة[1]، وفي الحديث الآخر أن رسول الله ﷺ مر بجدي أسك ميت، والأسك الصغير الأذنين، فقال: « والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه »[2]

وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ ۗ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِ ۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾

يخبر تعالى عن المشركين قولهم ﴿ لولا﴾ أي هلا، ﴿ أنزل عليه آية من ربه﴾، كقولهم: ﴿ فليأتنا بآية كما أرسل الأولون﴾ وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وأن الله قادر على إجابة ما سألوا؛ ﴿ قل إن الله يضل من يشاء، ويهدي إليه من أناب﴾ أي هو المضل والهادي، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهـم إلى سؤالهم، فإن الهداية والإضلال ليس منوطاً بذلك، كما قال: ﴿ وما تغني الآيات والنذر عن قوم لا يؤمنون﴾، وقال: ﴿ ولو أننا نزلنا إليهم الملائكة وكلمهم الموتى وحشرنا عليهم كل شيء قبلاً ما كانوا ليؤمنوا إلا أن يشاء الله ولكن

(١) أخرجه مسلم في صحيحه . (٢) أخرجه مسلم أيضاً في صحيحه .

أكثرهم يجهلون﴾، ولهذا قال: ﴿قل إن الله يضل من يشاء ويهدي إليه من أناب﴾ أي ويهدي إليه من أناب إلى الله، ورجع إليه واستعان به وتضرع لديه، ﴿الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله﴾ أي تطيب وتركن إلى جانب الله وتسكن عند ذكره، وترضى بـه مولى ونصيراً، ولهذا قال: ﴿ألا بذكر الله تطمئن القلوب﴾ أي هو حقيقي بذلك، وقوله: ﴿الذين آمنوا وعملوا الصالحات طوبى لهم وحسن مآب﴾، قال ابن عباس: فرحٌ وقرة عين، وقال عكرمة: نعم ما لهم، وقال الضحاك: غبطة لهم. وقال إبراهيم النخعي: خير لهم، وقال قتادة: يقول الرجل: طوبى لك، أي أصبت خيراً، وقيل: حسنى لهم، و﴿وحسن مآب﴾ أي مرجع، وهذه الأقوال لا منافاة بينها، وروى السدي عن عكرمة: طوبى لهم هي الجنة، وبه قال مجاهد.

وروى ابن جرير، عن شهر بن حوشب قال: طوبى شجرة في الجنة كل شجر الجنة منها أغصانها، وهكذا روى غير واحد من السلف أن طوبى شجرة في الجنة في كل دار منها غصن منها، وذكر بعضهم أن الرحمن تبارك وتعالى غرسها بيده من حبة لؤلؤة وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة من عسل وخمر وماء ولبن. وروى البخاري ومسلم عن سهل بن سعد رضي الله عنه، أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها»، قال: فحدثت بها النعمان بـن أبي عياش الزرقي فقال: حدثني أبو سعيد الخدري عن النبي ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب الجواد المضمر السريع مائة عام ما يقطعها. وفي صحيح البخاري عن أنس رضي الله عنه قال، قال رسول الله ﷺ في قول الله تعالى: ﴿وظل ممدود﴾ قال: «في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها».

كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد في هذه الأمة ﴿لتتلو عليهم الذي أوحينا إليك﴾ أي تبلغهم رسالة الله إليهم كذلك أرسلنا في الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كذب الرسل من قبلك فلك بهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك فليحذر هؤلاء من حلول النقم بهم، قال الله تعالى: ﴿ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا﴾ أي كيف نصرناهم وجعلنا العـاقبة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة، وقوله: ﴿وهم يكفرون بالرحمن﴾ أي هذه الأمة التي بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن لا يقرون به، لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بـ﴿الرحمن الرحيم﴾ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا بسم الله الرحمن الرحيم، وقالوا: ما ندري ما الرحمن الرحيم[1]. وفي صحيح مسلم: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن». ﴿قل هو ربي لا إله إلا هو﴾ أي هذا الذي تكفرون به أنا مؤمن بـه معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربي لا إله إلا هو ﴿عليه توكلت﴾ أي في جميع أموري، ﴿وإليه متاب﴾ أي إليـه أرجع وأنيب فإنه لا يستحق ذلك أحد سواه.

(١) قاله قتادة، والحديث في صحيح البخاري.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ ۗ بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا ۗ أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا ۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾

يقول تعالى مادحاً للقرآن الذي أنزله على محمد ﷺ ومفضلاً له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ولو أن قرآناً سيرت به الجبال﴾ أي لو كان في الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع بـه الأرض وتنشق، أو تكلم بـه الموتى في قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك، لما فيه من الإعجاز الذي لا يستطيع الإنسان والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به جاحدون له، ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ أي مرجع الأمور كلها إلى الله عزّ وجل ما شاء كان، وما لم يشأ لم يكن، وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة لأنه مشتق من الجمع، وفي الحديث الصحيح، قال رسول الله ﷺ: «خفف على داود القرآن، فكان يأمر بدابته أن تسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه»[1]، والمراد بالقرآن هو الزبور، وقوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أي من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا ﴿أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعاً﴾ فإنه ليس ثمّ حجة ولا معجزة، أبلغ ولا أنجع في العقول والنفوس، من هذا القرآن الذي لو أنزله الله عزّ وجلّ على جبل لرأيته خاشعاً متصدعاً من خشية الله، وثبت في الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبي إلا وقد أوتي ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذي أوتيته وحياً أوحاه الله إليَّ، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعاً يوم القيامة» معناه أن معجزة كل نبي انقرضت بموته وهـذا القرآن حجة باقية على الآباد لا تنقضي عجائبه، ولا يخلق عن كثرة الرد، ولا يشبع منه العلماء.

وروي أن المشركين قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنـا الموتى كما كان عيسى يحيي الموتى لقومه، فأنزل الله هذه الآية: ﴿ولو أن قرآناً سيّرت به الجبال﴾[2]. وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم لفعل بقرآنكم، وقوله: ﴿بل لله الأمر جميعاً﴾ قال ابن عباس: أي لا يصنع من ذلك إلا ما شاء ولم يكن ليفعل. وقال غير واحد من السلف في قوله: ﴿أفلم ييأس الذين آمنوا﴾ أفلم يعلم الذين آمنوا، وقوله: ﴿ولا يزال الذين كفروا تصيبهم بما صنعوا قارعة أو تحل قريباً من دارهم﴾ أي بسبب تكذيبهم لا تزال القوارع تصيبهم في الدنيا أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿أفلا يرون أنا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها أفهم الغالبون﴾، قال الحسن: ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾: أي القارعة، وهذا هو الظاهر من السياق، وقال العوفي عن ابن عباس ﴿تصيبهم بمـا

(١) أخرجه البخاري وأحمد عن أبي هريرة.

(٢) رواه ابن أبي حاتم، وبه قال ابن عباس والشعبي وقتادة وغير واحد في سبب نزول هذه الآية.

صنعوا قارعة﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم، ﴿أو تحل قريباً من دارهم﴾ يعني نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم، وقال عكرمة في رواية عنه ﴿قارعة﴾: أي نكبة، ﴿حتى يأتي وعد الله﴾ يعني فتح مكة، وقال الحسن البصري: يوم القيامة، وقوله: ﴿إن الله لا يخلف الميعاد﴾ أي لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم في الدنيا والآخرة: ﴿فلا تحسبن الله مخلف وعده رسله إن الله عزيز ذو انتقام﴾ .

* وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾

يقول تعالى مسلياً لرسوله ﷺ في تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ولقد استهزئ برسل من قبلك﴾ أي فلك فيهم أسوة، ﴿فأمليت للذين كفروا﴾ أي أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ثم أخذتهم﴾ أخذة رابية فكيف بلغك ما صنعت بهم وكيف كان عقابي لهم؟ كما قال تعالى: ﴿وكأين من قرية أمليت لها وهي ظالمة ثم أخذتها وإلي المصير﴾. وفي الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد﴾ .

أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ ۗ وَجَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلْ سَمُّوهُمْ ۚ أَمْ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعْلَمُ فِى ٱلْأَرْضِ أَم بِظَٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ ۗ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ ﴿٣٣﴾

يقول تعالى: ﴿أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت﴾ أي حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر ولا يخفى عليه خافية ﴿ولا تعملون من عمل إلا كنا عليكم شهوداً إذ تفيضون فيه﴾، وقال تعالى: ﴿وما تسقط من ورقة إلا يعلمها﴾، وقال: ﴿سواء منكم من أسر القول ومن جهر به ومن هو مستخف بالليل وسارب بالنهار﴾، وقال: ﴿يعلم السر وأخفى﴾، وقال: ﴿وهو معكم أين ما كنتم والله بما تعملون بصير﴾، أفمن هو كذلك كالأصنام التي يعبدونها لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل ولا تكشف ضراً عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وجعلوا لله شركاء﴾ أي عبدوها معه من أصنام وأنداد وأوثان، ﴿قل سموهم﴾ أي أعلمونا بهم واكشفوا عنهم حتى يعرفوا فإنهم لا حقيقة لهم، ولهذا قال: ﴿أم تنبئونه بما لا يعلم في الأرض﴾ أي لا وجود له، لأنه لو كان لها وجود في الأرض لعلمها، لأنه لا تخفى عليه خافية ﴿أم بظاهر من القول﴾، قال مجاهد: بظنٍّ من القول، وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول، أي إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر وسميتموها آلهة، ﴿إن هي إلا أسماء سميتموها أنتم وآباؤكم ما أنزل الله بها من سلطان﴾، ﴿بل زين للذين كفروا مكرهم﴾ قال مجاهد: قولهم أي ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه آناء الليل وأطراف النهار، كقوله تعالى: ﴿وقيضنا لهم قرناء فزينوا لهم﴾ الآية، ﴿وصدوا عن السبيل﴾ أي بما زين لهم من صحة ما هم عليه صدوا بـه عن سبيل الله، ولهذا قال: ﴿ومن يضلل الله فما له من هاد﴾، كما قال: ﴿ومن يرد الله فتنته فلن تملك له من الله شيئاً﴾، وقال: ﴿إن تحرص على هداهم فإن الله لا يهدي من يضل وما لهم من ناصرين﴾ .

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) * مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥)﴾

ذكر تعالى عقاب الكفار وثواب الأبرار، فقال بعد إخباره عن حال المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿لهم عذاب في الحياة الدنيا﴾ أي بأيدي المؤمنين قتلاً وأسراً، ﴿ولعذاب الآخرة﴾ أي المدخر مع هذا الخزي في الدنيا ﴿أشق﴾ أي من هذا بكثير كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»، وهو كما قال صلوات الله وسلامه عليه: فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبداً في نار هي بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفاً، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿فيومئذ لا يعذب عذابه أحد ولا يوثق وثاقه أحد﴾، وقال تعالى: ﴿وأعتدنا لمن كذب بالساعة سعيراً * إذا رأتهم من مكان بعيد سمعوا لها تغيظاً وزفيراً﴾ ولهذا قرن هذا بقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون﴾ أي صفتها ونعتها ﴿تجري من تحتها الأنهار﴾ أي سارحة في أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها يفجرونها تفجيراً، أي يصرفونها كيف شاءوا وأين شاءوا، كقوله: ﴿مثل الجنة التي وعد المتقون فيها أنهار من ماء غير آسن﴾ الآية، وقوله: ﴿أكلها دائم وظلها﴾ أي فيها الفواكه والمطاعم والمشارب لا انقطاع ولا فناء. وفي الصحيحين من حديث ابن عباس في صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله رأيناك تناولت شيئاً في مقامك هذا ثم رأيناك تكعكعت، فقال: «إني رأيت الجنة - أو أريت الجنة - فتناولت منها عنقوداً، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا». وقال الحافظ أبو يعلى، عن جابر قال: بينما نحن في صلاة الظهر، إذ تقدم رسول الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئاً ليأخذه ثم تأخر، فلما قضى الصلاة قال له أبي بن كعب: يا رسول الله صنعت اليوم في الصلاة شيئاً ما رأيناك كنت تصنعه، فقال: «إني عرضت عليّ الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفاً من عنب لآتيكم بـه فحيل بيني وبينه، ولو أتيتكم بـه لأكل منه من بين السماء والأرض لا ينقصونه».

وروى الإمام أحمد والنسائي عن زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال: «نعم، والذي نفس محمد بيده إن الرجل منهم ليعطى قوة مائة رجل في الأكل والشرب والجماع والشهوة»، قال: إن الذي يأكل ويشرب تكون له الحاجة وليس في الجنة الأذى، قال: «تكون حاجة أحدهم رشحاً يفيض من جلودهم كريح المسك فيضمر بطنه»، وعن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال، قال لي رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير في الجنة فيخر بين يديك مشوياً»، وجاء في بعض الأحاديث أنه إذا فرغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى، وقد قال الله تعالى: ﴿وفاكهة كثيرة لا مقطوعة ولا ممنوعة﴾، وقال: ﴿ودانية عليهم ظلالها وذللت قطوفها تذليلاً﴾، وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص كما قال تعالى: ﴿لهم فيها أزواج مطهرة وندخلهم ظلاً ظليلاً﴾. وقد تقدم في الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن في الجنة شجرة يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع في ظلها مائة عام لا يقطعها» ثم قرأ: ﴿وظل ممدود﴾ وكثيراً ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار ليرغب في الجنة ويحذر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة

بما ذكر قال بعده: ﴿ تلك عقبى الذين اتقوا وعقبى الكافرين النار ﴾، كما قال تعالى: ﴿ لا يستوي أصحاب النار وأصحاب الجنة، أصحاب الجنة هم الفائزون ﴾.

﴿ وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ ۖ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ ۚ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ ۚ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾ وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِىٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾ ﴾

يقول تعالى: ﴿ والذين آتيناهم الكتاب ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يفرحون بما أنزل إليك ﴾ أي من القرآن لما في كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة، كما قال الله تعالى: ﴿ قل آمنوا بـه أو لا تؤمنوا – إلى قوله – إن كان وعد ربنا لمفعولاً ﴾ أي إن كان ما وعدنا الله به في كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقاً وصدقاً مفعولاً لا محالة وكائناً وقوله: ﴿ ومن الأحزاب من ينكر بعضه ﴾ أي ومن الطوائف من يكذب بعض ما أنزل إليك، وقال مجاهد ﴿ ومن الأحزاب ﴾: أي اليهود والنصارى ﴿ من ينكر بعضه ﴾ أي بعض ما جاءك من الحق، وهذا كما قال تعالى: ﴿ وإنَّ من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله ﴾ الآية، ﴿ قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به ﴾، أي إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلي، ﴿ إليه أدعو ﴾ أي إلى سبيله أدعو الناس، ﴿ وإليه مآب ﴾ أي مرجعي ومصيري، وقوله: ﴿ وكذلك أنزلناه حكماً عربياً ﴾ أي وكما أرسلنا قبلك المرسلين وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكماً معرباً شرفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلي، الذي ﴿ لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيل من حكيم حميد ﴾. وقوله: ﴿ ولئن اتبعت أهواءهم ﴾ أي آراءهم ﴿ بعد ما جاءك من العلم ﴾ أي من الله سبحانه، ﴿ ما لك من الله من ولي ولا واق ﴾، وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية، والمحجة المحمدية على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام.

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُوا۟ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ ۖ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾ ﴾

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد رسولاً بشرياً، كذلك قد بعثنا المرسلين قبلك بشراً يأكلون الطعام، ويمشون في الأسواق، ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجاً وذرية، وقد قال تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إليّ ﴾، وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر وأقوم وأنام، وآكل اللحم، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني». وقوله: ﴿ وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله ﴾ أي لم يكن يأتي قومه بخارق، إلا إذا أذن له فيه، ليس ذلك إليه بل إلى الله عزّ وجلّ، يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد، ﴿ لكل أجل كتاب ﴾ أي لكل مدة مضروبة كتاب مكتوب بها وكل شيء عنده

بمقدار، ﴿ألم تعلم أن الله يعلم ما في السموات والأرض إن ذلك في كتاب إن ذلك على الله يسير﴾. وكان الضحاك يقول: ﴿لكل أجل كتاب﴾: أي لكل كتاب أجل، يعني لكل كتاب أنزل من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا ﴿يمحو الله ما يشاء﴾ منها ﴿ويثبت﴾ يعني حتى نسخت كلها بالقرآن الذي أنزله الله على رسوله صلوات الله وسلامه عليه، وقوله: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ اختلف المفسرون في ذلك: فقال الثوري، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو الله ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة والحياة والموت. وفي رواية ﴿يمحو الله ويثبت﴾ قال: كل شيء إلا الموت والحياة، والشقاء والسعادة، فإنه قد فرغ منهما[1]، وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا، يقول: اللهم إن كان اسمي في السعداء فأثبته فيهم، وإن كان في الأشقياء فامحه عنهم، واجعله في السعداء، فقال: حسن؛ ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر فسألته عن ذلك، فقال: ﴿إنا أنزلناه في ليلة مباركة﴾ الآيتين، قال: يقضى في ليلة القدر ما يكون في السنة من رزق أو معصية، ثم يقدم ما يشاء ويؤخر ما يشاء، فأما كتاب السعادة والشقاوة فهو ثابت لا يغير، وقال الأعمش عن أبي وائل: إنه كان كثيراً يدعو بهذا الدعاء: اللهم إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب[2]، وقال ابن جرير، عن أبي عثمان النهدي أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وهو يطوف بالبيت ويبكي: اللهم إن كنت كتبت عليَّ شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة.

ومعنى هذه الأقوال أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول بما رواه الإمام أحمد، عن ثوبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه، ولا يرد القدر إلا الدعاء، ولا يزيد في العمر إلا البر»[3] وثبت في الصحيح أن صلة الرحم يزيد في العمر، وفي حديث آخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان بين السماء والأرض». وقال الكلبي: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، وقال العوفي عن ابن عباس: هو الرجل يعمل الزمان بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذي يمحو؛ والذي يثبت الرجل يعمل بمعصية الله وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو في طاعة الله وهو الذي يثبت. وقال علي بن أبي طلحة، عن ابن عباس: ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله ﴿وعنده أم الكتاب﴾، وجملة ذلك عنده في أم الكتاب الناسخ وما يبدل وما يثبت كل ذلك في كتاب، وقال مجاهد: قالت كفار قريش لما نزلت ﴿وما كان لرسول أن يأتي بآية إلا بإذن الله﴾: ما نرى محمداً يملك شيئاً وقد فرغ من الأمر، فأنزلت هذه الآية تخويفاً ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث في كل رمضان، فيمحو ما يشاء ويثبت ما يشاء من أرزاق الناس ومصائبهم وما يعطيهم وما يقسم لهم. وقال الحسن البصري ﴿يمحو الله ما يشاء ويثبت﴾ قال: من جاء أجله يذهب ويثبت الذي هو حي يجري إلى

(١) وهذا قول مجاهد أيضاً حيث قال: إلا الحياة والموت والشقاوة والسعادة فإنهما لا يتغيران.

(٢) أخرجه ابن جرير.

(٣) رواه أحمد والنسائي وابن ماجة.

أجله، وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير رحمه الله، وقوله: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الحلال والحرام، وقال قتادة: أي جملة الكتاب وأصله، وقال ابن جريج عن ابن عباس: ﴿وعنده أم الكتاب﴾ قال: الذكر.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

يقول تعالى لرسوله: ﴿وإما نرينك﴾ يا محمد بعض الذي نعد أعداءك من الخزي والنكال في الدنيا، ﴿أو نتوفينك﴾ أي قبل ذلك ﴿فإنما عليك البلاغ﴾ أي إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد فعلت ما أمرت به ﴿وعلينا الحساب﴾ أي حسابهم وجزاؤهم كقوله تعالى: ﴿إن إلينا إيابهم ۞ ثم إن علينا حسابهم﴾. وقوله: ﴿أولم يروا أنّا نأتي الأرض ننقصها من أطرافها﴾ قال ابن عباس: أولم يروا أنا نفتح لمحمد ﷺ الأرض بعد الأرض، وقال مجاهد وعكرمة: ﴿ننقصها من أطرافها﴾ قال: خرابها، وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين، وقال: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض، وقال الشعبي: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حشك[1]، ولكن تنقص الأنفس والثمرات، وقال ابن عباس في رواية: خرابها بموت علمائها وفقهائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء، وأنشد أحمد بن غزال:

الأرض تحيا إذا ما عاش عالمها ... متى يمت عالم منها يمت طرف
كالأرض تحيا إذا ما الغيث حلَّ بها ... وإن أبى عاد في أكنافها التلف

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، كقوله: ﴿ولقد أهلكنا ما حولكم من القرى﴾ الآية، وهذا اختيار ابن جرير.

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

يقول تعالى: ﴿وقد مكر الذين من قبلهم﴾ برسلهم وأرادوا إخراجهم من بلادهم فمكر الله بهم وجعل العاقبة للمتقين كقوله: ﴿وإذ يمكر بك الذين كفروا﴾ الآية، وقوله تعالى: ﴿ومكروا مكراً ومكرنا مكراً وهم لا يشعرون﴾ وقوله: ﴿يعلم ما تكسب كل نفس﴾ أي أنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر وسيجزي كل عامل بعمله، ﴿وسيعلم الكفار لمن عقبى الدار﴾ أي لمن تكون الدائرة والعاقبة لهم أو لأتباع الرسل، كلا، بل هي لأتباع الرسل في الدنيا والآخرة ولله الحمد والمنة.

﴿۞ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَسْتَ مُرْسَلًا ۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِى وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

يقول تعالى: يكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لست مرسلاً﴾ أي ما أرسلك الله، ﴿قل كفى بالله شهيداً

(١) الحُشّ والحِش: البستان، قال في القاموس: الحُشُّ مثلثة: المخرج لأنهم كانوا يقضون حوائجهم في البساتين.

بيني وبينكم﴾ أي حسبي الله هو الشاهد عليّ وعليكم، شاهد عليّ فيما بلّغت عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان، وقوله: ﴿ومن عنده علم الكتاب﴾ قيل نزلت في عبد الله بن سلام، وهذا القول غريب، لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم في أول مقدم النبي ﷺ المدينة، والأظهر في هذا ما قاله ابن عباس: هم من اليهود والنصارى، وهو يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته في كتبهم المتقدمة من بشارات الأنبياء بـه، كما قال تعالى: ﴿الذين يتبعون الرسول النبي الأمي الذين يجدونه مكتوباً عندهم في التوراة والإنجيل﴾ الآية، وقال تعالى: ﴿أولم يكن لهم آية أن يعلمه علماء بني إسرائيل﴾، وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بني إسرائيل أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة.

[تمّ تفسير سورة الرعد، ولله الحمد والمنة].

* * *

تفسير سورة الرعد

[وهى مكية][(١)].

بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ الٓمٓرۚ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ۝١ ﴾.

أما الكلام على الحروف المقطعة فى أوائل السور، فقد تقدم[(٢)] فى أول سورة البقرة، وقدَّمنا أن كل سورة تَبتدأ بهذه الحروف ففيها الانتصار للقرآن، وتبيان أن نزوله[(٣)] من عند الله حق لا شك فيه ولا مرية ولا ريب؛ ولهذا قال: ﴿ تِلْكَ آيَاتُ الْكِتَابِ ﴾ أى: هذه آيات الكتاب، وهو القرآن، وقيل: التوراة والإنجيل. قاله مجاهد وقتادة، وفيه نظر[(٤)]، بل هو بعيد.

ثم عطف على ذلك عطف صفات قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ ﴾ أى: يا محمد، ﴿ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ ﴾ خبر تقدم مبتدؤه، وهو قوله: ﴿ وَالَّذِي أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ﴾، هذا هو الصحيح المطابق لتفسير مجاهد وقتادة. واختار ابن جرير أن تكون الواو زائدة أو عاطفة صفة[(٥)] على صفة كما قدمنا، واستشهد بقول الشاعر:

إلى المَلك القَرْمِ وابن الهُمَام ... ولَيث الكتيبة فى المُزْدحَمْ[(٦)]

وقوله: ﴿ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾، كقوله: ﴿ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ ﴾ [يوسف: ١٠٣] أى: مع هذا البيان والجلاء والوضوح، لا يؤمن أكثرهم لما فيهم من الشقاق والعناد والنفاق.

﴿ اللَّهُ الَّذِي رَفَعَ السَّمَاوَاتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ الْأَمْرَ يُفَصِّلُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ ﴾.

يخبر تعالى عن كمال قدرته وعظيم سلطانه: أنه الذى بإذنه وأمره رَفَع السموات بغير عمَد، بل بإذنه وأمره[(٧)]، وتسخيره رفعها عن الأرض بُعداً لا تنال ولا يدرك مداها، فالسماء الدنيا محيطة

---

(١) زيادة من ت، أ.
(٢) فى أ: «تقدم الكلام عليها».
(٣) فى ت، أ: «أنه نزل».
(٤) فى ت، أ: «وفيه تطويل».
(٥) فى ت، أ: «الصفة».
(٦) البيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٢١).
(٧) فى ت، أ: «بل بأمره وبإذنه».

بجميع الأرض وما حولها من الماء والهواء من جميع نواحيها وجهاتها[١] وأرجائها، مرتفعة عليها من كل جانب على السواء، وبعد ما بينها وبين الأرض من كل ناحية مسيرة خمسمائة عام، وسمكها فى نفسها مسيرة خمسمائة عام. ثم السماء الثانية محيطة بالسماء الدنيا وما حوت، وبينها وبينها من البعد مسيرة خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، ثم السماء الثالثة محيطة[٢] بالثانية، بما فيها، وبينها[٣] وبينها خمسمائة عام، وسمكها خمسمائة عام، وكذا الرابعة والخامسة والسادسة والسابعة، كما قال [الله][٤] تعالى: ﴿ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ سَبْعَ سَمَوَاتٍ وَمِنَ الأَرْضِ مِثْلَهُنَّ يَتَنَزَّلُ الأَمْرُ بَيْنَهُنَّ لِتَعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا ﴾ [الطلاق: ١٢] وفى الحديث: «ما السمواتُ السبع وما فيهنّ وما بينهن فى الكرسى إلا كحلقة ملقاة بأرض فَلاَة، والكرسى فى العَرْش كتلك[٥] الحلقة فى تلك الفلاة[٦]»، وفى رواية: «والعرش لا يقدر قدره إلا الله، عز وجل، وجاء عن بعض السلف أن بُعد ما بين العرش إلى الأرض مسيرة خمسين ألف سنة، وبعد ما بين قطريه مسيرة خمسين ألف سنة، وهو من ياقوتة حمراء.

وقوله: ﴿ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ﴾: روى عن ابن عباس، ومجاهد، والحسن، وقتادة: أنهم قالوا: لها عَمَد ولكن لا ترى.

وقال إياس بن معاوية: السماء على الأرض مثل القبة، يعنى بلا عمد. وكذا روى عن قتادة، وهذا هو اللائق بالسياق. والظاهر من قوله تعالى: ﴿ وَيُمْسِكُ السَّمَاءَ أَن تَقَعَ عَلَى الأَرْضِ إِلا بِإِذْنِهِ ﴾ [الحج: ٦٥]، فعلى هذا يكون قوله: ﴿ تَرَوْنَهَا ﴾ تأكيدا لنفى ذلك، أى: هى مرفوعة بغير عمد كما ترونها. هذا هو الأكمل فى القدرة. وفى شعر أمية بن أبى الصلت الذى آمن شعره وكفر قلبه، كما ورد فى الحديث[٧]، ويروى لزيد بن عمرو بن نفيل، رحمه الله ورضى عنه:

وأنتَ الذى مِنْ فَضْلِ مَنٍّ وَرَحْمَةَ ... بَعَثْتَ إلى مُوسَى رَسُولاً مُنَاديا
فقلت له: فاذهَبْ وهارونَ فادعُوَا ... إلى الله فرْعَونَ الذى كانَ طَاغيا
وَقُولاَ له: هَلْ أنتَ سَوّيت هَذه ... بلا[وتَد حتَّى اطمأنت[٨] كَمَا هيا
وقُولا لَه: أأنتَ رَفّعتَ هَذه ... بلا][٩]عَمَد أرفِقْ إذَا بكَ بانيَا؟
وقُولا لَه: هَل أنتَ سَوَّيت وَسْطَهَا ... مُنيراً إذا ما جَنَّك الليْل هاديا

---

(١) فى ت، أ: «جهاتها ونواحيها». (٢) فى ت: «تحيط». (٣) فى أ: «بينهما».
(٤) زيادة من أ. (٥) فى أ: «كمثل».
(٦) سبق الكلام على هذا الحديث والذى بعده مفصلاً عند تفسير الآية: ٢٥٥ من سورة البقرة.
(٧) رواه ابن عبد البر فى التمهيد (٤/٧) من طريق أبى بكر الهذلى عن عكرمة قال: قلت لابن عباس: أرأيت ما جاء عن النبى ﷺ فى أمية بن أبى الصلت: «آمن شعره وكفر قلبه؟» قال: هو حق فما أنكرتم من ذلك ؟ . . . الحديث.
(٨) فى ت أ: «استقلت»، والمثبت من سيرة ابن هشام.
(٩) زيادة من ت، أ، وسيرة ابن هشام.

وقُولا له: مَنْ يُرسِلُ الشَّمس غُدوةً ... فيُصبحَ مامسَّتْ منَ الأرضِ ضَاحيا؟

وَقُولا له: مَن يُنبت الحَبَّ فى الثَّرَى ... فيُصبحَ منه العُشب يَهْتَزُّ رَابيا؟.

وَيُخْرجُ منه حبَّة فى رؤوسه ... فَفِى ذَاكَ آياتٌ لِمنْ كَانَ وَاعيا[١]

وقوله: ﴿ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ﴾: تقدم تفسير ذلك فى سورة «الأعراف»[٢]، وأنه يُمَرَّر[٣] كما جاء من غير تكييف، ولا تشبيه، ولا تعطيل، ولا تمثيل، تعالى الله علوا كبيرا.

وقوله: ﴿ وَسَخَّرَ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِي لأَجَلٍ مُسَمًّى﴾: قيل: المراد أنهما يجريان إلى انقطاعهما بقيام الساعة، كما فى قوله تعالى: ﴿ وَالشَّمْسُ تَجْرِي لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا ذَٰلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ ﴾ [يس: ٣٨].

وقيل: المراد إلى مستقرهما، وهو تحت العرش مما يلى بطن الأرض من الجانب الآخر، فإنهما وسائر الكواكب إذا وصلوا هنالك، يكونون أبعد ما يكون[٤] عن العرش؛ لأنه على الصحيح الذى تقومُ عليه الأدلة، قبة مما يلى العالم من هذا الوجه، وليس بمحيط كسائر الأفلاك؛ لأنه[٥] له قوائم وحمَلَة يحملونه. ولا يتصوّر هذا فى الفلك المستدير، وهذا واضح لمن تَدَبَّر ما وَرَدَتْ به الآيات والأحاديث الصحيحة، ولله الحمد والمنة.

وذكر الشمس والقمر؛ لأنهما أظهر الكواكب السيارة السبعة، التى هى أشرف وأعظم من الثوابت، فإذا كان قد سخر هذه، فَلأن يدخل فى التسخير سائرُ الكواكب بطريق الأولى والأحرى، كما نبه[٦] بقوله تعالى: ﴿ لا تَسْجُدُوا لِلشَّمْسِ وَلا لِلْقَمَرِ وَاسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي خَلَقَهُنَّ إِن كُنتُمْ إِيَّاهُ تَعْبُدُونَ﴾ [فصلت: ٣٧]. مع أنه قد صرح بذلك بقوله[٧]: ﴿ وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [الأعراف: ٥٤].

وقوله: ﴿ يُفَصِّلُ الآيَاتِ لَعَلَّكُم بِلِقَاءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ﴾ أى: يوضح[٨] الآيات والدلالات الدالة على أنه لا إله إلا هو، وأنه يعيد الخلق إذا شاء كما ابتدأ خلقه.

﴿ وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ (٣) وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ

(١) الأبيات فى السيرة النبوية لابن هشام (١/٢٢٨).
(٢) انظر: تفسير الآية: ٥٤.
(٣) فى ت: «يمر».
(٤) فى ت، أ: «ما يكونون».
(٥) فى ت، أ: «لأن».
(٦) فى ت: «بينه».
(٧) فى ت: «فى قوله».
(٨) فى ت، أ: «نوضح».

بَعْضٍ فِي الأُكُلِ إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ (٤)﴾.

لما ذكر تعالى العالم العلوى، شرع فى ذكر قدرته وحكمته وإحكامه للعالم السفلى، فقال: ﴿**وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الأَرْضَ**﴾أى: جعلها متسعة ممتدة فى الطول والعرض، وأرساها بجبال راسيات شامخات، وأجرى فيها الأنهار والجداول والعيون لسقى ما جعل فيها من الثمرات المختلفة الألوان والأشكال والطعوم والروائح، من كل زوجين اثنين، أى: من كل شكل صنفان.

﴿**يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ**﴾ أى: جعل كلا منهما [١] يطلب الآخر طلبا حثيثا، فإذا ذهب هذا غَشيه هذا، وإذا انقضى هذا جاء الآخر، فيتصرف أيضا فى الزمان كما تصرف فى المكان والسكان.

﴿**إِنَّ فِي ذَلِكَ لآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ**﴾ أى: فى آلاء الله وحكمته [٢] ودلائله.

وقوله: ﴿**وَفِي الأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ**﴾ أى: أراضٍ تجاور [٣] بعضها بعضا، مع أن هذه طيبة تنبت ما ينتفع به الناس، وهذه سَبَخة مالحة لا تنبت شيئا. هكذا رُوى عن ابن عباس، ومجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك، وغيرهم.

وكذا يدخل فى هذه الآية اختلافُ ألوان بقاع الأرض، فهذه تربة حمراء، وهذه بيضاء، وهذه صفراء، وهذه سوداء، وهذه محجرة[٤]، وهذه سهلة، وهذه مرملة، وهذه سميكة، وهذه رقيقة، والكل متجاورات. فهذه بصفتها، وهذه بصفتها الأخرى، فهذا كله مما يدل على الفاعل المختار، لا إله إلا هو، ولا رب سواه.

وقوله: ﴿**وَجَنَّاتٌ مِّنْ أَعْنَابٍ وَزَرْعٌ [٥] وَنَخِيلٌ**﴾: يحتمل [٦] أن تكون عاطفة على ﴿**جَنَّاتٌ**﴾، فيكون ﴿**وَزَرْعٌ**[٧] **وَنَخِيلٌ**﴾ مرفوعين. ويحتمل أن يكون معطوفا على أعناب، فيكون مجرورا؛ ولهذا قرأ بكلٍ منهما طائفة من الأئمة.

وقوله: ﴿**صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ**﴾: الصنوان: هى الأصول المجتمعة فى منبت واحد، كالرمان والتين وبعض النخيل، ونحو ذلك. وغير الصنوان: ما كان على أصل واحد، كسائر الأشجار، ومنه سمى عم الرجل صنو أبيه، كما جاء فى الحديث الصحيح: أن رسول الله ﷺ قال لعمر: «أما شعَرت[٨] أن عم الرجل صنو أبيه؟»[٩].

وقال سفيان الثورى، وشعبة، عن أبى إسحاق، عن البراء، رضى الله عنه: الصنوان: هى النخلات فى أصل واحد، وغير الصنوان: المتفرقات. وقاله ابن عباس، ومجاهد، والضحاك، وقتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

---

(١) فى ت: «منها». (٢) فى ت، أ: «وحكمه». (٣) فى ت: «يجاورها».
(٤) فى ت: «محجر». (٥) فى ت: «وزروع» وهو خطأ. (٦) فى ت: «تحتمل».
(٧) فى ت: «وزروع» وهو خطأ. (٨) فى أ: «أما علمت».
(٩) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٩٨٣) من حديث أبى هريرة، رضى الله عنه.

وقوله: ﴿ تُسْقَىٰ بِمَاءٍ وَاحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾: قال الأعمش، عن أبى صالح، عن أبي هريرة، رضى الله عنه، عن النبى ﷺ: ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾ قال: «الدَّقَل والفارسى، والحُلْو والحامض». رواه الترمذى وقال: حسن غريب[1].

أى: هذا الاختلاف فى أجناس الثمرات والزروع، فى أشكالها وألوانها، وطعومها وروائحها، وأوراقها وأزهارها.

فهذا فى غاية الحلاوة وذا فى غاية الحموضة، وذا [2] فى غاية المرارة وذا عَفِص، وهذا عذب وهذا [3] جمع هذا وهذا، ثم يستحيل إلى طعم آخر بإذن الله تعالى. وهذا أصفر وهذا أحمر، وهذا أبيض وهذا أسود وهذا أزرق. وكذلك الزهورات مع أن كلها يستمد [4] من طبيعة واحدة، وهو الماء، مع هذا الاختلاف الكثير الذى لا ينحصر ولا ينضبط، ففى ذلك آيات لمن كان واعيا، وهذا من أعظم الدلالات على الفاعل المختار، الذى بقدرته فاوت بين الأشياء وخلقها على ما يريد؛ ولهذا قال تعالى: ﴿ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ﴾.

﴿ وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴿٥﴾ ﴾.

يقول تعالى لرسوله محمد، صلوات الله وسلامه عليه: ﴿ وَإِن تَعْجَبْ﴾ من تكذيب هؤلاء المشركين بأمر المعاد مع ما يشاهدونه من آيات الله سبحانه ودلالاته فى خلقه على أنه القادر على ما يشاء، ومع ما يعترفون [5] به من أنه ابتدأ خلق الأشياء، فكونها بعد أن لم تكن شيئا مذكورا، ثم هم بعد هذا يكذبون خبره فى أنه سيعيد العالمين خلقا جديدا، وقد اعترفوا وشاهدوا ما هو أعجب مما كذبوا به، فالعجب من قولهم: ﴿ أَئِذَا كُنَّا تُرَابًا أَئِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ ﴾، وقد علم كل عالم وعاقل أن خلق السموات والأرض أكبر من خلق الناس، وأن من بدأ الخلق فالإعادة سهلة عليه، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّ اللَّهَ الَّذِي خَلَقَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضَ وَلَمْ يَعْيَ بِخَلْقِهِنَّ بِقَادِرٍ عَلَىٰ أَن يُحْيِيَ الْمَوْتَىٰ بَلَىٰ إِنَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [الأحقاف: ٣٣].

ثم نعت المكذبين بهذا فقال: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ ﴾ أى: يُسْحَبُون بها فى النار، ﴿ وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ أى: ماكثون فيها أبدا، لا يحولون عنها ولا يزولون.

﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ

---

(١) سنن الترمذى برقم (٣١١٨). والدقل: الردىء واليابس من التمر. والفارسى: نوع من التمر.

(٢) فى ت: «وهذا».

(٣) فى ت، أ: «وهذا قد جمع».

(٤) فى ت: «تستمد».

(٥) فى ت، أ: «يعرفون».

لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ (٦) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ[1] ﴾ أى: هؤلاء المكذبون ﴿ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ ﴾ أى: بالعقوبة، كما أخبر عنهم فى قوله: ﴿ وَقَالُوا يَا أَيُّهَا الَّذِي نُزِّلَ عَلَيْهِ الذِّكْرُ إِنَّكَ لَمَجْنُونٌ . لَوْ مَا تَأْتِينَا بِالْمَلائِكَةِ إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ . مَا نُنَزِّلُ الْمَلائِكَةَ إِلا بِالْحَقِّ وَمَا كَانُوا إِذًا مُّنظَرِينَ ﴾ [الحجر: ٦ ـ ٨]، وقال تعالى: ﴿ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَوْلا أَجَلٌ مُّسَمًّى لَّجَاءَهُمُ الْعَذَابُ وَلَيَأْتِيَنَّهُم بَغْتَةً وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ . يَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌ بِالْكَافِرِينَ ﴾ [العنكبوت: ٥٣، ٥٤]، وقال: ﴿ سَأَلَ سَائِلٌ بِعَذَابٍ وَاقِعٍ ﴾ [المعارج: ١]، وقال: ﴿ يَسْتَعْجِلُ بِهَا الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِهَا وَالَّذِينَ آمَنُوا مُشْفِقُونَ مِنْهَا وَيَعْلَمُونَ أَنَّهَا الْحَقُّ ﴾ [الشورى: ١٨]، ﴿ وَقَالُوا رَبَّنَا عَجِّل لَّنَا قِطَّنَا قَبْلَ يَوْمِ الْحِسَابِ ﴾ [ص: ١٦] أى: حسابنا وعقابنا، كما قال مخبرا عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالُوا اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴾ [الأنفال: ٣٢]، فكانوا[2] يطلبون من الرسول أن يأتيهم بعذاب الله، وذلك من شدة تكذيبهم وكفرهم وعنادهم.

قال الله تعالى: ﴿ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلاتُ ﴾ أى: قد أوقعنا نقمتنا بالأمم الخالية وجعلناهم مثلة وعبرة وعظة لمن اتعظ بهم.

ثم أخبر تعالى أنه لولا حلمه وعفوه [وغفره][3] لعاجلهم بالعقوبة، كما قال تعالى: ﴿ وَلَوْ يُؤَاخِذُ اللَّهُ النَّاسَ بِمَا كَسَبُوا[4] مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَابَّةٍ ﴾ [فاطر: ٤٥].

وقال تعالى فى هذه الآية الكريمة: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ ﴾ أى: إنه ذو عفو وصفح[5] وستر للناس مع أنهم يظلمون ويخطئون بالليل والنهار. ثم قرن هذا الحكم بأنه شديد العقاب، ليعتدل الرجاء والخوف، كما قال تعالى: ﴿ فَإِن كَذَّبُوكَ فَقُل رَّبُّكُمْ ذُو رَحْمَةٍ وَاسِعَةٍ وَلا يُرَدُّ بَأْسُهُ عَنِ الْقَوْمِ الْمُجْرِمِينَ ﴾ [الأنعام: ١٤٧]، وقال: ﴿ إِنَّ رَبَّكَ لَسَرِيعُ الْعِقَابِ وَإِنَّهُ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ [الأعراف: ١٦٧]، وقال: ﴿ نَبِّئْ عِبَادِي أَنِّي أَنَا الْغَفُورُ الرَّحِيمُ . وَأَنَّ عَذَابِي هُوَ الْعَذَابُ الأَلِيمُ ﴾ [الحجر: ٤٩، ٥٠]، إلى أمثال ذلك من الآيات التى تجمع الرجاء والخوف.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا موسى بن إسماعيل، حدثنا حماد، عن على بن زيد، عن سعيد بن المسيَّب قال: لما نزلت هذه الآية: ﴿ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ ﴾، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفو الله وتجاوزه، ما هنأ أحداً العيش[6]، ولولا وعيده[7] وعقابه، لاتكل كل أحد»[8].

وروى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة الحسن بن عثمان أبى حسان الزيادى: أنه رأى رب العزة فى

(١) فى ت، أ: «ويستعجلك» وهو خطأ. (٢) فى ت: «وكانوا». (٣) زيادة من أ.
(٤) فى ت: «الناس بظلمهم» وهو خطأ. (٥) فى ت: «ذو صفح وغفر». (٦) فى ت: «العريش».
(٧) فى ت: «وعده».
(٨) ورواه الواحدى فى الوسيط (٣/٦) من طريق محمد بن أيوب، عن موسى بن إسماعيل، به مرسلاً.

النوم، ورسول الله ﷺ واقف بين يديه يشفع فى رجل من أمته، فقال له: ألم يكفك أنى أنزلت عليك فى سورة الرعد: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾؟ قال: ثم انتبهت[(١)].

﴿ وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ (٧) ﴾.

يقول تعالى إخباراً عن المشركين أنهم يقولون كفرا وعنادا: لولا يأتينا بآية من ربه كما أرسل الأولون، كما تعتنوا عليه أن يجعل لهم الصفا ذهبا، وأن يزيل[(٢)] عنهم الجبال، ويجعل مكانها مروجا وأنهاراً، قال الله تعالى: ﴿ وَمَا مَنَعَنَا أَن نُّرْسِلَ بِالآيَاتِ إِلا أَن كَذَّبَ بِهَا الأَوَّلُونَ وَآتَيْنَا ثَمُودَ النَّاقَةَ مُبْصِرَةً فَظَلَمُوا بِهَا وَمَا نُرْسِلُ بِالآيَاتِ إِلاَّ تَخْوِيفًا﴾ [الإسراء: ٥٩].

قال الله تعالى: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ أى: إنما عليك أن تبلغ رسالة الله التى أمرك بها، ﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَاهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ يَهْدِي مَن يَشَاءُ﴾ [البقرة: ٢٧٢].

وقوله: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس، أى: ولكل قوم داع.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى تفسيرها: يقول الله تعالى: أنت يا محمد منذر، وأنا هادى كل قوم، وكذا قال مجاهد، وسعيد بن جُبَيْر، والضحاك.

وعن مجاهد: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: نبى. كما قال: ﴿وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلا خَلا فِيهَا نَذِيرٌ﴾ [فاطر: ٢٤]. وبه قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد.

وقال أبو صالح، ويحيى بن رافع: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ أى: قائد.

وقال أبو العالية: الهادى: القائد، والقائد: الإمام، والإمام: العمل.

وعن عِكْرِمة، وأبى الضُّحى: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ قالا: هو محمد [رسول الله][(٣)] ﷺ.

وقال مالك: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾: منَ يدعوهم إلى الله، عز وجل.

وقال أبو جعفر بن جرير: حدثنى أحمد بن يحيى الصوفى، حدثنا الحسن بن الحسين الأنصارى، حدثنا معاذ بن مسلم بياع الهروى، عن عطاء بن السائب، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس، رضى الله عنهما، قال: لما نزلت: ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: وضع رسول الله ﷺ يده على صدره، وقال: «أنا المنذر، ولكل قوم هاد». وأومأ بيده إلى منكب علىٍّ، فقال: «أنت الهادى يا على، بك يهتدى المهتدون من بعدى».

وهذا الحديث فيه نكارة شديدة[(٤)].

---

(١) تاريخ دمشق (٤/ ٤٧١ «المخطوط»).

(٢) فى ت، أ: «يزيح».

(٣) زيادة من أ.

(٤) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٥٧)، وقال الذهبى فى ميزان الاعتدال (١/ ٤٨٤) بعد أن ساقه فى ترجمة الحسن بن الحسين: «رواه ابن جرير فى تفسيره، عن أحمد بن يحيى، عن الحسن، عن معاذ، ومعاذ نكرة، فلعل الآفة منه».

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا على بن الحسين، حدثنا عثمان بن أبى شيبة، حدثنا المطلب بن زياد، عن السدى، عن عبد خير، عن على: ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾، قال: الهادى: رجل من بنى هاشم: قال الجنيد[1]: هو على بن أبى طالب، رضى الله عنه.

قال ابن أبى حاتم: وروى عن ابن عباس، فى إحدى الروايات، وعن أبى جعفر محمد بن على، نحو ذلك.

﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ (٨) عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ الْكَبِيرُ الْمُتَعَالِ (٩)﴾.

يخبر تعالى عن تمام علمه الذى لا يخفى عليه شىء، وأنه محيط بما تحمله الحوامل من كل إناث الحيوانات، كما قال تعالى: ﴿وَيَعْلَمُ مَا فِي الْأَرْحَامِ﴾ [لقمان: ٣٤] أى: ما حملت من ذكر أو أنثى، أو حسن أو قبيح، أو شقى أو سعيد، أو طويل العمر أو قصيره، كما قال تعالى: ﴿هُوَ أَعْلَمُ بِكُمْ إِذْ أَنشَأَكُم مِّنَ الْأَرْضِ وَإِذْ أَنتُمْ أَجِنَّةٌ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ فَلَا تُزَكُّوا أَنفُسَكُمْ هُوَ أَعْلَمُ بِمَنِ اتَّقَىٰ﴾ [النجم: ٣٢].

وقال تعالى: ﴿يَخْلُقُكُمْ فِي بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ خَلْقًا مِّن بَعْدِ خَلْقٍ فِي ظُلُمَاتٍ ثَلَاثٍ﴾ [الزمر: ٦] أى: خلقكم طورا من بعد طور، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنسَانَ مِن سُلَالَةٍ مِّن طِينٍ . ثُمَّ جَعَلْنَاهُ نُطْفَةً فِي قَرَارٍ مَّكِينٍ . ثُمَّ خَلَقْنَا النُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا الْعَلَقَةَ مُضْغَةً فَخَلَقْنَا الْمُضْغَةَ عِظَامًا فَكَسَوْنَا الْعِظَامَ لَحْمًا ثُمَّ أَنشَأْنَاهُ خَلْقًا آخَرَ فَتَبَارَكَ اللَّهُ أَحْسَنُ الْخَالِقِينَ﴾ [المؤمنون: ١٢ ـ ١٤]، وفى الصحيحين عن ابن مسعود قال: قال رسول الله[2] ﷺ: «إن خَلْق أحدكم يجمع فى بطن أمه أربعين يوما، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث إليه ملك فيؤمر بأربع كلمات: يكْتَب رزقه، وعمره، وعمله، وشقى أو سعيد»[3].

وفى الحديث الآخر: «فيقول الملك: أىْ رب، أذكر أم أنثى؟ أى رب، أشقى أم سعيد؟ فما الرزق؟ فما الأجل؟ فيقول الله، ويكتب المَلَك»[4].

وقوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾: قال البخارى: حدثنا إبراهيم بن المنذر، حدثنا مَعْن، حدثنا مالك، عن عبد الله بن دينار، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قال: «مفاتيح الغيب خمس لا يعلمها[5] إلا الله: لا يعلم ما فى غد إلا الله، ولا يعلم ما تغيض الأرحام إلا الله، ولا يعلم متى يأتى المطرُ أحدٌ إلا الله، ولا تدرى نفس بأى أرض تموت، ولا يعلم متى تقوم الساعة إلا الله»[6].

---

(١) فى أ: «ابن الجنيد». (٢) فى ت: «النبى».
(٣) صحيح البخارى برقم (٣٢٠٨) وصحيح مسلم برقم (٢٦٤٣).
(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٦٤٥) من حديث حذيفة بن أسيد، رضى الله عنه.
(٥) فى ت: «لا يعلمهن».
(٦) صحيح البخارى برقم (٤٦٩٧).

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾ يعنى: السَّقْط ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ يقول: ما زادت الرحم فى الحمل على ما غاضت حتى ولدته تماما. وذلك أن من النساء من تحمل عشرة أشهر، ومنهن من تحمل تسعة أشهر، ومنهن من تزيد فى الحمل، ومنهن من تنقص، فذلك الغيض[(١)] والزيادة التى ذكر الله تعالى، وكل ذلك بعلمه تعالى.

وقال الضحاك، عن ابن عباس فى قوله: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما نقصت من تسعة وما زاد عليها.

وقال الضحاك: وضعتنى أمى وقد حملتنى فى بطنها سنتين، وولدتنى وقد نبتت ثنيَّتى.

وقال ابن جُرَيْج، عن جميلة بنت سعد، عن عائشة قالت: لا يكون الحمل أكثر من سنتين، قدر ما يتحرك ظِل مغْزَل.

وقال مجاهد: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ﴾ قال: ما ترى من الدم فى حملها، وما تزداد على تسعة أشهر. وبه قال عطية العوفى وقتادة، والحسن البصرى، والضحاك.

وقال مجاهد أيضا: إذا رأت المرأة الدم دون التسعة زاد على التسعة، مثل أيام الحيض. وقاله عكرمة، وسعيد بن جبير، وابن زيد.

وقال مجاهد أيضا: ﴿وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ﴾: إراقة المرأة حتى يخسَّ الولد ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ إن لم تهرق المرأة تم الولد وعظم.

وقال مكحول: الجنين فى بطن أمه لا يطلب، ولا يحزن ولا يغتم، وإنما يأتيه رزقه فى بطن أمه من دم حيضتها[(٢)]، فمن ثم لا تحيض الحامل. فإذا وقع إلى الأرض استهل، واستهلاله استنكار[(٣)] لمكانه، فإذا قطعت سرته حول الله رزقه إلى ثديى أمه حتى لا يطلب ولايحزن ولا يغتم، ثم يصير طفلا يتناول الشىء بكفه فيأكله، فإذا هو بلغ قال: هو الموت أو القتل، أنَّى لى بالرزق؟ فيقول مكحول: يا ويلك[(٤)] ! غَذَاك وأنت فى بطن أمك، وأنت طفل صغير، حتى إذا اشتددت وعقلت قلت: هو الموت أو القتل، أني لي بالرزق؟ ثم قرأ مكحول: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَى وَمَا تَغِيضُ الأَرْحَامُ وَمَا تَزْدَادُ وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾.

وقال قتادة: ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ عِندَهُ بِمِقْدَارٍ﴾ أى: بأجل، حفظ أرزاق خلقه وآجالهم، وجعل لذلك أجلا معلوماً .

وفى الحديث الصحيح: أن إحدى بنات النبى ﷺ بعثت إليه: أن ابناً لها فى الموت، وأنها تحب أن يحضره. فبعث إليها يقول: «إن لله ما أخذ، وله ما أعطى، وكل شىء عنده بأجل مسمى، فمروها

---

(١) فى ت: «الغيظ».
(٢) فى ت: «حيضها».
(٣) فى ت: «استشكار».
(٤) فى ت: «يا ويحك».

فلتصبر ولتحتسب» الحديث بتمامه[(١)].

وقوله: ﴿عَالِمُ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ﴾ أى: يعلم كل شىء مما يشاهده العباد ومما يغيب عنهم، ولا يخفى[(٢)] عليه منه شىء. ﴿الْكَبِيرُ﴾ الذى هو أكبر من كل شىء، ﴿الْمُتَعَالِ﴾ أى: على كل شىء، قد أحاط بكل شىء علما، وقهر كل شىء، فخضعت له الرقاب ودان له العباد، طوعا وكرها.

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ (١٠) لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ (١١)﴾.

يخبر تعالى عن إحاطة علمه بجميع خلقه، سواء[(٣)] منهم من أسر قوله أو جهر به، فإنه يسمعه، لا يخفى عليه شىء كما قال: ﴿وَإِن تَجْهَرْ بِالْقَوْلِ فَإِنَّهُ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾ [طه:٧]، وقال: ﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ﴾ [النمل:٢٥]، وقالت عائشة، رضى الله عنها: سبحان الذى وسع سمعه الأصوات، والله لقد جاءت المجادلة تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ، وأنا فى جنب البيت، وإنه ليخفى على بعض كلامها، فأنزل الله: ﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ﴾ [المجادلة:١].

وقوله: ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ أى: مختف فى قَعْر بيته فى ظلام الليل، ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ أى: ظاهر ماش فى بياض النهار وضيائه، فإن كليهما[(٤)] فى علم الله على السواء، كما قال تعالى: ﴿أَلا حِينَ يَسْتَغْشُونَ ثِيَابَهُمْ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ﴾ [هود:٥]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ وَمَا يَعْزُبُ عَن رَّبِّكَ مِن مِّثْقَالِ ذَرَّةٍ فِي الأَرْضِ وَلا فِي السَّمَاءِ وَلا أَصْغَرَ مِن ذَلِكَ وَلا أَكْبَرَ إِلا فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ﴾[يونس:٦١].

وقوله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ أى: للعبد ملائكة يتعاقبون عليه، حَرَس بالليل وحَرَس بالنهار، يحفظونه من الأسواء[(٥)] والحادثات، كما يتعاقب ملائكة آخرون لحفظ الأعمال من خير أو شر، ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، فاثنان عن اليمين و[عن][(٦)] الشمال يكتبان الأعمال، صاحب اليمين يكتب الحسنات، وصاحب الشمال يكتب السيئات، وملكان آخران يحفظانه ويحرسانه، واحدا[(٧)] من ورائه وآخر من قدامه، فهو بين أربعة أملاك بالنهار، وأربعة آخرين بالليل بدلا، حافظان وكاتبان، كما جاء فى الصحيح: «يتعاقبون فيكم ملائكة بالليل وملائكة بالنهار، ويجتمعون فى صلاة الصبح وصلاة العصر، فيصعد إليه الذين باتوا فيكم فيسألهم وهو أعلم بكم:

(١) رواه البخارى فى صحيحه برقم (١٢٨٤) ومسلم فى صحيحه برقم (٩٢٣) من حديث أسامة بن زيد رضى الله عنه.
(٢) فى ت: «لا يخفى». (٣) فى ت: «وأنه سواء». (٤) فى ت: «كلاهما».
(٥) فى ت: «الأنواء». (٦) زيادة من ت. (٧) فى ت: «وآخر».

كيف تركتم عبادى؟ فيقولون: أتيناهم وهم يصلون، وتركناهم وهم يصلون»[١]. وفى الحديث الآخر: «إن معكم من لا يفارقكم إلا عند الخلاء وعند الجماع، فاستحيوهم وأكرموهم»[٢].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾: والمعقبات من أمر الله، وهى الملائكة.

وقال عكرمة، عن ابن عباس: ﴿ **يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ قال: ملائكة يحفظونه من بين يديه ومن خلفه، فإذا جاء قدر الله خَلَّوا عنه.

وقال مجاهد: ما من عبد إلا له[٣] مَلَك موكل، يحفظه فى نومه ويقظته من الجن والإنس والهوام، فما منها شىء يأتيه يريده إلا قال الملك: وراءك إلا شىء يأذن الله فيه فيصيبه.

وقال الثورى عن حبيب بن أبى ثابت، عن سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** ﴾ قال: ذلك[٤] ملك من ملوك الدنيا، له حرس من دونه حرس.

وقال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ** ﴾ يعنى: ولى الشيطان، يكون عليه الحرس. وقال عكرمة فى تفسيرها: هؤلاء الأمراء: المواكب من بين يديه ومن خلفه.

وقال الضحاك: ﴿ **لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ** ﴾ قال: هو السلطان[٥] المحترس[٦] من أمر الله، وهم أهل الشرك.

والظاهر، والله أعلم، أن مُرَاد ابن عباس وعكرمة والضحاك بهذا أن حرس الملائكة للعبيد[٧] يشبه حرس هؤلاء لملوكهم وأمرائهم.

وقد روى الإمام أبو جعفر بن جرير هاهنا حديثاً غريباً جداً فقال:

حدثنى المثنى، حدثنا إبراهيم بن عبد السلام بن صالح القُشيرى، حدثنا على بن جرير، عن حماد بن سلمة، عن عبد الحميد بن جعفر، عن كنانة العدوى قال: دخل عثمان بن عفان على رسول الله ﷺ. فقال: يا رسول الله، أخبرنى عن العبد، كم معه من ملك[٨]؟ فقال: «ملك على يمينك على حسناتك، وهو آمر[٩] على الذى على الشمال، إذا عملت حسنة كتبت عشرا، فإذا عملت سيئة قال الذى على الشمال للذى على اليمين: أكتب؟ قال: لا، لعله يستغفر الله ويتوب. فإذا قال ثلاثا قال:

---

(١) صحيح البخارى برقم (٥٥٥، ٧٤٢٩) وصحيح مسلم برقم (٦٣٢).

(٢) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٨٠٠) من طريق ليث، عن نافع، عن ابن عمر، رضى الله عنه، مرفوعاً، وأوله: «إياكم والتحرى فإن معكم». الحديث. وقال الترمذى: «هذا حديث غريب لانعرفه إلا من هذا الوجه».

(٣) فى ت، أ: «به». (٤) فى ت، أ: «ذكر». (٥) فى ت: «الشيطان».

(٦) فى أ: «المحروس». (٧) فى ت، أ: «للعبد». (٨) فى ت، أ: «كم ملك معه».

(٩) فى ت، أ: «وهو أمين».

نعم، اكتب أراحنا الله منه، فبئس القرين. ما أقل مراقبته لله وأقل استحياءه منا». يقول الله: ﴿ مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق: ١٨]، وملكان من بين يديك ومن خلفك، يقول الله: ﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾، وملك قابض على نصايتك، فإذا تواضعت لله رفعك، وإذا تجبرت على الله قصمك، وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على محمد ﷺ، وملك قائم على فيك لا يَدَع الحية أن تدخل فى فيك، وملكان على عينيك فهؤلاء عشرة أملاك على كل آدمى[١]، ينزلون[٢] ملائكة الليل على ملائكة النهار؛ لأن ملائكة الليل سوى ملائكة النهار، فهؤلاء عشرون ملكا على كل آدمى وإبليس بالنهار وولده بالليل»[٣].

قال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أسود بن عامر، حدثنا سفيان، حدثنى منصور، عن سالم ابن أبى الجعد عن أبيه، عن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد إلا وقد وكل به قرينه من الجن وقرينه من الملائكة». قالوا: وإياك يا رسول الله، قال: «وإياى، ولكن أعاننى الله عليه[٤]، فلا يأمرنى إلا بخير».

انفرد بإخراجه مسلم[٥].

وقوله: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: قيل: المراد حفظُهم له من أمر الله. رواه على بن أبى طلحة، وغيره، عن ابن عباس. وإليه ذهب مجاهد، وسعيد بن جبير، وإبراهيم النَّخَعى، وغيرهم.

وقال قتادة: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾ قال: وفى بعض القراءات: «يحفظونه بأمر الله».

وقال كعب الأحبار: لو تجلَّى لابن آدم كل سهل وحزن، لرأى كل شىء من ذلك شياطين[٦] لولا أن الله وكَّل بكم ملائكة عنكم فى مطعمكم ومشربكم وعوراتكم، إذاً لَتُخُطِّفتم.

وقال أبو أمامة[٧]: ما من آدمى إلا ومعه ملك يَذُود عنه، حتى يسلمه للذى قُدّر له.

وقال أبو مِجْلَز: جاء رجل من مُرَاد إلى على، رضى الله عنه، وهو يصلى، فقال: احترس، فإن ناساً من مراد يريدون قتلك. فقال: إن مع كل رجل ملكين يحفظانه مما لم يقدّر، فإذا جاء القَدَرُ خليا بينه وبينه، وإن الأجل جنة حَصِينة[٨].

وقال بعضهم: ﴿ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ ﴾: بأمر الله، كما جاء فى الحديث أنهم قالوا: يا رسول الله، أرأيت رُقًى نسترقى بها، هل ترد من قَدَر الله شيئا؟ فقال: «هى من قَدَر الله»[٩].

---

(١) فى ت، أ: «على كل بنى آدم».
(٢) فى ت، أ: «يبدلون».
(٣) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٧٠).
(٤) فى ت، أ: «ولكن الله أعاننى عليه».
(٥) المسند (١/ ٣٩٧) وصحيح مسلم برقم (٢٨١٤).
(٦) فى ت، أ: «من ذلك ساء نفسه».
(٧) فى أ: «أبو أسامة».
(٨) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٨).
(٩) رواه الترمذى فى السنن برقم (٢٠٦٥) من حديث أبى خزامة وقال: «حديث حسن».

وقال ابن أبي حاتم: حدثنا أبو سعيد الأشج، حدثنا حفص بن غِياث، عن أشعث، عن جَهْم، عن إبراهيم قال: أوحى الله إلى نبى من أنبياء بنى إسرائيل: أن قل لقومك: إنه ليس من أهل قرية ولا أهل بيت يكونون على طاعة الله فيتحولون منها إلى معصية الله، إلا تحول لهم مما يحبون إلى ما يكرهون، ثم قال: إن مصداق[1] ذلك فى كتاب الله: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾.

وقد ورد هذا فى حديث مرفوع، فقال الحافظ محمد بن عثمان بن أبى شيبة فى كتابه «صفة العرش»: حدثنا الحسن بن على، حدثنا الهيثم بن الأشعث السلمى، حدثنا أبو حنيفة اليمامى[2] الأنصارى، عن عمير بن عبد الله[3] قال: خطبنا على بن أبى طالب على منبر الكوفة، قال: كنت إذا سكتُّ عن رسول الله ﷺ ابتدأنى، وإذا سألته عن الخبر أنبأنى، وإنه حدثنى عن ربه، عز وجل، قال: «قال الرب: وعزتى وجلالى، وارتفاعى فوق عرشى، ما من أهل قرية ولا أهل بيت كانوا على ما كرهتُ من معصيتى، ثم تحولوا عنها إلى ما أحببت من طاعتى، إلا تحولت لهم عما يكرهون من عذابى إلى ما يحبون من رحمتى»[4].

وهذا غريب، وفى إسناده من لا أعرفه.

﴿**هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ الْبَرْقَ خَوْفًا وَطَمَعًا وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ (١٢) وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ وَالْمَلائِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ (١٣)**﴾.

يخبر تعالى أنه هو الذى يسخر البرق، وهو ما يرى[5] من النور اللامع ساطعا من خلل السحاب.

وروى ابن جرير أن ابن عباس كتب إلى أبى الجَلْد يسأله عن البرق، فقال: البرق: الماء.

وقوله: ﴿**خَوْفًا وَطَمَعًا**﴾: قال قتادة: خوفا للمسافر، يخاف أذاه ومشقته، وطمعا للمقيم يرجو بركته ومنفعته، ويطمع فى رزق الله.

﴿**وَيُنشِئُ السَّحَابَ الثِّقَالَ**﴾ أى: ويخلقها منشأة جديدة، وهى لكثرة مائها ثقيلة قريبة إلى الأرض.

قال مجاهد: والسحاب الثقال: الذى فيه الماء.

---

(١) فى ت، أ: «تصديق». (٢) فى هـ، ت، أ: «اليمانى» والصواب ما أثبتناه.

(٣) فى هـ، ت، أ: «عبد الملك»، والصواب ما أثبتناه.

(٤) صفة العرش برقم (١٩) والهيثم مجهول وشيخه لم أجد له ترجمة.

(٥) فى ت: «ماترى».

﴿ وَيُسَبِّحُ الرَّعْدُ بِحَمْدِهِ ﴾ كما قال تعالى: ﴿وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ ﴾ [الإسراء: ٤٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، حدثنا إبراهيم بن سعد، أخبرنى أبى قال: كنت جالساً إلى جنب حُمَيْد بن عبد الرحمن فى المسجد، فمر شيخ من بنى غفار، فأرسل إليه حميد، فلما أقبل قال: يا بن أخى، وسع[١] له فيما بينى وبينك، فإنه قد صَحب رسول الله ﷺ. فجاء حتى جلس فيما بينى وبينه، فقال له حميد: ما الحديث الذى حدثتنى عن رسول الله ﷺ؟ فقال الشيخ: سمعت رسول الله ﷺ يقول: «إن الله ينشئ السحاب، فينطق أحسن النطق، ويضحك أحسن الضحك»[٢].

والمراد ـ والله أعلم ـ أن نطقَها الرعدُ، وضحكها البرقُ.

وقال موسى بن عبيدة، عن سعد بن إبراهيم قال: يبعث الله الغيث، فلا أحسن منه مضحكا، ولا آنس منه منطقا، فضحكه البرق، ومنطقه الرعد.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبى، حدثنا هشام بن عبيد الله الرازى، عن محمد بن مسلم قال: بلغنا أن البرق مَلَكٌ له أربعة وجوه: وجه إنسان، ووجه ثور، ووجه نسر، ووجه أسد، فإذا مَصَعَ[٣] بذنبه فذاك البرق[٤].

وقال الإمام أحمد: حدثنا عفان، حدثنا عبد الواحد بن زياد، حدثنا الحجاج، حدثنى أبو مطر، عن سالم، عن أبيه قال: كان رسول الله ﷺ إذا سَمع الرعْد والصواعق قال: «اللهم، لا تقتلنا بغضبك، ولا تهلكنا بعذابك، وعافنا قبل ذلك».

ورواه الترمذى، والبخارى فى كتاب الأدب، والنسائى فى اليوم والليلة، والحاكم فى مستدركه، من حديث الحجاج بن أرطاة، عن أبى مطر ـ ولم يسم به[٥].

وقال [الإمام][٦] أبو جعفر بن جرير: حدثنا أحمد بن إسحاق، حدثنا أبو أحمد، حدثنا إسرائيل، عن أبيه[٧]، عن رجل، عن أبى هريرة، رفع الحديث قال: إنه كان إذا سمع الرعد قال: «سبحان من يُسبّح الرعد بحمده»[٨].

وروى عن على، رضى الله عنه، أنه كان إذا سمع صوت الرعد قال: سبحان من سَبَّحت له.

(١) فى ت: «أوسع».

(٢) المسند (٥/ ٤٣٥).

(٣) فى ت: «قصع».

(٤) وهذا لا أصل له من كتاب ولا سنة، وهو من الخيال.

(٥) المسند (٢/ ١٠٠) وسنن الترمذى (٣٤٥٠) والأدب المفرد برقم (٧٢٢) والنسائى فى السنن الكبرى برقم (١٠٧٦٤)، وأما الحاكم فرواه فى المستدرك (٤/ ٢٨٦) من طريق عبد الواحد بن زياد، عن أبى مطر، به. ولم يذكر الحجاج بن أرطاة، وقال: «صحيح الإسناد ولم يخرجاه» وأقره الذهبى، وضعف النووى هذا الحديث فى الأذكار (ص ١٦٤).

(٦) زيادة من ت، أ. (٧) فى ت، أ: «عن ليث».

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٣٨٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيره كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٨٤) من طريق محمد بن يحيى، عن أحمد ابن إسحاق عن أبى أحمد، عن عتاب بن زياد، عن رجل، عن أبى هريرة رفع الحدث. . . إلى آخره.

وكذا روى عن ابن عباس، والأسود بن يزيد، وطاوس: أنهم كانوا يقولون كذلك.

وقال الأوزاعى: كان ابن أبى زكريا يقول: من قال حين يسمع الرعد: سبحان الله وبحمده، لم تصبه صاعقة.

وعن عبد الله بن الزبير[١]: أنه كان إذا سمع الرعد ترك الحديث وقال: سبحان الذى يسبّح الرعدُ بحمده والملائكة من خيفته، ويقول: إن هذا لوعيد[٢] شديدٌ لأهل الأرض. رواه مالك فى الموطأ، والبخارى فى كتاب الأدب[٣].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سليمان بن داود الطيالسى، حدثنا صَدَقَة بن موسى، حدثنا محمد بن واسع، عن شتيز[٤] بن نهار، عن أبى هريرة أن رسول الله ﷺ قال: «قال ربكم عز وجل: لو أن عبيدى أطاعونى لأسقيتهم المطر بالليل، وأطلعت عليهم الشمس بالنهار، ولما أسمعتهم[٥] صوت الرعد»[٦].

وقال الطبرانى: حدثنا زكريا بن يحيى الساجى، حدثنا أبو كامل الجَحْدرى، حدثنا يحيى بن كثير أبو النضر، حدثنا عبد الكريم، حدثنا عطاء، عن ابن عباس قال: قال رسول الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعد فاذكروا الله؛ فإنه لا يصيب ذاكرا»[٧].

وقوله: ﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾ أى: يرسلها نقمَةَ ينتقم بها ممن يشاء، ولهذا تكثر فى آخر الزمان، كما قال الإمام أحمد:

حدثنا محمد بن مصعب، حدثنا عمارة[٨]، عن أبى نضرة، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه؛ أن النبى ﷺ قال: «تكثر الصواعق عند اقتراب الساعة، حتى يأتى الرجل القوم فيقول: من صُعِق تلكم[٩] الغداة؟ فيقولون صُعِق فلان وفلان وفلان»[١٠].

وقد روى فى سبب نزولها ما رواه الحافظ أبو يعلى الموصلى:

حدثنا إسحاق، حدثنا على بن أبى سارة الشَّيبانى، حدثنا ثابت، عن أنس: أن رسول الله ﷺ بعث رَجُلا مرة إلى رجل من فراعنة العرب فقال: «اذهب فادعه لى». قال: فذهب إليه فقال: يدعوك رسول الله ﷺ. فقال له: من رسول الله؟ وما الله؟ أمِن ذهب هو؟ أم من فضة هو؟ أم من نحاس هو؟ قال: فرجع إلى رسول الله ﷺ فأخبره، فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك،

---

(١) فى ت، أ: «بن عمرو». (٢) فى ت، أ: «الوعيد».
(٣) الموطأ (٢/ ٩٩٢) والأدب المفرد برقم (٧٢٤).
(٤) فى ت: «عن شمس»، وفى أ: «شمير». (٥) فى ت: «استمعتهم».
(٦) المسند (٢/ ٣٥٩).
(٧) المعجم الكبير (١١/ ١٦٤) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ١٣٦): «فيه يحيى بن كثير وهو ضعيف».
(٨) فى أ: «حماد». (٩) فى ت، أ: «قبلكم».
(١٠) المسند (٣/ ٦٤).

قال لى كذا وكذا. فقال: «ارجع إليه الثانية». أُراه، فذهب فقال له مثلها. فرجع إلى رسول الله ﷺ فقال: يا رسول الله، قد أخبرتك أنه أعتى من ذلك. قال: «ارجع إليه فادعه». فرجع إليه الثالثة. قال: فأعاد عليه ذلك الكلام. فبينا هو يكلمه، إذ بعث الله، عز وجل، سحابة حيال رأسه، فرعَدت، فوقعت منها صاعقة، فذهب بقِحْف رأسه فأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

ورواه ابن جرير، من حديث على بن أبى سارة، به[١]. ورواه الحافظ أبو بكر البزار، عن عبدة ابن عبد الله، عن يزيد بن هارون، عن ديلم بن غَزْوان، عن ثابت، عن أنس، فذكر نحوه[٢].

وقال: حدثنا الحسن بن محمد، حدثنا عفان، حدثنا أبان بن يزيد، حدثنا أبو عمران الجَوْنى، عن عبد الرحمن بن صُحَار العبدى: أنه بلغه أن نبى الله بعثه[٣] إلى جبَّار يدعوه، فقال: أرأيتم[٤] ربكم، أذهب هو؟ أو فضة هو؟ ألؤلؤ هو؟ قال: فبينا هو يجادلهم، إذ بعث الله سحابة فرعَدَت فأرسل عليه صاعقة فذهبت بقِحْفِ رأسه، ونزلت هذه الآية.

وقال أبو بكر بن عياش، عن ليث بن أبى سليم، عن مجاهد قال: جاء يهودى فقال: يا محمد، أخبرنى عن ربك، [من أى شىء هو][٥]، من نحاس هو؟ من لؤلؤ؟ أو ياقوت؟ قال: فجاءت صاعقة فأخذته، وأنزل الله: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾.

وقال قتادة: ذُكر لنا أنَّ رجلا أنكر القرآن، وكذَّب النبىَّ ﷺ، فأرسل الله صاعقة فأهلكته وأنزل: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ﴾ الآية.

وذكروا فى سبب نزولها قصة عامر بن الطفيل وأربد[٦] بن ربيعة لما قدما على رسول الله ﷺ المدينة، فسألاه أن يجعل لهما نصف الأمر فأبى عليهما رسول الله ﷺ، فقال له عامر بن الطفيل ـ لعنه الله: أما والله لأملأنها عليك خيلا جرْدا ورجالا مُرْداً. فقال له رسول الله ﷺ: يأبى الله عليك ذلك وأبناء قَيْلة[٧]، يعنى: الأنصار، ثم إنهما هما بالفتك[٨] بالنبى ﷺ، وجعل أحدهما يخاطبه، والآخر يستل سيفه ليقتله من ورائه، فحماه الله منهما وعَصمه، فخرجا من المدينة فانطلقا فى أحياء العرب، يجمعان الناس لحربه، عليه السلام[٩]، فأرسل الله على أربد سحابة فيها صاعقة فأحرقته. وأما عامر بن الطفيل فأرسل الله عليه الطاعون، فخرجت فيه غُدّة عظيمة، فجعل يقول: يا آل عامر، غُدَّة كغدَّة البكْر، وموت فى بيت سَلُولية[١٠]؟ حتى ماتا[١١]، لعنهما الله، وأنزل الله فى مثل ذلك:

---

(١) مسند أبى يعلى (٦/ ١٨٣) وتفسير الطبرى (١٦/ ٣٩٢) وعلى بن أبى سارة ضعيف.

(٢) مسند البزار برقم (٢٢٢١) «كشف الأستار» وقال الهيثمى فى المجمع (٧/ ٤٢): «رجال البزار، رجال الصحيح غير ديلم بن غزوان وهو ثقة».

(٣) فى ت، أ: «بعث». (٤) فى أ: «أرايتكم». (٥) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٦) فى ت: «وأزيد». (٧) فى ت، أ: «قبيلة». (٨) فى أ: «بالقتل».

(٩) فى أ: «ﷺ». (١٠) فى ت: «سلولته». (١١) فى أ: «مات».

﴿ وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ ﴾، وفى ذلك يقول لبيد بن ربيعة، أخو أربد يرثيه:

أخشَى عَلَى أَرْبَدَ الحُتُوفَ ولاَ ... أرْهَب نَوء السّماك والأسَد

فَجَعَنى الرّعْدُ والصّواعِقُ بالـ ... ـفارس يَوم الكريهَة النَّجُدِ[(١)]

وقال الحافظ أبو القاسم الطبرانى: حدثنا مَسْعَدة بن سعد[(٢)] العطار، حدثنا إبراهيم بن المنذر الحزامى، حدثنى عبد العزيز بن عمران، حدثنى عبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، عن أبيهما، عن عطاء بن يسار، عن ابن عباس، أن أربد بن قيس بن جَزْء بن جليد[(٣)] بن جعفر بن كلاب، وعامر بن الطفيل بن مالك، قدما المدينة على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو جالس، فجلسا بين يديه، فقال عامر بن الطفيل: يا محمد، ما تجعل لى إن أسلمتُ؟ فقال رسول الله ﷺ: «لك ما للمسلمين، وعليك ما عليهم». قال عامر بن الطفيل: أتجعل لى الأمر إن أسلمت من بعدك؟ قال رسول الله ﷺ: «ليس ذلك لك ولا لقومك، ولكن لك أعنَّة الخيل». قال: أنا الآن فى أعنَّة خيل نجد، اجعل لى الوَبَر ولك المدَرَ. قال رسول الله: «لا». فلما قفلا من عنده قال عامر: أما والله لأملأنَّهَا عليك خيلا ورجالا، فقال له رسول الله ﷺ: «يمنعك الله». فلما خرج أربد وعامر، قال عامر: يا أربد، أنا أشغل عنك محمدا ﷺ بالحديث، فاضربه بالسيف، فإن الناس إذا قتلتَ محمدا لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فنعطيهم[(٤)] الدية. قال أربد: افعل. فأقبلا راجعين إليه، فقال عامر: يا محمد، قم معى أكلمك. فقام معه رسول الله ﷺ، فجلسا إلى الجدار، ووقف معه رسول الله ﷺ يكلمه، وسَلّ أربدُ السيف، فلما وضع يده على السيف يَبست يده على قائم السيف، فلم يستطع سَلَّ السيف، فأبطأ أربد على عامر بالضرب، فالتفت رسول الله ﷺ فرأى أربد، وما يصنع، فانصرف عنهما. فلما خرج عامر وأربد من عند رسول الله ﷺ حتى إذا كانا بالحَرّة، حَرّة واقم نزلا، فخرج إليهما سعد بن معاذ وأسَيد بن حُضَير فقالا: اشخصا يا عدوّى الله، لعنكما الله. فقال عامر: من هذا يا سعد؟ قال: هذا أسَيد بن حُضَير الكتَائب[(٥)]. فخرجا حتى إذا كانا بالرَّقم، أرسل الله على أربدَ صاعقة فقتلته، وخرج عامر حتى إذا كان بالخريم، أرسل الله قُرْحة فأخذته، فأدركه الليل فى بيت امرأة من بنى سلول، فجعل يمس قُرحته فى حلقه ويقول: غُدَّة كغدَّة الجمل فى بيت سَلُولية[(٦)] ترغب أن يموت فى بيتها! ثم ركب فرسه فأحضره حتى مات عليه راجعا، فأنزل الله فيهما: ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ إلى قوله: ﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِ مِن وَالٍ﴾ [الرعد: ٨ ـ ١١] ـ قال: المعقبات من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ، ثم ذكر أربد وما قتله به، فقال: ﴿وَيُرْسِلُ الصَّوَاعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَاءُ﴾ الآية[(٧)].

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٣٧٩ ـ ٣٨٢) عن ابن زيد.

(٢) فى هـ، ت: «سعيد» وما أثبتناه هو الصواب؛ لوقوعه فى المعجم الكبير والصغير هكذا، ولم أجد له ترجمة.

(٣) فى أ: «خالد».

(٤) فى ت، أ: «فستعطيهم». (٥) فى ت، أ: «الكاتب». (٦) فى ت: «سلولته».

(٧) المعجم الكبير (١٠/ ٣٧٩ ـ ٣٨١) وفيه عبد العزيز بن عمران، وعبد الرحمن وعبد الله ابنا زيد بن أسلم، وكلهم ضعاف.

وقوله: ﴿وَهُمْ يُجَادِلُونَ فِي اللَّهِ﴾ أى: يَشُكّون فى عظمته، وأنه لا إله إلا هو، ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾.

قال ابن جرير: شديدة مماحَلَته فى عقوبة من طغى عليه وعتًا وتمادى فى كفره.

وهذه الآية شبيهة بقوله: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ﴾ [النمل: ٥٠، ٥١].

وعن على، رضى الله عنه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ الْمِحَالِ﴾ أى: شديد الأخذ. وقال مجاهد: شديد القوة.

﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ وَالَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِ لا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيْءٍ إِلاَّ كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَالِغِهِ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلاَّ فِي ضَلالٍ (١٤)﴾.

قال على بن أبى طالب، رضى الله عنه: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ قال: التوحيد. رواه ابن جرير.

وقال ابن عباس، وقتادة، ومالك عن محمد بن المنْكَدِر: ﴿لَهُ دَعْوَةُ الْحَقِّ﴾ [قال][1]: لا إله إلا الله.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ[2] مِن دُونِهِ﴾ أى: ومثل الذين يعبدون آلهة غير الله. ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى الْمَاءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ﴾: قال على بن أبى طالب: كمثل الذى يتناول الماء من طرف البئر بيده، وهو لا يناله أبدا بيده، فكيف يبلغ فاه؟

وقال مجاهد: ﴿كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾: يدعو الماء بلسانه، ويشير إليه [بيده][3]، فلا يأتيه أبدا.

وقيل: المراد كقابض يده على الماء، فإنه لا يحكم منه على شىء، كما قال الشاعر[4]:

فَإِنِّى وَإِيَّاكُمْ وَشَوْقًا إليكمُ ... كَقَابِض مَاء لَم تَسقْه[5] أنامله

وقال الآخر[6]:

فأَصبَحْتُ مِمَّا كانَ بَيْنِى وبَيْنَها ... مِن الوُدِّ مِثْلَ القَابِضِ المَاءَ بِاليَد

ومعنى الكلام: أن هذا الذى يبسط يده إلى الماء، إما قابضا وإما متناولا له من بُعد، كما أنه لا

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى ت: «تدعون». (٣) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٤) هو ضابئ بن الحارث البرجمى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٣٩٩) وأورده البغدادى فى خزانة الأدب (٤/ ٨٠) من أبيات سبعة قالها فى الحبس. اهـ مستفاداً من حاشية الشعب.

(٥) فى ت: «يسقه».

(٦) هو الأحوص بن محمد الأنصارى، والبيت فى تفسير الطبرى (١٦/ ٤٠٠).

ينتفع بالماء الذى لم يصل إلى فيه، الذى جعله محلا للشرب، فكذلك هؤلاء المشركون الذين يعبدون مع الله إلها غيره، لا ينتفعون بهم أبدا فى الدنيا ولا فى الآخرة؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَا دُعَاءُ الْكَافِرِينَ إِلا فِي ضَلالٍ﴾.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (١٥) ﴾.

يخبر تعالى عن عظمته وسلطانه الذى قهر كل شىء، ودان له كل شىء. ولهذا يسجُد له كلّ شىء طوعاً من المؤمنين، وكرها من المشركين، ﴿ وَظِلالُهُم بِالْغُدُوِّ ﴾ أى: البُكر[١] والآصال، وهو جمع أصيل وهو آخر النهار، كما قال تعالى: ﴿ أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ وَهُمْ دَاخِرُونَ ﴾ [النحل: ٤٨].

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ قُلِ اللَّهُ قُلْ أَفَاتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ لا يَمْلِكُونَ لأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلا ضَرًّا قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ قُلِ اللَّهُ خَالِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ الْوَاحِدُ الْقَهَّارُ (١٦) ﴾.

يقرر تعالى أنه لا إله إلا هو؛ لأنهم معترفون[٢] أنه هو الذى خلق السموات والأرض، وهو ربها ومدبّرها، وهم مع هذا قد اتخذوا من دونه أولياء يعبدونهم، وأولئك الآلهة لا تملك لنفسها[٣] ،ولا لعابديها بطريق الأولى ﴿ نَفْعًا وَلا ضَرًّا﴾ أى: لا تحصل منفعة، ولا تدفع مضرة. فهل يَستَوى من عبد هذه الآلهة مع الله، ومن عبد الله وحده لا شريك له، وهو على نور من ربه؟ ولهذا قال: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِي[٤] الظُّلُمَاتُ وَالنُّورُ أَمْ جَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِ فَتَشَابَهَ الْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ أى: أجعل هؤلاء المشركون مع الله آلهة تناظر الربّ وتماثله فى الخلق، فخلقوا كخلقه، فتشابه الخلق عليهم، فلا يدرون أنها مخلوقة من مخلوق غيره؟ أى: ليس الأمر كذلك، فإنه لا يشابهه شىء ولا يماثله، ولا ندّ له ولا عدْل[٥] له، ولا وزير له، ولا ولد ولا صاحبة، تعالى الله عن ذلك علوا كبيرا. وإنما عبد هؤلاء المشركون معه آلهة هم يعترفون[٦] أنها مخلوقة له عبيد له، كما كانوا يقولون فى تلبيتهم: لبيك لا شريك لك، إلا شريكا هو لك، تملكه وما ملك. وكما أخبر تعالى عنهم فى قوله: ﴿مَا[٧] نَعْبُدُهُمْ إِلا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾ [الزمر: ٣]، فأنكر تعالى ذلك عليهم، حيث اعتقدوا

---

(١) فى أ: «بالبكرات». (٢) فى ت: «يعرفون». (٣) فى ت: «لأنفسها».
(٤) فى ت: «يستوى». (٥) فى أ: «ولا عديل». (٦) فى ت، أ: «يعرفون».
(٧) فى ت: «إنما».

ذلك، وهو تعالى لا يُشَفَّع عنده أحداً إلا بإذنه، ﴿ولا تنفعُ الشَّفَاعَةُ عندهُ إلا لمنْ أذنَ لَهُ﴾ [سبأ: ٢٣]، ﴿وكَم مِّن مَّلَكٍ فِي السَّمَوَاتِ لا تُغْنِي شَفَاعَتُهُمْ شَيْئًا إِلاَّ مِن بَعْدِ أَن يَأْذَنَ اللَّهُ لِمَن يَشَاءُ وَيَرْضَى﴾ [النجم: ٢٦]، وقال: ﴿إِن كُلُّ مَن فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ إِلاَّ آتِي الرَّحْمَنِ عَبْدًا . لَقَدْ أَحْصَاهُمْ وَعَدَّهُمْ عَدًّا . وَكُلُّهُمْ آتِيهِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فَرْدًا﴾ [مريم: ٩٣ ـ ٩٥]، فإذا كان الجميع عبيدا، فلم يعبد بعضهم بعضا بلا دليل ولا برهان، بل بمجرد الرأى والاختراع والابتداع؟ ثم قد أرسل رسله من أولهم إلى آخرهم تزجرهم عن ذلك، وتنهاهم عن عبادة من سوَى الله، فكذبوهم وخالفوهم، فحقت عليهم كلمة العذاب لا محالة، ﴿وَلا يَظْلِمُ رَبُّكَ أَحَدًا﴾ [الكهف: ٤٩].

﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَاعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ (١٧)﴾.

اشتملت هذه الآية الكريمة على مثلين مضروبين للحق فى ثباته وبقائه، والباطل فى اضمحلاله وفنائه، فقال تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً﴾ أى: مطرا، ﴿فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا﴾ أى: أخذ كل واد بحسبه، فهذا كبير وسع كثيرا من الماء، وهذا صغير فَوسع بقَدْره، وهو إشارة إلى القلوب وتفاوتها، فمنها ما يسع علما كثيرا، ومنها ما لا يتسع لكثير من العلوم بل يضيق عنها، ﴿فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ أى: فجاء على وجه الماء الذى سال فى هذه الأودية زَبَدٌ عال عليه، هذا مثل، وقوله: ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، هذا هو المثل الثانى، وهو ما يسبك فى النار من ذهب أو فضة ﴿ابْتِغَاءَ حِلْيَةٍ﴾ أى: ليجعل حليةَ نحاس أو حديد، فيجعل متاعا فإنه يعلوه زَبَدٌ منه، كما يعلو ذلك[1] زبدٌ منه. ﴿كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْحَقَّ وَالْبَاطِلَ﴾ أى: إذا اجتمعا لا ثبات للباطل ولا دوام له، كما أن الزبد لا يثبت مع الماء، ولا مع الذهب ونحوه مما يسبك فى النار، بل يذهب ويضمحل؛ ولهذا قال: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾ أى: لا ينتفع به، بل يتفرق ويتمزق ويذهب فى جانبى الوادى، ويعلَق بالشجر وتنسفه الرياح. وكذلك خَبَث الذهب والفضة والحديد والنحاس يذهب، لا يرجع [2]منه شىء، ولا يبقى إلا الماء[3]، وذلك الذهب ونحوه ينتفع به؛ ولهذا قال: ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ كَذَلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ الأَمْثَالَ﴾، كما قال تعالى: ﴿وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ﴾ [العنكبوت: ٤٣].

قال بعض السلف: كنت إذا قرأتُ مثلاً من القرآن فلم أفهمه بكَيت على نفسى؛ لأن الله تعالى يقول: ﴿وَمَا يَعْقِلُهَا إِلا الْعَالِمُونَ﴾.

قال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ

(١) فى ت: «ذاك». (٢) فى ت، أ: «منه إلى شىء». (٣) فى ت، أ: «ويبقى الماء».

بِقَدَرِهَا﴾: هذا مثل ضربه الله، احتملت منه القلوب على قدر يقينها وشكها، فأما الشك فلا ينفع معه العمل، وأما اليقين فينفع الله به أهله. وهو قوله: ﴿فَأَمَّا الزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَاءً﴾، [وهو الشك][(١)]، ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ النَّاسَ فَيَمْكُثُ فِي الأَرْضِ﴾، وهو اليقين، وكما يجعل الحَلْى فى النار فيؤخذ خالصه ويترك خَبَثه فى النار؛ فكذلك يقبل الله اليقين ويترك الشك.

وقال العوفى عن ابن عباس قوله: ﴿أَنزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌ بِقَدَرِهَا فَاحْتَمَلَ السَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا﴾ يقول: احتمل السيل ما فى الوادى من عود ودِمْنَة[(٢)] ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِي النَّارِ﴾، فهو الذهب والفضة والحلية والمتاع والنحاس والحديد، فللنحاس والحديد خَبَث، فجعل الله مثل خبثه كزبد الماء، فأما ما ينفع الناس فالذهب والفضة، وأما ما ينفع الأرض فما شربت من الماء فأنبتت. فجعل ذاك[(٣)] مثل العمل الصالح يبقى لأهله، والعمل السيئ يضمحل عن أهله، كما يذهب هذا الزبد، فكذلك الهدى والحق جاءا من عند الله، فمن عمل بالحق كان له، ويبقى كما يبقى ما ينفع الناس فى الأرض. وكذلك الحديد لا يستطاع أن يعمل منه سكين ولا سيف حتى يدخل فى النار فتأكل خَبَثه، ويخرج جيده فينتفع به. كذلك يضمحل الباطل إذا كان يوم القيامة، وأقيم الناس، وعرضت الأعمال، فيزيغ الباطل ويهلك، وينتفع أهل الحق بالحق.

وكذلك رُوِى فى تفسيرها عن مجاهد، والحسن البصرى، وعطاء، وقتادة، وغيرواحد من السلف والخلف.

وقد ضرب الله، سبحانه وتعالى، فى أول سورة البقرة للمنافقين مثلين ناريًا ومائيا، وهما قوله: ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ الَّذِي اسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ الآية [البقرة: ١٧]، ثم قال: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ السَّمَاءِ فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ الآية [البقرة: ١٩]. وهكذا ضرَب للكافرين فى سورة النور مثلين، أحدهما: قوله: ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً﴾ الآية [النور: ٣٩]، والسراب إنما يكون فى شدة الحر؛ ولهذا جاء فى الصحيحين: «فيقال لليهود يوم القيامة: فما تريدون؟ فيقولون: أىْ ربَّنا، عطشنا فاسقنا. فيقال: ألا تَرِدُون؟ فَيرِدُون النار فإذا هى كالسراب يَحْطِم بعضها بعضا».

ثم قال فى المثل الآخر: ﴿أَوْ كَظُلُمَاتٍ فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ﴾ الآية [النور: ٤٠]. وفى الصحيحين عن أبى موسى الأشعرى قال: قال رسول الله ﷺ: «إن مثل ما بعثنى الله به من الهدى والعلم، كمثل غيث أصاب أرضا، فكان منها طائفة قبلت الماء فأنبتت[(٤)] الكلأ والعشب الكثير، وكانت منها أجادب أمسكت الماء، فنفع الله بها الناس، فشربوا ورعوا وسقوا وزرعوا، وأصابت طائفة منها [أخرى][(٥)]، إنما هى قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كلأ، فذلك مثل من

---

(١) زيادة من ت، أ. (٢) فى أ: «ورمة». (٣) فى ت، أ: «ذلك».
(٤) فى ت: «وأنبتت». (٥) زيادة من ت، أ، والصحيحين.

فَقه فى دين الله ونَفَعه الله بما بعثنى[(١)] ونفع به، فَعَلِم وَعَلَّم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسا ولم يقبل هُدَى الله الذى أرسلت به»[(٢)].

فهذا مثل مائى، وقال فى الحديث الآخر الذى رواه الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة عن رسول الله ﷺ أنه قال: «مثلى ومثلكم، كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله[(٣)]، جعل الفَرَاش وهذه[(٤)] الدواب التى يقعن فى النار يقعن فيها، وجعل يحجزهُنَّ ويغلبنه فيقتحمن فيها». قال: «فذلكم مثلى ومثلكم، أنا آخذ بحُجزكم عن النار، هَلُمّ عن النار [هَلُمّ عن النار، هَلُمّ][(٥)]، فتغلبونى فتقتحمون فيها». وأخرجاه فى الصحيحين أيضا[(٦)]، فهذا مثل نارى.

﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ الْحُسْنَىٰ وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُ مَعَهُ لَافْتَدَوْا بِهِ أُولَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ (١٨) ﴾.

يخبر تعالى عن مآل السعداء والأشقياء فقال: ﴿ لِلَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمُ ﴾ أى: أطاعوا الله ورسوله، وانقادوا لأوامره، وصدقوا أخباره الماضية والآتية، فلهم ﴿ الْحُسْنَىٰ ﴾، وهو الجزاء الحسن[(٧)]، كما قال تعالى مخبراً عن ذى القرنين أنه قال: ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا . وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا ﴾ [الكهف: ٨٧، ٨٨]، وقال تعالى: ﴿ لِّلَّذِينَ أَحْسَنُوا الْحُسْنَىٰ وَزِيَادَةٌ ﴾ [يونس: ٢٦].

وقوله: ﴿وَالَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا لَهُ﴾ أى لم: يطيعوا الله ﴿ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾ أى: فى الدار الآخرة، لو أن يمكنهم أن يفتدوا من عذاب الله بملء الأرض ذهبا ومثله معه لافتدوا به، ولكن لا يتقبل منهم؛ لأنه تعالى لا يقبل منهم يوم القيامة صرفا ولا عدلا، ﴿ أُوْلَٰئِكَ لَهُمْ سُوءُ الْحِسَابِ ﴾ أى: فى الدار الآخرة، أى: يناقشون على النقير والقطمير، والجليل والحقير، ومن نوقش الحساب عُذب؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمِهَادُ﴾.

﴿ أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُوا الْأَلْبَابِ (١٩) ﴾.

---

(١) فى ت، أ: «بعثنى به».

(٢) صحيح البخارى برقم (٧٩) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٢).

(٣) فى ت: «ما حولها». (٤) فى أ: «وهذا». (٥) زيادة من ت، أ، والمسند.

(٦) المسند (٢/ ٣١٢) وصحيح البخارى برقم (٦٤٨٢) وصحيح مسلم برقم (٢٢٨٤) وهو عنده من هذا الطريق.

(٧) فى ت: «الخير».

يقول تعالى: لا يستوى من يعلم من الناس أن الذى ﴿أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ يا محمد ﴿مِن رَّبِّكَ﴾ هو ﴿الْحَقُّ﴾ أى: الذى لا شك فيه ولا مرية ولا لبس فيه ولا اختلاف فيه، بل هو كله[1] حق يصدق بعضه بعضا، لا يضاد شيء منه شيئاً آخر، فأخباره كلها حق، وأوامره ونواهيه عدل، كما قال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً﴾ [الأنعام: ١١٥] أى: صدقاً فى الإخبار، وعدلا فى الطلب، فلا يستوى من تحقق صدق[2] ما جئت به يا محمد، ومن هو أعمى لا يهتدى إلى خير ولا يفهمه، ولو فهمه ما انقاد له، ولا صدقه ولا اتبعه، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠]، وقال فى هذه الآية الكريمة: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ الْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَى﴾؟ أى: أفهذا كهذا؟ لا استواء[3].

وقوله: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُولُوا الأَلْبَابِ﴾ أى: إنما يتعظ ويعتبر ويعقل أولو العقول السليمة الصحيحة[4]، جعلنا الله منهم [بفضله وكرمه][5].

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ (٢٠) وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوءَ الْحِسَابِ (٢١) وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُمْ سِرًّا وَعَلانِيَةً وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ أُولَئِكَ لَهُمْ عُقْبَى الدَّارِ (٢٢) جَنَّاتُ عَدْنٍ يَدْخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ (٢٣) سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ (٢٤)﴾.

يقول تعالى مخبراً عمن اتصف بهذه الصفات الحميدة، بأن لهم ﴿عُقْبَى الدَّارِ﴾، وهى العاقبة والنصرة فى الدنيا والآخرة.

﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ اللَّهِ وَلا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾، وليسوا كالمنافقين الذين إذا عاهد أحدهم غدر، وإذا خاصم فجر، وإذا حدث كذب، وإذا ائتمن خان.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ﴾، من صلة الأرحام، والإحسان إليهم وإلى الفقراء والمحاويج، وبذل المعروف، ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أى: فيما يأتون وما يذرون من الأعمال، يراقبون الله فى ذلك، ويخافون سوء الحساب فى الدار الآخرة. فلهذا أمرهم على السداد والاستقامة فى جميع حركاتهم وسكناتهم وجميع أحوالهم القاصرة والمتعدية.

﴿وَالَّذِينَ صَبَرُوا ابْتِغَاءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ أى: عن المحارم والمآثم، ففطموا[6] نفوسهم عن ذلك لله عز

---

(١) فى ت، أ: «كلمة». (٢) فى ت، أ: «صحة». (٣) فى ت، أ: «لا سواء».
(٤) فى ت: «الصحيحة السليمة». (٥) زيادة من أ. (٦) فى أ: «فعظموا».

وجل؛ ابتغاء مرضاته وجزيل ثوابه ﴿ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ﴾ بحدودها ومواقيتها وركوعها وسجودها[(١)] وخشوعها على الوجه الشرعى المرضى، ﴿وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقْنَاهُم﴾ أى: على الذين يجب عليهم الإنفاق لهم من زوجات وقرابات وأجانب، من فقراء ومحاويج ومساكين، ﴿سِرًّا وَعَلانِيَةً﴾ أى: فى السر والجهر، لم يمنعهم من ذلك حال من الأحوال، فى آناء الليل وأطراف النهار، ﴿ وَيَدْرَءُونَ بِالْحَسَنَةِ السَّيِّئَةَ ﴾ أى: يدفعون القبيح بالحسن، فإذا آذاهم أحد قابلوه بالجميل صبرا واحتمالا وصفحا وعفوا، كما قال تعالى: ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴾ [فصلت: ٣٤، ٣٥]؛ ولهذا قال مخبراً عن هؤلاء السعداء المتصفين بهذه الصفات الحسنة بأن لهم عقبى الدار، ثم فسر ذلك بقوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾ والعدن: الإقامة، أى: جنات إقامة يخلدون[(٢)] فيها.

وعن عبد الله بن عمرو أنه قال: إن فى الجنة قصرا يقال له: «عدن»، حوله البروج والمروج، فيه خمسة آلاف باب، على كل باب خمسة آلاف حِبْرة[(٣)]، لا يدخله إلا نبى أو صديق أو شهيد.

وقال الضحاك فى قوله: ﴿ جَنَّاتُ عَدْنٍ﴾: مدينة الجنة، فيها الرسل والأنبياء والشهداء وأئمة الهدى، والناس حولهم بعد والجنات حولها. رواهما ابن جرير.

وقوله: ﴿ وَمَن صَلَحَ مِنْ آبَائِهِمْ وَأَزْوَاجِهِمْ وَذُرِّيَّاتِهِمْ ﴾ أى: يجمع بينهم وبين أحبابهم فيها من الآباء والأهلين والأبناء، ممن هو صالح لدخول الجنة من المؤمنين؛ لتقر أعينهم بهم، حتى إنه[(٤)] ترفع[(٥)] درجة الأدنى إلى درجة الأعلى، من غير تنقيص لذلك الأعلى عن درجته، بل امتناناً من الله وإحسانا، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاتَّبَعْنَاهُمْ[(٦)] ذُرِّيَّتُهُم بِإِيمَانٍ أَلْحَقْنَا بِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ[(٧)] وَمَا أَلَتْنَاهُم مِّنْ عَمَلِهِم مِّن شَيْءٍ كُلُّ امْرِئٍ بِمَا كَسَبَ رَهِينٌ﴾ [الطور: ٢١].

وقوله: ﴿وَالْمَلائِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ . سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ ﴾. أى: وتدخل عليهم الملائكة من هاهنا وهاهنا للتهنئة بدخول الجنة، فعند[(٨)] دخولهم إياها تفد عليهم الملائكة مسلِّمين مهنئين لهم بما حصل لهم من الله من التقريب والإنعام، والإقامة فى دار السلام، فى جوار الصديقين والأنبياء والرسل الكرام.

وقال الإمام أحمد، رحمه الله: حدثنا أبو عبد الرحمن، حدثنى سعيد بن أبى أيوب، حدثنا[(٩)] معروف بن سُوَيْد الجذامى عن أبى عُشَّانة المعافرى، عن عبد الله بن عمرو بن العاص، رضى الله عنهما[(١٠)]، عن رسول الله ﷺ أنه قال: «هل تدرون أول من يدخل الجنة من خلق الله؟» قالوا: الله ورسوله أعلم. قال: «أول من يدخل الجنة من خلق الله الفقراء المهاجرون[(١١)] الذين تُسدُّ بهم الثغور،

---

(١) فى ت: «وسجودها وركوعها». (٢) فى ت: «تخلدون».
(٣) فى أ: «حرة». (٤) فى أ: «إنهم». (٥) فى أ: «ترفع من».
(٦) فى ت: «واتبعتهم». (٧) فى أ: «ذرياتهم». (٨) فى ت، أ: «عند».
(٩) فى ت، أ: «حدثنى». (١٠) فى ت: «عنه». (١١) فى ت: «المهاجرين».

وتُتَّقَى بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره لا يستطيع لها قضاء، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيوهم. فتقول الملائكة: نحن سكان سمائك، وخيرتك من خلقك، أفتأمرنا أن نأتى هؤلاء فنسلم عليهم؟ قال: إنهم كانوا عبادًا يعبدوننى لا[1] يشركون بى شيئاً، وتُسَد[2] بهم الثغور، وتتقى[3] بهم المكاره، ويموت أحدهم وحاجته فى صدره فلا يستطيع لها قضاء». قال: «فتأتيهم الملائكة عند ذلك، فيدخلون عليهم من كل باب، ﴿**سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾»[4].

ورواه أبو القاسم الطبرانى، عن أحمد بن رشدين، عن أحمد بن صالح، عن عبد الله بن وهب، عن عَمْرو بن الحارث، عن أبى عُشَّانة سمع عبد الله بن عمرو، عن النبى ﷺ قال: «أول ثلة يدخلون الجنة فقراء المهاجرين، الذين تتقى بهم المكاره، وإذا أمروا سمعوا وأطاعوا، وإن كانت لرجل منهم حاجة إلى سلطان لم تُقْضَ حتى يموت وهى فى صدره، وإن الله يدعو يوم القيامة الجنة فتأتى بزخرفها وزينتها، فيقول: أين عبادى الذين قاتلوا فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى، وجاهدوا فى سبيلى؟ ادخلوا الجنة بغير عذاب ولا حساب، وتأتى الملائكة فيسجدون ويقولون: ربنا نحن نسبحك الليل والنهار، ونُقدس لك، من هؤلاء الذين آثرتهم علينا؟ فيقول الرب عز وجل: هؤلاء عبادى الذين جاهدوا[5] فى سبيلى، وأوذوا فى سبيلى فتدخل عليهم الملائكة من كل باب: ﴿ **سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ**﴾»[6].

وقال عبد الله بن المبارك، عن بَقِيَّة بن الوليد، حدثنا أرطاة بن المنذر، سمعت رجلا من مشيخة الجند، يقال له «أبو الحجاج» يقول: جلست إلى أبى أمامة فقال: إن المؤمن ليكون متكئاً على أريكته إذا دخل الجنة، وعنده سماطان من خدم، وعند طرف السماطين باب مبوب، فيقبل الملك فيستأذن، فيقول [أقصى الخدم][7] للذى يليه: «ملك يستأذن»، ويقول الذى يليه للذى يليه: «مَلَك يستأذن»، حتى يبلغ المؤمن فيقول: ائذنوا. فيقول أقربهم إلى المؤمن: ائذنوا، ويقول الذى يليه للذى يليه: ائذنوا حتى يبلغ أقصاهم الذى عندى الباب، فيفتح له، فيدخل فيسلم ثم ينصرف. رواه ابن جرير[8].

ورواه ابن أبى حاتم من حديث إسماعيل بن عياش، عن أرطاة بن المنذر، عن أبى الحجاج[9]

---

(١) فى ت، أ: «ولا». (٢) فى ت، أ: «ويسد». (٣) فى ت، أ: «ويتقى».

(٤) المسند (٢/ ١٦٨) وقال الهيثمى فى المجمع (١٠/ ٢٥٩): «رجاله ثقات».

(٥) فى ت: «قاتلوا».

(٦) المعجم الكبير للطبرانى برقم (١٥٢) «القطعة المفقودة» ورواه الحاكم فى المستدرك (٢/ ٧١) من طريق محمد بن عبد الله عن ابن وهب، به نحوه، وقال: «هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه» ووافقه الذهبى.

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٢٥).

(٩) كذا وقع فى تفسير الطبرى، ونقله أيضا ابن القيم فى حادى الأرواح (٢/ ٣٨) «أبو الحجاج» وفى ترجمته فى الجرح والتعديل (٩/ ٢٣٥) والتاريخ الكبير (٤/ ٢/ ٣٧٦) والثقات لابن حبان (٥/ ٥٥٢): «يوسف الالهانى، أبو الضحاك الحمصى، سمع أبا أمامة وابن عمر، وروى عنه أرطاة بن المنذر».

وانظر حاشية الأستاذ محمود شاكر على تفسير الطبرى (١٦/ ٤٢٦).

يوسف الألهانى قال: سمعت أبا أمامة، فذكر نحوه.

وقد جاء في الحديث: أن رسول الله ﷺ كان يزور قبور الشهداء فى رأس كل حول، فيقول لهم: ﴿سَلامٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى الدَّارِ﴾ وكذا أبو بكر، وعمر وعثمان(١).

﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ (٢٥) ﴾.

هذا حال الأشقياء وصفاتهم، وذكر مآلهم فى الدار الآخرة ومصيرهم إلى خلاف ما صار إليه المؤمنون، كما أنهم اتصفوا بخلاف صفاتهم فى الدنيا، فأولئك كانوا يوفون بعهد الله ويصلون ما أمر الله به أن يوصل، وهؤلاء ﴿ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ مِنْ بَعْدِ مِيثَاقِهِ وَيَقْطَعُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِي الأَرْضِ﴾، كما ثبت فى الحديث: «آية المنافق ثلاث: إذا حدث كذب، وإذا وعد أخلف، وإذا اؤتمن خان» وفى رواية: «وإذا عاهد غدر، وإذا خاصم فَجر».

ولهذا قال: ﴿أُوْلَئِكَ لَهُمُ اللَّعْنَةُ ﴾ وهى الإبعاد عن الرحمة، ﴿وَلَهُمْ سُوءُ الدَّارِ ﴾ وهى سوء العاقبة والمآل، ومأواهم جهنم وبئس القرار(٣).

وقال أبو العالية فى قوله: ﴿ وَالَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ اللَّهِ﴾ الآية، قال: هى ست خصال فى المنافقين إذا كان فيهم الظَّهرة على الناس أظهروا هذه الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا، ونقضوا عهد الله من بعد ميثاقه، وقطعوا ما أمر الله به أن يوصل، وأفسدوا فى الأرض. وإذا كانت الظَّهْرة عليهم أظهروا الثلاث الخصال: إذا حدثوا كذبوا، وإذا وعدوا أخلفوا، وإذا ائتمنوا خانوا.

﴿ اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَفَرِحُوا بِالْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلاَّ مَتَاعٌ (٢٦) ﴾.

يذكر تعالى أنه هو الذى يوسع الرزق على من يشاء، ويقتره على من يشاء، لما له فى ذلك من الحكمة والعدل. وفرح هؤلاء الكفار بما أوتوا فى الحياة الدنيا استدراجا لهم وإمهالا، كما قال تعالى: ﴿أَيَحْسَبُونَ أَنَّمَا نُمِدُّهُم بِهِ مِن مَّالٍ وَبَنِينَ. نُسَارِعُ لَهُمْ فِي الْخَيْرَاتِ بَل لا يَشْعُرُونَ﴾ [المؤمنون: ٥٥، ٥٦].

ثم حقر الحياة الدنيا بالنسبة إلى ما ادخره تعالى لعباده المؤمنين فى الدار الآخرة فقال: ﴿وَمَا الْحَيَاةُ

---

(١) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٢٦) عن سهيل عن محمد بن إبراهيم التيمى مرسلاً، وهذا معضل.
(٢) فى ت، أ: «المهاد».

الدُّنْيَا فِي الآخِرَةِ إِلا مَتَاعٌ﴾، كما قال: ﴿قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ [النساء: ٧٧]، وقال: ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا. وَالآخِرَةُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ [الأعلى: ١٦، ١٧].

وقال الإمام أحمد: حدثنا وكيع ويحيى بن سعيد قالا: حدثنا إسماعيل بن أبى خالد، عن قيس، عن المستورد أخى بنى فهر قال: قال رسول الله ﷺ: «ما الدنيا فى الآخرة إلا كمثل ما يجعل أحدكم أصبعه هذه فى اليم، فلينظر بم ترجع» وأشار بالسبابة. ورواه مسلم فى صحيحه[(١)].

وفى الحديث الآخر: أن رسول الله ﷺ مر بِجَدْىٍ أسكَّ[(٢)] ميت ـ والأسك[(٣)]: الصغير الأذنين ـ فقال: «والله للدنيا أهون على الله من هذا على أهله حين ألقوه»[(٤)].

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ (٢٧) الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ (٢٨) الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ (٢٩)﴾.

يخبر تعالى عن قيل[(٥)] المشركين: ﴿لَوْلا﴾ أى: هلا ﴿أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ مِّن رَّبِّهِ﴾ كما قالوا: ﴿فَلْيَأْتِنَا بِآيَةٍ كَمَا أُرْسِلَ الأَوَّلُونَ﴾ [الأنبياء: ٥]، وقد تقدم الكلام على هذا غير مرة، وإن الله قادر على إجابة ما سألوا. وفى الحديث: أن الله أوحى إلى رسوله لما سألوه أن يحول لهم الصفا ذهباً، وأن يجرى لهم ينبوعاً، وأن يزيح الجبال من حول مكة فيصير مكانها مروج وبساتين: إن شئت يا محمد أعطيتهم ذلك، فإن كفروا فإنى أعذبهم عذاباً لا أعذبه أحداً من العالمين، وإن شئت فتحت عليهم باب التوبة والرحمة، فقال: «بل تفتح لهم باب التوبة والرحمة»[(٦)]؛ ولهذا قال لرسوله: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أى: هو المضل والهادى، سواء بعث الرسول بآية على وفق ما اقترحوا، أو لم يجبهم إلى سؤالهم؛ فإن الهداية والإضلال ليس منوطا بذلك ولا عدمه، كما قال: ﴿وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لا يُؤْمِنُونَ﴾[يونس: ١٠١]، وقال: ﴿إِنَّ الَّذِينَ حَقَّتْ عَلَيْهِمْ كَلِمَتُ رَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ. وَلَوْ جَاءَتْهُمْ كُلُّ آيَةٍ حَتَّىٰ يَرَوُا الْعَذَابَ الأَلِيمَ﴾ [يونس: ٩٦، ٩٧]. وقال: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلائِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ الْمَوْتَىٰ وَحَشَرْنَا عَلَيْهِمْ كُلَّ شَيْءٍ قُبُلاً مَّا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا إِلاَّ أَن يَشَاءَ اللَّهُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ يَجْهَلُونَ﴾ [الأنعام: ١١١]؛ ولهذا قال: ﴿قُلْ إِنَّ اللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ﴾ أى: ويهدى من أناب إلى الله، ورجع إليه، واستعان به، وتضرع لديه.

---

(١) المسند (٤/٢٢٨) وصحيح مسلم برقم (٢٨٥٨).

(٢) فى ت، أ: «أشك». (٣) فى ت، أ: «والأشك».

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (٢٩٥٧) من حديث جابر، رضى الله عنه.

(٥) فى ت: «قتل».

(٦) رواه أحمد فى المسند (١/٢٤٢) من حديث ابن عباس، رضى الله عنهما.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ اللَّهِ﴾ أى: تطيب وتركن إلى جانب [(١)] الله، وتسكن عند ذكره، وترضى به مولى ونصيراً؛ ولهذا قال: ﴿أَلا بِذِكْرِ اللَّهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ﴾ أى: هو حقيق بذلك.

﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، قال ابن أبى طلحة، عن ابن عباس: فرح وقُرة عين. وقال عكرمة: نعْم ما لهم.

وقال الضحاك: غبطة لَهُم.

وقال إبراهيم النَّخعى: خير لهم.

وقال قتادة: هى كلمة عربية[(٢)]، يقول الرجل: «طوبى لك»، أى: أصبت خيرًا. وقال فى رواية: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾: حسنى لهم.

﴿وَحُسْنُ مَآبٍ﴾أى: مرجع.

وهذه الأقوال شىء واحد لا منافاة بينها.

وقال سعيد بن جبير، عن ابن عباس: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾، قال: هى أرض الجنة بالحبشية.

وقال سعيد بن مَسْجُوح: طوبى اسم الجنة بالهندية. وكذا روى السدى، عن عِكْرِمة: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أى: الجنة. وبه قال مجاهد.

وقال العوفى، عن ابن عباس: لما خلق الله الجنة وفرغ منها قال: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَآبٍ﴾، وذلك حين أعجبته.

وقال ابن جرير: حدثنا ابن حميد، حدثنا يعقوب، عن جعفر، عن شَهْر بن حَوْشَب قال: ﴿طُوبَىٰ﴾ شجرة فى الجنة، كل شجر الجنة منها، أغصانها من وراء سور الجنة.

وهكذا رُوى عن أبى هريرة، وابن عباس، ومغيث بن سُمَىّ، وأبى إسحاق السَّبِيعى وغير واحد من السلف: أن طوبى شجرة فى الجنة، فى كل دار منها غصن منها.

وذكر بعضهم أن الرحمن، تبارك وتعالى، غَرَسها بيده من حبة لؤلؤة، وأمرها أن تمتد، فامتدت إلى حيث يشاء الله تبارك وتعالى، وخرجت من أصلها ينابيع أنهار الجنة، من عسل وخمر وماء ولبن[(٣)].

وقد قال عبد الله بن وهب: حدثنا عمرو بن الحارث، أن دَرَّاجا أبا السَّمْح حدثه، عن أبى الهيثم، عن أبى سعيد الخدرى، رضى الله عنه، [مرفوعا: «طوبى: شجرة فى الجنة مسيرة مائة سنة، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[(٤)].

---

(١) فى ت، أ: «جناب». (٢) فى ت، أ: «غريبة». (٣) فى ت: «ولبن وماء».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/٤٤٣) قال أحمد، رحمه الله: «أحاديث دراج عن أبى الهيثم عن أبى سعيد فيها ضعف».

وقال الإمام أحمد: حدثنا حسن بن موسى، سمعت عبد الله بن لَهيعة، حدثنا دَرّاج أبو السمح، أن أبا الهيثم حدثه، عن أبى سعيد الخدرى] [(١)] عن رسول الله ﷺ: أن رجلا قال: يا رسول الله، طوبى لمن رآك وآمن بك. قال: «طوبى لمن رآنى وآمن بى، ثم طوبى، ثم طوبى، ثم طوبى لمن آمن بى ولم يرنى». قال له رجل: وما طوبى؟ قال: «شجرة فى الجنة مسيرة مائة عام، ثياب أهل الجنة تخرج من أكمامها»[(٢)].

وروى البخارى ومسلم جميعاً، عن إسحاق بن راهويه، عن مغيرة المخزومى، عن وَهيب، عن أبى حازم، عن سهل بن سعد قال: قال رسول الله ﷺ: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها» قال: فَحَدَّثت به النعمان بن أبى عياش الزّرَقى، فقال: حدثنى أبو سعيد الخُدْرى، عن النبى ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب الجَوَادَ المضمَّرَ السريع مائة عام ما يقطعها»[(٣)].

وفى صحيح البخارى، من حديث يزيد بن زُرَيع، عن سعيد، عن قتادة، عن أنس، رضى الله عنه، قال: قال رسول الله ﷺ فى قول الله: ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾ [الواقعة: ٣٠]، قال: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها»[(٤)].

وقال الإمام أحمد: حدثنا سُرَيْج، حدثنا فُلَيْح، عن هلال بن على، عن عبد الرحمن بن أبى عمرة، عن أبى هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها مائة سنة[(٥)]، اقرؤوا إن شئتم ﴿وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ﴾». أخرجاه فى الصحيحين[(٦)].

وقال [الإمام] [(٧)] أحمد أيضاً: حدثنا محمد بن جعفر وحجاج قالا: حدثنا شعبة، سمعت أبا الضحاك يحدث عن أبى هريرة، عن النبى ﷺ أنه قال: «إن فى الجنة شجرة يسير الراكب فى ظلها سبعين ـ أو: مائة ـ سنة هى شجرة الخلد»[(٨)].

وقال محمد بن إسحاق، عن يحيى بن عباد بن عبد الله بن الزبير، عن أبيه، عن أسماء بنت أبى بكر، رضى الله عنها، قالت: سمعت رسول الله ﷺ، وذكر سدرة المنتهى، قال: «يسير فى ظل الفنن منها الراكب مائة سنة ـ أو: قال ـ: يستظل فى الفنن منها مائة راكب، فيها فَراش الذهب، كأن ثمرها القلال». رواه الترمذى[(٩)].

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) المسند(٣/ ٧١).

(٣) صحيح البخارى برقم (٦٥٥٢) وصحيح مسلم برقم (٢٨٢٧).

(٤) صحيح البخارى برقم (٣٢٥١).

(٥) فى أ: «عام».

(٦) المسند (٢/ ٤٨٢).

(٧) زيادة من أ.

(٨) المسند (٢/ ٤٥٥).

(٩) سنن الترمذى برقم (٢٥٤١) وقال الترمذى: «حديث حسن غريب» وفى بعض النسخ: «حسن صحيح غريب».

وقال إسماعيل بن عياش، عن سعيد بن يوسف، عن يحيى بن أبى كثير، عن أبى سلام الأسود قال: سمعت أبا أمامة الباهلى قال: قال رسول الله ﷺ: «ما منكم من أحد يدخل الجنة إلا انطلق به إلى طوبى، فتفتح له أكمامها، فيأخذه من أى ذلك شاء، إن شاء أبيض، وإن شاء أحمر، وإن شاء أصفر، وإن شاء أسود، مثل شقائق النعمان وأرق وأحسن»[١].

وقال الإمام أبو جعفر بن جرير: حدثنا محمد بن عبد الأعلى، حدثنا محمد بن ثور، عن مَعْمَر، عن أشعث بن عبد الله، عن شَهْر بن حَوْشَب، عن أبى هريرة، رضى الله عنه، قال: طوبى شجرة فى الجنة، يقول الله لها: «تَفَتَّقى لعبدى عَمّا شاء؛ فتفتق له عن الخيل بسروجها ولجمها، وعن الإبل بأزمتها، وعما شاء من الكسوة»[٢].

وقد روى ابن جرير عن وهب بن منبه هاهنا أثراً غريباً عجيبا، قال وهب، رحمه الله: إن فى الجنة شجرة يقال لها: «طوبى»، يسير الراكب فى ظلها مائة عام لا يقطعها، زهرها رياط، وورقها برود، وقضبانها عنبر، وبطحاؤها ياقوت، وترابها كافور، وَوَحَلها مسك، يخرج من أصلها أنهار الخمر واللبن والعسل، وهى مجلس لأهل الجنة، فبينا هم فى مجلسهم إذ أتتهم ملائكة من ربهم يقودون نجبا مزمومة بسلاسل من ذهب وجوهها كالمصابيح حسنا[٣]. ووبرها كخز المرْعِزّى[٤] من لينه، عليها رحال ألواحها من ياقوت، ودفوفها[٥] من ذهب، وثيابها من سندس وإستبرق، فينيخونها ويقولون: إن ربنا أرسلنا إليكم لتزوروه وتسلموا عليه قال: فيركبونها، فهى أسرع من الطائر، وأوطأ من الفراش، نجبا من غير مَهَنَة، يسير الرجل إلى جنب أخيه وهو يكلمه ويناجيه، لا تصيب[٦] أذن راحلة منها أذن الأخرى، ولا بَرك راحلة برك الأخرى، حتى إن شجرة لتتنحَّى عن طريقهم، لئلا تفرق بين الرجل وأخيه. قال: فيأتون إلى الرحمن الرحيم فيسفر لهم عن وجهه الكريم حتى ينظروا إليه، فإذا رأوه قالوا: اللهم، أنت السلام ومنك السلام، وحق لك الجلال والإكرام. قال: فيقول تعالى[عند ذلك][٧]: «أنا السلام ومنى السلام، وعليكم حقت رحمتى ومحبتى، مرحبا بعبادى الذين خشونى بغيب وأطاعوا أمرى».

قال: فيقولون: ربنا لم نعبدك حق عبادتك، ولم نقدرك حق قَدرك، فأذن لنا فى السجود قُدامك قال: فيقول الله: «إنها ليست بدار نصب ولا عبادة، ولكنها دار مُلْك ونعيم، وإنى قد رفعت عنكم نَصَب العبادة، فسلونى ما شئتم، فإن لكل رجل منكم أمنيته» فيسألونه، حتى إن أقصرهم أمنية ليقول: رب، تنافس[٨] أهل الدنيا فى دنياهم فتضايقوا فيها، رب فآتنى مثل كل شىء كانوا فيه من

---

(١) رواه ابن أبى الدنيا فى صفة الجنة برقم (١٤٦) من طريق أبى عتبة، عن إسماعيل بن عياش، به.

(٢) تفسير الطبرى (١٦/٤٣٨) ورواه ابن المبارك فى الزهد برقم (٢٦٥) من طريق معمر عن الأشعث، به. وشهر بن حوشب ضعيف.

(٣) فى ت، أ: «من حسنها». (٤) فى ت: «الرعزى». (٥) فى أ: «ورفرفها».

(٦) فى ت، أ: «لا يصيب». (٧) زيادة من ت، أ، والطبرى. (٨) فى أ: «يتنافس».

يوم خلقتها إلى أن انتهت الدنيا. فيقول الله تعالى: «لقد قَصرت بك أمنيتك، ولقد سألت دون منزلتك، هذا لك منى، [وسأتحفك بمنزلتى][(١)]؛ لأنه ليس فى عطائى نكد ولا تَصريد». قال: ثم يقول: «اعرضوا على عبادى ما لم يبلغ أمانيهم، ولم يخطر لهم على بال». قال: فيعرضون عليهم حتى تَقْصر بهم أمانيهم التى فى أنفسهم، فيكون فيما يعرضون عليهم براذين مُقْرنة، على كل أربعة منها سرير من ياقوتة واحدة، على كل سرير منها قبة من ذهب مُفَرَّغة، فى كل قبه منها فُرش من فُرش الجنة مُتظاهرة، فى كل قبة منها جاريتان من الحور العين، على كل جارية منهن ثوبان من ثياب الجنة، وليس فى الجنة لون إلا وهو فيهما[(٢)]، ولا ريح طيبة إلا قد عبقتا به[(٣)]، ينفذ ضوء وجوههما غلظ القبة، حتى يظن من يراهما أنهما دون القبة، يرى مخهما من فوق سوقهما، كالسلك الأبيض فى ياقوتة حمراء، يريان له من الفضل على صاحبته [(٤)] كفضل الشمس على الحجارة أو أفضل، ويرى هو لهما مثل ذلك، ويدخل إليهما فيحييانه ويقبلانه ويعتنقانه [(٥)] به، ويقولان له: والله ما ظننا أن الله يخلق مثلك. ثم يأمر الله تعالى الملائكة فيسيرون بهم صفا فى الجنة، حتى ينتهى بكل رجل منهم إلى منزلته التى أعدت له[(٦)].

وقد روى هذا الأثر ابن أبى حاتم بسنده، عن وهب بن منبه، وزاد: فانظروا إلى موهوب ربكم الذى وهب لكم، فإذا هو بقباب فى الرفيق الأعلى، وغرف مبنية من الدر والمرجان، وأبوابها من ذهب، وسررها من ياقوت، وفرشها من سندس وإستبرق، ومنابرها من نور، يفور من أبوابها وعراصها نور مثل شعاع الشمس عنده مثل الكوكب الدرى [(٧)] فى النهار المضىء، وإذا بقصور شامخة فى أعلى عليين من الياقوت يزهو نورها، فلولا أنه مُسَخر، إذاً لالتمع الأبصارَ، فما كان من تلك القصور من الياقوت [الأبيض، فهو مفروش بالحرير [(٨)] الأبيض، وما كان منها من الياقوت الأحمر فهو مفروش بالعبقرى الأحمر، وما كان منها من الياقوت الأخضر][(٩)]، فهو مفروش بالسندس الأخضر، وما كان منها من الياقوت الأصفر، فهو مفروش بالأرجوان الأصفر منزه [(١٠)] بالزمرد الأخضر، والذهب الأحمر، ،والفضة البيضاء، قوائمها وأركانها من الجوهر، وشُرُفها قباب من لؤلؤ، وبروجها غُرَف من المرجان. فلما انصرفوا إلى ما أعطاهم ربهم، قُرِّبت لهم براذين من ياقوت أبيض، منفوخ فيها الروح، تَجنبَها الولدان المخلدون بيد كل وليد منهم حكمة بِرذَون من تلك البراذين، ولجمها وأعنتها من فضة بيضاء، منظومة بالدر والياقوت، سُرُوجها سُرُرٌ موضونة، مفروشة بالسندس والإستبرق. فانطلقت بهم تلك البراذين تَزَف بهم ببطن [(١١)] رياض الجنة. فلما انتهوا إلى

---

(١) زيادة من ت، أ، والطبرى.
(٢) فى أ: «فيها».
(٣) فى ت، أ: «عبقا بهما».
(٤) فى أ: «صاحبه».
(٥) فى ت، أ: «ويعلقانه».
(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٣٩).
(٧) فى ت، أ: «الذى».
(٨) فى أ: «من الحرير».
(٩) زيادة من ت، أ.
(١٠) فى أ: «مبوبة».
(١١) فى أ: «وبطن».

منازلهم، وجدوا الملائكة قُعُودا على منابر من نور، ينتظرونهم ليزوروهم ويصافحوهم ويهنئوهم كرامَةَ ربهم. فلما دخلوا قصورهم وجدوا فيها جميع ما تَطَاول به عليهم [١]وما سألوا وتمنوا، وإذا على باب كلّ قصر من تلك القصور أربعة جنان، [جنتان][٢]ذواتا أفنان، وجنتان مُدْهامتان، وفيهما عينان نضاختان، وفيهما من كل فاكهة زوجان، وحور مقصورات فى الخيام، فلما تَبَيَّنُو [٣] منازلهم واستقروا قرارهم قال لهم ربهم: هل وجدتم ما وعدتكم [٤] حقا؟ قالوا: نعم وربّنَا. قال: هل رضيتم ثواب ربكم؟ قالوا: ربنا، رضينا فارض عنا قال: برضاى [٥] عنكم حللتم دارى، ونظرتم إلى وجهى، وصافحتكم ملائكتى، فهنيئاً هنيئاً لكم، ﴿عَطَاءً غَيْرَ مَجْذُوذٍ﴾ [هود: ١٠٨]، ليس فيه تنغيص ولا تَصْرِيد. فعند ذلك قالوا: الحمد لله الذى أذهب عنا الحزن، وأدخلنا [٦] دار المقامة من فضله، لا يمسنا فيها نصب ولا يمسنا فيها لغوب، إن ربنا لغفور شكور.

وهذا سياق غريب، وأثر عجيب ولبعضه شواهد، ففى الصحيحين: أن الله تعالى يقول لذلك الرجل الذى يكون آخر أهل الجنة دخولا الجنة: تمنّ»، فيتمنى[٧]، حتى إذا انتهت به الأمانى يقول الله تعالى: «تمن من كذا وتَمَن من كذا»، يذكره، ثم يقول: «ذلك لك، وعشرة أمثاله»[٨].

وفى صحيح مسلم، عن أبى ذر عن رسول الله ﷺ عن الله، عز وجل[٩]: «يا عبادى، لو أن أولكم وآخركم، وإنسكم وجنكم، قاموا فى صعيد واحد، فسألونى، فأعطيت كل إنسان [١٠] مسألته، ما نقص ذلك من ملكى شيئا، إلا كما ينقص المخيط إذا أدخل فى البحر»، الحديث بطوله[١١].

وقال خالد بن مَعْدَان: إن فى الجنة شجرة يقال لها طوبى، لها ضروع، كلها ترضع صبيانَ أهل الجنة، وإن سَقَط المرأة يكون فى نهر من أنهار الجنة، يتقلب فيه حتى تقوم القيامة، فيبعث ابن أربعين سنة. رواه ابن أبى حاتم.

﴿ كَذَلِكَ أَرْسَلْنَاكَ فِي أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَا أُمَمٌ لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ قُلْ هُوَ رَبِّي لا إِلَهَ إِلا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ (٣٠) ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك يا محمد فى هذه الأمة ﴿لِّتَتْلُوَ عَلَيْهِمُ الَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ﴾ أى: تبلغهم

---

(١) فى أ: «عليهم ربهم».
(٢) زيادة من ت، أ.
(٣) فى ت، أ: «تبوؤوا».
(٤) فى ت: «ما وعد ربكم».
(٥) فى ت: «فبرضاى».
(٦) فى أ: «وأحلنا».
(٧) فى ت: «فيمن».
(٨) صحيح البخارى برقم (٦٥٧٣) وصحيح مسلم برقم (١٨٢) من حديث أبى هريرة وأبى سعيد، رضى الله عنهما.
(٩) فى ت: «عن رسول الله ﷺ، عن جبريل، عن الله عز وجل».
(١٠) فى ت: «إنسان منهم».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٥٧٧).

رسالة الله إليهم، كذلك أرسلنا فى الأمم الماضية الكافرة بالله، وقد كُذّب الرسل من قَبلك، فلك فيهم أسوة، وكما أوقعنا بأسنا ونقمتنا بأولئك، فليحذر هؤلاء من حُلول النقم بهم، فإن تكذيبهم لك أشدّ من تكذيب غيرك من المرسلين، قال الله تعالى: ﴿ تَاللَّهِ لَقَدْ أَرْسَلْنَا إِلَىٰ أُمَمٍ مِّن قَبْلِكَ فَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَهُوَ وَلِيُّهُمُ الْيَوْمَ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[النحل: ٦٣]، وقال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا وَأُوذُوا حَتَّىٰ أَتَاهُمْ نَصْرُنَا وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِ اللَّهِ وَلَقَدْ جَاءَكَ مِن نَّبَإِ الْمُرْسَلِينَ ﴾ [الأنعام: ٣٤] أى: كيف نصرناهم، وجعلنا العاقبة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة.

وقوله: ﴿ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ ﴾ أى: هذه الأمة التى بعثناك فيهم يكفرون بالرحمن، لا يقرّون به؛ لأنهم كانوا يأنفون من وصف الله بالرحمن الرحيم؛ ولهذا أنفوا يوم الحديبية أن يكتبوا «بسم الله الرحمن الرحيم» وقالوا: ما ندرى ما الرحمن الرحيم. قاله قتادة، والحديث فى صحيح البخارى[(١)]، وقد قال الله تعالى: ﴿ قُلِ ادْعُوا اللَّهَ أَوِ ادْعُوا الرَّحْمَٰنَ أَيًّا مَّا تَدْعُوا فَلَهُ الْأَسْمَاءُ الْحُسْنَىٰ ﴾ [الإسراء: ١١٠]، وفى صحيح مسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رسول الله ﷺ: «إن أحب الأسماء إلى الله عبد الله وعبد الرحمن[(٢)]»[(٣)].

﴿ قُلْ هُوَ رَبِّي لَا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ﴾أى: هذا الذى تكفرون به أنا مؤمن به، معترف مقر له بالربوبية والإلهية، هو ربى لا إله هو، ﴿ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ ﴾ أى: فى جميع أمورى، ﴿ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴾أى: إليه أرجع وأنيب، فإنه لا يستحق ذلك أحد[(٤)] سواه.

﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ الْأَرْضُ أَوْ كُلِّمَ بِهِ الْمَوْتَىٰ بَل لِّلَّهِ الْأَمْرُ جَمِيعًا أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ (٣١) ﴾.

يقول تعالى مادحا للقرآن الذى أنزله على محمد ﷺ، ومفضلا له على سائر الكتب المنزلة قبله: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ ﴾أى: لو كان فى الكتب الماضية كتاب تسير به الجبال عن أماكنها، أو تقطع به الأرض وتنشق[(٥)]، أو تكلم[(٦)] به الموتى فى قبورها، لكان هذا القرآن هو المتصف بذلك دون غيره، أو بطريق الأولى أن يكون كذلك؛ لما فيه من الإعجاز الذى لا يستطيع الإنس والجن عن آخرهم إذا اجتمعوا أن يأتوا بمثله، ولا بسورة من مثله، ومع هذا فهؤلاء المشركون كافرون به،

(١) صحيح البخارى برقم (٢٧٣١، ٢٧٣٢) عن مروان بن الحكم والمسور بن مخرمة فى قصة غزوة الحديبية.
(٢) فى أ زيادة: «وعبد الرحيم».
(٣) صحيح مسلم برقم (٢١٣٢).
(٤) فى ت: «أحد ذلك».
(٥) فى أ: «وتشقق».
(٦) فى ت: «وتشقق وتكلم».

جاحدون له، ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا﴾[١] أى: مرجع الأمور كلها إلى الله، عز وجل، ما شاء الله كان، وما لم يشأ لم يكن، ومن يضلل فلا هادى له، ومن يهد[٢] الله فلا مضل له.

وقد يطلق اسم القرآن على كل من الكتب المتقدمة؛ لأنه مشتق من الجميع، قال الإمام أحمد:

حدثنا عبد الرزاق، حدثنا مَعْمَر، عن همام بن مُنَبِّه قال: هذا ما حدثنا أبو هريرة قال: قال رسول الله ﷺ: «خُفِّفَت [٣] على داود القراءة، فكان يأمر بدابته أن تُسرج، فكان يقرأ القرآن من قبل أن تسرج دابته، وكان لا يأكل إلا من عمل يديه». انفرد بإخراجه البخارى[٤].

والمراد بالقرآن هنا الزبور.

وقوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾ أى: من إيمان جميع الخلق ويعلموا أو يتبينوا[٥] ﴿ أَن لَّوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَهَدَى النَّاسَ جَمِيعًا﴾، فإنه ليس ثم [٦] حجة ولا معجزة أبلغ ولا أنجع فى النفوس والعقول من هذا القرآن، الذى لو أنزله الله على جبل لرأيته خاشعا متصدعا من خشية الله. وثبت فى الصحيح أن رسول الله ﷺ قال: «ما من نبى إلا وقد أوتى ما آمن على مثله البشر، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلى، فأرجو أن أكون أكثرهم تابعا يوم القيامة»[٧]. معناه: أن معجزة كل نبى انقرضت بموته، وهذا القرآن حجة باقية على الآباد، لا تنقضى عجائبه، ولا يَخْلَقُ عن كثرة الردّ، ولا يشبع منه العلماء، هو الفصل ليس بالهزل. من تركه من جبار قصمه الله، ومن ابتغى الهدى فى غيره أضله الله.

وقال ابن أبى حاتم: حدثنا أبو زُرْعَة، حدثنا منْجَاب بن الحارث، أنبأنا بشر بن عمارة، حدثنا عمر بن حسان، عن عطية العوفى قال: قلت له: ﴿ وَلَوْ أَنَّ قُرْآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الْجِبَالُ﴾ الآية، قالوا لمحمد ﷺ: لو سيرت لنا جبال مكة حتى تتسع فنحرث فيها، أو قطعت لنا [٨] الأرض كما كان سليمان يقطع لقومه بالريح، أو أحييت لنا الموتى كما كان عيسى يحيى الموتى لقومه فأنزل الله هذه الآية. قال: قلت: هل تروون هذا الحديث عن أحد من أصحاب النبى ﷺ؟ قال: نعم، عن أبى سعيد، عن النبى ﷺ[٩].

وكذا روى ابن عباس، والشعبى، وقتادة، والثورى، وغير واحد فى سبب نزول هذه الآية، فالله أعلم.

وقال قتادة: لو فعل هذا بقرآن غير قرآنكم، فُعل بقرآنكم.

وقوله: ﴿ بَل لِّلَّهِ الأَمْرُ جَمِيعًا ﴾: قال ابن عباس: [أى] [١٠] لايصنع من ذلك إلا ما يشاء، ولم

---

(١) فى ت، أ: «فلله» وهو خطأ. (٢) في ت، أ: «يهده». (٣) فى ت، أ: «خفف».

(٤) المسند (٢/ ٣١٤) وصحيح البخارى برقم (٣٤١٧).

(٥) فى أ: «ويعلموا ويتيقنوا». (٦) فى أ: «ثمت».

(٧) صحيح البخارى برقم (٤٩٨١) وصحيح مسلم برقم (١٥٢) من حديث أبى هريرة رضى الله عنه.

(٨) فى ت، أ: «بنا».

(٩) ورواه ابن مردويه فى تفسيرة كما فى تخريج الكشاف (٢/ ١٩١) من طريق بشر بن عمارة به، وإسناده ضعيف جدًا.

(١٠) زيادة من أ.

يكن ليفعل، رواه ابن إسحاق بسنده عنه، وقاله ابن جرير أيضاً.

وقال غير واحد من السلف فى قوله: ﴿ أَفَلَمْ يَيْأَسِ الَّذِينَ آمَنُوا ﴾: أفلم يعلم الذين آمنوا. وقرأ [١] آخرون: «أفلم يتبين الذين آمنوا أن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا».

وقال أبو العالية: قد يئس [٢] الذين آمنوا أن يهدوا، ولو يشاء الله لهدى الناس جميعا.

وقوله: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أى: بسبب تكذيبهم، لا تزال القوارع تصيبهم فى الدنيا، أو تصيب من حولهم ليتعظوا ويعتبروا، كما قال تعالى: ﴿ وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ وَصَرَّفْنَا الآيَاتِ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴾[الأحقاف: ٢٧]، وقال: ﴿ أَفَلا يَرَوْنَ [٣] أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا أَفَهُمُ الْغَالِبُونَ ﴾[الأنبياء: ٤٤].

قال قتادة، عن الحسن: ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ أى: القارعة. وهذا هو الظاهر من السياق.

قال أبو داود الطيالسى: حدثنا المسعودى، عن قتادة، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس فى قوله: ﴿ وَلا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا تُصِيبُهُم [٤] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال: سرية، ﴿ أَوْ تَحُلُّ قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ قال: محمد ﷺ، ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ قال: فتح مكة[٥].

وهكذا قال عكْرِمة، وسعيد بن جبير، ومجاهد، فى رواية.

قال العوفى، عن ابن عباس: ﴿ تُصِيبُهُم [٦] بِمَا صَنَعُوا قَارِعَةٌ ﴾ قال: عذاب من السماء ينزل عليهم ﴿ أَوْ تَحُلُّ [٧] قَرِيبًا مِّن دَارِهِمْ ﴾ يعنى: نزول رسول الله ﷺ بهم وقتاله إياهم.

وكذا قال مجاهد، وقتادة، وقال عكْرِمة فى رواية عنه، عن ابن عباس: ﴿ قَارِعَةٌ ﴾ أى: نكبة.

وكلهم قال: ﴿ حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ اللَّهِ ﴾ يعنى: فتح مكة. وقال الحسن البصرى: يوم القيامة.

وقوله: ﴿ إِنَّ اللَّهَ لا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ ﴾ أى: لا ينقض وعده لرسله بالنصرة لهم ولأتباعهم فى الدنيا والآخرة، ﴿ فَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ مُخْلِفَ وَعْدِهِ رُسُلَهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ ذُو انتِقَامٍ ﴾ [إبراهيم: ٤٧].

﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ (٣٢) ﴾.

يقول تعالى مسليا لرسوله ﷺ فى تكذيب من كذبه من قومه: ﴿ وَلَقَدِ اسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ ﴾ أى: فلك فيهم أسوة، ﴿ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا ﴾ أى: أنظرتهم وأجلتهم، ﴿ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ﴾ أخذة رابية، فكيف بلغك ما صنعت بهم وعاقبتهم؟ كما قال تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِيَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا

(١) فى ت: «وقرأها». (٢) فى ت، أ: «أيس». (٣) فى ت، أ: «أفلم يروا» وهو خطأ.
(٤) فى ت: «يصيبهم».
(٥) ومن طريق الطيالسى رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٥٦).
(٦) فى ت: «يصيبهم». (٧) فى ت: «أو يحل».

وَإِلَيَّ الْمَصِيرُ﴾ [الحج: ٤٨]، وفى الصحيحين: «إن الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته»، ثم قرأ رسول الله ﷺ: ﴿ وَكَذَلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَا أَخَذَ الْقُرَىٰ وَهِيَ ظَالِمَةٌ إِنَّ أَخْذَهُ أَلِيمٌ شَدِيدٌ﴾ [هود: ١٠٢][(١)].

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ قُلْ سَمُّوهُمْ أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾.

يقول تعالى: ﴿ أَفَمَنْ هُوَ قَائِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أى: حفيظ عليم رقيب على كل نفس منفوسة، يعلم ما يعمل العاملون من خير وشر، ولا يخفى عليه خافية، ﴿وَمَا تَكُونُ فِي شَأْنٍ وَمَا تَتْلُو مِنْهُ مِن قُرْآنٍ وَلا تَعْمَلُونَ مِنْ عَمَلٍ إِلا كُنَّا عَلَيْكُمْ شُهُودًا إِذْ تُفِيضُونَ فِيهِ﴾[يونس: ٦١]، وقال تعالى: ﴿وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلا يَعْلَمُهَا﴾ [الأنعام: ٥٩]، وقال: ﴿ وَمَا مِن دَابَّةٍ فِي الأَرْضِ إِلا عَلَى اللَّهِ رِزْقُهَا وَيَعْلَمُ مُسْتَقَرَّهَا وَمُسْتَوْدَعَهَا كُلٌّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ ﴾ [هود: ٦]، وقال: ﴿ سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾[الرعد: ١٠]، وقال: ﴿ يَعْلَمُ السِّرَّ وَأَخْفَى﴾[طه: ٧]. وقال: ﴿ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [الحديد: ٤] أفمن هو هكذا كالأصنام التى يعبدونها[(٢)]، لا تسمع ولا تبصر ولا تعقل، ولا تملك نفعاً لأنفسها ولا لعابديها، ولا كشف ضر عنها ولا عن عابديها؟ وحذف هذا الجواب اكتفاء بدلالة السياق عليه، وهو قوله: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ﴾ أى: عبدوها معه، من أصنام وأنداد وأوثان.

﴿ قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ أى: أعلمونا بهم، واكشفوا عنهم حتى يُعَرفوا، فإنهم لا حقيقة لهم؛ ولهذا قال: ﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ بِمَا لا يَعْلَمُ فِي الأَرْضِ﴾ أى: لا وجود له؛ لأنه لو كان له [(٣)] وجود فى الأرض لعلمها؛ لأنه لا تخفى عليه خافية.

﴿ أَم بِظَاهِرٍ مِّنَ الْقَوْلِ﴾: قال مجاهد: بظن من القول.

وقال الضحاك وقتادة: بباطل من القول.

أى: إنما عبدتم هذه الأصنام بظن منكم أنها تنفع وتضر، وسميتموها آلهة، ﴿ إِنْ هِيَ إِلا أَسْمَاءٌ سَمَّيْتُمُوهَا أَنتُمْ وَآبَاؤُكُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَانٍ إِن يَتَّبِعُونَ إِلا الظَّنَّ وَمَا تَهْوَى الأَنفُسُ وَلَقَدْ جَاءَهُم مِّن رَّبِّهِمُ الْهُدَىٰ ﴾ [النجم: ٢٣].

﴿ بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكْرُهُمْ﴾: قال مجاهد: قولهم، أى: ما هم عليه من الضلال والدعوة إليه

---

(١) صحيح البخارى برقم (٤٦٨٦) وصحيح مسلم برقم (٢٥٨٣) من حديث أبى موسى، رضى الله عنه.

(٢) فى ت، أ: «عبدوها».

(٣) فى ت، أ: «لها».

آناء الليل وأطراف النهار، كما قال تعالى: ﴿ وَقَيَّضْنَا لَهُمْ قُرَنَاءَ فَزَيَّنُوا لَهُم مَّا بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَمَا خَلْفَهُمْ وَحَقَّ عَلَيْهِمُ الْقَوْلُ فِي أُمَمٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِم مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ إِنَّهُمْ كَانُوا خَاسِرِينَ ﴾ [فصلت: ٢٥].

«وَصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ»: من قرأها بفتح الصاد، معناه: أنهم لما زين لهم ما فية وأنه حق، دعوا إليه وصدّوا الناس عن اتباع طريق الرسل. ومن قرأها ﴿ وَصُدُّوا[1] ﴾ أى: بما زين لهم من صحة ما هم عليه، صُدّوا به عن سبيل الله؛ ولهذا قال: ﴿ وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ ﴾، كما قال: ﴿وَمَن يُرِدِ اللَّهُ فِتْنَتَهُ فَلَن تَمْلِكَ لَهُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا﴾ [المائدة: ٤١]، وقال: ﴿ إِن تَحْرِصْ عَلَىٰ هُدَاهُمْ فَإِنَّ اللَّهَ لَا يَهْدِي مَن يُضِلُّ وَمَا لَهُم مِّن نَّاصِرِينَ ﴾ [النحل: ٣٧].

﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ مِن وَاقٍ (٣٤) مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ (٣٥) ﴾.

ذكر تعالى عقابَ الكفار وثواب الأبرار: فقال بعد، إخباره عن حال[2] المشركين وما هم عليه من الكفر والشرك: ﴿ لَّهُمْ عَذَابٌ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾أى: بأيدى المؤمنين قتلا وأسرا، ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ﴾أى: المدّخرَ [لهم][3]، مع هذا الخزى فى الدنيا، ﴿أَشَقُّ﴾ أى: من هذا بكثير، كما قال رسول الله ﷺ للمتلاعنين: «إن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة»[4]. وهو كما قال، صلوات الله وسلامه عليه، فإن عذاب الدنيا له انقضاء، وذاك دائم أبدا فى نار هى بالنسبة إلى هذه سبعون ضعفا، ووثاق لا يتصور كثافته وشدته، كما قال تعالى: ﴿ فَيَوْمَئِذٍ لَّا يُعَذِّبُ عَذَابَهُ أَحَدٌ . وَلَا يُوثِقُ وَثَاقَهُ أَحَدٌ﴾ [الفجر: ٢٥، ٢٦]، وقال تعالى: ﴿ وَأَعْتَدْنَا لِمَن كَذَّبَ بِالسَّاعَةِ سَعِيرًا. إِذَا رَأَتْهُم مِّن مَّكَانٍ بَعِيدٍ سَمِعُوا لَهَا تَغَيُّظًا وَزَفِيرًا. وَإِذَا أُلْقُوا مِنْهَا مَكَانًا ضَيِّقًا مُّقَرَّنِينَ دَعَوْا هُنَالِكَ ثُبُورًا. لَّا تَدْعُوا الْيَوْمَ ثُبُورًا وَاحِدًا وَادْعُوا ثُبُورًا كَثِيرًا. قُلْ أَذَٰلِكَ خَيْرٌ أَمْ جَنَّةُ الْخُلْدِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ كَانَتْ لَهُمْ جَزَاءً وَمَصِيرًا ﴾ [الفرقان: ١١ ـ ١٥].

ولهذا قرن هذا بهذا؛ فقال: ﴿مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ﴾ أى: صفتها ونعتها، ﴿ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ ﴾أى: سارحة فى أرجائها وجوانبها، وحيث شاء أهلها، يفجرونها تفجيراً، أى: يصرفونها كيف شاؤوا وأين شاؤوا، كما قال تعالى: ﴿ مَّثَلُ الْجَنَّةِ الَّتِي وُعِدَ الْمُتَّقُونَ فِيهَا أَنْهَارٌ مِّن مَّاءٍ غَيْرِ آسِنٍ وَأَنْهَارٌ مِّن لَّبَنٍ لَّمْ يَتَغَيَّرْ طَعْمُهُ وَأَنْهَارٌ مِّنْ خَمْرٍ لَّذَّةٍ لِّلشَّارِبِينَ وَأَنْهَارٌ مِّنْ عَسَلٍ مُّصَفًّى وَلَهُمْ فِيهَا مِن كُلِّ الثَّمَرَاتِ وَمَغْفِرَةٌ مِّن رَّبِّهِمْ كَمَنْ هُوَ خَالِدٌ فِي النَّارِ وَسُقُوا مَاءً حَمِيمًا فَقَطَّعَ أَمْعَاءَهُمْ﴾ [محمد: ١٥].

---

(١) فى ت: «فصدوا عن السبيل». (٢) فى ت: «أحوال».

(٣) زيادة من ت، أ.

(٤) رواه مسلم فى صحيحه برقم (١٤٩٣) من حديث ابن عمر رضى الله عنهما.

وقوله: ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا﴾ أى: فيها المطاعم [(١)] والفواكه والمشارب، لانقطاع [لها] [(٢)] ولا فناء.

وفى الصحيحين، من حديث ابن عباس فى صلاة الكسوف، وفيه قالوا: يا رسول الله، رأيناك تناولت شيئا فى مقامك هذا، ثم رأيناك تكعكعت فقال: «إنى رأيت الجنة ـ أو: أريت الجنة ـ فتناولت منها عنقودا، ولو أخذته لأكلتم منه ما بقيت الدنيا»[(٣)].

وقال الحافظ أبو يعلى: حدثنا أبو خَيْثَمَةَ، حدثنا عبد الله بن جعفر، حدثنا عبيد الله، حدثنا أبوعَقيل، عن جابر قال: بينما نحن فى صلاة الظهر، إذ تقدم رسولُ الله ﷺ فتقدمنا، ثم تناول شيئا ليأخذه ثم تأخر. فلما قضى الصلاة قال له أبى بن كعب: يا رسول الله، صنعت اليوم فى الصلاة شيئا ما رأيناك كنت تصنعه. فقال: «إنى عرضت على الجنة وما فيها من الزهرة والنضرة، فتناولت منها قطفًا من عنب لآتيكم به، فحيل بينى وبينه، ولو أتيتكم به لأكل منه من بين السماء والأرض لا يَنْقُصَونه»[(٤)].

وروى مسلم من حديث أبى الزبير، عن جابر، شاهدا لبعضه[(٥)].

وعن عتبة بن عبد السلمى: أن أعرابيا سأل النبى ﷺ عن الجنة، فقال: فيها عنب؟ قال: «نعم». قال: فما عِظَم العنقود؟ قال: «مسيرة شهر للغراب الأبقع[(٦)] ولا يفتر». رواه أحمد[(٧)].

وقال الطبرانى: حدثنا معاذ بن المثنى، حدثنا على بن المدينى، حدثنا ريحان بن سعيد، عن عباد ابن منصور، عن أيوب، عن أبى قِلاَبة، عن أبى أسماء، عن ثَوْبان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل إذا نزع ثمرة من الجنة عادت مكانها أخرى»[(٨)].

وعن جابر بن عبد الله قال: قال رسول الله ﷺ: «يأكل أهل الجنة ويشربون، ولا يمتخطون ولا يتغوّطون ولا يبولون، طعامهم[(٩)] جُشَاء كريح المسك، ويلهمون التسبيح والتقديس[(١٠)] كما يلهمون النفس». رواه مسلم[(١١)].

وروى الإمام أحمد والنسائى، من حديث الأعمش، عن ثمامة[(١٢)] بن عقبة[(١٣)]، سمعت زيد بن أرقم قال: جاء رجل من أهل الكتاب فقال: يا أبا القاسم، تزعم أن أهل الجنة يأكلون ويشربون؟ قال:

---

(١) فى ت، أ: «الطعام». (٢) زيادة من ت.
(٣) صحيح البخارى برقم (٧٤٨) وصحيح مسلم برقم (٩٠٧).
(٤) ورواه أحمد فى المسند (٣/ ٣٥٢) من طريق عبيد الله وحسين بن محمد، عن عبيد الله به نحوه.
(٥) صحيح مسلم برقم (٩٠٤).
(٦) فى أ: «لا يقع».
(٧) المسند (٤/ ١٨٤).
(٨) المعجم الكبير (٢/ ١٠٢) وعباد بن منصور متكلم فيه.
(٩) فى ت، أ: «طعامهم ذلك». (١٠) فى ت، أ: «التسبيح والتكبير».
(١١) صحيح مسلم برقم (٢٨٣٥). (١٢) فى هـ، ت، أ: «ثمام» والتصويب من المسند. (١٣) فى ت: «عقبة بن منبه».

«نعم، والذى نفس محمد بيده، [إن الرجل من أهل الجنة][١] ليعطى قوة مائة رجل فى الأكل والشرب والجماع والشهوة». قال: فإن الذى يأكل ويشرب تكون له الحاجة، وليس فى الجنة أذى؟ قال: «حاجة أحدهم رشح يفيض من جلودهم، كريح المسك، فيضمر بطنه»[٢].

وقال الحسن بن عرفة: حدثنا خلف بن خليفة، عن حميد الأعرج، عن عبد الله بن الحارث، عن عبد الله بن مسعود، رضى الله عنه، قال: قال لى رسول الله ﷺ: «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة، فيخر بين يديك مشويا[٣]»[٤].

وجاء فى بعض الأحاديث: أنه إذا فُرِغ منه عاد طائراً كما كان بإذن الله تعالى.

وقد قال تعالى: ﴿ وَفَاكِهَةٍ كَثِيرَةٍ .لا مَقْطُوعَةٍ وَلا مَمْنُوعَةٍ﴾ [الواقعة: ٣٢، ٣٣]، وقال: ﴿ وَدَانِيَةً عَلَيْهِمْ ظِلالُهَا وَذُلِّلَتْ قُطُوفُهَا تَذْلِيلاً﴾ [الإنسان: ١٤].

وكذلك ظلها لا يزول ولا يقلص، كما قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ سَنُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا أَبَدًا لَّهُمْ فِيهَا أَزْوَاجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَنُدْخِلُهُمْ ظِلاًّ ظَلِيلاً﴾ [النساء: ٥٧].

وقد تقدم فى الصحيحين من غير وجه أن رسول الله ﷺ قال: «إن فى الجنة شجرة، يسير الراكب المجد الجواد المضمر السريع فى ظلها مائة عام لا يقطعها»، ثم قرأ: ﴿ وَظِلٍّ مَّمْدُودٍ ﴾ [الواقعة: ٣٠].

وكثيرا ما يقرن الله تعالى بين صفة الجنة وصفة النار، ليرغب فى الجنة ويحذّر من النار؛ ولهذا لما ذكر صفة الجنة بما ذكر، قال بعده: ﴿ تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾، كما قال تعالى: ﴿لا يَسْتَوِي أَصْحَابُ النَّارِ وَأَصْحَابُ الْجَنَّةِ أَصْحَابُ الْجَنَّةِ هُمُ الْفَائِزُونَ﴾ [الحشر: ٢٠].

وقال بلال بن سعد خطيب دمشق فى بعض خطبه: عباد الله[٥]، هل جاءكم مخبر يخبركم أن شيئا من عبادتكم[٦] تُقُبِّلت منكم، أو أن شيئا من خطاياكم غفرت لكم؟ ﴿ أَفَحَسِبْتُمْ[٧] أَنَّمَا خَلَقْنَاكُمْ عَبَثًا وَأَنَّكُمْ إِلَيْنَا لا تُرْجَعُونَ﴾ [المؤمنون: ١١٥]، والله لو عُجِّل لكم الثواب فى الدنيا لاستقللتم كلكم ما افتُرِض عليكم، أو ترغبون[٨] فى طاعة الله لتعجيل دنياكم، ولا تنافسون فى جنة ﴿ أُكُلُهَا دَائِمٌ وَظِلُّهَا تِلْكَ عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوْا وَّعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴾. رواه ابن أبى حاتم.

(١) زيادة من ت، أ، والمسند.
(٢) المسند (٤/ ٣٦٧).
(٣) فى ت: «مستوياً».
(٤) جزء الحسن بن عرفة برقم (٢٢) وحميد الأعرج ضعيف وأورد الذهبى هذا الحديث فى الميزان (١/ ٦١٤) من جملة مناكيره.
(٥) فى أ: «الرحمن».
(٦) فى ت، أ: «أعمالكم».
(٧) فى ت: «أم حسبتم» وهو خطأ.
(٨) فى ت، أ: «اترغبون».

﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ إِلَيْهِ أَدْعُو وَإِلَيْهِ مَآبِ (٣٦) وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ (٣٧) ﴾.

يقول تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ وهم قائمون بمقتضاه ﴿ يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ أى: من القرآن لما فى كتبهم من الشواهد على صدقه والبشارة به، كما قال تعالى: ﴿ الَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَتْلُونَهُ حَقَّ تِلاوَتِهِ أُوْلَئِكَ يُؤْمِنُونَ بِهِ وَمَن يَكْفُرْ بِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ﴾ [البقرة: ١٢١]. وقال تعالى: ﴿ قُلْ آمِنُوا بِهِ أَوْ لا تُؤْمِنُوا إِنَّ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهِ إِذَا يُتْلَىٰ عَلَيْهِمْ يَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ سُجَّدًا . وَيَقُولُونَ سُبْحَانَ رَبِّنَا إِن كَانَ وَعْدُ رَبِّنَا لَمَفْعُولاً ﴾ [الإسراء: ١٠٧، ١٠٨] أى: إن كان ما وعدنا الله به فى كتبنا من إرسال محمد ﷺ لحقا وصدقا مفعولا لا محالة، وكائنا، فسبحانه ما أصدق وعده، فله الحمد وحده، ﴿وَيَخِرُّونَ لِلأَذْقَانِ يَبْكُونَ وَيَزِيدُهُمْ خُشُوعًا﴾ [الإسراء: ١٠٩].

وقوله: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ ﴾ أى: ومن الطوائف من يكذّب ببعض ما أنزل إليك.

وقال مجاهد: ﴿ وَمِنَ الأَحْزَابِ﴾: اليهود والنصارى، من ينكر بعض ما جاءك من الحق. وكذا قال قتادة، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم.

وهذا كما قال تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ الْكِتَابِ لَمَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَا أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَاشِعِينَ لِلَّهِ لا يَشْتَرُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلاً أُوْلَئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ إِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ﴾ [آل عمران: ١٩٩].

﴿ قُلْ إِنَّمَا أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ اللَّهَ وَلا أُشْرِكَ بِهِ ﴾ أى: إنما بعثت بعبادة الله وحده لا شريك له، كما أرسل الأنبياء من قبلى، ﴿إِلَيْهِ أَدْعُو ﴾ أى: إلى سبيله أدعو الناس، ﴿ وَإِلَيْهِ مَآبِ﴾ أى: مرجعى ومصيرى.

وقوله: ﴿ وَكَذَلِكَ أَنزَلْنَاهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ أى: وكما أرسلنا قبلك المرسلين، وأنزلنا عليهم الكتب من السماء، كذلك أنزلنا عليك القرآن محكما معربا، شرّفناك به وفضلناك على من سواك بهذا الكتاب المبين الواضح الجلى الذى ﴿ لا يَأْتِيهِ الْبَاطِلُ مِنْ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلا مِنْ خَلْفِهِ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ﴾ [فصلت: ٤٢].

وقوله: ﴿وَلَئِنِ اتَّبَعْتَ أَهْوَاءَهُم﴾ أى: أراءهم، ﴿بَعْدَ مَا جَاءَكَ مِنَ الْعِلْمِ﴾ أى: من الله تعالى ﴿ مَا لَكَ مِنَ اللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلا وَاقٍ ﴾ أى: من الله تعالى. وهذا وعيد لأهل العلم أن يتبعوا[1] سبل أهل الضلالة بعد ما صاروا إليه من سلوك السنة النبوية والمحجة المحمدية، على من جاء بها أفضل الصلاة والسلام

(١) فى ت: «يبتغوا».

[والتحية والإكرام](١).

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلاً مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَاجًا وَذُرِّيَّةً وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾ ﴾.

يقول تعالى: وكما أرسلناك، يا محمد، رسولا بشريا(٢) كذلك [قد](٣) بعثنا المرسلين قبلك بَشَراً يأكلون الطعام، ويمشون فى الأسواق ويأتون الزوجات، ويولد لهم، وجعلنا لهم أزواجا وذرية، وقد قال [الله](٤) تعالى لأشرف الرسل وخاتمهم: ﴿قُلْ إِنَّمَا أَنَا بَشَرٌ مِّثْلُكُمْ يُوحَىٰ إِلَيَّ﴾ [الكهف: ١١٠].

وفى الصحيحين: أن رسول الله ﷺ قال: «أما أنا فأصوم وأفطر، وأقوم وأنام، وآكل الدَّسَم(٥) وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتى فليس منى»(٦).

وقال الإمام أحمد: حدثنا يزيد، أنبأنا الحجاج بن أرطاة عن مكحول قال: قال أبو أيوب: قال رسول الله ﷺ: «أربع من سنن المرسلين: التعطر، والنكاح، والسواك، والحناء»(٧).

وقد رواه أبو عيسى الترمذى، عن سفيان بن وَكِيع عن حفص بن غياث، عن الحجاج، عن مكحول، عن أبى الشّمال(٨)، عن أبى أيوب... فذكره، ثم قال: وهذا أصح من الحديث الذى لم يذكر فيه أبو الشمال(٩)(١٠).

وقوله: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلا بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ أى: لم يكن يأتى قومه بخارق إلا إذا أُذِنَ له فيه، ليس ذلك إليه، بل إلى الله، عز وجل، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل مُدة مضروبة كتاب مكتوب بها، وكل شيء عنده بمقدار، ﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ اللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِي السَّمَاءِ(١١) وَالأَرْضِ إِنَّ ذَٰلِكَ فِي كِتَابٍ إِنَّ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرٌ﴾ [الحج: ٧٠].

وكان الضحاك بن مُزاحم يقول فى قوله: ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ أى: لكل كتاب أجل يعنى(١٢) لكل كتاب أنزله من السماء مدة مضروبة عند الله ومقدار معين، فلهذا يمحو(١٣) ما يشاء منها ويثبت، يعنى حتى نسخت كلها بالقرآن الذى أنزله الله على رسوله، صلوات الله وسلامه عليه.

وقوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾: اختلف المفسرون فى ذلك، فقال الثورى، ووَكِيع، وهُشَيْم

---

(١) زيادة من أ.
(٢) فى أ: «بشرأ».
(٣، ٤) زيادة من ت، أ.
(٥) فى ت، أ: «اللحم».
(٦) صحيح البخارى برقم (٥٠٦٣) وصحيح مسلم برقم (١٤٠١) وليس فيهما: «وآكل الدسم».
(٧) المسند (٥/ ٤٢١).
(٨) فى أ: «أبى السماك».
(٩) فى أ: «أبو السماك».
(١٠) سنن الترمذى برقم (١٠٨٠).
(١١) فى ت، أ: «السموات» وهو خطأ.
(١٢) فى ت، أ: «بمعنى».
(١٣) فى ت: «يمحى».

وهُشَيْم، عن ابن أبى ليلى، عن المنْهَال بن عمرو، عن سعيد بن جُبَيْر، عن ابن عباس: يدبر أمر السنة، فيمحو ما يشاء، إلا الشقاء والسعادة، والحياة والموت. وفى رواية: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾، قال: كل شيء إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة فإنهما قد فرغ منهما.

وقال مجاهد: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ**﴾ إلا الحياة والموت، والشقاء والسعادة، فإنهما لا يتغيران.

وقال منصور: سألت مجاهداً فقلت: أرأيت دعاء أحدنا يقول: اللهم، إن كان اسمى فى السعداء فأثبته فيهم، وإن كان فى الأشقياء فامحه عنهم واجعله فى السعداء. فقال: حَسَن. ثم لقيته بعد ذلك بحول أو أكثر، فسألته عن ذلك، فقال: ﴿**إِنَّا أَنزَلْنَاهُ فِي لَيْلَةٍ مُّبَارَكَةٍ إِنَّا كُنَّا مُنذِرِين. فِيهَا يُفْرَقُ كُلُّ أَمْرٍ حَكِيمٍ**﴾ [الدخان ٣، ٤]؛ قال: يَقضى فى ليلة القدر ما يكن فى السنَّة من رزق أو مصيبة، ثم يقدم ما[١] يشاء ويؤخر ما [٢]يشاء، فأما كتاب الشقاوة[٣] والسعادة فهو ثابت لا يُغير[٤].

وقال الأعمش، عن أبى وائل شَقيق بن سلمة: إنه كان يكثر أن يدعو بهذا الدعاء: اللهم، إن كنت كتبتنا أشقياء فامحه، واكتبنا سعداء، وإن كنت كتبتنا سعداء فأثبتنا، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت وعندك أم الكتاب. رواه ابن جرير[٥].

وقال ابن جرير أيضا: حدثنا عمرو بن على، حدثنا معاذ بن هشام، حدثنى أبى، عن أبى حكيمة[٦] عِصْمة، عن أبى عثمان النَّهْدى؛ أن عمر بن الخطاب، رضى الله عنه، قال وهو يطوف بالبيت وهو يبكى: اللهم، إن كنت كتبت على شقوة أو ذنباً فامحه، فإنك تمحو ما تشاء وتثبت، وعندك أم الكتاب، فاجعله سعادة ومغفرة[٧].

وقال حماد عن خالد الحذَّاء، عن أبى قلابة عن ابن مسعود أنه كان يدعو بهذا الدعاء أيضا.

ورواه شريك، عن هلال بن حميد، عن عبد الله بن عُكَيْم، عن ابن مسعود، بمثله.

وقال ابن جرير: حدثنى المثنى، حدثنا حجاج، حدثنا خصاف، عن أبى حمزة، عن إبراهيم؛ أن كعبا قال لعمر بن الخطاب: يا أمير المؤمنين، لولا آية فى كتاب الله لأنبأتك بما هو كائن إلى يوم القيامة. قال: وما هى؟ قال: قال الله تعالى: ﴿**يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ**﴾[٨].

ومعنى هذه الأقوال: أن الأقدار ينسخ الله ما يشاء منها، ويثبت منها ما يشاء، وقد يستأنس لهذا القول[٩] بما رواه الإمام أحمد:

(١، ٢) فى ت: «من». (٣) فى ت: «الشقاء».

(٤) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨٠).

(٥) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨١).

(٦) فى أ: «أبى حكيم».

(٧) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨١).

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٤).

(٩) فى أ: «الأقوال».

حدثنا وَكِيع، حدثنا سفيان، وهو الثورى، عن عبد الله بن عيسى، عن عبد الله بن أبى الجَعْد، عن ثَوْبَان قال: قال رسول الله ﷺ: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يُصِيبه، ولا يرد القَدَر إلا الدعاء، ولا يزيد فى العمر إلا البر».

ورواه النسائى وابن ماجه، من حديث سفيان الثورى، به[1].

وثبت فى الصحيح أن صلة الرحم تزيد فى العمر[2]، وفى الحديث الآخر: «إن الدعاء والقضاء ليعتلجان[3] بين السماء والأرض»[4].

وقال ابن جرير: حدثنى محمد بن سهل بن عسكر، حدثنا عبد الرزاق، أخبرنا ابن جُرَيْج، عن عطاء، عن ابن عباس قال: إن لله لوحا محفوظا مسيرة خمسمائة عام، من درة بيضاء لها دَفَّتَان من ياقوت ـ والدفتان: لوحان ـ لله، عز وجل [كل يوم ثلاثمائة][5] وستون لحظة، يمحو ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب[6].

وقال الليث بن سعد، عن زيادة بن محمد، عن محمد بن كعب القُرَظى، عن فَضَالة بن عُبَيد، عن أبى الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «[إن الله][7] يفتح الذكر فى ثلاث ساعات يَبْقين من الليل، فى الساعة الأولى منها ينظر فى الذكر الذى لا ينظر فيه أحد غيره، فيمحو ما يشاء ويثبت». وذكر تمام الحديث. رواه ابن جرير[8].

وقال الكلبى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: يمحو من الرزق ويزيد فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه. فقيل له: من حدثك بهذا؟ فقال: أبو صالح، عن جابر بن عبد الله بن رئاب، عن النبى ﷺ. ثم سئل بعد ذلك عن هذه الآية فقال: يكتب القول كله، حتى إذا كان يوم الخميس، طرح منه كل شىء ليس فيه ثواب ولا عقاب، مثل قولك: أكلت وشربت، دخلت وخرجت ونحوه من الكلام، وهو صادق، ويثبت ما كان فيه الثواب، وعليه العقاب[9].

وقال عِكْرِمة، عن ابن عباس: الكتاب كتابان: فكتاب يمحو الله منه ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب.

وقال العوفى، عن ابن عباس فى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: هو

(١) المسند (٥/ ٢٢٧) وسنن ابن ماجة برقم (٩٠).

(٢) صحيح مسلم برقم (٢٥٥٧) من حديث أنس ولفظه: «من سره أن يبسط عليه رزقه، أو ينسأ فى أثره، فليصل رحمه».

(٣) فى ت، أ: «ليتعلجان».

(٤) لم أعثر عليه بهذا اللفظ.

(٥) زيادة من تفسير الطبرى، ومكانه فى هـ، ت، أ: «ثلاث».

(٦) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٩).

(٧) زيادة من ت، أ، والطبرى.

(٨) تفسير الطبرى (١٦/ ٤٨٨).

(٩) رواه الطبرى فى تفسيره (١٦/ ٤٨٤).

الرجل يعمل الزمانَ بطاعة الله، ثم يعود لمعصية الله فيموت على ضلالة، فهو الذى يمحو ـ والذى يثبت: الرجل يعمل بمعصية الله، وقد كان سبق له خير حتى يموت وهو فى طاعة الله، فهو الذى يثبت.

وروى عن سعيد بن جُبَير: أنها بمعنى: ﴿ فَيَغْفِرُ لِمَن يَشَاءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ [البقرة: ٢٨٤].

وقال على بن أبى طلحة، عن ابن عباس: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾، يقول: يبدل ما يشاء فينسخه، ويثبت ما يشاء فلا يبدله، ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ يقول: وجملة ذلك عنده فى أم الكتاب، الناسخ، والمنسوخ، وما يبدل، وما يثبت كل ذلك فى كتاب.

وقال قتادة فى قوله: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ ﴾: كقوله: ﴿ مَا نَنسَخْ مِنْ آيَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَا أَوْ مِثْلِهَا﴾ [البقرة: ١٠٦].

وقال ابن أبى نَجيح، عن مجاهد فى قوله: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ﴾ قال: قالت كفار قريش حين أنزلت: ﴿ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِآيَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ ﴾: ما نراك يا محمد تملك من شىء، ولقد فُرِغَ من الأمر. فأنزلت هذه الآية تخويفا ،ووعيداً لهم: إنا إن شئنا أحدثنا له من أمرنا ما شئنا، ونحدث فى كل رمضان، فنمحو ونثبت[1] ما نشاء من أرزاق الناس ومصائبهم، وما نعطيهم، وما نقسم لهم.

وقال الحسن البصرى: ﴿ يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ قال: من جاء أجله، فَذَهَبَ، ويثبت الذى هو حىّ يجرى إلى أجله.

وقد اختار هذا القول أبو جعفر بن جرير، رحمه الله.

وقوله: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الحلال والحرام.

وقال قتادة: أى جملة الكتاب وأصله.

وقال الضحاك: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: كتاب عند رب العالمين.

وقال سُنَيد بن داود، حدثنى معتمر، عن أبيه، عن سَيَّار، عن ابن عباس؛ أنه سأل كعباً عن «أم الكتاب»، فقال: عَلِم الله، ما هو خالق، وما خَلْقُه عاملون، ثم قال[2] لعلمه: «كن كتابا». فكانا[3] كتابا.

وقال ابن جرير، عن ابن عباس: ﴿ وَعِندَهُ أُمُّ الْكِتَابِ﴾ قال: الذكر، [والله أعلم][4].

---

(١) فى ت، أ: «فيمحو ويثبت». (٢) فى ت، أ: «فقال».
(٣) فى ت، أ: «فكان». (٤) زيادة من أ.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ (٤٠) أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا وَاللَّهُ يَحْكُمُ لا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِ وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ (٤١)﴾.

يقول تعالى لرسوله: ﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ يا محمد ﴿بَعْضَ الَّذِي نَعِدُهُمْ﴾ أى: نعد أعداءك من الخزى[(١)] والنكال فى الدنيا، ﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ [أى][(٢)]: قبل ذلك، ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ الْبَلاغُ﴾ أى: إنما أرسلناك لتبلغهم رسالة الله وقد بلغت[(٣)] ما أمرت به، ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ﴾ أى: حسابهم وجزاؤهم، كما قال تعالى: ﴿فَذَكِّرْ إِنَّمَا أَنتَ مُذَكِّرٌ. لَّسْتَ عَلَيْهِم بِمُسَيْطِرٍ. إِلاَّ مَن تَوَلَّىٰ وَكَفَرَ. فَيُعَذِّبُهُ اللَّهُ الْعَذَابَ الأَكْبَرَ. إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ. ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: ٢١ ـ ٢٦].

وقوله: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا أَنَّا نَأْتِي الأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾؟ قال ابن عباس: أو لم يروا أنا نفتح لمحمد الأرض بعد الأرض؟

وقال فى رواية: أو لم يروا إلى القرية تخرب، حتى يكون العمران فى ناحية؟

وقال مجاهد وعِكْرِمة: ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قال: خرابها.

وقال الحسن والضحاك: هو ظهور المسلمين على المشركين.

وقال العَوْفى عن ابن عباس: نقصان أهلها وبركتها.

وقال مجاهد: نقصان الأنفس والثمرات وخراب الأرض.

وقال الشعبى: لو كانت الأرض تنقص لضاق عليك حُشُّك، ولكن تنقص الأنفس والثمرات. وكذا قال عكرمة: لو كانت الأرض تنقص لم تجد مكانا تقعد فيه، ولكن هو الموت.

وقال ابن عباس فى رواية: خرابها بموت فقهائها وعلمائها وأهل الخير منها. وكذا قال مجاهد أيضاً: هو موت العلماء.

وفى هذا المعنى روى الحافظ ابن عساكر فى ترجمة أحمد بن عبد العزيز أبى القاسم المصرى الواعظ[(٤)]، سكن أصبهان، حدثنا أبو محمد طلحة بن أسد المرئى بدمشق، أنشدنا أبو بكر الآجُرى بمكة قال: أنشدنا أحمد بن غزال لنفسه:

الأرض تحيَا إذا ما عَاش عَالمها ... مَتَى يمُتْ عَالم منها يمُت طَرَفُ
كالأرض تحيَا إذا ما الغيث حَل بها ... وإن أبى عَاد فى أكنافها التَّلَفُ

(١) فى ت: «الحزن». (٢) زيادة من ت، أ. (٣) فى ت، أ: «فعلت».
(٤) لم أعثر على ترجمته فى المخطوط من تاريخ دمشق ولا فى المختصر لابن منظور.

والقول الأول أولى، وهو ظهور الإسلام على الشرك قرية بعد قرية، [وكَفْرًا بعد كَفْر، كما قال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا مَا حَوْلَكُم مِّنَ الْقُرَىٰ﴾ الآية [الأحقاف: ٢٧]، وهذا اختيار ابن جرير، رحمه الله][(١)].

﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ الْمَكْرُ جَمِيعًا يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ (٤٢)﴾.

يقول: ﴿وَقَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ برسلهم، وأرادوا إخراجهم من بلادهم، فمكر الله بهم، وجعل العاقبة للمتقين، كما قال تعالى: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ﴾ [الأنفال: ٣٠]، وقال تعالى: ﴿وَمَكَرُوا مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ. فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَاهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ . فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا﴾ الآية [النمل: ٥٠ ـ ٥٢].

وقوله: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ أي: إنه تعالى عالم بجميع السرائر والضمائر، وسيجزى كل عامل بعمله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الكافر﴾ وقرئ: ﴿الْكُفَّارُ﴾ ﴿لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾ أي: لمن تكون الدائرة والعاقبة، لهم أو لأتباع الرسل؟ كلا، بل هى لأتباع الرسل فى الدنيا والآخرة، ولله الحمد والمنة.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ (٤٣)﴾.

يقول: ويكذبك هؤلاء الكفار ويقولون: ﴿لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ أي: ما أرسلك الله، ﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ أي: حسبى الله، وهو الشاهد على وعليكم، شاهد عَلَيّ فيما بلغتُ عنه من الرسالة، وشاهد عليكم أيها المكذبون فيما تفترونه من البهتان.

وقوله: ﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ﴾: قيل: نزلت فى عبد الله بن سلام. قاله مجاهد.

وهذا القول غريب؛ لأن هذه الآية مكية، وعبد الله بن سلام إنما أسلم فى أول مقدم رسول الله ﷺ المدينة. والأظهر فى هذا ما قاله العوفى، عن ابن عباس قال: هم من[(٢)] اليهود والنصارى.

وقال قتادة: منهم ابن سلام، وسلمان، وتميم الدارى.

وقال مجاهد ـ فى رواية ـ عنه: هو الله تعالى.

---

(١) زيادة من ت، أ.

(٢) فى ت: «فى».

وكان سعيد بن جُبَيْر ينكر أن يكون المراد بها عبد الله بن سلام، ويقول: هى مكية، وكان يقرؤها: «ومن عنده عِلمَ الكتابُ»، ويقول: من عند الله.

وكذا قرأها مجاهد والحسن البصرى.

وقد روى ابن جرير من حديث، هارون الأعور، عن الزهرى، عن سالم، عن ابن عمر؛ أن رسول الله ﷺ قرأها: «ومن عنده عِلمَ الكتابُ»، ثم قال: لا أصل له من حديث الزهرى عند الثقات[1].

قلت: وقد رواه الحافظ أبو يعلى فى مسنده، من طريق هارون بن موسى هذا، عن سليمان بن أرقم ـ وهو ضعيف ـ عن الزهرى، عن سالم، عن أبيه مرفوعا كذلك. ولا يثبت[2]، والله أعلم.

والصحيح فى هذا: أن ﴿ وَمَنْ عِندَهُ﴾ اسم جنس يشمل علماء أهل الكتاب الذين يجدون صفة محمد ﷺ ونعته فى كتبهم المتقدمة، من بشارات الأنبياء به، كما قال تعالى: ﴿ **وَرَحْمَتِي وَسِعَتْ كُلَّ شَيْءٍ فَسَأَكْتُبُهَا لِلَّذِينَ يَتَّقُونَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ وَالَّذِينَ هُم بِآيَاتِنَا يُؤْمِنُونَ . الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الرَّسُولَ النَّبِيَّ الأُمِّيَّ الَّذِي يَجِدُونَهُ مَكْتُوبًا عِندَهُمْ فِي التَّوْرَاةِ وَالإِنجِيلِ**﴾ الآية [الأعراف: ١٥٦، ١٥٧]، وقال تعالى: ﴿ **أَوَلَمْ يَكُن لَّهُمْ آيَةً أَن يَعْلَمَهُ عُلَمَاءُ بَنِي إِسْرَائِيلَ**﴾ الآية [الشعراء: ١٩٧]. وأمثال ذلك مما فيه الإخبار عن علماء بنى إسرائيل: أنهم يعلمون ذلك من كتبهم المنزلة. وقد ورد فى حديث الأحبار، عن عبد الله بن سلام بأنه أسلم بمكة قبل الهجرة، قال الحافظ أبو نعيم الأصبهانى فى كتاب «دلائل النبوة»، وهو كتاب جليل:

حدثنا سليمان بن أحمد الطبرانى، حدثنا عَبْدان بن أحمد، حدثنا محمد بن مُصَفى، حدثنا الوليد بن مسلم، عن محمد بن حمزة بن يوسف، بن عبد الله بن سلام، عن أبيه، أن عبد الله بن سلام قال لأحبار اليهود: إنى أردت أن أجَدد[3] بمسجد أبينا إبراهيم وإسماعيل عهدا[4]. فانطلق إلى رسول الله ﷺ وهو بمكة، فوافاهم وقد انصرفوا من الحج، فوجد رسول الله، بمنى، والناس حوله، فقام مع الناس، فلما نظر إليه رسول الله ﷺ قال: «أنت عبد الله بن سلام؟» قال: قلت: نعم. قال: «ادن». فدنوت منه، قال: «أنشدك بالله يا عبد الله بن سلام، أما تجدنى فى التوراة رسول الله؟» فقلت له: انعتْ ربنا. قال: فجاء جبريل حتى وقف بين يدى رسول الله ﷺ فقال له: ﴿ **قُلْ هُوَ اللَّهُ أَحَدٌ . اللَّهُ الصَّمَدُ . لَمْ يَلِدْ وَلَمْ يُولَدْ . وَلَمْ يَكُن لَّهُ كُفُوًا أَحَدٌ**﴾ [سورة الإخلاص]، فقرأها علينا رسول الله ﷺ فقال ابن سلام: أشهد أن لا إله إلا الله، وأنك رسول الله. ثم انصرف ابن سلام إلى المدينة فكتم إسلامه. فلما هاجر رسول الله ﷺ إلى المدينة وأنا فوق نخلة لى أجُدُّها، فألقيت نفسى، فقالت

---

(١) تفسير الطبرى (١٦/ ٥٠٦).

(٢) مسند أبى يعلى (٩/ ٤٢٤) وقد وقع فيه: «عبد الرحيم بن موسى» بدلاً من «هارون بن موسى».

(٣) فى هـ، ت، أ: «أحدث» والمثبت من دلائل النبوة. (٤) فى هـ، ت، أ. «عيدا» والمثبت من دلائل النبوة.

أمي: [لله][١] أنت، لو كان موسى بن عمران ما كان لك أن تلقى نفسك من رأس النخلة. فقلت: والله لأنى أسر بقدوم رسول الله ﷺ من موسى بن عمران إذ بُعث[٢].

وهذا حديث غريب جداً.

(١) زيادة من ت، أ، والدلائل.

(٢) دلائل النبوة (١/ ١٢٥) وهو فى المعجم الكبير برقم (٣٧٢) «القطعة المفقودة» وأعله الهيثمى بالانقطاع.

[٢٢٨ظ] /

سورة الرعد

مختلَف فيها،[١] وهي خمس وأربعون آيةً.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِۗ وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ ١﴾

﴿الٓمٓر﴾ اسم للسورة. ومَحلُّه إمّا الرفع على أنّه خبر لمبتدأ محذوف، أي: هذه السورة مسمّاة بهذا الاسم، وهو أظهر مِن الرفع على الابتداء؛ إذ لم يسبق العلم بالتسمية كما مرّ مرارًا. وقوله تعالى: ﴿تِلْكَ﴾ على الوجه الأوّل مبتدأ مستقلّ، وعلى الوجه الثاني مبتدأ ثانٍ، أو بدلٌ مِن الأوّل، أشيرَ به إليه إيذانًا بفخامته.

وَإمّا النصبُ بتقدير فعل يناسب المقام، نحو: "اقرأ" أو "اذكُر"، فـ﴿تِلْكَ﴾ مبتدأ، كما إذا جعل ﴿الٓمٓر﴾ مسرودًا على نمط التعديد، أو بمعنى: "أنا الله أعلَم وأرى" على ما رُوي عن ابن عبّاس رضي الله عنهما.[٢]

والخبر على التقادير قوله تعالى: ﴿ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: الكتاب العجيب الكامل، الغنيّ عن الوصف به، المعروف بذلك مِن بين الكتب، الحقيق باختصاص اسم الكتاب به، فهو عبارة عن جميع القرآن، أو عن الجميع المنزّل حينئذ، حسبما مرّ في مطلع سورة يونس عليه السلام؛ إذ هو المتبادر مِن مطلق الكتاب المستغني عن النعت. وبه يظهر ما أريدَ مِن وصف الآيات بوصف ما أضيفت إليه مِن نعوت الكمال، بخلاف ما إذا جُعل عبارة عن السورة،

---

[١] س: مدنيّة، وقيل: مكيّة.

[٢] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٦٧/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣.

فإنّها ليست بتلك المثابة مِن الشهرة في الاتّصاف بذلك، المغنيةِ عن التصريح بالوصف، على أنّها عبارة عن جميع آياتها، فلا بدّ من جعل ﴿تِلْكَ﴾ إشارة إلى كلّ واحدة منها. وفيه ما لا يخفى مِن التعسّف الذي مرّ تفصيله في سورة يونس.

﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ أي: الكتاب المذكور بكماله، لا هذه السورة وحدَها. ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الثابت المطابِق للواقع في كلّ ما نطق به، الحقيق بأن يخصّ به الحقّيّة لعراقته فيها. وليس فيه ما يدلّ على أنّ ما عداه ليس بحقّ أصلًا، على
[٢٢٩و] أنّ حقّيّته مستتبعة لحقّيّة سائر الكتب السماويّة / لكونه مصدِّقًا لِما بين يديه ومهيمنًا عليه.

وفي التعبير عنه بالموصول وإسنادِ الإنزال إليه بصيغة المبنيّ للمفعول والتعرّضِ لوصف الربوبيّة مضافًا إلى ضميره عليه السلام مِن الدلالة على فخامة المنزَّل التابعةِ لجلالة شأن المنزِّل وتشريف المُنزَّلِ إليه والإيماءِ إلى وجه بناءِ الخبر ما لا يخفى.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ﴾ بذلك الحقّ المبين، لإخلالهم بالنظر والتأمّل فيه، فعدم إيمانهم متعلّق بعنوان حقّيّته؛ لأنّه المرجع للتصديق والتكذيب، لا بعنوان كونه مُنْزَلًا كما قيل،[١] ولأنّه وارد على طريقة الوصف دون الإخبار.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَا ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَـٰتِ لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ تُوقِنُونَ ۝٢ وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ وَأَنْهَـٰرًا وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَـَٔايَـٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ﴾ أي: خلقهنّ مرتفعات. على طريقة قولهم: "سبحان مَن كبّر الفيل وصغّر البعوض"، لا أنّه رفعها بعد أن لم يكن كذلك. والجملة مبتدأ وخبر، كقوله: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ [الرعد، ١٣/٣].

---

[١] انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٤٤/٦.

﴿بِغَيۡرِ عَمَدٖ﴾ أي: بغير دعائم، جمع "عماد"، كإهاب وأَهَب، وهو ما يُعمد به، أي: يُسنَد، يقال: عَمَدت الحائط، أي: أدْعَمته. وقُرئ: "عُمُدٍ"[١] على جمع "عَمودٍ" بمعنى عمادٍ، كرُسل ورسول. وإيراد صيغة الجمع لجمع ﴿ٱلسَّمَٰوَٰتِ﴾، لا لأنّ المنفي عن كلّ واحدة منها عَمَد لا عِمادٌ.

﴿تَرَوۡنَهَا﴾ استئناف استُشهد به على ما ذكر مِن رفع السماوات بغير عَمَد. وقيل: صفة لـ﴿عَمَدٖ﴾ جيء بها إيهامًا؛ لأنّ لها عَمَدًا غير مرئيّة، هي قدرة الله سبحانه.

﴿ثُمَّ ٱسۡتَوَىٰ﴾ أي: استولى ﴿عَلَى ٱلۡعَرۡشِۖ﴾ بالحفظ والتدبير. أو استوى أمره. وعن أصحابنا أنّ الاستواء على العرش صفة لله عزّ وجلّ بلا كيف. وأيًّا ما كان فليس المراد به القصد إلى إيجاد العرش وخلقِه، فلا حاجة إلى جعل كلمة ﴿ثُمَّ﴾ للتراخي في الرتبة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ ذلّلهما وجعلهما طائعين لِما أريدَ منهما مِن الحركات وغيرها. ﴿كُلّٞ﴾ مِن الشمس والقمر ﴿يَجۡرِي﴾ حسبما أريدَ منهما ﴿لِأَجَلٖ مُّسَمّٗى﴾ لمدّة معيّنة / فيها تتمّ دورته، كالسنة للشمس، والشهرِ للقمر، [٢٢٩ظ]
فإنّ كلًّا منهما يجري كلّ يوم على مدارٍ معيّن مِن المدارات اليوميّة، أو لمدّةٍ ينتهي فيها حركاتهما ويخرج جميعُ ما أريدَ منهما مِن القوّة إلى الفعل، أو لغاية يتمّ عندها ذلك. والجملة بيان لحِكَم تسخيرهما.

﴿يُدَبِّرُ﴾ بما صنع مِن الرفع والاستواء والتسخير، أي: يقضي ويقدّر حسبما يقتضيه الحكمة والمصلحة ﴿ٱلۡأَمۡرَ﴾ أمر الخلق كلّه، وأمر ملكوته وربوبيّته. ﴿يُفَصِّلُ ٱلۡأٓيَٰتِ﴾ الدالّةَ على كمال قدرته وبالغ حكمته، أي: يأتي بها مفصّلةً وهي ما ذُكر مِن الأفعال العجيبة، وما يتلوها مِن الأوضاع الفلكيّة الحادثة شيئًا فشيئًا، المستتبعةِ للآثار الغريبة في السُّفليات على موجَب التدبير والتقدير.

فالجملتان إمّا حالان مِن ضمير ﴿ٱسۡتَوَىٰ﴾، وقولُه: ﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمۡسَ وَٱلۡقَمَرَۖ﴾ مِن تتمّة الاستواء، وإمّا مفسّرتان له؛ أو الأولى حال منه، والثانية مِن الضمير فيها؛

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب وأبي حيوة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٣.

أو كلاهما مِن ضمائر الأفعال المذكورة، وقولُه: ﴿كُلٌّ يَجْرِى لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ مِن تتمّة التسخير؛ أو خبران مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ﴾، خبرًا بعد خبر، والموصول صفة للمبتدأ جيء به للدلالة على تحقيق الخبر وتعظيم شأنه، كما في قول الفرزدق:

إنّ الـذي سمَك السماءَ بنى لنا   بيـتًا دعائمه أعـزّ وأطـولُ[1]

﴿لَعَلَّكُم﴾ عند معاينتكم لها وعثوركم على تفاصيلها ﴿بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ بملاقاته للجزاءِ ﴿تُوقِنُونَ﴾ فإنّ مَن تدبّرها حقّ التدبّر أيقن أنّ مَن قدر على إبداع هذه الصنائع البديعة على كلّ شيء قدير، وأنّ لهذه التدبيرات المتينة عواقبَ وغايات لا بدّ مِن وصولها، وقد بُيّنت على ألسنة الأنبياءِ عليهم السلام، أنّ ذلك[2] ابتلاء المكلّفين ثمّ جزاؤهم حسب أعمالهم،[3] / فإذن لا بدّ مِن الإيقان بالجزاء. [٢٣٠و]

ولمّا قرّر الشواهد العلويّة أردفها بذكر الدلائل السفليّة فقال: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطَها طولًا وعرضًا، قال الأصمّ: «المدّ: هو البسط إلى ما لا يدرك منتهاه»،[4] ففيه دلالة على بُعد مداها وسَعة أقطارها.[5]

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ أي: جبالًا ثوابت في أحيازها، مِن الرسوّ، وهو ثبات الأجسام الثقيلة. ولم يذكر الموصوف لإغناء غلبة الوصف بها عن ذلك. وانحصارُ مجيء فواعل جمعًا لفاعل في فوارس وهوالك ونواكس إنّما هو في صفات العقلاء، وأمّا في غيرهم فلا يراعى ذلك أصلًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ﴾ [البقرة، ١٨٤/٢]، وقولِه: ﴿ٱلْحَجُّ أَشْهُرٌ مَّعْلُومَٰتٌ﴾ [البقرة، ١٩٧/٢] إلى غير ذلك.

فلا حاجة إلى أن يجعل مفردها صفةً لجمع القِلّة، أعني: أجبُلًا، ويعتبر في جمع الكثرة -أعني: جبالًا- انتظامها لطائفة مِن جموع القلّة، وتنزيل كلّ منها

---

[1] ديوان الفرزدق، ٣١٨/٢. سمَكَ الله السماءَ سَمْكًا: رفعها. الصحاح للجوهري، «سمك».

[2] وفي هامش م: بدل مِن ضمير العواقب والغايات في "بُيّنت" بطريق التفسير، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَضَيْنَآ إِلَيْهِ ذَٰلِكَ ٱلْأَمْرَ أَنَّ دَابِرَ هَٰٓؤُلَآءِ مَقْطُوعٌ مُّصْبِحِينَ﴾ [الحجر، ٦٦/١٥]. «منه».

[3] وفي هامش م: كما نطق به قوله تعالى: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ وَكَانَ عَرْشُهُۥ عَلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا﴾ [هود، ٧/١١]، وغير ذلك مِن النصوص. «منه».

[4] اللباب لابن عادل، ٢٤٠/١١.

[5] ط س: أقدارها.

منزلةَ مفردها كما قيل. على أنّه لا مجال لذلك، فإنّ جمعيّة كلّ مِن صيغتَي الجمعين إنّما هي باعتبار الأفراد التي تحتهما، لا باعتبار انتظام جمع القِلّة للأفراد، وجمعِ الكثرة لجموع القِلّة، فكلٌّ منهما جمع "جَبَل"، لا أنّ "جبالًا" جمع "أجْبُل"، كما أنّ "طوائف" جمع "طائفة". ولا إلى أن يُلتَجأَ إلى جعل الوصف المذكور بالغلبة في عداد الأسماءِ التي تجمع على فواعل كما ظُنّ، على أنّه لا وجه له لِما أنّ الغلبة إنّما هي في الجمع دون المفرد. والتعبير عن الجبال بهذا العنوان لبيان تفرّع قرار الأرض على ثباتها.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ مجاري واسعة، والمراد ما يجري فيها مِن المياه، وفي نظمها مع الجبال في معموليّة فعل واحدٍ إشارةٌ إلى أنّ الجبال منشأ للأنهار وبيان لفائدةٍ / أخرى للجبال غيرِ كونها حافظةً للأرض عن الاضطراب المخلّ بثبات الأقدام [٢٣٠ظ] وتقلّب الحيوان، متفرّعةٍ على تمكّنه وتقلّبه، وهي تعيّشه بالماء والكلأ.

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلِّق بـ﴿جَعَلَ﴾ في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: اثنينيّةً حقيقيّةً، وهما الفردان اللذان كلّ منهما زوج الآخر. وأكّد به ﴿زَوْجَيْنِ﴾[١] لئلّا يُفهم أنّ المراد بذلك الشّفعان، إذ يطلق الزوج على المجموع، ولكنّ اثنينيّة ذلك اثنينيّة اعتباريّة، أي: جعل مِن كلّ نوع مِن أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمّا في اللون، كالأبيض والأسود، أو في الطعم، كالحُلو والحامض، أو في القَدْر، كالصغير والكبير، أو في الكيفيّة، كالحارّ والبارد، وما أشبه ذلك. ويجوز أن يتعلّق بـ﴿جَعَلَ﴾ الأوّل، ويكون الثاني استئنافًا لبيان كيفيّة ذلك الجَعل.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ استعارة تبعيّة تمثيليّة مبنيّة على تشبيه إزالة نور الجوّ بالظلمة بتغطية الأشياء الظاهرة بالأغطية، أي: يُستر النهار بالليل. والتركيب وإن احتمل العكس أيضًا بالحمل على تقديم المفعول الثاني على الأوّل، فإنّ ضوء النهار أيضًا ساتر لظلمة الليل، إلّا أنّ الأنسب بالليل أن يكون هو الغاشي. وعُدّ هذا في تضاعيف الآيات السفليّة -وإن كان تعلّقه بالآيات العلويّة ظاهرًا-

---

[١] ط س: الزوجين. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

باعتبار أنّ ظهوره في الأرض،[١] فإنّ الليل إنّما هو ظلّها، وفيما فوق موقع ظلّها لا ليل أصلًا، ولأنّ الليل والنهار لهما تعلّق بالثمرات مِن حيث العقد[٢] والإنضاج،[٣] على أنّهما أيضًا زوجان متقابلان مثلها. وقُرِئ: "يُغَشِّي"[٤] مِن التغشية.

[٢٣١و] ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر / مِن مدّ الأرض، وإيتادها بالرواسي، وإجراء الأنهار، وخلق الثمرات، وإغشاءِ الليل النهارَ. وفي الإشارة بذلك تنبيه على عِظم شأن المشار إليه في بابه. ﴿لَآيَٰتٍ﴾ باهرةً. وهي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلّت حكمة صانعها. فـ﴿فِى﴾ على معناها، فإنّ تلك الآثار مستقرّة في تلك الأفاعيل مَنوطة بها. ويجوز أن يشار بذلك إلى تلك الآثار المدلول عليها بتلك الأفاعيل، فـ﴿فِى﴾ تجريديّة.

﴿لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ فإنّ التفكّر فيها يؤدّي إلى الحُكم بأنّ تكوين كلّ مِن ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لا بدّ له مِن مكوّن قادر حكيم يفعل ما يشاء، ويختار ما يريد، لا معقّب لحُكمه، وهو الحميد المجيد.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ وَزَرْعٌ وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَعْقِلُونَ ۝٤﴾

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملة مستأنفة مشتملة على طائفة أخرى مِن الآيات، أي: بِقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمِن طيّبة إلى سبخة، وكريمةٍ إلى زَهيدة، وصُلبةٍ إلى رِخوة، إلى غير ذلك. ﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: متلاصِقات. وفي بعض المصاحف: "قِطَعًا مُتَجَاوِرَاتٍ"،[٥] أي: جعل في الأرض قِطَعًا. ﴿وَجَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: بساتينُ كثيرة منها.

﴿وَزَرْعٌ﴾ مِن كلّ نوع مِن أنواع الحبوب. وإفراده لمراعاة أصله. ولعلّ تقديمَ ذِكر الجنّات عليه مع كونه عمودَ المعاش لظهور حالها في اختلافها،

---

١ وفي هامش م: خبرُ "أنّ".
٢ وفي هامش م: ليل.
٣ وفي هامش م: نهار.
٤ قرأ بها حمزة والكسائي وخَلف ويعقوب وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٦٩.
٥ الكشّاف للزمخشري، ٢/٥١٣؛ البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٤٩.

ومباينتِها لسائرها، ورسوخِ ذلك فيها.

وتأخير قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلّا يقع بينها وبين صفتها -وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾- / فاصلةٌ. و"الصِنوان" جمع "صِنْو"، كقِنوان وقِنْو؛[1] وهي النخلة التي لها رأسان وأصلها واحد. [٢٣١ظ]

وقُرئ بضمّ الصاد[2] على لغة بني تميم وقَيس.[3] وقُرئ: "جَنّاتٍ"[4] بالنصب عطفًا على ﴿زَوْجَيْنِ﴾، وبالجرّ على ﴿كُلِّ ٱلثَّمَرَاتِ﴾. فلعلّ عدمَ نظم قوله تعالى: ﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَاوِرَاتٌ﴾ في هذا السلك مع أنّ اختصاص كلّ مِن تلك القِطع بما لها مِن الأحوال والصفات بمحض جعل الخالق الحكيم جلّت قدرتُه حين مدّ الأرض ودحاها للإيماء إلى كون تلك الأحوال صفات راسخة لتلك القِطع.

وقُرئ: "وَزَرْعٍ وَنَخِيلٍ"[5] بالجرّ عطفًا على ﴿أَعْنَـٰبٍ﴾ أو "جَنَّاتٍ".[6]

﴿يُسْقَىٰ﴾ أي: ما ذُكر مِن القِطَع والجنّات والزرع والنخيل. وقُرئ بالتأنيث[7] مراعاةً للّفظ. والأوّل أوفق بمقام بيانِ اتّحاد الكلّ في حالة السقي ﴿بِمَآءٍ وَاحِدٍ﴾ لا اختلاف في طبعه، سواء كان السقي بماء الأمطار أو بماء الأنهار.

﴿وَنُفَضِّلُ﴾ مع تآخذ أسباب التشابه بمحض قدرتنا واختيارنا ﴿بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ آخر منها ﴿فِى ٱلْأُكُلِ﴾ فيما يحصل منها مِن الثمر والطعم. وقُرئ بالياء[8] على بناء الفاعل ردًّا على ﴿يُدَبِّرُ﴾ و﴿يُفَصِّلُ﴾[9] و﴿يُغْشِى﴾.[10] وعلى بناء المفعول،[11]

---

[1] القِنْو: العِذق بما فيه مِن الرُّطَب. لسان العرب لابن منظور، «قنو».

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي حيوة والمفضّل وعن عاصم مِن طريق القواس عن حفص. انظر: والكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٤.

[3] بنو قَيس قبيلة مِن مُضَر مِن العدنانيّة، وهم بنو قيس بن عَيلان، واسمه الناس -بـ"النون"- بن مضر. قال المؤيّد صاحب حماه: «وقد جعل الله في قَيس مِن الكثرة أمرًا حتّى كان منه عدّة قبائل». نهاية الأرب للقلقشندي، ١/٤٠٣.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش والحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

[5] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٧.

[6] على قراءة الجرّ.

[7] أي: "تُسْقَى". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو وحمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٧.

[8] أي: "وَيُفَضِّلُ". قرأ بها حمزة والكسائي وخلف. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٧.

[9] الرعد، ١٣/٢.

[10] في الآية السابقة.

[11] أي: "وَيُفَضَّلُ بَعْضُهَا". قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن يعمَر. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٤.

وفيه ما لا يخفى مِن الفخامة والدلالةِ مع أنّ عدم احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخر مُغنٍ عن بناءِ الفعل للفاعل.[١]

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فصّل مِن أحوال القِطَع والجنّات ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ كثيرةً عظيمةً ظاهرةً ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ﴾ / يعملون على قضيّة عقولهم، فإنّ مَن عَقَلَ هذه [٢٣٢و] الأحوال العجيبة لا يَتَلَعْثَمُ في الجزم بأنّ مَن قدَر على إبداع هذه البدائع وخلقِ تلك الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القِطَع المتباينة المتجاورة وجَعْلِها حدائقَ ذات بهجة قادرٌ على إعادة ما أبداه؛ بل هي أهون في القياس.

وهذه الأحوال وإن كانت هي الآيات أنفسها -لا أنّها فيها- إلّا أنّه قد جُرّدت عنها أمثالُها مبالغة في كونها آية، فـ﴿فِي﴾ تجريديّة مثلَها في قوله تعالى: ﴿لَهُمۡ فِيهَا دَارُ ٱلۡخُلۡدِ﴾ [فصلت، ٢٨/٤١]. أو المشار إليه الأحوال الكلّيّة والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئًا فشيئًا في الأزمنة وآحادُها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهَدةُ لأهلها، فـ﴿في﴾ على معناها.

وحيث كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهرَ ممّا سبق عُلِّق كونها آياتٍ بمحض التعقّل، ولذلك لم يُتعرّض لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأكُل الظاهر لكلّ عاقل مع تحقّق ذلك في الخواصّ والكيفيّات ممّا يتوقّف العثور عليه على نوع تأمّل وتفكّرٍ، كأنّه لا حاجة في ذلك إلى التفكّر أيضًا. وفيه تعريض بأنّ المشركين غير عاقلين.

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ فَعَجَبٞ قَوۡلُهُمۡ أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِي خَلۡقٖ جَدِيدٍۗ أُوْلَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ ٱلۡأَغۡلَٰلُ فِيٓ أَعۡنَاقِهِمۡۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ أَصۡحَٰبُ ٱلنَّارِۖ هُمۡ فِيهَا خَٰلِدُونَ ٥﴾

﴿وَإِن تَعۡجَبۡ﴾ يا محمّد مِن شيء ﴿فَعَجَبٞ﴾ لا أعجبَ منه، حقيق بأن يُقصر عليه التعجّب ﴿قَوۡلُهُمۡ﴾ بعد مشاهدة ما عُدِّدَ لك مِن الآيات الشاهدة بأنّه تعالى على كلّ شيء قدير.

---

[١] ط س: على الفاعل.

﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَابًا﴾ على طريقة الاستفهام الإنكاري المفيد لكمال الاستبعاد والاستنكار. وهو في محلّ الرفع على البدليّة مِن ﴿قَوْلُهُمْ﴾ على أنّه بمعنى المَقُول، أو في محلّ النصب على المفعوليّة منه على أنّه مصدر. / فالعَجَب على الأوّل كلامُهم، وعلى الثاني تكلّمُهم بذلك. [٢٣٢ظ]

والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه قوله: ﴿أَءِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ وهو "نُبعَث أو نُعادُ". وتقديم الظرف لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالةٍ منافيةٍ له. وتكرير الهمزة في قولهم: ﴿أَءِنَّا﴾ لتأكيد الإنكار.

وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم ترابًا؛ بل كونُهم بعرضيّة ذلك واستعدادهم له. وفيه مِن الدلالة على عُتُوِّهم وتمادِيهِم في النكير ما لا يخفى.

وقيل: وإن تعجَب مِن قولهم في إنكار البعث فعجَبٌ قولهم. والمآل وإن تعجَب فقد تعجّبت في موضع التعجّب. وقيل: وإن تعجَب مِن إنكارهم البعثَ فعجَبٌ قولهم الدالّ عليه، فتأمّل.

وقد جُوّز كون الخطاب لكلّ مَن يصلح له، أي: إن تعجَب يا مَن ينظر في هذه الآيات مِن قدرة مَن هذه أفعاله فَازْدَدْ تعجّبًا مِمَّن يُنكر مع هذه الدلائل قدرتَه تعالى على البعث، وهو أهون مِن هذه. والأنسب بقوله: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾[١] هو الأوّل.

وقوله: ﴿فَعَجَبٌ﴾ خبر قُدّم على المبتدأ للقصر والتسجيل مِن أوّل الأمر بِكون قولهم ذاك أمرًا عجيبًا. ويجوز أن يكون مبتدأً لكونه موصوفًا بالوصف المقدّر كما أُشيرَ إليه. فالمعنى: وإن تعجَب فالعجَب الذي لا عجَب وراءه قولُهم هذا، فاعْجَب منه. وعلى الأوّل: وإن تعجَب فقولهم هذا عجَب لا عجَب فوقه.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ والموصول خبره، أي: أولئك المنكِرون لقدرته تعالى على البعث ريثما عاينوا ما فُصِّل مِن الآيات الباهرة الملجِئة لهم إلى الإيمان به

---

١ في الآية التالية.

لو كانوا يبصرون ﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وتمادَوْا فِي ذلك فإنّ إنكارهم لقدرته عزّ وجلّ كفر به، وأيّ كفرا ﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ مبتدأ خبره قوله: ﴿ٱلْأَغْلَـٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ أي: مقيّدون بقيود الضلال / لا يُرجى خلاصهم، أو مغلولون يوم القيامة. [٢٣٣و]

﴿وَأُوْلَـٰٓئِكَ﴾ الموصوفون بما ذُكر مِن الصفات ﴿أَصْحَـٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَـٰلِدُونَ﴾ لا ينفكّون عنها. وتوسيط ضمير الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصّة؛ بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۝٦﴾

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي أُنذِروها. وذلك حين سَألوا رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم أن يأتيهم بالعذاب استهزاءً منهم بإنذاره ﴿قَبْلَ ٱلْحَسَنَةِ﴾ أي: العافية والإحسان إليهم بالإمهال، ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ ٱلْمَثُلَـٰتُ﴾ أي: عقوبات أمثالهم مِن المكذّبين، فما لهم لا يعتبرون بها، ولا يحترزون حلول مثلِها بهم.

والجملة الحاليّة لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أي: يستعجلونك بها مستهزئين بإنذارك، منكِرين لوقوع ما أنذرتهم إيّاه، والحال أنّه قد مضت العقوبات النازلة على أمثالهم مِن المكذّبين المستهزئين.

والمَثُلةُ بوزن السَّمُرةِ: العقوبةُ، سُمِّيت بها لِما بينها وبين المعاقَب عليه مِن المماثلة، ومنه المثال للقِصاص. وقُرئ: "الْمُثُلَاتُ" بضمّتين[١] بإتباع الفاء العينَ. و"الْمَثْلَاتُ" بفتح الميم وسكون الثاء،[٢] كما يقال: السَّمْرة. و"الْمُثْلَاتُ" بضمّ الميم وسكون الثاء[٣] تخفيف "الْمُثُلَاتُ". و"الْمُثَلَاتُ"[٤] جمع "مُثْلَة"، كرُكْبَةٍ ورُكَبات.

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وابن قُطيب وأبي بكر وعاصم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة كذلك عن يحيى بن وثّاب. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[٤] قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعمش. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمة ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم بالذنوب والمعاصي. ومحلّها النصب على الحاليّة، أي: ظالمين، والعامل فيه المغفرة، والمعنى: إنّ ربّك لغفور للناس، لا يعجّل لهم العقوبة وإن كانوا ظالمين؛ بل يمهلهم بتأخيرها.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ﴾ يعاقب مَن يشاء منهم حين يشاء، / فتأخير ما [٢٣٣ظ] استعجلوه ليس للإهمال.

وعنه عليه السلام: «لولا عفو الله وتجاوزه ما هَنأَ لأحدٍ العَيشُ، ولولا وعيده وعقابه لاتّكَل كلّ أحدٍ».[١]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ ۗ إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ ۖ وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ وهم المستعجِلونَ أيضًا. وإنّما عُدِل عن الإضمار إلى الموصول ذمًّا لهم ونعيًا عليهم كُفرَهم بآيات الله تعالى التي تخِرّ لها صُمّ الجبال، حيث لم يرفعوا لها رَأسًا، ولم يعدّوها مِن جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثلُ آيات موسى وعيسى عليهما السلام عِنادًا ومكابرةً، وإلّا ففِي أدنى آية أنزلت عليه عليه السلام غُنْية وعِبْرةٌ لأولي الألباب.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مرسَل للإنذار مِن سوء عاقبة ما يأتون ويذَرون،[٢] كدأب مَن قبلَك مِن الرسل، وليس عليك إلّا الإتيان بما يُعلَمُ به نبوّتُك، وقد حصل ذلك بما لا مزيد عليه، ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجَر بالإتيان بما اقترحوا مِن الآيات.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ معيَّن، لا بالذات؛ بل بعنوان الهداية، يعني: لكلّ قوم نبيّ مخصوص له هداية مخصوصة يقتضي اختصاصَ كلّ منهم بما يختصّ به حِكَمٌ لا يعلمها إلّا الله تعالى، أو لِكلّ قوم هادٍ عظيمُ الشأن قادرٌ على ذلك هو الله سبحانه، وما عليك إلّا إنذارهم، فلا يهمَّنّك عنادهم وإنكارهم للآيات المنزّلة عليك وازدراؤهم بها.

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧١/٥؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٦/٣.

٢ س: وما يذرون.

﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۚ وَكُلُّ شَيۡءٍ عِندَهُۥ بِمِقۡدَارٍ ۝٨﴾

ثمّ عقّبه بما يدلّ على كمال علمه وقدرته وشمول قضائه وقَدَرِه المبنيَّين على الحِكَم والمصالح تنبيهًا على أنّ تخصيص كلِّ قوم / بنَبِيّ وكلِّ نبيّ بجنس [٢٣٤و] معيّن مِن الآيات إنّما هو للحِكَم الداعية إلى ذلك إظهارًا لِكمال قدرته على هدايتهم، لكن لا يهدي إلّا مَن تعلّق بهدايته مشيئتُه التابعة لحِكَمٍ استأثر بعلمها، فقال: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ أي: تحمله. فـ﴿مَا﴾ موصولة أريدَ بها ما في بطنها مِن حين العُلوق إلى زمن الولادة، لا بعد تكامل الخلق فقط، والعِلم متعدٍّ إلى واحدٍ. أو أيَّ شيء تحمِل؟ وعلى أيّ حال هو مِن الأحوال المتواردة عليه طورًا فطورًا؟ فهي استفهاميّة معلِّقة للعِلم. أو حَمْلَها، فهي مصدريّة.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُ﴾ أي: تَنْقُصه وتزداده فِي الجُثّة كالخديج والتامّ. وفي المدّة كالمولود في أقلّ مدّة الحمل والمولود في أكثرها وفيما بينهما. قيل: إنّ الضحّاك وُلِد في سنتين،[١] وهَرِم بن حيّان[٢] في أربع، ومِن ذلك سمّي هَرِمًا.[٣] وفي العدد كالواحد فما فوقه. يُروى أنّ شَريكًا[٤] كان رابعَ أربعة.[٥] أو يعلم نقصها وازديادها لِما فيها، فالفعلان متعدّيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَغِيضَ ٱلۡمَآءُ﴾ [هود، ٤٤/١١]، وقولِه: ﴿وَٱزۡدَادُواْ تِسۡعًا﴾ [الكهف، ٢٥/١٨]، وقولِه: ﴿وَنَزۡدَادُ كَيۡلَ بَعِيرٖ﴾ [يوسف، ٦٥/١٢]، أو لازمان قد أُسنِدا إلى ﴿ٱلۡأَرۡحَامُ﴾ مجازًا، وهما لِما فيها.

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٤٩/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢.

٢ هرم بن حيّان العبدي البصري الأزدي مِن بني عبد قيس (ت. بعد ٢٦هـ/ بعد ٦٤٧م). قائد مِن كبار النسّاك والتابعين ولي بعض الحروب في أيّام عمر وعثمان رضي الله عنهم. حدّث عن عمر، وروى عنه الحسن البصري وغيره. عدّه ابن أبي حاتم في الزهّاد الثمانية، وسمّاه الجاحظ في النُّسّاك الزُّهّاد في أهل البيان. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ٤٨/٤؛ والأعلام للزركلي، ٨٢/٨.

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٣/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢.

٤ هو شريك بن عبد الله بن أبي نمر المدني (ت. بعد ١٤٠هـ/٧٥٧م)، التابعي، المحدِّث. حدّث عن أنس، وسعيد بن المسيّب، وكريب، وعطاء بن يسار، وجماعة. وحدّث عنه مالك، وسليمان بن بلال، وعبد العزيز الدراوَرْدي، وإسماعيل بن جعفر، وأبو ضمرة الليثي. ورَوى عنه مِن الكبار سعيد المقبُري، وذلك في الصحيح. انظر: سير أعلام النبلاء للذهبي، ١٥٩/٦؛ وتهذيب الكمال للمزّي، ٤٧٥/١٢.

٥ الكشّاف للزمخشري، ٥١٥/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٦٠/١١.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ مِن الأشياء ﴿عِندَهُۥ بِمِقْدَارٍ﴾ بقدرٍ لا يمكن تجاوزه عنه، كقوله: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر، ٥٤/٤٩]، فإنّ كلّ حادث مِن الأعيان والأعراض له في كلّ مرتبة مِن مراتب التكوين ومباديها وقت معيّن وحال مخصوص / لا يكاد يجاوزه. والمراد بالعنديّة الحضور العلميّ؛ بل العلم الحضوري، فإنّ [٢٣٤ظ]
تحقّق الأشياء في أنفسها في أيّ مرتبة كانت مِن مراتب الوجود والاستعداد لذلك عِلم له بالنسبة إلى الله عزّ وجلّ.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ وَٱلشَّهَٰدَةِ ٱلْكَبِيرُ ٱلْمُتَعَالِ ۝٩ سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ وَمَن جَهَرَ بِهِۦ وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍۭ بِٱلَّيْلِ وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ۝١٠ لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ ۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ ۝١١﴾

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الغائب عن الحِسّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له. عُبّر عنهما بهما مبالغة. وقيل: أريدَ بـ﴿ٱلْغَيْبِ﴾ المعدوم، وبـ﴿ٱلشَّهَٰدَةِ﴾ الموجود. وهو خبر مبتدأ محذوف، أو خبر بعد خبر. وقُرئ بالنصب[١] على المدح. وهذا كالدليل على ما قبله مِن قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ﴾... إلخ. ﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيم الشأنِ الذي كلّ شيء دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ﴾ المستعلي على كلّ شيء بقدرته، أو المنزّه عن نعوت المخلوقات.

وبعد ما بيّن سبحانه أنّه عالم بجميع أحوال الإنسان في مراتب فطرته ومحيطٌ بعَالَمَي الغيب والشهادة بيّن أنّه تعالى عالِم بجميع ما يأتون وما يذرون مِن الأفعال والأقوال، وأنّه لا فرق بالنسبة إليه بين السرّ والعلن، فقال: ﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ في نفسه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ أظهره لغيره، ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ مبالغٌ في الاختفاء، كأنّه مُختَفٍ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالِبٌ للزيادة ﴿وَسَارِبٌ﴾ بارز يراه كلّ أحد ﴿بِٱلنَّهَارِ﴾ مِن "سَرَب سروبًا"، أي: برز. وهو عطفٌ على ﴿مَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾، أو على ﴿مُسْتَخْفٍ﴾، و﴿مَن﴾ عبارة عن الاثنين،

[١] أي: "عَالِمَ الغَيْبِ". قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن عمير. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

كما في قوله:

تـعـالَ فَـإِنْ عَـاهَـدْتَـنِـي لا تخونني   نكُنْ مثلَ مَن يَا ذِئـبُ يصطَحِبانِ[1]

كأنّه قيل: سواء منكم اثنان: مُستخفٍ بالليل، وساربٌ بالنهار. والاستِواء وإن أُسند إلى مَن أسرّ ومَن جهَر وإلى المستخفي والسارِب لكنّه في الحقيقة مسنَد إلى ما أسرّه وما جهر به، أو إلى الفاعل مِن حيث هو فاعل، كما في الأخيرين. وتقديم الإسرار والاستخفاء لإظهار كمال علمه تعالى، فكأنّه في التعلّق / بالخفيّات أقدم منه بالظواهر، وإلّا فنسبته إلى الكلّ سواء لِما عرفته آنفًا. [٢٣٥و]

﴿لَهُۥ﴾ أي: لكلّ ممّن أسرّ أو جهر، والمستخفي والسارب ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكة تَعتَقِب في حفظه. "معقِّبة"، مِن "عقَّبه" مبالغةِ "عَقَبَهُ" إذا جاء على عَقِبه، كأنّ بعضهم يعقِّب بعضًا، أو لأنّهم يعقّبون أقواله وأفعاله فيكتبونه. أو اعتَقَب، فأُدغمت التاء في القاف، والتاءُ للمبالغة. أو المراد بـ"المعقِّبات" الجماعات. وقُرئ: "مَعَاقِيبُ"[2] جمع "مُعقِب" أو "مُعَقِّبة"، على تعويض الياء مِن إحدى القافين.[3]

﴿مِنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ مِن جميع جوانبه، أو مِن الأعمال ما قدّم وأخّر، ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ مِن بأسه حين أذنب بالاستمهال والاستغفار له. أو يحفظونه مِن المَضارّ. أو يراقبون أحواله مِن أجل أمْر الله تعالى. وقد قُرئ به.[4] وقيل: ﴿مِنۡ﴾ بمعنى الباء. وقيل: ﴿مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِ﴾ صفة ثانية لـ﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾. وقيل: "المُعقِّبات" الحُرّاس والجَلَاوِزَةُ حَول السلطان يحفظونه في توهّمه مِن قضاء الله تعالى.

---

[1] للفرزدق في ديوانه، ص ٥٩٠، بلفظ:
تـعَـشَّ فـإن واثَـقْـتَـنِي لا تَـخونُـنِي
نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يصطحبانِ

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[3] هذا قول الزمخشري في الكشّاف، ٢/٥١٧. ونقل أبو حيّان عن ابن جنّي قوله: «هو تكسير مُعْقِب بسكون العين وكسر القاف، كمُطْعِم ومَطاعيم، ومُقْدِم ومَقاديم، وكان مُعْقِبًا جمع على مَعاقِبة، ثمّ جعلت الياء في "مَعَاقِيب" عوضًا مِن الهاء المحذوفة في مَعاقِبة». البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٦١.

[4] أي: "يَحفَظُونَهُ بِأَمرِ الله". وهي قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ وابن عبّاس رضي الله عنهم وعكرمة وزيد بن عليّ وجعفر بن محمّد. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ﴾ مِن النعمة والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ﴾ مِن الأعمال الصالحة أو ملَكاتها التي هي فطرة الله التي فطر الناس عليها إلى أضدادها، ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا﴾ لسوء اختيارهم واستحقاقهم لذلك ﴿فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ فلا ردّ له. والعامل في ﴿إِذَا﴾ ما دلّ عليه الجواب.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ يلي أمرهم، ويدفع عنهم السوءَ الذي أراده الله بهم بما قدّمت أيديهم مِن تغيير ما بهم. وفيه دلالة على أنّ تخلّف مراده تعالى مُحال، وإيذان بأنّهم بِما باشروه مِن إنكار البعثِ واستعجال السيّئة واقتراح الآية قد غيّروا ما بأنفسهم مِن الفطرة، واستحقّوا لِذلك حلولَ غضب الله تعالى وعذابه.

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا وَطَمَعٗا وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ ١٢﴾

﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ خَوۡفٗا﴾ مِن الصاعقة ﴿وَطَمَعٗا﴾ / في المطر. فوجه تقديم "الخوف" على "الطمَع" ظاهر، لِما أنّ المَخوف عليه النفس أو الرزق العَتيد،[1] والمطموعَ فيه الرزق المترقَّب. وقيل: الخوفُ أيضًا مِن المطر، لكنّ الخائف منه غير الطامع فيه، كالخزّاف والحرّاث. ويأباه الترتيب، اللّهمّ إلّا أن يُتكلّف ما أشيرَ إليه مِن أنّ المَخوف عليه[2] عتيد، والمطموع فيه مترقَّب. [٢٣٥ظ]

وانتصابهما إمّا على المصدريّة، أي: فيخافون خوفًا، ويطمَعون طمَعًا، أو على الحاليّة مِن ﴿ٱلۡبَرۡقَ﴾، أو المخاطَبين بإضمار "ذوي"، أو بجَعل المصدرِ بمعنى المفعول أو الفاعل مبالغةً، أو على العلّيّة بتقدير المضاف، أي: إرادةَ خوف وطمع، أو بتأويل الإخافة والإطماع؛ ليتّحد فاعل العلّة والفعل المعلّل. وأمّا جَعلُ المعلَّل هي الرؤيةَ التي يتضمّنها الإراءة، على طريقة قول النابغة:

وحلّت بيوتي في يفاعٍ ممنّع ... تَخال به راعي الحَمولة طائرا
حِذارًا على أن لا يُنال معادني ... ولا نِسوَتي حتّى يمُتنَ حرائرا[3]

---

[1] العَتيد: الحاضر المهيّأ. الصحاح للجوهري، «عتد».

[2] م ط س – عليه ["صح" في هامش م]. | فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

[3] ديوان النابغة الذبياني، ص ١٣٣-١٣٤. بلفظ: "على ألّا تُنال مقادتي" بدل "على ألّا ينال معادني".

أي: أحللت بيوتي حذارًا، فلا سبيل إليه؛ لأنّ ما وقع في معرض العلّة الغائيّة -لا سيّما الخوف- لا يصلح علّةً لرؤيتهم.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ الغمام المنسحب في الجوّ ﴿ٱلثِّقَالَ﴾ بالماء، وهي جمعُ "ثقيلة"، وُصف بها السحاب لكونها اسم جنس في معنى الجمع، والواحدة سحابة، يقال: سحابة ثقيلة، وسحاب ثِقال، كما يقال: امرأة كريمة، ونسوة كِرام.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ بِحَمْدِهِۦ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ وَهُمْ يُجَٰدِلُونَ فِى ٱللَّهِ وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: سامعوه مِن العباد الراجين للمطر ملتبسين ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ أي: يضجّون بـ"سبحان الله، والحمد لله". وإسناده إلى ﴿ٱلرَّعْدُ﴾ لحمله لهم على ذلك. أو يسبّح الرعد نفسه، على أنّ تسبيحه عبارة عن دلالته على وحدانيّته تعالى وفضله المستوجب لحمده.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يقول: «سبحان مَن يسبّح الرعد بحمده».[١] وإذا اشتدّ يقول: «اللّهمّ لا تقتلْنا بغضبك، ولا تُهلِكنا بعذابك، وعافِنا قبلَ ذلك».[٢] وعن عليّ كرّم الله تعالى[٣] وجهه: «سبحان مَن سَبَّحْتَ له».[٤]

وعن ابن عبّاس رضي الله عنهما أنّ اليهود سألت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم عن الرعد فقال: «ملَك مِن الملائكة موكَّل / بالسحاب، معه مَخارِيقُ مِن نارٍ يسوق بها السحابَ».[٥] وعن الحسَن: «خلقٌ مِن خلق الله تعالى، ليس بملَك».[٦] [٢٣٦و]

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ أي: يسبّح الملائكة ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ مِن هيبته وإجلاله جلّ جلاله. وقيل: الضمير لـ﴿ٱلرَّعْدُ﴾.

---

١ جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣. وأخرجه البخاري في الأدب المفرد، ص ٢٥٢ (٧٢٣)، مِن قول عبد الله بن الزبير.

٢ مسند الإمام أحمد، ٤٨/١٠ (٥٧٦٣)؛ سنن الترمذي، ٥٠٣/٥ (٣٤٥٠).

٣ ط س - تعالى.

٤ جامع البيان للطبري، ٤٧٧/١٣؛ الكشّاف للزمخشري، ٥١٨/٢.

٥ سنن الترمذي، ٢٩٤/٥ (٣١١٧)؛ الدعاء للطبراني، ١٢٦١/٢ (٩٨٦).

٦ الكشّاف للزمخشري، ٥١٩/٢؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٤/١١.

﴿وَيُرۡسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيهلكه بذلك، ﴿وَهُمۡ﴾ أي: الكفَرة المخاطَبون في قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾.[1] وقد التُفِت إلى الغيبة إيذانًا بإسقاطهم عن درجة الخطاب، وإعراضًا عنهم، وتعديدًا لِجناياتهم لدى كلّ مَن يستحقّ الخطاب، كأنّه قيل: هو الذي يفعل أمثال هذه الأفاعيل العجيبة مِن إراءة البرق وإنشاءِ السحاب الثِّقال وإرسال الصواعق الدالّة على كمال علمه وقدرته، ويعقلها مَن يعقلها مِن المؤمنين.

أو الرعدُ[2] نفسه، أو الملَكُ الموكّل به والملائكة، ويعملون بموجب ذلك مِن التسبيح والحمد والخوف مِن هيبته تعالى، ﴿وَهُمۡ﴾ أي: الكفَرة الذين حُكِيَتْ هناتهم مع ذُلّهم وهَوَانِهم وحقَارة شأنِهم ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ أي: في شأنه تعالى حيث يفعلون ما يفعلون مِن إنكار البعث واستعجال العذاب استهزاءً واقتراح الآيات.

فـ"الواو" لعطف الجملة على ما قبلها مِن قوله تعالى: ﴿هُوَ ٱلَّذِي يُرِيكُمُ ٱلۡبَرۡقَ﴾... إلخ،[3] أو على قوله: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ مَا تَحۡمِلُ﴾... إلخ.[4] وأمّا العطفُ على قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾[5] كما قيل فلا مجالَ له؛ لأنّ قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعۡلَمُ﴾... إلخ[6] استئناف لبيان بطلان قولِهم ذلك ونظائرِه مِن استعجال العذاب وإنكار البعث، قاطعٌ لعطف ما بعده على ما قبله. وقيل: للحال، أي: فيصيب بالصواعق مَن يشاء وهم في الجدال.

وقد أريدَ به ما أصاب أَرْبَدَ بنَ ربيعة أخا لبيدٍ فإنّه أقبل مع عامر بن الطفيل[7] / إلى رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبغِيانه الغوائل، فدخلا المسجد [٢٣٦ظ]

---

١ في الآية السابقة.

٢ السياق: أي: سامعوه... أو الرعد...

٣ في الآية السابقة.

٤ الرعد، ٨/١٣.

٥ الرعد، ٧/١٣.

٦ الرعد، ٨/١٣.

٧ هو عامر بن الطفيل بن مالك بن جعفر بن كلاب بن ربيعة بن عامر بن صعصعة العامري الجعفري. كان سيّدَ بني عامر في الجاهليّة. اختُلف في إسلامه، فأورده المستغفِري في الصحابة. قال ابن الأثير: «قول المستغفري وغيره ليس بحجّة في إسلام عامر، فإنّ عامرًا لم يَختلف أهل النقل مِن المتقدّمين أنّه مات كافرًا، وقد دعا رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليه وعلى أربد، فقال: "اللّهمّ اكفنيهما بما شئت"، فأنزل الله تعالى على أربد صاعقة، وأخذت عامرًا الغدّة، فكان يقول: "غُدّة كغُدّة البعير، وموت في بيت سلوليّة"». انظر: أسد الغابة لابن الأثير، ١٢٤/٣.

وهو عليه السلام جالس في نفر مِن الأصحاب رضي الله عنهم فاستشرفوا لِجَمالِ عامرٍ، وكان مِن أجملِ الناس، وقد كان أَوْصَى إلى أَرْبَدَ أنّه إذا رَأَيتَنِي أُكلِّمُ محمّدًا عليه السلام فَدُرْ مِن خَلفِه واضربه بالسيف. فَجَعَل يكلّمه عليه السلام فدَارَ أَرْبَدُ مِن خلفه عليه السلام،[١] فاخترَط مِن سيفه شِبْرًا فحبسه الله تعالى فلم يقدِر على سَلِّه، وجعل عامر يومئ إليه، فرأى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم الحال، فقال: «اللّهمّ اكْفِنيهِما بما شئت». فأرسل الله عزّ وجلّ على أَرْبَدَ صَاعقةً في يوم صَحْوٍ صائفٍ فأحرقته، ووَلّى عامر هاربًا، فنزل في بيت امرأة سلوليّة، فلمّا أصبح ضمّ عليه سلاحه، وتغيّر لَونُه، وركب فرسَه، فَجعل يَرْكُض في الصحراء، ويقولُ: «ابْرُزْ يا ملَك الموت»، ويقول الشِّعر، ويقول: «واللاتِ لئن أصحَرَ[٢] لي محمّد وصاحبه -يعني: ملك الموت- لأنفذتُهما برمح». فأرسل الله تعالى ملَكًا فلطمه بجناحه، فأرْداه في التراب، فخرجت على ركبته في الوقت غُدّة عظيمة، فعاد إلى بيت السلوليّة وهو يقول: «غُدّة كَغُدّة البعير ومَوْتٌ في بيت سلوليّة»، ثمّ دعا بفرسه فركبه، فأجراه حتّى مات على ظهره.[٣]

وقيل: أريدَ به ما رُوي عن الحسَن أنّه كان رجل مِن طواغيت العرب فبعث النبيُّ صلّى الله عليه وسلّم نفرًا مِن أصحابه يَدْعونه إلى الله عزّ وجلّ، فقال لهم: «أخبروني عمّا تدعونني إليه ما هو ومِمّ هو؟ مِن ذهب، أم مِن فضّة، أم مِن نحاس، أم مِن حديد، أم مِن دُرّ؟» فاستعظموا مقالته فرجعوا إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم فقالوا: «ما رأينا رجلًا أكفر قَلْبًا ولا أعتى على الله منه»، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه»، فرجعوا إليه، فما زاد إلّا مقالته الأولى وأخبث، فرجعوا إليه عليه السلام وأخبروا بما صنع، فقال عليه السلام: «ارجعوا إليه» فرجعوا إليه، فبَينما هُم عنده ينازعونه إذ ارتفعت سحابة ورعَدت وبرقت [٢٣٧و] / ورمت بصاعقة فاحترق الكافر، فجاءوا يسعَون ليخبروه عليه السلام بالخبر،

---

١ ط س - عليه السلام.

٢ أصحَر الرجل، أي: خرجَ إلى الصحراء. الصحاح للجوهري، «صحر».

٣ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٧٧/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٣/٣.

فاستقبلهم الأصحاب، فقالوا: «احترق صاحبكم»، قالوا: «مِن أين علمتم؟» قالوا: «أوحي إلى النبيّ صلّى الله عليه وسلّم».[1]

﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ أي: والحال أنّه شديد المماحلة والمكابرة والمماكرة لأعدائه. مِن "محَله" إذا كاده وعرّضه للهلاك. ومنه "تمحّل" إذا تكلّف استعمالَ الحِيَل. وقيل: هو "مِحال" مِن "المَحْل" بمعنى القوّة. وقيل: محوّل مِن "الحول" أو "الحيلة"، أُعِلَّ على غير قياس. ويعضُده أنّه قُرئ بفتح الميم[2] على أنّه مَفعَل مِن حالَ يحول إذا احتال. ويجوز أن يكون بمعنى الفِقار، فيكون مثلًا في القوّة والقدرة، كقولهم: «فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ».[3]

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ ۖ وَٱلَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِهِۦ لَا يَسْتَجِيبُونَ لَهُم بِشَىْءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ لِيَبْلُغَ فَاهُ وَمَا هُوَ بِبَٰلِغِهِۦ ۚ وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ﴿١٤﴾﴾

﴿لَهُۥ دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدعوة الثابتة الواقعة في محلّها، المجابة عند وقوعها. والإضافة للإيذان بملابستها للحقّ واختصاصها به، وكونه بمَعزِل مِن شائبة البطلان والضياع والضلال، كما يقال: كلمة الحقّ. وقيل: له دعوة الله سبحانه، أي: الدعوة اللائقة بحضرته، كما في قوله عليه السلام: «فمَن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله»،[4] والتعرّضُ لوصف الحقّيّة لتربية معنى الاستجابة. والأَولى هو الأوّل؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾.

وتعلّقُ الجملتين بما قبلهما مِن حيث إنّ إهلاك أربَد وعامر مِحَال مِن الله تعالى وإجابة لدعوة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم عليهما إن كانت الآية

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٠/٥؛ اللباب لابن عادل، ٢٧٧/١١.

[2] أي: "المَحَال". قراءة شاذّة، مرويّة عن الأعرج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٥.

[3] قطعة مِن حديث أخرجه الإمام أحمد في مسنده، ٤٦٤/٢٨ (١٧٢٢٨)، عن أبي الأحوَص، عن أبيه، قال: أتيت النبيّ صلّى الله عليه وسلّم، فصعّد فيّ النظر وصوّب، وقال: «أرَبّ إبل أنت أو رَبّ غنم؟» قال: مِن كلّ قد آتاني الله، فأكثر وأطيب، قال: «فتُنتِجها وافيةً أعينُها وآذانُها، فتَجدع هذه، فتقول: صَرما، وتقول: بَحيرةَ الله؟ فساعِدُ الله أشدّ، ومُوساه أحدّ»... الحديث. قال ابن الأثير: «أي: لو أراد الله تحريمها بشقّ آذانها لخلقها كذلك، فإنّه يقول لها: كوني، فتكون». النهاية لابن الأثير، «سعد».

[4] صحيح البخاري، ٢٠/١ (٥٤)؛ صحيح مسلم، ١٥١٥/٣ (١٩٠٧).

نزلت في شأنهما، أو مِن حيث إنّه وعيد للكفرة على مجادلة رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بحلول مِحَالِه بهم، وتحذيرٌ لهم بإجابة دعوته عليهم.

﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ أي: الأصنامَ الذين يدعوهم المشركون، فحُذف العائد.

[٢٣٧ظ] ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ مِن دون الله عزّ وجلّ ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ﴾ / مِن طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ﴾ أي: إلّا استجابة كائنة كاستجابة الماء لمَن بسَط كفَّيه إليه مِن بعيدٍ. فالاستجابة مصدر مِن المبنيّ للفاعل على ما يقتضيه الفعل الظاهر، أعني: ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ﴾. ويجوز أن يكون مِن المبنيّ للمفعول، ويضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدر مِن المبنيّ للفاعل للمصدر مِن المبنيّ للمفعول وجودًا وعدمًا، فكأنّه قيل: لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يستجاب لهم استجابةً إلّا استجابةً كائنة كاستجابة مَن بسَط كفَّيه إلى الماء، كما في قوله:

وعَضّةُ دهر يا ابنَ مروان لم يَدَعْ   مِن المال إلّا مُسْحَتٌ أو مجلّفُ[١]

أي: لم يدع فلم يبقَ إلّا مُسحَتٌ أو مجلَّفٌ.

﴿لِيَبۡلُغَ﴾ أي: الماء بنفسه مِن غير أن يؤخذ بشيء مِن الإناء ونحوه ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَٰلِغِهِۦ﴾ ببالغ فيه أبدًا؛ لكونه جمادًا لا يشعر بعطشه، ولا يبسط يده إليه فضلًا عن الاستطاعة لِما أراده مِن البلوغ إلى فيه.

شُبّه حال المشركين في عدم حصولهم في دعاء آلهتهم على شيء أصلًا وركاكة رأيهم في ذلك بحال عطشان هائم لا يدري ما يفعل، قد بسط كفَّيه مِن بعيد إلى الماء يبغي وصوله إلى فيه، مِن غير ملاحظة التشبيه في جميع مفردات الأطراف، فإنّ الماء في نفسه شيء نافع بخلاف آلهتهم. والمراد نفي الاستجابة رأسًا إلّا أنّه قد أُخرج الكلام مُخرج التهكّم بهم فقيل: لا يستجيبون لهم شيئًا مِن الاستجابة إلّا استجابةً كائنة في هذه الصورة التي ليست فيها شائبة الاستجابة قطعًا، فهو في الحقيقة مِن باب التعليق بالمُحال.

---

١ للفرزدق في ديوانه، ٢/١١٧، بلفظ: وعَضُّ زمانٍ يا ابنَ مروانَ لم يدَع مِن المال إلّا مُسْحَتًا أو مُجرَّفُ

وقُرِئ: "تَدْعُونَ" بالتاء،[١] و"كَبَاسِطٍ" بالتنوين.[٢]

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ﴾ أي: ذهاب وضياع وخَسار.

﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَظِلَٰلُهُم بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ ۩ ﴿١٥﴾﴾

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحدَه ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضع وينقاد لا لشيء غيرِه استقلالًا ولا اشتراكًا، فالقصر ينتظم القلبَ والإفراد ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ مِن الملائكة والثقلَين ﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ أي: طائعين وكارهين، أو انقيادَ طوعٍ وكَرهٍ، أو حالَ طوعٍ وكَرهٍ، فإنّ خضوع الكلّ لعظمة الله عزّ وجلّ وانقيادَه / لإحداث ما أراده فيهم مِن أحكام التكوين والإعدام شاءُوا أو أَبَوا، وعدمَ مداخلة حكم غيره -بل غيرِ حكمه تعالى- في تلك الشئون ممّا لا يخفى على أحدٍ. [٢٣٨و]

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: تنقاد له تعالى ظلالُ مَن له ظلّ منهم، أعني: الإنس، حيث يتصرّف على مشيئته وتتأتّى لإرادته في الامتداد والتقلّص والفَيء والزوال ﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْءَاصَالِ﴾ ظرف للسجود المقدّر، أو حال مِن "الظِّلال". وتخصيص الوقتين بالذكر مع أنّ انقيادها متحقِّق في جميع أوقات وجودها لظهور ذلك فيهما.

و﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ جمع "غَداة"، كـ"فُتِيّ" في جمع "فتاةٍ"، و﴿ٱلْءَاصَالِ﴾ جمع "أَصِيل"، وقيل: جمع "أُصُلٍ"، وهو جمع "أصيل"؛ وهو ما بين العصر والمغرب. وقيل: ﴿ٱلْغُدُوِّ﴾ مصدر، ويؤيّده أنّه قُرئ: "وَالْإِيصَالِ"،[٣] أي: الدخول في الأصيل.

هذا وقد قيل: إنّ المراد حقيقةُ السجود، فإنّ الكفرة حالَ الاضطرار -وهو المعنيّ بقوله تعالى: ﴿وَكَرْهًا﴾- يخصّون السجود به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا[٤] رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت، ٦٥/٢٩]. ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهامًا وعقولًا بها تسجد لله سبحانه كما خلقها للجبال

---

[١] قراءة شاذّة، مرويّة عن اليزيدي وهارون النحوي عن أبي عمرو وعن الأعمش. انظر: الكامل للهذلي، ص ٥٧٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي البَرَهْسَم. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي مِجلز لاحِق السدوسي. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[٤] م س: وإذا.

حتّى اشتغلت بالتسبيح، وظهر فيها آثار التجلّي، كما قاله ابن الأنباري.[١] ويجوز أن يراد بسجودها ما يشاهَد فيها مِن هيئة السجود تبعًا لأصحابها.

وأنت خبير بأنّ اختصاص سجود الكافر حالةَ الضرورة والشدّة بالله سبحانه لا يُجدي، فإنّ سجودهم لأصنامهم حالةَ الرخاء مُخِلّ بالقَصر المستفاد مِن تقديم الجارّ والمجرور، فالوجه حمل السجود على الانقياد، ولأنّ تحقيق انقياد الكلّ في الإبداع والإعدام له تعالى أدخَل في التوبيخ على اتّخاذ أولياء مِن دونه مِن تحقيق سجودهم له تعالى.

وتخصيص انقياد العقلاء بالذِّكر مع كون غيرِهم أيضًا كذلك لأنّهم العمدة، وانقيادهم دليل انقياد غيرهم، على أنّه بيّن ذلك بقوله عزّ وجلّ:

﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ قُلِ ٱللَّهُ ۚ قُلْ أَفَٱتَّخَذْتُم مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ نَفْعًا وَلَا ضَرًّا ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ ۗ أَمْ جَعَلُوا۟ لِلَّهِ شُرَكَآءَ خَلَقُوا۟ كَخَلْقِهِۦ فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ ۚ قُلِ ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَىْءٍ وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾

[٢٣٨ظ] ﴿قُلْ مَن رَّبُّ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ / فإنّه لتحقيق أنّ خالقهما ومتولّي أمرهما -مع ما فيهما على الإطلاق- هو الله سبحانه.

وقوله: ﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرٌ بالجواب مِن قِبَله عليه السلام إشعارًا بأنّه متعيّن للجوابيّة، فهو والخصم في تقريره سواء، أو أمر بحكاية اعترافهم إيذانًا بأنّه أمر لا بدّ لهم مِن ذلك، كأنّه قيل: احكِ اعترافَهم فبكِّتْهُم بما يلزمهم مِن الحجّة وألقِمْهم الحجَر، أو أمرٌ بتَلقينهم ذلك إن تَلَعْثَمُوا في الجواب حذرًا مِن الإلزام، فإنّهم لا يتمالَكون إذ ذاك، ولا يقدرون على إنكاره.

﴿قُلْ﴾ إلزامًا لهم وتبكيتًا: ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ لأنفسكم. و"الهمزة" لإنكار الواقع، كما في قولك: "أَضربتَ أباك؟"، لا لإنكار الوقوع، كما في قوله: "أَضربْتُ أبي؟". و"الفاء" للعطف على مقدّر بعد "الهمزةِ"، أي: أَعَلِمتم أنّ ربّهما هو الله

١ البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٦٩/٦؛ اللباب لابن عادل، ٢٨٢/١١.

الذي ينقاد لأمره مَن فيهما كافةً فاتّخذتم ﴿مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ﴾ عاجزين ﴿لَا يَمۡلِكُونَ لِأَنفُسِهِمۡ نَفۡعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يدفعونه عن أنفسهم فضلًا عن القدرة على جلب النفع لغيره، ودفع الضرر عنه، لا على أن يكون الإنكار متوجهًا إلى المعطوفَين معًا، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَعۡقِلُونَ﴾ [البقرة، ٤٤/٢]، إذا قدّر المعطوف عليه: "ألَا تَسمعون"؛ بل إلى ترتّب الثاني على الأوّل مع وجوب أن يترتّب عليه نقيضُه.[١]

والمعنى: أَبَعْدَ أن علِمتم أنّ ربَّهما هو الله جلّ جلاله اتّخَذتم مِن دونه أولياءَ عجَزَةً، والحال أنّ قضيّة العلم بذلك إنّما هو الاقتصار على تولّيه، فعكستم الأمر؟ كما في قوله تعالى: ﴿كَانَ مِنَ ٱلۡجِنِّ فَفَسَقَ عَنۡ أَمۡرِ رَبِّهِۦٓۗ أَفَتَتَّخِذُونَهُۥ وَذُرِّيَّتَهُۥٓ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِي﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]. ووصفُ "الأولياءِ" ههنا بعدم المالكيّة للنفع والضرّ في ترشيح الإنكار وتأكيده كتقييد الاتّخاذ هناك بالجملة الحاليّة، أعني قوله تعالى: ﴿وَهُمۡ لَكُمۡ عَدُوُّۢ﴾ [الكهف، ٥٠/١٨]، فإنّ كلًّا منهما / ممّا ينفي الاتّخاذ المذكور ويؤكّد إنكارَه. [٢٣٩و]

﴿قُلۡ﴾ تصويرًا لآرائهم الركيكة بصورة المحسوس: ﴿هَلۡ يَسۡتَوِي ٱلۡأَعۡمَىٰ﴾ الذي هو المشرك الجاهل بالعبادة ومستحِقِّها ﴿وَٱلۡبَصِيرُ﴾ الذي هو الموحِّد العالِم بذلك. أو الأوّل عبارة عن المعبود الغافل، والثاني إشارة إلى المعبود العالِم بكلّ شيء. ﴿أَمۡ هَلۡ تَسۡتَوِي ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي عبارة عن الكفر والضلال ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو عبارة عن التوحيد والإيمان، وقُرئ بالياء.[٢]

ولمّا دلّ النظم الكريم على أنّ الكفرة فيما فعلوا مِن اتّخاذ الأصنام أولياء مِن دون الله سبحانه في الضلال المحض والخطأ البحت بحيث لا يخفى بطلانه على أحد، وأنّهم في ذلك كالأعمى الذي لا يهتدي إلى شيء أصلًا، وليس لهم في ذلك شبهة تصلُح أن تكون منشأً لغلطهم وخطئهم فضلًا عن الحجّة، أُكِّدَ ذلك فقيل:

---

١ وفي هامش م: كما إذا قُدِّر: "أَتسمَعون؟". «منه».

٢ قرأ بها حمزة والكسائي وخلف وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

﴿أَمْ جَعَلُواْ لِلَّهِ﴾ أي: بل أَجَعلوا له ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه، و"الهمزة" لإنكار الوقوع، لا لإنكار الواقع مع وقوعه، وقوله: ﴿خَلَقُواْ كَخَلْقِهِۦ﴾ هو الذي يتوجّه إليه الإنكار، وأمّا نفس الجعل فهو واقع لا يتعلّق به الإنكار بهذا المعنى. والمعنى: أنّهم لم يجعلوا لله تعالى شركاء خلقوا كخلقه ﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلقه تعالى، فاستحقّوا بذلك العبادةَ كما استحقّها، ليكون ذلك منشأً لخطئهم؛ بل إنّما جعلوا له شركاء ما هو بمَعزِل مِن ذلك بالمرّة. وفيه ما لا يخفى مِن التعريض بركاكة رأيهم، والتهكّم بهم.

﴿قُلِ﴾ تحقيقًا للحقّ وإرشادًا لهم إليه: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ كافّةً، لا خالقَ سواه فيشارِكه في استحقاق العبادة ﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحّد بالألوهيّة، المتفرّد بالربوبيّة، ﴿ٱلْقَهَّٰرُ﴾ لكلّ ما سواه، فكيف يُتوهَّم أن يكون له شريك؟

[٢٣٩ظ] وبعد ما مُثِّل المشرك والشِّرك بـ﴿ٱلْأَعْمَىٰ﴾ و﴿ٱلظُّلُمَٰتُ﴾، / والموحّد والتوحيد بـ﴿ٱلْبَصِيرُ﴾ و﴿ٱلنُّورُ﴾ مُثِّل الحقّ الذي هو القرآن العظيم في فيضانه مِن جناب القدس على قلوبٍ خالية عنه متفاوتةِ الاستعداد، وفي جريانه عليها ملاحظةً وحِفظًا، وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً، وفي ثباته فيها مع كونه مُمِدًّا لِحَياتها الروحانيّة وما يتلوها مِن الملَكات السنيّة والأعمال المرضيّة، بالماء النازل مِن السماء، السائلِ في أودية يابسة لم تجرِ عادتها بذلك، سَيَلَانًا مُقَدَّرًا بمِقدارٍ اقتضَتْه الحكمة في إحياء الأرض وما عليها، الباقِي فيها حسبما يدور عليه منافع الناس، وفي كونه حِلية يتحلّى به النفوس، وتصل إلى البَهجة الأبديّة، ومتاعًا يُتمتّع به في المعاش والمعاد؛ بالذهب والفضّة وسائر الفِلِزّات[١] التي يُتّخذ منها أنواع الآلات والأدوات، وتبقى منتفَعًا بها مدّةً طويلة.

ومُثِّل الباطِلُ الذي ابتُلِي به الكفرة لقُصورِ نظرهم بما يظهر فيهما مِن غير مداخلة له فيهما وإخلالٍ بصَفائهما مِن الزبَد الرابي فوقَهما المُضمَحِلّ سريعًا، فقيل:

---

[١] الفِلِزّات جمع الفِلِزّ؛ وهو جميع جواهر الأرض مِن الذهب والفضّة والنحاس وأشباهها. انظر: لسان العرب لابن منظور، «فلز».

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَسَالَتْ أَوْدِيَةٌۢ بِقَدَرِهَا فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ زَبَدًا رَّابِيًا ۚ وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ زَبَدٌ مِّثْلُهُۥ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَـٰطِلَ ۚ فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذْهَبُ جُفَآءً ۖ وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ فَيَمْكُثُ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: مِن جهتها ﴿مَآءً﴾ أي: كثيرًا، أو نوعًا منه، وهو ماء المطر ﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾ واقعة في مواقعه، لا جميع الأودية، إذ الأمطار لا تستوعب الأقطار. وهو جمع "وادٍ"، وهو مَفرَجٌ بين جبالٍ أو تِلال أو آكام على الشذوذ، كنادٍ وأندية، وناجٍ وأنجية. قالوا: وَجهُه أنّ "فاعلًا" يجيء بمعنى "فَعيل"، كناصر ونصير، وشاهد وشهيد، وعالِم وعليم. وحيث جُمع "فَعيل" على "أفعِلة" -كجَريب وأجْرِبة- جُمِع "فاعل" أيضًا على "أَفعِلة"، فإن أُريدَ بها ما يسيل فيها مجازًا فإسناد السيلان إليها حقيقي، وإن أُريدَ معناها الحقيقي فالإسناد مجازي، كما في "جرى النهرُ". وإيثار التمثيل بها على الأنهار المستمرّة الجريان لوضوح المماثلة بين شأنها وشأن ما مثّل بها كما أشيرَ إليه.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: سالت ملتبِسةً بمِقدارها الذي / عيّنه الله تعالى واقتضته حكمته في نفع الناس، أو بمقدارها المتفاوِت قلّةً وكثرةً بحسب تفاوُت محالّها[1] صِغَرًا وكِبَرًا، لا بكونها مالئةً لها منطبِقةً عليها؛ بل بمجرّد قِلّتها بصِغرها المستلزِم لقِلّة موارد الماء وكثرتها بكِبَرها المستدعي لكثرة الموارد، فإنّ مَورِدَ السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ مِن موارد السيل الجاري في الوادي الكبير. [٢٤٠و]

هذا إن أُريدَ بالأودية ما يسيل فيها، أمّا إن أُريدَ بها معناها الحقيقي فالمعنى: سالت مياهها بقدر تلك الأودية على نحو ما عرفته آنفًا، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام،[2] ويراد بـ﴿قَدَرِهَا﴾ ما ذُكر أوّلًا مِن المعنيَين.

---

١ ط س: محلّها. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

٢ الاستخدام: هو أن يُذكر لفظ له معنيان، فيُراد به أحدُهما، ثمّ يُراد بالضمير الراجع إلى ذلك اللفظ معناه الآخر، أو يراد بأحد ضميريه أحد معنييه، ثمّ بالآخر معناه الآخر. التعريفات للجرجاني، ص ٢٢.

﴿فَٱحْتَمَلَ ٱلسَّيْلُ﴾ الجاري في تلك الأودية، أي: حَملَ معه ﴿زَبَدًا﴾ أي: غُثاءً ورغوةً، وإنّما وُصِف ذلك بقوله تعالى: ﴿رَّابِيًا﴾ -أي: عاليًا منتفخًا فوقه- بيانًا لِما أُريدَ بالاحتمال المحتمِل لكون الحَمِيل غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة. وإنّما لم يُدفَع ذلك الاحتمال -بأن يقال: فاحتمل السيل فوقَه- للإيذان بأنّ تلك الفوقيّة مقتضى شأن الزبَد، لا مِن جهة المحتمِل تحقيقًا للمماثلة بينه وبين ما مثّل به مِن الباطل الذي شأنه الظهور في بادي الرأي مِن غير مداخلة في الحقّ.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيْهِ فِى ٱلنَّارِ﴾ أي: يفعلون الإيقاد عليه كائنًا في النار. والضمير للناس، أُضمِر مع عدم سبق الذِّكر لظهوره. وقُرئ بالخطاب.[1] ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَٰعٍ﴾ أي: لِطلب اتّخاذِ حلية؛ وهي ما يُتزيّن ويُتجمَّلُ به، كالحُلِيّ المتّخذة مِن الذهب والفضّة، أو اتّخاذِ متاعٍ؛ وهو ما يُتمتَّع به مِن الأواني والآلات المتّخَذة مِن الرصاص والحديد وغير ذلك مِن الفِلِزّات. ﴿زَبَدٌ﴾ خَبَث ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ مثل ما ذُكر مِن زبَد الماء في كونه رابيًا فوقَه. فقوله: ﴿زَبَدٌ﴾ مبتدأ خبره الظرف المقدَّم.

[٢٤٠ظ] و﴿مِن﴾ ابتدائيّة دالّة على مجرّد كونه مبتدِأً وناشِئًا منه، لا تبعيضيّة / معربة عن كونه بعضًا منه كما قيل،[2] لِإخلالِ ذلك بالتمثيل. وفي التعبير عن ذلك بالموصول والتعرّضِ لِما في حيّز الصلة مِن إيقادِ النار عليه جَرْيٌ على سَنن الكبرياء بإظهار التهاون به، كما في قوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِى يَٰهَٰمَٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص، ٣٨/٢٨]، وإشارة إلى كيفيّة حصول الزبَد منه بذَوَبانِه.

وفي زيادة ﴿فِى ٱلنَّارِ﴾ إشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصولِ الزبَد كما أُشيرَ إليه. وعدم التعرّض لإخراجه مِن الأرض لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل، كما أنّ لعنوان إنزال الماء مِن السماء دخلًا فيه حسبما فُصِّل فيما سلف؛ بل له إخلال بذلك.

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو ويعقوب وابن عامر وشعبة. النشر لابن الجزري، ٢٩٧/٢.

[2] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٣/٢، والبيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٥/٣.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مِثل ذلك الضرب البديع المشتمِل على نُكت رائقة ﴿يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ أي: مَثَلَ الحقّ ومَثَلَ الباطلِ، والحذف للإنباء عن كمال التماثل بين الممثَّل والممثَّل به، كأنّ المَثَل المضروب عينُ الحقّ والباطل.

وبعد تحقيق التمثيل مع الإيماء في تضاعيف ذلك إلى وجوه المماثلة على أبدع وجوهٍ وآنقِها حسبما أشيرَ إليه في مواقعها بيّن عاقبة كلّ مِن الممثَّلين على وجه التمثيل مع التصريح ببعض ما به المماثلة مِن الذهاب والبقاء تتمّةً للغرض مِن التمثيل مِن الحثّ على اتّباع الحقّ الثابتِ والرّدْعِ عن الباطل الزائل، فقيل:

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ مِن كلّ منهما ﴿فَيَذۡهَبُ جُفَآءً﴾ أي: مَرْمِيًّا به. وقُرِئ: "جُفَالًا"،[1] والمعنى واحد. ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ منهما كالماء الصافي والفِلِزّ الخالص ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أمّا الماء فيثبت بعضُه في مَناقِعه،[2] ويسلك بعضه في عروق الأرض إلى العيون والقَنَا والآبار، وأمّا الفِلِزّ فيصاغ مِن بعضه أنواعُ الحليّ ويتّخذ مِن بعضه أصنافُ الآلات والأدوات، فيُنتَفَع بكلّ مِن ذلك أنواعَ الانتفاعات مدّةً طويلة.

فالمراد بالمُكث / في الأرض ما هو أعمّ مِن المُكث في نفسها ومِن البقاء في أيدي المتقلّبين فيها. وتغيير ترتيب اللفّ الواقع في الفذلكة[3] الموافق للترتيب الواقع في التمثيل[4] لمراعاة المُلاءَمةِ بين حالتَي الذهاب والبقاء وبين ذِكريهما، فإنّ المعتبر إنّما هو بقاء الباقي بعد ذهاب الذاهب، لا قبله. [٢٤١و]

﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب يضرب ﴿ٱلۡأَمۡثَالَ﴾ في كلّ باب إظهارًا لِكمال اللطف والعناية في الإرشاد والهداية. وفيه تفخيم لشأن هذا التمثيل، وتأكيدٌ لقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾ إمّا باعتبار ابتِناءِ هذا على التمثيل الأوّل، أو بجعل ﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارةً إليهما جميعًا.

---

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن رؤبة بن العجاج. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٦.

[2] المَنقَع، بالفتح: الموضع يَستنقِع فيه الماء، أي: يحبس، والجمع مَناقع. الصحاح للجوهري، «نقع».

[3] وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضۡرِبُ ٱللَّهُ ٱلۡحَقَّ وَٱلۡبَٰطِلَ﴾. «منه».

[4] وفي هامش م: هو قوله تعالى: ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدًا﴾. «منه».

وبعد ما بُيّن شأن كلّ مِن الحقّ والباطل حالًا ومآلًا أكملَ بيانٍ شُرع في بيان حالِ أهل كلّ منهما مآلًا تكميلًا للدعوة ترغيبًا وترهيبًا فقيل:

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ ٱلْحُسْنَىٰۚ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓۚ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُۖ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ١٨﴾

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ إذ دعاهم إلى الحقّ بفنون الدعوة التي مِن جملتها ضرب الأمثال، فإنّه ألطف ذريعة إلى تفهيم القلوب الغبيّة، وأقوى وسيلة إلى تسخير النفوس الأبيّة، كيف لا وهو تصوير للمعقول بصورة المحسوس، وإبراز لِأَوابِدِ[1] المعاني في هَيئة المأنوس؟ فأيُّ دعوةٍ أَولى منه بالاستجابة والقبول؟ ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبة الحُسنى، وهي الجنّة.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ وعاندوا الحقّ الجَليّ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ مِن أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذّ منه شاذّ في أقطارها، أو مجموعًا غير متفرّق بحسب الأزمان ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْاْ بِهِۦٓ﴾ أي: بما في الأرض ومثله معه جميعًا ليتخلّصوا عمّا بهم. وفيه مِن تهويل ما يلقاهم ما لا يحيط به البيان.

فالموصول مبتدأ، والشرطيّة كما هي خبره، لكن لا على أنّها وُضعت موضع السُّوأى -فوقعت في مقابلة الحسنى الواقعة في القرينة الأولى لمراعاة حسن المقابلة، فصار كأنّه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى- كما تُوهِّم، فإنّ الشرطيّة وإن دلّت على كمال سوء حالهم لكنّها بمَعزِل مِن القيام مَقام لفظ السُّوأى مصحوبًا باللام الداخلة على الموصول / أو ضميره، وعليه يدور حُصُول المرام. [٢٤١ظ]

وإنّما الواقع في تلك المقابلة ﴿سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ في قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾. وحيث كان اسم الإشارة الواقعُ مبتدأً في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقع مبتدأً في الجملة السابقة كان خبرها -أعني الجملة الظرفيّة- خبرًا عن الموصول في الحقيقة، ومبيّنًا لإبهام مضمون الشرطيّة الواقعة خبرًا عنه أوّلًا، ولذلك تُرك العطف، فصار كأنّه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوء الحساب،

---

[1] الأوابِد: الوحوش. الصحاح للجوهري، «أبد».

وذلك في قوّة أن يُقال: وللذين لم يستجيبوا له سوء الحساب، مع زيادة تأكيد، فتمّ حسن المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَده.

ثمّ بيّن مؤدّى ذلك فقيل: ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ وفيه نوعُ تأييد لتفسير ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ بالجنّة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ أي: المستقرّ. والمخصوص بالذمّ محذوف.

وقيل: "اللام" في قوله: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُواْ لِرَبِّهِمُ﴾ متعلِّقة بقوله: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ﴾[1] أي: الأمثالَ السالفةَ. وقوله: ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ صفة للمصدر، أي: استجابوا الاستجابةَ الحسنى، وقولُه: ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُواْ لَهُۥ﴾ معطوف على الموصول الأوّل، وقولُه: ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم﴾... إلخ كلام مستأنَف مَسوق لبيان ما أُعِدّ لغير المستجيبين مِن العذاب. والمعنى: كذلك يضرب الله الأمثال للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي: هما مَثَلا الفريقين.

وأنت خبير بأنّ عنوانَ الاستجابة وعدمَها لا مناسبةَ بينه وبين ما يدور عليه أمرُ التمثيل، وَأنّ الاستعمال المستفيض دخول اللام على مَن يُقصد تذكيره بالمَثَل، نعم قد يستعمل في هذا المعنى أيضًا كما في قوله سبحانه: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم، ١١/٦٦] ونظائرِه. على أنّ بعض الأمثال المضروبة لا سيّما المَثَل الأخير الموصول بالكلام ليس مَثَلَ الفريقين؛ بل مَثَلٌ للحقّ والباطل، ولا مَسَاغَ لجعل الفريقين مضروبًا لهم أيضًا بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضرب الله الأمثال للناس، إذ لا وجه حينئذ لتنويعهم إلى المستجيبين وغير المستجيبين، فتأمّل.

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ ۚ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ١٩﴾

/ ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ مِن القرآن الذي مُثّل بالماء المنزّل [٢٤٢و]
مِن السماء والإبريزِ[2] الخالص في المنفعة والجدوى ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حقَّ وراءه،

---

[1] في الآية السابقة.

[2] الإبريز: الذهب الخالص. لسان العرب لابن منظور، «برز».

أو الحقّ الذي أشيرَ إليه بالأمثال المضروبة، فيستجيب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب، لا يشاهِدُه وهُوَ نارٌ على عَلَمٍ، ولا يقدِر قدرَه وهو في أقصى مراتب العُلوّ والعِظَمِ، فيبقى حائرًا في ظلمات الجهل وغَياهب الضلال، أو لا يتذكّر بما ضُرِب مِن الأمثال، أي: كمَن لا يعلم ذلك، إلّا أنّه أريدَ زيادة تقبيح حاله فعُبّر عنه بالأعمى.

وإيراد "الفاء" بعد "الهمزة" لتوجيه الإنكار إلى ترتّب توهّم المماثلة على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب مِن الأمثال، وبُيّن المصير والمآل، كأنّه قيل: أبَعدَ ما بُيّن حال كلّ مِن الفريقين ومآلهما يُتوهّم المماثلة بينهما.[1]

ثمّ استؤنف فقيل: ﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بما ذكر مِن المذكّرات فيَقِفُ على ما بينهما مِن التفاوت والتنائي ﴿أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾ أي: العقولِ الخالصة المبرّأة مِن[2] مُشايعة الإلْف ومُعارضة الوَهم.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عقدوا على أنفسهم مِن الاعتراف بربوبيّته حين قالوا: "بلى"،[3] أو ما عَهِد الله عليهم في كتبه. ﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ ما وثّقوه على أنفسهم وقَبِلُوه مِن الإيمان بالله وغيرِه مِن المواثيق بينهم وبين الله وبين العباد، وهو تعميم بعد تخصيص. وفيه تأكيد للاستمرار المفهوم مِن صيغة المستقبل.

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ ۝٢١﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الرحِم وموالاة المؤمنين والإيمانِ بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ مِن غير تفريق بين أحد منهم، ويندرج فيه مراعاةُ جميع حقوق الناس؛ بل حقوقُ كلّ ما يتعلّق بهم مِن الهِرّ والدجاج.

---

[1] وفي هامش م: والجملةُ لتقرير ما قبلها مِن اختصاص المستجيبين بالجنّة، وابتلاء غير المستجيبين بجهنّم، وتوضيحه حسبما يُعرب عنه ما سيأتي مِن قوله تعالى في حقّ الفريقين: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٢/١٣]، ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعْنَةُ وَلَهُمْ سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ [الرعد، ٢٥/١٣]. «منه».

[2] س: عن.

[3] يعني: الميثاق الوارد في قوله تعالى: ﴿وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنۢ بَنِيٓ ءَادَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ ۖ قَالُواْ بَلَىٰ شَهِدْنَآ ۚ أَن تَقُولُواْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ إِنَّا كُنَّا عَنْ هَٰذَا غَٰفِلِينَ﴾ [الأعراف، ١٧٢/٧].

﴿وَيَخۡشَوۡنَ رَبَّهُمۡ﴾ خشية جَلالٍ وهَيْبةٍ ورَهْبةٍ، فلا يعصونه فيما أمَر به، ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلۡحِسَابِ﴾ فيحاسِبون أنفسهم قَبل أن يحاسَبُوا. وفيه دلالة على كمال فظاعته / حسبما ذُكر فيما قبل. [٢٤٢ظ]

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ سِرّٗا وَعَلَانِيَةٗ وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٢﴾

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُواْ﴾ على كلّ ما يكرهه النفس مِن الأفعال والتروك ﴿ٱبۡتِغَآءَ وَجۡهِ رَبِّهِمۡ﴾ طلبًا لرضاه خاصّةً مِن غير أن يَنظُروا إلى جانب الخلق رياءً أو سُمعة، ولا إلى جانب النفس زينة وعجبًا.

وحيث كان الصبر على الوجه المذكور ملاكَ الأمر في كلّ ما ذُكر مِن الصِّلات السابقة واللاحقة أُورِدَ على صيغة الماضي اعتناءً بشأنه، ودلالةً على وجوب تحقّقه، فإنّ ذلك ممّا لا بدّ منه، إمّا في أنْفُس الصِّلات، كما فيما عدا الأولى والرابعةَ والخامسةَ، أو في إظهار أحكامها، كما في الصِّلات الثلاث المذكورات، فإنّها وإن استغنت عن الصبر في أنفُسها حيث لا مشقّة على النفس في الاعتراف بالربوبيّة والخشية والخوف، لكنّ إظهار أحكامها والجريَ على موجَبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه.

﴿وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ المفروضةَ ﴿وَأَنفَقُواْ مِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ﴾ أي: بعضه الذي يجب عليهم إنفاقه ﴿سِرّٗا﴾ لمَن لم يُعرَف بالمال، أو لمَن لا يُتّهم بترك الزكاة، أو عند إنفاقه وإعطائه مَن يمنعه المروءة مِن أخذه ظاهرًا، ﴿وَعَلَانِيَةٗ﴾ لمَن لم يكن كما ذُكر، أو الأوّلُ في التطوّع، والثاني في الفَرْض.

﴿وَيَدۡرَءُونَ بِٱلۡحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يُجَازُونَ الإساءةَ بالإحسان، أو يُتبِعون الحسنة السيّئة فتمحوها. عن ابن عبّاس رضي الله عنهما: «يَدفَعون بالحسَن مِن الكلام ما يَرِد عليهم مِن سيّء غيرِهم».[1] وعن الحسَن: «إذا حُرِموا أعطَوا،

---

[1] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢. وفي الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥، عن ابن عبّاس رضي الله عنه في رواية الضحّاك عنه قال: «يدفعون بالصالح مِن العمل الشرّ مِن العمل».

وإذا ظُلِموا عفَوا، وإذا قُطِعُوا وَصَلُوا».[١] وعن ابن كَيسان:[٢] «إذا أذْنَبوا تابوا».[٣] وقيل: إذا رأَوا منكَرًا أمَرُوا بِتَغْيِيره.[٤] وتقديمُ المجرور على المنصوب لإظهار كمال العناية بالحسنة.

﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾ المنعوتون بالنعوت الجليلة والمَلَكات الجميلة. وهو مبتدأ، خبره الجملة الظرفيّة، أعني: قولَه: ﴿لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: عاقبة الدنيا / وما ينبغي أن يكون مآل أمر أهلها وهي الجنّة. وقيل: الجارّ والمجرور خبر لـ﴿أُوْلَـٰٓئِكَ﴾، و﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ فاعل الاستقرار، وأيًّا ما كان فليس فيه قصر حتّى يرِد أنّ بعض ما في حيّز الصلة ليس مِن العزائم التي يُخِلُّ إخلالها بالموصول إلى حسن العاقبة. [٢٤٣و]

والجملة خبر للموصولات المتعاطفة، أو استئناف لبيان ما استوجبوه بتلك الصفات، إن جُعلت الموصولات المتعاطفة صفاتٍ لأولي الألباب على طريقة المدح مِن غير أن يُقصد أن يكون للصِّلات المذكورة مدخل في التذكّر.

﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡۖ وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ٢٣ سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾

﴿جَنَّـٰتُ عَدۡنٍ﴾ بدل مِن ﴿عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾،[٥] أو مبتدأٌ خبره: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾ والعَدْن: الإقامة، ثمّ صار علَمًا لجنّةٍ مِن الجِنان، أي: جنّاتٌ يقيمون فيها. وقيل: هو بُطْنَانُ الجنّة.

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمعُ أَبَوَي كلِّ واحد منهم، فكأنّه قيل: مِن آبائهم وأمّهاتهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّـٰتِهِمۡ﴾ وهو عطفٌ على المرفوع في ﴿يَدۡخُلُونَ﴾،

---

[١] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[٢] هو محمّد بن أحمد بن كَيسان، أبو الحسن (ت. ٢٩٩هـ/٩١٢م)، النحوي. كان أحدَ المشهورين بالعلم، والمعروفين بالفهم؛ أخذ عن أبي العبّاس المبرّد، وأبي العبّاس ثعلب، وكان قيّمًا بمعرفة البصريّين والكوفيّين، و"كيسان" لقب لأبيه. وكان لابن كيسان مصنّفات كثيرة؛ منها المهذّب في النحو، وغلط أدب الكاتب، وغريب الحديث، ومعاني القرآن. انظر: نزهة الألبّاء للأنباري، ص ١٧٨؛ وبغية الوعاة للسيوطي، ١٩/١؛ والأعلام للزركلي، ٣٠٨/٥.

[٣] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٦/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[٤] الكشّاف للزمخشري، ٥٢٦/٢.

[٥] في الآية السابقة.

وإنّما ساغ ذلك للفصل بالضمير الآخِر، أو مفعول معه، والمعنى: أنّه يُلحَق بهم مَن صلَح مِن أهلهم وإن لم يبلغ مَبلغ فضلهم تبعًا لهم تعظيمًا لشأنهم. وهو دليل على أنّ الدرجةَ تعلو بالشفاعة، وأنّ الموصوف بتلك الصفات يُقرَنُ بَعضُهم ببعضٍ لِما بينهم مِن القرابة والوُصلة في دخول الجنّة زيادةً في أُنسهم. وفي التقييد بالصلاح قطعٌ للأطماع الفارغة لمَن يتمسّك بمجرّد حبل الأنساب.

﴿وَٱلۡمَلَـٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٍ﴾ مِن أبواب المنازل، أو مِن أبواب الفتوح والتُّحَف قائلين: ﴿سَلَـٰمٌ عَلَيۡكُم﴾ بِشارة لهم بدوام السلامة ﴿بِمَا صَبَرۡتُمۡ﴾ متعلّق بـ﴿عَلَيۡكُم﴾، أو بمحذوف، أي: هذه الكرامة العظمى بما صبرتم، أي: بسبب صبركم، أو بدل ما احتملتم مِن مشاقّ الصبر / ومتاعبِه. والمعنى: لئن تعبتم [٢٤٣ظ] في الدنيا لقد استرحتم الساعةَ. وتخصيص الصبر بما ذُكر مِن بين الصلاتِ السابقة لِما قدّمناه مِن أنّ له دخلًا في كلّ منها ومزيّةً زائدةً مِن حيث إنّه مَلاك الأمر في كلّ منها، وأنّ شيئًا منها لا يُعتدّ به إلّا بأن يكون لابتغاء وجه الربّ تعالى وتقدّس.

﴿فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: فنِعم عُقبى الدار الجنّة. وقُرئ بفتح النون،[١] والأصل "نَعِمَ" فسُكِّن العين بنقل حركتِها إلى النون تارةً وبدونه أخرى.

وعن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم أنّه كان يأتي قبُورَ الشهداء على رأس كلّ حَول، فيقول: «سلام عليكم بما صبرتم، فنِعم عُقبى الدار»،[٢] وكذا عن الخلفاء الأربعة،[٣] رضوان الله تعالى[٤] عليهم أجمعين.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ مِيثَـٰقِهِۦ وَيَقۡطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفۡسِدُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ أُوْلَـٰٓئِكَ لَهُمُ ٱللَّعۡنَةُ وَلَهُمۡ سُوٓءُ ٱلدَّارِ ٢٥﴾

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ أريدَ بهم مَن يقابل الأوّلين ويعاندهم في الاتّصاف

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٣٨٢/٦؛ والمحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣١٠/٣.

٢ جامع البيان للطبري، ٥١٣/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٧/٥. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٥٧٣/٣ (٦٧١٦).

٣ جامع البيان للطبري، ٥١٣/١٣؛ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٨٧/٥. وأخرجه عبد الرزّاق في المصنّف، ٥٧٣/٣ (٦٧١٦).

٤ س – تعالى.

بنقائض صفاتِهم ﴿مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ مِن بعد ما أُوثقوه به مِن الاعتراف والقبول. ﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ مِن الإيمان بجميع الأنبياء المجمِعين على الحقّ حيث يؤمنون ببعضهم ويكفرون ببعضهم، ومِن حقوق الأرحام وموالاة المؤمنين وغير ذلك ممّا لا يراعون حقوقه مِن الأمور المعدودة فيما سلف.

وإنّما لم يُتعرّض لنفي الخشية والخوف عنهم صريحًا لدلالة النقض والقطع على ذلك. وأمّا عدم التعرّض لنفي الصبر المذكور فلأنّه إنّما اعتُبر تحقّقه في ضمن الحسنات المعدودة لِيَقَعْنَ مُعْتَدًّا بهِنّ، فلا وجه لنفيه عمّن بينه وبين الحسنات بُعدُ المَشرِقين، كما لا وجه لنفي الصلاة والزكاة ممّن لا يحوم حول أصل الإيمان بالله تعالى فضلًا عن فروع الشرائع. وإن أريدَ بالإنفاق التطوّع فنفيه مندرج تحت قطع ما أمر الله تعالى بوصله.

[٢٤٤و] وأمّا دَرءُ السيّئة بالحسنة / فانتفاؤه عنهم ظاهر ممّا سبَق ولحِق، فإنّ مَن يجازي إحسانَه عزّ وجلّ بنقضِ العهد ومخالفة الأمر ويباشر الفساد بدءًا حسبما يحكيه قوله عزّ وعلا: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أي: بالظلم وتهييج الفِتَن، كيف يُتصوّر منه مُجازاة الإساءة بالإحسان؟ على أنّ ذلك يُشعر بأنّ له دخلًا في الإفضاء إلى العُقُوبة التي يُنبئ عنها قوله تعالى: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾... إلخ، أي: أولئك الموصوفون بما ذُكر مِن القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعادُ مِن رحمة الله تعالى، ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ﴾ أي: سوءُ عاقبة الدنيا، أو عذابُ جهنّم، فإنّها دارهم؛ لأنّ ترتيب الحُكم على الموصول مشعِر بعلّيّة الصلة له.

ولا يخفى أنّه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير، فإنّ مُجازاة السيّئة بمثلها مأذون فيها. ودفعُ الكلام السيّئ بالحسَن، وكذا الإعطاء عند المنع، والعفوُ عند الظلم، والوصلُ عند القطع، ليس ممّا يورِث تركُه تبِعةً. وأمّا ما اعتُبر اندراجُه تحت الصلة الثانية مِن الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضَيرَ في ذلك؛ لأنّ اعتباره مِن حيث إنّه مِن مستتبِعات الإخلال بالعزائم، بالكفر ببعض الأنبياء، وعقوقِ الوالدين، وترك سائر الحقوق الواجبة. وتكريرُ ﴿لَهُمْ﴾ للتأكيد والإيذان باختلافهما، واستقلال كلّ منهما في الثبوت.

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُۚ وَفَرِحُواْ بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْأَخِرَةِ إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾

﴿ٱللَّهُ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ﴾ أي: يوسّعه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ مِن عباده ﴿وَيَقْدِرُ﴾ أي: يضيّقه على مَن يشاء حسبما يقتضيه الحكمة، مِن غير أن يكون لأحد مدخل في ذلك، ولا شعورٌ بحكمته، فربّما يبسطه للكافر إملاءً واستدراجًا، وربّما يضيّقه / على المؤمن زيادةً لأجره، فلا يغترّ ببسطه الكافر، كما لا يَقنط بقَدْره المؤمنُ. [٢٤٤ظ]

﴿وَفَرِحُواْ﴾ أي: أهلُ مكّة فرحَ أَشَرٍ وبَطَرٍ، لا فرحَ سرورٍ بفضل الله تعالى ﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ وما بُسط لهم فيها مِن نعيمها، ﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا﴾ وما يتبعها مِن النعيم ﴿فِى ٱلْأَخِرَةِ﴾ في جَنْبِ نعيم الآخرة ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ﴾ إلّا شيءٌ نَزْرٌ يُتمتَّع به كَعُجالة الراكب وزادِ الراعي. والمعنى: أنّهم رضوا بحظّ الدنيا مُعرِضين عن نعيم الآخرة، والحال أنّ ما أَشِرُوا به في جنب ما أَعْرَضُوا عنه شيء قليل النفع سريع النَّفاد.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦۚ قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: أهلُ مكّة، وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهور إرادتهم عقيب ذكر فرحهم بالحياة الدنيا لذمّهم والتسجيل عليهم بالكفر فيما حُكي عنهم مِن قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ فإنّ ذلك في أقصى مراتب المكابَرة والعناد، كأنّ ما أُنزل عليه عليه السلام مِن الآيات العظام الباهرة ليس بآية حتّى اقترحوا ما لا يقتضيه الحِكمة مِن الآيات المحسوسة التي لا يبقى لأحد بعد ذلك طاقة بعدم القبول، ولذلك أُمِر في الجواب بقوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلاله مشيئة تابعة للحكمة الداعية إليها، أي: يخلق فيه الضلال لصَرفه اختيارَه إلى تحصيله ويَدعُه منهمِكًا فيه لعلمه بأنّه لا ينجَع فيه اللطف ولا ينفعه الإرشاد، كمَن كان على صفتكم في المكابرة والعناد وشدّة الشكيمة والغلوّ في الفساد، فلا سبيل له إلى الاهتداء ولو جاءَته كلّ آية.

﴿وَيَهْدِيٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جنابه العليّ الكبير هدايةً موصلةً إليه، لا دلالةً مطلَقة على ما يوصل إليه، فإنّ ذلك غير مختصّ بالمهتدين، وفيه مِن تشريفهم ما لا يوصف. ﴿مَنْ أَنَابَ﴾ / أقبل إلى الحقّ، وتأمّل في تضاعيف ما نزّل مِن [٢٤٥و] دلائله الواضحة. وحقيقة الإنابة الدخول في نَوبة الخير.

وإيثار إيرادها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى للتنبيه على الداعي إلى الهداية؛ بل إلى مشيئتها والإشعار بما دعا إلى المشيئة الأولى مِن المكابرة. وفيه حثّ للكفرة على الإقلاع عمّا هم عليه مِن العتوّ والعناد. وإيثار صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية لسابقة الإنابة، كما أنّ إيثار صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة حسب استمرار مكابرتهم.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكْرِ ٱللَّهِۗ أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ۝٢٨﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدل مِن ﴿مَنْ أَنَابَ﴾،[١] فإن أريدَ بالهداية الهدايةُ المستمِرّة فالأمر ظاهر لظهور كون الإيمان مؤدّيًا إليها، وإن أريدَ إحداثُها فالمراد بـ﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الذين صار أمرهم إلى الإيمان، كما في قوله تعالى: ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة، ٢/٢]، أي: الصائرين إلى التقوى، وإلّا فالإيمان لا يؤدّي إلى الهداية نَفْسِها. أو خبر مبتدأ محذوف، أي: هم الذين آمنوا، أو منصوب على المدح.

﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تستقرّ وتسكن ﴿بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ بكلامه المعجِز الذي لا ريب فيه، كقوله: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ أَنزَلْنَٰهُ﴾ [الأنبياء، ٥٠/٢١]، وقولِه: ﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر، ٩/١٥]، ويعلمون أن لا آيةَ أعظمُ منه فيقترحوها. والعدول إلى صيغة المضارع لإفادة دوام الاطمئنان وتجدّده حسب تجدّد الآيات وتعدّدها.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ﴾ دون غيره مِن الأمور التي تميل إليها النفوس مِن الدنياويّات، وهذا ظاهرٌ، أمّا سائر المعجزات فالقصر مِن حيث إنّها ليست / في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى مَن لم يشاهدها بمثابة القرآن المجيد، [٢٤٥ظ]

---

[١] في الآية السابقة.

فإنّه معجزة باقية إلى يوم القيامة يشاهدها كلّ أحد، وتطمئنّ به القلوب كافّةً. وفيه إشعار بأنّ الكفرة ليست لهم قلوب، وأفئدتُهم هَواءٌ، حيث لم يطمئنّوا بذكر الله تعالى، ولم يعدّوه آية، وهو أظهر الآيات وأبهرها.

وقيل: تطمئنّ قلوبُهم بذكر رحمته ومغفرته بعد القلق والاضطراب مِن خشيته، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر، ٢٣/٣٩]، أو بذكر دلائله الدالّة على وحدانيّته، أو بذكره جلّ وعلا أُنسًا به وتبتّلًا إليه، فالمراد بالهداية دوامها واستمرارها.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ طُوبَىٰ لَهُمْ وَحُسْنُ مَـَٔابٍ ﴿٢٩﴾﴾

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ بدل مِن ﴿ٱلْقُلُوبُ﴾[١] على حذف المضاف، بدلَ الكلّ حسبما رُمز إليه، أي: قلوب الذين آمنوا. وفيه إيماء إلى أنّ الإنسان إنّما هو القلب. أو مبتدأ خبرُه الجملة الدعائيّة على التأويل، أعني: قوله: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أو خبر مبتدأ مضمَر، أو نصب على المدح، فـ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ حال عاملُها الفعلان.

و﴿طُوبَىٰ﴾ مصدر مِن "طاب"، كـ"بُشرى" و"زُلفى"، والواو منقلِبة مِن الياء، كـ"موقِن" و"موسِر". وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابي:[٢] "طِيبَى"[٣] ليَسلم الياء، والمعنى: أصابوا خيرًا، ومحلُّها النصب، كـ"سلامًا لك"، أو الرفع على الابتداء وإن كانت نكرةً لكونها في معنى الدعاء، كـ"سلام عَليك"، يدلّ على ذلك القراءةُ في قوله تعالى: ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالنصب[٤] والرفع. واللام في ﴿لَهُمْ﴾ للبيان مثلها في "سُقيًا لك".

---

[١] في الآية السابقة.

[٢] هو مَكْوَزة الأعرابي (ت. نحو ٢١٠هـ/٨٢٥م)، أحد الفصحاء الذين رأى النديم كتُبهم بخطوط علماء اللغة. وكان ممّن روى عنه أبو عبيدة وأبو محلّم الشيباني. وثمّة نُقول عن مَكْوَزة في: **الألفاظ** لابن السكّيت، و**المزهر** للسيوطي. **تاريخ التراث العربي** لسزكين، ٦١/١.

[٣] قراءة شاذّة. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٥٢٨/٢؛ و**البحر المحيط** لأبي حيّان، ٣٨٦/٦؛ و**شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

[٤] القراءة بنصب ﴿وَحُسْنُ﴾ قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن أبي عبلة وعيسى الكوفة. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٨.

﴿كَذَٰلِكَ أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ لِّتَتْلُوَا۟ عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ ۚ قُلْ هُوَ رَبِّى لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾

﴿كَذَٰلِكَ﴾ مِثلُ ذلك الإرسال العظيم الشأن المصحوبِ بهذه المعجزة الباهرة ﴿أَرْسَلْنَٰكَ فِىٓ أُمَّةٍ قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مَضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرة قد أرسلَ إليهم رُسل ﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ مِن الكتاب العظيم الشأن، وتهديهم إلى الحقّ رحمةً لهم. وتقديم المجرور / على المنصوب مِن قَبيل [٢٤٦و] الإبهام ثمّ البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح، ٢/٩٤]، وفيه ما لا يخفى مِن ترقّب النفس إلى ما سيَرِد، وحسنِ قبولها عند وُرُودِه عليها.

﴿وَهُمْ﴾ أي: والحال أنّهم ﴿يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ بالبليغ الرحمة، الذي وسعت كلَّ شيء رحمته، وأحاطت به نعمته. والعدول إلى المظهر المتعرّض لوصف الرحمة مِن حيث إنّ الإرسال ناشئٌ منها، كما قال تعالى: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء، ١٠٧/٢١]، فلم يَقدُروا قدرَه، ولم يشكروا نِعَمَهُ، لا سيّما ما أنعم به عليهم بإرسال مِثلك إليهم، وإنزالِ القرآن الذي هو مدارُ المنافع الدينيّة والدنياويّة عليهم. وقيل: نزلت في مشركي مكّة حين أُمِرُوا بالسجود فقالوا: وما الرحمن؟[1]

﴿قُلْ هُوَ﴾ أي: الرحمن الذي كفرتم به وأنكرتم معرفته ﴿رَبِّى﴾ "الربّ" في الأصل بمعنى التربية؛ وهي تبليغ الشيء إلى كماله شيئًا فشيئًا، ثمّ وُصف به مبالغةً، كالصوم والعدل. وقيل: هو نعت، أي: خالقي ومُبَلّغي إلى مراتب الكمال. وإيراده قَبل قوله: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ -أي: لا مستحقّ للعبادة سواهُ- تنبيهٌ على أنّ استحقاق العبادة مَنوط بالربوبيّة.

وقيل: إنّ أبا جهل سمع النبيّ صلّى الله عليه وسلّم يقول: «يا الله، يا رحمن»، فرجع إلى المشركين فقال: «إنّ محمّدًا يدعو إلَهَين»، فنزلت، ونزل قوله تعالى: ﴿قُلِ ٱدْعُوا۟ ٱللَّهَ أَوِ ٱدْعُوا۟ ٱلرَّحْمَٰنَ﴾ الآية [الإسراء، ١١٠/١٧].[2]

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٨٧/٢.

[2] التفسير الوسيط للواحدي، ١٦/٣. ونحوه في جامع البيان للطبري، ١٢٣/١٥.

﴿عَلَيۡهِ تَوَكَّلۡتُ﴾ في جميع أموري، لا سيّما في النصرة عليكم، لا على أحد سواه. ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ خاصّةً ﴿مَتَابِ﴾ أي: توبتي، كقوله تعالى: ﴿وَٱسۡتَغۡفِرۡ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر، ٥٥/٤٠].

أُمِر[١] عليه السلام بذلك إبانةً لفضل التوبة ومقدارِها عند الله تعالى، وأنّها صفة الأنبياء، وبعثًا للكفرة على الرجوع عمّا هم عليه بأبلغ وجه وألطفه، فإنّه عليه السلام حيث أُمِر بها وهو منزّه عن شائبة اقتِراف ما يوجبها مِن الذنب وإن قلّ، فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفر والمعاصي ممّا لا بدّ منه أصلًا.

/ وقد فُسِّر "المتَابُ" بمطلق الرجوع، فقيل: مَرجعي ومَرجعكم،[٢] وزِيدَ: فيحكم بيني وبينكم. وقد قيل: فيُثيبني على مُصابرتكم،[٣] فتأمّل. [٢٤٦ظ]

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ أَوۡ كُلِّمَ بِهِ ٱلۡمَوۡتَىٰۗ بَل لِّلَّهِ ٱلۡأَمۡرُ جَمِيعًاۗ أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعٗاۗ وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُواْ قَارِعَةٌ أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ حَتَّىٰ يَأۡتِيَ وَعۡدُ ٱللَّهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ٣١﴾

﴿وَلَوۡ أَنَّ قُرۡءَانٗا﴾ أي: قرآنًا ما، وهو اسم ﴿أَنَّ﴾، والخبر قوله تعالى: ﴿سُيِّرَتۡ بِهِ ٱلۡجِبَالُ﴾، وجوابُ ﴿لَوۡ﴾ محذوف لانسياق الكلام[٤] إليه بحيث يتلقّفه السامع مِن التالي. والمقصود إمّا بيان عِظم شأن القرآن العظيم وفسادِ رأي الكفرة حيث لم يَقدُروا قدرَه العليّ، ولم يَعدّوه مِن قَبيل الآيات، فاقترحوا غيرَه ممّا أوتي موسى وعيسى عليهما السلام، وإمّا بيان غلوّهم في المُكابَرة والعناد، وتماديهم في الضلال والفساد.

فالمعنى على الأوّل: لو أنّ قرآنًا سُيِّرت به الجبال -أي: بإنزاله، أو بتلاوته عليها- وزُعزعت عن مَقارّها، كما فُعِل ذلك بالطور لموسى عليه السلام، ﴿أَوۡ قُطِّعَتۡ بِهِ ٱلۡأَرۡضُ﴾ أي: شُقّقَتْ وجعلت أنهارًا وعيونًا، كما فُعِل بالحَجَر

---

[١] وفي هامش م: إذ هو داخل تحت الأمر. «منه».
[٢] قاله البيضاوي في أنوار التنزيل، ١٨٨/٣.
[٣] قاله الزمخشري في الكشّاف، ٥٢٩/٢.
[٤] وفي هامش م: النظم.

حين ضربه عليه السلام بعصاه، أو جُعِلت قِطعًا متصدّعة، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: بعد أن أُحْيِيَتْ[1] بقراءته عليها كما أُحيِيَت لعيسى عليه السلام، لَكان ذلك هذا القرآنَ؛ لكونه الغاية القصوى في الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى وهيبته عزّ وجلّ، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر، ٢١/٥٩]، لا في الإعجاز، إذ لا مدخلَ له في هذه الآثار، ولا في التذكير والإنذار والتخويف؛ لاختصاصها بالعقلاء، مع أنّه لا علاقةَ لها بتكليم الموتى. واعتبار فيض العقول إليها مُخِلّ بالمبالغة المقصودة.

وتقديم المجرور في المواضع الثلاثة على المرفوع لِما مرّ غيرَ مرّة مِن قصد الإبهام ثمّ التفسير لزيادة التقرير؛ لأنّ بتقديم ما حقّه التأخير تبقى النفس مستشرِفة ومترقِّبة إلى المؤخَّر أنّه ماذا؟ فيتمكّن عند وروده عليها فضل تمكّن. وكلمة ﴿أَوْ﴾ في الموضعين لمنع الخلوّ، لا لمنع الجمع.

واقتراحُهم وإن كان متعلّقًا بمجرّد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده
[٢٤٧و] عليه السلام، لا بظهورها بواسطة القرآن، لكنّ ذلك حيث كان مبنيًّا / على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نِيط ظهورها به مبالغةً في بيان اشتماله عليها، وأنّه حقيق بأن يكون مصدرًا لكلّ خارق، وإبانةً لرَكاكة رأيهم في شأنه الرفيع، كأنّه قيل: لو أنّ ظهور أمثال ما اقترحوه مِن مقتضيات الحكمة لكان مَظهرها هذا القرآن الذي لم يعدّوه آية. وفيه مِن تفخيم شأنه العزيزِ ووصفِهم برَكاكة العقل ما لا يخفى.

﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له الأمر الذي عليه يدور فَلَكُ الأكوان وجودًا وعدمًا، يفعل ما يشاء، ويحكم ما يريد لِما يدعو إليه مِن الحِكَم البالغة. وهو إضراب عمّا تضمّنه الشرطيّة مِن معنى النفي، لا بحسب منطوقه؛ بل باعتبار موجَبه ومؤدّاه، أي: لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما ذُكِر لكان ذلك هذا القرآنَ، ولكن لم يُفعَل؛ بل فُعِل ما عليه الشأن الآن؛ لأنّ الأمر كلّه له وحدَه، فالإضراب ليس بمتوجِّه إلى كون الأمر لله سبحانه؛ بل إلى ما يؤدّي إليه ذلك مِن كون الشأن على ما كان لِما يقتضيه الحكمة مِن بناء التكليف على الاختبار.

---

[1] ط س: أحيى. | يظهر أثر الكشط في نسخة المؤلّف، فلعلّه صحّحها بعد نسخ ط س.

﴿أَفَلَمۡ يَاْيۡـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يعلموا؟ على لغة هَوازِنَ، أو قومٍ مِن النخع، أو على استعمال اليأس في معنى العِلم لتضمّنه له. ويؤيّده قراءة عليّ وابنِ عبّاس وجماعةٍ مِن الصحابة والتابعين رضوان الله تعالى عليهم أجمعين: "أَفَلَمۡ يَتَبَيَّنِ"[1] بطريق التفسير.

و"الفاء" للعطف على مقدَّر، أي: أَغَفِلوا عن كون الأمر جميعًا لله تعالى، فلم يعلموا ﴿أَن لَّوۡ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ على حذف ضمير الشأن، وتخفيفِ ﴿أَن﴾، ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة؟ فالإنكار متوجِّه إلى المعطوفِين جميعًا، أو أَعَلِمُوا كَوْنَ الأمر جميعًا لله، فلم يعلموا ما يوجبه ذلك العلمُ مِمّا ذُكر؟ فهو متوجّه إلى وقوع[2] المعطوف بعد[3] المعطوف عليه، أي: تخلّفِ العلم الثاني عن العلم الأوّل.

وعلى التقديرين فالإنكار إنكار الوقوع، كما في قوله تعالى: ﴿أَلَمۡ يَعِدۡكُمۡ رَبُّكُمۡ وَعۡدًا حَسَنًا﴾ [طه، ٢٠/٨٦]، لا إنكار الواقع، كما في قولك: ألم تخَفِ الله حتّى عصيتَه. ثمّ إنّ مناطَ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطيّة فقط؛ بل مع عدم علمهم بعدم تحقّق مقدَّمها، كأنّه قيل: ألم يَعلموا أنّ الله تعالى لو شاء هدايتهم لَهَداهُم، وأنّه لم يشأها؛[4] / وذلك لأنّهم كانوا يوَدّون أن يظهر ما اقترحوا مِن الآيات ليجتمعوا على الإيمان. [٢٤٧ظ]

وعلى الثاني:[5] لو أنّ قرآنًا فُعِل به ما فصِّل مِن التعاجيب لَما آمنوا به، كقوله تعالى: ﴿وَلَوۡ أَنَّنَا نَزَّلۡنَآ إِلَيۡهِمُ ٱلۡمَلَـٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلۡمَوۡتَىٰ﴾ الآية [الأنعام، ٦/١١١]، فالإضراب حينئذ متوجِّه إلى ما سلف مِن اقتراحهم مع كونهم في العناد على ما شُرِح، أي:

---

١ قراءة شاذّة. انظر: شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٨.

٢ م ط س: ترتّب [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٣ م ط س: على [صُحّح في هامش م]. | ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

٤ وفي هامش م: أي: أصلها، على أنّ الاستمرار المستفاد مِن صيغة الاستقبال معتبَر في النفي الذي يُنبِئ عنه "لو" الامتناعيّة، لا في المنفي لفساد المعنى، فإنّ مدار عدم هدايتهم استمرار عدم مشيئته تعالى لها، لا عَدم استمرار مشيئته تعالى لها، وقد مرّ تحقيقه في سورة يونس عند قوله تعالى: ﴿وَلَوۡ يُعَجِّلُ ٱللَّهُ لِلنَّاسِ﴾ الآية [يونس، ١٠/١١]. «منه».

٥ وفي هامش م: وهو كون المقصود بيان غلوّهم في المكابرة والعناد. «منه».

فليس لهم ذلك، بل لله الأمر جميعًا، إن شاء أتى بما اقترحوا، وإن شاء لم يأتِ به حسبما يستدعيه داعية الحِكمة مِن غير أن يكون لأحدٍ عليه تحكّم أو اقتراح.

واليأس بمعنى القنوط، أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه فلم يقنطوا مِن إيمانهم حتّى أَحَبُّوا ظهورَ مقترحاتهم؟ فالإنكار متوجّه إلى المعطوفَينِ، أو أَعلموا ذلك فلم يقنطوا مِن إيمانهم؟ فهو متوجّه إلى وقوع المعطوف بعد المعطوف عليه، أي: إلى تخلّف القُنوط عن العلم المذكور.

والإنكار على التقديرين إنكار الواقع، كما في قوله تعالى: ﴿أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾ [الأعراف، ٦٥/٧] ونظائره، لا إنكارُ الوقوع، فإنّ عدم قُنوطهم منه ممّا لا مردَّ له.

وقوله تعالى: ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾... إلخ متعلّق بمحذوف، أي: أفلم ييأسوا مِن إيمانهم عِلمًا منهم أو عالمين بأنّه لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا، وأنّه لم يشأ ذلك، أو بـ﴿ءَامَنُوٓاْ﴾ أي: أفلم يقنط الذين آمنوا بأن لو يشاء الله لهدى الناس جميعًا؟ على معنى: أفلم ييأس مِن إيمانهم المؤمنون؟ بمضمون الشرطيّة، وبعدم تحقّق مقدَّمها المنفهِم مِن مكابرتهم حسبما يَحكيه كلمة ﴿لَوْ﴾، / فالوصف المذكور مِن دواعي إنكار يأسهم. [٢٤٨و]

وقيل: إنّ أبا جهل وأضرابَه قالوا لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم: «إن كنت نَبيًا سَيِّر بقرآنك الجبالَ عن مكّة حتّى تتّسعَ لنا ونتّخذَ فيها البساتين والقطائع، وقد سُخّرت لداود، فلستَ بأهون على الله منه إن كنتَ نبيًا كما زعمتَ، أو سخِّرْ لنا به الريح كما سُخِّرَتْ لسليمان عليه السلام لنتّجِر عليها إلى الشام، فقد شقّ علينا قطع الشُقّة البَعيدة، أو ابعث لنا به رَجلين أو ثلاثةً ممّن مات مِن آبائنا»، فنزلت.[1]

فمعنى "تقطيع الأرض" حينئذ: قطعها بالسير، ولا حاجةَ حينئذ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيج إليه في الوجهين الأوّلَين. وعن الفرّاء[2] أنّه متعلّق بما قبله مِن قوله: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾،[3] وما بينهما اعتراض،

---

[1] الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٢/٥؛ الكشّاف للزمخشري، ٥٣٠/٢.

[2] انظر: معاني القرآن للفرّاء، ٦٣/٢.

[3] في الآية السابقة.

وهو بالحقيقة دالّ على الجواب، والتقدير: ولو أنّ قرآنًا سُيّرت به الجبال، أو قُطّعت به الأرض، أو كُلّم به الموتى، لَكفروا بالرحمن.

والتذكير في ﴿كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ لتغليب المذكّر مِن الموتى على غيره.

﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ مِن أهل مكّة ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟﴾ أي: بسبب ما صنعوه مِن الكفر والتمادي فيه. وعدمُ بيانه إمّا للقصد إلى تهويله أو استهجانه، وهو تصريح بما أَشعر به بناء الحكم على الموصول مِن علّيّة الصِلة له مع ما في صيغة "الصُنْع" مِن الإيذان برسوخهم في ذلك.

﴿قَارِعَةٌ﴾ داهية تقرعهم وتُقْلِقُهم، وهو ما كان يُصيبهم مِن أنواع البلايا والمصائبِ مِن القتل والأَسْر والنَّهب والسَّلْب. وتقديم المجرور على الفاعل لِما مرّ مرارًا مِن إرادة التفسير إثر الإبهام لزيادة التقرير والإحكام، مع ما فيه مِن بيان أنّ مدار الإصابة مِن جهتهم آثِرَ ذِي أثِيرٍ.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعة ﴿قَرِيبًا﴾ أي: مكانًا قريبًا ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيَفزَعون منها، ويتطايَر إليهم شَرارُها. شُبِّهَت القارعة بالعدوّ المتوجِّه إليهم، / فأَسنَدَ إليها الإصابة تارة، والحلول أخرى، ففيه استعارة بالكناية، وتخييل، وترشيح. [٢٤٨ظ]

﴿حَتَّىٰ يَأْتِىَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم أو القيامةُ، فإنّ كلًّا منهما وعد مَحتوم لا مردّ له. وفيه دلالة على أنّ ما يصيبهم عند ذلك مِن العذاب في غاية الشدّة، وأنّ ما ذُكِر سابقًا نفحة يسيرة بالنسبة إليه، ثمّ حُقّق ذلك بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ﴾ أي: الوعدَ، كالميلاد والميثاق بمعنى الوِلادة والتَّوثقة؛ لاستحالة ذلك على الله سبحانه.

وقال ابن عبّاس رضي الله عنهما: «أراد بـ"القارعة" السرايا التي كان رسول الله صلّى الله عليه وسلّم يبعثها»،[١] وكانوا بين إغارة واختطاف وتخويف بالهُجوم عليهم في ديارهم، فالإصابة والحلول حينئذ مِن أحوالهم، ويجوز على هذا

---

١ الكشف والبيان للثعلبي، ٢٩٤/٥. وفي التفسير الوسيط للواحدي، ١٧/٣، عن أبي سعيد الخدري ومجاهد.

أن يكون قوله تعالى: ﴿أَوۡ تَحُلُّ قَرِيبٗا مِّن دَارِهِمۡ﴾ خطابًا للرسول صلّى الله عليه وسلّم مرادًا به حلوله الحديبية. والمراد بـ﴿وَعۡدُ ٱللَّهِ﴾ ما وعد به مِن فتح مكّة.

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ ٣٢﴾

﴿وَلَقَدِ ٱسۡتُهۡزِئَ بِرُسُلٖ﴾ كثيرة خلَت ﴿مِّن قَبۡلِكَ فَأَمۡلَيۡتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ أي: تركتُهم ملاوةً[١] مِن الزمان في أمْن ودَعَةٍ، كما يُملَى للبَهيمة في المَرعى. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم عمّا لقي مِن المشركين مِن التكذيب والاقتراح على طريقة الاستهزاء به، ووَعيد لهم.

والمعنى: أنّ ذلك ليس مختصًّا بك؛ بل هو أمر مطّرد قد فُعِل ذلك برُسل كثيرة كائنة مِن قبلك، فأمهلت الذين فعلوه بهم. والعدول في الصلة إلى وصف الكفر ليس لأنّ المُملَى لهم غير المستهزئين؛ بل لإرادة الجمع بين الوصفَين، [٢٤٩و] / أي: فأمليت للذين كفروا مع استهزائهم، لا باستهزائهم فقط.

﴿ثُمَّ أَخَذۡتُهُمۡۖ فَكَيۡفَ كَانَ عِقَابِ﴾ أي: عقابي إيّاهم. وفيه مِن الدلالة على تناهي كيفيّته في الشدّة والفظاعة ما لا يخفى.

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ بِمَا كَسَبَتۡۗ وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ قُلۡ سَمُّوهُمۡۚ أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِۗ بَلۡ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ مَكۡرُهُمۡ وَصُدُّواْ عَنِ ٱلسَّبِيلِۗ وَمَن يُضۡلِلِ ٱللَّهُ فَمَا لَهُۥ مِنۡ هَادٖ ٣٣﴾

﴿أَفَمَنۡ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: رقيب مهيمن ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفۡسِۭ﴾ كائنةً مَن كانت ﴿بِمَا كَسَبَتۡ﴾ مِن خير أو شرّ، لا يخفى عليه شيء مِن ذلك؛ بل يُجازي كلًّا بعمله، وهو الله سبحانه. والخبر محذوف، أي: كمَن ليس كذلك إنكارًا لِذلك. وإدخال "الفاء" لتوجيه الإنكار إلى توهّم المماثلة غِبَّ ما عُلِم ممّا فعل تعالى بالمستهزئين مِن الإملاء المديد والأخذ الشديد ومِن كون الأمرِ كلِّه لله تعالى،

---

[١] أقمتُ عنده مَلاوَةً مِن الدهر ومُلاوةً ومِلاوَةً، أي: حينًا وبرهةً. الصحاح للجوهري، «ملو».

وكونِ هداية الناس جميعًا مَنوطة بمشيئته[1] تعالى، ومِن تواتر القوارع على الكفرة إلى أن يأتي وعد الله، كأنّه قيل: أَالْأَمرُ كذلك؟ فَمَن هذا شأنه كما ليس في عِداد الأشياء حتّى تشركوه به؟ فالإنكار متوجّه إلى ترتّب المعطوف -أعني: توهّم المماثلة- على المعطوف عليه المقدّر، أعني: كون الأمر كما ذكر، كما في قولك: "أتعلم الحقّ، فلا تعمل به؟" لا إلى المعطوفِين جميعًا، كما إذا قلت: "ألا تعلمه؟" فلا تعمل به.

وقوله تعالى: ﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ جملة مستقلّة جيء بها للدلالة على الخبر، أو حاليّة، أي: أفمَن هذه صفاته كما ليس كذلك، وقد جعلوا له شركاء لا شريكًا واحدًا؟ أو معطوفةٌ على الخبر إن قُدّر ما يصلح لذلك، أي: أفمَن هذا شأنه لم يوحِّدوه وجعلوا له شركاءَ؟ ووضع المظهَر موضع المضمَر للتنصيص على وحدانيّته ذاتًا واسمًا، وللتنبيه على اختصاصه باستحقاق العبادة، مع ما فيه مِن البيان بعد الإبهام بإيراده موصولًا للدلالة على التفخيم.

وقوله تعالى: ﴿قُلۡ سَمُّوهُمۡ﴾ تبكيت لهم إثر تبكيت، أي: سمّوهم مَنْ هُم؟ وماذا أسماؤُهم؟ أو صِفُوهم وانظروا هل لهم ما يستحِقّون به العبادةَ ويستأهلون الشركة؟ ﴿أَمۡ تُنَبِّـُٔونَهُۥ﴾ أي: بل / أتنبّئون الله ﴿بِمَا لَا يَعۡلَمُ فِي ٱلۡأَرۡضِ﴾ أي: بشركاءَ [٢٤٩ظ]
مُستَحِقّين للعبادة لا يعلمهم الله تعالى، ولا يعزُب عنه مثقالُ ذرّة في السماوات والأرض؟ وقُرئ بالتخفيف.[2]

﴿أَم بِظَٰهِرٖ مِّنَ ٱلۡقَوۡلِ﴾ بل أَتُسمّونهم بشركاءَ بظاهر مِن القول مِن غير أن يكون له معنى وحقيقة، كتسمية الزنجي كافورًا، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوۡلُهُم بِأَفۡوَٰهِهِمۡ﴾ [التوبة، ٩/٣٠].

وهاتيك الأساليب البديعة التي ورد عليها الآية الكريمة منادية على أنّها خارجة عن قدرة البشر مِن كلام خلّاق القوى والقُدَر، فتبارك الله ربّ العالمين.

---

[1] ط س: لمشيئته.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن الحسَن. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وضع الموصول موضع المضمَر ذمًّا لهم، وتسجيلًا عليهم بالكفر، ﴿مَكْرُهُمْ﴾ تمويههم الأباطيل، أو كيدهم للإسلام بشركهم، ﴿وَصُدُّوا۟ عَنِ ٱلسَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقّ، مِن صدّه صدًّا. وقُرئ بكسر الصاد[1] على نقل حركة الدال إليها، وقُرئ بفتحها،[2] أي: صدّوا الناس، أو مِن "صَدّ صُدُودًا".

﴿وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ﴾ أي: يخلُق فيه الضلالَ بسوء اختياره أو يخذُله، ﴿فَمَا لَهُۥ مِنْ هَادٍ﴾ يوفّقه للهُدى.

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ ۖ وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ مِن وَاقٍ ﴿٣٤﴾﴾

﴿لَّهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقّ ﴿فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ بالقتل والأسر وسائر ما يصيبهم مِن المصائب، فإنّها إنّما تصيبهم عقوبة على كفرهم. ﴿وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَشَقُّ﴾ مِن ذلك بالشدّة والمدّة ﴿وَمَا لَهُم مِّنَ ٱللَّهِ﴾ مِن عذابيه المذكورين ﴿مِن وَاقٍ﴾ مِن حافظ يعصِمهم مِن ذلك، فـ﴿مِنَ﴾ الأولى صلة للوقاية، والثانية مزيدة للتأكيد.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَا ۚ تِلْكَ عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟ ۖ وَّعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ ﴿٣٥﴾﴾

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: صفتُها العجيبةُ الشأنِ التي في الغرابة كالمَثَل ﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ عن الكفر والمعاصي. وهو مبتدأ خبره محذوف عند سيبويه،[3] أي: فيما قصصنا عليك مَثَل الجنّة. وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ تفسير لذلك المَثَل، على أنّه حال مِن الضمير المحذوف مِن الصلة العائد إلى ﴿ٱلْجَنَّةِ﴾، أي: وُعِدَها، وهو الخبر عند غيره، كقولك: شأن زيد يأتيه الناس ويعظّمونه، / أو على حذف موصوف، أي: مَثَل الجنّةِ جنّةٌ تجري... إلخ. [٢٥٠و]

[1] قراءة شاذّة، مرويّة عن يحيى بن وثّاب. انظر: المحرّر الوجيز لابن عطيّة، ٣/٣١٤؛ والبحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٩٤.

[2] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبوعمرو وابن عامر. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

[3] انظر: الكتاب لسيبويه، ١/١٤٣؛ وشرح كتاب سيبويه للسيرافي، ١/٤٩٨.

﴿أُكُلُهَا﴾ ثمرها ﴿دَآئِمٌ﴾ لا ينقطع ﴿وَظِلُّهَا﴾ أيضًا كذلك لا تنسخه الشمسُ كما تَنْسَخُ ظِلالَ الدنيا.

﴿تِلْكَ﴾ الجنّة المنعوتة بما ذُكر ﴿عُقْبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوا۟﴾ الكفر والمعاصي، أي: مآلهم ومنتهى أمرهم. ﴿وَعُقْبَى ٱلْكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ﴾ لا غير، وفيه ما لا يخفى مِن إطماع المتّقين، وإقناطِ الكافرين.

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ إِلَيْهِ أَدْعُوا۟ وَإِلَيْهِ مَـَٔابِ ﴿٣٦﴾﴾

﴿وَٱلَّذِينَ ءَاتَيْنَٰهُمُ ٱلْكِتَٰبَ﴾ هم المسلمون مِن أهل الكتاب كعبد الله بن سلام وكعب وأضرابهما، ومَن آمَن مِن النصارى، وهم ثمانون رجلًا: أربعون بنَجران، وثمانية باليمن، واثنان وثلاثون بِالحَبَشَة. ﴿يَفْرَحُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتاب الموعود في التوراة والإنجيل.

﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾ أي: مِن أحزابهم، وهم كَفَرتُهم الذين تحزّبوا على رسول الله صلّى الله عليه وسلّم بالعداوة، نحو كعب بن الأشرف والسيّد والعاقب أُسْقُفَي نجران وأتباعهما ﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾ وهو الشرائع الحادثة إنشاءً أوْ نَسخًا، لا ما يوافق ما حرّفوه، وإلّا لَنُعِيَ عليهم مِن أوّل الأمر أنّ مدار ذلك إنّما هو جنايات أيديهم، وأمّا ما يُوَافِق كتبَهم فلم ينكروه وإن لم يفرحوا به.

وقيل: يجوز أن يراد بالموصول الأوّل عامّتهم، فإنّهم أيضًا يفرحون به لكونه مصداقًا لكتبهم في الجملة، فحينئذ يكون قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ﴾... إلخ تَتِمّةً بمنزلة أن يقال: ومنهم مَن ينكر بعضَه.

﴿قُلْ﴾ إلزامًا لهم وردًّا لإنكارهم: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦ﴾ أي: شيئًا مِن الأشياء، أو لا أفعل الإشراك به، والمراد قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصر الأمر مطلقًا على عبادته خاصّةً، أي: قل لهم: إنّما أمرت فيما أنزل إليّ بعبادة الله وتوحيده، وظاهر أن لا سبيل لكم إلى إنكاره؛ لإطباق جميعِ الأنبياء والكتب على ذلك، / كقوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ [٢٥٠ظ]

﴿سَوَآءِۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران، ٣/٦٤]، فما لكم تشركون به عُزيرًا والمسيحَ؟

وقُرئ: "وَلَا أُشْرِكُ بِهِ"[١] بالرفع على الاستئناف، أي: وأنا لا أشرك به.

﴿إِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى خاصّة على النهج المذكور مِن التوحيد، أو إلى ما أُمرتُ به مِن التوحيد ﴿أَدْعُواْ﴾ الناسَ، لا إلى غيره، أو لا إلى شيء آخر ممّا لم يُطبِق عليه الكتب الإلهيّة والأنبياءُ عليهم السلام، فما وجه إنكاركم؟

﴿وَإِلَيْهِ﴾ إلى الله تعالى وحدَه ﴿مَـَٔابِ﴾ مَرجعي للجزاء.

وحيث كانت هذه الحجّة الباهرة لازمةً لهم لا يجدون عنها محيصًا أُمر عليه السلام بأن يخاطِبَهم بذلك إلزامًا وتبكيتًا لهم. ثمّ شُرع في ردّ إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداءً أو بدلًا مِن الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك فقيل:

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا ۚ وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ مِن وَلِيٍّ وَلَا وَاقٍ ﴿٣٧﴾﴾

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ﴾ أي: مَا أُنزِلَ إليك، و﴿ذَٰلِكَ﴾ إشارة إلى مصدر ﴿أَنزَلْنَٰهُ﴾ أو أُنزِل إليك، ومحلّه النصب على المصدريّة، أي: مثل ذلك الإنزال البديع المنتظِم لأصولٍ مُجمَع عليها وفروع متشعِّبة إلى موافِقة ومخالِفة حسبما يقتضيه قضيّة الحكمة والمصلحة أنزلناه ﴿حُكْمًا﴾[٢] حاكمًا يحكم في القضايا والواقعات بالحقّ، أو يُحكَم به كذلك. والتعرّض لذلك العنوان مع أنّ بعضه ليس بحُكم لِتربية وجوب مراعاته وتحتّم المحافظة عليه.

﴿عَرَبِيًّا﴾ مترجمًا بلسان العرب. والتعرّض لذلك للإشارة إلى أنّ ذلك إحدى موادّ المخالَفة للكتب السابقة، مع أنّ ذلك مقتضى الحكمة، إذ بذلك يسهل فهمه،

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن أبي جليد عن نافع. البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٣٩٦.

٢ وفي هامش م: أطلق عليه "الحكم" لكونه حاكمًا، كما يطلق عليه "الفرقان" لكونه فارقًا بين الحقّ والباطل. «منه».

وإدراك إعجازه. والاقتصار على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المُجمَع عليها[١] حسبما يفيده قوله تعالى: ﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ﴾... إلخ،[٢] يأباه التعرّض لاتّباع أهوائهم، وحديث المحو والإثبات، وأنّه لكلّ أجل كتاب، فإنّ المُجمَع عليه / لا يتصوّر فيه الاستتباع والاتّباع.[٣] [٢٥١و]

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونك إليها مِن تقرير الأمور المخالِفة لِما أنزل إليك مِن الحقّ كالصلاة إلى بيت المقدس بعد التحويل ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن الفائض مِن ذلك الحُكم العربي، أو العِلم بمضمونه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ مِن جنابه العزيز. والالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وإيراد الاسم الجليل لتربية المهابة. قال الأزهريّ: «لا يكون إلهًا حتّى يكون معبودًا، وحتّى يكون خالقًا ورازقًا ومدبّرًا».[٤]

﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرك وينصرك على مَن يبغيك الغوائل، ﴿وَلَا وَاقٍ﴾ يَقيك مِن مصارع السوء. وحيث لم يستلزم نفي الناصر على العدوّ نفيَ الواقي مِن نكايته أدخل على المعطوف حرف النفي للتأكيد، كقولك: ما لي دينار ولا درهم، أو ما لك مِن بأس الله مِن ناصر وواقٍ لاتّباعك أهواءهم. وأمثال هاتِيك القوارع إنّما هي لقطع أطماع الكفرة وتهييج المؤمنين على الثبات في الدين. و"اللام" في ﴿لئن﴾ موطِّئة، و﴿مَا لَكَ﴾ سادّ مسدّ جوابَي الشرط والقسَم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً ۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرة كائنة ﴿مِن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ نِساءً وأولادًا، كما جعلناها لك. وهو ردّ لما كانوا يَعيبونه صلّى الله عليه وسلّم بالزواج والولاد، كما كانوا يقولون: ﴿مَالِ هَـٰذَا ٱلرَّسُولِ يَأْكُلُ ٱلطَّعَامَ﴾... إلخ [الفرقان، ٧/٢٥].

---

[١] وفي هامش م: مِن غير تعرّض للفروع المتشعّبة إلى الموافقة والمخالفة. «منه». | انظر: أنوار التنزيل للبيضاوي، ١٩٠/٣.

[٢] في الآية السابقة.

[٣] وفي هامش م: ولا المحو والإثبات، ولا التبدّل بتبدّل الآجال والأوقات. «منه».

[٤] تهذيب اللغة للأزهري، «لاه».

﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم، أي: ما صحّ وما استقام، ولم يكن في وسعه ﴿أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ﴾ ممّا اقترِح عليه، وحكمٍ ممّا التمس منه ﴿إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ ومشيئته المبنيّة على الحِكَم والمصالح التي عليها يدور أمر الكائنات، لا سيّما مثل هذه الأمور العظام. والالتفات لِما قدّمناه، ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلّة.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: لكلّ مدّة ووقت مِن المُدَدِ والأوقاتِ ﴿كِتَابٌ﴾ حُكم معيّن يكتَبُ على العباد حسبما يقتضيه الحكمة، فإنّ الشرائع كلّها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمعاد، / ومِن قضيّة ذلك أن يختلف حسب اختلاف أحوالهم المتغيّرة حسب تغيّر الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوال المرضى بحسب الأوقات. [٢٥١ظ]

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٣٩﴾﴾

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ﴾ أي: ينسخ ما يشاء نسخَه مِن الأحكام لِما يقتضيه الحكمة بحسب الوقت، ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما فيه المصلحة، أو يُبْقِيه على حاله غيرَ مَنسوخ، أو يُثبِت ما يشاء إثباتَه مطلقًا أعمّ منهما ومِن الإنشاء ابتداءً، أو يمحو مِن ديوان الحفظة الذين دَيْدَنُهم كِتْبَةُ كلّ قولٍ وعَملٍ ما لا يتعلّق به الجزاء ويُثبِت الباقيَ، أو يمحو سيّئات التائب ويُثبِت مكانها الحسنة، أو يمحو قَرنًا ويُثبِت آخرين، أو يمحو الفاسدات مِن العالم الجسماني، ويثبت الكائنات، أو يمحو الرزق ويزيد فيه، أو يمحو الأجل أو السعادة والشقاوة، وبه قال ابن عمر وابن مسعود رضي الله عنهم.[١] والقائلون به يتضرّعون إلى الله تعالى أن يجعلهم سُعَداءَ، وهذا رواه جابر عن النبيّ صلّى الله عليه وسلّم.[٢]

والأنسب تعميم كلّ مِن المحو والإثبات ليشمل الكلّ، ويدخل في ذلك موادُّ الإنكار دخولًا أوّليًّا. وقُرِئ بالتشديد.[٣] ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: أصله،

---

١ التفسير الوسيط للواحدي، ١١٩/٣؛ معالم التنزيل للبغوي، ٣٢٤/٤.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ٣٧٨/١٢. وانظر: جامع البيان للطبري، ٥٦٦/١٣.

٣ أي: "ويُثَبِّتُ". قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن عامر وحمزة والكسائي وخلَف. النشر لابن الجزري، ٢٩٨/٢.

وهو اللوح المحفوظ، إذ ما مِن شيء مِن الذاهب والثابت إلّا وهو مكتوبٌ فيه كما هو.

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ وَعَلَيْنَا ٱلْحِسَابُ ﴿٤٠﴾ أَوَلَمْ يَرَوْا۟ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا ۚ وَٱللَّهُ يَحْكُمُ لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ ۚ وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤١﴾﴾

﴿وَإِن مَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصلُه "إنْ نُرِكَ"، و﴿مَا﴾ مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومِن ثمّة أُلحقت النون بالفعل. ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ أو وعدناهم مِن إنزال العذاب عليهم، والعدول إلى صيغة المضارع لحكاية الحال الماضية، أو نعِدهم وعدًا متجدِّدًا حسبما يقتضيه الحكمة مِن إنذارٍ غِبَّ إنذارٍ، وفي إيراد "البعض" رمز إلى إراءة بعض الموعود.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: تبليغُ أحكام الرسالة بتمامها، لا تحقيقُ مضمون ما بلّغته مِن الوعيد الذي هو مِن جملتها، / ﴿وَعَلَيْنَا﴾ لا عليك ﴿ٱلْحِسَابُ﴾ محاسبة أعمالهم السيّئة والمؤاخذة بها، [٢٥٢و]
أي: كيفما دارت الحال أريناك بعضَ ما وعدناهم مِن العذاب الدنيوي أو لم نُرِكَهُ فعلينا ذلك، وما عليك إلّا تبليغ الرسالة، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحن نكفيكَه، ونُتِمّ مَا وعدناك مِن الظفَر، ولا يُضجِرْك تأخّرُه، فإنّ ذلك لِما نعلم مِن المصالح الخفيّة.

ثمّ طيَّب نفسه عليه السلام بطلوع تباشيره فقال: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا۟﴾ استفهام إنكاري، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أأنكرُوا نزولَ ما وعدناهم؟ أو أَشكّوا؟ أوْ أَلَم ينظروا في ذلك، ولم يرَوا ﴿أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكفر ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ بأن نفتحها على المسلمين شيئًا فشيئًا، وَنُلْحِقَها بدار الإسلام، ونُذهِبَ منها أهلَها بالقتل والأسر والإجلاءِ؟ أَلَيس هذا مِن ذلك؟ ومثلُه قوله عزّ سلطانه: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ ۚ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء، ٢١/٤٤].

وقوله: ﴿نَنقُصُهَا﴾ حال مِن فاعل ﴿نَأْتِى﴾ أو مِن مفعوله. وقُرئ: "نُنَقِّصُهَا" بالتشديد.[1] وفي لفظ الإتيان المُؤذِن بالاستواء المحتوم والاستيلاءِ العظيم مِن الفخامة ما لا يخفى، كما في قوله عزّ وجلّ: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُواْ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان، ٢٥/٢٣].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاء كما يشاء، وقد حكم للإسلام بالعزّة والإقبال، وعلى الكفر بالذِّلّة والإدبار حسبما يشاهَد مِن المخائل والآثار. وفي الالتفات مِن التكلّم إلى الغيبة وبناء الحكم على الاسم الجليل مِن الدلالة على الفخامة وتربية المهابة وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلّة ما لا يخفى. وهي جملة اعتراضيّة جيء بها لتأكيد فحوى ما تقدّمها.

وقوله تعالى: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراض في اعتراض لبيان علوّ شأن حُكمه / جلّ جلاله. وقيل: نصب على الحاليّة، كأنّه قيل: والله يحكم نافِذًا [٢٥٢ظ] حكمُه، كما تقول: جاء زيد لا عِمامةَ على رأسه، أي: حاسِرًا. والمُعقِّب: مَن يَكُرُّ على الشيء فيبطله، وحقيقته مَن يُعَقِّبُه ويُقَفِّيه بالردّ والإبطال، ومنه قيل لصاحب الحقّ: مُعقِّب؛ لأنّه يقفّي غريمَه بالاقتضاء والطلب.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ﴾ فعَمّا قليل يحاسبهم ويجازيهم في الآخرة بأفانين العذاب غِبَّما عذّبهم بالقتل والأسر والإجلاء حسبما يُرَى. وقال ابن عبّاس رضي الله عنه: «سريع الانتقام».[2]

﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفّار ﴿ٱلَّذِينَ﴾ خلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ مِن قَبل كفّار مكّة بأنبيائهم وبالمؤمنين كما مكَر هؤلاء. وهذا تسلية لرسول الله صلّى الله عليه وسلّم بأنّه لا عبرةَ بمِكرهم ولا تأثيرَ؛ بل لا وجود له في الحقيقة، ولم يُصرِّحْ بذلك

---

١ قراءة شاذّة، مرويّة عن الضحّاك وعطيّة. شواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

٢ التفسير البسيط للواحدي، ١٢/٣٨٥؛ اللباب لابن عادل، ١١/٣٢٣.

اكتفاءً بدلالة القصر المستفاد مِن تعليله، أعني: قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ﴾ أي: جنس المكر ﴿جَمِيعًا﴾ لا وجودَ لِمَكرِهم أصلًا، إذ هو عبارة عن إيصال المكروه إلى الغير مِن حيث لا يشعر به، وحيث كان جميع ما يأتون وَما يَذرون بعلم الله تعالى وقدرته وإنّما لهم مجرّد الكسب مِن غير فعل ولا تأثيرٍ حسبما يبيّنه قوله عزّ وجلّ: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومِن قضيّته عِصمة أوليائه وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكلّ نفس جزاءَ ما تكسبُه؛ ظهر أن ليس لمَكرهم بالنسبة إلى مَن مكروا بهم عين ولا أثَر، وأنّ المَكر كلَّه لله تعالى حيث يؤاخذهم بما كسبوا مِن فنون المعاصي التي مِن جملتها مَكرُهم مِن حيث لا يحتسبون.

أو لله المكرُ الذي باشروه جميعًا، لا لهم، على معنى أنّ ذلك ليس مكرًا منهم بالأنبياء؛ بل هو بعينه مَكر مِن الله تعالى بهم وهم لا يشعرون، حيث لا يَحيق المكر السيّء إلّا بأهله.

﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ حين يقضي بمقتضى علمه فيوفّي كلّ نفس / جزاءَ ما تكسبه ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾ أي: العاقبة الحميدة مِن الفريقين وإن جهلوا ذلك يومئذ. وقيل: "السين" لتأكيد وقوع ذلك وعلمهم به حينئذ. وقُرئ: "سَيَعْلَمُ الْكَافِرُ"[1] على إرادة الجنس، و"الْكَافِرُونَ"،[2] و"الْكُفْرُ"،[3] أي: أهلُه، و"الَّذِينَ كَفَرُوا"،[4] و"سَيُعْلَمُ" على صيغة المجهول[5] مِن الإعلام، أي: سَيُخْبَر. [٢٥٣و]

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًاۚ قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدَۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ ﴿٤٣﴾﴾

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: قاله رؤساء اليهود.[6] وصيغة الاستقبال

---

[1] قرأ بها نافع وأبو جعفر وابن كثير وأبو عمرو. النشر لابن الجزري، ٢/٢٩٨.

[2] قراءة شاذّة، مرويّة عن ابن مسعود رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[3] قراءة شاذّة، ذكرها الزمخشري ولم أجد قارئها. انظر: **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥. وذكر الكرماني عن ابن عمير: "وَسَيَعْلَمُ الْكَفَرَةُ". انظر: **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[4] قراءة شاذّة، مرويّة عن أبيّ رضي الله عنه. **شواذّ القراءات** للكرماني، ص ٢٥٧.

[5] قراءة شاذّة، مرويّة عن جناح بن حُبيش. **الكشّاف** للزمخشري، ٢/٥٣٥؛ **البحر المحيط** لأبي حيّان، ٦/٤٠٢.

[6] **أنوار التنزيل** للبيضاوي، ٣/١٩١.

لاستحضار صورة كلمتهم الشنعاءِ تعجيبًا منها، أو للدلالة على تجدّد ذلك واستمراره منهم.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِٱللَّهِ شَهِيدًۢا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنّه قد أظهر على رسالتي مِن الحجج القاطعة والبيّنات الساطعة ما فيه مندوحة عن شهادة شاهد آخر، ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ أي: علم القرآن وما عليه مِن النظم المعجز، أو مَن هو مِن علماء أهل الكتاب الذين أسلموا؛ لأنّهم يشهدون بنَعته عليه السلام في كتبهم، والآيةُ مدنيّة بالاتّفاق، أو مَن عنده علم اللوح المحفوظ، وهو الله سبحانه، أي: كفى شاهدًا بيننا بالذي يستحقّ العبادة، فإنّه قد شحَن كتابه بالدعوة إلى عبادته، وأيّدَني بأنواع التأييد، وبالذي يختصّ بعلمِ ما في اللوح مِن الأشياء الثابتة[١] التي مِن جملتها رسالتي. وقُرئ: "مِنْ عِنْدِهِ" بالكسر.[٢] و﴿عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ على الأوّل مرتفع بالظرف المعتمد على الموصول، أو مبتدأ خبره الظرف، وهو متعيّن على الثاني، و"مِنْ عِنْدِهِ عُلِمَ الْكِتَابُ" بالكسر وبناء المفعول ورفع ﴿ٱلْكِتَٰبِ﴾.[٣]

عن رسول الله صلّى الله[٤] عليه وسلّم: «مَن قرأ سورة الرعد أُعطي مِن الأجر عشر حسنات بوزن كلّ سحابٍ مضى، وكلّ سحاب يكون إلى يوم القيامة، وبُعث يوم القيامة مِن الموفّين بعَهد الله عزّ وجلّ».[٥]

والله تعالى أعلم.

---

[١] م ط س: الكائنة [صُحّح في هامش م]. ولعلّ التصحيح بعد نسخ ط س.

[٢] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ بن أبي طالب وأبيّ بن كعب وابن عبّاس رضي الله عنهم والحسن ومجاهد وعكرمة والضحّاك وغيرهم. انظر: المحتسب لابن جنّي، ١/٣٥٨؛ وشواذّ القراءات للكرماني، ص ٢٥٧.

[٣] قراءة شاذّة، مرويّة عن عليّ رضي الله عنه أيضًا وابن السميفع والحسَن بخلاف عنه. انظر: البحر المحيط لأبي حيّان، ٦/٤٠٣.

[٤] س + تعالى.

[٥] الكشف والبيان للثعلبي، ٥/٢٦٧؛ التفسير الوسيط للواحدي، ٣/٣. وهو جزء مِن الحديث المرويّ عن أبيّ بن كعب رضي الله عنه في فضائل السور. انظر: الموضوعات لابن الجوزي، ١/٢٤٠.

١٣

سُورَةُ الرَّعْدِ

مكيةٌ إلاّ «ولا يزال الذين كفروا» الآيةَ و«ويقول الذين كفروا لستَ مرسلاً» الآيةَ، أو مدنيةٌ إلاّ «ولو أنّ قرآنًا» الآيتين، ثلاثٌ أو أربع أو خمس أو ستّ وأربعون آية.

بسم الله الرحمن الرحيم

١ ـ ﴿المر﴾ اللهُ أعلم بمُراده بذلك.

﴿تِلكَ﴾: هذه الآيات ﴿آياتُ الكِتابِ﴾: القُرآنِ ـ والإضافةُ بمعنى: مِن ـ ﴿والَّذِي أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَبِّكَ﴾ أي: القُرآنُ، مبتدأ خبرُه: ﴿الحَقُّ﴾: لا شكّ فيه، ﴿ولكِنَّ أكثَرَ النّاسِ﴾ أي: أهلِ مكّة ﴿لا يُؤمِنُونَ﴾ بأنه من عِنده تعالى.

٢ ـ ﴿اللهُ الَّذِي رَفَعَ السَّماواتِ بِغَيرِ عَمَدٍ تَرَونَها﴾ أي: العمدَ: جمع عِماد ـ وهو الأُسطوانة، وهو صادق بأنْ لا عَمد أصلاً ـ ﴿ثُمَّ استَوَى علَى العَرشِ﴾ استواءً يليق به، ﴿وسَخَّرَ﴾: ذلَّلَ ﴿الشَّمسَ والقَمَرَ، كُلٌّ﴾ منهما ﴿يَجرِي﴾ في فلكه ﴿لِأجَلٍ مُسَمًّى﴾ يومِ القيامة، ﴿يُدَبِّرُ الأمرَ﴾: يقضي أمر مُلكه،

سُورَةُ الرَّعْدِ

قولُهُ: (اللَّهُ أعلَمُ) قيل: معناهُ: أنا اللهُ أعلمُ وأرى.

قولُهُ: (بأنَّهُ مِنْ عِندِهِ) لإخلالِهِم بالنَّظرِ والتَّأمُّلِ فيه.

قولُهُ: (يَوْمَ القِيَامَةِ) أي: لغايةٍ مضروبةٍ ينقطعُ دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا الشَّمْسُ كُوِّرَتْ * وَإِذَا النُّجُومُ انْكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ ـ ٢] أو المعنى: لمدَّةٍ معيَّنةٍ يُتمُّ فيها أدوارَهُ.

قولُهُ: (أَمْرَ خَلقِهِ) وفي بعضِ النُّسخِ: «أمْرَ ملكِهِ» أي: يدبِّرُ أمرَ ملكوتِهِ من الإيجادِ والإعدامِ والإحياءِ والإماتةِ وغيرِ ذلك.

﴿يُفَصِّلُ﴾: يُبيّن ﴿الآياتِ﴾: دلالاتِ قُدرته، ﴿لَعَلَّكُم﴾ -يا أهل مكّة- ﴿بِلِقاءِ رَبِّكُم﴾: بالبعث ﴿تُوقِنُونَ﴾.

٣ - ﴿وهُوَ الَّذِي مَدَّ﴾: بسَط ﴿الأرضَ، وجَعَلَ﴾: خلق ﴿فِيها رَواسِيَ﴾: جِبالاً ثوابتَ ﴿وأنهارًا، ومِن كُلِّ الثَّمَراتِ جَعَلَ فِيها زَوجَينِ اثنَينِ﴾ من كُلّ نوع، ﴿يُغشِي﴾: يُغطّي ﴿اللَّيلَ﴾ بظُلمته ﴿النَّهارَ. إنَّ في ذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿لَآياتٍ﴾: دلالاتٍ على وحدانيّته - تعالى - ﴿لِقَومٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في صُنع الله.

٤ - ﴿وفي الأرضِ قِطَعٌ﴾: بِقاع مُختلفة ﴿مُتَجاوِراتٌ﴾: مُتلاصقات، فمنها طيّب وسَبِخ وقليل الرَّيع وكثيرُه، وهو من دلائل قدرته - تعالى - ﴿وجَنّاتٌ﴾: بساتينُ ﴿مِن أعنابٍ وزَرعٌ﴾، بالرفعِ عطفًا على «جنّاتٌ»، ....

قولُهُ: (يُبيِّنُ) أي: يُحدثُ الدَّلائلَ المنصوبةَ واحداً بعد واحدٍ، أو ينزِّلُ الآياتِ القرآنيَّة ويُبيِّنها مفصَّلةً.

قولُهُ: (بالبَعْثِ) أي: لكي تتفكَّروا فيها وتتحقَّقوا كمالَ قدرتِهِ، فتَعلموا أنَّ من قدرَ على خلْقِ هذه الأشياءِ وتدبيرِها قدرَ[1] على الإعادةِ والجزاءِ.

قولُهُ: (بَسَطَ) طولاً وعرضاً لتثبُتَ عليها الأقدامُ.

قولُهُ: (ثَوَابِتَ) جمعُ: راسيةٍ، من رسا الشَّيءُ: إذا ثبتَ، والتَّاءُ للتَّأنيثِ على أنَّها صفةُ أجْبُلٍ، أو للمبالغةِ.

قولُهُ: (مِنْ كُلِّ نَوعٍ) كالحُلوِ والحامِضِ، والأسودِ والأبيضِ، والصَّغيرِ والكبيرِ.

قولُهُ: (يُغَطِّي) قرأَ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكرٍ بتشديدِ الشِّينِ[2]؛ أي: يُلبسُه[3] مكانَهُ فيصيرُ الجوُّ مُظْلماً بعدَما كانَ مضيئاً.

قولُهُ: (دِلَالَاتٍ) فإنَّ تكوُّنَها وتخصُّصَها بوجهٍ دونَ وجهٍ دليلٌ على وجودِ صانعٍ حكيمٍ دبَّرَ أمرَها وهيَّأَ أسبابَها.

قولُهُ: (وَسَبِخٌ) ورَخوٌ وصلبٌ، وبعضُها يصلُحُ للزَّرعِ دون الشَّجرِ، وبعضُها بالعكسِ.

قولُهُ: (وَهُوَ مِن دَلَائلِ قُدرَتِهِ) فلولا تخصيصُ قادرٍ مُوقعٍ لأفعالِهِ على وجهٍ دون وجهٍ لم يكُن كذلك؛ لاشتراكِ تلك القطعِ في الطَّبيعةِ الأرضيَّةِ.

قولُهُ: (بالرَّفعِ) مكيٌّ وبصريٌّ وحفصٌ[4]، وتوحيدُ الزَّرعِ لأنَّهُ مصدرٌ في أصلِه.

---

(١) في (م) و(د): «قادر».

(٢) أي قوله تعالى: ﴿يغشي﴾. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٨).

(٣) في (ص): «سلب»، وفي (د): «يلبس».

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٦)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٩).

والجرِّ على «أعنابٍ»، وكذا قولُه: ﴿وَنَخِيلٌ صِنْوَانٌ﴾: جمع صِنو ـ وهي النَّخَلات، يجمعها أصل واحد وتتشعّب فُروعها ـ ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾: منفردةٌ، ﴿تُسقى﴾، بالتاءِ أي: الجنّاتُ وما فيها، والياءِ أي: المذكورُ، ﴿بِمَاءٍ وَاحِدٍ، وَنُفَضِّلُ﴾ ـ بالنون والياء ـ ﴿بَعْضَهَا عَلَى بَعْضٍ فِي الْأُكُلِ﴾، بضمّ الكاف وسكونها. فمن حُلو وحامض، وهو من دلائل قُدرته تعالى. ﴿إِنَّ فِي ذَلِكَ﴾المذكورِ ﴿لَآيَاتٍ لِقَوْمٍ يَعْقِلُونَ﴾: يتدبّرون.

٥ ـ ﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ من تكذيب الكُفّار لك ﴿فَعَجَبٌ﴾: حقيقٌ بالعجب ﴿قَوْلُهُمْ﴾ منكرين للبعث: ﴿أَإِذَا كُنَّا تُرَابًا أَإِنَّا لَفِي خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾؟ لأنّ القادرَ على إنشاء الخلق وما تقدّم على غير مثال قادر على إعادتهم. وفي الهمزتين في الموضعين التحقيقُ،..........

قولُهُ: (وكَذَا قَولُهُ) ﴿وغير صنوان﴾.

قولُهُ: (وهِي) أي: الصِّنوانُ.

قولُهُ: (مُنْفَرِدةٌ) أي: متفرِّقاتٌ مختلفَةُ الأصولِ، قالَ البيضاويُّ: وقرأَ حفصٌ بالضَّمِّ[1]. ولعلَّهُ روايةٌ شاذَّةٌ[2].

قولُهُ: (والياءِ) التَّذكيرُ: شاميٌّ وعاصمٌ[3].

قولُهُ: (والياءِ) الغيبةُ: حمزةُ والكسائيُّ[4]؛ ليطابقَ قولَهُ: ﴿يُدَبِّرُ الأَمْرَ﴾.

قولُهُ: (وسُكُونِهَا) الحِرْميَّانِ[5]؛ أي: في الثَّمرِ شكلاً وقَدْراً، ورائحةً وطعماً.

قولُهُ: (مِن دَلَائلِ قُدْرتِهِ) فإنَّ اختلافَها مع اتِّحادِ الأصولِ[6] والأسبابِ لا يكونُ إلَّا بتخصيصِ قادرٍ مختارٍ.

قولُهُ: (مِنْ تَكذِيبِ الكُفَّارِ) أو من إنكارِهِم البعثَ.

قولُهُ: (وفي الهَمزَتَيْنِ.... إلخ) الحاصلُ: قالون بتحقيقِ الأولى وتسهيلِ الثَّانيةِ من الأولى وإدخالِ ألفٍ بينَهُما وبالخبرِ في الثَّاني، وورشٌ كذلك إلَّا أنَّهُ بلا إدخالٍ، وابنُ كثيرٍ بالاستفهامَينِ بلا إدخالٍ مع تحقيقِ الأولى وتسهيلِ الثَّانيةِ فيهما، وأبو عَمرو كذلكَ مع الإدخالِ، وابنُ عامرٍ في الأوَّلِ بالخبرِ وفي الثَّاني

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨١).

(٢) وهي كما قال، بضم الصاد في (صُنوان) في الموضعين. انظر: «مختصر شواذ القرآن» (ص: ٧٠).

(٣) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٦٩).

(٤) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٧)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٠).

(٥) انظر: «المبسوط في القراءات العشر» (ص: ١٥١)، و«النشر في القراءات العشر» (٢/ ٢١٦).

(٦) في (ص): «الأحوال».

وتحقيقُ الأُولى وتسهيلُ الثانية، وإدخالُ ألف بينهما على الوجهين وتركُها. وفي قراءة بالاستفهامِ في الأوّل والخبرِ في الثاني، وأُخرى عكسُه. ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِم، وأُولَئِكَ الأغلالُ في أعناقِهِم، وأُولَئِكَ أصحابُ النَّارِ، هُم فِيها خالِدُونَ﴾.

ونزل في استعجالهم العذابَ استهزاءً: ٦ ـ ﴿ويَستَعجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾: العذابِ ﴿قَبلَ الحَسَنَةِ﴾: الرحمة، ﴿وقَد خَلَت مِن قَبلِهِمُ المَثُلاتُ﴾: جمع المَثُلة بوزن السَّمُرة، أي: عُقوباتُ أمثالهم من المُكذّبين. أفلا يعتبرون بها؟ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغفِرةٍ لِلنَّاسِ عَلَى﴾: معَ ﴿ظُلمِهِم﴾ ـ وإلاّ لم يترك على ظهرها دابّة ـ ﴿وإنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ العِقابِ﴾ لِمَن عصاه، ٧ ـ ﴿ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا: لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ عَلَيهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيَةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة. قال تعالى: ﴿إنَّما أنتَ مُنذِرٌ﴾: مُخوّفُ الكافرين، وليس عليك إتيان الآيات، ﴿ولِكُلِّ قَومٍ هادٍ﴾: نبيٌّ يدعوهم إلى ربّهم بما يُعطيه من الآيات لا بما يقترحون.

بمحقَّقَتينِ، وأدخلَ هشامٌ بينهما ألفاً، والباقونَ بمحقَّقَتينِ فيهما بلا إدخالٍ بينهما، إلَّا أنَّ الكسائيَّ يقرأُ بالإخبارِ في الثَّاني[1].

قولُهُ: (العَذَابَ) أي: ما هُدِّدُوا به من عذابِ الدُّنيا.

قولُهُ: (الرَّحمةِ) أو العافيةِ[2].

قولُهُ: (أَفَلا يَعتَبِرُونَ) ولا يجوِّزونَ حلولَ مثلِها عليهم.

قولُهُ: (مَعَ ﴿ظُلمِهِم﴾) أنفسَهُم، ومحلُّهُ النَّصبُ على الحالِ، والعاملُ فيه المغفرةُ.

قولُهُ: (لِمَنْ عَصَاهُ) وعن النَّبيِّ ﷺ: «لولا عَفوُ اللهِ وتجاوزُهُ ما هَنَأَ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُهُ وعقابُهُ لاتَّكَلَ كلُّ أحدٍ»[3] كذا ذكرَهُ القاضي[4].

قولُهُ: (كالعَصَا) لعَدمِ اعتِدادِهِم[5] بالآياتِ المنزَلةِ عليه.

قولُهُ: (الآيَاتِ) أي: المقتَرحةِ عليك، وإنَّما عليكَ الإتيانُ بما تصحِّحُ به نبوَّتَك من جنسِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (الآيَاتِ) أي: المعجزاتِ، من جنْسِ ما هو الغالبُ عليهم.

---

(١) انظر: «تحبير التيسير في القراءات العشر» (ص: ٤٢١).

(٢) في (ص): «والعافية»، وفي (د): «أو العاقبة».

(٣) رواه ابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٢١٤٥)، والثعلبي في «الكشف والبيان» (١٥٦٣)، والواحدي في «الوسيط» (٤٨٥) عن سعيد بن المسيب عن النبي ﷺ مرسلاً.

(٤) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٢).

(٥) في (ص): «اعتقادهم».

٨ ـ ﴿ اللَّهُ يَعْلَمُ ما تَحمِلُ كُلُّ أُنثَى﴾ من ذكرٍ وأُنثى وواحدٍ ومتعدّدٍ وغيرِ ذلك، ﴿وما تَغِيضُ﴾: تَنقصُ ﴿الأرحامُ﴾ من مُدّة الحمل ﴿وما تَزدادُ﴾ منه، ﴿وكُلُّ شَيءٍ عِندَهُ بِمِقدارٍ﴾: بقدْر وحَدٍّ لا يتجاوزه، ٩ ـ ﴿عالِمُ الغَيبِ والشَّهادةِ﴾: ما غاب وما شُوهد، ﴿الكَبِيرُ﴾: العظيم ﴿المُتَعالِ﴾ على خلقه بالقهر، بياءٍ ودونِها، ١٠ ـ ١١ ـ ﴿سَواءٌ مِنكُم﴾ في عِلمه ـ تعالى ـ ﴿مَن أَسَرَّ القَولَ ومَن جَهَرَ بِهِ، ومَن هُوَ مُستَخفٍ﴾: مُستترٌ ﴿بِاللَّيلِ﴾: بظلامه ﴿وسارِبٌ﴾: ظاهر بذهاب في سَربه،..............

قولُهُ: (وغيرِ ذَلِكَ) من كاملٍ وناقصٍ، ومؤمنٍ وكافرٍ، وطويلٍ وقصيرٍ، ونحوها.

قولُهُ: (مِن مُدَّةِ الحَملِ) والجثَّةِ والعَددِ.

قولُهُ: (مِنهُ) ممَّا ذكرَ، قالَ القاضي[١]: وأقصَى مدَّةِ الحمْلِ أربعُ سنينَ عندَنا[٢]، وخمسٌ عند مالكٍ[٣]، وثنتانِ عندَ أبي حنيفةَ[٤]، وأعلى عددِهِ لا حدَّ له.

وقيل: نهايةُ ما عُرِفَ أربعةٌ، وإليه ذهبَ أبو حنيفةَ[٥].

قولُهُ: (لَا يَتَجَاوَزُهُ) ولا ينقصُ عنه.

قولُهُ: (مَا غَابَ) عن الحسِّ.

قولُهُ: (شُوهِدَ) له.

قولُهُ: (العَظِيمُ) الشَّأنِ.

قولُهُ: (بالقَهرِ) والقُدرةِ، وقيل: الكبيرُ في ذاتِهِ، المتعالي في صفاتِهِ.

قولُهُ: (بياءٍ) ابنُ كثيرٍ في الحالينِ[٦].

قولُهُ: (مُستَتِرٌ) أي: طالبٌ للخفاءِ في مختبأٍ باللَّيلِ.

قولُهُ: (ظاهِرٌ) يراهُ كلُّ أحدٍ، من سرَبَ: إذا برزَ[٧]، وهو عطفٌ على: ﴿مَنْ﴾ أو على: ﴿مُستَخْفٍ﴾.

---

(١) انظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٢).

(٢) أي: على مذهب الشافعي، انظر: «الحاوي الكبير» (١١/ ٢٠٥).

(٣) عن مالك في أكثر الحمل ثلاث روايات: إحداها أربع سنين وهي المشهورة، والثانية خمس والثالثة سبع، انظر: «المعونة» (ص: ٩٢٣).

(٤) انظر: «التجريد» للقدوري (١٠/ ٥٣٤٣).

(٥) وانظر: «التفسير المظهري» (٥/ ٢١٩).

(٦) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٧) وانظر: «تاج العروس» (٣/ ٥٤).

أي: طريقه ﴿بِالنَّهارِ، لَهُ﴾: للإنسان ﴿مُعَقِّباتٌ﴾: ملائكة تَعتقِبُه ﴿مِن بَينِ يَدَيهِ﴾: قُدّامِه ﴿ومِن خَلفِهِ﴾: ورائه، ﴿يَحفَظُونَهُ مِن أمرِ اللهِ﴾ أي: بأمره من الجنّ وغيرهم. ﴿إنَّ اللهَ لا يُغَيِّرُ ما بِقَومٍ﴾: لا يَسلبهم نِعمةً ﴿حَتَّى يُغَيِّرُوا ما بِأنفُسِهِم﴾ من الحالة الجميلة بالمعصية، ﴿وإذا أرادَ اللهُ بِقَومٍ سُوءًا﴾: عذابًا ﴿فلا مَرَدَّ لَهُ﴾ من المُعقِّباتِ ولا غيرها، ﴿ومالَهُم﴾ ـ إن أراد الله بهم سوءًا ـ ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَ الله ﴿مِن﴾: زائدةٌ ﴿والٍ﴾ يمنعه عنهم.

١٢ ـ ﴿هُوَ الَّذِي يُرِيكُمُ البَرقَ خَوفًا﴾ للمُسافر من الصواعق ﴿وطَمَعًا﴾ للمُقيم في المطر، ﴿ويُنشِئُ﴾: يَخلق ﴿السَّحابَ الثِّقالَ﴾ بالمطر،.........................

قولُهُ: (للإنسَانِ) أو لمَن أسرَّ أو جهرَ، واستخفَى أو سرَبَ.

قولُهُ: (تعقَّبُه) الظَّاهرُ كما في نسخةٍ: «تعتقِبُهُ» في حفظٍ، جمعُ: مُعقِّبَةٍ، من عقَّبَ مُبالغةُ عَقَبهُ: إذا جاءَ على عَقِبِه[1]، كأنَّ بعضَهُم يعقُبُ بعضاً، أو لأنَّهُم يعقبونَ أقوالَهُ وأفعالَهُ فيكتُبونَها، أو من اعتقَبَ، فأُدغِمَتِ التَّاءُ في القافِ، والتَّاءُ للمبالغةِ، أو لأنَّ المرادَ بالمعقِّباتِ جماعاتٌ.

قولُهُ: (وَرائِهِ) أو من جوانبِهِ، أو من الأعمالِ ما قدَّمَ وأخَّرَ.

قولُهُ: (بأمرِهِ) فـ﴿مِنْ﴾ بمعنى: الباءِ، إذ التَّقديرُ: من أجلِ أمرِهِ.

قولُهُ: (وغَيرِهِم) من المضارِّ، أو من بأسِهِ متى أذنبَ بالاستمهالِ أو الاستغفارِ له، أو يراقبُونَ أحوالَهُ (مِنْ أجلِ أمرِ اللهِ)، وقد قُرِئَ به[2].

قولُهُ: (نعمَتَهُ) وعافيتَهُ.

قولُهُ: (بالمَعْصِيةِ) الأَولى: بالقَبيحَةِ؛ لحسنِ التَّقابلِ، أو يقابِلُ الطَّاعةَ بالمعصيةِ.

قولُهُ: (للمُقِيمِ) وانتصابُهُما على العلَّةِ بتقديرِ المضافِ؛ أي: إرادةَ خَوفٍ وطمعٍ.

وقيل: يخافُ المطرَ مَن يضرُّهُ، ويطمعُ فيهِ مَن ينفعُهُ.

قولُهُ: (﴿الثقالَ﴾ بالمَطَرِ) وهو جمعُ: ثقيلةٍ، وربَّما وُصفَ به السَّحابُ؛ لأنَّه اسمُ جنسٍ في معنى الجمعِ.

(١) انظر: «تفسير القرطبي» (٩/ ٢٩١)، و«تاج العروس» (٣/ ٤٠٧).

(٢) وانظر: «أنوار التنزيل» (٣/ ١٨٣) ولم تنسب لأحد.

وقرئ: (يحفظونه بأمر الله) وهي قراءة شاذة، نسبت لعلي وابن عباس وعكرمة وزيد بن علي وجعفر بن محمد. انظر: «شواذ القراءات» (ص: ٢٥٥).

١٣ ـ ﴿وَيُسَبِّحُ الرَّعدُ﴾ هو مَلَك مُوكل بالسحاب يسوقه مُلتبسًا ﴿بِحَمدِهِ﴾ أي يقول: سُبحانَ الله وبحمده، ﴿وَ﴾ تُسبّح ﴿المَلائكةُ مِن خِيفتِهِ﴾ أي: اللهِ، ﴿وَيُرسِلُ الصَّواعِقَ﴾ ـ وهي نار تخرج من السحاب ـ ﴿فيُصِيبُ بِها مَن يَشاءُ﴾ فتُحرقه ـ نزل في رجل بعث إليه النبيّ ﷺ من يدعوه، فقال: مَن رسولُ اللهِ؟ وما اللهُ؟ أمِن ذهب هو أم فضة أم نحاس؟ فنزلتْ به صاعقة فذهبتْ بِقِحف رأسه ـ ﴿وهُم﴾ أي: الكُفّار ﴿يُجادِلُونَ﴾: يُخاصمون النبيَّ ﴿في اللهِ، وهُوَ شَدِيدُ المِحالِ﴾: القُوّةِ أو الأخذ.

١٤ ـ ﴿لَهُ﴾ ـ تعالى ـ ﴿دَعوةُ الحَقِّ﴾ أي: كلمتُه ـ وهي: لا إلــهَ إلاّ اللهُ ـ ﴿والَّذِينَ يَدعُونَ﴾، بالياء والتاء: يعبدون ﴿مِن دُونِهِ﴾ أي: غيرَه ـ.......................

قولُهُ: (أي: اللَّهِ) وقيل: الضَّميرُ للرَّعدِ، والملائكةُ أعوانُه.

قولُهُ: (مِنَ السَّحَابِ) أي: تخرجُ منه، وإلَّا فأصلُها قطعةُ نارٍ من سوطِ الرَّعدِ تنفصِلُ في وقتِ حدَّةِ ضربِ الرَّعدِ به للسَّحابِ[١].

قولُهُ: (فَتُحرِقُهُ) بالتَّاء؛ أي: الصَّواعقُ، وبالياء؛ أي: اللهُ.

قولُهُ: (بِقِحْفِ رَأْسِهِ) القِحفُ ـ بالكسرِ ـ: العظمُ فوقَ الدِّماغِ[٢].

قولُهُ: (القُوَّةِ) أي: فِعالٌ من المحلِ بمعنى القوَّةِ، وقيل: مِفْعَلٌ من الحولِ أو الحيلةِ، أُعلَّ على غيرِ قياسٍ، أو (المحالُ): المماحَلةُ والمكايدةُ بأعدائه.

قولُهُ: (أَيْ: كَلِمتُهُ) أو: له الدَّعاءُ الحقُّ، فإنَّه الَّذي يحقُّ أن يُعبَدَ أو يُدعى إلى عبادتِهِ دونَ غيرِهِ، أو: له الدَّعوةُ المجابةُ؛ فإنَّ من دعاهُ أجابَ، ويؤيِّدُه ما بعدَهُ.

قولُهُ: (والتَّاءِ) الخطابُ شاذٌّ[٣]، ومع هذا لا يُطابقُ الخبرَ أيضاً، ولعلَّهُ موجَّهٌ بالالتِفاتِ، أو التَّقديرُ: والَّذين تدعونَهُم لا يستجيبونَ لداعيهم، على حذفِ المضافِ وهو الأظهرُ، ويلائمُهُ حينئذٍ قولُهُ تعالى: ﴿إِلَّا كَبَاسِطِ كَفَّيْهِ﴾ [الرعد: ١٤] واللهُ سبحانَهُ وتعالى أعلمُ.

(١) انظر: «تاج العروس» (٢٦/ ٢١).

روى ابن الأنباري في «الزاهر» (٢/ ٣١٦) عن ابن عباس قال: الرعد ملك من الملائكة، وهو الذي تسمعون صوته، والبرق سوط من نور، يزجر به الملكُ السحابَ.

وروى الترمذي (٣١١٧): عن ابن عباس، قال: «أقبلت يهود إلى النبي ﷺ، فقالوا: يا أبا القاسم، أخبرنا عن الرعد ما هو؟ قال: «ملك من الملائكة موكل بالسحاب معه مخاريق من نار يسوق بها السحاب حيث شاء الله» فقالوا: فما هذا الصوت الذي نسمع؟ قال: «زجره بالسحاب إذا زجره حتى ينتهي إلى حيث أمر» قالوا: صدقت....».

(٢) انظر: «القاموس المحيط» (ص: ٨٤٣).

(٣) أي: (والذين تدعون) نسبت للكسائي عن أبي بكر وهارون النحوي عن أبي عمرو والأعمش، وهي قراءة شاذة.

وهم الأصنام ـ ﴿لا يَستَجِيبُونَ لَهُم بِشَيءٍ﴾ ممّا يطلبونه ﴿إلاّ﴾ استجابةً ﴿كَباسِطِ﴾ أي: كاستجابةِ باسطِ ﴿كَفَّيهِ إلَى الماءِ﴾ على شفير البئر، يدعوه ﴿لِيَبلُغَ فاهُ﴾ بارتفاعه من البئر إليه، ﴿وما هُوَ ببالِغِهِ﴾ أي: فاه أبدًا ـ فكذلك ما هم بمستجِيبين لهم ـ ﴿وما دُعاءُ الكافِرِينَ﴾: عِبادتُهم الأصنامَ أو حقيقةُ الدعاء ﴿إلاّ في ضَلالٍ﴾: ضياع، ١٥ ـ ﴿وللهِ يَسجُدُ مَن في السَّماواتِ والأرضِ طَوعًا﴾ كالمُؤمنين ﴿وكَرْهًا﴾ كالمُنافقين ومَن أُكره بالسيف، ﴿و﴾ تسجد ﴿ظِلالُهُم بِالغُدُوِّ﴾: البُكَرِ ﴿والآصالِ﴾: العشايا.

قولُهُ: (وهُمُ الأصنَامُ) أي: والأصنامُ الَّذين يدعُونها[1] المشركونَ، فحذفَ الرَّاجعَ، أو المشركونَ الَّذين يدعُونَ الأصنامَ، فحذفَ المفعولَ لدلالَةِ ﴿من دونه﴾ عليه.

قولُهُ: (يَدعُوهُ) أي: يطلبُ منهُ أن يبلغَهُ.

قولُهُ: (أَي: فَاهُ) الظَّاهرُ؛ أي: فيه، أو المرادُ يعني: فاهُ.

قولُهُ: (أَبداً) لأنَّهُم جمادٌ لا يشعرُ بدعائِهِ ولا يقدرُ على إجابتِهِ.

قولُهُ: (مَا هُمْ) أي: آلهتُهُم؛ يعني: ليسُوا بمستجيبينَ للكفَّارِ.

قولُهُ: (ضَيَاعٍ) وخسارٍ وباطلٍ.

قولُهُ: (كالمُؤمِنِينَ) من الثَّقلَينِ والملائكةِ حالةَ[2] الشِّدَّةِ والرَّخاءِ.

قولُهُ: (كالمُنَافِقِينَ) أو الكفرةِ حالَ الشِّدَّةِ والضَّرورةِ، وانتصابُهُما بالحالِ أو العلَّةِ.

قولُهُ: (﴿و﴾ يَسْجدُ ﴿ظِلالُهُم﴾) عطفٌ على ﴿مَنْ﴾ أي: وظلالُهُم بالعَرَضِ، ويحتملُ أن يُرادَ بالسُّجودِ: انقيادُهُم لإحداثِ ما أرادَهُ اللهُ فيهم شاؤوا أو كرِهوا، وانقيادُ ظلالِهِم لتصريفِهِ إيَّاها بالمدِّ والتَّقليصِ؛ أي: التَّنقيصِ.

قولُهُ: (العَشَايَا) «الغدوُّ» جمعُ: غداةٍ، و«الآصالُ» جمعُ: أصيلٍ، وهو ما بين العصرِ والمغربِ[3]، والمرادُ بهما: الدَّوامُ، أو خصَّ الوقتانِ لفضيلتِهِما[4]، وليشملَ بركتُهُما سائرَ الأوقاتِ.

---

(١) في (م): «يدعوهم».

(٢) في (ص) و(د): «حالتي».

(٣) انظر: «الصحاح» (٤/ ١٦٢٣).

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (١٩/ ١٩١)، وابن أبي حاتم في «تفسيره» (١٤٦٤١) و(١٤٦٤٢) عن ابن عباس: قوله: ﴿بالغدو﴾ صلاة الغداة، وقوله: ﴿والآصال﴾ يعني بالآصال صلاة العصر، وهما أول ما فرض الله من الصلاة فأحب أن يذكرهما، ويذكر بهما عباده.

١٦ ـ ﴿قُلْ﴾ ـ يا مُحمّد ـ لقومك: ﴿مَن رَبُّ السَّماواتِ والأرضِ؟ قُلِ: اللهُ﴾، إن لم يقولوه، لا جوابَ غيرُه. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿أفاتَّخَذتُم مِن دُونِهِ﴾، أي: غيرِه، ﴿أَولياءَ﴾: أصنامًا تعبدونها، ﴿لا يَملِكُونَ لأنفُسِهِم نَفعًا ولا ضَرًّا﴾، وتركتم مالِكَهما؟ استفهام توبيخ.

﴿قُلْ: هَل يَستَوِي الأعمَى والبَصِيرُ﴾: الكافر والمؤمن؟ ﴿أم هَل تَستَوِي الظُّلُماتُ﴾: الكُفر ﴿والنُّورُ﴾: الإيمان؟ لا. ﴿أم جَعَلُوا للهِ شُرَكاءَ خَلَقُوا كَخَلقِهِ، فتَشابَهَ الخَلقُ﴾ أي: خلقُ الشركاءِ بخلقِ اللهِ ﴿عَلَيهِم﴾، فاعتقدوا استحقاق عِبادتهم بخلقهم؟ استفهام إنكار، أي: ليس الأمر كذلك، ولا يستحقّ العبادةَ إلاّ الخالقُ. ﴿قُلِ: اللهُ خالِقُ كُلِّ شَيءٍ﴾ لا شريكَ له فيه، فلا شريك له في العِبادة، ﴿وهُوَ الواحِدُ القَهّارُ﴾ لعِباده.

ثمّ ضرب مثلاً للحق والباطل، فقال: ١٧ ـ ﴿أنزَلَ﴾ ـ تعالى ـ ﴿مِنَ السَّماءِ ماءً﴾: مطرًا، ﴿فسالَتْ أَودِيَةٌ بِقَدَرِها﴾: بمِقدار مِلْئها، ﴿فاحتَمَلَ السَّيلُ زَبَدًا رابِيًا﴾: عاليًا عليه، هو ما على وجهه من قذَر ونحوه، ﴿ومِمّا تُوقِدُونَ﴾..........................

قولُهُ: (لَا جَوَابَ غَيرُهُ) أو لقِّنهُم الجوابَ.

قولُهُ: (الكَافِرُ) أو الجاهلُ.

قولُهُ: (والمُؤمِنُ) أو العالمُ، وقيل: المعبودُ الغافلُ عنكم، والمعبودُ المطّلعُ على أحوالِكُم.

قولُهُ: (الكُفرُ) وحمزةُ والكسائيُّ وشعبةُ: بالتّذكيرِ(١).

قولُهُ: (اسْتِفهَامُ إنْكَارٍ(٢)) لأنَّ التّقديرَ: بل جعَلوا، وقولُهُ: ﴿خَلَقُوا كَخَلْقِهِ﴾ صفةٌ لـ﴿شركاءَ﴾ داخلةٌ في حُكمِ الإنكارِ.

قولُهُ: (مِلئِهَا) أي: الأوديةِ، وهي جمعُ: وادٍ، وهو الموضعُ الّذي يَسِيلُ فيه الماءُ بكثرةٍ، فاتُّسعَ فيه، واستُعمِلَ للماءِ الجارِي فيه، فالمعنى: فسالَتْ أنهارٌ بمِقدارِها في الصِّغرِ والكِبَرِ، أو بمقدارِها الّذي علمَ اللهُ أنّه نافعٌ غير ضارٍّ.

قولُهُ: (وهُو) أي: الزّبدُ.

قولُهُ: (ونَحوِهِ) من وسخِ الغَليانِ، وقولُه: ﴿فَاحْتَمَلَ﴾ أي: رفعَ.

---

(١) أي: (يستوي)، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٨)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٢).

(٢) في (م): «إنكاري».

ـ بالتاء والياء ـ ﴿عليه في النّارِ﴾، من جواهر الأرض كالذهب والفِضّة والنُّحاس ﴿ابتِغاءَ﴾: طلبَ ﴿حِلْيَةٍ﴾: زِينة ﴿أو مَتاعٍ﴾ يُنتفع به كالأواني إذا أُذِيبَت، ﴿زَبَدٌ مِثلُهُ﴾ أي: مِثلُ زبد السيل، وهو خَبثه الذي ينفيه الكِير ـ ﴿كَذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿يَضرِبُ اللهُ الحَقَّ والباطِلَ﴾ أي: مَثلَهما ـ ﴿فأمّا الزَّبَدُ﴾ من السيل وما أُوقد عليه من الجواهر ﴿فيَذهَبُ جُفاءً﴾: باطلاً مَرْمِيًّا به، ﴿وأمّا ما يَنفَعُ النّاسَ﴾ من الماء والجواهر ﴿فيَمكُثُ﴾: يبقى ﴿في الأرضِ﴾ زمانًا، كذلك الباطل يضمحلّ وينمحق، وإن علا على الحقّ في بعض الأوقات، والحقُّ ثابت باق. ﴿كَذلِكَ﴾ المذكورِ ﴿يَضرِبُ﴾: يُبيِّن ﴿اللهُ الأمثالَ﴾.

١٨ ـ ﴿لِلَّذِينَ استَجابُوا لِرَبِّهِم﴾: أجابوه بالطاعة ﴿الحُسنَى﴾: الجنّةُ، ﴿والَّذِينَ لَم يَستَجِيبُوا لَهُ﴾ ـ وهم الكُفّار ـ ﴿لَو أنَّ لَهُم ما في الأرضِ جَمِيعًا ومِثلَهُ مَعَهُ لَافتَدَوا بِهِ﴾ من العذاب، ﴿أُولئِكَ لَهُم سُوءُ الحِسابِ﴾ ـ وهو المُؤاخذة بكُلّ ما عملوه لا يُغفر منه شيء ـ ﴿ومأواهُم جَهَنَّمُ، وبِئسَ المِهادُ﴾: الفِراشُ هي!

قولُهُ: (بالياءِ) الغيبةُ، حمزةُ والكسائيُّ وحفصٌ[1]، على أنَّ الضَّميرَ للنَّاسِ، وإضمارُهُ للعلمِ به

قولُهُ: (مِنْ جَواهِرِ الأَرْضِ) يعمُّ الفلزَّاتِ[2].

قولُهُ: (كالأَوَانِي) وآلاتِ الحربِ.

قولُهُ: (أي: مِثْلُ) أي: يحصلُ أو ينشأُ.

قولُهُ: (مَرمِيًّا بِهِ) أي: يرمي به السَّيلُ والفِلزُّ[3] المذابُ، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُهُ: (والجَوَاهِرِ) أي: خلاصَتِها.

قولُهُ: (زَمَانًا) ينتفعُ به أهلُها.

قولُهُ: (يُبيِّنُ) لإيضاحِ المشتبهاتِ.

قوله: (الجنَّةُ) أو المثوبةُ، مبتدأٌ خبرُهُ: ﴿لِلَّذينَ﴾.

قولُهُ: (الفِرَاشُ) المستقرُّ.

قولُهُ: (هيَ) يعني: المخصُوصُ بالذَّمِّ محذوفٌ.

---

(١) أي: ﴿يوقدون﴾، انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٣).

(٢) في (ص): «الفلوات».

(٣) الفِلَزُّ والفِلِزُّ: الحجارة، وقيل: هو جميع جواهر الأرض من الذهب والفضة والنحاس وأشباهها وما يرمى من خبثها. «لسان العرب» (٥/ ٣٩٢).

ونزل في حمزةَ وأبي جهل: ١٩ ـ ﴿أفمَن يَعلَمُ أنّما أُنزِلَ إلَيكَ مِن رَبِّكَ الحَقُّ﴾ فآمن به ﴿كَمَن هُوَ أعمَى﴾ لا يعلمه ولا يُؤمن به؟ لا. ﴿إنّما يَتَذَكَّرُ﴾: يتّعظ ﴿أُولُو الألبابِ﴾: أصحاب العُقول.

٢٠ ـ ﴿الَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهدِ اللهِ﴾ المأخوذِ عليهم وهم في عالم الذرّ أو كُلِّ عهد، ﴿ولا يَنقُضُونَ المِيثاقَ﴾ بترك الإيمان أو الفرائض، ٢١ ـ ﴿والَّذِينَ يَصِلُونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ﴾ من الإيمان والرحِم وغير ذلك، ﴿ويَخشَونَ رَبَّهُم﴾ أي: وعيدَه، ﴿ويَخافُونَ سُوءَ الحِسابِ﴾ ـ تقدّم ـ ٢٢ ـ ﴿والَّذِينَ صَبَرُوا﴾ على الطاعة والبلاء وعن المعصية ﴿ابتِغاءَ﴾: طلبَ ﴿وَجهِ رَبِّهِم﴾ لا غيرِه من أعراض الدنيا، ﴿وأقامُوا الصَّلاةَ وأنفَقُوا﴾ في الطاعة ﴿مِمّا رَزَقْناهُم سِرًّا وعَلانِيَةً، ويَدرَؤُونَ﴾: يدفعون ﴿بِالحَسَنةِ السَّيِّئَةَ﴾ كالجهل بالحلم والأذى بالصبر، ....

قولُهُ: (فآمَنَ) الأظهرُ: فيؤمنُ؛ ليُطابقَ ﴿يعلمُ﴾.

قولُهُ: (لَا يَعلَمُهُ) أي: عميُّ القلبِ لا يستبصرُهُ، والهمزةُ لإنكارِ أن تقعَ شبْهةٌ في تشابُهِهما بعدَ ما ضربَ من المثلِ.

قولُهُ: (أَو كُلِّ عَهدٍ) عهدَ اللهُ عليهم في كتبِهِ.

وقولُهُ تعالى: (﴿وَلَا يَنقُضُونَ الْمِيثَاقَ﴾) ما وثَّقُوا[1] من المواثيقِ بينَهم وبينَ اللهِ وبينَ العبادِ، وهو تعميمٌ بعدَ تخصيصٍ.

قولُهُ: (مِنَ الإِيمَانِ) بجميعِ الأنبياءِ.

قولُهُ: (وغَيرِ ذَلِكَ) أي: من مَوالاةِ المؤمنينَ، ومراعاةِ جميعِ حقوقِ النَّاسِ.

قولُهُ: (وَعِيدَهُ) عمُوماً.

قولُهُ: (تَقدَّمَ) أي: خصُوصاً، فيحاسِبونَ أنفسَهُم قبلَ أن يُحاسَبوا.

قولُهُ: (طَلَبَ ﴿وَجهِ رَبِّهِم﴾) أي: رضاهُ.

قولُهُ: (لَا غَيرِه) كالفخرِ والسُّمعةِ والرِّياءِ والمالِ والجاهِ.

قالَ تَعالى: (﴿الصَّلَاةَ﴾) أي: المفروضةَ، و(﴿ممَّا رزَقْنَاهُمْ﴾) أي: بعضَهُ الَّذي وجبَ عليهم إنفاقُهُ (﴿سرًّا﴾) لمن لم يُعرفْ بالمالِ (﴿وعلانيةً﴾) لمن عُرفَ به، أو: ﴿سرًّا﴾ في التَّطوُّعِ ﴿وعلانيَةً﴾ في الفرضِ، أو كما اتَّفقَ ﴿سرًّا وعلانيةً﴾.

قولُهُ: (كالجَهلِ... إلخ) والإساءَةِ بالإحسانِ، أو يُتبعونَ الحسنةَ السَّيِّئَةَ فتَمحُوها.

---

(١) في (ص): «وثقوه».

﴿أُولئِكَ لَهُم عُقبَى الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخرة.

٢٣ ـ هي ﴿جَنّاتُ عَدنٍ﴾: إقامةٍ، ﴿يَدخُلُونَها﴾ هم ﴿ومَن صَلَحَ﴾: آمنَ ﴿مِن آبائِهِم وأزواجِهِم وذُرِّيّاتِهِم﴾، وإن لم يعملوا بعملهم، يكونون في درجاتهم تكرمة لهم، ﴿والمَلائكةُ يَدخُلُونَ علَيهِم مِن كُلِّ بابٍ﴾ من أبواب الجنّة أو القُصور أوانَ أوّلِ دُخولهم للتهنئة، يقولون: ٢٤ ـ ﴿سَلامٌ علَيكُم﴾. هذا الثوابُ ﴿بِما صَبَرتُم﴾: بصبركم في الدنيا. ﴿فنِعمَ عُقبَى الدّارِ﴾ عقباكم!

٢٥ ـ ﴿والَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهدَ اللهِ مِن بَعدِ مِيثاقِهِ، ويَقطَعُونَ ما أمَرَ اللهُ بِهِ أن يُوصَلَ، ويُفسِدُونَ في الأرضِ﴾ بالكُفر والمعاصي، ﴿أُولئِكَ لَهُمُ اللَّعنَةُ﴾: البُعد من رحمة الله، ﴿ولَهُم سُوءُ الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ السّيئة في الدار الآخرة، وهي جهنّم. ٢٦ ـ ﴿اللهُ يَبسُطُ الرِّزقَ﴾: يُوسّعه ﴿لِمَن يَشاءُ، ويَقدِرُ﴾: يُضيّقه لمن يشاء. ﴿وفَرِحُوا﴾ أي: أهلُ مكّة فرحَ بطر ﴿بِالحَياةِ الدُّنيا﴾ أي: بما نالوه فيها، ﴿وما الحَياةُ الدُّنيا في﴾ جنب حياة ﴿الآخِرةِ إلاّ مَتاعٌ﴾: شيء قليل يُتمتّع به ويَذهب.

قولُهُ: (أَي: العَاقِبَةُ) أو عاقبةُ الدُّنيا أيضاً.

قولُهُ: (هِيَ) يعني: ﴿جنَّاتُ﴾ خبرُ مبتدأ محذوفٍ، وقيل: بدلٌ من ﴿عقبى الدَّارِ﴾، أو مبتدأٌ خبرُه ﴿يدخلُونَهَا﴾.

قولُهُ: (إِقَامَةٍ) وقيل: بُطنان الجنَّةِ.

قولُهُ: (آمَنَ) عطفٌ على المرفُوعِ في «يدخلُونَ»، وإنَّما ساغَ للفصلِ بالضَّميرِ الآخرِ (ها) أو مفعولٌ معَه، والتَّقييدُ بالصَّلاحِ دالٌّ على أنَّ مجرَّدَ النَّسبِ لا ينفعُ.

قولُهُ: (أَوِ القُصُورِ) أو الفتوحِ والتُّحفِ.

قولُهُ: (يقُولُونَ) الأظهرُ: قائلينَ؛ بشارةً بدوامِ السَّلامةِ.

قولُهُ: (هَذَا الثَّوَابُ) إشارةٌ إلى أنَّ ﴿بما صبرْتُم﴾ متعلِّقٌ بمحذُوفٍ، والباءُ للسَّببيَّةِ.

قولُهُ: (أَي: العَاقِبَةُ) أو سوءُ عاقبةِ الدُّنيا.

قولُهُ: (لِمَنْ يَشَاءُ) أو لَه.

قولُهُ: (بِمَا نَالُوهُ فِيهَا) وتبسَّطُوا منها، ولم يصرفُوا فيما يستوجبونَ به نعيمَ العُقبى.

قولُهُ: (ويَذهَبُ) يعني: الأمتعةُ لا تدومُ[1] كعُجالةِ الرَّاكبِ وزادِ الرَّاعي.

---

(١) في (ص) زيادة: «له».

٢٧ ـ ﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة: ﴿لَولا﴾: هلاّ ﴿أُنزِلَ عليهِ﴾: على مُحمّد ﴿آيةٌ مِن رَبِّهِ﴾ كالعصا واليد والناقة. ﴿قُلْ﴾ لهم: ﴿إنَّ اللهَ يُضِلُّ مَن يَشاءُ﴾ إضلاله فلا تُغني الآيات عنه شيئًا، ﴿ويَهدِي﴾: يُرشد ﴿إلَيهِ﴾: إلى دِينه ﴿مَن أنابَ﴾: رجَعَ إليه، ويُبدَل مِن «مَن»: ٢٨ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وتَطمَئِنُّ﴾: تسكن ﴿قُلُوبُهُم بِذِكرِ اللهِ﴾ أي: وعدِه. ﴿ألا بِذِكرِ اللهِ تَطمَئِنُّ القُلُوبُ﴾ أي: قُلوب المُؤمنين. ٢٩ ـ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا وعَمِلُوا الصّالِحاتِ﴾: مبتدأ خبرُه: ﴿طُوبَى﴾ ـ مصدرٌ من الطِّيب أو شجرةٌ في الجنّة يسير الراكب في ظِلّها مِائَةَ عام ما يقطعها ـ ﴿لَهُم وحُسنُ مآبٍ﴾: مرجِع.

٣٠ ـ ﴿كَذلِكَ﴾: كما أرسلنا الأنبياء قبلك ﴿أرسَلْناكَ في أُمّةٍ، قَد خَلَتْ مِن قَبلِها أُمَمٌ لِتَتلُوَ﴾: تقرأ ﴿عليهِم الَّذِي أوحَينا إلَيكَ﴾ أي: القُرآنَ، ﴿وهُم يَكفُرُونَ بالرَّحمنِ﴾ حيثُ قالوا لمّا أُمروا بالسجود له: «وما الرَّحمنُ»؟ ﴿قُلْ﴾ لهم يا مُحمّد: ﴿هُوَ رَبِّي، لا إلـٰهَ إلاّ هُوَ، علَيهِ تَوَكَّلْتُ، وإلَيهِ مَتابِ﴾.

ونزل لمّا قالوا له: «إن كنتَ نبيًّا فسيِّرْ عنّا جبالَ مكّة، واجعلْ لنا فيها أنهارًا وعُيونًا لنغرس ونزرع، وابعثْ لنا آباءنا الموتى يُكلّمونا أنك نبيّ»: ٣١ ـ ﴿ولَو أنَّ قُرآنًا سُيِّرَتْ بِهِ الجِبالُ﴾: نُقلت عن أماكنها، ﴿أو قُطِّعَتْ﴾: شُقِّقتْ ﴿بِهِ الأرضُ، أو كُلِّمَ بِهِ المَوتَى﴾ بأن يُحيَوا، لَما آمنوا.........

قولُهُ: (إضلالَهُ) باقتراحِ الآياتِ بعدَ ظهورِ المعجزاتِ.

قولُهُ: (رَجعَ إلَيهِ) وأقبلَ عليه وتمسكنَ لديهِ.

قولُهُ: (وَيُبدَلُ) أو خبرُ مبتدأ محذوفٍ.

قولُهُ: (تَسكُنُ) أنساً به واعتِماداً عليه ورجاءً منه.

قولُهُ: (أي: وَعْدِهِ) أو مطلقاً، أو بذكرِ رحمتِهِ بعد القلقِ من خشيتِهِ، أو بذكرِ دلائلِهِ الدَّالَّةِ على وجودِهِ ووحدانيَّتِهِ، أو بكلامِهِ ـ يعني: القرآنَ ـ الَّذي هو أقوى المعجزاتِ.

قولُهُ: (مَصدَرٌ) لطابَ كبُشرَى وزُلفى، قُلبَت ياؤهُ واواً لضمَّةِ ما قبلَها.

قولُهُ: (شُقِّقَتْ) وجُعلَت أنهاراً وعيوناً.

قولُهُ: (لَمَا آمَنُوا) جوابُ الشَّرطِ، فالمرادُ منه المبالغةُ في عنادِ الكفرِ وتصميمِهِم؛ كقولِهِ تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَا إِلَيْهِمُ الْمَلَائِكَةَ﴾ الآية [الأنعام: ١١١].

أو التَّقديرُ: لكانَ هذا القرآنَ؛ لأنَّهُ الغايةُ في الإعجازِ والنِّهايةُ في التَّذكيرِ والإنذارِ، فالمرادُ منه: تعظيمُ شأنِ القرآنِ.

﴿بَل للهِ الأمرُ جَمِيعًا﴾ لا لغيره، فلا يُؤمن إلاّ من شاء إيمانَه دون غيره، وإن أُوتوا ما اقترحوا. ونزل لمّا أراد الصحابة إظهار ما اقترحوا طمعًا في إيمانهم: ﴿أفلَم يَيأسِ﴾: يَعلمِ ﴿الَّذِينَ آمَنُوا أنْ﴾: مُخفّفةٌ أي: أنه ﴿لَو يَشاءُ اللهُ لَهَدَى النّاسَ جَمِيعًا﴾ إلى الإيمان من غير آية؟

﴿ولا يَزالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكّة ﴿تُصِيبُهُم بِما صَنَعُوا﴾: بصنعهم، أي: كُفرهم، ﴿قارِعةٌ﴾: داهية تقرَعُهم بصُنوف البلاء من القتل والأسر والحرب والجدب، ﴿أو تَحُلُّ﴾ ـ يا مُحمّد ـ بجيشك ﴿قَرِيبًا مِن دارِهِم﴾: مكّة، ﴿حَتَّى يأتِيَ وَعدُ اللهِ﴾ بالنصر عليهم ـ ﴿إنَّ اللهَ لا يُخلِفُ المِيعادَ﴾. وقد حلَّ بالحُديبية حتّى أتى فتحُ مكّة ـ ٣٢ ـ ﴿ولَقَدِ استُهزِئَ بِرُسُلٍ مِن قَبلِكَ﴾ كما استُهزئ بك ـ وهذا تسلية للنبيّ ـ ﴿فأملَيتُ﴾: أمهلت ﴿لِلَّذِينَ كَفَرُوا، ثُمَّ أخَذتُهُم﴾ بالعُقوبة. ﴿فكَيفَ كانَ عِقابِ﴾؟ أي: هو واقع موقعه، فكذلك أفعل بمن استهزأ بك.

٣٣ـ ٣٤ـ ﴿أفمَن هُوَ قائمٌ﴾: رقيب ﴿عَلَى كُلِّ نَفْسٍ بِما كَسَبَتْ﴾: عملتْ من خير وشر ـ وهو الله ـ كمن ليس كذلك من الأصنام؟ لا ....

قولُهُ: (يَعلَمْ) هذا مذهبُ الأكثرِ؛ لما رُويَ أنَّ عليًّا وابن عبّاسٍ وجماعةً من الصَّحابةِ والتّابعينَ قرؤوا: (أفلم يتبيَّن)[1] وهو تفسيرُهُ، وإنَّما استُعمِلَ اليأسُ بمعنى: العلمِ؛ لأنَّهُ مسبَّبٌ عن العلمِ بأنَّ المأيوسَ عنه لا يكونُ إلّا معلوماً، ولذلك علَّقَهُ بقولِهِ: ﴿أنْ لَو يَشَاءُ اللهُ﴾ إلخ، فإنَّ معناهُ: نفيُ هُدى بعضِ النّاسِ لعَدمِ تعلُّقِ المشيئةِ باهتِدائِهِم.

وقيلَ معناهُ: أفلم ييأسُوا من إيمانِهِم معَ ما رأوا من أحوالِهِم علماً منهُم أن لو يشاءُ اللهُ، فيكونُ ﴿أنْ﴾ متعلِّقاً بمحذوفٍ، وقيل: متعلِّقٌ بـ﴿آمنُوا﴾.

قولُهُ: (أي: كُفرِهِم) وسوءِ أعمالِهِم.

قولُهُ: (تَقرَعُهُم) وتقلقُهُم.

قولُهُ: (مَكَّةَ) تسليةٌ للنَّبيِّ، ووعيدٌ للمُستهزئينَ به.

قولُهُ: (أَمهَلتُ) الإملاءُ: أن يُتركَ ملاوةً ـ مثلَّثةُ الميمِ ـ؛ أي: قطعةً من الزَّمانِ في دَعَةٍ وأمنٍ.

قالَ تعالى: (﴿عِقَابِ﴾) أي: عِقابي إيّاهُم.

قولُهُ: (كَمَنْ) إشارةٌ إلى أنَّ الخبرَ محذوفٌ.

---

(١) انظر: «مختصر في شواذ القرآن» (ص: ٧١)، وهي محمولة على التفسير لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمعت عليه الأمة.

دلّ على هذا: ﴿وجَعَلُوا لِلهِ شُرَكاءَ. قُلْ: سَمُّوهُم﴾ له، مَن هم؟ ﴿أم﴾: بل أ ﴿تُنَبِّئُونَهُ﴾: تُخبرون الله ﴿بِما﴾ أي: بشريكٍ ﴿لا يَعلَمُـ﴾ ـه ﴿في الأرضِ﴾؟ استفهام إنكار، أي: لا شريك له إذ لو كان لعَلِمَه ـ تعالى عن ذلك ـ ﴿أم﴾: بل تُسمّونهم شركاء ﴿بِظاهِرٍ مِنَ القَولِ﴾: بظنّ باطل لا حقيقة له في الباطن.

﴿بَل زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا مَكرُهُم﴾: كُفرهم، ﴿وصَدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾: طريق الهُدى. ﴿ومَن يُضلِلِ اللهُ فما لَهُ مِن هادٍ. لَهُم عَذابٌ في الحَياةِ الدُّنيا﴾ بالقتل والأسر، ﴿ولَعَذابُ الآخِرةِ أَشَقُّ﴾: أشدّ منه، ﴿وما لَهُم مِنَ اللهِ﴾ أي: عذابه ﴿مِن واقٍ﴾: مانع.

٣٥ ـ ﴿مَثَلُ﴾: صِفةُ ﴿الجَنّةِ الَّتي وُعِدَ المُتَّقُونَ﴾: مبتدأ خبرُه محذوف، أي: فيما يُقَصّ عليكم، ﴿تَجري مِن تَحتِها الأنهارُ، أُكُلُها﴾: ما يُؤكل فيها ﴿دائمٌ﴾: لا يفنى،........

قولُهُ: (دَلَّ عَلَى هَذَا) المقدَّرِ (﴿وَجَعَلُوا﴾) وهو استئنافٌ، أو التَّقديرُ: لم يوحِّدوهُ، و﴿جعلوا﴾ عطفٌ عليه، وهو الأظهرُ، ويكونُ الظَّاهرُ فيه موضعَ المضمَرِ للتَّنبيهِ على أنَّهُ المستحِقُّ للعبادةِ.

وقولُهُ: (﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾) تنبيهاً على أنَّ هؤلاءِ الشُّركاءَ لا يستَحِقُّونَ العبادَةَ، والمعنى: صِفُوهُم فانظروا هل لهم ما يستحِقُّونَ به العِبادةَ ويستأهلونَ الشَّركةَ؟

قولُهُ: (لعِلْمِهِ) إذ هو العالمُ بكلِّ شيءٍ.

قولُهُ: (لَا حَقِيقَةَ لَهُ) ولا مَعنى، كتسميةِ الزِّنجيِّ كافوراً.

قولُهُ: (كُفرُهمْ) أي: كيدُهُم للإسلامِ بشركِهِم أو تمويهِهِم، فتخيَّلوا أباطيلَ ثمَّ ظنُّوها، فكأنَّهُ تعالى يقولُ: دعْ ذكرَ الدَّليلِ فإنَّهُ لا فائدةَ فيه؛ لأنَّهُ زُيِّنَ لهم مكرُهُم، فلا ينتفعونَ بذكرِ هذه الدَّلائلِ.

قولُهُ: (طَرِيقِ الهُدَى) بضمِّ الصَّادِ: للكوفيِّ[1].

قولُهُ: (وَالأَسرِ) وما يصيبُهُم من المصائبِ.

قولُهُ: (أَشَدُّ) وأدومُ.

قولُهُ: (مَانِعٍ) الأظهرُ: حافظٍ.

قولُهُ: (صِفَةُ) أي: صفتُها الَّتي هي مثلٌ في الغرابةِ.

قولُهُ: (مَحْذُوفٌ) هذا عندَ سيبويه[2]، وقيلَ: خبرُهُ ﴿تجري﴾.

---

(١) أي: عاصم وحمزة والكسائي. انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٣).

(٢) انظر: «الكتاب» (١/ ١٤٣).

﴿وظِلُّها﴾ دائم لا تنسخه شمس لعدمها فيها. ﴿تِلْكَ﴾ أي: الجنّة ﴿عُقبَى﴾: عاقبة ﴿الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الشِّرك، ﴿وعُقبَى الكافِرِينَ النَّارُ﴾.

٣٦ـ ﴿والَّذِينَ آتيناهُمُ الكِتابَ﴾ كعبدالله بن سلام وأصحابه من مؤمني اليهود ﴿يَفرَحُونَ بِما أُنزِلَ إِلَيكَ﴾ لمُوافقته ما عِندهم، ﴿ومِنَ الأحزابِ﴾ الذين تحزَّبوا عليك بالمُعاداة من المشركين واليهود ﴿مَن يُنكِرُ بَعضَهُ﴾ كذِكر الرحمن وما عدا القَصص. ﴿قُلْ: إِنَّما أُمِرْتُ﴾ فيما أُنزِل إليَّ ﴿أن﴾ أي: بأن ﴿أعبُدَ اللهَ ولا أُشرِكَ بِهِ. إِلَيهِ أدعُو وإِلَيهِ مآبِ﴾: مَرجِعي.

٣٧ ـ ﴿وكَذلِكَ﴾ الإنزالِ ﴿أنزَلْناهُ﴾ أي: القُرآنَ ﴿حُكمًا عَرَبِيًّا﴾ بلغة العرب، تحكم به بين الناس. ﴿ولَئِنِ اتَّبَعتَ أهواءَهُم﴾ أي: الكُفّارِ فيما يدعونك إليه من مِلّتهم فَرْضًا ﴿بَعدَ ما جاءَكَ مِنَ العِلمِ﴾ بالتوحيد ﴿مالَكَ مِنَ اللهِ مِن﴾: زائدةٌ ﴿وَلِيٍّ﴾: ناصرٍ ﴿ولا واقٍ﴾: مانعٍ من عذابه.

ونزل لمّا عيّروه بكثرة النساء: ٣٨ ـ ﴿ولَقَد أرسَلْنا رُسُلاً مِن قَبلِكَ، وجَعَلْنا لَهُم أزواجًا وذُرِّيَّةً﴾: أولادًا ـ وأنت مِثلهم ـ ﴿وما كانَ لِرَسُولٍ﴾ منهم ﴿أن يأتِيَ بِآيَةٍ إلاّ بِإذنِ اللهِ﴾ لأنهم عبيد مَربوبون.....

قولُهُ: (دَائِمٌ) أي: كذلك.

قولُهُ: (أَي: الجَنَّةُ) الموصُوفةُ.

قولُهُ: (عَاقِبَة) أي: مآلُهم[1] ومنتَهى أمرِهم.

قولُهُ: (وَمَا عَدَا القَصَصَ) أي: ممَّا يخالفُ شرائعَهُم، أو ما لا يوافقُ ما حرَّفوهُ منها.

قولُهُ: (مَرجِعِي) للجزاءِ لا إلى غيرِه، وهذا هو القدرُ المتَّفقُ عليهِ بينَ الأنبياءِ، فأمَّا ما عدَا ذلك مِن التَّفاريعِ فممَّا يختلفُ بالأعصارِ والأممِ، فلا معنى لإنكارِهم المخالفَةَ فيه.

قولُهُ: (الإِنزَالُ) المشتملُ على أصُولِ الدِّياناتِ المجمَعِ[2] عليها.

قولُهُ: (بِلُغةِ العَرَبِ) ليسهُلَ لهم فهمُهُ وحفظُهُ.

قولُهُ: (تَحكُمُ) أنت، أو القرآنُ في القَضايا والوَقائعِ بما تقتَضيهِ الحكمةُ، وانتصابُهُ على الحالِ.

قولُهُ: (مِن ملَّتِهِم) أي: تقريرِ دينِهم والصَّلاةِ إلى قبلتِهم بعدَ ما حُوِّلتَ عنها.

قولُهُ: (بالتَّوحِيدِ) أي: بنسخِ ذلك.

---

(١) في (ص): «حالهم».

(٢) في (ص): «أصول الديان المجتمع».

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾: مُدّةٍ ﴿كِتَابٌ﴾ مكتوب فيه تحديدُه. ٣٩ ـ ﴿يَمْحُو اللهُ﴾ منه ﴿ما يَشاءُ ويُثْبِتُ﴾ ـ بالتخفيف والتشديد ـ فيه ما يشاء من الأحكام وغيرها، ﴿وعِندَهُ أُمُّ الكِتابِ﴾: أصلُه الذي لا يَتغيّر منه شيء، وهو ما كتبه في الأزَل.

قولُهُ: (مَكتُوبٌ فِيهِ) أو لكلِّ أمدٍ ووقْتٍ حكمٌ يُكتَبُ على العبادِ على ما يقتَضيهِ استصلاحُهُم.

قولُهُ: (بالتَّخفِيفِ): مكّيٌّ وبصريٌّ وعاصمٌ[1].

قولُهُ: (مِنَ الأَحكَامِ) أي: ينسخُ ما يستصوبُ نسخَهُ ويثبتُ ما تقتَضيهِ حكمتُهُ.

وقيل: يمحُو سيِّئاتِ التَّائبِ ويُثبِتُ الحسناتِ مَكانَها.

وقيل: يمحو قرناً ويُثبِتُ آخرينَ.

وقيلَ: يمحُو الفاسداتِ ويُثبِتُ الكائناتِ.

وقيل: يمحو ما يشاءُ من الأسبابِ ويُثبِتُ الأقدارَ.

ويمكنُ أن يُقالَ: يمحُو ما لا يكونُ للهِ ويُثبِتُ ما أُريدَ به وجهُ اللهِ.

وعن ابنِ عبَّاسٍ وغيرِه: يمحو ما يشاءُ إلَّا الشَّقاوةَ والسَّعادةَ والحياةَ والمماتَ[2].

وعن كثيرٍ من السَّلفِ كعُمرَ بن الخطَّابِ[3] وابن مسعودٍ[4] وغيرِهما: أنَّهم كانوا يدعونَ بهذا الدُّعاءِ: «اللَّهمَّ إنْ كُنتَ كتبْتَنَا أشقياءَ فامحُهُ واكتبْنَا سعداءَ، وإنْ كنتَ كتبْتَنَا سعداءَ فأثبِتْنَا فإنَّكَ تمحُو ما تشاءُ وتُثبِتُ، وعندَكَ أمُّ الكتابِ». وهذا الدُّعاءُ قد نُقِلَ في الحديثِ قراءتُه في ليلةِ النِّصفِ من شعبانَ[5].

قولُهُ: (كَتَبَهُ) أي: أثبتَهُ، أو هو اللَّوحُ المحفُوظُ، إذ ما من كائنٍ إلَّا وهو مكتوبٌ فيه.

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٤).

(٢) رواه عبد الرزاق في «تفسيره» (١٣٨٧)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٤٦١)، وابن المقرئ في «معجمه» (٥٥٣)، والبيهقي في «شعب الإيمان» (٣٣٩٤).

(٣) رواه الفاكهي في «أخبار مكة» (٤١٨)، والطبري في «تفسيره» (٢٠٤٨١)، والدولابي في «الكنى والأسماء» (٨٧٢) بنحوه.

(٤) رواه الطبري في «تفسيره» (٢٠٤٨٤) بنحوه.

ورواه الطبراني في «المعجم الكبير» (٩/ ١٧١) (٨٨٧٤) مختصراً.

(٥) لعله يريد ما أورده الذهبي في «الميزان» (٤/ ١٣٢) عن أنس مرفوعا: «من صلى ليلة النصف من شعبان خمسين ركعة قضى الله له كل حاجة طلبها تلك الليلة، وإن كان كتب في اللوح المحفوظ شقيا يمحو الله ذلك ويحوله إلى السعادة...». قال الذهبي: قبح الله من وضعه ففيه من الكذب والإثم ما لا يوصف.

٤٠ ـ ﴿وإمّا﴾ ـ فيه إدغام نون «إن» الشرطيّة في «ما» المزيدة ـ ﴿نُرِيَنَّكَ بَعضَ الَّذِي نَعِدُهُم﴾ به من العذاب في حياتك، وجواب الشرط محذوف، أي: فذاك، ﴿أو نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل تعذيبهم، ﴿فإنَّما عليكَ البَلاغُ﴾: ما عليك إلاّ التبليغ، ﴿وعلَينا الحِسابُ﴾ إذا صاروا إلينا فنُجازيهم. ٤١ ـ ﴿أوَلَم يَرَوا﴾ أي: أهلُ مكّة ﴿أنّا نأتِي الأرضَ﴾: نقصِد أرضهم، ﴿نَنقُصُها مِن أطرافِها﴾ بالفتح على النبيّ؟ ﴿واللهُ يَحكُمُ﴾ في خلقه بما يشاء، ﴿لا مُعَقِّبَ﴾: لا رادّ ﴿لِحُكمِهِ، وهُوَ سَرِيعُ الحِسابِ﴾.

٤٢ ـ ﴿وقَد مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبلِهِم﴾ من الأمم بأنبيائهم كما مكروا بك. ﴿فـلِلّهِ المَكرُ جَمِيعًا﴾، وليس مكرهم كمكره لأنه ـ تعالى ـ ﴿يَعلَمُ ما تَكسِبُ كُلُّ نَفسٍ﴾ فيُعِدّ لها جزاءه. وهذا هو المكر كُلّه لأنه يأتيهم به من حيثُ لا يشعرون. ﴿وسَيَعلَمُ الكافِرُ﴾ المُراد به الجِنس ـ وفي قراءة: «الكُفّار» ـ ﴿لِمَن عُقبَى الدّارِ﴾ أي: العاقبةُ المحمودة في الدار الآخِرة؟ ألهم أم للنبيّ وأصحابه؟

٤٣ ـ ﴿ويَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لك: ﴿لَستَ مُرسَلاً. قُلْ﴾ لهم: ﴿كَفَى بِاللهِ شَهِيدًا بَينِي وبَينَكُم﴾ على صِدقي ﴿ومَن عِندَهُ عِلمُ الكِتابِ﴾ من مُؤمني اليهود والنصارى!

قولُهُ: (أرْضَهُم) أي: الكفرةِ، فاللّامُ للعَهدِ، أو عوضٌ عن المضافِ إليهِ.

قولُهُ: (بأنبيائِهِم) والمؤمنينَ منهم.

قولُهُ: (كمَكرِهِ) إذ لا يُؤبَهُ بمكرِهِم عندَ مكرِهِ، فإنَّهُ القادرُ على ما هو المقصُودُ منه دونَ غيرِهِ.

قولُهُ: (وَفِي قِرَاءَةٍ): للشّاميِّ والكوفيِّ[1].

قولُهُ: (لَكَ) متعلّقٌ بـ﴿يقولُ﴾، قيلَ: المرادُ رؤساءُ اليهودِ.

قولُهُ: (عَلَى صِدْقِي) فإنَّهُ من أظهرِ الأدلَّةِ على رسالَتِي، ما يُغني عن شاهدٍ يشهَدُ عليها.

قولُهُ: (مِنْ مُؤمِنِي اليَهُودِ) فإنَّهُم يشهدُونَ بنعتِهِ في كتبِهِم، فالكتابُ: التَّوراةُ، أو المرادُ: علمُ القرآنِ وما ألفَ عليهِ من النَّظمِ المعجزِ، واللهُ أعلمُ.

***

---

(١) انظر: «السبعة في القراءات» (ص: ٣٥٩)، و«حجة القراءات» (ص: ٣٧٥).

سورة الرعد

جاء من طريق مجاهدٍ عن ابن عباس وعليّ بن أبي طلحةَ أنَّها مكِّيَّةٌ، ورُوي ذلك عن سعيد بن جبير، قال سعيد بنُ منصور في «سننه»: حدَّثنا أبو عوانةَ، عن أبي بشرٍ قال: سألتُ ابنَ جبير عن قوله تعالى: ﴿وَمَنْ عِندَهُۥ عِلْمُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] هل هو عبدُ الله بن سلام؟ فقال: كيف وهذه السورةُ مكِّيَّةٌ[1]؟

وأخرج مجاهدٌ عن ابنِ الزبير، وابنُ مردويه من طريق العوفي عن ابن عباس، ومن طريق ابن جُريج وعثمانَ عن عطاء عنه، وأبو الشيخ عن قتادةَ: أنَّها مدنيَّةٌ. إلَّا أنَّ في رواية الأخير استثناءَ قولهِ تعالى: ﴿وَلَا يَزَالُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا۟ قَارِعَةٌ﴾ الآية [٣١]، فإنَّها مكِّيَّةٌ[2]. ورُوي أنَّ أوَّلَها إلى آخرِ ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية [الرعد:٤٣] مدنيٌّ وباقيها مكِّيٌّ.

وفي «الإتقان»[3]: يؤيِّدُ القولَ بأنَّها مدنيَّةٌ ما أخرجه الطبرانيُّ وغيرُه عن أنس[4] أنَّ قولَه تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ [الآية:٨] إلى قوله سبحانه: ﴿وَهُوَ شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ﴾ [الآية:١٣] نزل في قصَّةِ أربدَ بنِ قيس وعامر بن الطُّفيل حين قدما المدينةَ على رسول الله ﷺ[5]. ثُمَّ قال: والذي يجمع به بين الاختلاف أنَّها مكيةٌ إلَّا آياتٍ منها.

---

(١) سنن سعيد بن منصور (١١٧٧ ـ تفسير).

(٢) ينظر الدر المنثور ٤/ ٤٢، والإتقان ١/ ٣٦ و٤٥.

(٣) ١/ ٣٦.

(٤) كذا نقل المصنف عن السيوطي، والصواب: ابن عباس، كما في المصادر على ما يأتي.

(٥) المعجم الكبير (١٠٧٦٠)، والمعجم الأوسط (٩١٢٧)، والخبر عند ابن هشام في السيرة ٢/ ٥٦٩. قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٤٢: رواه الطبراني في الكبير والأوسط، وفي إسنادهما عبد العزيز بن عمران، وهو ضعيف.

وهي ثلاثٌ وأربعون آيةً في الكوفيِّ، وأربعٌ في المدنيِّ، وخمسٌ في البصريِّ، وسبعٌ في الشاميِّ.

ووجهُ مناسبتها لِمَا قبلها أنَّه سبحانه قال فيما تقدَّم: ﴿وَكَأَيِّن مِّنْ ءَايَةٍ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ يَمُرُّونَ عَلَيْهَا وَهُمْ عَنْهَا مُعْرِضُونَ﴾ [يوسف:١٠٥] فأَجْمَلَ سبحانه الآياتِ السماويةَ والأرضيَّةَ، ثمَّ فصَّلَ جلَّ شأنه ذلك هنا أتمَّ تفصيل. وأيضاً أنَّه تعالى قد أتى هنا ـ ممَّا يدلُّ على توحيدِه عزَّ وجل ـ ما يصلحُ شرحاً لِمَا حكاه عن يوسفَ عليه السلام من قوله: ﴿ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ ٱلْقَهَّارُ﴾ [يوسف:٣٩]. وأيضاً في كلٍّ من السورتين ما فيه تسليةٌ له ﷺ، هذا مع اشتراكِ آخرِ تلك السورةِ وأوَّل هذه فيما فيه وصفُ القرآن كما لا يخفى.

وجاء في فضلها ما أخرجه ابنُ أبي شيبة والمروزيُّ في «الجنائز» عن جابر بن زيد أنَّه كان يستحبُّ إذا حُضِرَ الميتُ أن يُقرَأ عنده سورةُ الرعد، فإنَّ ذلك يخفِّفُ عن الميت، وأنَّه أهونُ لِقَبْضِه وأيسرُ لشأنه(١). وجاء في ذلك أخبارٌ أُخرُ نصُّوا على وضعِها، والله تعالى أعلم.

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿الٓمٓرۚ﴾ أخرج ابنُ جرير وأبو الشيخ عن ابنِ عباس أنَّ معنى ذلك: أنا الله أعلم وأرى(٢). وهو أحدُ أقوالٍ مشهورةٍ في مثل ذلك.

﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ ٱلْكِتَٰبِ﴾ جَعَلَ غيرُ واحدٍ الكتابَ بمعنى السورةِ، وهو بمعنى المكتوب صادقٌ عليها من غيرِ اعتبارِ تجوُّزٍ، والإشارةُ إلى آياتها باعتبار أنَّها لتلاوة بعضها ـ والبعضُ الآخرُ في معرض التلاوة ـ صارت كالحاضرة، أو لثبوتها في اللوح، أو مع المَلَك، والمعنى: تلك الآياتُ [آياتُ](٣) السورةِ الكاملةِ العجيبةِ في

(١) مصنف ابن أبي شيبة ٣/ ٢٣٧، وعزاه للمروزي ابن حجر في التلخيص الحبير ٢/ ١٠٤، والسيوطي في الدر ٤/ ٤٢.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٠٥، وعزاه لأبي الشيخ السيوطيُّ في الدر ٤/ ٤٢، وليس فيهما: «أعلم».
(٣) ما بين حاصرتين من الكشاف ٢/ ٣٤٨، وتفسير البيضاوي ومعه حاشية الشهاب ٥/ ٢١٥.

بابها، واستُفيدَ هذا على ما قيل من اللَّام، وذلك أنَّ الإضافةَ بيانيَّةٌ، فالمآلُ: ذلك الكتابُ، والخبرُ إذا عُرِّفَ بلام الجنس أفادَ المبالغةَ، وأنَّ هذا المحكومَ عليه اكْتَسبَ من الفضيلةِ ما يوجبُ جَعْلَه نفسَ الجنس، وأنَّه ليس نوعاً من أنواعِه، وحيثُ إنَّه في الظاهر كالممتنع أُريد ذلك.

وجُوِّز أن يكون المرادُ بـ «الكتاب»: القرآنَ، و«تلك» إشارةٌ إلى آياتِ السورة، والمعنى: آياتُ هذه السورةِ آياتُ القرآن الذي هو الكتابُ العجيبُ الكاملُ الغنيُّ عن الوصفِ بذلك، المعروفُ به من بين الكتب، الحقيقُ باختصاص اسم الكتاب.

والظاهرُ أنَّ المرادَ جميعُه، وجوِّز أن يراد به المنزَّلُ حينئذ، ورجِّحَ إرادةَ القرآن بأنَّه المتبادرُ من مطلق الكتاب المستَغْني عن النعت، وبه يظهرُ جميع ما أُريد من وصف الآياتِ بوصف ما أُضيفت إليه من نعوت الكمالِ؛ بخلافِ ما إذا جُعل عبارةً عن السورة، فإنَّها ليست بتلك المثابةِ من الشهرة في الاتِّصاف بذلك، المُغنيةِ عن التصريح بالوصف، وفيه بحثٌ.

وأيّاً ما كان فلا محذورَ في حَمْلِ آياتِ الكتاب على «تلك» كما لا يخفى.

وقيل: الإشارةُ بـ «تلك» إلى ما قصَّ سبحانه عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ من أنباءِ الرسلِ عليهم السلام، المشارِ إليها في آخر السورة المتقدِّمةِ بقوله سبحانه: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنبَآءِ ٱلْغَيْبِ﴾ [يوسف:١٠٢]، وجوِّزَ على هذا أن يرادَ بالكتاب ما يشملُ التوراةَ والإنجيلَ، وأخرج ذلك ابنُ جرير عن مجاهدٍ وقتادة(١).

وجوَّزَ ابنُ عطيةَ هذا على تقديرِ أن تكون الإشارةُ إلى «المر» مراداً بها حروفُ المعجم أيضاً، وجَعَلَ ذلك مبتدأً أوّلاً، و«تلك» مبتدأً ثانياً، و«آيات» خبرُه، والجملةُ خبرُ الأوَّلِ، والرابطُ الإشارة(٢).

وأمَّا قولُه سبحانه وتعالى: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ﴾ فالظاهرُ أنَّ الموصولَ فيه مبتدأٌ، وجملةُ «أُنزل» من الفعل ومرفوعِه صلتُه، و«من ربِّك» متعلِّقٌ بـ «أُنزل»، و«الحقُّ» خبر.

---

(١) تفسير الطبري ١٣/٤٠٦.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٠.

والمرادُ بالموصول عند كثيرِ القرآنُ كلُّه، والكلامُ استدراكٌ على وصفِ السورة فقط بالكمال. وفي أسلوبه قولُ فاطمةَ الأنمارية[1] ـ وقد قيل لها: أيُّ بَنِيكِ أفضلُ؟ ـ: ربيعٌ بل عمارةُ بل قيسٌ بل أنس، ثَكِلْتُهم إنْ كنتُ أعلمُ أيُّهم أفضلُ، واللهِ إنَّهم كالحلقة المفرغةِ لا يُدرى أين طرفاها. وذلك كما أنَّها نفت التفاضُلَ آخِراً بإثبات الكمالِ لكلِّ واحدٍ دلالةً على أنَّ كمال كلٍّ لا يُحيط به الوصف، وهو إجمالٌ بعد التفصيلِ لهذا الغرض، كذلك لمَّا أثبت سبحانه لهذه السورةِ خصوصاً الكمالَ، استدركه بأنَّ كلَّ المُنزلِ كذلك، لا يختصُّ به سورةٌ دون أُخرى؛ للدلالة المذكورة، وهو ـ على ما قيل ـ معنًى بديعٌ ووجهٌ بليغٌ ذكره صاحب «الكشاف»[2].

وقيل: إنَّه لتقرير ما قبله والاستدلالِ عليه؛ لأنَّه إذا كان كلُّ المُنزل عليه حقًّا، فذلك المُنزلُ أيضاً حقٌّ ضرورةَ أنه من كلِّ المُنزلِ، فهو كاملٌ؛ لأنَّه لا أكملَ من الحقِّ والصدق، ولخفاءِ أمر الاستدلال قال العلَّامة البيضاويُّ[3]: إنَّه كالحجَّة على ما قبله. ولعلَّ الأوَّل أولى، ومع ذا لا يخلو عن خفاءٍ أيضاً.

ولو قيل: المرادُ بالكمال فيما تقدَّم الكمالُ الراجعُ إلى الفصاحة والبلاغة، ويكونُ ذلك وصفاً للمشار إليه بالإعجاز من جهةِ ذلك، ويكونُ هذا وصفاً له بخصوصه على تقديرِ أن يكون فيه وَضْعُ الظاهرِ موضعَ الضمير، أو لما يشملُه وغيرَه على تقديرِ أن لا يكونَ فيه ذلك بكونه حقّاً مطابقاً للواقع، إذ لا تستدعي الفصاحةُ والبلاغةُ الحقيَّةَ، كما يشهدُ به الرجوعُ إلى المقامات الحريريَّة = لم يَبْعُدْ كلَّ البُعْدِ، فتدبَّر.

وجوَّزَ الحوفيُّ[4] كونَ «من ربِّك» هو الخبر، و«الحقُّ» خبر مبتدأ محذوف ـ أي: هو الحقُّ ـ أو خبرٌ بعد خبرٍ، أو كلاهما خبرٌ واحدٌ، كما قيل في الرمَّان: حلوٌ حامضٌ. وهو إعرابٌ مُتكلَّف. وجَوَّزَ أيضاً كونَ الموصول في محلِّ خفضٍ عطفاً على «الكتاب»، و«الحقُّ» حينئذٍ خبرُ مبتدأ محذوفٍ لا غير؛ قيل: والعطفُ من

(١) ينظر مجمع الأمثال ٢/ ٣٤٩.
(٢) ٢/ ٣٤٨.
(٣) في تفسيره مع حاشية الشهاب ٥/ ٢١٦.
(٤) كما في البحر ٥/ ٣٥٩.

عَطْفِ العامِّ على الخاصِّ، أو إحدى الصفتين على الأُخرى، كما قالوا في قوله:

هو المَلِكُ القرْمُ وابنُ الهُمَامِ... البيتُ[1]

وبعضُهم يجعلُه من عَطْفِ الكلِّ على الجزء، أو من عَطْفِ أحدِ المترادِفَيْن على الآخر، ولكلٍّ وجهةٌ. وإذا أُريد بالكتاب ما رُويَ عن مجاهدٍ وقتادةَ فأمرُ العطف ظاهرٌ.

وجوَّزَ أبو البقاء كونَ «الذي» نعتاً للكتاب بزيادةِ الواو في الصفة، كما في: أتاني كتابُ أبي حفصٍ والفاروقِ، و: النازلين والطيِّبين[2]. وتُعقِّبَ بأنَّ الذي ذكر في زيادة الواو للإلصاق خصَّه صاحبُ «المغني»[3] بما إذا كان النعتُ جملةً، ولم نرَ من ذكره في المفرد.

وأجاز الحوفيُّ أيضاً كونَ الموصول معطوفاً على «آيات» وجَعَلَ «الحق» نعتاً له. وهو كما ترى.

ثمَّ المقصودُ - على تقدير أن يكون «الحقُّ» خبرَ مبتدأ مذكورٍ أو محذوف - قَصْرُ الحقيّة على المُنزَّل؛ لعراقته فيها، وليس في ذلك ما يدلُّ على أنَّ ما عداه ليس بحقٍّ أصلاً، على أنَّ حقِّيَّته مستتبعةٌ لحقِّيَّةِ سائر الكتب السماوية؛ لكونه مصدِّقاً لِمَا بين يديه ومهيمناً عليه.

وساق بعضُ نُفاة القياس هذه الآيةَ - بناءً على تضمُّنها الحصرَ - في معرض الاستدلال على نفي ذلك، فقالوا: الحكمُ المستَنْبَطُ بالقياس غيرُ مُنزلٍ من عند الله تعالى، وإلَّا لكان مَن [لم][4] يحكُمْ به كافراً؛ لقوله تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ

(١) وعجزه: وليث الكتيبة في المزدحم، وهو في الخزانة ١/ ٤٥١ برواية: إلى الملك...، وسلف ٢/ ٣٥٠.

(٢) الإملاء ٣/ ٣٦٥، وقوله: النازلين والطيبين، يشير به إلى بيت الخِرنِق بنت بدر:

النازلين بكلِّ معترك ... والطيبين معاقدَ الأُزْر

ويروى: النازلون... والطيبين. ديوان الخرنق ص٢٩، والكتاب ١/ ٢٠٢ و٢/ ٦٤، والخزانة ٥/ ٤١، ومجاز القرآن ١/ ٦٥.

(٣) ص ٤٧٧.

(٤) ما بين حاصرتين من حاشية الشهاب ٥/ ٢١٦، والكلام منه.

أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْكَـٰفِرُونَ﴾ [المائدة: ٤٤] وكلُّ ما ليس مُنزلاً من عند الله تعالى ليس بحقٍّ؛ لهذه الآية؛ لدلالتها على أنْ لا حقَّ إلَّا ما أنزله الله تعالى.

والمثبتون لذلك أَبطلوا ما ذكروه في المقدِّمة الأولى بأنَّ المرادَ بعدم الحكم الإنكارُ وعدمُ التصديق، أو المراد مَن لم يحكم بشيءٍ أصلاً ممَّا أنزله الله تعالى، ولا شكَّ أنَّه من شأن الكفرةِ، أو المراد بما أنزله هناك التوراةُ، بقرينةِ ما قبله، ونحن غيرُ متعبَّدين بها فيَخْتَصُّ باليهود، ويكون المراد الحكمَ بكفرهم إذ لم يحكموا بكتابهم، ونحن نقول بموجبه كما بيّن في «شرح المواقف»[1].

وما ذكروه في المقدمة الثانية بأنَّ المرادَ بالمنزَّلِ من الله تعالى ما يشملُ الصريحَ وغيرَه، فيدخل فيه القياسُ لاندراجه في حكم المقيس عليه، المنزَّلِ من عنده سبحانه، وقد جاء في المنزَّلِ صريحاً: ﴿فَٱعْتَبِرُواْ يَـٰٓأُوْلِى ٱلْأَبْصَـٰرِ﴾ [الحشر: ٢] وهو دالٌّ - على ما حُقِّقَ في محلِّه[2] - على حُسْنِ اتِّباع القياسِ، على أنَّك قد علمتَ المقصودَ من الحصر.

ويحتملُ أيضاً - على ما قيل - أن يكونَ المرادُ: هو الحقُّ لا غيرُه من الكتب الغيرِ المُنزلةِ، أو المُنزلة إلى غيرِه؛ بناءً على تحريفها ونَسْخِها. وقد يقال: إنَّ دليلَهم منقوضٌ بالسنَّةِ والإجماع، والجواب الجواب.

ولا يخفى ما في التعبير عن القرآن بالموصول، وإسنادِ الإنزال إليه بصيغةِ ما لم يُسمَّ فاعلُه، والتعرُّضِ لوصف الربوبية مضافاً إلى ضميرِه عليه الصلاة والسلام، من الدلالة على فخامةِ المنزَّل، وتشريفِ المنزَّل [إليه][3]، والإيماءِ إلى وجه بناء الخبر، ما لا يخفى.

﴿وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ﴾ قيل: هم كفَّار مكةَ. وقيل: اليهودُ والنَّصارى. والأَوْلَى أن يُرادَ أكثرُهم مطلقاً ﴿لَا يُؤْمِنُونَ ①﴾ بذلك الحقِّ المبين؛ لإخلالهم بالنظر والتأمُّلِ فيه، فعدمُ إيمانهم - كما قال شيخُ الإسلام - متعلِّقٌ بعنوان حقِّيَّته؛

(١) للجرجاني ٨/ ٣٣٤.

(٢) ينظر ما سلف ٥/ ١٢٩.

(٣) ما بين حاصرتين من تفسير أبي السعود ٥/ ٢، والكلام منه.

لأنَّه المرجعُ للتصديق والتكذيب، لا بعنوان كونِه منزلاً كما قيل، ولأنَّه واردٌ على سبيل الوصفِ دون الإخبار(١).

﴿اللَّهُ الَّذِى رَفَعَ السَّمَوَاتِ﴾ أي: خَلَقهنَّ مرتفعاتٍ، على طريقة: سبحانَ مَن كبَّر الفيلَ وصغَّر البعوضَ. لا أنَّه سبحانه رفَعها بعد أنْ لم تكن كذلك.

﴿بِغَيْرِ عَمَدٍ﴾ أي: دعائم. وهو اسمُ جمعٍ عند الأكثر، والمفردُ: عماد، كإهاب وأَهَب. يقال: عَمَدْتُ الحائطَ أعْمِدُه عَمْداً، إذا دعمته فاعتمدَ واستند. وقيل: المفردُ: عمود، وقد جاء: أديم وأُدُم، وقَصيم وقُصُم، وفَعيلٍ وفَعول يشتركان في كثيرٍ من الأحكام. وقيل: إنَّه جمعٌ. ورُجِّحَ الأولُ بما سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى قريباً.

وقرأ أبو حَيْوةَ ويحيى بنُ وثَّاب: «عُمُد» بضمَّتين(٢)، وهو جمعُ: عمادٍ، كشِهاب وشُهُب. أو: عمودٍ، كرسولٍ ورُسُل. ويُجمعان في القلَّة على أعمدة. والجمعُ لجمع السماوات، لا لأنَّ المنفيَّ عن كلِّ واحدةٍ منها العمدُ لا العماد.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: رفعها خاليةً عن عَمَدٍ.

﴿تَرَوْنَهَا﴾ استئنافٌ لا محلَّ له من الإعراب جيءَ به للاستشهاد على كون السماوات مرفوعةً كذلك، كأنَّه قيل: ما الدليلُ على ذلك؟ فقيل: رؤيتُكم لها بغير عمدٍ، فهو كقولك: أنا بلا سيفٍ ولا رمحٍ تراني.

ويحتملُ أن يكون الاستئنافُ نحوياً بدون تقديرِ سؤالٍ وجواب، والأوَّل أولى.

وجوِّز أن تكون الجملةُ في موضع الحال من السماواتِ، أي: رفعها مرئيَّةً لكم بغير عمدٍ، وهي حالٌ مقدَّرةٌ؛ لأنَّ المخاطَبِيْن حين رفعَها لم يكونوا مخلوقين، وأيّاً ما كان فالضميرُ المنصوبُ للسماوات.

وجُوِّز كون الجملة صفةً لـ «عمد» فالضميرُ لها، واستُدلَّ لذلك بقراءة أُبيٍّ: «ترونه»(٣)؛ لأنَّ الظاهر أنَّ الضميرَ عليها لـ «عمد»، وتذكيرُه حينئذٍ لائحُ الوجه؛

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٤٩ دون نسبة، والبحر ٥/ ٣٥٩.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٤٩، والبحر ٥/ ٣٥٩.

لأنَّه اسمُ جَمْعٍ، فلوحظ أصلُه في الإفراد. ورجوعُه إلى الرفع خلافُ الظاهر.

وعلى تقدير الوصفيَّة يحتمل توجُّه النفي إلى الصفة والموصوف، على منوال:

ولا تـرى الـضَّـبَّ بـهـا يَـنْـجَـحِـر[1]

لأنَّها لو كانت لها عمدٌ لكانت مرئيَّةً، وهذا في المعنى كالاستئناف، ويحتمل توجُّهه إلى الصفة فيفيد أنَّ لها عَمَداً لكنَّها غيرُ مرئيَّة، ورُوي ذلك عن مجاهد وغيره.

والمرادُ بها: قدرةُ الله تعالى، وهو الذي يمسكُ السماء أن تقعَ على الأرض، فيكونُ العَمَدُ على هذا استعارةً.

وأخرجَ ابنُ أبي[2] حاتم عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنه قال: السماءُ على أربعة أملاكٍ، كلُّ زاويةٍ موكَّلٌ بها مَلَكٌ.

وزعم بعضُهم أنَّ العَمَد جبلُ قاف، فإنَّه محيطٌ بالأرض، والسماءُ عليه كالقُبَّة. وتعقَّبه الإمام[3] بأنَّه في غاية السقوط، وسيأتي ـ إن شاء الله تعالى ـ ما يمكن أن يكون مرادُه في وجه ذلك.

وأنا لا أرى ما قبلَه يصحُّ عن ابن عباس، فالحقُّ أنَّ العمدَ قدرةُ الله تعالى، وهذا دليلٌ على وجود الصانع الحكيم تعالى شأنه، وذلك لأنَّ ارتفاعَ السماوات على سائر الأجسام المساويةِ لها في الجِرْمية ـ كما تقرَّر في محلِّه ـ واختصاصَها بما يقتضي ذلك، لابدَّ أن يكون لمخصِّص ليس بجسمٍ ولا جسمانيٍّ يرجِّحُ بعضَ الممكنات على بعضٍ بإرادته.

ورجَّحَ في «الكشف» استئناف الجملة بأنَّ الاستدلالَ برفع هذه الأجرام دون عمدٍ كافٍ، والاستشهادُ عليه بكونه مشاهَداً محسوساً تأكيدٌ للتحقيق.

ثم لا يخفى أنَّ الضميرَ المنصوبَ في «ترونها» إذا كان راجعاً إلى السماوات

---

(١) عجز بيت، صدرُه: لا يفزع الأرنبَ أهوالُها، وهو لعمرو بن أحمر، وسلف ٥/ ٥٦.

(٢) كلمة: أبي، ليست في (م)، والخبر في تفسيره ٧/ ٢٢١٥ ـ ٢٢١٦.

(٣) تفسير الرازي ١٨/ ٢٣٢.

المرفوعة اقتضى ظاهرُ الآية أنَّ المرئيَّ هو السماءُ، وقد صرَّحَ الفلاسفةُ بأنَّ المرئيَّ هو كرةُ البخار، وثخنُها ـ كما قال صاحبُ «التحفة»[1] ـ أحدٌ وخمسون ميلاً وتسعٌ وخمسون دقيقةً. والمجموعُ: سبعةَ عشر فرسخاً وثلثُ فرسخٍ تقريباً. وذكروا أنَّ سببَ رؤيتها زرقاءَ أنَّها مستضيئةٌ دائماً بأشعَّةِ الكواكب، وما وراءَها ـ لعدم قبوله الضوءَ ـ كالمظلم بالنسبة إليها، فإذا نفذ نورُ البصر من الأجزاء المستنيرةِ بالأشعة إلى الأجزاء التي هي كالمظلم، رأى الناظرُ ما فوقَه من المظلم بما يمازجُه من الضياء الأرضيِّ والضياء الكوكبيِّ لوناً متوسطاً بين الظلام والضياء، وهو اللَّونُ اللَّازَوَرْدي. وذلك كما إذا نظرنا من جسمٍ أحمرَ مُشِفٍّ إلى جسمٍ أخضرَ، فإنَّه يظهرُ لنا لونٌ مركَّبٌ من الحمرة والخضرة. وأجمعوا أنَّ السماواتِ التي هي الأفلاكُ لا تُرى؛ لأنَّها شفَّافةٌ لا لونَ لها؛ لأنَّها لا تحجب الأبصارَ عن رؤية ما وراءَها من الكواكب، وكلُّ ملوَّنٍ فإنَّه يحجب عن ذلك.

وتعقَّبَ ذلك الإمامُ الرازيُّ[2]: بأنَّا لا نُسلِّمُ أنَّ كلَّ ملوَّنٍ حاجبٌ، فإنَّ الماءَ والزجاجَ ملوّنان؛ لأنَّهما مرئيان، ومع ذلك لا يحجبان، فإن قيل: فيهما حجبٌ عن الإبصار الكامل. قلنا: وكيف عرفتم أنَّكم أدركتم هذه الكواكبَ إدراكاً تامّاً؟. انتهى.

على أنَّ ما ذكروه لا يتمشَّى في المحدَّد، إذ ليس وراءَه شيءٌ حتى يُرى ولا في الفلك الذي يسمُّونه فلكَ الثوابت أيضاً، إذ ليس فوقَه كوكبٌ مرئيٌّ، وليس لهم أن يقولوا: لو كان كلٌّ منهما ملوَّناً لوجب رؤيتُه؛ لأنَّا نقول: جاز أن يكون لونُه ضعيفاً كلون الزجاج فلا يُرى من بعيد. ولئن سلَّمنا وجوبَ رؤيةِ لونه، قلنا: لم لا يجوزُ أن تكون هذه الزُّرقةُ الصافية المرئية لونَه وما ذُكر أوَّلاً فيها دون إثباته كرةَ النار.

وما يقال: إنَّها أمرٌ يحسنُ في الشفَّاف إذا بَعُدَ عمقُه كما في ماء البحر، فإنَّه يُرى أزرقَ متفاوتَ الزُّرقةِ بتفاوت قَعْره قرباً وبُعداً، فالزُّرقةُ المذكورةُ لونٌ يتخيَّل في الجوِّ الذي بين السماء والأرض؛ لأنَّه شفَّافٌ بَعُدَ عمقُه = لا يجدي نفعاً؛ لأنَّ

---

(١) لعله كتاب التحفة الشاهية في الهيئة لقطب الدين محمود الشيرازي المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

(٢) ذكر قوله الشريفُ الجرجاني في شرح المواقف ٧/ ٨٨.

الزُّرقةَ كما تكون لوناً متخيَّلاً قد تكون أيضاً لوناً حقيقياً قائماً بالأجسام، وما الدليلُ على أنَّها لا تحدثُ إلَّا بذلك الطريق التخيلي؟! فجاز أن تكون تلك الزُّرقةُ المرئية لوناً حقيقياً لأحد الفلَكَيْن. كذا قال بعضُ المحقِّقين[١].

وأنت تعلم أنَّه لا مانعَ عند المسلمين من كون المرئيِّ هو السماءَ الدنيا المسماةَ بـ: فلك القمر، عند الفلاسفة، بل هو الذي تقتضيه الظواهرُ، ولا نسلِّمُ أنَّ ما يذكرونه من طبقات الهواء مانعٌ[٢]، وهذه الزُّرقةُ يحتمل أن تكون لوناً حقيقياً لتلك السماء صبغها الله تعالى به حسبما اقتضته حكمتُه، وعليه الأثريُّون كما قال القسطلَّانيُّ[٣]، ويؤيِّده ظاهرُ ما صحَّ من قوله ﷺ: «ما أظلَّتِ الخضراءُ، ولا أقلَّت الغبراءُ - وفي روايةٍ: الأرضُ - من ذي لهجةٍ أصدقَ من أبي ذرٍّ»[٤]. ويحتملُ أن يكون لوناً تخيُّليًّا في طبقةٍ من طبقات الهواء الشفَّافِ الذي ملأ اللهُ به ما بين السماء والأرض، ويكون لها في نفسها لونٌ حقيقيٌّ اللهُ تعالى أعلمُ بكيفيَّته، ولا بُعْدَ في أن يكون أبيضَ، وهو الذي يقتضيه بعضُ الأخبار، لكنَّا نحن نراها من وراء ذلك الهواءِ بهذه الكيفية، كما نرى الشيءَ الأبيضَ من وراء جامٍ[٥] أخضرَ أخضرَ، ومن وراء جامٍ أزرقَ أزرقَ، وهكذا.

وجاء في بعض الآثار أنَّ ذلك من انعكاس لونِ جبل قاف عليها. وتعقِّبَ بأنَّ جبلَ قافٍ لا وجودَ له، وبرهن عليه بما يردُّه - كما قال العلَّامةُ ابنُ حجرٍ[٦] - ما جاء عن ابن عباسٍ ﷺ من طرقٍ أخرجَها الحفَّاظُ وجماعةٌ منهم ممَّن التزموا تخريجَ الصحيح - وقولُ الصحابيِّ ذلك ونحوُه ممَّا لا مجال للرأي فيه حكمهُ حكمُ المرفوع إلى النبيِّ ﷺ - منها أنَّ وراء أرضنا بحراً محيطاً، ثمَّ جبلاً يُقال له: قاف، ثم أرضاً ثم

---

(١) هو الجرجاني في شرح المواقف ٧/ ٨٨.
(٢) في الأصل و(م): مانعاً، والمثبت هو الجادة.
(٣) في إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري ٥/ ٢٥٣.
(٤) أخرجه أحمد (٦٥١٩)، والترمذي (٣٨٠١)، وابن ماجه (١٥٦) من حديث عبد الله بن عمرو ﷺ. وفي الباب عن غير واحد من الصحابة. ولم نقف على الرواية التي فيها: «الأرض». قال الترمذي: هذا حديث حسن. اهـ. والغبراء: الأرض. القاموس (غبر).
(٥) الجام: إناء من فضة. القاموس (جوم).
(٦) الهيتمي في تحفة المحتاج ١/ ٤٢٧.

بحراً ثم جبلاً، وهكذا حتى عدَّ سبعاً من كلٍّ[1]. وخرّجَ بعضُ أولئك عن عبد الله بنِ بُريدةَ: أنَّه جبلٌ من زمرد محيطٌ بالدنيا، عليه كنفا السماءِ[2]. وعن مجاهدٍ مثلُه. وصاحبُ «حلِّ الرموز»[3] أنَّ له سبعَ شعبٍ، وأنَّ لكلِّ سماءٍ منها شعبة.

وفي القلب من صحَّة ذلك ما فيه، بل أنا أجزمُ بأنَّ السماءَ ليست محمولةً إلَّا على كاهلِ القدرة، والظاهرُ أنَّها محيطةٌ بالأرض من سائر جهاتِها كما رُوي عن الحسن، وفي الزُّرقة الاحتمالان.

بقيَ الكلامُ في رؤية باقي السماواتِ، وظاهرُ الآية يقتضيه، وأظنُّكَ لا ترى ذلك، وظاهرُ بعض الآياتِ يساعدُك فتحتاجُ إلى القول بأنَّ الباقي وإن لم يكن مرئياً حقيقةً لكنه في حكم المرئيِّ؛ ضرورةَ أنَّه إذا لم يكن لهذا عمادٌ لا يتصوَّرُ أن يكون لما وراءَه عمادٌ عليه بوجهٍ من الوجوه، ويؤوَّلُ هذا إلى كون المراد: ترونها حقيقةً أو حكماً بغير عَمَدٍ. وجوِّز أن يكون المرادُ: ترون رفعَها ـ أي: السماوات ـ جميعاً بغير ذلك. وفي «الكشف» ما يشير إليه. وإذا جُعلَ الضميرُ للعَمَدِ فالأمرُ ظاهرٌ، فتدبَّر.

ومن البعيد الذي لا نراه زَعْمُ بعضِهم أنَّ «ترونها» خبرٌ في اللَّفظ ومعناه الأمر: رُوْها وانظرُوا هل لها من عَمَدٍ؟

﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ﴾ سبحانه استواءً يليقُ بذاته ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ﴾ وهو المحدّدُ بلسانِ الفلاسفة، وقد جاء في الأخبار مِنْ عظمه ما يبهرُ العقولَ.

وجعل غيرُ واحدٍ من الخلف الكلام استعارةً تمثيليةً للحفظِ والتدبير، وبعضُهم فسَّر «استوى» باستولى.

---

(١) ذكره ابن أبي حاتم في تفسيره ١٠/ ٣٣٠٧، وأورده الحافظ ابن كثير في أول تفسير سورة ﴿ق﴾، وقال: أثرٌ غريبٌ لا يصحُّ سنده.

(٢) أخرجه الحاكم في المستدرك ٢/ ٤٦٤، والكنف: الجانب والناحية. النهاية (كنف).

(٣) وهو الشيخ علاء الدين علي دده بن مصطفى الموستاري ثم السكتواري، المشهور بشيخ التربة (ت ١٠٠٧ هـ). واسم كتابه: خواتم الحكم وحلّ الرموز وكشف الكنوز من لطائف العلوم والحكم. وهو مختصر في علم الحكمة. كشف الظنون ١/ ٦٨٦، والأعلام ٤/ ٢٨٧، وفهرس مخطوطات الظاهرية (التصوف) ١/ ٥١٠ ـ ٥١١.

ومذهبُ السلف في ذلك شهيرٌ، ومع هذا قدَّمنا الكلام فيه[(١)].

وأيًّا ما كان فليس المرادُ به القصدَ إلى إيجاد العرش، كما[(٢)] في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰٓ إِلَى ٱلسَّمَآءِ فَسَوَّىٰهُنَّ سَبْعَ سَمَٰوَٰتٍ﴾ [البقرة:٢٩] لأنَّ إيجادَه قبل إيجاد السماوات، ولا حاجة إلى إرادة ذلك مع القول بسبق الإيجاد وحمل «ثم» على التراخي في الرتبة ـ نعم قال بعضُهم: إنَّها للتراخي الرُّتْبي ـ لا لأنَّ الاستواءَ بمعنى القصدِ المذكور وهو متقدِّمٌ، بل لأنَّه [(٣)]صفة قديمة لائقةٌ به تعالى شأنه[(٣)]، وهو متقدِّمٌ على رفع السماواتِ أيضاً، وبينهما تراخٍ في الرتبة.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ وَٱلْقَمَرَ﴾ ذلَّلهما وجعلَهما طائعَيْن لِمَا أُريد منهما ﴿كُلٌّ﴾ من الشمسِ والقمرِ ﴿يَجْرِى﴾ يسيرُ في المنازل والدرجات ﴿لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ أي: وقت معيَّن، فإنَّ الشمسَ تقطعُ الفلكَ في سنةٍ، والقمرَ في شهرٍ، لا يختلف جَرْيُ كلٍّ منهما كما في قوله تعالى: ﴿وَٱلشَّمْسُ تَجْرِى لِمُسْتَقَرٍّ لَّهَا . . . وَٱلْقَمَرَ قَدَّرْنَٰهُ مَنَازِلَ﴾ [يس: ٣٨ ـ٣٩] وهو المرويُّ عن ابن عباس. وقيل: أي: كلٌّ يجري لغاية مضروبةٍ ينقطعُ دونَها سيرُه، وهي: ﴿إِذَا ٱلشَّمْسُ كُوِّرَتْ ۝١ وَإِذَا ٱلنُّجُومُ ٱنكَدَرَتْ﴾ [التكوير: ١ـ٢] وهذا مرادُ مجاهدٍ من تفسير الأجل المسمَّى بالدنيا.

قيل: والتفسيرُ الحقُّ ما رُوي عن الحبر، وأما الثاني فلا يناسبُ الفصلُ به بين التسخير والتدبير، ثمَّ إنَّ غايتهما متَّحدةٌ، والتعبيرُ بـ «كلٌّ يجري» صريحٌ في التعدُّد، وما للغاية «إلى» دون «اللَّام»، ورُدَّ بأنَّه إن أرادَ أنَّ التعبيرَ بذلك صريحٌ في تعدُّد ذي الغاية فمسلَّم، لكن لا يُجديه نفعاً، وإن أراد صراحته في تعدُّدِ الغاية فغيرُ مسلَّم، و«اللَّامُ» تجيءُ بمعنى «إلى» كما في «المغني»[(٤)] وغيرِه. وأنت تعلم لا يفيد أكثر من صحة التفسير الثاني، فافهم، وما أشرنا إليه من المراد من «كلٍّ» هو الظاهرُ.

وزعم ابنُ عطية[(٥)] أنَّ ذكْرَ الشمسِ والقمر قد تضمَّنَ ذكْرَ الكواكب، فالمرادُ من

---

(١) ٩/١٣٨ وما بعدها.

(٢) بعدها في (م): قالوا.

(٣-٣) جاءت هذه العبارة في الأصل بعد كلمة: الرتبي، السابقة.

(٤) ص ٢٨٠.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٢.

«كلّ» كلٌّ منهما، وممَّا هو في معناهما من الكواكب. والحقُّ ما علمت.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ أي: أمرَ العالمِ العلويِّ والسفليِّ، والمراد أنَّه ـ سبحانه ـ يقضي ويقدِّرُ ويتصرَّفُ في ذلك على أكملِ الوجوه، وإلَّا فالتدبيرُ بالمعنى اللُّغويِّ ـ لاقتضائه التفكُّرَ في دُبُر الأمور ـ مما لا يصحُّ نسبته إليه تعالى.

﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ أي: ينزلها ويبيِّنها مفصَّلةً، والمرادُ بها: آياتُ الكتب المنزلة، أو القرآنُ على ما هو المناسبُ لِمَا قبل، أو المرادُ بها: الدلائلُ المشارُ إليها فيما تقدَّم، وبتفصيلها تبيينُها، وقيل: إحداثها. على ما هو المناسبُ لما بعد.

والجملتان جُوِّز أن تكونا مستأنفتَيْن، وأن تكونا حالَيْن من ضمير «استوى»، و«سخَّر» من تتمَّته بناءً على أنه جيء به لتقرير معنى الاستواء وتبيينِه، أو جملةً مفسِّرةً له. وجُوِّز أن يكون «يدبِّر» حالاً من فاعل «سخَّر»، و«يفصِّل» حالاً من فاعل «يدبِّرُ». و«الله الذي» إلخ على جميع التقادير مبتدأٌ وخبرٌ، وجُوِّز أن يكون الاسمُ الجليلُ مبتدأً، والموصولُ صفتَه، وجملةُ «يُدبِّر» خبرَه، وجملةُ «يفصل» خبراً بعد خبرٍ. ورجَّح كون ذلك مبتدأً وخبراً في «الكشف» بأنَّ قوله تعالى الآتي: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ عطفٌ عليه على سبيل التقابل بين العلويَّات والسفليَّاتِ، وفي المقابِل تتعيَّنُ الخبريَّةُ، فكذلك في المقابَل ليتوافقا، ولدلالته على أنَّ كونَه كذلك هو المقصودُ بالحكم لا أنَّه ذريعةٌ إلى تحقيق الخبرِ وتعظيمِهِ كما في الوجه الآخر، ثم قال: وهو على هذا جملةٌ مقرِّرةٌ لقوله سبحانه: «والذي أنزل إليك من ربك الحق».

وعدلَ عن ضمير الربِّ إلى الاسم المظهَر الجامع؛ لترشيح التقرير، كأنَّه قيل: كيف لا يكون مُنزِلَ ـ مَنْ هذه أفعالُه ـ الحقَّ الذي لا أحقَّ منه.

وفي الإتيان بالمبتدأ والخبرِ معرفتَين ما يفيدُ تحقيقَ أنَّ هذه الأفعال أفعالُه دون مشاركةٍ؛ لا سيَّما وقد جُعلت صلاتٍ للموصول، وهذا أشدُّ مناسبةً للمقام مِنْ جَعْلِه وصفاً مفيداً تحقيقَ كونِه تعالى مدبِّراً مفصِّلاً مع التعظيم لشأنهما، كما في قول الفرزدق[1]:

إنَّ الَّذي سَمَكَ السماءَ بنى لنا ... بيتاً دعائمُهُ أعزُّ وأطولُ

(١) ديوانه ص ١٥٥، وسلف في ٨/ ١٣٠.

وتقدُّمُ ذكرِ الآياتِ ناصرٌ ضعيفٌ؛ لأنَّ الآياتِ في الوضعَيْن مختلفةُ الدلالة، ولأنَّ المناسبَ حينئذٍ تأخُّرُه عن قوله تعالى: «وهو الذي مدَّ» إلخ، على أنَّ سوقَ تلك الصفاتِ ـ أعني: رفعَ السماواتِ وما تلاه ـ للغرض المذكور، وسوقَ مقابلاتِها لغرضٍ آخرَ منافرٌ.

وفي الأول رُوعي لطيفةٌ في تعقيب الأوائل بقوله سبحانه: «يُدبِّر» «يُفصِّل» للإيقان، والثواني بقوله تعالى: «إنَّ في ذلك لآيات لقوم يتفكرون» أي: مِنْ فضل السوابق لإفادتها اليقينَ، واللواحقُ ذرائع إلى حصوله؛ لأنَّ الفكرَ آلتهُ، والإشارة إلى تقدُّم الثواني بالنسبة إلينا مع التأخُّر رتبةً، وذلك فائتٌ على الوجه الآخر. اهـ. وهو من الحُسْن بمكانٍ فيما أرى.

ولا تنافيَ ـ كما قال الشهابُ[(١)] ـ بين الوجهين باعتبار أنَّ الوصفيةَ تقتضي المعلوميةَ، والخبريةَ تقتضي خلافها؛ لأنَّ المعلوميةَ عليهما، والمقصودُ بالإفادة قولُه تعالى: ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمۡ تُوقِنُونَ ۝٢﴾ أي: لكي تتفكروا وتحقّقوا كمالَ قدرتِه سبحانه، فتعلموا أنَّ مَنْ قدرَ على ذلك قدرَ على الإعادة والجزاء. وحاصلُه: أنَّه سبحانه فعل كلَّ ذلك لذلك، وعلى الوجه الآخر فعلَ الأخيرَيْن لذلك، مع أنَّ الكلَّ له، ثم قال: وهذا مما يرجِّحُ الوجه الأولَ أيضاً، كما يرجِّحُه أنَّه ذكر تبيين الآياتِ، وهي الرفعُ وما تلاه فإنَّه ذكرَها ليستدلَّ بها على قدرته تعالى وعلمِه، ولا يستدلُّ بها إلَّا إذا كانت معلومةً فيقتضي كونَها صفةً. فإن قيل: لا بدَّ في الصلة أن تكون معلومةً، سواءٌ كانت صفةً أو خبراً. يقال: إذا كان ذلك صلةً دلَّ على انتساب الآياتِ إلى الله تعالى، وإذا كان خبراً دلَّ على انتسابها إلى موجودٍ مُبهَم، وهو غيرُ كافٍ في الاستدلال، فتأمَّل.

وقرأ النخعيُّ وأبو رَزين وأبان بن تغلب عن قتادةَ: «ندبِّر»، و«نُفصِّل» بالنونِ فيهما، وكذا روى أبو عمرو الداني عن الحسنِ، ووافقَ في «نفصل» بالنون: الخفَّافُ عبدُ الوهاب[(٢)] عن أبي عمرو، وهبيرةُ عن حفص، وقال صاحب

---

(١) في حاشيته ٥/ ٢١٧.

(٢) في الأصل و(م): الخفاف وعبد الوهاب. وعبد الوهاب هو الخفاف نفسه، قرأ على أبي عمرو بن العلاء. ينظر معرفة القراء الكبار ١/ ٣٤٠.

«اللوامح»: جاء عن الحسنِ والأعمش: «نفصِّل» بالنون. وقال المهدويُّ: لم يُختلف في «يدبّر»، وليس كما قال؛ لِمَا سمعت[1].

ثم إنه تعالى لما ذكر من الشواهدِ العلوية ما ذكر، أردفَها بذكر الدلائلِ السفلية، فقال عزَّ شأنُه: ﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: بسطَها طولاً وعرضاً، قال الأصمُّ: البسطُ: المدُّ إلى ما لا يُرى منتهاه، ففيه دلالةٌ على بُعْدِ مداها وسعةِ أقطارها. وقيل: كانت مجتمعةً فدحاها من مكَّةَ من تحت البيت. وقيل: كانت مجتمعةً عندَ بيتِ المقدس فدحاها، وقال سبحانه لها: اذهبي كذا وكذا. وهو المرادُ بالمدِّ. ولا يخفى أنَّه خلافُ ما يقتضيه المقام.

واستُدِلَّ بالآيةِ على أنَّها مسطَّحةٌ غيرُ كريَّة، والفلاسفةُ مختلفون في ذلك:

فذهب فريقٌ منهم إلى أنها ليست كريَّةً، وهؤلاء طائفتان: فواحدةٌ تقول: إنَّها محدَّبةٌ من فوق مسطَّحةٌ من أسفل فهي كقدحٍ كُبَّ على وجه الماء. وأخرى تقول بعكس ذلك.

وذهب الأكثرون منهم إلى أنَّها كريَّة، أمَّا في الطول؛ فلأنَّ البلاد المتوافقة في العرض أو التي لا عرض لها كلَّما كانت أقربَ إلى الغرب كان طلوعُ الشمس وسائرِ الكواكب عليها متأخِّراً بنسبةٍ واحدة، ولا يعقل ذلك إلَّا في الكُرة. وأمَّا في العرض؛ فلأنَّ السالك في الشمال كلَّما أوغلَ فيه ازداد القطبُ ارتفاعاً عليه بحسب إيغاله فيه على نسبةٍ واحدة، بحيثُ يراه قريباً من سمت رأسه، وكذلك تظهر له الكواكبُ الشمالية وتخفى عنه الكواكب الجنوبية، والسالكُ الواغلُ في الجنوب بالعكس من ذلك، وأمَّا فيما بينهما[2] فلْتركّبِ الأمرين.

وأُوردَ عليهم الاختلافُ المشاهَدُ في سطحها، فأجابوا عنه: بأنَّ ذلك لا يقدحُ في أصل الكريَّةِ الحسيَّة المعلومة بما ذُكر، فإنَّ نسبةَ ارتفاع أعظم الجبال ـ على ما استقرَّ عليه استقراؤهم، وانتهت إليه آراؤهم وهو جبلُ دُماوَنْد فيما بين الريِّ وطَبَرِسْتان، أو جبلٌ في سَرَنْديب[3] ـ إلى قُطر الأرض كنسبةِ سُبعِ عَرض شعيرةٍ إلى ذراع.

(١) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٦٠، والدر المصون ٧/ ١١.
(٢) يعني بين الطول والعرض. ينظر شرح المواقف ٧/ ١٤١ ـ ١٤٢، فالكلام منه.
(٣) جزيرة عظيمة بأقصى بلاد الهند. معجم البلدان (سرنديب).

واعترض ذلك بأنَّه: هَبْ أنَّ ما ذكرتم كذلك، فما قولُكم فيما هو مغمورٌ في الماء؟ فإن قالوا: إنْ[1] كان الظاهرُ كريّاً فالباقي كذلك؛ لأنَّها طبيعةٌ واحدةٌ. قلنا: فالمرجعُ حينئذٍ إلى البساطة واقتضائها الكريةَ الحقيقية، ولا شكَّ أنه يمنعها التضاريسُ وإن لم تظهر للحسِّ؛ لكونها في غاية الصغر، لكن أنت تعلم أنَّ أربابَ التعليم يكتفون بالكريَّة الحسيَّة في السطح الظاهر، فلا يتَّجه عليهم السؤال عن المغمور، ولا يليقُ بهم الجوابُ بالرجوع إلى البساطة.

والحقُّ الذي لا ينكره إلَّا جاهلٌ أو متجاهل أنَّ ما ظهر منها كريٌّ حسّاً، ولذلك وكريَّةِ الفلك تختلف أوقات الصلاة في البلاد، فقد يكون الزوال ببلدٍ ولا يكون ببلدٍ آخرَ، وهكذا الطلوعُ والغروبُ وغيرُ ذلك.

وكريَّةُ ما عدا ما ذُكر لا يعلمها إلَّا الله تعالى. نعم، إنَّها لِعِظَم جِرْمها الظاهرِ يُشاهَد كلُّ قطعةٍ وقطرٍ منها كأنَّه مسطَّحٌ، وهكذا كلُّ دائرة عظيمة. وبذلك يُعلم أنَّه لا تنافي بين المدِّ وكونها كريَّة.

وزعم ابنُ عطية[2] أنَّ ظاهر الشريعة يقتضي أنَّها مسطَّحةٌ. وكأنَّه يقول بذلك، وهو خلافُ ما يقتضيه الدليل.

وهي عندهم ثلاثُ طبقاتٍ: الطبقةُ الصِّرفةُ المحيطة بالمركز، ثم الطبقة الطينية، ثم الطبقة المخالطة التي تتكون فيها المعادن وكثيرٌ من النباتات والحيوانات.

والصرفة منها غيرُ ملونةٍ عند بعضهم، ومال ابنُ سينا إلى أنَّها ملونةٌ، واحتجَّ عليه بأنَّ الأرض الموجودة عندنا وإن كانت مخلوطةً بغيرها ولكنا قد نجد فيها ما يكون الغالبُ عليه الأرضيَّةَ، فلو كانت الأرضُ البسيطة شفافةً لكان يجب أن نرى في شيءٍ من أجزاء الأرض - ممَّا ليس متكوِّناً تكوُّناً معدنياً - شيئاً فيه إشفاف، ولكان حكمُ الأرض في ذلك حكمَ الماء والهواء فإنَّهما وإن امتزجا إلَّا أنَّهما ما عدما الإشفافَ بالكلية.

واختلف القائلون بالتلوُّن فمنهم من قال: إنَّ لونَها هو الغبرةُ، ومنهم من زعم

---

(١) في (م): إذا.

(٢) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٣.

أنَّه السوادُ، وزعم أنَّ الغبرةَ إنَّما تكون إذا خالطت الأجزاءُ الأرضيةُ أجزاءً هوائيةً فبسببها ينكسرُ ويحصل الغبرة، وأمَّا إذا اجتمعت تلك الأجزاءُ بحيثُ لا يخالطها كثيرُ هوائيةٍ اشتدَّ السوادُ، وذلك مثلُ الفحم قبل أن يترمَّد فإنَّ النارَ لا عمل لها إلَّا في تفريق المختلفات، فهي لمَّا حلَّلت ما في الخشب من الهوائية واجتمعت الأجزاءُ الأرضيةُ من غير أن يتخلَّلها شيءٌ غريبٌ، ظهرَ لونُ أجزائها وهو السواد، ثم إذا رمَّدته اختلطت بتلك الأجزاء أجزاءٌ هوائيةٌ ـ فلا جرم ـ ابيضَّت مرَّةً أخرى.

والذي صحَّ في الخبر ـ وقد سبق(١) ـ إطلاقُ الغبراءِ على الأرض، وهو محتملٌ لأن تكون سائرُ طبقاتِها كذلك، ولأن يكون وجهُها الأعلى كذلك، نعم جاء في بعض الآثارِ أنَّ في أسفل الأرض تراباً أبيضَ، وما ذكر من الطبقات مما لا يصادمُ خبراً صحيحاً في ذلك، وكونُها سبعَ طبقاتٍ بين كلِّ طبقة وطبقة كما بين كلِّ سماءٍ وسماء خمس مئة عام، وفي كلِّ خلقٌ = غيرُ مسلَّم، ﴿وَمِنَ ٱلْأَرْضِ مِثْلَهُنَّ﴾ [الطلاق: ١٢] لا يُثبته كما ستعلم إن شاء الله تعالى، والخبرُ في ذلك غيرُ مسلَّمِ الصحة أيضاً، ومثلُ ذلك ـ فيما أرى ـ ما رُوي عن كعب أنَّه قال لعمرَ بنِ الخطاب رضي الله عنه: إنَّ الله تعالى جعل مسيرةَ ما بين المشرق والمغرب خمس مئة سنةٍ، فمئةُ سنةٍ في المشرق لا يسكنُها شيءٌ من الحيوانات لا جنٌّ ولا إنسٌ ولا دابةٌ وليس في ذلك شجرةٌ، ومئةُ سنةٍ في المغرب كذلك، وثلاث مئةِ سنةٍ فيما بين المشرق والمغرب يسكنُها الحيوان(٢). وكذا ما أخرجه ابن أبي(٣) حاتم عن عبد الله بن عمر من أنَّ الدنيا مسيرةُ خمس مئة عام؛ أربع مئة خرابٌ ومئةٌ عمران(٤).

والمقرَّرُ عند أهل الهندسة والهيئة غيرُ هذا، فقد ذكر القدماء منهم أنَّ محيطَ دائرة الأرض الموازيةِ لدائرة نصف النَّهار ثمانيةُ آلافِ فرسخٍ، حاصلةٌ مِنْ ضربِ فراسخ درجةٍ واحدةٍ ـ وهي عندهم اثنان وعشرون فرسخاً وتُسعا فرسخ ـ في ثلاث مئة وستِّين محيطِ الدائرة العظمى على الأرض. والمتأخِّرون أنَّ ذلك ستَّةُ آلافِ

---

(١) ص١٤ من هذا الجزء.

(٢) أخرجه ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢١٨.

(٣) لفظة: أبي، ليست في (م).

(٤) تفسير ابن ابي حاتم ٧/ ٢٢١٨، وفيه: عبد الله بن عمرو، وكذا في الدر ٤/ ٤٢، وتتمة الحديث: «في أيدي المسلمين من ذلك مسيرة سنة».

وثمانمئة فرسخ، حاصلةٌ من ضرب فراسخ درجةٍ - وهي عندهم تسعةَ عشرَ فرسخاً إلَّا تُسعَ فرسخ - في المحيطِ المذكور. وعلى القولين التفاوتُ بين ما يقولُه المهندسون ومن معهم وما نُسب لغيرهم ممن تقدَّمَ أمرٌ عظيم، والحقُّ في ذلك مع المهندسين.

وزعموا أنَّ الموضعَ الطبيعيَّ للأرضِ هو الوسطُ من الفلك، وأنَّها بطبعها تقتضي أن تكون مغمورةً بالماء ساكنةً في حاق الوسط منه، لكن لمَّا حصل في جانب منها تلالٌ وجبالٌ مواضعُ عالية، وفي جانب آخرَ ضدُّ ذلك؛ لأسبابٍ ستسمعها بعدُ إن شاء الله تعالى، وكان من طبع الماءِ أن يسيلَ من المواضعِ العالية إلى المواضعِ العميقةِ لا جرمَ، انكشفَ الجانبُ المشرفُ من الأرض وسالَ الماءُ إلى الجوانب العميقة منها.

وللكواكب في زعمهم تأثيرٌ في ذلك بحسبِ المسامتات التي تتبدَّلُ عند حركاتها، خصوصاً الثوابتُ والأوجات والحضيضات المتغيِّرةُ في أمكنتها.

وحكم أصحابُ الأرصاد أنَّ طولَ البرِّ المنكشف نصفُ دور الأرض، وعرضَه أحدُ أرباعها إلى ناحية الشمال، وفي تعيين أيِّ الربعَيْن الشماليَّيْن منكشِفٌ تعذُّرٌ أو تعسُّرٌ، كما قال صاحب «التحفة»[(١)]، وأمَّا ما عدا ذلك فقال الإمام: لم يقم دليلٌ على كونِه مغموراً في الماء ولكنَّ الأشبهَ ذلك، إذ الماءُ أكثرُ من الأرض أضعافاً؛ لأنَّ كلَّ عنصر يجب أن يكون بحيثُ لو استحال بكليَّته إلى عنصرٍ آخرَ كان مثلَه، والماءُ يصغر حجمُه عند الاستحالة أرضاً، ومع ذلك لو كان في بعض المواضع من الأرباع الثلاثةِ عمارةٌ قليلة لا يعتدُّ بها، وأما تحت القطبين فلا يمكن أن يكون عمارةٌ؛ لاشتداد البرد، وإنَّما حكموا بأنَّ المعمورَ الربعُ لأنَّهم لم يجدوا في أرصاد الحوادثِ الفلكية كالخسوفات وقرانات الكواكب التي لا اختلافَ منظرٍ لها تقدُّماً في ساعات الواغلين في المشرق لتلك الحوادثِ على ساعات الواغلين في المغرب زائداً على اثنتي عشْرةَ ساعةً مستويةً، وهي نصفُ الدَّوْر؛ لأنَّ كلَّ ساعةٍ خمسةَ عشرَ جزءاً من أجزاء معدَّل النهار تقريباً، وضربُ خمسةَ عشَر في اثني عشر مئةٌ وثمانون.

---

(١) لعله كتاب التحفة الشاهية في الهيئة لقطب الدين محمود الشيرازي، المتوفى سنة (٧١٠هـ). كشف الظنون ١/ ٣٦٧.

ونحن نقول بوجودِ الخراب وأنَّه أكثرُ من المعمور بكثير، وأكثر المعمور شماليٌّ ولا يوجد في الجنوب منه إلَّا مقدارٌ يسيرٌ، لكنَّا نقول: ما زعموه سبباً للانكشاف غيرُ مسلَّم، ونسندُ كونَ الأرض بحيث وجدت صالحةً لسكنى الحيوان وخروجِ النبات إلى قدرتهِ تعالى واختياره سبحانه، وإلَّا فمن أنصفَ عَلِمَ أنْ لا سبيلَ للعقل إلى معرفة سبب ذلك على التحقيق، وقال: إنَّه تعالى فَعَلَ ذلك في الأرض لمجرَّدِ مشيئته الموافقةِ للحكمة.

﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ﴾ أي: جبالاً ثوابتَ في أحيازها، من الرُّسُوّ: وهو ثباتُ الأجسام الثقيلة، ولم يذكر الموصوفَ؛ لإغناء غلبةِ الوصف بها عن ذلك.

وفواعل يكون جمعَ فاعل إذا كان صفةَ مؤنثٍ كحائضٍ، أو صفةَ ما لا يعقلُ مذكَّراً كجمل بازل وبوازل، أو اسماً جامداً أو ما جرى مجراه كحائط وحوائط. وانحصارُ مجيئه جَمْعاً لذلك في: فَوارس وهَوَالك ونواكس إنَّما هو في صفاتِ العقلاء لا مطلقاً، والجمعُ هنا في صفة ما لا يعقلُ. قيل: فلا حاجةَ إلى جَعْل المفرد هنا: راسية، صفةً لجمع القلَّة أعني: أَجْبُلاً، ويعتبرُ في جمع الكثرة - أعني: جبالاً - انتظامُه لطائفةٍ من جموع القلة فينزل كلٌّ منها منزلةَ مفردهِ كما قيل، على أنَّه لا مجال لذلك؛ لأنَّ جمعية كلٍّ من صيغتي الجمعَيْن إنَّما هي لشمولِ الأفراد لا باعتبار شمول جمع القِلَّة للأفراد، وجمعِ الكثرة لجموع القلَّة، فكلٌّ منها جمعُ جبلٍ لا أنَّ جبالاً جمعُ أجبل. اهـ.

وتُعقِّب بأنه لعلَّ مَنْ قال: إنَّ الرواسيَ هنا جمعُ راسية، صفةُ أجبل، لا يلتزم ما ذكر، وأنَّه إذا صحَّ إطلاقُ أجبلٍ راسيةٍ على جبال قطرٍ مثلاً، صحَّ إطلاقُ الجبال على جبال جميعِ الأقطار من غير اعتبارِ جعلِ الجبال جمعاً لجموع القلَّةِ، نعم لا يصحُّ أن يكونَ جبال جمع أجبل؛ لأنَّه يصيرُ حينئذٍ جمعَ الجمع. وهو خلافُ ما صرَّح به أهلُ اللغة، وجعل راسية صفةَ جبل لا أَجْبُل، والتاءُ فيه للمبالغة لا للتأنيث كما في «علامة» يرد عليه أنَّ تاء المبالغة في فاعلة غيرُ مطَّرد.

وقال أبو حيان: إنَّه غلبَ على الجبال وصفُها بالرواسي، ولذا استغنَوْا بالصفة عن الموصوف، وجُمعَ جمعَ الاسم كحائط وحوائط[1]. وهو ممَّا لا حاجةَ إليه لِمَا

---

(١) البحر ٥/ ٣٦١.

سمعت. وأورد عليه أيضاً أنَّ الغلبةَ تكون بكثرة الاستعمال والكلام في صحته مِنْ أوَّل الأمر، ففيما ذكره دور.

وأجيب بأنَّ كثرةَ استعمال الرواسي غيرُ جارٍ على موصوفٍ يكفي لمدعاه، وفيه تأمُّلٌ. وكذا لا حاجةَ إلى ما قيل: إنه جمعُ راسية صفة جبل مؤنثٍ باعتبار البقعة. وكلٌّ ذلك ناشئٌ من الغفلة عمَّا ذكره محقِّقو علماء العربية.

هذا والتعبيرُ عن الجبالِ بهذا العنوان لبيان تفرُّع قرارِ الأرض على ثباتها، وفي الخبر: «لمَّا خلقَ الله تعالى الأرضَ جعلَتْ تميدُ، فخلقَ الله تعالى الجبالَ عليها فاستقرَّت، فقالت الملائكةُ: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الجبال؟ قال: نعم، الحديدَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الحديد؟ قال: نعم، النارَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من النار؟ قال: نعم، الماءَ. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الماء؟ قال: نعم، الهواء. فقالوا: ربَّنا خلقْتَ خلقاً أعظمَ من الهواء؟ قال: نعم، ابنَ آدم، يتصدَّقُ الصدقَة بيمينِه فَيُخفيها عن شمالِهِ»[١].

وأولُ جبلٍ وضع على الأرض كما أخرجَ ابنُ أبي حاتم[٢]، عن عطاء: أبو قبيس. ومجموعُ ما يُرى عليها من الجبال مئة وسبعةٌ وثمانون جبلاً.

وأبى الفلاسفةُ كونَ استقرارِ الأرض بالجبال، واختلفوا في سبب ذلك:

فالقائلون بالكُريَّةِ منهم مَنْ جعلَه جذبَ الفلكِ لها من جميع الجوانب، فيلزمُ أن تقف في الوسط، كما يُحكى عن صنم حديديٍّ في بيتٍ مغناطيسيِّ الجوانب كلِّها، فإنَّه وقَفَ في الوسط لتساوي الجذْبِ من كلِّ جانب. وردَّ بأنَّ الأصغر أسرعُ انجذاباً إلى الجاذب من الأكبر، فما بالُ المدَرةِ[٣] لا تنجذبُ إلى الفَلَك بل تهربُ[٤] إلى المركز، وأيضاً إنَّ الأقربَ أولى بالانجذاب من الأبعدِ، فالمدرةُ المقذوفةُ إلى فوق أولى بالانجذاب على أصلهم، فكان يجب أن لا تعود.

---

(١) أخرجه أحمد (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩) من حديث أنس بن مالك ﷺ، وفيهما: «الريح» بدل «الهواء»، قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه مرفوعاً إلا من هذا الوجه.
(٢) في تفسيره ٧/٢٢١٨.
(٣) المَدَر: قطع الطين اليابس، واحدته: مدرة. القاموس (مدر).
(٤) بعدها في (م): عنه.

ومنهم مَنْ جعلَه دفعَ(١) الفَلَكِ بحركته لها من كلِّ الجوانب، كما إذا جُعل شيءٌ من التراب في قارورة كرية ثم أُديرت على قطبيها إدارةً سريعة، فإنَّه يعرض وقوفَ التراب في وسطها لتساوي الدفع من كلِّ جانبٍ. وردَّ بأنَّ الدفع إذا كانت قوَّتُه هذه القوةَ فما بالُه لا يُحَسُّ به، وأيضاً ما بال هذا الدفع لا يجعلُ حركةَ الرياح والسُّحبِ إلى جهة بعينها، وأيضاً ما بالُه لم يجعل انتقالَنا إلى المغرب أسهلَ من انتقالنا إلى المشرق، وأيضاً يجبُ أن تكون حركةُ الثقيل كلما كان أعظمَ أبطأ؛ لأنَّ اندفاع الأعظم من الدافع أبطأُ من اندفاع الأصغر، وأيضاً يجب أن تكون حركةُ الثقيل النازلِ ابتداءً أسرعَ من حركته انتهاءً؛ لأنَّه عند الابتداء أقربُ إلى الفلك.

وغيرُ القائلين بها منهم مَنْ جعلَها غيرَ متناهية من جانب السفل، وسببُ سكونها عندهم أنَّها لم يكن لها مهبطٌ تنزل فيه. ويردُّه(٢) دليلُ تناهي الأجسام. ومنهم مَنْ قال بتناهيها، وجَعَلَ السببَ طُفُوَّها على الماء إمَّا مع كون محدَّبها فوق ومسطَّحها أسفل، وإمَّا مع العكس. وردَّ بأنَّ مجرَّدَ الطُّفوّ لا يقتضي السكونَ، على أنَّ فيه عند الفلاسفة بعدُ ما فيه.

وذهب محقِّقوهم إلى أنَّ سكونَها لذاتها، لا لسبب منفصل، قال في «المباحث الشرقية»: والوجهُ المشترك في إبطال ما قالوا في سبب السكون أنْ يقال: جميعُ ما ذكرتموه من الجَذْب والدَّفْع وغيرِهما أمورٌ عارضةٌ وغيرُ طبيعية، ولا لازمةٌ للماهيَّة، فيصحُّ فرض ماهيَّة الأرض عاريةً عنها، فإذا قدَّرنا وقوعَ هذا الممكن فإمَّا أن تحصلَ في حيِّز معيَّن، أو لا تحصل فيه، وحينئذٍ إمَّا أن تحصل في كلِّ الأحياز(٣) أو لا تحصل في شيءٍ منها، والأخيران ظاهرا الفساد، فتعيَّنَ الأولُ، وهو أن تختصَّ بحيِّزٍ معيَّن، ويكون ذلك لطبعها المخصوص، ويكون حينئذٍ سكونُها في الحيِّز لذاتها لا لسببٍ منفصل، وإذا عقل ذلك فَلْيُعْقل(٤) في اختصاصها بالمركز أيضاً.

(١) في الأصل: رفع.
(٢) في (م): يرد.
(٣) في الأصل: الأحيان.
(٤) في الأصل: فليقل.

ثم ذكر في تكوُّن الجبال مباحثَ:

الأول: الحجرُ الكبير إنَّما يتكوَّن لأنَّ حَرًّا عظيماً يصادفُ طيناً لزجاً إمَّا دفعةً أو على سبيل التدريج.

وأمَّا الارتفاعُ فله سببٌ بالذات وسبب بالعرض، أمَّا الأولُ فكما إذا نقلتِ الريحُ الفاعلة للزلزلة طائفةً من الأرض وجعلَتْها تلًّا من التلال. وأمَّا الثاني: فأن يكون الطين بعدَ تحجُّره مختلفَ الأجزاء في الرخاوة والصلابة، وتتفق مياهٌ قوية الجري أو رياحٌ عظيمة الهبوب، فتحفر الأجزاءَ الرخوةَ وتبقى الصُّلبة، ثمَّ لا تزال السيولُ والرياح تؤثِّرُ في تلك الحفر إلى أن تغورَ غوراً شديداً ويبقى ما تنحرفُ عنه شاهقاً.

والأشبه أنَّ هذه المعمورةَ قد كانت في سالف الدهر مغمورةً في البحار، فحصل هناك الطينُ اللَّزج الكثير، ثم حصل بعدُ الانكشافُ، وتكوَّنت الجبال. وممَّا يؤيِّد هذا الظنَّ: في كثير من الأحجار ـ إذا كسرناها ـ أجزاءُ الحيوانات المائية كالأصدافِ، ثمَّ لـمَّا حصلتِ الجبالُ وانتقلت البحارُ حصلَ الشهوق؛ إمَّا لأنَّ السيولَ حفرت ما بين الجبال، وإمَّا لأنَّ ما كان من هذه المنكشفات أقوى تحجُّراً وأصلب طينةً إذا انهَدَّ ما دونه بقي أرفعَ وأعلى، إلَّا أنَّ هذه أمورٌ لا تتمُّ في مدة تفي التواريخُ بضبطها.

والثاني: سببُ عروق الطين في الجبال يحتمل أن يكون من جهةِ ما تفتَّتَ منها وتترَّب، وسالت عليه المياهُ ورطَّبته، أو خلطت به طينَها الجيد، وأن يكون من جهة أنَّ القديم من طين البحر غيرُ متَّفق الجوهرِ، منه ما يقوى تحجُّره ومنه ما يضعف، وأن يكون من جهة أنَّه يعرض للبحر أن يفيض قليلاً قليلاً على سهل وجبل، فيعرض للسهل أن يصير طيناً لزجاً مستعدًّا للتحجُّر القويِّ، وللجبل أن يتفتَّت، كما إذا نقعتَ آجُرَّةً وتراباً في الماء ثم عرضت الآجرَّةَ والطينَ على النار فإنَّه حينئذٍ تتفتَّت الآجُرَّةُ ويبقى الطين متحجِّراً.

والثالث: قد نرى بعضَ الجبال منضوداً[1] ساقاً فساقاً فيشبه أن يكون ذلك؛

---

(١) نَضَد متاعه: جعل بعضه فوق بعض. القاموس (نضد).

لأنَّ طينتَه ترتَّبت هكذا، بأنْ كان ساقٌ قد ارْتَكَم[١] أولاً ثم حدث بعدَه في مدَّةٍ أخرى ساقٌ آخرُ فارتكم، وكان قد سال على كلِّ ساقٍ[٢] خلافُ جوهرِه، فصار حائلاً بينه وبين الساق الآخر، فلمَّا تحجَّرت المادةُ عَرَضَ للحائل أن انتثر عمَّا بين الساقين.

هذا وتعقب ما ذكروه في سبب التكوُّن بأنَّه لا يخفى أنَّ اختصاصَ بعضٍ من أجزاء الأرض بالصلابة وبعضٍ آخرَ منها بالرخاوة مع استواءِ نسبة تلك الأجزاء كلِّها إلى الفلكيات التي زعموا أنَّها المعدَّاتُ لها قَطْعاً للمجاورة والملاصقة الحاصلة بين الأجزاء الرخوة والصلبة = يستدعي سبباً مخصصاً، وعند هذا الاستدعاء يقف العقل ويحيل ذلك الاختصاصَ على سببٍ من خارج، هو الفاعلُ المختارُ جلَّ شأنه، فليت شعري لِمَ لَمْ يفعل ذلك أولاً حذفاً للمؤنة؟! نعم لا يبعدُ أن يكون ذلك من أسباب تكوُّنها بإرادة الله تعالى عند مَنْ يقول من المِلِّيِّين[٣] وغيرِهم بالوسائط، لا عند الأشاعرة، إذ الكلُّ عندهم مستندٌ إليه سبحانه ابتداءً، فلا يتصوَّر واسطة حقيقية على رأيهم.

وما ذكر من الأسباب أمورٌ لا تُفيد إلَّا ظنّاً ضعيفاً، وحديثُ رؤية أجزاء الحيواناتِ المائية كالأصداف كذلك أيضاً، فإنَّا كثيراً ما نرى ذلك في مواضع المطر، وقد أخبرني مَنْ أثقُ به أنَّه شاهد ضفادعَ وقعت مع المطر، على أنَّ ذلك لا يتمُّ على تقدير أن يكون المكشوفُ من الأرض قد انكشف في مبدأ الفطرة، ولم يكن مغموراً بالماء ثم انكشف، وهو ممَّا ذهب إليه بعضُ محقِّقي الفلاسفة أيضاً.

واعترضوا على القائلين بأنَّ الانكشافَ قد حصل بعدُ، بأنَّ أقوى أدلته أنَّ حضيضَ الشمس في جانب الجنوب، فقُربُ الشمس إلى الأرض هناك أكثرُ من جانب الشمال بقدر ثخن المتمِّم من مثلها، فتشتدُّ بذلك الحرارةُ هناك، فانجذب الماءُ من الشمال إلى الجنوب؛ لأنَّ الحرارة جذَّابةٌ للرطوبة فلذا انكشف الربعُ

---

(١) ارتكم الشيء: اجتمع. القاموس (ركم).

(٢) بعدها في (م): من.

(٣) المِلِّيُّون: هم أهل الملل من المسلمين واليهود والنصارى، ويقصد به ما يقابل الفلاسفة. ينظر «مجموع الفتاوى» ١٤/ ١٦٥.

الشماليُّ، فإذا انتقل الحضيضُ إلى جانب الشمال انعكس الأمر. ويرد عليه أنَّه لو كان كذلك لكان الربعُ الشماليُّ الآخرُ أيضاً مكشوفاً إذ لا فرقَ بين الربعين في ذلك، وفي التزام ذلك بعدٌ، على أنَّه لم يلتزمه أحد.

ثم إنَّ وجود الجبال في المغمور وجودَها في المعمور يستدعي أنَّه كان معموراً، وأنَّ الحضيض كان في غير جهته اليوم، وهو قولٌ بأن البرَّ لا يزال يكون بحراً، والبحرَ لا يزال يكون برّاً، بتبدُّل جهتي الأوج والحضيض، فيكون المنكشف تارةً جانبَ الشمال وأخرى جانبَ الجنوب، وحيثُ إنَّ ذلك إنَّما يكون على سبيل التدريج يقتضي أن نشاهدَ اليومَ[1] من جانب الجنوبِ منكشفاً ومن جانب الشمالِ مغموراً، ولا نظنُّ وجودَ ذلك، ولو كان لاشتهر، فإنَّ أوجَ الشمس اليومَ في عاشرة السرطان، وحركتُه في كلِّ سنة دقيقةٌ تقريباً، فيكون من الوقت الذي انتقل فيه من الجانب الشمالي إلى اليوم آلافٌ عديدةٌ من السنين يُغمر فيها كثيرٌ ويعمر كثير.

نعم يُحكى أنَّ جزيرةَ قبرس كانت متصلةً بالبرِّ ثم حالَ البحرُ بينهما، لكنه على تقدير ثبوتِه ليس مما نحن فيه، ولا نسلِّمُ أنَّ ينكي دنيا[2] ممَّا حدث انكشافُها، لجواز أن تكون منكشفةً من قبل، فالحقُّ أنَّ هذا البرَّ بعد أن وُجد لم يَصِرْ بحراً، وهذا البحرُ المحيط بعدَ أن أحاط لم يصِرْ برًّا، وهو الذي تقتضيه الأخبارُ الإلهية والآثارُ النبوية. نعم جاء في بعض الآثار ما ظاهرُه أنَّ الأرضَ المسكونة كانت مكشوفةً في مبدأ الفطرة كأثر الياقوتة، وفي بعضٍ آخرَ منها ما ظاهرُه أنَّها كانت مغمورةً، كخبر ابن عباس أنَّ الله تعالى لمَّا أراد أن يخلق الخلقَ، أمر الريحَ فأبدت عن حَشَفةٍ، ومنها دُحيت الأرضُ ما شاء الله تعالى في الطُّول والعرض، فجعلت تميدُ، فجعلَ عليها الجبالَ الرواسي[3]. وفي «التوراة»[4] ما هو نصٌّ في ذلك، ففي أول سفرِ الخليقة منها: أولُ ما خلق الله تعالى السماء والأرض، وكانت الأرضُ

---

(١) بعدها في (م): شيئاً.

(٢) أي: الدنيا الجديدة أمريكا. المعجم الفارسي ص٦٢٣، ووردت في (م): يكي دنيا.

(٣) أخرجه بنحوه الحاكم في المستدرك ٢/ ٥١٢ من طريق طلحة بن عمرو، عن عطاء، عن ابن عباس رضي الله عنهما، وقال: هذا حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه. اهـ. فتعقبه الذهبيُّ فقال: طلحة بن عمرو ضعَّفوه. وعزاه السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٣ لأبي الشيخ.

(٤) سفر التكوين، نشأة العالم والبشرية ص٦٨.

غامرةً مستبحرة[1]، وكان هناك ظلامٌ، وكانت رياحُ الإله تهبُّ على وجهِ الماء، فشاء الله تعالى أن يكون نورٌ فكان، ثم ذكر فيه أنَّه لما مضى يومٌ ثانٍ شاء الله تعالى أن يجتمع الماء من تحت السماء إلى موضعٍ واحد، ويظهر اليبسُ فكان كذلك، وسمَّى الله سبحانه اليبسَ أرضاً ومجتمعَ الماء بحاراً.

وفيه أيضاً: أنَّ خلقَ النيِّرين كان في اليوم الثالث. وهو آب عن جعل سبب الانكشاف ما سمعتَ عن قُربٍ من قرب الشمس.

وما أشارت إليه هذه الآيةُ ونطق به غيرُها من الآيات من كون الجبال سبباً لاستقرار الأرض، وأنَّها لولاها لمادت، أمرٌ لا يقوم ـ على أصولنا ـ دليلٌ يأباه، فنؤمن به وإن لم نعلم ما وجهُ ذلك على التحقيق.

ويحتملُ أن يكون وجهه أنَّ الله تعالى خلق الأرضَ ـ حسبما اقتضته حكمتُه ـ ضفيرةً بالنسبة إلى سائر الكرات، وجعلَ لها مقداراً من الثقل معيَّناً، ووضعَها في المكان الذي وضَعها فيه مِنَ الماء، وأظهرَ منها ما أظهرَ وليس ذلك إلَّا بسبب مشيئته تعالى التابعةِ لحكمته سبحانه، لا لأمرٍ اقتضاه ذاتُها، فجعلَتْ تميدُ لاضطراب أمواجِ البحر المحيط بها، فوضعَ عليها من الجبال ما ثَقُلت به بحيثُ لم يبقَ للأمواج سلطانٌ عليها، وهذا كما يشاهد في السفن حيث يضعون فيها ما يثقلُها من أحجار وغيرِها؛ لنحو ذلك.

وكونُ نسبةِ ارتفاع أعظم الجبال إليها النسبةَ السابقة لا يضرُّنا في هذا المقام؛ لأنَّ الحجمَ أمرٌ والثقلَ أمرٌ آخرُ، فقد يكون ذو الحجم الصغيرِ أثقلَ من ذي الحجم الكبير بكثير. لا يقال: إنَّ خلقَها ابتداءً بحيثُ لا تزحزحُها الأمواجُ كان ممكناً، فلم لَمْ يفعله سبحانه وتعالى، بل خلقَها بحيثُ تحرِّكُها الأمواجُ ثم وضعَ عليها الجبال؛ لدفع ذلك؟ لأنَّا نقول: إنَّما فعل سبحانه هكذا لما فيه من الحِكَم التي هو ـ جلَّ شأنُه ـ بها أعلمُ، وهذا السؤال نظيرُ أن يقال: إنَّ خلقَ الإنسان ابتداءً بحيثُ لا يؤثِّر فيه الجوعُ والعطشُ مثلاً، شيئاً كان ممكناً، فلِمَ لَمْ يفعله تعالى؟ بل خلقَه بحيثُ يؤثِّران فيه، ثم خلقَ له ما يدفعُ به ذلك ليدفعه به، وله نظائرُ بَعْدُ كثيرةٌ.

---

(١) في الكتاب المقدس: وكانت الأرض خاوية خالية.

وليس ذلك إلَّا ناشئاً عن الغفلة عمَّا يترتب على ما صدر منه تعالى من الحِكَم، ولعلَّ الحكمةَ فيما نحن فيه إظهارُ مزيد عظمته ـ تجلَّت عظمتُه ـ للملائكة عليهم السلام، فإنَّ ذلك مما يوقظُ جفنَ الاستعظام، ألا تراهم كيف قالوا حين رأَوْا ما رأَوْا: ربَّنا خلقت خلقاً أعظمَ من الجبال. . . إلخ.

ويقال لمن لم يؤمن بهذا: بيِّن أنت لنا حكمةَ تقدُّمِ بعض الأشياء على بعض في الخَلْق، كيفما كان التقدُّمُ، وكذا حكمة خلق الإنسان ونحوه محتاجاً، وخلق ما يزيل احتياجَه دون خلقِه ابتداءً على وجهٍ لا يحتاج معه إلى شيء. فإن بيَّن شيئاً، قلنا بمثله فيما نحن فيه، ثم إنَّا نقول: ليس حكمةُ خلق الجبال منحصرةً في كونها أوتاداً للأرض وسبباً لاستقرارها، بل هناك حِكَمٌ كثيرةٌ لا يعلمها إلَّا الله تعالى.

وقد ذكر الفلاسفةُ للجبال منافعَ كثيرةً، قالوا: إنَّ مادة السُّحبِ والعيون والمعدنِيَّات هي البخارُ، فلا تتكوَّن إلَّا في الجبال أو فيما يقرب منها.

أمَّا العيون فلأنَّ الأرض إذا كانت رِخْوةً نشفت الأبخرةُ عنها، فلا يجتمعُ منها قدرٌ يُعتدُّ به، فإذن لا تجتمع إلَّا في الأرض الصُّلبة، والجبالُ أصلبُ الأَرَضين، فلا جرمَ كانت أقواها على حبس البخار حتى يجتمعَ ما يصلحُ أن يكون مادةً للعيون. ويُشبه أن يكونَ مستقرُّ الجبل مملوءاً ماءً، ويكون الجبل في حقنِه الأبخرةَ مثلَ الأنبيق[1] الصلب المعدِّ للتقطير لا يدعُ شيئاً من البخار يتحلَّلُ، وقعرُ الأرض الذي تحته كالقرع، والعيونُ كالأذناب التي في الأنابيق، والأوديةُ والبخارُ كالقوابل. ولذلك أكثرُ العيون إنَّما تنفجرُ من الجبال وأقلُّها في البراري، وهو مع هذا لا يكون إلَّا إذا كانت الأرضُ صلبةً.

وأمَّا إنَّ أكثرَ السحب تكون في الجبال، فلوجوهٍ: أحدها: أنَّ في باطن الجبال من النداوات ما لا يكون في باطن الأَرَضين الرِّخوة. وثانيها: أنَّ الجبال بسبب ارتفاعها أبردُ، فلا جرمَ يبقى على ظاهرها من الأنداءِ والثلوج ما لا يبقى على ظاهر الأَرَضين. وثالثها: أنَّ الأبخرةَ الصاعدة تكون في الجبال. وإذا ثبت ذلك

---

(١) الأنبيق: من أقدم آلات التقطير، وهو معرَّب. متن اللغة (أنب).

ظهرَ أنَّ أسباب تراكم السحب في الجبال أكثرُ؛ لأنَّ المادةَ فيها ظاهراً وباطناً أكثرُ، والاحتقانَ أشدُّ، والسببَّ المحلِّلَ ـ وهو الحرُّ ـ أقلُّ.

وأمَّا المعدنِيَّات المحتاجة إلى أبخرة، فيكون اختلاطها بالأرضية أكثر، وإقامتها في مواضعَ لا تتفرق فيها أطول، ولا شيءَ في هذا المعنى كالجبال.

ومن تأمَّل علم أنَّ للجبال منافعَ غيرَ ذلك لا تُحصى، فلا يضرُّ أنَّ بعضاً مِن الناس من وراء المنعِ؛ لبعضِ ما ذكر.

وسمعتُ من بعض العصريِّين(١) أنَّ من جملة منافعها: كونها سبباً لانكشاف هذا المقدارِ المشاهَدِ من الأرض، وذلك لاحتباس الأبخرةِ الطالبة لجهة العلوِّ فيها، وهو يقتضي أنَّ الأرضَ قبلَها كانت مغمورةً، وهو خلافُ ما يقتضيه ظاهرُ قوله عليه الصلاة والسلام: «لمَّا خلقَ اللهُ تعالى الأرضَ فجعلت تميدُ، فوضعَ عليها الجبالَ فاستقرَّت»(٢) على أنَّه يتراءى المنافاة بين جعلها أوتاداً ـ المصرَّح به في الآيات ـ وكونِها جاذبةً للأرض إلى جهة العلوِّ، ولا يرد على ما ذُكر في توجيه كونِها سبباً لاستقرار الأرض أنَّ كونَها فيها كشُرُعٍ في سفينة يُنافيه، إذ يقتضي ذلك أن تتحرَّكَ الأرضُ إلى خلاف جهة(٣) مهبِّ الهواء؛ لأنَّا من وراء منع حدوث الهواء على وجهٍ يحرِّكُها بسببه كذلك، وهذا كلُّه إذا حكَّمنا العقل في البيِّن، وتقيَّدنا بالعاديَّات. وأما إذا أسندنا كلَّ ذلك إلى قدرة الفاعل المختار جلَّ شأنُه وقلنا: إنَّه سبحانه خلق الأرضَ مائدةً، وجعل عليها الجبالَ وحفظها عن المَيْد؛ لحِكَمٍ عَلِمَها، تحارُ فيها الأفكار، ولا يُحيط بها إلَّا من أوتي علماً لَدُنِّيًّا من ذوي الأبصار = ارتفعت عنَّا جميعُ المؤن وزالت سائر المحن.

ولا يلزمنا على هذا أيضاً القولُ بأنَّ الأرضَ وسطَ العالم، كما هو رأيُ أكثر الفلاسفة المتقدِّمين والمتأخِّرين. ولم يخالف من الأوَّلين إلَّا شرذمةٌ زعموا أنَّ كرةَ النار في الوسط؛ لأنَّها أشرفُ من الأرض؛ لكونها مضيئةً لطيفةً حسنةَ اللون، وكونِ

---

(١) في هامش (م): هو الرشتي سيد كاظم. اهـ. منه.
(٢) أخرجه أحمد (١٢٢٥٣)، والترمذي (٣٣٦٩)، وقد سلف ص٢٤ من هذا الجزء.
(٣) لفظة «جهة»: ليست في الأصل.

الأرض كثيفةٌ مظلمةٌ قبيحةَ اللَّون، وحيِّزُ الأشرف يجب أن يكون أشرفَ الأحياز، وهو الوسط، فإذن هي في الوسط.

وهذا من الإقناعات الضعيفة، ومع ذلك يرد عليه أنَّا لا نسلِّمُ شرافةَ النار على الأرض مطلقاً، فإنها إن ترجَّحت عليها باللَّطافة وما معها، فالأرضُ راجحةٌ بأمور: أحدها: أنَّ النار مفرطة الكيفية مفسدة، والأرض ليست كذلك. وثانيها: أنَّها لا تبقى في المكان الغريب مثلَ ما تبقى الأرض. وثالثها: أنَّ الأرضَ حيِّزُ الحياة والنشوء، والنارُ ليست كذلك. وما ذُكِرَ من استحسان الحسِّ البصريِّ للنار يعارضُه استحسانُ الحسِّ اللمسيِّ للأرض بالنسبةِ إليها، على أنَّا لو سلَّمنا الأشرفيةَ فهي لا تقتضي إلَّا الوسطَ الشرفيَّ لا المقداريَّ، إذ لا شرفَ له، وذلك ليس هو إلَّا حيِّزُها الذي يزعمه جمهورُ المتقدِّمين لها؛ لأنَّه متوسطٌ بين الأجرام العنصرية والأجرام الفلكية.

ولم يخالف من الآخرين إلَّا شرذمةٌ قليلة هم هرشل[1] وأصحابُه، زعموا أنَّ الشمس ساكنة في وسط العالم، وكلُّ ما عداها يتحرَّك عليها، لأنَّها جرمٌ عظيم جدّاً، وكلُّ الأجرام دونَها لا سيَّما الأرض، فإنَّها بالنسبة إليها كلا شيء، والحكمةُ تقتضي سكونَ الأكبر وتحرُّكَ الأصغر. وهذا أيضاً من الإقناعات الضعيفة، مع ذلك يرد عليه أنَّ سكونَ الأصغر ـ لا سيَّما بين أمواج ورياح ـ وحركةَ الأكبر ـ لا سيَّما مثل الحركةِ التي يثبتها الجمهورُ للشمس ـ أبلغُ في القدرة، وتعليلُهم ذلك أيضاً بأنَّا لا نرى للشمس مَيْلاً عمَّا يقال له: منطقة البروج، فيقتضي أن تكون ساكنةً بخلاف غيرِها = لا يخفى ما فيه.

والذي يميل إليه كثيرٌ من الناس أنَّ تحتَ الأرض ماء، وأنَّها فيه كبطيخةٍ خضراءَ في حوض. وجاء في بعض الأخبار أنَّ الأرض على متن ثورٍ، والثورُ على ظهر حوت، والحوتُ في الماء، ولا يعلم ما تحت الماء إلَّا الذي خلقه. وذكر غير واحد أنَّ زيادة كبد ذلك الحوتِ، هو الذي يكون أوَّل طعامِ أهل الجنة، فحملوا

---

(١) هو أحد فلاسفة الإفرنج، وهو الذي اكتشف كوكب أورنوس، وسمي باسمه. ذكره المصنف عند تفسير الآية (١٦) من سورة التكوير.

الحوتَ ـ فيما صحَّ من قوله ﷺ: «أولُ شيءٍ يأكلُه أهلُ الجنَّةِ زائدةُ كبد الحوتِ»[١] ـ على ذلك الحوت، وبيَّنوا حكمةَ ذلك الأكل بأنَّه إشارةٌ إلى خراب الدنيا وبشارةٌ بفساد أساسها وأمن العود إليها، حيثُ إنَّ الأرض التي كانوا يسكنونها كانت مستقرَّةً عليه. وخصَّ الأكل بالزائدة لِما بيَّنه الأطباءُ من أنَّ العلَّة إذا وقعت في الكبد دون الزائدة، رُجيَ برؤُه، فإن وقعت في الزائدة هلك العليلُ، فأكلُهم من ذلك أدخلُ في البشرى.

ومنع بعضُهم صحَّة الأخبار الدالَّة على أنَّها ليست على الماء بلا واسطة، لا سيَّما الخبر الطويل الذي ذكره البغويُّ[٢] في سورة «ن» ولم يُنكر صحَّةَ الخبر في أنَّ أوَّل شيءٍ يأكله أهلُ الجنة زائدةُ كبد الحوت، إلَّا أنَّه قال: المرادُ بالحوت فيه: حوتٌ ما؛ بدليل ما رواه سلطان المحدِّثين البخاريُّ: «أوَّلُ ما يأكلُه أهلُ الجَّنةِ زيادةُ كبدِ حوت، يأكلُ منه سبعون ألفاً»[٣] بتنكير لفظِ حوت. ونظيرُ ذلك في «صحيح» مسلم حيثُ ذكر فيه أنَّه «تكون الأرضُ يومَ القيامة خبزةً واحدةً يكفؤها الجبَّارُ بيده، كما يكفؤ أحدُكم خبزتَه في السفر؛ نُزلاً لأهلِ الجنَّة، وأنَّ إدامَهم ثورٌ ونُون، يأكلُ من زائدةِ كبدِهما سبعون ألفاً»[٤].

وذكرُ حال الأرض فيه لا يُعين مُرادَ الخصم، فإنَّه يجوز أن يكون الجمعُ بين الإشارة على خراب الدنيا، وانقطاعِ أمر الاستعداد للمعاش، وانصرامِ الحياة العنصرية المائيَّة، أمَّا الإشارةُ إلى الأول فظاهرٌ، وأمَّا إلى الثاني فبالاستيلاء على الثور وأكلِ زائدة كبده، فإنَّه عمدةُ عدَّة الحارثِ المهتمِّ لأمر معاشه، وفي الخبر: كلُّكم حارثٌ وكلُّكم هَمَّامٌ[٥]. وأمَّا الإشارةُ إلى الثالث فبالاستيلاء على الحوت

---

(١) أخرجه البخاري (٣٣٢٩)، وأحمد (١٢٠٥٧) مطوّلاً من حديث أنس بن مالك ﷺ، وهو في قصة إسلام عبد الله بن سلام. وفيه: «زيادة» بدل «زائدة».

(٢) في تفسيره ٤/ ٣٧٤ ـ ٣٧٥.

(٣) صحيح البخاري (٣٣٢٩) من حديث أنس ﷺ ـ وسلف قريباً ـ دون قوله: «يأكل منه سبعون ألفاً» وهذه العبارة جزء من حديث آخر عن أبي سعيد الخدري ﷺ سيأتي بعده.

(٤) صحيح مسلم (٢٧٩٢)، من حديث أبي سعيد الخدري ﷺ، وهو عند البخاري (٦٥٢٠). والنون: الحوت. القاموس المحيط (نون).

(٥) ذكره الهروي في «المصنوع في معرفة الحديث الموضوع» ص١٣٩ وقال: ليس بحديث.

وأكلِ زائدة كبده أيضاً، فإنَّه حيوانٌ عنصريٌّ مائيٌّ لا يمكن أن يحيا سويعةً إذا فارق الماء، وبهذا يظهر المناسبةُ التامَّة بين ما اشتمل عليه الخبر.

ولا يبعدُ أن يكون ظهورُ الحياة الدنيويَّة بصورة الحوت، وما يحتاج إليه فيها من أسباب الحراثة الضروريَّة في أمر المعاش بصورة الثور، وكلُّ الصيد في جوف الفَرَا[1]، ويكون ذلك من قبيلِ ظهور الموت في صورة الكبش الأملحِ في ذلك اليوم[2].

وقال بعضُ العارفين[3] في سرِّ تخصيص الكبد: إنَّه بيتُ الدم، وهو بيتُ الحياة، ومنه تقع قسمتها في البدن إلى القلب وغيره، وبخارُ ذلك الدم وهو النفس المعبَّرُ عنه بالروح الحيواني، ففي كونِه طعاماً لأهل الجنة بشارةٌ بأنَّهم أحياء لا يموتون. وذكر أنَّه يُستخرج من الثور الطِّحَالُ، وهو في الحيوان بمنزلة الأوساخ في البدن، فإنَّه يجتمع فيه أوساخُ البدن ممَّا يعطيه البدنُ من الدم الفاسد، فيعطى لأهل النار يأكلونه، وكان ذلك من الثور؛ لأنَّه باردٌ يابسٌ كطبع الموت، وجهنَّمُ على صورة جاموس، والغذاءُ لأهل النار من طِحاله أشدُّ مناسبةً منه، فلِمَا فيه من الدميَّةِ لا يموت أهل النار، ولِمَا أنَّه من أوساخ البدن ومن الدمِ الفاسد المؤلم لا يحيَوْن ولا ينعمُون، فما يزيدُهم أكلُه إلَّا مرضاً وسقماً.

ونُقل عن الغزاليِّ ـ والعهدةُ على الناقل ـ أنَّه ﷺ سُئِل تارةً: ما تحت الأرض؟ فقال: الحوت. وسُئل أخرى فقال: الثور. وعنى عليه الصلاة والسلام بذلك البرجَيْن اللذين هما من البروج الاثني عشرَ المعلومة، وقد كان كلٌّ منهما وتدَ الأرض وقتَ السؤال، ولو كان الوتدُ إذ ذاك[4] العقربَ مثلاً؛ لقال عليه الصلاة والسلام: العقربُ تحت الأرض.

وأنت تعلم أنَّ ذلك بمعزل عن مقاصد الشارع ﷺ، ولا يتمُّ على ما وقفت عليه

---

(١) مثل قديم، ينظر جمهرة الأمثال ٢/ ١٦٢، والفرا: حمار الوحش.

(٢) أخرج أحمد (١١٠٦٦)، والبخاري (٤٧٣٠)، ومسلم (٢٨٤٩) من حديث أبي سعيد الخدري مرفوعاً: «يؤتى بالموت في هيئة كبش أملح..» اللفظ للبخاري.

(٣) ينظر الفتوحات المكية ١/ ٣١٦ ـ ٣١٧.

(٤) قوله: إذ ذاك، ليس في الأصل.

من أنَّ الأرض على متن الثور، والثور على متن[1] الحوت، والحوت على الماء. والقولُ بأنَّ المرادَ أنَّ الأرضَ فوق الثور باعتبار أنَّه وتدُها حين الإخبار، والثور فوق الحوت باعتبار أنَّه من البروج الشمالية والحوتُ من البروج الجنوبية، والبروجُ الشمالية في غالب المعمورة تُعَدُّ فوق البروج الجنوبية، والحوتُ فوق الماء باعتبار أنَّه ليس بينه وبينه حائلٌ يُرى = لا يُقدِمُ عليه إلَّا ثورٌ أو حمارٌ.

وبعضُهم يؤوِّل خبرَ الترتيب بأنَّ المرادَ منه الإشارةُ إلى أنَّ عمارةَ الأرض موقوفةٌ على الحراثة، وهي موقوفةٌ على السعي والاضطراب، وذلك الثورُ من مبادئ الحراثة، والحوتُ لا يكاد يَسْكُن عن الحركة في الماء، وهو كما ترى.

والذي ينبغي أن يعوَّلَ عليه الإيمانُ بما جاء عن رسول الله ﷺ إذا صحَّ، فليس وراءَه ـ عليه الصلاة والسلام ـ حكيمٌ، والترتيبُ الذي يذكره الفلاسفةُ لم يأتوا له ببرهانٍ مبين، وليس عندهم فيه سوى ما يفيدُ الظنَّ، وحينئذٍ فيمكن القول بترتيبٍ آخر. نعم لا ينبغي القول بترتيبٍ يكذبه الحسُّ ويأباه العقلُ الصريح، وإنْ جاء مثلُ ذلك عن الشارع وَجَبَ تأويلُه كما لا يخفى.

وذكر بعضُ الفضلاء أنَّه لم يجئ في ترتيب الأجرام العلويَّة والسفليَّة وشرحِ أحوالها كما فعل الفلاسفةُ عن الشارع ﷺ لِمَا أنَّ ذلك ليس من المسائل المهمَّة في نظرِه عليه الصلاةُ والسلام، وليس المهمُّ إلَّا التفكُّرُ فيها، والاستدلالُ بها على وحدة الصانع وكمالِه ـ جلَّ شأنُه ـ وهو حاصلٌ بما يُحَسُّ منها، فسبحان مَنْ رفعَ السماء بغير عَمَد ومدَّ الأرضَ وجعلَ فيها رواسي.

﴿وَأَنْهَٰرًا﴾ جمع: نهر، وهو: مجرى الماءِ الفائض، وتجمعُ أيضاً على: نُهُر ونُهور وأنْهُر، وتطلقُ على المياه السائلة على الأرض.

وضمّها إلى الجبال، وعلّق بهما فعلاً واحداً من حيثُ إنَّ الجبال سببٌ لتكوُّنها على ما قيل. وتُعقِّب بأنه مبنيٌّ على ما ذهب إليه بعضُ الفلاسفة من أنَّ الجبال لتركُّبها من أحجار صلبة إذا تصاعدت إليها الأبخرةُ احتبست فيها وتكاملت، فتنقلب مياهاً، وربَّما خرقَتْها فخرجت، وذُكِرَ أنَّ الذي تدلُّ عليه الآثار أنَّها تنزل من

---

(١) في (م): ظهر.

السماء، لكن لمَّا كان نزولُها عليها أكثرَ كانت كثيراً ما تخرج الأنهار منها، ويكفي هذا لتشريكهما في عاملٍ واحد وجعلِهما جملةً واحدةً، وكأنَّهم عَنَوا بالنزول مِن السماءِ على الجبال نزولَ ماءِ المطر من السماء التي هي أحدُ الأجرام العلويَّة عليها. والأكثرون أنَّ النزولَ من السحاب، والمرادَ من السماء جهة العلوِّ، وهو الذي تحكم به المشاهدةُ، وقد أسلفنا لك ما يتعلَّق بذلك أوَّل الكتاب، فتذكَّر.

والأنهار التي جعلَها الله تعالى في الأرض كثيرةٌ، وذكر بعضُهم أنَّها مئةٌ وستَّةٌ وتسعون نهراً، وقيل: هي أكثرُ من ذلك. وجاء في أربعة منها أنَّها من الجنَّة، ففي «صحيح» مسلم[1] عن أبي هريرةَ قال: قال رسول الله ﷺ: «سَيْحَانُ، وجَيْحَانُ، والفراتُ، والنِّيلُ، كلٌّ من أنهارِ الجنَّة». والأوَّلان بالألف بعد الحاء، وهما نهران في أرض الأرْمن، فجَيْحان: نهرُ المِصِّيصَة، وسَيْحان: نهر أذنة[2]. وقولُ الجوهريِّ في «صحاحه»[3]: جَيْحان: نهرٌ بالشام. غلطٌ، أو أنَّه أراد المجازَ من حيثُ إنَّه ببلاد الأرمن، وهي مجاورةٌ للشام. وهما غيرُ سَيْحون وجَيْحون بالواو، فإنَّ سَيْحون: نهرُ الهند، وهو يجري من جبالٍ بأقاصيها ممَّا يلي العين إلى أن ينصبَّ في البحر الحبشي ممَّا يلي ساحلَ الهند، ومقدارُ جريه أربع مئة فرسخ. وجَيْحون: نهرُ بَلخ يجري من أعين إلى أن يأتيَ خُوَارَزْم، فيتفرَّق بعضُه في أماكن ويمضي باقيه إلى البحيرة التي عليها القرية المعروفة بالجرجانية أسفلَ خُوَارَزْم، يجري منه إليها السفن، طولُها مسيرة شهر، وعرضُها نحو ذلك.

وأمَّا قولُ القاضي عياض: هذه الأنهارُ الأربعة أكبرُ أنهار بلاد الإسلام، فالنيل بمصرَ، والفرات بالعراق، وسَيْحان وجَيْحان، ويقال: سيحون وجيحون ببلاد خراسان[4]. فقد قال النوويُّ: إنَّ فيه إنكاراً من أوجه: أحدها: قوله: الفراتُ بالعراق. وليست بالعراق، وإنَّما هي فاصلةٌ بين الشام والجزيرة. والثاني: قوله: سَيْحان وجَيْحان، ويقال: سَيْحون وجَيْحون. فجعل الأسماءَ مترادفةً، وليس

---

(١) برقم (٢٨٣٩)، وهو عند أحمد (٧٨٨٦).

(٢) في الأصل و(م): أدنة، بالمهملة. والمثبت من: معجم ما استعجم، ومعجم البلدان (أذنة) وهي بلد من الثغور قرب المصيصة.

(٣) مادة (جحن).

(٤) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٨/ ٣٧٢.

كذلك، بل سَيْحان غيرُ سَيْحون، وجَيْحان غيرُ جَيْحون باتِّفاق الناس. والثالث: قوله: ببلاد خراسان. وإنَّما سَيْحان وجَيْحان ببلاد الأرمنِ بقرب الشام[١]. انتهى.

وقد يجاب عن الأول بنحو ما أُجيبَ به عن الجوهريِّ، ولا يخفى أنَّه بعد زعم الترادف يصحُّ الحكم بأنَّهما ببلاد خراسان، كما يصحُّ الحكم بأنَّهما ببلاد الأرمن.

وفي كون هذه الأنهارِ من الجنَّة تأويلان: الأول أنَّ المرادَ تشبيهُ مياهها بمياه الجنَّة، والإخبارُ بامتيازها على ما عداها، ومثلُه كثيرٌ في الكلام. والثاني: ما ذكره القاضي عياض[٢] أنَّ الإيمان عمَّ بلادَها، وأنَّ الأجسام المتغذِّية منها صائرةٌ إلى الجنَّة. وهذا ليس بشيء، ولو رُدَّ[٣] إلى اعتبار التشبيه، أي: أنَّها مثلُ أنهار الجنَّة في أنَّ المتغذِّين من مائها المؤمنون، لكان أوجه. وقال النوويُّ: الأصحُّ أنَّ الكلام على ظاهره، وأنَّ لها مادةً من الجنَّة، وهي موجودة اليوم عند أهل السُّنة[٤].

ويأبى التأويلَ الأول ما في «صحيح» مسلم أيضاً من حديث الإسراء: وحدَّث نبيُّ الله ﷺ أنَّه رأى أربعةَ أنهارٍ يخرجُ من أصلِها نهران ظاهران ونهران باطنان، «فقلت: يا جبريلُ ما هذه الأنهارُ؟ فقال: أمَّا النهران الباطنان فنهران في الجنَّة، وأمَّا الظاهران فالفراتُ والنيلُ»[٥]. وضميرُ: أصلها، لسدرةِ المنتهى، كما جاء مبيَّناً في «صحيح» البخاري[٦] وغيرِه.

والقاضي عياض قال هنا[٧]: إنَّ هذا الحديث يدلُّ على أنَّ أصل سدرةِ المنتهى في الأرض؛ لخروجِ النيل والفرات من أصلها. وتعقَّبه النوويُّ: بأنَّ ذلك ليس بلازم، بل معناه أنَّ الأنهار تخرج من أصلها، ثمَّ تسير حيثُ أراد الله تعالى حتى

---

(١) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٦ ـ ١٧٧.

(٢) في إكمال المعلم ٨/ ٣٧٢.

(٣) في الأصل: وقد يرد.

(٤) شرح صحيح مسلم ١٧/ ١٧٧، وعبارة النووي: والجنَّة مخلوقة موجودة اليوم عند أهل السنة.

(٥) صحيح مسلم (١٦٤) من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٦) برقم (٣٢٠٧)، وهو عند أحمد (١٧٨٣٣)، والنسائي ١/ ٢١٧ ـ ٢٢١ من حديث مالك بن صعصعة رضي الله عنه.

(٧) في إكمال المعلم ١/ ٥٠٣.

تخرجَ من الأرض وتسيرَ فيها، وهذا لا يمنعه عقلٌ ولا شرعٌ، وهو ظاهر الحديث، فوجبَ المصيرُ إليه[١]. قيل: ولعلَّ الله تعالى يوصلُ مياه هاتيك الأنهار بقدرته الباهرة إلى محالِّها التي يُشاهَدُ خروجُها منها من حيثُ لا يراها أحدٌ، وما ذلك على الله بعزيز.

والظاهرُ أنَّ المراد أصلُ مياهها الخارجة من محالِّها، لا هي وما ينضمُّ إليها من السيول وغيرها. وكأنّي أرى بعض الناس ـ آيسني[٢] ـ يلتزم ذلك في جميع ما يجري في هاتيك الأنهار، وبعضُهم أيضاً يجعل الأخبار في هذا الشأن إشاراتٍ إلى أمورٍ أنفسية فقط، وليس ممَّا ترتضيه الأنفس المَرْضيَّة. نعم أنا لا أمنع التأويلَ مع بقاء الأمر آفاقيًّا، وليس عدم اعتقاد الظاهر ممَّا يخلُّ بالدين، كما لا يخفى على من لا تعصُّبَ عنده.

وللأخباريين في هذه الأنهار كلامٌ طويل تمجُّه أسماعُ ذوي الألباب، ولا يجري في أنهار قلوبهم، ولا أراه يصلح إلَّا للإلقاء في البحر.

وجاء في بعض الأخبار مرفوعاً: «نهران مؤمنان ونهران كافران، أمَّا المؤمنان: فالنيل والفراتُ، وأمَّا الكافران: فدجلةُ وجَيْحون»[٣] وحُمِل ذلك على أنَّه ﷺ شبَّه النهريْن الأوَّلَيْن لنفعهما بسهولة بالمؤمن، والنهرين الأخيرين بالكافر لعدم نفعهما، كذلك فإنَّهما إنَّما يخرج ـ في الأكثر ـ ماؤُهما بآلةٍ ومشقَّةٍ، وإلَّا فوصفُ ذلك بالإيمان والكفر على الحقيقة غيرُ ظاهر، ثم إنَّ أفضلَ الأنهار ـ كما قال غيرُ واحد ـ النيلُ، وباقيها على السواء. وزادَ بعضُهم في عداد ما هو من الجنَّة: دجلةَ، وروى في ذلك خبراً عن مقاتل، عن عكرمةَ، عن ابن عباس ﵄[٤]. وليس ممَّا يعوَّل عليه، والله تعالى أعلم.

---

(١) شرح صحيح مسلم ٢/ ٢٢٤ ـ ٢٢٥.

(٢) كذا رسمت في الأصل و(م)، ولم نهتد إلى قراءة هذه الكلمة ولعلها ضرب عليها في الأصل.

(٣) أخرجه ابن العديم في بغية الطلب ١/ ٣٦٦ من حديث أبي هريرة ﵁، وفي إسناده عبد الله بن سعيد المقبري، وهو متروك، كما قال الحافظ ابن حجر في التقريب.

(٤) أخرجه ابن حبان في المجروحين ٣/ ٥٧، وابن عدي في الكامل ٦/ ٢٣١٦، والخطيب البغدادي ١/ ٥٧ ـ ٥٨ من طريق مسلمة بن عُليّ، عن مقاتل بن حيان، به مرفوعاً. ومسلمة

﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ﴾ متعلِّق بـ «جعل» في قوله تعالى: ﴿جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ أي: اثنينيَّة حقيقيَّة، وهما الفردان اللَّذان كلٌّ منهما زوجُ الآخر، وأكَّد به الزوجين لئلَّا يفهم أنَّ المراد بذلك الشفعان، إذ يطلق الزوج على الجميع(١)، لكن اثنينيَّة ذلك اعتباريَّة، أي: جعل من كلِّ نوع من أنواع الثمرات الموجودة في الدنيا ضربين وصنفين، إمَّا في اللَّون كالأبيض والأسود، أو في الطعم كالحلو والحامض، أو في القَدْر كالصغير والكبير، أو في الكيفيَّة كالحارِّ والبارد، وما أشبه ذلك.

وقيل: المعنى: خَلَق في الأرض من جميع أنواع الثمرات زوجَيْن زوجَيْن حين مدَّها، ثم تكاثرت بعد ذلك وتنوَّعت. وتُعقِّب بأنَّه دعوى بلا دليل مع أنَّ الظاهر خلافُه، فإنَّ النوع الناطق المحتاج إلى زوجين خَلَقَ ذَكَرَه أولاً فكيف في الثمرات، وتكوُّنُ واحدٍ من كلٍّ أولاً كافٍ في التكوُّن، والوجه ما ذُكر أولاً.

وجوِّز أن يتعلَّق الجارُّ بـ «جعل» الأول، ويكون الثاني استئنافاً لبيان كيفيَّة الجعل.

وزعم بعضُهم أنَّ المراد بالزوجين ـ على تقدير تعلُّق الجارِّ بـ «جعل» السابق ـ الشمسُ والقمر، وقيل: الليل والنهار. وكلا القولين ليس بشيء.

﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ أي: يلبسه مكانَه، فيصير الجوُّ مظلماً بعدما كان مضيئاً، ففيه إسنادُ ما لمكان الشيء إليه. وفي جعل الجوِّ مكاناً للنهار تجوُّزٌ؛ لأنَّ الزمان لا مكان له، والمكانُ إنَّما هو للضوء الذي هو(٢) لازمُه. وجوز في الآية استعارة كقوله تعالى: ﴿يُكَوِّرُ ٱلَّيْلَ عَلَى ٱلنَّهَارِ﴾ [الزمر: ٥]. بجعْلِه مغشيّاً للنهار ملفوفاً عليه كاللِّباس على الملبوس. قيل: والأول أوجهُ وأبلغ.

واكتفى بذكر تغشية اللَّيل النهارَ مع تحقُّقِ عكسه؛ للعلم به منه، مع أنَّ اللَّفظ يحتملهما إلَّا أنَّ التغشية بمعنى الستر، وهي أنسبُ باللَّيل من النهار. وعُدَّ هذا في

= هذا: متروك الحديث، قال عنه ابن عدي: كل أحاديثه أو عامتها غير محفوظ. وقال أيضاً بعد أن ساق الحديث وحديثاً آخر: وهذان الحديثان. . . . غير محفوظين، بل هما منكرا المتن.

(١) في (م): المجموع.

(٢) بعدها في الأصل: مكان.

تضاعيف الآيات السفلية، وإن كان تعلُّقه بالآيات العلوية ظاهراً باعتبار ظهوره في الأرض.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ وأبو بكر: «يُغشِّي» بالتشديد[١]، وقد تقدَّم تمام الكلام في ذلك[٢].

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ أي: فيما ذُكر من مدِّ الأرض، وجَعْلِ الرواسي عليها، وإجراءِ الأنهار فيها، وخلقِ الثمرات، وإغشاء الليلِ النهارَ، وفي الإشارة بذلك تنبيهٌ على عِظَم المشار إليه في بابه.

﴿لَآيَاتٍ﴾ باهرة. قيل: هي آثار تلك الأفاعيل البديعة جلَّت حكمةُ صانعها، فـ «في» على معناها، فإنَّ تلك الآثار مستقرَّةٌ في تلك الأفاعيل منوطة بها، وجوَّز أن يشارَ بذلك إلى تلك الآثارِ المدلول عليها بتلك الأفاعيل.

﴿لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ۝٣﴾ فإنَّ التفكُّرَ فيها يؤدِّي إلى الحكم بأنَّ تكوّن كلٍّ من ذلك على هذا النمط الرائق والأسلوب اللائق لابدَّ له من مكوِّنٍ قادرٍ حكيمٍ يفعلُ ما يشاء ويحكم ما يريد.

والفكرةُ ـ كما قال الراغب[٣] ـ قوَّةٌ مُطْرِقَة للعلم إلى المعلوم، والتفكُّر: جَوَلان تلك القوة بحسب نَظَرِ العقل، وذلك للإنسان دون الحيوان، ولا يقال إلَّا فيما[٤] يمكن أن يحصلَ له صورةٌ في القلب، ولهذا رُوي: «تفكَّروا في آلاء الله تعالى ولا تتفكَّروا في الله تعالى»[٥]. إذ كان الله سبحانه منزَّهاً أن يوصفَ بصورة.

وقال بعض الأدباء: الفكرُ مقلوبٌ عن الفَرْك، لكن يستعمل الفكر في المعاني وهو فركُ الأمور وبحثُها طلباً للوصول إلى حقيقتها. والمشهور أنَّه ترتيب أمور معلومة للتأدِّي إلى مجهول، وقد تقدَّم وجهُ جعل هذا مقطعاً في الآية.

---

(١) التيسير ص١١٠، والنشر ٢/ ٢٦٩.
(٢) ٨/ ١٣٧.
(٣) في المفردات (فكر).
(٤) بعدها في الأصل و(م): لا، والمثبت من المفردات (فكر).
(٥) سلف ٥/ ٢٠٨، وينظر الكلام عليه ثمة.

وذكر الإمام[١] أنَّ الأكثر في الآيات إذا ذُكِرَ فيها الدلائلُ الموجودة في العالم السفليِّ أن يُجعلَ مقطعُها (إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ) وما يقربُ منه، وسببُه أنَّ الفلاسفةَ يسندون حوادثَ العالم السفليِّ إلى الاختلافاتِ الواقعة في الإشكالات الكوكبيَّة، فردَّه الله تعالى بقوله: «لقومٍ يتفكَّرون» لأنَّ مَنْ تفكَّر فيها عَلِمَ أنَّه لا يجوز أن يكون حدوثُ تلك الحوادثِ من الاتِّصالات الفلكية. فتفكَّر.

﴿وَفِي ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ مشتملة على طائفةٍ أخرى من الآيات، أي: في الأرض بقاعٌ كثيرة مختلفة في الأوصاف، فمن طيِّبة مُنبتة، ومن سبخةٍ لا تُنبت، ومن رِخوة ومن صُلبة، ومن صالحةٍ للزَّرع لا للشجر، ومن صالحةٍ للشجر لا للزرع، إلى غير ذلك.

﴿مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ أي: متلاصقة، والمقصودُ الإخبار بتفاوت أجزاء الأرض المتلاصقة على الوجه الذي علمت، وهذا هو المأثور عن الأكثرين.

وأخرج أبو الشيخ عن قتادة أنَّ المعنى: وفي الأرض قرى قريبٌ بعضُها من بعض[٢]. وأخرج عن الحسن أنَّه فسَّر ذلك بالأهواز وفارس والكوفة والبصرة[٣]. ومن هنا قيل: في الآية اكتفاءٌ على حدِّ: ﴿سَرَٰبِيلَ تَقِيكُمُ ٱلْحَرَّ﴾ [النحل: ٨١] والمرادُ: قِطَعٌ متجاورات وغيرُ متجاورات.

وفي بعض المصاحف: «وقطعاً متجاوراتٍ» بالنصب[٤]، أي: وجعل في الأرض قطعاً.

﴿وَجَنَّٰتٌ﴾ أي: بساتين كثيرة ﴿مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: من أشجار الكرم ﴿وَزَرْعٌ﴾ من كلِّ نوعٍ من أنواع الحبوب، وإفرادُه لمراعاة أصله حيثُ كان مصدراً، ولعلَّ تقديم ذكر الجنَّات عليه مع كونه عمود المعاش، لِما أنَّ في صنعة الأعناب ممَّا يبهر العقول ما لا يخفى، ولو لم يكن فيها إلَّا أنَّها مياهٌ متجمِّدةٌ في ظروف رقيقة، حتى

(١) تفسير الرازي ١٩/٧.

(٢) الدر المنثور ٤/٤٣.

(٣) الدر المنثور ٤/٤٣.

(٤) قرأ بها الحسن، الإملاء ٣/٣٦٧، والإتحاف ص٣٣٨.

أنَّ منها شفافاً لا يحجب البصر عن إدراك ما في جوفه لكفى؛ ومن هنا جاء في بعض الأخبار القدسيَّة: «أتكفرون بي وأنا خالقُ العنب»(١). وفي «إرشاد العقل السليم»(٢) تعليلُ ذلك بظهور حال الجنَّات في اختلافها ومباينتها لسائرها ورسوخِ ذلك فيها.

وتأخيرُ قوله تعالى: ﴿وَنَخِيلٌ﴾ لئلَّا يقعَ بينها وبين صفتها ـ وهي قوله تعالى: ﴿صِنْوَانٌ وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ ـ فاصلةٌ، أو يطولَ الفصل بين المتعاطفين.

وصِنْوان جمعُ: صِنْو، وهو الفرع الذي يجمعُه وآخرَ أصلٌ واحدٌ، وأصله: المِثْلُ، ومنه قيل للعمِّ(٣): صِنْو.

وكسرُ الصاد في الجمع كالمفرد هو اللُّغة المشهورة، وبها قرأ الجمهور. ولغةُ تميم وقيس: «صُنْوان» بالضمِّ(٤)، كذِئْب وذُؤْبان، وبذلك قرأ زيدُ بن علي رضي الله عنهما والسُّلميُّ وابنُ مُصرِّف(٥)، ونقله الجعبريُ في «شرح الشاطبيَّة» عن حفص(٦). وقرأ الحسنُ وقتادةُ بالفتح(٧)، وهو على ذلك اسمُ جمع كالسَّعْدان(٨)، لا جمع تكسير؛ لأنَّه ليس من أبنيته. وقرأ الحسنُ: «جناتٍ» بالنصب(٩)، عطفاً عند بعضٍ على «زوجين» مفعول «جعل»، و«من كل الثمرات» حينئذٍ حالٌ مقدَّمةٌ لا صلة «جعل»؛ لفساد المعنى عليه، أي: جعل فيها زوجَيْن حال كونهما(١٠) من كلِّ الثمرات، وجناتٍ من أعناب. ولا يجب هنا تقييدُ المعطوف بقيد المعطوف عليه. وزعم

---

(١) سلف ٣/ ٤٥١، وقال عنه المصنف ثمة: لم أجده في كتاب يعوَّل عليه.
(٢) ٥/ ٥.
(٣) في الأصل: للصنم، وقد أخرج أحمد (٨٢٨٤)، ومسلم (٩٨٣)، وأبو داود (١٦٢٣)، والترمذي (٣٧٦١) من حديث أبي هريرة رضي الله عنه مرفوعاً: «.... إن عمَّ الرجل صِنْوُ أبيه».
(٤) المحتسب ١/ ٣٥١، والكشاف ٢/ ٣٤٩.
(٥) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب١/ ٣٥١، والبحر ٥/ ٣٦٣.
(٦) ينظر حاشية الشهاب ٥/ ٢٢٠.
(٧) المحتسب ١/ ٣٥١، والبحر ٥/ ٣٦٣.
(٨) السعدان: نبات ذو شوك، واحدته: سعدانة. اللسان (سعد).
(٩) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٦٣.
(١٠) في (م): كونه.

بعضُهم أنَّ العطف على «رواسي». وقال أبو حيان[1]: الأولى إضمارُ فعل؛ لِبعد ما بين المتعاطفَيْن. أو بالجرِّ عطفاً على «كل الثمرات» على أن يكون هو مفعولاً بزيادة «مِنْ» في الإثبات، و«زوجين اثنين» حالاً منه، والتقدير: وجعل فيها من كلٍّ الثمرات حالَ كونها صنفين.

فلعلَّ عدم نظم قوله تعالى: «وفي الأرض قطع متجاورات» في هذا السلك، مع أنَّ اختصاص كلٍّ من تلك القطع بما لها من الأحوال والصفاتِ بمحضِ خَلْق الخالقِ الحكيم ـ جلَّت قدرته ـ حين مدَّ الأرضَ ودحاها ـ على ما قيل ـ الإيماءُ إلى كون تلك الأحوال صفاتٍ راسخة لتلك القِطَع.

وقرأ جمعٌ من السبعة: «وزرعٍ ونخيلٍ» بالجرِّ[2]، على أنَّ العطفَ على «أعناب» وهو كما في «الكشف» من باب:

متقلِّداً سيفاً ورمحاً[3]

أو المراد: أنَّ في الجنات فُرجاً مزروعةً بين الأشجار، وإلَّا فلا يقال للمزروعة وحدَها: جنَّةٌ، وهذا أحسنُ منظراً وأنزه. وادَّعى أبو حيان[4] أنَّ في جعل الجنَّة من الأعناب تجوّزاً؛ لأنَّ الجنَّةَ في الحقيقة هي الأرضُ التي فيها الأعناب.

﴿يُسْقَىٰ﴾ أي: ما ذُكر من القِطَع والجنَّات والزرع والنخيل.

وقرأ أكثرُ السبعة بالتاء[5] مراعاة للَّفظ، وهي قراءة الحسن وأبي جعفر[6]. قيل:

---

(١) في البحر ٥/ ٣٦٣.

(٢) قرأ بها نافع وابن عامر وحمزة والكسائي وعاصم في رواية شعبة. التيسير ص١٣١، والنشر٢/ ٢٩٧.

(٣) عجز بيت لعبد الله بن الزبعرى، وصدره:

يا ليت زوجك قد غدا

وهو في ديوانه ص٣٢، وسلف ٧/ ٧١.

(٤) في البحر ٥/ ٣٦٣.

(٥) في (م): بالتأنيث، وهي قراءة العشرة ما عدا ابن عامر وعاصم ويعقوب. التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.

(٦) البحر ٥/ ٣٦٣، والإتحاف ص٣٣٨.

والأول أوفق بمقام بيان اتِّحاد الكلِّ في حالة السَّقْي.

﴿بِمَآءٖ وَٰحِدٖ﴾ لا اختلافَ في طبعه، سواءٌ كان السَّقْيُ من ماء الأمطار أو من ماء الأنهار، وقيل: إنَّ الثاني أوفقُ بقوله سبحانه: ﴿وَنُفَضِّلُ﴾ أي: مع وجود أسباب التشابه بمحض قدرتنا وإحساننا﴿بَعۡضَهَا عَلَىٰ بَعۡضٖ﴾ آخر منها ﴿فِي ٱلۡأُكُلِۚ﴾ لمكان التأنيث.

وأمال فتحةَ القاف حمزةُ والكسائيُّ[1].

و«الأُكُل» ـ بضمِّ الهمزة والكاف، وجاء تسكينُها ـ ما يُؤكل، وهو هنا: الثمر والحبُّ. وقولُ بعضهم: أي: في الثمر شكلاً وقدراً ورائحةً وطعماً. من باب التغليب.

وقرأ حمزةُ والكسائيُّ: «يُفضِّل» بالياء على بناء الفاعل[2]، رداً على «يدبِّر» و«يفصل» و«يغشى». وقرأ يحيى بنُ يَعْمَر ـ وهو أوَّلُ من نَقَطَ المصحف[3] ـ وأبو حيوة والحلبيُّ عن عبد الوارث: بالياء على بناء المفعول ورفع «بعضُها»[4]. وفيه ما لا يخفى من الفخامة والدلالة على أنَّ عدمَ احتمال استناد الفعل إلى فاعل آخرَ مُغنٍ عن بناء الفعل للفاعل.

﴿إِنَّ فِي ذَٰلِكَ﴾ الذي فصل من أحوال القطع وغيرها ﴿لَأٓيَٰتٖ﴾ كثيرة عظيمة باهرة ﴿لِّقَوۡمٖ يَعۡقِلُونَ ۝٤﴾ يعملون على قضية عقولهم، فإنَّ مَنْ عَقَلَ هاتيك الأحوالَ العجيبة، وخروجَ الثمار المختلفة في الأشكال والألوان والطعوم والروائح في تلك القطع المتباينة المتلاصقة مع اتِّحاد ما تُسقى به، بل وسائر أسباب نموِّها، لا يتلعثم في الجزم بأنَّ لذلك صانعاً حكيماً قادراً مدبِّراً لها لا يعجزه شيءٌ. وقيل: المراد: أنَّ مَنْ عَقَلَ ذلك لا يتوقَّف في الجزم بأنَّ مَنْ قدرَ على إبداع ما ذُكر قادرٌ على إعادة ما أبداه، بل هي أهونُ في القياس. ولعلَّ ما ذكرناه أولى.

(١) يعني من «يسقى». ينظر التيسير ص٤٦، والنشر ٢/ ٣٥ ـ ٣٦.
(٢) التيسير ص١٣١، والنشر ٢/ ٢٩٧.
(٣) ينظر معرفة القرّاء الكبار ١/ ١٦٢.
(٤) البحر ٥/ ٣٦٣.

ثمَّ إنَّ الأحوالَ وإن كانت هي الآياتِ أنفسها لا أنَّها فيها إلَّا أنها قد جرِّدت عنها أمثالَها مبالغةً في كونه آية، فـ «في» تجريديَّة، مثلُها في قوله تعالى: ﴿لَهُمْ فِيهَا دَارُ ٱلْخُلْدِ﴾ [فصلت: ٢٨] على المشهور. وجوِّز أن يكون المشارُ إليه الأحوالَ الكليَّةَ، والآياتُ أفرادُها الحادثة شيئاً فشيئاً في الأزمنة، وآحادُها الواقعة في الأقطار والأمكنة المشاهدة لأهلها، فـ «في» على معناها. ومنهم مَنْ فسَّر الآياتِ بالدلالات؛ لتبقى «في» على ذلك. وهو كما ترى، وحيثُ كانت دلالة هذه الأحوال على مدلولاتها أظهرَ ممَّا سبق علَّق سبحانه كونَها آياتٍ بمحض التعقُّل، كما قال أبو حيان وغيرُه[1]، ولذلك ـ على ما قيل ـ لم يتعرَّض ـ جلَّ شأنُه ـ لغير تفضيل بعضِها على بعض في الأُكُل الظاهر لكلِّ عاقل مع تحقُّق ذلك في الخواصِّ والكيفيات مما يتوقَّف العثورُ عليه على نوع تأمُّل وتفكُّر، كأنَّه لا حاجة إلى التفكُّر في ذلك أيضاً، وفيه تعريضٌ بأنَّ المشركين غيرُ عاقلين.

ولبعض الرُّجَّاز فيما تُشير إليه الآية:

والأرضُ فيها عِبرةٌ للمعتبر ... تُخبرُ عن صنعِ مَليكٍ مُقتدِر
تُسقى بماءٍ واحدٍ أشجارُها ... وبقعةٌ واحدةٌ قَرارُها
والشمسُ والهواءُ ليس يختلف ... وأكلُها مختلفٌ لا يأتلف
لو أنَّ ذا من عملِ الطَّبائع ... أو أنَّه صنعةُ غيرِ صانع
لم يختلفْ وكان شيئاً واحداً ... هل يشبه الأولادُ إلَّا الوالدا
الشمسُ والهواءُ يا معاندُ ... والماءُ والترابُ شيءٌ واحد
فما الذي أوجبَ ذا التفاضلا ... إلَّا حكيمٌ لم يردْه باطلاً

وأخرج ابنُ جرير[2]، عن الحسن في هذه الآية أنَّه قال: هذا مَثَلٌ ضربه الله تعالى لقلوب بني آدم، كانت الأرضُ في يد الرحمن طينةً واحدةً، فسطحها وبطحها، فصارت قِطَعاً متجاورةً، فينزلُ عليها الماءُ من السماء فتخرج هذه زهرتَها

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٦٤، وتفسير أبي السعود ٥/ ٥.

(٢) في تفسيره ١٣/ ٤٢٦.

وثمرَها وشجرها وتخرج نباتَها[١]، وتخرج هذه سَبَخها وملحَها وخَبَثها، وكلتاهما تسقى بماء واحد، فلو كان الماءُ ملحاً، قيل: إنَّما استسبخت هذه من قبل الماء. كذلك الناس خلقوا من آدمَ عليه السلام، فينزل عليهم من السماء تذكرة، فترقُّ قلوب فتخشعُ وتخضعُ، وتقسو قلوبٌ فتلهو وتسهو. ثم قال: واللهِ ما جالس القرآنَ أحدٌ إلَّا قام من عنده بزيادة أو نقصان، قال الله تعالى: ﴿وَنُنَزِّلُ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ مَا هُوَ شِفَآءٌ وَرَحْمَةٌ لِّلْمُؤْمِنِينَ وَلَا يَزِيدُ ٱلظَّٰلِمِينَ إِلَّا خَسَارًا﴾ [الإسراء: ٨٢]. اهـ.

قال أبو حيان[٢]: وهو شبيهٌ بكلام الصوفية.

﴿وَإِن تَعْجَبْ﴾ أي: إن يقعْ منك عجبٌ يا محمد ﴿فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ بعد مشاهدةِ الآيات الدالَّة على عظيم قدرته تعالى، أي: فَلْيكُن عجبُك من قولهم: ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا﴾ إلى آخره، فإنَّه الذي ينبغي أن يُتعجَّبَ منه.

ورفع «عجب» على أنَّه خبرٌ مقدَّمٌ، و«قولهم» مبتدأ مؤخَّر، وقدم الخبر؛ للقصر والتسجيل من أوَّل الأمر بكون قولهم أمراً عجيباً. وفي «البحر»[٣] أنَّه لا بدَّ من تقدير صفة لـ «عجب»؛ لأنَّه لا يتمكَّن المعنى بمطلق، فيقدَّر ـ والله تعالى أعلم ـ فعجبٌ أيُّ عجبٍ، أو فعجبٌ غريبٌ. وإذا قدَّرناه موصوفاً جاز أن يُعرب مبتدأً؛ للمسوِّغ وهو الوصف، ولا يضرُّ كونُ الخبرِ معرفةً، وذلك كما قال سيبويه في: كم مالك: إنَّ «كم» مبتدأ؛ لوجود المسوِّغ فيه وهو الاستفهام، وفي نحو: اقْصِدْ رجلاً خيرٌ منه أبوه: إنَّ «خير» مبتدأ؛ للمسوِّغ أيضاً، وهو العمل. ونقل أبو البقاء[٤] القول بأنَّ «عجب» بمعنى مُعْجِب، ثُّم قال: فعلى هذا يجوز أن يرتفعَ «قولهم» به. وتُعقِّب بأنَّه لا يجوز ذلك؛ لأنَّه لا يلزم من كون شيء بمعنى شيء أن يكون حكمُه في العمل حكمَه، فمعجِبٌ يعمل، و«عجب» لا يعمل، ألا ترى أنَّ فِعْلاً كذِبْح، وفَعَلاً[٥] كقَبَض، وفُعْلة كغُرْفة، بمعنى مفعول، ولا يعمل عمله، فلا تقول: مررت

---

(١) بعدها عند الطبري: وتحيي مواتَها.
(٢) في البحر ٥/ ٣٦٤.
(٣) ٥/ ٣٦٦.
(٤) في الإملاء ٣/ ٣٦٨.
(٥) في (م): فعلة.

برجل ذِبْحِ كبشُه، أو قَبَضٍ مالُه، أو غُرْفة ماؤه. بمعنى مذبوح كبشُه ومقبوض مالُه ومغروف ماؤُه. وقد نصُّوا على أنَّ هذه تنوب في الدلالة لا العمل عن المفعول. وحَصَر النحويون ما يرفع الفاعلَ في أشياءَ، ولم يعدُّوا المصدرَ إذا كان بمعنى اسم المفعول(١) منها.

والظاهر أنَّ «أئذا كنَّا» إلى آخره، في محلٍّ نصبِ مقول القول، محكيٌّ به، والاستفهامُ إنكاريٌّ مفيدٌ لكمال الاستبعاد والاستنكار. وجوز أن يكون في محلٍّ رفع على البدليَّة من «قولهم» على أنَّه بمعنى المقول، وهو على ما قال أبو حيان(٢): إعرابٌ متكلَّفٌ وعدولٌ عن الظاهر. وعليه فالعجب تكلُّمهم بذلك، وعلى الأول كلامهم ذلك.

والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه قوله تعالى: ﴿أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍۗ﴾ وهو: نُبعث أو نعاد.

والجديدُ: ضدُّ الخَلَق والبالي، ويقال: ثوبٌ جديد. أي: كما فُرغ من عمله. وهو فعيلٌ بمعنى مفعول، كأنَّه قطع من نسجه.

وتقديمُ الظرف؛ لتقوية الإنكار بالبعث بتوجيهه إليه في حالةٍ مُنافية له، وتكريرُ الهمزة في «أئنا» لتأكيد الإنكار، وليس مدارُ إنكارهم كونَهم ثابتين في الخلق الجديد بالفعل عند كونهم تراباً، بل كونهم بعرضيَّة ذلك واستعدادهم له، وفيه من الدلالة على عُتوِّهم وتماديهم في النَّكير ما لا يخفى.

قال أبو البقاء(٣): ولا يجوز أن تنتصب «إذا» بـ «كنَّا» لأنَّها مضافةٌ إليها، ولا بـ «جديد» لأنَّ ما بعد أن لا يعمل فيما قبلها. وكذا الاستفهام. وردَّ الأول في «المغني»(٤) بأنَّ «إذا» عند مَنْ يقول بأنَّ العامل فيها شرطُها ـ وهو المشهور ـ غيرُ مضافة، كما يقوله الجميع إذا جزمت، كما في قوله:

---

(١) في (م): الفاعل.
(٢) في البحر ٥/٣٦٦.
(٣) في الإملاء ٣/ ٣٧٠.
(٤) ص١٣٠ ـ ١٣١.

وإذا تُصِبْكَ خَصَاصَةٌ فتحمَّلِ[١]

قيل: فالوجه في ردِّ ذلك أنَّ عملَه فيها موقوفٌ على تعيين مدلولها، وتعيينُه ليس إلَّا بشرطها فيدور، ونظرَ فيه الشهاب[٢] بأنَّها عندهم بمنزلة «متى» و«أيَّان» غير معيَّنة بل مبهمة، كما ذكره القائلون به، وبه صرَّح في «المغني»[٣] أيضاً.

وقيل: معنى الآية: إنْ تَعجب يا محمد من قولهم في إنكار البعث، فقولُهم عجيبٌ حقيق أن يُتعجَّب منه.

وتعقَّبه في «البحر»[٤] بأنَّه ليس مدلول اللفظ؛ لأنَّه جعل فيه متعلّقَ عجبه ﷺ هو قولهم في إنكار البعث، وجوابُ الشرط هو ذلك القول، فيتَّحد الشرط والجزاء، إذ تقديرُه: إن تعجب من إنكارهم البعثَ فاعجب من قولهم في إنكار البعث. وهو غير صحيح.

وردَّ بأنَّ ذلك ممَّا اتَّحد فيه الشرط والجزاء صورةً، وتغايرا حقيقةً كما في قوله ﷺ: «من كانت هجرتُه إلى الله تعالى ورسوله، فهجرتُه إلى الله تعالى ورسوله»[٥]. وقولهم: من أدرك الصمَّان[٦] فقد أدرك المرعى. وهو أبلغ في الكلام، لأنَّ معناه أنَّه أمرٌ لا يكتنه كُنهه، ولا تُدرك حقيقته، وأنَّه أمر عظيم.

---

(١) هذا عجز بيت لعبد قيس بن خُفاف، وصدره:

واسْتَغْنِ ما أغناكَ ربُّكَ بالغنى

وهو في المفضليات ص٣٨٥، والأصمعيات ص٢٣٠، وفيهما: فتجمَّل، بالجيم، والمغني ص١٣١ وفيه: فتحمَّل، بالحاء المهملة. قال البغدادي في شرح أبيات المغني ٢/ ٢٦٢: وتجمَّل: إمّابالجيم، أي: أظهر الجمال وعدم الحاجة....، وإما بالحاء المهملة، أي: تكلَّف حمل هذه المشقة. قاله الدماميني. اهـ. والخصاصة: الفقر. القاموس (خصّ).

(٢) في حاشيته ٥/ ٢٢٠.

(٣) ص١٣٠.

(٤) ٥/ ٣٦٥.

(٥) أخرجه البخاري (٥٤)، ومسلم (١٩٠٧) من حديث عمر ﷺ، وسلف ٢/ ٤١٢.

(٦) الصَّمّان، بفتح الصاد وتشديد الميم: أرض غليظة دون الجبل، فيها قيعان واسعة ورياض معشبة، كانت لبني حنظلة، وقيل: هو جبل في أرض تميم أحمر ينقاد ثلاث ليال وليس له ارتفاع، وقيل غير ذلك. معجم البلدان (الصمان).

وذهب بعضٌ إلى أنَّ الخطاب في «إن تعجب» عامٌّ، والمعنى: إن تعجب يا مَنْ نظر ما في هذه الآيات، وعَلِمَ قدرةَ مَنْ هذه أفعالُه، فازدَدْ تعجُّباً ممن يُنكر ـ مع هذا ـ قدرتَه على البعث وهو أهون شيءٍ عليه. وقيل: المعنى: إنْ تجدَّدَ منك التعجُّبُ لإنكارهم البعثَ، فاستمرَّ عليه، فإنَّ إنكارهم ذلك من الأعاجيب. وقيل: المراد: إن كنت تريد أيُّها المريد عجباً، فَهَلُمَّ؛ فإنَّ من أعجب العجب إنكارَهم البعثَ.

واختلف القرَّاء في الاستفهامين ـ إذا اجتمعا ـ في أحدَ عشرَ موضعاً: هذا وفي «المؤمنين» و«العنكبوت» و«النمل» و«السجدة» و«الواقعة» و«النازعات» و«بني إسرائيل» في موضعين، وكذا في «الصافات».

فقرأ نافع والكسائي بجعل الأول استفهاماً والثاني خبراً، إلَّا في «العنكبوت» و«النمل» فعكسَ نافع. وجمع الكسائيُّ بين الاستفهامين في «العنكبوت» وأما في «النمل» فعلى أصله إلَّا أنَّه زاد نوناً.

وقرأ ابنُ عامر بجعل الأول خبراً والثاني استفهاماً إلَّا في «النمل» و«النازعات» فعكس، وزاد في «النمل» نوناً كالكسائي، وإلَّا في «الواقعة» فقرأ باستفهامين، وهي قراءة باقي السبعة في هذا الباب إلَّا ابنَ كثير وحفصاً فإنَّهما قرأا في «العنكبوت» بالخبر في الأول والاستفهام في الثاني، وهم على أصولهم في اجتماع الهمزتين من تخفيفٍ وتحقيقٍ وفصل بين الهمزتين[(١)].

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، والموصول خبره، أي: أولئك المنكرون للبعث ريثما عاينوا من آيات ربهم الكبرى ما يرشد إلى الإيمان لو كانوا يبصرون.

﴿ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِرَبِّهِمْ﴾ وتمادَوْا في ذلك، فإنَّ إنكار قدرته ـ عزَّ وجل ـ إنكارٌ له سبحانه؛ لأنَّ الإله لا يكون عاجزاً، مع ما في ذلك من تكذيبه ـ جلَّ شأنُه ـ وتكذيبِ رسله، المتَّفقون عليه عليهم السلام.

﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ مبتدأ، خبرُه جملة قوله تعالى: ﴿ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَاقِهِمْ﴾ وفيه احتمالان:

---

(١) التيسير ص١٣١ ـ ١٣٢، والنشر١/ ٣٧٢، وينظر الدر المصون ٧/ ١٧.

الأول: أن يكونَ المراد وصفَهم بذلك في الدنيا، فهو تشبيهٌ وتمثيلٌ لحالهم في امتناعهم عن الإيمان وعدمِ الالتفات إلى الحقِّ، بحال طائفةٍ في أعناقهم أغلالٌ وقيود لا يُمكنهم الالتفات معها، كقوله:

كيف الرَّشادُ وقد خُلِّفت في نفرٍ   لهم عن الرشدِ أغلالٌ وأقيادُ(١)

كأنَّه قيل: أولئك مقيَّدون بقيود الضلالة لا يُرجى خلاصهم.

الثاني: أن يكون المراد(٢) وصفَهم به في الآخرة.

والكلام إمَّا باقٍ على حقيقته كما قال سبحانه: ﴿إِذِ ٱلْأَغْلَٰلُ فِىٓ أَعْنَٰقِهِمْ وَٱلسَّلَٰسِلُ﴾ [غافر: ٧١]. ورُوي ذلك عن الحسن قال: إنَّ الأغلال لم تجعل في أعناق أهل النار؛ لأنَّهم أعجزوا الربَّ سبحانه، ولكنَّما جُعلت في أعناقهم؛ لكي إذا طَفا بهم اللَّهبُ أرستهم في(٢) النار. وإمَّا مُخرَجٌ مخرجَ التشبيه لحالهم بحال من يقدم للسياسة.

وقيل: المراد من الأغلال أعمالهم الفاسدة التي تقلَّدوها كالأغلال. وهو جارٍ على احتمال أن يكون ذلك في الدنيا أو في الآخرة. والأول ناظرٌ إلى ما قبل، والثاني إلى قوله تعالى: ﴿وَأُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: الموصوفون بما ذكر.

﴿أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ۝٥﴾ لا ينفكُّون عنها، قيل: وتوسيطُ الفصل ليس لتخصيص الخلود بمنكري البعث خاصَّةً، بل بالجميع المدلول عليه بقوله تعالى: «أولئك الذين كفروا بربهم».

وأورد على ذلك أنَّ «هم» ليس ضميرَ فصلٍ؛ لأنَّ شرطه أن يقع بين مبتدأ وخبر يكون اسماً معرفةً، أو مثل المعرفة في أنَّه لا يقبل حرف التعريف، كأفعل التفضيل، وهذا ليس كذلك؟

وأُجيب بأنَّ المراد بالفصل الضميرُ المنفصل، وأنَّه أتى به وجعل الخبر جملةً

---

(١) البيت للأفوه الأودي وهو في ديوانه ص١٠، والحماسة البصرية ٢/٦٩. ورواية الشطر الأول فيه:

كيف الرشاد إذا ما كنت من نفر

(٢) ليست في الأصل.

مع أنَّ الأصل فيه الإفرادُ؛ لقصد الحصر والتخصيص المذكور كما في: هو عارف.

وقال بعضهم: لعلَّ القائل بما ذُكر، لا يتبع النحاة في الاشتراط المذكور، كما أنَّ الجرجانيَّ والسهيليَّ[١] جوَّزا ذلك إذا كان الخبرُ مضارعاً واسمُ الفاعل مثله.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ﴾ بالعقوبة التي هُدِّدوا بها على الإصرار على الكفر استهزاءً وتكذيباً ﴿قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ أي: العافية والسلامة منها، والمرادُ بكونها قبلها: أنَّ سؤالَها قبل سؤالها، أو أنَّ سؤالَها قبل انقضاء الزمان المقدَّر لها.

وأخرج ابن جرير[٢] وغيرُه، عن قتادة أنَّه قال في الآية: هؤلاء مشركو العرب، استعجلوا بالشرِّ قبل الخير، فقالوا: ﴿اللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ الْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ السَّمَاءِ أَوِ ائْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [الأنفال: ٣٢].

﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ جمع: مَثُلَة، كسَمُرة وسَمُرَات، وهي: العقوبة الفاضحة. وفسَّرها ابن عباس ﷺ بالعقوبة المستأصِلة للعضو، كقطع الأذن ونحوه، سمِّيت بها لما بين العقاب والمعاقَب به من المماثلة، كقوله تعالى: ﴿وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا﴾ [الشورى: ٤٠] أو هي مأخوذةٌ من المثال بمعنى القِصاص، يقال: أَمْثَلْت الرجلَ من صاحبه وأقصصته، بمعنىً واحدٍ، أو هي من المَثَل المضروب؛ لعِظَمِها.

والجملة في موضع الحال؛ لبيان ركاكة رأيهم في الاستعجال بطريق الاستهزاء، أي: يستعجلونك بذلك مستهزئين بإنذارك، منكرين لوقوع ما أنذرتهم إياه، والحال أنَّه قد مضت العقوباتُ الفاضحة النازلة على أمثالهم من المكذِّبين المستهزئين.

وقرأ مجاهد والأعمش: «المَثَلات» بفتح الميم والثاء[٣]. وعيسى بن عمر ـ وفي روايةٍ: الأعمشُ وأبو بكر ـ بضمِّهما[٤]، وهو لغةٌ أصلية، ويحتمل أنه أتبع فيه

(١) كما في حاشية الشهاب ٥/ ٢٢١.
(٢) في تفسيره ١٣/ ٤٣٥ ـ ٤٣٦.
(٣) الكشاف ٢/ ٣٥٠ (دون نسبة)، والبحر ٥/ ٣٦٦.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٦٦.

العين للفاء. وابنُ وثَّاب بضمِّ الميم وسكون الثاء(١)، وهي لغة تميم. وابنُ مصرِّف بفتح الميم وسكون الثاء(٢)، وهي لغة الحجازيين.

﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ﴾ عظيمةٍ ﴿لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم بالذنوب والمعاصي.

والجارُّ والمجرور في موضع الحال من الناس، والعاملُ فيها هو العامل في صاحبها وهو «مغفرة»، أي: إنَّه تعالى لغفورٌ للناس مع كونهم ظالمين.

قيل: والآية ظاهرة في مذهب أهل السنَّة، وهو جواز مغفرة الكبائر والصغائر بدون توبة؛ لأنَّه سبحانه ذكرَ المغفرة مع الظلم، أي: الذنب، ولا يكون معه إلَّا قبل التوبة؛ لأنَّ التائب من الذنب كمن لا ذنب له.

وأوَّلَ ذلك المعتزلةُ بأنَّ المراد مغفرةُ الصغائر لمجتنب الكبائر، أو مغفرتُها لمن تاب، أو المراد بالمغفرة معناها اللُّغوي: وهو السترُ، بالإمهال وتأخير العقاب إلى الآخرة، كأنه قيل: إنَّه تعالى لا يعجِّلُ للناس العقوبةَ وإن كانوا ظالمين، بل يستر عليهم بتأخيرها.

واعتُرض التأويل بالتخصيص، بأنَّه تخصيصٌ للعامِّ من غير دليل. وأجيب بأنَّ الكفر قد خُصَّ بالإجماع، فيسري التخصيصُ إلى ذلك.

وتعقب الأخير بأنَّه في غاية البعد؛ لأنه ـ كما قال الإمام(٣) ـ لا يسمَّى مثلُه مغفرةً، وإلَّا لصحَّ أن يقال: الكفار مغفورون. وردَّ بأن المغفرةَ حقيقتُها في اللغة: الستر. وكونهم مغفورين بمعنى مؤخَّرٌ عذابُهم إلى الآخرة؛ لا محذور فيه، وهو المناسب لاستعجالهم العذاب. وأُجيب بأنَّ المراد أنَّ ذلك مخالفٌ للظاهر ولاستعمال القرآن.

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٣.

(٢) نسبها في القراءات الشاذة ص٦٦ ليحيى بن وثاب، ونسبها ابن جني في المحتسب ١/ ٣٥٣ لعيسى الثقفي وطلحة بن سليمان وللأعمش عن يحيى بن وثاب، ونسبها أبو حيان في البحر ٥/ ٣٦٦ لابن مصرف.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ١٢.

وذكر العلَّامة الطِّيبي أنَّه يجب تأويلُ الآية بأحد الأوجه الثلاثة؛ لأنَّها بظاهرها كالحثِّ على الظلم؛ لأنَّه سبحانه وعدَ المغفرة البالغة مع وجود الظلم.

وتعقَّب ذلك في «الكشف» فقال: فيه نظر؛ لأنَّ الأسلوب يدلُّ على أنَّه تعالى بليغُ المغفرة لهم مع استحقاقهم لخلافها؛ لتلبُّسهم بما العقابُ أولى بهم عنده.

والظاهر أنَّ التأويل بناء على مذهب الاعتزال. وأمَّا على مذهب أهل السنَّة فإنَّما[1] يؤوَّل لو عمَّ الظلم الكفر، ثم قال: والتأويل بالستر والإمهال أحسن، فيكون قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ۞﴾ لتحقيق الوعيد بهم، وإن كانوا تحت ستره وإمهاله، ففيه إشارةٌ إلى أنَّ ذلك إمهال لا إهمال. والمراد بالناس إمَّا المعهودون، وهم المستعجلون المذكورون قبلُ، أو الجنس؛ دلالةً على كثرة الهالكين لتناولهم وأضرابهم، وهذا جارٍ على المذهبين، وكذا اختار الطيبي هذا التأويل وقال: هو الوجه.

والآية على وزان قوله تعالى: ﴿قُلْ أَنزَلَهُ ٱلَّذِى يَعْلَمُ ٱلسِّرَّ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ غَفُورًا رَّحِيمًا﴾ [الفرقان:٦] على ما ذكره الزمخشري في «تفسيره»[2] وأنت قد سمعت ما له وما عليه، فتدبَّر.

واختار غيرُ واحدٍ إرادة الجنس من الناس، وهو مرادٌ أيضاً في «شديد العقاب».

والتخصيص بالكفَّار غيرُ مختار، ويؤيّد ذلك ما أخرجه ابن أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن سعيد بن المسيَّب قال: لمَّا نزلت هذه الآية: «وإنَّ ربك».. إلخ، قال رسول الله ﷺ: «لولا عفوُ الله تعالى وتجاوزه، ما هنأ أحداً العيشُ، ولولا وعيدُه وعقابه لاتَّكل كلُّ أحد»[3].

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ وهم المستعجلون، كما رُوي عن قتادة، وكأنَّه إنَّما عبَّر عنهم بذلك نعياً عليهم كفرَهم بآيات الله تعالى التي تخرُّ لها صمُّ الجبال، حيثُ لم

---

(١) في الأصل: فإنه.

(٢) ٣/ ٨٢.

(٣) ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٤، وهو مرسل.

يرفعوا لها رأساً، ولم يعدُّوها من جنس الآيات، وقالوا: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ مثلُ آيات موسى وعيسى عليهما السلام، من قلب العصا حيَّة، وإحياءِ الموتى، عِناداً أو مُكابرةً، وإلَّا ففي أدنى آيةٍ أُنزلت عليه ـ عليه الصلاة والسلام ـ غُنيةٌ وعِبرةٌ لأولي الألباب.

والتعبير بالمضارع استحضاراً للحال الماضية، وجوز أن يكون إشارةً إلى أنَّ ذلك القول ديدنُهم.

وتنوين «آيةٌ» للتعظيم، وجُوِّز أن يكون للوَحْدة.

﴿إِنَّمَآ أَنتَ مُنذِرٌ﴾ مُرسَلٌ للإنذار من سوء عاقبة ما نهى الله تعالى عنه، كدأبِ من قبلك من الرسل، وليس عليك إلَّا الإتيان بما يُعلم به نبوَّتُك، وقد حصل بما لا مَزيد عليه، ولا حاجة إلى إلزامهم وإلقامهم الحجرَ بالإتيان بما اقترحوه.

﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ ۝٧﴾ أي: نبيٌّ داعٍ إلى الحقِّ، مرشدٌ إليه بآية تَليقُ به وبزمانه. والتنكير للإبهام، ورُوي هذا عن قتادة أيضاً ومجاهد.

وعليه فقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ استئنافٌ، جواباً عن سؤال من يقول: لماذا لم يُجابوا إلى المقترَح، فتنقطعَ حُجَّتهم ولعلَّهم يهتدون؟ بأنَّ ذلك أمرٌ مدبَّرٌ ببالغ العلم ونافذ القدرة لا عن الجُزاف واتِّباع آرائهم السخاف.

وجوز أن يراد بالهادي هو الله تعالى، ورُوي ذلك عن ابن عباس والضحاك وابن جبير، فالتنوينُ فيه للتفخيم والتعظيم، وتوجيه الآية على ذلك: أنَّهم لما أنكروا الآيات عناداً؛ لكفرهم الناشئ عن التقليد، ولم يتدبَّروا الآيات قيل: إنما أنت منذرٌ لا هادٍ، مثبتٌ للآيات[1] في صدورهم، صادٌّ لهم عن جحودهم، فإنَّ ذلك إلى الله تعالى وحده وهو سبحانه القادر وحدَه[2] عليه.

وعلى هذا قيل: يجوز أن يكون قوله سبحانه: «الله» خبرَ مبتدأ محذوف، أي: هو الله، ويكون ذلك تفسيراً لـ «هاد»، و«يعلم» جملة مقرِّرة لاستقلاله تعالى بالهداية كالعلَّة لذلك، ويجوز أن يكون جملة «الله يعلم» مقرِّرة، ويكون من باب

---

(١) في (م): للإيمان.

(٢) قوله: وحده، ليس في (م).

إقامة الظاهر مقام المضمر، كأنَّه هو تعالى يعلم - أي - ذلك الهادي، والأول بعيد جداً.

وأخرج ابن مردويه، عن ابن عباس، وابنُ جرير، عن عكرمة وأبي الضحى: أنَّ المنذر والهادي هو رسولُ الله ﷺ(١).

ووجه ذلك بأنَّ «هاد» عطف على «منذر»، و«لكل قوم» متعلق به، قدِّم عليه للفاصلة.

وفي ذلك دليل على عموم رسالته ﷺ وشمول دعوته. وفيه الفصل بين المعطوف والمعطوف عليه بالجارِّ والمجرور، والنحويون في جوازه مختلفون.

وقد يجعل «هاد» خبر مبتدأ مقدَّر، أي: وهو هادٍ، أو: وأنت هادٍ، وعلى الأول فيه التفات. وقال أبو العالية: الهادي: العمل. وقال علي بن عيسى: هو السابق إلى الهدى، ولكلٍّ قوم سابقٌ سبقهم إلى الهدى. قال أبو حيان(٢): وهذا يرجعُ إلى أنَّ الهادي هو النبيُّ؛ لأنَّه الذي يسبق إلى ذلك. وعن أبي صالح أنَّه القائد إلى الخير أو إلى الشرِّ. والكلُّ كما ترى.

وقالت الشيعة: إنه عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وروَوْا ذلك في أخبار كثيرة(٣)، وذكر ذلك القشيريُّ منا.

وأخرج ابن جرير، وابن مردويه، والديلميُّ، وابنُ عساكر، عن ابن عباس قال: لمَّا نزلت «إنما أنت منذر» الآية، وضع رسولُ الله ﷺ يدَه على صدره فقال: «أنا المنذر». وأومأ بيدِه إلى مَنْكِبِ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، فقال: «أنت الهادي يا عليُّ، بك يهتدي المهتدون من بعدي»(٤). وأخرج عبدُ الله بن أحمد في «زوائد المسند»، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الأوسط»، والحاكم

---

(١) الطبري في تفسيره ١٣/٤٣٨، وفيه: عن عكرمة ومنصور عن أبي الضحى.

(٢) ذكر أبو حيان هذا القول في البحر المحيط ٥/٣٦٨ ونسبه لعيسى بن عمر.

(٣) في (م): في ذلك أخباراً.

(٤) ابن جرير في تفسيره ١٣/٤٤٢، ٤٤٣، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/٣٥٩.
قال ابن كثير عنه عند تفسير هذه الآية: وهذا الحديث فيه نكارة شديدة.

وصحَّحه، وابن عساكر أيضاً، عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّه قال في الآية: رسولُ الله ﷺ المنذرُ، وأنا الهادي. وفي لفظٍ: الهادي: رجلٌ من بني هاشم[١] ـ يعني نفسه ـ.

واستدلَّ بذلك الشيعةُ على خلافة عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه بعدَ رسول الله ﷺ بلا فصل. وأجيب بأنَّا لا نسلِّم صحَّة الخبر، وتصحيحُ الحاكم محكومٌ عليه بعدم الاعتبار عند أهل الأثر، وليس في الآية دلالةٌ على ما تضمَّنه بوجهٍ من الوجوه، على أنَّ قصارى ما فيه كونه ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ به يهتدي المهتدون بعد رسول الله ﷺ، وذلك لا يستدعي إلَّا إثباتَ مرتبة الإرشاد، وهو أمرٌ والخلافةُ التي نقول بها أمرٌ، لا تلازم بينهما عندنا.

وقال بعضهم: إنْ صحَّ الخبر يلزم القول بصحَّة خلافة الثلاثة ﷺ، حيثُ دلَّ على أنَّه ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ على الحقِّ فيما يأتي ويذر، وأنه الذي يُهتدى به، وهو قد بايع أولئك الخلفاء طوعاً ومدحهم وأثنى عليهم خيراً ولم يَطعُن في خلافتهم، فينبغي الاقتداءُ به والجريُ على سننه في ذلك، ودون إثبات خلاف ما أظهر خَرْط القَتاد.

وقال أبو حيان[٢]: إنه ﷺ على فَرْض صحَّة الرواية، إنَّما جعل عليّاً كرَّم الله تعالى وجهه مثالاً من علماء الأُمة وهداتها إلى الدين، فكأنَّه عليه الصلاة والسلام قال: يا عليُّ، هذا وصفك. فيدخل الخلفاء الثلاث وسائر علماء الصحابة ﷺ بل وسائر علماء الأمة، وعليه فيكون معنى الآية: إنَّما أنت منذرٌ ولكلِّ قومٍ في القديم والحديث إلى ما شاء الله تعالى هداةٌ دعاة إلى الخير. اهـ.

وظاهره أنه لم يحمل تقديم المعمول[٣] في خبر ابن عباس ﷺ على الحصر الحقيقي، وحينئذٍ لا مانع من القول بكثرة من يُهتدى به، ويؤيِّد عدمَ الحصر ما جاء

---

(١) مسند أحمد (١٠٤١)، وتفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٥، والأوسط (١٣٦١)، والمستدرك ٣/ ١٢٩ـ١٣٠، وابن عساكر في تاريخ دمشق ٤٢/ ٣٥٩.
وتعقَّب الذهبيُّ تصحيحَ الحاكم فقال: بل كذب، قبَّح الله واضعه.

(٢) في البحر ٥/ ٣٦٨.

(٣) في الأصل: المحمول.

عندنا من قوله ﷺ: «اقتدُوا باللَّذين من بعدي: أبي بكرٍ وعمرَ»[١] وأخبار أُخَر متضمنة لإثبات من يهتدى به غير عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه.

وأنا أظنُّك لا تلتفت إلى التأويل ولا تعبأ بما قيل وتكتفي بمنع صحَّة الخبر، وتقول: ليس في الآية ممَّا يدل عليه عين ولا أثر.

هذا، و«ما» يحتمل أن تكون مصدرية، أي: يعلم حملَ كلِّ أُنثى من أيِّ الإناث كانت. والحمل على هذا بمعنى المحمول. وأن تكون موصولةً والعائد محذوف، أي: الذي تحمله في بطنها من حينِ العلوق إلى زمن الولادة، لا بعدَ تكامل الخلق فقط. وجوز أن تكون نكرةً موصوفةً. و«يعلم» قيل: متعدِّية إلى واحد، فهي عرفانية. ونُظر فيه بأنَّ المعرفةَ لا يصحُّ استعمالها في علم الله تعالى وهو ناشئٌ من عدم المعرفة بتحقيق ذلك، وقد تقدَّم[٢]. وجوز أن تكون استفهاميةً معلّقة لـ «يعلم»[٣]، وهي مبتدأ أو مفعول مقدَّم، والجملة سادَّةٌ مسدَّ المفعولين، أي: يعلم أيَّ شيءٍ تحمل.

وعلى أيِّ حالٍ هو من الأحوال المتواردة عليه طوراً فطوراً، ولا يخفى أنَّ هذا خلاف الظاهر المتبادر.

وكما جوز في «ما» هذه هذه الأوجهُ، جوّزت في «ما» بعدَها أيضاً.

ووجه مناسبة الآية لما قبلها قد عُلم ممَّا سبق، وقيل: وجهها أنَّه لما تقدَّم إنكارهم البعثَ، وكان من شُبَهِهم تفرُّقُ الأجزاء واختلاطُ بعضها ببعض بحيث لا يتهيَّأ الامتياز بينها، نبَّه سبحانه بهذه الآية على إحاطة علمه ـ جلَّ شأنه ـ إزاحةً لشبهتهم. وقيل: وجهها أنَّهم لما استعجلوا بالسيئة، نبَّه عزَّ وجل على إحاطة علمه تعالى ليفيد أنَّه ـ جلَّت حكمته ـ إنَّما يُنزل العذاب حسبما يعلم من المصلحة والحكمة.

وفي مصحف أُبيٍّ ومرَّ ما قيل في نظيره ـ: «ما تحملُ كلُّ أنثى وما تضعُ»[٤].

---

(١) أخرجه أحمد (٢٣٢٤٥)، والترمذي (٣٦٦٢) من حديث حذيفة رضي الله عنه، وقال الترمذي: هذا حديث حسن.

(٢) في سورة الأنفال، الآية (٦٠).

(٣) في الأصل: بيعلم.

(٤) البحر ٥/٣٦٩.

﴿وَمَا تَغِيضُ ٱلۡأَرۡحَامُ وَمَا تَزۡدَادُۖ﴾ أي: ما تنقصه وما تزداده في الجثَّة: كالخديج[١] والتامِّ، ورُوي ذلك عن ابن عباس.

وفي المدَّة: كالمولود في أقلِّ مدَّة الحمل، والمولود في أكثرها وفيما بينهما، وهو رواية أخرى عن الحبر. قيل: إنَّ الضحاك ولد لسنتين، وإنَّ هَرِمَ بن حيَّان لأربع، ومن ذلك سُمِّي: هَرِماً. وإلى كون أقصى مدَّة الحمل أربعَ سنين ذهب الشافعيُّ، وعند مالك أقصاها خمسٌ، وعند الإمام أبي حنيفة رضي الله عنه أقصاها سنتان، وهو المرويُّ عن عائشة رضي الله عنها، فقد أخرج ابنُ جرير عنها: لا يكون الحملُ أكثرَ من سنتين، قدْرَ ما تتحرَّك فَلْكةُ مِغْزل[٢].

وفي العدد: كالواحد فما فوق، قيل: ونهاية ما عرف أربعة، فإنَّه يُروى أنَّ شَريك بن عبد الله بن أبي نَمِر[٣] القرشيَّ كان رابع أربعةٍ، وهو الذي وقف عليه إمامنا الأعظم رضي الله عنه. وقال الشافعيُّ عليه الرحمة: أخبرني شيخٌ باليمن أنَّ امرأته ولدت بطوناً في كلِّ بطن خمسةٌ. وهذا من النوادر، وقد اتَّفق مثله، لكن ما زاد على اثنين ـ لضعفه ـ لا يعيش إلَّا نادراً. وما يحكى أنه وُلد لبعضهم أربعون في بطن واحدة، كلٌّ منهم مثل الإصبع، وأنَّهم عاشوا كلُّهم، فالظاهر أنه كذب.

وقيل: المراد نقصانُ دم الحيض وازديادُه، ورُوي ذلك عن جماعة، وفيه جعل الدم في الرحم كالماء في الأرض، يغيضُ تارةً ويظهر أُخرى.

وغاض جاء متعدِّياً ولازماً، كنقص، وكذا ازداد، وهو مما اتَّفق عليه أهل اللغة[٤]، فإن جعلتهما لازمَيْن لا يجوز أن تكون «ما» موصولةً أو موصوفة؛ لعدم العائد.

---

(١) الخداج: إلقاء الناقة ولدها قبل تمام الأيام. وأخدجت الناقة: جاءت بولد ناقص وإن كانت أيامه تامة. القاموس (خدج).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٤٥٠. وفيه: قدر ما يتحول ظل مغزل. وفَلْكة المغزل: القطعة المستديرة من الخشب ونحوه تجعل في أعلاه. المعجم الوسيط (فلك).

(٣) في الأصل و(م): نمير، والمثبت من سير أعلام النبلاء ٦/ ١٥٩.

(٤) لسان العرب (غيض).

وإسنادُ الفعلين كيفما كانا إلى الأرحام فإنَّهما على اللزوم لما فيهما، وعلى التعدِّي لله جلَّ شأنه وعَظُمَ سلطانه.

﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الأشياء ﴿عِندَهُۥ﴾ سبحانه ﴿بِمِقْدَارٍ ۝٨﴾ بقدر، لا يُجاوزه ولا ينقص عنه، كقوله تعالى: ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَٰهُ بِقَدَرٍ﴾ [القمر: ٤٩] فإنَّ كلَّ حادث من الأعراض والجواهر له في كل مرتبة من مراتب التكوين ومباديها وقتٌ معيَّن وحالٌ مخصوص لا يكاد يجاوزه، ولعلَّ حال المعدوم معلومٌ بالدلالة إذا قلنا: إنَّ الشيء هو الموجود.

و«عنده» ظرف متعلِّق بمحذوف، وقع صفة لـ «كل» أو لـ «شيء»، و«بمقدار» خبر «كل»، وجوز أن يكون الظرف متعلِّقاً بمحذوف وقع حالاً من «مقدار»، وهو في الأصل صفة له، لكنه لما قُدِّم أعرب حالاً؛ وفاءً بالقاعدة. وأن يكون ظرفاً لما يتعلَّق به الجارُّ.

والمراد بالعنديَّة الحضور العلميُّ، بل العلم الحضوريُّ على ما قيل، فإنَّ تحقق الأشياء في أنفسها[١] في أيِّ مرتبة كانت من مراتب الوجود، والاستعداد لذلك علم بالنسبة إليه تعالى، وقيل: معنى «عنده» في حكمه.

﴿عَٰلِمُ ٱلْغَيْبِ﴾ أي: الغائب عن الحسِّ ﴿وَٱلشَّهَٰدَةِ﴾ أي: الحاضر له، عبَّر عنهما بهما مبالغةً.

وأخرج ابن أبي حاتم[٢]، عن ابن عباس أنَّ الغيبَ السِّرُّ، والشهادةَ العلانيةُ. وقيل: الأول المعدوم والثاني الموجود.

ونُقل عن بعضهم أنَّه قال: إنَّه سبحانه لا يعلم الغيب. على معنى أنْ لا غيبَ بالنسبة إليه ـ جلَّ شأنه ـ والمعدومات مشهودةٌ له تعالى، بناءً على القول برؤية المعدوم، كما برهن عليه الكورانيُّ في رسالة أَلَّفها لذلك[٣].

---

(١) قوله: في أنفسها. ليس في الأصل.

(٢) في تفسيره ٧/ ٢٢٢٨.

(٣) هو الشيخ إبراهيم بن الحسن الكُوراني، (ت ١١٠١ هـ)، وسلفت ترجمته. ولعلّ الرسالة اسمها «جلاء الفهوم في رؤية المعدوم» كما سيذكره المصنف عند تفسير الآية (٤٠) من سورة النمل، حيث ذكر اسمها مختصراً، وذكر اسمها كاملاً إسماعيل باشا البغدادي في ذيل كشف الظنون ٢/ ٣٦٣ لكن دون عزوٍ إلى مؤلف.

ولا يخفى ما في ذلك من مزيد الجسارة على الله تعالى، والمصادمة لقوله جلَّ شأنه: «عالم الغيب»، ولا ينبغي لمسلم أن يتفوَّه بمثل هذه الكلمة التي تقشعرُّ من سماعها أبدانُ المؤمنين، نسأل الله تعالى أن يوفِّقَنا للوقوف عند حدِّنا، ويمنَّ علينا بحسن الأدب معه سبحانه.

ورفعُ «عالم» على أنَّه خبر مبتدأ محذوف، أو خبرٌ بعد خبر.

وقرأ زيد بن عليٍّ ﷺ: «عالمَ» بالنصب على المدح[1]، وهذا الكلامُ كالدليل على ما قبله من قوله تعالى: «الله يعلم». . إلخ.

﴿ٱلْكَبِيرُ﴾ العظيمُ الشأن الذي كلُّ شيءٍ دونه ﴿ٱلْمُتَعَالِ ﴿٩﴾﴾ المستعلي على كلِّ شيءٍ في ذاته وعلمه وسائر صفاته سبحانه، وجوز أن يكون المعنى: الكبيرُ الذي يَجِلُّ عمَّا نعته به الخلْقُ من صفات المخلوقين ويتعالى عنه، فعلى الأول المرادُ تنزيهُه ـ سبحانه ـ في ذاته وصفاته عن مداناة شيءٍ منه، وعلى هذا: المراد تنزيهه تعالى عمَّا وصفَه الكفرةُ به، فهو ردٌّ لهم، كقوله جلَّ شأنه: ﴿سُبْحَٰنَ ٱللَّهِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [المؤمنون: ٩١].

قال العلَّامة الطيبيُّ: إنَّ معنى: «الكبير المتعال» بالنسبة إلى مردوفه ـ وهو «عالم الغيب والشهادة» ـ هو العظيمُ الشأن، الذي يكبر عن صفات المخلوقين، ليضمَّ مع العلم العظمةَ والقدرةَ بالنظر إلى ما سبق من قوله تعالى: «ما تحمل كل أنثى» إلى آخر ما يفيد التنزيهَ عمَّا يزعمه النصارى والمشركون.

ورفع «الكبير» على أنَّه خبرٌ بعد خبر، وجوز أن يكون «عالم» مبتدأ وهو خبرُه.

﴿سَوَآءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ ٱلْقَوْلَ﴾ أي[2]: أخفاه في نفسه ولم يتلفَّظ به، وقيل: تلفَّظ به بحيثُ يُسمع[3] نفسَه دون غيره ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِۦ﴾ من يقابل ذلك بالمعنيَيْن ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ﴾ أي[4]: مبالغٌ في الاختفاء، كأنَّه مختفٍ ﴿بِٱلَّيْلِ﴾ وطالب للزيادة ﴿وَسَارِبٌۢ بِٱلنَّهَارِ ﴿١٠﴾﴾ أي: ظاهرٌ فيه، كما رُوي عن ابن عباس.

---

(١) البحر ٥/ ٣٧٠.
(٢) ليست في (م).
(٣) في (م): لم يسمع، وهو خطأ.
(٤) ليست في (م).

وهو ـ على ما قال جمعٌ ـ في الأصل اسمُ فاعل، من سَرَبَ، إذا ذهب في سَرْبه، أي: طريقه، ويكون بمعنى: تصرف كيف شاء، قال الشاعر[١]:

أنَّى سَربتِ وكنتِ غيرَ سَروبِ وتُقرِّبُ الأحلامُ غيرَ قريبِ

وقال الآخر[٢]:

وكلُّ أناسٍ قارَبُوا قَيْدَ فَحْلِهم ونحن خلَعْنَا قيْدَه فهو سارِبُ

أي: فهو متصرِّفٌ كيف شاء، لا يُدفع عن جهة، يفتخر بعزة قومه. فما ذكره الحبر لازم معناه، وقرينتُه وقوعه في مقابلة «مستخفٍ»، والظاهرُ من كلام بعضهم أنَّه حقيقةٌ في الظاهر.

ورفع «سواء» على أنَّه خبرٌ مقدم، و«من» مبتدأ مؤخَّر. ولم يثنّ الخبرَ؛ لأنَّه في الأصل مصدرٌ، وهو الآن بمعنى مستوٍ، ولم يجئ تثنيتُه في أشهر اللغات، وحكى أبو زيد: هما سواآن. و«منكم» حالٌ من الضمير المُستتر فيه، لا في «أسرَّ» و«جهر» لأنَّ ما في حيِّز الصلة والصفة لا يتقدَّم على الموصول والموصوف.

وجوَّز أبو حيان[٣] كون «سواء» مبتدأ؛ لوصفه بـ «منكم»، وما بعده الخبرُ. وكذا أعرب سيبويه[٤] قولَ العرب: سواءٌ عليه الخيرُ والشرُّ.

وقولُ ابنِ عطية[٥]: إنَّ سيبويه ضعَّفَ ذلك بأنه ابتداءٌ بنكرة، لا يصحُّ.

---

(١) هو قيس بن الخَطيم، والبيت في ديوانه ص٥٥، ولسان العرب (سرب). ويروى أيضاً: سريت، بالياء.

(٢) وهو الأخنس بن شهاب التغلبي، شاعر جاهلي قديم، والبيت في إصلاح المنطق ص٢٢٥، والمفضليات ص٢٠٨، وصدره فيها:

أرى كل قوم قاربوا قيد فحلهم

قال السيرافي في شرح أبيات إصلاح المنطق ص٣٧٨: يعني بالفحل هاهنا السيد. يقول: كل أناس غيرنا لم يتركوا رئيسهم وسيدهم أن يفارقهم ويبعد عنهم، خشية عليه من القتل، ونحن لعزِّنا لا يجترئ أحد على سيدنا وإن كان وحده بعيداً عنا.

(٣) في البحر ٥/ ٣٧٠.

(٤) الكتاب ٢/ ٢٤ ـ ٢٦.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٢٩٩.

و «سارب» عطف على «من» كأنه قيل: سواءٌ منكم إنسانٌ هو مستخفٍ وآخرُ ساربٌ.

والنكتة في زيادة «هو» في الأول أنَّه الدالُّ على كمال العلم، فناسب زيادةَ تحقيق، وهو النكتة في حذف الموصوف عن «سارب» أيضاً، والوجهُ في تقديم «أسرَّ» وإعماله في صريح القول على «جهر به»[1] وإعماله في ضميره.

وجوِّز أن يكون على «مستخفٍ»، واستُشكل بأنَّ سواء يقتضي ذكرَ شيئين، فإذا كان «سارب» معطوفاً على جزء الصلة أو الصفة، لا يكون هناك إلَّا شيءٌ واحد، ولا يجيء هذا على الأول؛ لأنَّ المعنى ما علمت.

وأجيب بأنَّ «من» عبارة عن الاثنين كما في قوله:

تعشَّ فإنْ عاهدْتَني لا تَخونُني نكنْ مثلَ مَنْ يا ذئبُ يَصْطحِبانِ[2]

فكأنَّه قيل: سواءٌ منكم اثنان، مستخفٍ بالليل وساربٌ بالنهار.

قال في «الكشف»: وعلى الوجهين «من» موصوفةٌ لا موصولة، فيحمل الأوليان أيضاً[3] على ذلك؛ ليتوافق الكلُّ، وإيثارُها على الموصولة دلالةٌ على أنَّ المقصودَ الوصفُ، فإنَّ ذلك متعلّق العلم. وأمَّا لو قيل: سواءٌ الذي أسرَّ القول والذي جهر به، فإن أريد الجنسُ من باب:

ولقد أمُرُّ على اللَّئيمِ يَسُبُّني[4]

---

(١) في (م): جهره.

(٢) البيت للفرزدق، وهو في ديوانه ٢/ ٣٢٩، والكتاب ٢/ ٤١٦، والكامل ١/ ٤٧٣. وجاء في (م) والكتاب: تعال.

(٣) ليست في الأصل.

(٤) صدر بيت لرجل من بني سَلول، كما ذكر ذلك سيبويه في الكتاب ٣/ ٢٤، والبغدادي في الخزانة ١/ ٣٥٧ ـ ٣٥٨، ونسبه الأصمعي في الأصمعيات ص١٢٦ إلى شَمِر بن عمرو الحنفي، أحد شعراء بني حنيفة باليمامة، وجاء عنده: مررت، بدل: أمر. وعجز البيت:

فمضيتُ ثُمَّتَ قلتُ لا يعنيني

وأورده أيضاً المبرد في الكامل ٢/ ٩٨٣ ولم ينسبه، وجاء عجز البيت عنده:

فأجوز ثمَّ أقول لا يعنيني

فهو والأول سواءٌ، لكنَّ الأول نصٌّ. وإن أريد المعهود حقيقةً أو تقديراً، لزم إيهامُ خلاف المقصود لما مرَّ. وقيل: في الكلام موصولٌ محذوف، والتقدير: ومن هو ساربٌ، كقول أبي فراس[1]:

فليتَ الَّذي بيني وبينكَ عامرٌ وبيني وبينَ العالمينَ خَرابُ

وقول حسان:

أَمَنْ يَهْجُو رَسُولَ الله مِنكُمْ وَيَمْدحُه وَيَنْصرُه سَواءُ[2]

وهو ضعيفٌ جدّاً؛ لما فيه من حذف الموصول مع صدر الصلة، وقد ادَّعى الزمخشريُّ أنَّ أحد الحذفَيْن سائغٌ، لكنَّ اجتماعَهما منكرٌ من المنكرات، بخلاف البيتين[3].

وقال أبو حيان[4]: إنَّ حذف «من» هنا ـ وإن كان للعلم به ـ لا يجوز عند البصريين، ويجوز عند الكوفيين. وزعم بعضُهم أنَّ المقصود استواءُ الحالتين، سواءٌ كانتا لواحدٍ أو لاثنين، والمعنى: سواءٌ استخفاؤه وسروبُه بالنسبة إلى علم الله تعالى، فلا حاجة إلى توجيه الآية بما مرَّ، وكذا حال ما تقدَّمه، فعبَّر بأسلوبين والمقصودُ واحد.

وتُعقِّب بأنه لا تساعده العربية؛ لأنَّ «من» لا تكون مصدرية، ولا سابكَ في الكلام.

وزعم ابن عطية[5] جوازَ أن تكون الآيةُ متضمِّنةً ثلاثة أصناف: فالذي يسرُّ طرف، والذي يجهر طرف مضادٌّ للأول، والثالث متلوِّن يعصي بالليل مستخفياً ويظهر البراءة بالنهار. وهو كما ترى. ومن الغريب ما نُقل عن الأخفش وقُطْرب[6]

(١) ديوانه ص٢٤.
(٢) البيت في ديوانه ص٦٤. وفيه: فمن، بدل: أمن.
(٣) ينظر الانتصاف بحاشية الكشاف ٢/ ٣٥١.
(٤) البحر ٥/ ٣٧٠.
(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٠.
(٦) ينظر البحر ٥/ ٣٧٠.

تفسير المستخفي بالظاهر، فإنَّه وإن كان موجوداً في كلامهم بهذا المعنى، لكن يمنع عنه في الآية ما يمنع، ثمَّ إنَّ في بيان علمه تعالى بما ذكر بعد بيان شمول علمه سبحانه الأشياءَ كلِّها ما لا يخفى من الاعتناء بذلك.

﴿لَهُۥ﴾ الضمير راجع إلى من تقدَّم ممن أسرَّ بالقول وجهر به إلى آخره، باعتبار تأويله بالمذكور وإجرائه مجرى اسم الإشارة، وكذا المذكورة بعده.

﴿مُعَقِّبَٰتٌ﴾ ملائكةٌ تَعْتقب في حفظه وكلاءته. جمع: مُعقِّبة، من عقَّب مبالغةً في عَقِبه، إذ جاء على عقبه، وأصله من العَقِب وهو مؤخَّر الرِّجل، ثم تجوّز به عن كون الفعل بغير فاصلٍ ومهلةٍ كأنَّ أحدَهم يطأ عَقِبَ الآخر، فالتفعيل للتكثير فهو إمَّا في الفاعل أو في الفعل، لا للتعدية؛ لأنَّ ثلاثيَّهُ متعدٍّ بنفسه، ويجوز أن يكون إطلاق المعقِّبات على الملائكة عليهم السلام باعتبار أنَّهم يعقبون أقوالَ الشخص وأفعالَه، أي: يتبعونها ويحفظونها بالكتابة.

وقال الزمخشريُّ[1]: إنَّ أصله معتقبات، فهو من باب الافتعال، فأُدغمت التاء في القاف كقوله تعالى: ﴿وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ﴾ [التوبة: ٩٠] أي: المعتذرون.

وتُعقِّب بأنَّه وهم فاحش، فإنَّ التاء لا تُدغم في القاف من كلمة أو كلمتين، وقد نصَّ الصرفيون على أنَّ القاف والكاف كلٌّ منهما يدغم[2] في الآخر، ولا يدغمان في غيرهما.

والتاء في معقِّبة؛ للمبالغة، كتاء نسَّابة؛ لأنَّ الملائكةَ عليهم السلام غيرُ مؤنَّثين، وقيل: هي للتأنيث، بمعنى أنَّ معقِّبة صفةُ جماعة منهم، فمعنى معقِّبات: جماعاتٌ كلٌّ جماعة منها معقِّبة.

وليس معقِّبة جمعُ معقِّب، وذكر الطبريُّ[3] أنَّه جمعُه، وشبَّه ذلك برجل ورجال ورجالات، وهو كما ترى، لكن أوَّله أبو حيان[4] بأنَّه أراد بقوله: جمع معقِّب. أنَّه

(١) في الكشاف ٢/ ٣٥٢.

(٢) قبلها في الأصل و(م): لا، ولعله سبق قلم من المصنف رحمه الله. والمثبت من البحر ٥/ ٣٧١، والدر المصون ٧/ ٢٧، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢٥ ومنه نقل المصنف.

(٣) في تفسيره ١٣/ ٤٥٦.

(٤) في البحر ٥/ ٣٧١.

أُطلق من حيثُ الاستعمالُ على جمع معقِّب، وإن كان أصله أنْ يطلق على مؤنث معقِّب، فصار مثل: الواردة، للجماعة الذين يردون، وإن كان أصله أن يطلق على مؤنَّث وارد، وتشبيه ذلك بما ذُكر من حيثُ المعنى لا من حيثُ صناعةُ النحو، فبيَّن أنَّ معقِّبة من حيثُ أُريد به الجمع، كرجال من حيثُ وُضع للجمع، وأنَّ معقِّبات من حيثُ استُعمل جمعاً لمعقِّبة المستعمل في الجمع، كرجالات الذي هو جمع رجال.

وقرأ أُبيٌّ وإبراهيم: «معاقيب»[١]، وهو جمع ـ كما قال الزمخشريُّ[٢] ـ جمع معقِّب أو معقِّبة، بتشديد القاف فيهما، والياء عوض من حذف إحدى القافين في التكسير. وقال ابن جنيّ: إنَّه تكسير مُعْقِب، كمُطْعِم ومطاعيم، ومُقْدِم ومقاديم، كأنَّه جمع على مَعاقِبة، ثمَّ حذفت الهاء من الجمع وعوِّضت الياء عنها. ولعلَّه الأظهرُ[٣].

وقرئ: «معتقبات»[٤] من اعتقب.

﴿مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ﴾ متعلِّقٌ بمحذوفٍ وقعَ صفة لمعقِّبات، أو حالاً من الضمير في الظرف الواقع خبراً له، فالمعنى: أنَّ المعقِّباتِ محيطةٌ بجميع جوانبه. أو هو متعلِّق بـ «معقِّبات»، و«من» لابتداء الغاية، فالمعنى: أنَّ المعقِّبات تحفظ ما قدَّم وأخَّر من الأعمال. أي: تحفظ جميع أعماله. وجوّز أن يكون متعلِّقاً بقوله تعالى: ﴿يَحۡفَظُونَهُۥ﴾، والجملة صفة «معقِّبات»، أو حالٌ من الضمير في الظرف.

وقرأ أبيٌّ: «مِنْ بين يَدَيْه ورقيبٌ مِنْ خَلْفه»[٥]، وابنُ عباس: «ورقباءُ مِنْ خَلْفه»، وروى مجاهدٌ عنه أنَّه قرأ: «له معقِّباتٌ مِنْ خلفه ورقيبٌ مِنْ بين يَدَيْه يحفظُونَه»[٦].

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٦ ونسبها لزياد بن أبي سفيان، والمحتسب ١/ ٣٥٥ ونسبها لعبيد الله بن زياد، ونسبها لأُبيّ وإبراهيم أبو حيان في البحر ٥/ ٣٧٢.

(٢) في الكشاف ٢/ ٣٥٢.

(٣) المحتسب ١/ ٣٥٥، وينظر البحر المحيط ٥/ ٣٧٢، والدر المصون ٧/ ٢٨، وحاشية الشهاب ٥/ ٢٢٥.

(٤) البحر ٥/ ٣٧٢.

(٥) الطبري ١٣/ ٤٥٩، والبحر ٥/ ٣٧٢.

(٦) البحر ٥/ ٣٧٢، قال أبو حيان بعد ذكر هذه القراءات: وينبغي حمل هذه القراءات على التفسير، لا أنها قرآن؛ لمخالفتها سواد المصحف الذي أجمع عليه المسلمون.

﴿مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ﴾ متعلِّقٌ بما عنده، و«من» للسببية، أي: يحفظونه من المضارِّ بسبب أمر الله تعالى لهم بذلك، ويؤيِّدُ ذلك أنَّ علياً كرَّم الله تعالى وجهه وابنَ عباس رضي الله عنهما وزيدَ بن علي وجعفر بن محمد وعكرمة رضي الله عنهم قرؤوا: «بأمر الله» بالباء[١]، وهي ظاهرة في السببية.

وجوز أن يتعلَّق بذلك أيضاً، لكن على معنى: يحفظونه من بأسه تعالى متى أذنب، بالاستمهال أو الاستغفار له، أي: يحفظونه باستدعائهم من الله تعالى أن يمهلَه ويؤخِّرَ عقابه؛ ليتوب أو يطلبون من الله تعالى أن يغفرَ له ولا يعذبه أصلاً، وقال في «البحر»[٢]: إنَّ معنى الكلام يصير على هذا الوجه إلى التضمين، أي: يدعون له بالحفظ من نقمات الله تعالى.

وقال الفرَّاء[٣] وجماعة: في الكلام تقديمٌ وتأخير، أي: له معقِّباتٌ من أمر الله يحفظونه من بين يديه ومن خلفه. وروي هذا عن مجاهد والنخعي وابن جُريج. فيكون «من أمر الله» متعلِّقاً بمحذوف وقع صفة لـ «معقِّبات»، أي: كائنة من أمره تعالى.

وقيل: إنَّه لا يحتاج في هذا المعنى إلى دعوى تقديم وتأخير، بأن يقال: إنَّه سبحانه وصف المعقِّبات بثلاث صفاتٍ:

إحداها: كونُها كائنةً من بين يديه ومن خلفه. وثانيتها: كونُها حافظةً له. وثالثتها: كونُها كائنةً من أمره سبحانه.

وإن جُعل «من بين يديه» متعلِّقاً بـ «يحفظونه» يكون هناك صفتان، الجملةُ والجارُّ والمجرور. وتقديمُ الوصف بالجملة على الوصف به سائغ شائع في الفصيح، وكأنَّ الوصف بالجملة الدالَّة على الديمومة في الحفظ؛ لكونه آكدُ، قُدِّم على الوصف الآخر.

وأخرج ابن أبي حاتم، وابنُ جرير، وأبو الشيخ، عن ابن عباس: أنَّ المرادَ

(١) المحتسب ١/ ٣٥٥، والبحر ٥/ ٣٧٢.
(٢) ٥/ ٣٧٢.
(٣) في معاني القرآن ٢/ ٦٠.

بالمعقِّبات الحرسُ الذين يتَّخذهم الأمراء لحفظهم من القتل ونحوه(١). ورُوي مثله عن عكرمة.

ومعنى «يحفظونه من أمر الله» أنَّهم يحفظونه من قضاء الله تعالى وقدره، ويدفعون عنه ذلك في توهُّمه؛ لجهله بالله تعالى. ويجوز أن يكون من باب الاستعارة التهكُّمية، على حدِّ ما اشتَهر في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١]. فهو مستعارٌ لضدِّه، وحقيقتُه لا يحفظونه. وعلى ذلك يخرَّج قولُ بعضهم: إنَّ المراد لا يحفظونه، لا على أنَّ هناك نفياً مقدَّراً كما يُتوهَّم.

والأكثرون على أنَّ المرادَ بالمعقِّبات الملائكةُ، وفي الصحيح: «يتعاقَبُ فيكم ملائكةٌ باللَّيلِ وملائكةٌ بالنَّهار، ويجتمعون في صَلاة الصُّبحِ وصَلاة العصرِ»(٢) وذكروا أنَّ مع العبد غيرَ الملائكة الكرام الكاتبين ملائكةً حفظةً، فقد أخرج أبو داود، وابن المنذر، وابن أبي الدنيا، وغيرُهم، عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه قال: لكلِّ عبدٍ حفظةٌ يحفظونه، لا يخرُّ عليه حائطٌ، أو يتردَّى في بئر، أو تُصيبُه دابَّةٌ، حتى إذا جاء القدَرُ الذي قُدِّر له، خلت عنه الحفظةُ، فأصابَه ما شاء الله تعالى أن يُصيبَه(٣).

وأخرجَ ابنُ أبي الدنيا، والطبرانيُّ، والصابونيُّ(٤)، عن أبي أُمامة قال: قال رسول الله ﷺ: «وُكِّل بالمؤمن ثلاث مئة وستُّون مَلَكاً، يدفعون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك للبصر سبعةُ أملاكٍ يذبُّون عنه كما يُذَبُّ عن قصعةِ العسل من الذباب في اليوم الصائف، وما لو بدا لكم لرأيتموه على كلِّ سهلٍ وجبلٍ، كلُّهم باسطٌ يديه فاغرٌ فاه، وما لو وُكِّل العبدُ فيه إلى نفسِه طرفَةَ عينٍ لاختطفَتْه الشياطينُ»(٥).

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٢٩ ـ ٢٢٣٠، وتفسير ابن جرير ١٣/ ٤٦٠.

(٢) أخرجه البخاري (٥٥٥)، ومسلم (٦٣٢)، وهو عند أحمد (٧٤٩١) من حديث أبي هريرة ﷺ.

(٣) أخرجه أبو داود في القدر كما في الدر المنثور ٤/ ٤٨.

(٤) هو: إسماعيل بن عبد الرحمن، أبو عثمان، النيسابوري، المفسِّر، المحدِّث، توفي سنة (٤٤٩هـ). «سير أعلام النبلاء» ١٨/ ٤٠.

(٥) الطبراني في الكبير (٧٧٠٤)، وفيه: «وكل بالمؤمن تسعون ومئة ملك، يذبون عنه ما لم يقدر عليه، من ذلك النفر تسعة أملاك يذبون عنه كما يُذَّب عن قصعة العسل...». وذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٨، ومنه نقل المؤلف.

وأخرج ابنُ جرير(١)، عن كِنانة العَدَويّ(٢) قال: دخل عثمانُ رضي الله عنه على رسول الله ﷺ فقال: يا رسولَ الله، أخبرني عن العبدِ، كم معه من مَلَك؟ فقال: «مَلَكٌ عن يمينِك على حسناتِك، وهو أميرٌ(٣) على الذي على الشمال، إذا عملتَ حسنةً، كُتبتْ عشراً، فإذا عملتَ سيئةً، قال الذي على الشمال للذي على اليمين: أأكتبُ؟ قال: لا، لعلَّه يستغفرُ الله تعالى ويتوبُ. فإذا قال ثلاثاً، قال: نعم، اكتُب أراحنا الله تعالى منه، فبئسَ القرينُ، ما أقلَّ مراقبتَه لله سبحانه، وأقلَّ استحياءَه منه تعالى(٤)، يقولُ الله جلَّ وعلا: ﴿مَّا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلَّا لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾ [ق:١٨] ومَلَكان من بينِ يديك، ومَلَكان من خلفك، يقول الله تعالى: (لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِۦ يَحْفَظُونَهُۥ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ) ومَلَك قابضٌ على ناصيتِكَ، فإذا تواضعتَ لله تعالى رفعكَ، وإذا تجبَّرتَ على الله تعالى قصمَكَ(٥)، ومَلَك قائمٌ على فيك، لا يَدَعُ أن تدخلَ الحيةُ فيه، ومَلَكان على عينِكَ، فهؤلاء عشرَةُ أملاكٍ ينزلون على كلِّ بني آدم في النهار وينزل مثلُهم في الليل»(٦). والأخبار في هذا البابِ كثيرةٌ.

واستُشكل أمر الحفظ بأنَّ المقدَّرَ لا بدَّ من أن يكون، وغيرَ المقدَّرِ لا يكون أبداً، فالحفظُ من أيِّ شيء؟.

وأُجيب بأنَّ من القضاء والقدر ما هو معلَّقٌ فيكون الحفظ منه، ولهذا حَسُن تعاطي الأسباب، وإلَّا فمثل ذلك واردٌ فيها، بأن يقال: إنَّ الأمر الذي نُريد أن نتعاطاه إمَّا أن يكون مقدَّراً وجودُه فلا بدَّ أن يكون، أو مقدَّراً عدمُه فلابدَّ أن لا يكون، فما الفائدةُ في تعاطيه والتَّشبُّثِ بأسبابه؟. وتُعقِّب هذا بأنَّ ما ذكر

---

(١) في تفسيره ١٣/ ٤٥٧.

(٢) هو كنانة بن نُعيم العدَوي، أبو بكر البصري، تابعي ثقة، ذكره ابن سعد في الطبقة الثانية من أهل البصرة. طبقات ابن سعد ٧/ ٢٢٧، وتهذيب الكمال ٢٤/ ٢٢٧.

(٣) جاءت عند الطبري: وهو أمين، وهي كذلك في الدر المنثور ٤/ ٤٨، وجاءت في بعض طبعات تفسير ابن كثير: آمر.

(٤) قوله: منه تعالى، ليس في الأصل، وجاءت عند الطبري: منَّا.

(٥) جاء بعدها في المصادر: «وملكان على شفتيك، ليس يحفظان عليك إلا الصلاة على النبي».

(٦) ذكره ابن كثير عند تفسير هذه الآية، وقال: حديث غريب جداً.

إنَّما حسن منَّا؛ لجهلنا بأنَّ ما نطلبه من المعلَّق أو من غيرِه، والمسألةُ المستشكلة ليست كذلك، وأنت تعلم أنَّ الله تعالى جعل في المحسوساتِ أسباباً محسوسةً، وربط بها مسبّباتِها حسبما تقضيه حكمتُه الباهرة، ولو شاء لأوجدَ المُسبّبات من غير أسباب؛ لغناه ـ جلَّ شأنه ـ الذاتي، ولا مانع من أن يجعلَ الأمور الغير المحسوسة أسباباً يربط بها المُسببات كذلك، وحينئذ يقال: إنَّه ـ جلَّت عظمتُه ـ جعل أولئك الحفظَة أسباباً للحفظ، كما جعل في المحسوس ـ نحوَ الجَفْن للعين ـ سبباً لحفظها، مع أنَّه ليس سبباً إلَّا للحفظ ممَّا لم يبرم من قضائهِ وقدره جلَّ جلالُه، والوقوفُ على الحِكَم بأعيانِها ممَّا لم نُكلَّف به، والعلمُ بأنَّ أفعالَه تعالى لا تخلو عن الحِكَم والمصالحِ على الإجمال ممَّا يكفي المؤمن.

ويقال نحوُ هذا في أمر الكرام الكاتبين، فهم موجودون بالنصِّ، وقد جعلهم الله تعالى حَفَظةً لأعمال العبدِ، كاتبين لها، ونحن نؤمن بذلك وإن لم نعلم ما قلمُهم ولا مدادُهم وما قرطاسُهم وكيف كتابتهم وأين محلُّهم وما حكمةُ ذلك؟ مع أنَّ علمَه تعالى كافٍ في الثواب والعقاب عليها، وكذا تذكُّر الإنسان لها وعلمُه بها يومَ القيامة كافٍ في دفع ما عسى أن يختلجَ في صدره عند معاينةِ ما يترتَّبُ عليها. ومن الناس من خاضَ في بيان الحكمة، وهو أسهلُ من بيان ما معها.

وذكر الإمامُ الرازيُّ[(١)] في جواب السؤال عن فائدة جعلِ الملائكة ـ عليهم السلام ـ موكَّلين علينا كلاماً طويلاً، فقال: اعلم أنَّ ذلك غيرُ مستبعد؛ لأنَّ المنجِّمين اتَّفقوا على أنَّ التدبير في كلِّ يوم لكوكب على حدة، وكذا القول في كلِّ ليلة، ولا شكَّ أنَّ لتلك الكواكب أرواحاً عندهم، فتلك التدبيراتُ المختلفة لتلك الأرواح في الحقيقة، وكذا القول في تدبير الهيلاج والكدخداه[(٢)] على ما يقولون. وأمَّا أصحاب الطِّلَّسْمات فهذا الكلامُ مشهورٌ على ألسنتهم فإنَّهم يقولون: أخبرنا الطباع التامُّ بكذا. ومرادهم به أنَّ لكلِّ إنسان روحاً فلكيَّةً تتولى صلاحَ مهماتِه ودفعَ

(١) في تفسيره ١٩/١٩ ـ ٢٠ بنحوه.

(٢) الهيلاج والكدخداه من مصطلحات علم النجوم الذي يعرف به تأثيرات النجوم في السفليات مع دلالتها، والهيلاج عبارة عن دليل العمر، والكدخداه ـ ويقال له: الرابي ـ هو المستولي على موضع الهيلاج. معجم مقاليد العلوم ص١٧٠.

بلياته وآفاته، وإذا كان هذا متفقاً عليه بين قدماء الفلاسفة وأصحاب الأحكام، فكيف يستبعد مجيئه في الشرع؟. وتمام التحقيق فيه أنَّ الأرواحَ البشرية مختلفةٌ في جواهرها وطبائعها، فبعضُها خيِّرةٌ، وبعضُها شريرةٌ، وبعضُها حرَّةٌ، وبعضها نذلةٌ، وبعضها قويَّةُ القهر، وبعضها ضعيفته، وكما أنَّ الأمر في الأرواح البشرية كذلك فكذلك القولُ في الأرواح الفلكيَّة، ولا شكَّ أنَّ الأرواح الفلكيَّة في كلِّ بابٍ وصفةٍ أقوى من الأرواح البشرية، وكلُّ طائفة من الأرواح البشرية تكون متشاركةً في طبيعةٍ خاصَّة وصفةٍ مخصوصة، وتكون في مرتبة روح من الأرواح الفلكية مشاكلةً لها في الطبيعة والخاصيَّة، فتكون تلك الأرواح البشرية كأنَّها أولادٌ لذلك الروح الفلكي، وإذا كان الأمر كذلك فإنَّ ذلك الروح الفلكيَّ يكون مُعِيْناً على مهمَّاتها، ومُرشداً لها إلى مصالحها وعاصماً إيَّاها عن صنوف الآفات، وهذا كلامٌ ذكره مُحقِّقو الفلاسفة، وبذلك يُعلم أنَّ ما وردت به الشريعةُ أمرٌ مقبولٌ عند الكلِّ، فلا يُمكن استنكاره(١). اهـ.

ولعلَّ مقصوده بذلك تنظيرُ أمر الحفظة مع العبد بأمر الأرواح الفلكية معه على زعم الفلاسفة في الجملة، وإلَّا فما يقوله المسلمون في أمرهم أمرٌ، وما يقوله الفلاسفة في أمر تلك الأرواح أمرٌ آخرُ، وهيهاتَ هيهات أن نقول بما قالوا، فإنَّه بعيدٌ عما جاء عن الشارع ـ عليه الصلاة والسلام ـ بمراحلَ، ثم ذكر(٢) ـ عليه الرحمة ـ من فوائد الحَفَظة للأعمال أنَّ العبد إذا علم أنَّ الملائكةَ عليهم السلام يحضرونه ويُحصون عليه أعماله ـ وهم هم ـ كان أقربَ إلى الحذر عن ارتكاب المعاصي، كمن يكون بين يدي أُناسٍ أَجِلَّاءَ من خدَّام الملك موكَّلين عليه، فإنَّه لا يكاد يحاول معصيةً بينهم.

وقد ذكر ذلك غيرُه ولا يخلو من حُسْن. ثم ذكر(٣) عن المتكلِّمين في فائدة الصحف المكتوبة أنَّها وزنُها يومَ القيامة، فمن ثَقُلت موازينُه فهو في عيشةٍ راضية، وأمَّا من خفَّت موازينُه فأمُّه هاويةٌ، ويظهر كلٌّ من الأمرين للخلائق.

---

(١) في الأصل: إنكاره.

(٢) أي: الرازي في تفسيره ١٩/ ٢٠.

(٣) في (م): نقل.

وتعقَّبه القاضي بأنَّ ذلك بعيدٌ؛ لأنَّ الأدلَّة قد دلَّت على أنَّ كلَّ واحدٍ قبل مماته عند المُعاينة يعلم أنَّه من السُّعداء، أو من الأشقياء ـ والعياذ بالله تعالى ـ فلا يجوز توقُّفُ حصول المعرفة على الميزان. ثم أجاب بأنَّه لا يمتنع أيضاً ما ذكرناه؛ لأمرٍ يرجع إلى حصول سرور العبد عند الخلق العظيم بظهور أنَّه من أولياء الله تعالى لهم، وحصول ضدِّ ذلك لمن كان من أعداء الله تعالى[1].

ولا يخفى أنَّ هذا مبنيٌّ على أنَّ الذي يُوزَن هو الصحف، وهو أحدُ أقوالٍ في المسألة، نعم ذهب إليه جمعٌ من الأَجِلَّةِ؛ لحديث البطاقة والسجلَّات المشهور[2]، وكذا على أنَّ الكتابة على معناها الظاهر وهو الذي ذهب إليه أهلُ الحديث بل وغيرُهم فيما أعلم.

ونَقَلَ عن حُكماء الإسلام معنىً آخرَ فقال[3]: إنَّ الكتابة عبارةٌ عن نقوش مخصوصة وُضعت بالاصطلاح لتعريف بعض المعاني المخصوصة، فلو قدَّرنا كونَ تلك النقوش دالَّة على تلك المعاني بأعيانها وذواتها، كانت تلك الكتابةُ أقوى وأكمل، وحينئذٍ نقول: إنَّ الإنسان إذا أتى بعمل من الأعمال مرَّاتٍ كثيرةً متواليةً، حصل في نفسه بسبب ذلك مَلَكةٌ قوية راسخة، فإن كانت تلك المَلَكة مَلَكةً في أعمالٍ نافعة في السعادات الروحانية، عَظُم ابتهاجُه بعدَ الموت، وإن كانت تلك الملكةُ مَلَكةً ضارَّةً في الأحوال الروحانية، عظُمَ تضرُّرُه بها بعدُ. ثم قال: إذا ثبتَ هذا فنقول: إنَّ التكرير الكثير إن[4] كان سبباً لحصول تلك المَلَكة الراسخة، كان لكلِّ واحدٍ من تلك الأعمال أثرٌ في حصول تلك المَلَكة، وذلك الأثر وإن كان غيرَ محسوسٍ إلَّا أنَّه حاصلٌ في الحقيقة، وإذا عُرف هذا ظهرَ أنَّه لا يحصل للإنسان لمحةٌ ولا حركةٌ ولا سكون إلَّا ويحصل منه في جوهر نفسه أثرٌ من آثار السعادةِ وآثار الشقاوة، قَلَّ أو كَثُر، وهذا هو المراد من كَتْبِ الأعمال عند حكماء الإسلام، والله تعالى العالم بحقائق الأمور. انتهى. وقد رأيتُ ذلك لبعض الصوفية.

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٢١.

(٢) أخرجه أحمد (٦٩٩٤)، والترمذي (٢٦٣٩)، وابن ماجه (٤٣٠٠) من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص مرفوعاً.

(٣) الرازي في تفسيره ١٩/ ٢١.

(٤) في تفسير الرازي: لمَّا.

وأنت تعلم أنَّه خلاف ما نطقت به الآيات والأخبار، ونحن في أمثال هذه الأمور لا نعدل عن الظاهر ما أمكن، والحقُّ أبلج وما بعد الحقِّ إلا الضلالُ.

هذا، ومن النَّاس من جعل ضمير «له» لـ «من» الأخير، والأول أولى. ومنهم من جعله لله تعالى وما بعدَه لـ «من»، وفيه تفكيكٌ للضمائر من غير داعٍ. ومنهم من جعله للنبيِّ ﷺ وهو عليه الصلاة والسلام معلومٌ من السياق، وقد تقدَّم الإخبار عنه ﷺ في قوله تعالى: ﴿وَيَقُولُونَ لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ﴾ الآية [يونس: ٢٠].

واستدلَّ على ذلك بما أخرجه ابنُ المنذر، وابن أبي حاتم، والطبرانيُّ في «الكبير»، وابن مردويه، وأبو نعيم في «الدلائل» من طريق عطاء بن يسار، عن ابن عباس[(١)]: أن أربدَ بن قيس وعامرَ بنَ الطفيل قَدِما المدينةَ على رسول الله ﷺ، فانتهيا إليه وهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ جالسٌ، فجلسا بين يديه، فقال عامر: ما تجعلُ لي إنْ أسلمتُ؟ قال النبيُّ ﷺ: «لكَ ما للمسلمين، وعليكَ ما عليهم» قال: أتجعلُ لي إن أسلمتُ الأمرَ بعدَك؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ليس ذلك لك ولا لقومِك، ولكن لكَ أعنَّة الخيل». قال: فاجعل لي الوبر ولكَ المَدر. فقال ﷺ: «لا» فلما قَفَى من عنده قال: لأملأنَّها عليك خيلاً ورجلاً. فقال النبيُّ ﷺ: «يمنعُكَ اللهُ تعالى» وفي رواية: «وأبناءُ قَيْلة»[(٢)] يريدُ الأوسَ والخزرجَ. فلما خرجا قال عامرٌ: يا أربدُ، إنيِّ سألهي محمداً عنك بالحديث، فاضربْه بالسيف، فإنَّ الناس إذا قتلته لم يزيدوا على أن يرضَوا بالدية، ويكرهوا الحرب، فسنعطيهم الدية. فقال أربد: أفعل. فأقبلا راجعَيْن، فقال عامر: يا محمدُ، قم معي أُكلمْك. فقام عليه الصلاة والسلام معه، فخليا إلى الجدار، ووقف عامر يُكلِّمُه، وسلَّ أربدُ السيفَ، فلمَّا وضع يده عليه، يَبِست على قائمه، فلم يستطع سلَّه، وأبطأ على عامر، فالتفتَ رسولُ الله ﷺ فرأى أربدَ وما يصنع، فانصرف عنهما فقال عامر لأربد: مالَك؟ قال: وضعتُ يدي على قائم سيفي فَيَبست، فلمَّا

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم ٧/ ٢٢٣٠، والمعجم الكبير (١٠٧٦٠)، ودلائل النبوة (١٥٧)، وهو عند ابن أبي حاتم عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم قوله. وأخرجه عنه الطبري ١٣/ ٤٦٧.

(٢) في الدر ٤/ ٤٨: وأتيا قبيلة تدعى، وقَيْلة: هي قَيْلة بنت كاهل والدة الأوس والخزرج. ينظر طبقات ابن سعد ٣/ ٤١٩، وفتح الباري ٧/ ٢٤٣.

خرجا حتى إذا كانا بالرَّقَم[(١)]، نزلا، فخرج إليهما سعدُ بن معاذ، وأُسيدُ بن حُضَير، فوقع بهما أُسيد قال: اشخصا يا عدوَّي الله تعالى، لعنكم الله تعالى. فقال عامر: من هذا يا سعدُ؟ فقال: هذا أُسيد بن حُضَير الكتائب. فقال: أما والله إن كان حضيرٌ صديقاً لي. ثمَّ إنَّ الله سبحانه أرسل على أربدَ صاعقةً فقتلته، وخرج عامرٌ حتى إذا كان بوادي الجُرَير[(٢)]، أرسل الله تعالى عليه قرحةً فأدركه الموتُ. وفي روايةٍ: أنَّه كان يصيح: يا لعامر[(٣)]، أغدَّةٌ كغدَّة البعير، وموتٌ في بيت سَلوليَّةٍ. فأنزل الله تعالى فيهما: ﴿ٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ إلى قوله سبحانه: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ﴾ إلى آخره، ثم قال: المعقِّباتُ من أمر الله يحفظون محمداً ﷺ. وجاء في روايةٍ أخرى عنه رضي الله عنه أنَّه قال: هذه للنبيِّ عليه الصلاة والسلام خاصَّة[(٤)]. والأكثرون على اعتبار العموم. وسببُ النزول لا يأبى ذلك، والله تعالى أعلم.

ثم إنَّه سبحانه بعدَ أن ذكر إحاطة علمِه بالعباد، وأنَّ لهم معقِّباتٍ يحفظونهم من أمره جلَّ شأنه، نبَّه على لزوم الطاعة ووبالِ المعصية، فقال عزَّ مِنْ قائل: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعمةِ والعافية ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ ما اتَّصفَتْ به ذواتُهم من الأحوال الجميلة، لا ما أضمروه ونَوَوْه فقط، والمرادُ بتغيير ذلك: تبديلُه بخلافه، لا مجرَّد تركه، وجاء عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه مرفوعاً: «يقول الله تعالى: وعزَّتي وجلالي وارتفاعي فوق عرشي، ما من أهلِ قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما كرهتُ من معصيتي، ثمَّ تحوَّلوا عنها إلى ما أحببْتُ من طاعتي، إلَّا تحوَّلتُ لهم عمَّا يكرهون من عذابي إلى ما يحبُّون من رحمتي، وما من أهل قريةٍ ولا أهل بيتٍ ولا رجلٍ ببادية كانوا على ما أحببتُ من

---

(١) الرَّقَم: موضع بالمدينة، تنسب إليه الرَّقَميات. معجم البلدان (رقم).

(٢) في الأصل و(م): بالجريد، واختلف رسم هذه الكلمة في المصادر، ففي دلائل النبوة والدر المنثور٤/ ٤٦: بالخريب، وفي تفسير ابن أبي حاتم: بالجريد. والمثبت من تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٩، والجُرير: موضع بنجد. معجم ما استعجم ٢/ ٣٨٠.

(٣) في تفسير الطبري ١٣/ ٤٦٩، والدر المنثور ٤/ ٤٩: يا آل عامر.

(٤) عزاها السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٦ لابن المنذر، وابن أبي حاتم، والطبراني، وأبي الشيخ، وابن مردويه. وأخرجها ابن أبي حاتم في تفسيره ٧/ ٢٢٢٩ من قول أبي الجوزاء.

طاعتي ثمَّ تحوَّلوا عنها إلى ما كرهتُ من معصيتي إلَّا تحوَّلتُ لهم عمَّا يحبُّون من رحمتي إلى ما يكرهون من عذابي» أخرجه ابنُ أبي شيبةَ، وأبو الشيخ، وابنُ مردويه[(١)].

واستُشكل ظاهر الآية، حيثُ أفادت أنَّه لا يقع تغيير النعم بقوم حتى يقعَ تغيير منهم بالمعاصي، مع أنَّ ذلك خلافُ ما قرَّرته الشريعة من أخذ العامَّة بذنوب الخاصَّة، ومنه قوله سبحانه: ﴿وَٱتَّقُواْ فِتۡنَةً لَّا تُصِيبَنَّ ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ مِنكُمۡ خَآصَّةً﴾ [الأنفال: ٢٥] وقولُه عليه الصلاة والسلام وقد سُئِل: أنهلِكُ وفينا الصَّالحون؟: «نعم، إذا كَثُرَ الخَبَثُ»[(٢)]. وقوله ﷺ: «إذا رأوا الظالمَ، ولم يأخذُوا على يديه، يوشكُ أنْ يعمَّهُم اللهُ سبحانَه بعقابٍ»[(٣)] في أشياءَ كثيرةٍ، وأيضاً قد يُنزل الله تعالى بالعبد مصائبَ يريدُ[(٤)] بها أجرَه، وقد يستدرج المذنب بترك ذلك.

وأوَّلها ابنُ عطيةَ[(٥)] لذلك بأنَّ المراد: حتى يقعَ تغييرٌ ما منهم أو ممَّن هو منهم، كما غيَّر سبحانه بالمنهزمين يومَ أُحد بسبب تغيير الرُّماة ما بأنفسهم.

والحقُّ أنَّ المراد أنَّ ذلك عادةُ الله تعالى الجارية في الأكثر، لا أنَّه سبحانه لا يصيب قوماً إلَّا بتقدُّم ذنب منهم، فلا إشكال. قيل: ولك أن تقول: إن قوله سبحانه: ﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ﴾ تتميمٌ لتدارك ما ذكر. وفيه تأمُّل.

والسوءُ يجمع كلَّ ما يسوء، من مرض، وفقر، وغيرِهما من أنواع البلاء، و«مردَّ» مصدر ميميٌّ، أي: فلا ردَّ له، والعامل في «إذا» ما دلَّ عليه الجوابُ؛ لأنَّ معمول المصدر ـ وكذا ما بعد الفاء ـ لا يتقدَّم عليه، والتقدير ـ كما قال

---

(١) أخرجه ابن أبي شيبة في كتاب العرش (١٩)، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٤٨، وابن كثير في تفسيره عند هذه الآية، وقال: هذا حديث غريب، وفي إسناده من لا أعرفه.

(٢) جزء من حديث أخرجه أحمد (٢٧٤١٣)، والبخاري (٣٣٤٦)، ومسلم (٢٨٨٠) من حديث زينب بنت جحش ﵂.

(٣) أخرجه أبو داود (٤٣٣٨)، والترمذي (٢١٦٨) من حديث أبي بكر الصديق ﵁. وسلف عند تفسير الآية (٢٥) من سورة الأنفال.

(٤) في (م): يزيد.

(٥) في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٢ ـ ٣٠٣.

أبو البقاء[١] ـ: وقعَ، أو لم يُرد، أو نحو ذلك. والظاهر أنَّ «إذا» للكليَّةِ، وقد جاءت كذلك في أكثر الآيات.

﴿وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ﴾ سبحانَه ﴿مِن وَالٍ ﴿١١﴾﴾ يلي أمورَهم، من ضرٍّ ونفعٍ، ويدخل في ذلك دخولاً أوّلياً دفعُ السوء عنهم. وقيل: الأول إشارةٌ إلى نفي الدافع ـ بالدَّالِ ـ وهذا إشارةٌ إلى نفي الرافع ـ بالراء ـ لئلّا يتكرَّر. ولا حاجةَ إلى ذلك كما لا يخفى.

واستدلَّ بالآية على أنَّ خلاف مراد الله تعالى محالٌ. واعترض بأنَّها إنَّما تدلُّ على أنَّه تعالى إذا أراد بقوم سوءاً، وَجبَ وقوعُه، ولا تدلُّ على أنَّ كلَّ مرادٍ له تعالى كذلك، ولا على استحالة خلافِه بل على عدم وقوعه. وأجيب بأنَّه لا فرق بين إرادة السوء وإرادة غيرِه، لكن اقتصر على إرادة الأوّل؛ لأنَّ الكلام في الانتقام من الكفار، وهو أبلغُ في تخويفهم، فإذا امتنع ردُّ السوء، فغيرُه كذلك، والمرادُ بالاستحالة عدمُ الإمكان الوقوعي لا الذاتي، ولا يخفى أنَّ هذا خلافُ الظاهر.

ومن أعجب ما قيل: إنَّ الجمهور احتجُّوا بالآية على أنَّ المعاصي مما يشملها السوء وأنها بخلقه تعالى، ومن الناس من جعلَ الآية متعلِّقةً بقوله تعالى: (وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلسَّيِّئَةِ) إلى آخره، وبيَّن ذلك أبو حيان[٢] بما لا يرتضيه إنسانٌ. وقيل: إنَّ فيها إيذاناً بأنَّهم بما باشروه من إنكار البعث، واستعجال السيئة، واقتراح الآية، قد غيَّروا ما في أنفسهم من الفطرة، فاستحقُّوا لذلك حلولَ غضبِ الله تعالى هذا.

ووقفَ ابنُ كثير على «هاد» وكذا «واق» حيثُ وقع، وعلى «وال» هنا و«باق» في «النحل» بإثبات الياء، وباقي السبعة وقفوا بحذفها[٣]. وفي «الإقناع» لأبي جعفر ابن الباذش[٤]: عن ابن مجاهد: الوقفُ في جميع الباب لابن كثير بالياء، وهذا

---

(١) في الإملاء ٣/ ٣٧٧.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٣.

(٣) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ١٣٧.

(٤) هو أحمد بن علي الأنصاري الغرناطي، عالم بالقراءات. توفي سنة (٥٤٠ هـ)، وكتابه الإقناع قال عنه ابن الجزري: من أحسن الكتب، لكنه ما يخلو من أوهام. غاية النهاية ١/ ٨٣.

لا يعرفه المكيُّون. وفيه أيضاً عن أبي يعقوبَ الأزرق عن ورش أنَّه خيَّره في الوقفِ في جميع الباب، بين أن يقفَ بالياء وأن يقفَ بحذفها. كذا في «البحر»[١]، وفيه أنَّه أثبتَ ابنُ كثير وأبو عمرو في رواية ياء «المتعال» وقفاً ووصلاً، وهو الكثير في لسان العرب، وحذفَها الباقون وصلاً ووقفاً؛ لأنَّها كذلك رُسمت في الإمام[٢].

واستشهدَ سيبويه[٣] لحذفها في الفواصل والقوافي، وأجاز غيرُه حذفَها مطلقاً، ووجهُ حذفها ـ مع أنَّها تحذف مع التنوين وأل معاقبةٌ له ـ إجراء المُعاقِب مجرى المُعاقَب.

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ خَوْفًا﴾ من الصاعقةِ ﴿وَطَمَعًا﴾ في الغيث، قاله ابنُ عباس رضي الله عنهما. وأخرج أبو الشيخ عن الحسن أنَّه قال: خوفاً لأهل البحر وطَمَعاً لأهل البرِّ. وعن قتادة: خوفاً للمسافرِ من أذى المطر، وطمعاً للمقيم في نفعه[٤]. وعن الماورديِّ[٥]: خوفاً من العقاب، وطمعاً في الثواب.

والمراد من البرق معناه المتبادر. وعن ابن عباس: أنَّ المراد به الماء، فهو مجازٌ من باب إطلاق الشيءِ على ما يُقارنه غالباً.

ونصب «خوفاً وطمعاً» على أنَّهما مفعولٌ له لـ «يريكم». واتِّحاد فاعل العلَّةِ والفعل المعلَّل ليس شرطاً للنصب مجمعاً، ففي «شرح الكافية»[٦] للرضي: وبعضُ النحاة لا يشترط تشاركَهما في الفاعل، وهو الذي يقوى في ظنِّي وإن كان الأغلب هو الأول. واستدلَّ على جواز عدم التشارك بما ذكرناه في حواشينا على «شرح القطر» للمصنف.

وفي «همع الهوامع»: وشَرطَ الأعلمُ والمتأخِّرون المشاركةَ للفعل في الوقت والفاعل، ولم يشترط ذلك سيبويه ولا أحدٌ من المتقدمين.

---

(١) ٥/ ٣٦٨.
(٢) في البحر ٥/ ٣٧٠: الخط.
(٣) الكتاب ٤/ ١٨٤ ـ ١٨٥.
(٤) الدر المنثور ٤/ ٤٩.
(٥) النكت والعيون: ٣/ ١٠٠.
(٦) ١/ ٥١١.

واحتاج المشترطون إلى تأويل هذا؛ للاختلاف في الفاعل، فإنَّ فاعلَ الإراءة هو اللهُ تعالى، وفاعلَ الطمع والخوف غيرُه سبحانه، فقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّرٌ، وهو إرادة، أي: يريكم ذلك إرادةَ أن تخافوا وتطمعوا، فالمفعولُ له المضاف المقدَّر، وفاعلُه وفاعلُ الفعل المعلَّل به واحدٌ. وقيل: الخوف والطمع موضوعان موضعَ الإخافة والإطماع، كما وُضِع النباتُ موضعَ الإنبات في قوله تعالى: ﴿وَٱللَّهُ أَنۢبَتَكُم مِّنَ ٱلۡأَرۡضِ نَبَاتٗا﴾ [نوح:١٧] والمصادرُ ينوب بعضُها عن بعض. أو هما مصدران محذوفا الزوائدِ كما في «شرح التسهيل».

وقيل: إنَّهما مفعولٌ له باعتبار أنَّ المخاطَبِيْن رائين؛ لأنَّ إراءتَهم مُتضمِّنةٌ لرؤيتهم، والخوفُ والطمعُ من أفعالهم، فهم فعلوا الفعلَ المعلَّل بذلك، وهو الرؤية، فيرجع إلى معنى: قعدتُ عن الحرب جُبناً. وهذا على طريقة قولِ النابغة الذبيانيِّ:

وحَلَّتْ بيوتي في يَفاعٍ مُمنَّعٍ ... يَخالُ به راعي الحَمولةِ طائرا
حِذاراً على أنْ لا تُنالَ مَقادَتي ... ولا نِسْوتي حتَّى يَمُتْنَ حرائرا[(١)]

حيث قيل: إنَّه على معنى: أحلَلْتُ بيوتي حذاراً.

وردَّ ذلك المولى أبو السعود[(٢)] بأنَّه لا سبيل إليه؛ لأنَّ ما وقع في معرض العلَّة الغائية، لا سيَّما الخوف لا يصلحُ علَّة لرؤيتهم.

وتعقَّبه عزمي زاده[(٣)] وغيرُه بأنَّه كلامٌ واهٍ؛ لأنَّ القائل صرَّحَ بأنَّه من قَبِيل: قعدتُ عن الحرب جبناً، ويريد أنَّ المفعول له حاملٌ على الفعل، وموجودٌ قبلَه، وليس ممَّا جُعل في معرض العلَّة الغائية، كما قالوا في: ضربته تأديباً، فلا وجه للردِّ عليه بما ذكر. وقيل: التعليل هنا مثلُه في لام العاقبة لا أنَّ ذلك من قبيل: قعدتُ عن الحرب جبناً، كما ظُنَّ، لأنَّ الجبنَ باعثٌ على القعودِ دونَهما؛ للرؤية، وهو غيرُ وارد؛ لأنَّه باعثٌ بلا شبهة. واعترض عليه العزميُّ بأنَّ اللَّام المقدَّرة في

---

(١) ديوان النابغة ص٦٤ ـ ٦٥. وأيضاً في الكتاب ١/ ٣٦٨. اليفاع: التلال. الحَمولَة: ما احتمل عليه القوم من بعير وحمار وغيرهما. المقادة: الانقياد.

(٢) في تفسيره ٥/ ٩.

(٣) هو مصطفى بن محمد، المعروف بـ: عزمي زاده، قاضٍ تركي مستعرب، توفي سنة (١٠٤٠هـ). الأعلام ٧/ ٢٤٠.

المفعول له لم يقل أحدٌ بأنها تكون لامَ العاقبة، ولا يساعده الاستعمال، وهو ليس بشيء، كيف وقد قال النُّحاة ـ كما في «الدر المصون»[(١)] ـ: إنَّه كقول النابغة السابق.

وقال أيضاً: بقي ها هنا بحثٌ، وهو أنَّ مقتضى جعلِ الآية نحو قعدتُ إلى آخره، على ما قاله ذلك القائل أن يكون الخوفُ والطمع مقدَّمَيْن في الوجود على الرؤية، وليس كذلك، بل هما إنَّما يحصلان منها. ويمكن أن يقال: المرادُ بكلٍّ من الخوف والطمع ـ على ما قاله ـ ما هو من الملَكات النفسانية، كالجبن في المثال المذكور، ويصحُّ تعليلُ الرؤية من الإراءة بهما، يعني أنَّ الرؤية التي تقعُ بإرادة الله سبحانه إنَّما كانت لما فيهم من الخوف والطمع، إذ لو لم يكن في جِبِلَّتهم ذلك لما كان لتلك الرؤية فائدةٌ. اهـ.

ولا يخفى ما فيه من التعسُّف، وقد علمتَ أنَّه غيرُ وارد.

وقيل: إنَّ النصب على الحاليَّةِ من «البرق» أو المخاطَبِيْن بتقدير مضاف، أو تأويل المصدر باسم المفعول أو الفاعل، أو إبقاءِ المصدر على ما هو عليه للمبالغة، كما قيل في: زيدٌ عَدْلٌ.

﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ﴾ أي: الغَمامَ المنسحب في الهواء ﴿ٱلثِّقَالَ ﴿١٢﴾﴾ بالماء، وهي: جمعُ ثقيلة. وُصِفَ بها السحابُ لكونه اسمَ جنس في معنى الجمع، ويذكَّرُ ويؤنَّثُ، فكأنَّه جمعُ سحابة[(٢)]، لا أنَّه جمعٌ أو اسمُ جنس جمعيٌّ؛ لإطلاقه على الواحد وغيرِه.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ قيل: هو اسمٌ للصوت المعلوم. والكلامُ على حذف مضاف. أي: سامعُو الرعدِ، أو الإسنادُ مَجَازيٌّ من باب الإسناد للحامل والسبب.

الباء في قوله سبحانه: ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ للملابسة. والجارُّ والمجرور في موضع الحال، أي: يسبِّحُ السامعون لذلك الصوت مُلتبسينَ بحمدِ الله تعالى، فيضجُّون بسبحان الله والحمد لله.

---

(١) ٧/ ٣١.
(٢) بعدها في (م): ثقيلة.

وقيل: لا حذفَ ولا تجوُّزَ في الإسناد، وإنَّما التجوُّزُ في التسبيح والتحميد، حيث شبَّه دلالة الرعد بنفسِه على تنزيهه تعالى عن الشريك والعجزِ بالتسبيح والتنزيهِ اللَّفظيِّ، ودلالَته على فضلِه جلَّ شأنه ورحمتِه بحمد الحامد، لما فيهما من الدلالة على صفات الكمال، وقيل: إنَّه مجازٌ مرسلٌ، استُعمل في لازمه، وقيل: الرعد اسمُ مَلَك، فإسناد التسبيح والتحميد إليه حقيقةٌ.

قال في «الكشف»: والأشبه في الآية الحملُ على الإسناد المجازيِّ؛ ليتلاءمَ الكلامُ، فإنَّ الرعد في المتعارَف يقعُ على الصوت المخصوص، وهو الذي يُقرَن بالذكر مع البرق والسحاب. والكلامُ في إراءة الآياتِ الدالَّة على القدرة الباهرة وإيجادها، وتسبيحُ مَلَك الرَّعدِ لا يلائم ذلك، أمَّا حملُ الصوت المخصوص للسامعين على التسبيح والتحميد[1] فشديدُ الملائمة جدّاً، وإذا حُمِلَ على الإسناد حقيقةً، فالوجه أن يكون اعتراضاً؛ دلالةً على اعتراف الملك الموكَّل بالسحاب وسائرِ الملائكة بكمال قُدرته سبحانه جلَّت قدرتُه، وجحودِ الإنسان ذلك، وأنت تعلم أنَّ تسبيحَ الملائكة على ما ادُّعي أنَّه الأشبه يبقى كالاعتراض في البيِّن.

والذي اختاره أكثرُ المحدِّثين كونَ الإسناد حقيقياً بناءً على أنَّ الرعد اسمٌ للمَلَك الذي يسوقُ السحاب، فقد أخرج أحمد، والترمذيُّ وصحَّحه، والنسائيُّ، وآخرون عن ابنِ عباس رضي الله عنهما أنَّ اليهودَ سألوا رسول الله ﷺ فقالوا: أخبرنَا ما هذا الرعدُ؟ فقال عليه الصلاة والسلام: «ملَكٌ من ملائكةِ الله تعالى موكَّلٌ بالسحاب، بيده مخراقٌ من نارٍ، يَزجُرُ به السحابَ، يسوقُه حيثُ أمرَه اللهُ تعالى» قالوا: فما هذا الصوتُ الذي نسمعُ؟ قال عليه الصلاة والسلام: «صوتُه» فقالوا: صدقْتَ[2]. والأخبارُ في ذلك كثيرةٌ، واستُشكلَ بأنَّه لو كان عَلَماً للمَلَك لما ساغ تنكيرُه، وقد نُكِّر في «البقرة»[3]، وأجيب بأنَّ له إطلاقين، ثانيهما إطلاقُه على نفس الصوت، والتنكيرُ على هذا الإطلاق.

---

(١) في (م): الحمد.

(٢) مسند أحمد (٢٤٨٣)، وسنن الترمذي (٣١١٧)، والنسائي في الكبرى (٩٠٢٤)، وهو جزء من حديث طويل، قال الترمذي: هذا حديث حسن غريب. المخاريق: جمع مِخْرَاق، وهو في الأصل ثوب يلفُّ ويضرب به الصبيان بعضهم بعضاً، والمراد هنا: آلة تزجر بها الملائكة السحاب وتسوقه. النهاية (خرق).

(٣) في قوله تعالى: ﴿أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ﴾ [الآية: ١٩].

وقال ابنُ عطية[1]: وقيل: إنَّ الرعدَ ريحٌ تخفق بين السحاب، ورُوي ذلك عن ابن عباس. وتعقبه أبو حيان[2] بقوله: وهذا عندي لا يصحُّ، فإنَّ ذلك من نزغات الطبيعيين وغيرهم.

وقال الإمام[3]: إنَّ المحققين من الحكماء يذكرون أنَّ هذه الآثارَ العلوية إنَّما تتمُّ بقوًى روحانيةٍ فلكية، وللسحاب روحٌ معيَّن من الأرواح الفلكية يُدبِّره، وكذا القولُ في الرياح وسائر الآثار العلوية، وهو عين ما قلنا من أنَّ الرعدَ اسمٌ لملك من الملائكة يسبِّحُ الله تعالى، فهذا الذي قالَه المفسرون بهذه العبارة هو عينُ ما ذكره المحققون من الحكماء، فكيف يليقُ بالعاقل الإنكار. اهـ.

وتعقبه أبو حيان[4] أيضاً: بأنَّ غرضَه جريانُ ما يتخيلُه الفلاسفة على مناهج الشريعة، ولن يكون ذلك أبداً.

ولقد صدقَ رحمهُ الله تعالى في عدم صحة التطبيق بين ما جاءت به الشريعةُ، وما نسجَتْه عناكبُ أفكار الفلاسفة.

نعم إنَّ ذلك ممكنٌ في أقلِّ قليلٍ من ذاك وهذا، والمشهورُ عن الفلاسفة أنَّ الريحَ تحتقنُ في داخل السحاب، ويستولي البردُ على ظاهرِه، فيتجمَّدُ السطحُ الظاهر، ثمَّ إنَّ ذلك الريح يمزقه تمزيقاً عنيفاً، فيتولَّدُ من ذلك حركةٌ عنيفة، وهي موجبةٌ للسخونة، وليس البرقُ والرعدُ إلَّا ما حصل من الحركة وتسخينها. وأمَّا السحابُ فهو أبخرةٌ متصاعدة قد بلغت في صعودها إلى الطبقةِ الباردةِ من الهواء، لكنْ لما لم يقوَ البردُ، تكاثفَتْ بذلك القدرِ من البرد، واجتمعت وتقاطرت، ويقالُ للمتقاطِر: مطر.

ورُدَّ الأولُ بأنه خلافُ المعقول من وجوه:

أحدها: أنَّه لو كان الأمرُ كما ذكر، لوجب أن يكونَ كلَّما حصل البرقُ حصلَ

---

(١) في تفسيره ٣/ ٣٠٣، وفيه: تختنق، بدل: تخفق.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٥، وهذا الكلام لابن عطية في المحرر ٣/ ٣٠٣ قاله بعد كلامه السابق ونقله أبو حيان عنه، ونقله المصنف عن أبي حيان ظاناً أنه لأبي حيان.

(٣) في تفسيره ١٩/ ٢٦.

(٤) في البحر ٥/ ٣٧٥.

الرعدُ، وهو الصوتُ الحادث من تمزيق السحاب، ومعلومٌ أنَّه كثيراً ما يحدث البرق القويُّ من غير حدوث الرعد.

ثانيها: أنَّ السخونةَ الحاصلة بسبب قوَّةِ الحركة مقابَلَةٌ بالطبيعة المائية الموجِبةِ للبرد، وعندَ حصولِ هذا المعارض القويِّ كيف تحدثُ النارِيَّةُ، بل يقال: النيران العظيمة تنطفئُ بصبِّ الماء عليها، والسحابُ كلُّه ماءٌ، فكيف يمكن أن يحدثَ فيه شعلةٌ ضعيفة نارية.

ثالثها: أنَّ من مذهبكم أنَّ النارَ الصِّرفة لا لونَ لها ألبتة، فهَبْ أنَّه حصلتِ النارية بسبب قوَّةِ المحاكَّة الحاصلة في أجزاء السحاب، لكن من أين حدثَ ذلك اللَّونُ الأحمر؟

وردَّ الثاني بأنَّ الأمطارَ مختلفةٌ، فتارةً تكون قطراتُها كبيرةً، وتارةً تكون صغيرةً، وتارةً تكون متقاربةً، وأخرى تكون متباعدةً إلى غير ذلك من الاختلافاتِ، وذلك مع أنَّ طبيعةَ الأرض واحدةٌ، وطبيعةَ الشمس المسخِّنةِ للبخاراتِ واحدةٌ، يأبى أنْ يكونَ ذلك كما قرَّروا، وأيضاً التجربةُ دالَّةٌ على أنَّ للتضرُّع والدعاء في انعقاد السحابِ ونزولِ الغيث أثراً عظيماً، وهو يأبى أن يكونَ ذلك للطبيعة والخاصية، فليس كلُّ ذلك إلَّا بإحداثِ مُحدِثٍ حكيمٍ قادرٍ يخلقُ ما يشاء كيف يشاءُ.

وقال بعضُ المحققين: لا يبعدُ أن يكون في تكوُّن ما ذُكر أسبابٌ عادية، كما في الكثير من أفعاله تعالى، وذلك لا يُنافي نسبتَه إلى المُحدِثِ الحكيم القادر جلَّ شأنُه، ومن أنصفَ لم يسعه إنكارُ الأسباب بالكلية، فإنَّ بعضَها كالمعلوم بالضرورة» وبهذا أنا أقول، وقد تقدَّمَ بعضُ الكلام في هذا المقام. وكان ﷺ - كما أخرج ابنُ مردويه، عن أبي هريرة - إذا هبَّتِ الريحُ أو سمعَ صوتَ الرعدِ تغيَّرَ لونُه حتى يُعرفَ ذلك في وجهه الشريف، ثمَّ يقولُ للرعد: «سبحانَ من سبَّحت له»، وللريح: «اللهمَّ اجعلْها رحمةً ولا تجعلْها عذاباً»[1].

وأخرج أحمد، والبخاريُّ في «الأدب المفرد»، والترمذيُّ، والنسائيُّ، وغيرُهم

---

(١) عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥١.

عن ابن عمرَ: كان رسولُ الله ﷺ إذا سمع صوتَ الرعد والصواعق قال: «اللهمَّ لا تَقْتُلْنا بغضَبِكَ، ولا تُهلِكْنا بعذابِكَ، وعافِنا قبلَ ذلك»[١].

وأخرجَ أبو داود في «مراسيله»[٢] عن عبيدِ الله بن أبي جعفر: أنَّ قوماً سمعُوا الرعدَ فكبَّروا، فقال رسولُ الله ﷺ: «إذا سمعتم الرعدَ، فسبِّحُوا ولا تُكبِّروا». وأخرجَ ابنُ أبي شيبةَ عن ابن عباس: أنَّه عليه الصلاة والسلام كان يقول إذا سمع الرعدَ: «سبحانَ اللهِ وبحمدِه، سبحانَ اللهِ العظيم»[٣]. وأخرجَ ابنُ مردويه، وابنُ جرير عن أبي هريرةَ قال: كان ﷺ إذا سمعَ الرعدَ، قال: «سبحانَ من يسبِّحُ الرعدُ بحمدِه»[٤].

﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ أي: ويسبِّحُ الملائكةُ عليهم السلام من هيبته ـ تعالى ـ وإجلالِه ـ جلَّ جلالُه ـ، وقيل: الضميرُ يعود على الرعد، والمرادُ بالملائكةِ أعوانُه، جعلَهم الله تعالى تحت يدِه خائفِين خاضعين له، وهو قولٌ ضعيف.

﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ جمعُ: صاعقةٍ، وهي كالصَّاقِعة في الأصل: الهدَّةُ الكبيرة[٥]، إلَّا أنَّ الصَّقْعَ يقال في الأجسامِ الأرضيةِ، والصَّعْقُ في الأجسام العلوية، والمرادُ بها هنا النارُ النازلةُ من السحاب مع صوتٍ شديد. ﴿فَيُصِيبُ﴾ سبحانَه ﴿بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ إصابته بها، فيهلكُه.

وهذه النارُ، قيل: تحصل من احتكاك أجزاءِ السحاب، واستدلَّ بما أخرجه ابنُ المنذر، وابنُ مردويه، عن ابن عباس قال: الرعدُ مَلَكٌ اسمُه الرعدُ، وصوتُه هذا تسبيحُه، فإذا اشتدَّ زجرُه، احتكَّ السحابُ واصطدمَ من خوفِه، فتَخرُجُ[٦] الصواعقُ من بينه.

---

(١) مسند أحمد (٥٧٦٣)، والأدب المفرد (٧٢١)، وسنن الترمذي (٣٤٥٠)، والسنن الكبرى للنسائي (١٠٦٩٨). قال الترمذي: هذا حديث غريب لا نعرفه إلا من هذا الوجه. وفي الأدب المفرد: بصعقك، بدل: بغضبك.

(٢) برقم (٥٣١).

(٣) مصنف ابن أبي شيبة ١٠/ ٢١٥.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٤٧٧، والدر المنثور ٤/ ٥١.

(٥) الهدَّة: صوت ما يقع من السحاب. النهاية (هدد).

(٦) في الأصل و(م): فتخرجه، والمثبت من الدر المنثور ٤/ ٥٠.

وقال الفلاسفةُ: إنَّ الدخانَ المُحتبِسَ في جوف السحاب إذا نزل ومزق السحابَ، قد يشتعلُ بقوَّة التسخين الحاصل من الحركة الشديدة والمصاكَّةِ العنيفة، وإذا اشتعل، فَلَطِيفُه ينطفئ سريعاً، وهو البرقُ، وكثيفُه لا ينطفئُ حتَّى يصلَ إلى الأرض، وهو الصاعقةُ، وإذا وصل إليها فربَّما صار لطيفاً ينفذُ في المتخلخل ولا يحرقه، بل يبقى منه أثرُ سواد، ويذيبُ ما يصادمُه من الأجسام الكثيفة المندمجة، فيذيبُ الذهبَ والفضَّةَ في الصرَّة مثلاً ولا يحرقُها، وإلَّا ما أحرقَ من الذوب.

وقد أخبر أهلُ التواتر بأنَّ صاعقةً وقعت منذُ زمان بشيراز على قُبَّةِ الشيخ الكبير أبي عبدِ الله بنِ خفيف[1] ـ قُدِّسَ سرُّه ـ فأذابَتْ قنديلاً فيها، ولم تحرق شيئاً منها، وربَّما كان كثيفاً غليظاً جدّاً، فيحرق كلَّ شيءٍ أصابَه، وكثيراً ما يقعُ على الجبل فيدكُّه دكّاً، وقد يقعُ على البحرِ، فيغوص فيه ويحرقُ ما فيه من الحيوانات، وربَّما كان جِرْمُ الصاعقةِ دقيقاً جدّاً مثلَ السيف، فإذا وصلَ إلى شيءٍ قطعَه بنصفين، ولا يكون مقدارُ الانفراج إلَّا قليلاً. ويحكى أنَّ صبيّاً كان نائماً بصحراءَ، فأصابتِ الصاعقةُ ساقيه، فسقطت رجلاه ولم يخرج دمٌ؛ لحصول الكيِّ من حرارتها.

وهذا الذي قالوه في سبب تكوُّنِها ليس بالبعيدِ عما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في ذلك.

ومادَّتُها ـ على ما نقل بعضُهم عن ابن سينا ـ أجسامٌ ناريةٌ، فارقَتْها السخونةُ، وصارت لاستيلاء البرودةِ على جوهرها متكاثفةً. وقال الإمام في «شرح الإشارات»[2]: الصواعقُ ـ على ما نُقل عن الشيخ ـ تشبه الحديدَ تارةً والنحاسَ تارةً والحَجَر تارةً، وهو ظاهرٌ في أنَّ مادَّتَها ليست كذلك، وإلَّا لما اختلفت، ومن هنا قيل: إنَّ مادَّتَها الأبخرةُ والأدخنةُ الشبيهةُ بموادِّ هذه الأجسام. وقيل: إنَّها نارٌ تخرج من فمِ المَلَك الموكَّل بالسحاب، إذا اشتدَّ زجرُه.

---

(١) هو محمد بن خفيف، الفارسي الشيرازي، شيخ الصوفية، (ت ٣٧١هـ). السير ١٦/ ٣٤٢ـ٣٤٧.

(٢) هو كتاب للإمام الرازي شرح فيه كتاب الإشارات والتنبيهات في المنطق والحكمة لابن سينا. كشف الظنون ١/ ٩٤.

وأخرج ابنُ أبي حاتم، وأبو الشيخ، عن أبي عمرانَ الجَوْني قال: إنَّ بحوراً من نارٍ دونَ العرش، يكونُ منها الصواعقُ[١].

وإذا صحَّ ما رُوي عن الحِبْرِ لا يُعدَلُ عنه.

وقد أخرج سعيدُ بنُ منصور، وابنُ المنذر عنه ﷺ أنَّه قال: من سمعَ صوتَ الرعدِ، فقال: سبحانَ الذي يُسبِّحُ الرَّعدُ بحمدِه، والملائكةُ من خِيفَته، وهو على كلِّ شيءٍ قديرٌ، فإنْ أصابَتْه صاعقةٌ فعليَّ دِيَتُه[٢].

وأخرج ابنُ أبي حاتم وغيرُه عن أبي جعفر، قال: الصاعقةُ تصيبُ المؤمنَ والكافرَ، ولا تصيبُ ذاكراً[٣]. وفي خبرٍ مرفوعٍ ما يؤيده، وقد أهلكَتْ أربدَ كما علمت[٤]، وقد أشار إلى ذلك أخوه لأُمِّه لبيدٌ العامريُّ بقولِه يرثيه:

أخشَى علـى أرْبـدَ الـحُـتُوفَ ولا ... أرْهـبُ نَـوْءَ الـسِّـمـاكِ والأسَـدِ
فَـجَّـعـنـي الـبَـرقُ والـصَّـواعـقُ بـالـ ... ـفـارسِ يـومَ الـكـريـهـةِ الـنَّـجُـدِ[٥]

وفي تلك القصةِ - على ما قال ابنُ جريج[٦] وغيرُه - نزلت الآية. وعن مجاهد أنَّ يهودياً ناظرَ رسولَ الله ﷺ فبينا هو كذلك نزلت صاعقةٌ فأخذت قِحْفَ رأسِه، فنزلت. وقيل: إنَّه عليه الصلاة والسلام بعثَ إلى جبَّارٍ من العرب ليسلم، فقال: أخبروني عن إله محمد، أَمِنْ لؤلؤ هو أم من ذهب أم من نحاس؟ فنزلت عليه صاعقةٌ فأهلكته، فنزلت[٧].

---

(١) العظمة لأبي الشيخ ص٣٢٩، والدر المنثور ٤/ ٥٢ - ٥٣.
(٢) سعيد بن منصور في تفسيره (١١٦٥)، والدر المنثور ٤/ ٥١.
(٣) تفسير ابن أبي حاتم ٨/ ٢٦١٨، والدر المنثور ٤/ ٥٣.
(٤) سلف ص٧٢ - ٧٣ من هذا الجزء.
(٥) الأبيات في شرح ديوان لبيد ص١٥٨، والكامل ٣/ ١٣٩٤، وفيهما: فجعني الرعد. قال الطوسي شارح الديوان: قوله: النَّجُد: البطل ذو نجدة، وقال: كنت أخشى عليه كل سبب من أسباب المنية، ولم أكن أفرق عليه صاعقة.
(٦) في الأصل: جرير. وهذه القصة أخرجها ابن جرير الطبري في تفسيره ١٣/ ٤٨١ - ٤٨٢ عن ابن جريج.
(٧) ذكرها الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٥ - ٢٧٧، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٤ - ٣١٥.

و«من» مفعول «يصيب» والكلام ـ على ما في «البحر»[(١)] ـ من باب الإعمال، وقد أُعمل فيه الثاني، إذ كلٌّ من "يرسل" و«يصيب» يطلب «من» ولو أعمل الأول، لكان التركيبُ: ويرسلُ الصواعقَ فيصيبُ بها على من يشاء، لكن جاء على الكثير من لسان العرب المختارُ عند البصريين، وهو إعمال الثاني.

ثم إنَّه تعالى بعدَ أن ذكر علمه النافذ في كلِّ شيء، واستواء الظاهر والخفيّ عندَه تعالى، وما دلَّ على قدرته الباهرة ووحدانيته، قال جلَّ شأنُه:

﴿وَهُمْ﴾ أي: الذين كفروا وكذَّبوا الرسولَ ﷺ، وأنكرُوا آياتِه ﴿يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ حيثُ يكذبون ما يصفُه الصادقُ به، من كمال العلم والقُدرة والتفرّد بالألوهية وإعادة الناس ومجازاتهم، فالمرادُ بالمجادلةِ فيه تعالى المجادلةُ في شأنِه سبحانه، وما أخبرَ به عنه جلَّ شأنُه.

وهي من الجَدَل بفتحتين، أشدُّ الخصومة، وأصلُه من الجَدْل بالسكون، وهو فتلُ الحبل ونحوه؛ لأنَّه يقوى به ويشدُّ طاقاتِه.

وقال الراغب[(٢)]: أصلُ ذلك من جَدَلْتُ الحبلَ، أي: أحكمتُ فتلَه، كأنَّ المتجادلين يفتلُ كلُّ واحدٍ منهما الآخرَ عن رأيه، وقيل: الأصل في الجدال الصراعُ وإسقاطُ الإنسانِ صاحبَه على الجدالة، وهي الأرضُ الصلبة.

وإلى تفسير الآية بما ذكر ذهب الزمخشريُّ[(٣)]؛ قال في «الكشف»: وفي كلامه إشارةٌ إلى أنَّ في الكلام التفاتاً؛ لأنَّ قولَه تعالى: «سواء منكم»، «هو الذي يريكم» فيه التفاتٌ من الغيبةِ إلى الخطاب، وإنْ شئت فتأمَّل من قولِه تعالى: «أولئك الذين كفروا بربهم» إلى قوله سبحانه: «الكبير المتعال». ثمَّ التفتَ من الخطابِ إلى الغيبةِ، وحَسُنَ موقعُهما.

أمَّا الأول فما فيه من تخصيصِ الوعيدِ المدمَجِ في «سواء منكم» ولهذا ذيَّلَ بقوله تعالى: (إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ) إلى «من وال»، وفيه من التهديدِ ما لا يخفى

---

(١) ٥/ ٣٧٥.
(٢) في المفردات (جدل).
(٣) في الكشاف ٢/ ٣٥٣.

على ذي بصيرة، والحثُّ على طلب النجاةِ، وزيادةِ التقريع في قوله تعالى: «هو الذي يريكم».

وفي مجيء «سواء منكم» «هو الذي يريكم» بعدَ قولِه تعالى: «الله يعلم» هكذا من دون حرفِ النَّسَق؛ لأنَّ الأول مقرِّرٌ لقوله سبحانه: «الله يعلم» مع زيادةِ الإدماج المذكور تحقيقاً للعلم. والثاني مقرِّرٌ لما ضمِّن من الدلالةِ على القدرة في قوله تعالى: «وكل شيء عنده بمقدار» مع رعاية نمطِ التعديد على أسلوب ﴿ٱلرَّحْمَٰنُ ۝ عَلَّمَ ٱلْقُرْءَانَ﴾ [الرحمن: ١ ـ ٢] ما يبهرُ الألباب، ويُظهِر للمتأمِّل في وجه الإعجاز التنزيليِّ العجب العُجاب.

وأما الثاني فما فيه من الدلالة على أنَّهم مع وضوح الآيات، وتلاوتها عليهم، والتنبيه البالغ؛ ترغيباً وترهيباً، لم يبالُوا بها بالةً، فكأنَّه يشكو جنايَتَهم إلى مَنْ يستحقُّ الخطابَ، أو كمن يُدَمْدِمُ في نفسِه: إنيِّ أصنعُ بهم، وأفعل كَيْتَ وكَيْتَ جزاءَ ما ارتكبوه، ليرى ما يريد أن يوقعَ بهم.

وعلى هذا فقوله تعالى: «هم» إلى آخره معطوفٌ على قوله تعالى: «ويقول الذين كفروا لولا أنزل» المعطوف على «ويستعجلونك».

والعدولُ عن الفعليَّةِ إلى الاسميَّةِ وطرح رعاية التناسب؛ للدلالةِ على أنَّهم ما ازدادوا بعدَ الآياتِ إلَّا عناداً ﴿وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ﴾ [التوبة: ١٢٥](١).

وجاز أنْ يقال: إنَّه معطوفٌ على «هو الذي يريكم» على معنى: هو الذي يريكم هذه الآياتِ الكواملَ الدالَّةَ على القدرة والرحمة، وأنتم تجادلون فيه سبحانه. وهذا أقربُ مأخذاً، والأول أملأُ بالفائدةِ. اهـ. ومخايلُ التحقيق ظاهرةٌ عليه.

وزعمَ الطيبيُّ أنَّ الأنسبَ لتأليف النظم أن يكونَ هذا تسليةً لحبيبِه ﷺ، فإنَّه تعالى لمَّا نعى كفَّار قريش عنادَهم في اقتراحِهم الآياتِ، كآياتِ موسى وعيسى عليهما السلام، وإنكارَهم كونَ الذي جاء ـ عليه الصلاة والسلام ـ آياتٌ سلَّاه ـ جلَّ

---

(١) في الأصل و(م): وأما الذين كفروا. . . .

شأنه ـ بما ذُكر، كأنَّه قال: هوِّن عليك، فإنَّك لستَ مختصّاً بذلك، فإنهم مع ظهور الآياتِ البيناتِ ودلائل التوحيد، يجادلون في الله تعالى باتِّخاذ الشركاء، وإثبات الأولاد، ومع شمول علمِه ـ تعالى ـ وكمالِ قدرته ـ جلَّ جلالُه ـ ينكرون الحشرَ والنشرَ، ومع قهرِ سلطانِه وشديد سطوته يُقدِمُون على المكابرة[1] والعنادِ، فلا تذهب نفسك عليهم حسراتٍ. فليتأمَّل.

ولا يستحسنُ العطفُ على (وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ)؛ لعدم الاتِّساق.

وجوز أن تكونَ الجملةُ حالاً من مفعول «يصيب» أي: يصيبُ بها من يشاء في حال جدالِه، أو من مفعول «يشاء» على ما قيل، وهو كما ترى، ولا يعين سببُ النزول الحاليَّةَ كما لا يخفى.

﴿وَهُوَ﴾ سبحانه وتعالى ﴿شَدِيدُ ٱلْمِحَالِ ۝١٣﴾ أي: المماحلة، وهي المكايدة، من مَحَلَ بفلان ـ بالتخفيف ـ إذا كادَه وعرَّضَه للهلاك، ومنه: تَمَحَّلَ لكذا، إذا تكلَّف استعمالَ الحيلةِ، واجتهدَ فيه، فهو مصدرٌ كالقتال. وقيل: هو اسمٌ لا مصدرٌ من المَحْل، بمعنى القوَّة. وحُمل على ذلك قولُ الأعشى:

فرعُ نَبْعٍ[2] يهتزُّ في غُصُن المجـ ... ـدِ عظيمُ النَّدى شديدُ المِحَال[3]

وقولُ عبد المطلب:

لا يـغـلـبـنَّ صـلـيـبُـهـم ... ومِـحـالُـهـم ـ عَـدْواً ـ مِـحَـالـك[4]

وكأنَّ أصله من المَحْل بمعنى القَحْط. وكلا التفسيرين مرويٌّ عن ابنِ عباس.

وقيل: هو مفعل لا فِعَال، من الحول بمعنى القوَّة.

---

(١) في (م): المكايدة.

(٢) في الأصل و(م): نبل، والمثبت من مصادر التخريج الآتية، والنبع: شجر للقسيّ والسهام ينبت في قُلّة الجبل. «القاموس» (نبع).

(٣) البيت في ديوانه ص٥٧، ومجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٥، ولسان العرب (محل)، وجاء فيهم: غزير الندى.

(٤) سيرة ابن هشام ١/ ٥١ وفيها: غدواً، والحيوان للجاحظ ٧/ ١٩٨ ـ ١٩٩ وفيه: أبداً، ولسان العرب (محل)، وروايته كرواية المصنف.

وقال ابن قتيبة[١]: هو كذلك من الحيلة المعروفة، وميمُه زائدةٌ، كميم مكان. وغلَّطه الأزهريُّ[٢] بأنه لو كان مِفْعلاً، لكان كمِرْوَد ومِحْوَر.

واعتذر عن ذلك بأنه أعلَّ على غير قياس، وأيَّد دعوى الزيادة بقراءة الضحَّاك والأعرج «المَحَال» بفتح الميم[٣]، على أنه مَفْعَل من حال يحول إذا احتال؛ لأنَّ الأصلَ توافقُ القراءتين، ويقال للحيلة أيضاً: المَحالة؛ ومنه المثل: المرءُ يَعْجِزُ لا المحالة[٤]. وقال أبو زيد: هو بمعنى النِّقمة، وكأنه أخذه من المَحْل بمعنى القحط أيضاً. وقال ابن عرفة: هو الجِدال، يقال: مَاحَلَ عن أمره، أي: جادل. وقيل: هو بمعنى الحقد، ورُوي عن عكرمة، وحملوه على التجوُّز.

وجوز أن يكون «المحَال» بالفتح بمعنى الفَقَار، وهو عمود الظهر وقوامه، قال في «الأساس»[٥]: يقال: فرس قويُّ المَحَال، أي: الفَقار، الواحدة: محالة، والميم أصلية. ويكون ذلك مثلاً في القوَّة والقدرة؛ كما جاء في الحديث الصحيح: «فساعدُ اللهِ تعالى أشدُّ ومُوساه أحدُّ»[٦] لأنَّ الشخص إذا اشتدَّ محالُه كان منعوتاً بشدة القوَّة والاضطلاع بما يعجز عنه غيرُه، ألا ترى إلى قولهم: فَقَرَتْه الفواقرُ[٧]، وهو مَثَلٌ لتوهين القوى. وبهذا الحملِ لا يلزمُ إثباتُ الجسميَّة له تعالى. والجملة الاسمية في موضع الحال من الاسم الجليل.

﴿لَهُۥ﴾ أي: لله تعالى ﴿دَعْوَةُ ٱلْحَقِّ﴾ أي: الدعاء والتضرُّع الثابت الواقع في محلِّه المجاب عند وقوعه. والإضافة للإيذان بملابسة الدعوة للحقِّ، واختصاصِها به، وكونِها بمعزل من شائبة البطلان والضلال والضياع، كما يقال: كلمةُ الحقِّ،

---

(١) ينظر تفسير غريب القرآن ص٢٢٦.

(٢) في الأصل: الجوهري، والكلام في تهذيب اللغة ٥/ ٩٥، وينظر لسان العرب (محل).

(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والمحتسب ١/ ٣٥٦ ـ ونسباها للأعرج فقط ـ والبحر المحيط ٥/ ٣٧٦.

(٤) ذكره العسكري في جمهرة الأمثال ٢/ ٢٧٥، والميداني في مجمع الأمثال ٢/ ٣٠٩.

(٥) أساس البلاغة ص٥٨٤.

(٦) أخرجه أحمد (١٧٢٢٨)، والحاكم ١/ ٢٤ ـ ٢٥، وصحّحه ووافقه الذهبي.

(٧) الفواقر: الدواهي، واحدتها: فاقرة، كأنها تحطم فَقَار الظهر. النهاية (فقر)، ولسان العرب (فقر).

والمراد أنَّ إجابة ذلك له تعالى دون غيره، ويؤيِّدُه ما بعدُ كما لا يخفى.

وقيل: المرادُ بدعوة الحقِّ الدعاءُ عند الخوف، فإنَّه لا يُدعى فيه إلّا اللهُ تعالى كما قال سبحانه: ﴿ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ﴾ [الإسراء: ٦٧] وزعم الماورديُّ[١]: أنَّ هذا أشبهُ بسياق الآية.

وقيل: الدعوة بمعنى الدعاء، أي: طلبُ الإقبال، والمراد به العبادةُ؛ للاشتمال عليه[٢]، والإضافة على طرز ما تقدَّم. وبعضُهم يقول: إنَّ هذه الإضافة من إضافة الموصوف إلى الصفة، والكلامُ فيها شهير.

وحاصل المعنى أنَّ الذي يحقُّ أن يُعبدَ هو الله تعالى دون غيره.

ويُفهم من كلام البعض ـ على ما قيل ـ أنَّ الدعوةَ بمعنى الدعاء، ومتعلَّقها محذوفٌ، أي: للعبادة، والمعنى أنه الذي يحقُّ أن يُدعى إلى عبادته دون غيره.

ولا يخفى ما بين المعنيين من التلازم، فإنه إذا كانت الدعوة إلى عبادته سبحانه حقّاً كانت عبادتُه جلَّ شأنه حقّاً، وبالعكس.

وعن الحسن أنَّ المراد من الحقِّ هو اللهُ تعالى، وهو ـ كما في «البحر»[٣] ـ ثاني الوجهين اللذين ذكرهما الزمخشريُّ[٤]، والمعنى عليه كما قال: له دعوةُ المدعوِّ الحقّ الذي يسمعُ فيجيب. والأولى ما أَشرنا إليه أولاً، وجعل الحقِّ فيه مقابلَ الباطل.

وبيَّن صاحب «الكشف» حاصلَ الوجهين بأنَّ الكلام مسوقٌ لاختصاصه سبحانه بأن يُدعى ويعبد؛ ردّاً لمن يجادل في الله تعالى ويشركُ به سبحانه الأندادَ، ولا بدَّ من أن يكون في الإضافة إشعارٌ بهذا الاختصاص، فإنْ جُعل الحقُّ في مقابل الباطل فهو ظاهرٌ، وإنْ جُعل اسماً من أسمائه تعالى كان الأصل: لله دعوته؛ تأكيداً للاختصاص من اللام والإضافة، ثم زيدَ ذلك بإقامة

---

(١) في النكت والعيون ٣/ ١٠٣.
(٢) قوله: عليه، ليس في (م).
(٣) ٥/ ٣٧٦.
(٤) في الكشاف ٢/ ٣٥٤.

الظاهرِ مقامَ المضمر معاداً بوصفٍ ينبئ عن اختصاصها به أشدَّ الاختصاص، فقيل: له دعوة المدعوِّ الحقّ، والحقُّ من أسمائه سبحانه يدلُّ على أنّه الثابت بالحقيقة وما سواه باطلٌ من حيثُ هو، وحقَّ بتحقيقه تعالى إياه، فيتقيَّدُ بحسب كلِّ مقام للدلالة على أنَّ مقابلَه لا حقيقةَ له، وإذا كان المدعوُّ من دونه بطلانه لعدم الاستجابة فهو الحقُّ الذي يسمعُ فيجيب. انتهى. وبهذا سقط ما قاله أبو حيان[1] في الاعتراض على الوجه الثاني من أنَّ مآله: إلى الله دعوةُ الله، وهو نظيرُ قولك: لزيد دعوةُ زيد. ولا يصحُّ ذلك. واستغني عما قال العلامة الطيبي في تأويله من أنَّ المعنى: ولله تعالى الدعوةُ التي تليقُ أنْ تنسبَ وتضاف إلى حضرته جلَّ شأنه لكونه سبحانه سميعاً بصيراً كريماً، لا يُخيِّبُ سائلَه فيجيب الدعاء. فإنَّ ذلك كما ترى قليلُ الجدوى.

ويعلم مما في «الكشف» وجهُ تعلُّقِ هذه الجملة بما تقدَّم. وقال بعضُهم: وجهُ تعلُّقِ هذه والجملة التي قبلَها ـ أعني قوله تعالى: «وهو شديد المحال» إنْ كان سبب النزول قصة أربدَ وعامر ـ أنَّ إهلاكهما من حيثُ لم يشعرا به محال من الله تعالى، وإجابةٌ لدعوة رسوله ﷺ فقد رُوي أنه عليه الصلاة والسلام قال: «اللهمَّ احبِسْهما عنّي بما شئت»[2] أو دلالة على أن رسوله ﷺ على الحقِّ. وإن لم يكن سبب النزول ذلك، فالوجه أنَّ ذلك وعيدٌ للكفرة على مجادلتهم الرسولَ ﷺ بحلول مَحَاله بهم، وتهديدُهم بإجابةِ دعائه عليه الصلاة والسلام إنْ دعا عليهم، أو بيانُ ضلالتهم وفساد رأيهم في عبادة غير الله تعالى. ويعلم مما ذكر وجه التعلُّق على بعض التفاسير إذا قلنا: إنَّ سببَ النزول قصةُ اليهوديِّ أو الجبَّار. فتأمَّل.

﴿وَالَّذِينَ يَدْعُونَ﴾ أي: الأصنام الذين يدعونهم، أي: المشركون، وحذفُ عائد الموصول في مثل ذلك كثيرٌ، وجوز أن يكون الموصول عبارة عن المشركين، وضمير الجمع المرفوع عائدٌ إليه، ومفعول «يدعون» محذوف، أي: الأصنام،

---

(١) في البحر ٥/ ٣٧٦.

(٢) ذكر العبارة بهذا اللفظ الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٢٩. وجاءت عند الواحدي في أسباب النزول ص٢٧٦، وابن الجوزي في زاد المسير ٤/ ٣١٤ بلفظ: «اللهم اكفنيهما...» ولم ترد في باقي المصادر التي ذكرت قصة أربد وعامر مع رسول الله ﷺ، والله أعلم.

وحُذف لدلالةِ قوله تعالى: ﴿مِن دُونِهِۦ﴾ عليه؛ لأنَّ معناه متجاوزين له، وتجاوزُه إنَّما هو بعبادتها.

ويؤيِّدُ الوجهَ الأول قراءةُ اليزيدي[١] عن أبي عمرو: «تَدعون» بتاء الخطاب، وضمير ﴿لَا يَسْتَجِيبُونَ﴾ عليه عائد على «الذين»، وعلى الثاني عائدٌ على مفعول «يدعون»، وعلى كلٍّ فالمرادُ لا يستجيب الأصنامُ ﴿لَهُم﴾ أي: للمشركين ﴿بِشَيْءٍ﴾ من طلباتهم ﴿إِلَّا كَبَـٰسِطِ كَفَّيْهِ إِلَى ٱلْمَآءِ﴾ أي: لا يستجيبون شيئاً من الاستجابة وطرفاً منها إلَّا استجابةً كاستجابة الماء لمن بسط كفَّيه إليه من بعيد يطلبُه ويدعوه ﴿لِيَبْلُغَ﴾ أي: الماءُ بنفسه من غير أن يؤخذَ بشيءٍ من إناءٍ ونحوه ﴿فَاهُ وَمَا هُوَ﴾ أي: الماء ﴿بِبَـٰلِغِهِۦ﴾ أي: ببالغ فيه أبداً؛ لكونه جماداً لا يشعر بعطشه وبَسْطِ يديه إليه.

وجوَّز أبو حيان[٢] كون «هو» ضميرَ الفم والهاء في «بالغه» ضمير الماءِ أي: وما فوه ببالغِ الماءَ؛ لأنَّ كلّاً منهما لا يبلغ الآخرَ على هذه الحال.

وجوَّز بعضُهم كونَ الأول ضمير «باسط» والثاني ضمير «الماء». قال أبو البقاء[٣]: ولا يجوز أن يكونَ الأولُ عائداً على «باسط» والثاني عائداً على الفم؛ لأنَّ اسمَ الفاعل إذا جرى على غير مَنْ هو له لزمَ إبرازُ الفاعل، فكان يجب على ذلك أن يقال: وما هو ببالغه الماء. والجمهور على ما سمعت أولاً.

والغرض ـ كما قال بعضُ المدقِّقين ـ نفيُ الاستجابة على البتِّ، بتصوير أنهم أحوجُ ما يكونون إليها؛ لتحصيل مباغيهم، أخيبُ ما يكون أحدٌ في سعيه لما هو مضطرٌّ إليه.

والحاصلُ أنَّه شبَّه آلهتهم حين استكفائهم إيَّاهم ما أهمَّهم بلسان الاضطرار في عدم الشعور فضلاً عن الاستطاعة للاستجابة، وبقائهم لذلك في الخسار = بحال ماءٍ بمرأى من عطشانَ باسطٍ كفَّيه إليه يُناديه عبارةً وإشارةً، فهو لذلك في زيادة الكباد والبوار.

---

(١) في (ط) و(م): البزدوي، والمثبت من البحر المحيط ٥/ ٣٧٦، واليزيدي هو يحيى بن المبارك البصري، جوّد القرآن على أبي عمرو واختص به. معرفة القراء الكبار ١/ ٣٢٠.

(٢) في البحر ٥/ ٣٧٧.

(٣) في الإملاء ٣/ ٣٧٨.

والتشبيه على هذا من المركَّب التمثيلي في الأصل أبرزُ في معرض التهكُّم حيثُ أثبت أنَّهما استجابتان زيادةً في التخسير والتحسير، فالاستثناء مفرَّغٌ من أعمّ عامٍّ المصدر كما أشرنا إليه.

والظاهر أنَّ الاستجابةَ هناك مصدرٌ من المبنيِّ للفاعل، وهو الذي يقتضيه الفعلُ الظاهر، وجوّز أن يكون من المبنيِّ للمفعول، ويضاف إلى الباسط بناءً على استلزام المصدر من المبني للفاعل للمصدر من المبني للمفعول وجوداً وعدماً، فكأنَّه قيل: لا يستجيبون لهم بشيء، فلا يُستجاب لهم استجابةً كائنةً كاستجابةِ مَنْ بسطَ كفَّيه إلى الماء، كما في قول الفرزدق:

وعضُّ زمانٍ يا بنَ مروانَ لم يَدَعْ من المالِ إلَّا مُسْحَتٌ أو مُجلَّفُ[1]

أي: لم يدع، فلم يبق إلّا مُسحتٌ أو مجلَّفُ.

وأبو البقاء[2] يجعل الاستجابة مصدر المبني للمفعول، وإضافتُه إلى «باسط» من باب إضافة المصدر إلى مفعوله، كما في قوله تعالى: ﴿لَّا يَسْـَٔمُ ٱلْإِنسَـٰنُ مِن دُعَآءِ ٱلْخَيْرِ﴾ [فصلت: ٤٩] والفاعلُ ضميرُ «الماء» على الوجه الثاني في الموصول.

وقد يُراد من بَسْط الكفَّين إلى الماء بسطُهما، أي: نشرُ أصابيعهما ومدُّها لشربه، لا للدعاء والإشارةِ إليه، كما أشرنا إليه فيما تقدَّم، وعلى هذا قيل: شُبِّه الداعون لغير الله تعالى بمن أراد أن يغرفَ الماءَ بيديه، فبَسطهما ناشراً أصابعه في أنَّهما لا يحصلان على طائل. وجعلَ بعضُهم وجهَ الشبه قلَّةَ الجدوى، ولعله أراد عدمَها، لكنَّه بالغَ بذكر القلَّة وإرادةِ العدم؛ دلالةً على هضم الحقِّ وإيثار الصدق، ولإشمامِ طرفٍ من التهكُّم.

والتشبيه على هذا من تشبيه المفرد المقيَّد، كقولك لمن لا يحصلُ من سعيه على شيء: هو كالراقم على الماء، فإنَّ المشبَّه هو الساعي مقيَّداً بكون سعيه

(١) ديوانه ٢/ ٢٦، وسلف ٣/ ٣٧٠، والرواية المشهورة للبيت:

إلا مُسْحَتاً أو مجلَّفُ

والبيت فيه كلام طويل ذكره البغدادي في خزانة الأدب ٥/ ١٤٤ ـ ١٥٣ فينظر هناك.

(٢) في الإملاء ٣/ ٣٧٨.

كذلك، والمشبَّه به هو الراقمُ مقيَّداً بكونه على الماء، كذلك فيما نحن فيه، وليس من المركَّب العقلي في شيء على ما تُوهِّم. نعم وجه الشبه عقليٌّ اعتباريٌّ، والاستثناء مفرَّغٌ عن أعمِّ عامِّ الأحوال، أي: لا يستجيب الآلهةُ لهؤلاء الكفرة الداعين، إلَّا مشبَّهين ـ أعني الداعين ـ بمن بسطَ كفَّيه ولم يقبضهما، وأخرجهما كذلك، فلم يحصل على شيء؛ لأنَّ الماء يحصل بالقبض لا بالبسط.

ورُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنَّ ذلك تشبيهٌ بعطشانَ على شفير بئرٍ بلا رِشَاء، ولا يبلغُ قعرَ البئر، ولا الماءُ يرتفعُ إليه. وهو راجعٌ إلى الوجه الأول وليس مغايراً له كما قيل. وعن أبي عبيدة[1] أنَّ ذلك تشبيهٌ بالقابض على الماء في أنَّه لا يحصل على شيء، ثم قال: والعربُ تضرب المثل في الساعي فيما لا يدركه بذلك، وأنشد قولَ الشاعر:

فأصبحتُ ممَّا كان بيني وبينَها من الودِّ مثلَ القابضِ الماءَ باليدِ[2]

وقوله:

وإنـي وإيـاكـم وشـوقـاً إلـيـكـم كـقـابض مـاءٍ لـم تَـسِـقْـهُ أنـامـلُـه[3]

وهو راجع إلى الوجه الثاني خلا أنَّه لا يظهر من «باسط» معنى قابض، فإنَّ بسط الكفِّ ظاهرٌ في نشر الأصابع ممدودةً كما في قوله:

تـعـوَّدَ بـسـطَ الـكـفِّ حـتـى لـو انَّـه أرادَ انـقـبـاضـاً لـم تُـطِـعْـهُ أنـامـلُـه[4]

وكيفما كان فالمرادُ بباسط: شخصٌ باسطٌ، أيُّ شخصٍ كان، وما يقتضيه ظاهرُ

---

(١) مجاز القرآن ١/ ٣٢٧.

(٢) البيت دون نسبة في مجاز القرآن ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري ١٣/ ٤٨٨، وتفسير القرطبي ١٢/ ٤٢، ونسبه الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٣ لأبي الهذيل.

(٣) البيت لضابئ بن الحارث البرجمي، وهو في مجاز القرآن لأبي عبيدة ١/ ٣٢٧، وتفسير الطبري١٣/ ٤٨٨، وغريب القرآن لابن قتيبة ص٣٢٦، وتفسير القرطبي٢٢/ ١٦٩، واللسان (وسق)، والخزانة ٩/ ٣٢٣.
وقوله: لم تَسِقْهُ، أي: لم تحمله، كما في اللسان.

(٤) البيت لأبي تمام، وهو في ديوانه ٣/ ٢٩ (وروايته: ثناها لقبضٍ، بدل: أراد انقباضاً) ونقله المؤلف عن الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٣٠.

ما رُوي عن بُكير بن معروف من أنه قابيل حيثُ إنَّه لما قتل أخاه، جعل الله تعالى عذابَه أنْ أخذَ بناصيته في البحر ليس بينه وبين الماء إلَّا إصبعٌ فهو يريدُه ولا ينالُه[(١)] = ممَّا لا ينبغي أن يعوَّلَ عليه.

وقُرئ: «كباسطٍ كفَّيه» بالتنوين[(٢)]، أي: كشخصٍ يبسط كفَّيه.

﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ ۝١٤﴾ أي: في ضياع وخسار وباطل، والمرادُ بهذا الدعاءُ، إنْ كان دعاءَ آلهتهم فظاهرٌ أنه كذلك لكنه فُهم من السابق وحينئذٍ يكون مكرَّراً للتأكيد، وإن كان دعاءَهم اللهَ تعالى، فقد استشكلوا ذلك بأنَّ دعاء الكافر قد يُستجاب، وهو المصرَّح به في «الفتاوى»، واستجابةُ دعاء إبليس وهو رأس الكفار نصٌّ في ذلك. وأُجيب بأنَّ المراد دعاؤُهم اللهَ تعالى بما يتعلَّقُ بالآخرة، وعلى هذا يُحمل ما رُوي عن ابن عباس ﵄ من أنَّ أصواتَ الكفار محجوبةٌ عن الله تعالى، فلا يُسمع دعاؤهم. وقيل: يجوز أن يُراد دعاؤهم مطلقاً ولا يقيَّدُ بما أُجيبوا به.

﴿وَلِلَّهِ﴾ وحده ﴿يَسْجُدُ﴾ يخضعُ وينقاد، لا لشيء غيره سبحانه استقلالاً ولا اشتراكاً، فالقصر ينتظم القلب والإفراد[(٣)]. ﴿مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ﴾ من الملائكة والثَّقَلَيْن، كما يقتضيه ظاهرُ التعبير بـ «مَنْ»، وتخصيصُ انقياد العقلاء مع كون غيرهم أيضاً كذلك؛ لأنَّهم العمدةُ، وانقيادُهم دليلُ انقيادِ غيرهم، على أنَّ فيما يأتي إن شاء الله تعالى بياناً لذلك. وقيل: المراد ما يشمل أولئك وغيرَهم، والتعبير بـ «من» للتغليب.

﴿طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ نصبٌ على الحال، فإن قلنا بوقوع المصدر حالاً من غير تأويل فهو ظاهرٌ، وإلَّا فهو بتأويل: طائعين وكارهين، أي: إنَّهم خاضعون لعظمته تعالى، منقادون لإحداث ما أراد سبحانه فيهم من أحكام التكوين والإعدام، شاؤوا أو أبَوْا، من غيرِ مداخلةِ حكمِ غيرِه جلَّ وعلا، بل غيرِ حكمهِ تعالى في شيء من ذلك.

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٥٣، وعزاه لابن أبي حاتم.

(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٤، والبحر ٥/ ٣٧٧ دون نسبة.

(٣) يعني نوعي القصر الإضافي، وهما قصر القلب وقصر الإفراد. ينظر معجم المصطلحات البلاغية ص٤٦٩.

وجوز أن يكون النصبُ على العلَّة؛ فالكَره بمعنى الإكراه، وهو مصدرُ المبنيِّ للمفعول؛ ليتَّحد الفاعل بناءً على اشتراط ذلك في نصب المفعول لأجله، وهو عند مَن لم يشترط على ظاهره. وما قيل عليه من أنَّ اعتبار العليَّة في الكره غيرُ ظاهر ـ لأنَّه الذي يقابل الطَّوعَ وهو الإباءُ ولا يعقل كونه علَّةً للسجود ـ فمدفوعٌ بأنَّ العلَّة ما يَحملُ على الفعل، أو ما يترتَّب عليه، لا ما يكون غرضاً له، وقد مرَّ عن قرب[1]، فتذكره.

وقيل: النصبُ على المفعولية المطلقة، أي: سجود طوعٍ وكره.

﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ أي: وتنقاد له تعالى ظلالُ مَن له ذلك منهم، وهم الإنسُ فقط، أو ما يعمُّهم وكل كثيف.

وفي «الحواشي الشهابية»[2]: ينبغي أن يرجعَ الضميرُ لمن في الأرض؛ لأنَّ مَن في السماء لا ظلَّ له، إلا أن يحملَ على التغليب أو التجوُّز.

ومعنى انقياد الظلال له تعالى أنَّها تابعةٌ لتصرُّفه سبحانه ومشيئتِه في الامتداد والتقلُّص والفيء والزوال. وأصلُ الظلِّ ـ كما قال الفرَّاء[3] ـ مصدر، ثُمَّ أُطلق على الخيال الذي يظهر للجِرْم، وهو إما معكوسٌ أو مستوٍ، ويُبنى على كلٍّ منهما أحكامٌ ذكروها في محلِّها.

﴿بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْآصَالِ ﴿١٥﴾﴾ ظرفٌ للسجود المقدَّر، والباءُ بمعنى «في» وهو كثير، والمراد بهما الدوام؛ لأنَّه يذكر مثلُ ذلك للتأبيد، قيل: فلا يقال: لم خصَّا بالذكر؟ وكذا يقال إذا كانا في موضع الحال من الظلال، وبعضُهم يعلِّلُ ذلك بأنَّ امتدادَها وتقلُّصَها في ذينك الوقتين أظهرُ.

والغُدُوّ: جمعُ: غداةٍ، كقُنيّ وقناة. والآصال: جمعُ أصيل، وهو: ما بين العصر والمغرب، وقيل: هو جمع أُصل جمعُ أصيل. وأصلُه أأصال، بهمزتين قُلبت الثانية ألفاً، وقيل: الغُدُوُّ مصدر، وأُيِّد بقراءة ابن مجلز: «الإيصال» بكسر

---

(١) عند تفسير: «خوفاً وطمعاً» من الآية: (١٢) من هذه السورة.
(٢) ٥/ ٢٣٠.
(٣) ذكر كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٣٧٨، وعنه نقل المصنف.

الهمزة[١]، على أنَّه مصدرُ آصَلْنَا، بالمدِّ، أي: دخلنا في الأصيل، كما قاله ابنُ جنِّي[٢].

هذا وقيل: إنَّ المراد حقيقةُ السجود، فإنَّ الكفرة حالةَ الاضطرار ـ وهو المَعنيّ بقوله تعالى: «وكرهاً» ـ يخصُّون السجود به سبحانه، قال تعالى: ﴿فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ﴾ [العنكبوت: ٦٥]. ولا يبعد أن يخلق الله تعالى في الظلال أفهاماً وعقولاً بها تسجد لله تعالى شأنُهُ، كما خلق جلَّ جلالُه ذلك للجبال حتى اشتغلَت بالتسبيح، وظهرت فيها آثارُ التجلِّي، كما قاله ابنُ الأنباري[٣]. وجوِّز أن يُراد بسجودها ما يُشاهد فيها من هيئة السجود تبعاً لأصحابها، وهذا ـ على ما قيل ـ مبنيٌّ على ارتكاب عموم المجاز في السجود المذكور في الآية، بأنْ يرادَ به الوقوعُ على الأرض، فيشمل سجودَ الظلال بهذا المعنى، أو تقديرُ فعلٍ مُؤدٍّ ذلك رافعٍ للظلال، أو خبر له كذلك، أو التزام أنَّ إرادة ما ذُكر لا يضرُّ في الحقيقة؛ لكونه بالتبعيَّة والعرض، أو أنَّ الجمعَ بين الحقيقة والمجاز جائزٌ، ولا يخفى ما في بعض الشقوق من النظر.

وعن قتادة أنَّ السجودَ عبارةٌ عن الهيئة المخصوصة، وقد عبَّر بالطوع عن سجود الملائكة عليهم السلام والمؤمنين، وبالكَرْه عن سجود من ضمَّه السيفُ إلى الإسلام، فيسجد كَرْهاً، إما نفاقاً، أو يكونَ الكَرْه أوَّلَ حاله فتستمرّ عليه الصفة، وإن صحَّ إيمانه بعدُ. وقيل: الساجدُ طوعاً: من لا يثقل عليه السجود، والساجد كَرْهاً: مَنْ يثقلُ عليه ذلك. وعن ابن الأنباري: الأوَّلُ مَن طالت مدَّة إسلامه، فألِفَ السجودَ، والثاني مَن بدأ بالإسلام إلى أن يألف السجود[٤].

وأيًّا ما كان فـ «مَن» عامٌّ أريد به مخصوص، إذ يخرج من ذلك من لا يسجد، وقيل: هو عامٌّ لسائر أنواع العقلاء، والمراد بـ «يسجد» يجب أن يسجدَ، ولكن عبَّر عن الوجوب بالوقوع مبالغةً. واختار غيرُ واحدٍ في تفسير الآية ما ذكرناه أولاً؛ ففي

---

(١) المحتسب ١/ ٣٥٦، والكشاف ٢/ ٣٥٥، والبحر ٥/ ٣٧٨.

(٢) في المحتسب ١/ ٣٥٦.

(٣) ذكر كلامَه أبو السعود في تفسيره ٥/ ١٢.

(٤) كلمة: السجود، ليست في (م). وكلام ابن الأنباري ذكره الماوردي في النكت والعيون ٣/ ١٠٤، وأبو حيان في البحر المحيط ٥/ ٣٧٨.

«البحر»: والذي يظهر أنَّ مساق الآية إنَّما هو أنَّ العالَمَ كلَّه مقهورٌ لله تعالى، خاضعٌ لما أراد سبحانه منه، مقصورٌ على مشيئته، لا يكون منه إلا ما قدَّر ـ جلَّ وعلا ـ فالذين تعبدونهم كائناً ما كانوا داخلون تحت القهر، لا يستطيعون نفعاً ولا ضرًّا، ويدلُّ على هذا المعنى تشريكُ الظلالِ في السجود، وهي ليست أشخاصاً يُتصوَّرُ منها السجود بالهيئة المخصوصة، ولكنَّها داخلةٌ تحت مشيئته تعالى يصرفُها سبحانه حسبما أراد، إذ هي من العالَم، والعالمُ جواهرُه وأعراضُه داخلةٌ تحت قهر إرادته تعالى كما قال سبحانه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا إِلَىٰ مَا خَلَقَ اللَّهُ مِن شَيْءٍ يَتَفَيَّأُ ظِلَالُهُ عَنِ الْيَمِينِ وَالشَّمَائِلِ سُجَّدًا لِّلَّهِ﴾ [النحل:٤٨] وكونُ المراد بالظلال الأشخاصَ ـ كما قال بعضُهم ـ ضعيفٌ، وأضعفُ منه ما قاله ابن الأنباري، وقياسُها على الجبال ليس بشيءٍ؛ لأنَّ الجبل يمكنُ أن يكون له عقلٌ بشرط تقدير الحياة، وأمَّا الظِّلُّ فعَرَضٌ لا يُتصوَّرُ قيامُ الحياة به، وإنَّما معنى سجودِها ميلُها من جانب إلى جانب، واختلافُ أحوالها كما أراد سبحانه وتعالى(١).

وفي «إرشاد العقل السليم» بعد نقلِ ما قيلَ أولاً: وأنت خبيرٌ بأنَّ اختصاص سجود الكافر حالةَ الاضطرار والشدَّة لله تعالى لا يُجدي، فإنَّ سجودَه للصنم حالةَ الاختيار والرخاء مُخِلٌّ بالقصر المستفاد من تقديم الجارِّ والمجرور، فالوجهُ حملُ السجود على الانقياد، ولأنَّ تحقيقَ انقياد الكلِّ في الإبداع والإعدام له تعالى أدخلُ في التوبيخ على اتِّخاذ أولياء من دونه سبحانه وتعالى من تحقيق سجودِهم له تعالى(٢).اهـ. وفي تلك الأقوالِ بعدُ ما لا يخفى على الناقد البصير.

﴿قُلْ مَن رَّبُّ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ﴾ تحقيقٌ، كما قال بعضُ المحقِّقين؛ لأنَّ خالقَهما ومتولِّي أمرهما مع ما فيهما على الإطلاق هو اللهُ تعالى، قيل: إنَّه سبحانه بعد أن ذكر انقيادَ المظروف لمشيئته تعالى ذكر ما هو كالحجَّة على ذلك من كونه ـ جلَّ وعلا خالقَ هذا الظرف العظيم الذي يبهر العقولَ، ومُدبِّرَه، أي: قل يا محمد لهؤلاء الكفارِ الذين اتخذوا مِن دونه أولياءَ: مَنْ ربُّ هذه الأجرامِ العظيمة العلوية والسفلية؟.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٧٨.
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ١٢.

﴿قُلِ ٱللَّهُ﴾ أمرَ ﷺ بالجواب إشعاراً بأنه متعيّنٌ للجوابية، فهو ـ عليه الصلاة والسلام ـ والخصمُ في تقريره سواءٌ، ويجوز أن يكون ذلك تلقيناً للجواب؛ ليبيِّنَ لهم ما هم عليه من مخالفتهم لما علموه، وقيل: إنَّه حكايةٌ لاعترافهم، والسياقُ يأباه.

وقال مكّي[1]: إنهم جَهِلوا الجواب فطلبوه من جهته ﷺ، فأُمر بإعلامهم به.

ويُبعده أنَّه تعالى قد أخبر بعلمهم في قوله سبحانه: ﴿وَلَئِن سَأَلْتَهُم مَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ لَيَقُولُنَّ ٱللَّهُ﴾ [لقمان: ٢٥] وحينئذٍ كيف يقال: إنَّهم جَهِلوا الجوابَ فطلبوه؟ نعم، قال البغويُّ[2]: رُوي أنَّه لما قال ﷺ ذلك للمشركين، عطفوا عليه فقالوا: أجبْ أنت. فأمره اللهُ تعالى بالجواب. وهو بفرض صحته لا يدلُّ على جهلهِم كما لا يخفى.

﴿قُلْ﴾ إلزاماً لهم وتبكيتاً ﴿أَفَٱتَّخَذْتُم﴾ لأنفسِكم ﴿مِّن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾ عاجزين ﴿لَا يَمْلِكُونَ لِأَنفُسِهِمْ﴾ وهي أعزُّ عليهم منكم ﴿نَفْعًا﴾ يستجلبونه ﴿وَلَا ضَرًّا﴾ يدفعونه عنها، فضلاً عن القدرة على جَلْب النفع للغير ودفع الضَّرر عنه، والهمزةُ للإنكار. والمراد: بعد أن عَلِمتموه ربَّ السماواتِ والأرض اتَّخذتم من دونه أولياءَ في غاية العجز عن نفعِكم، فجعلتم ما كان يجبُ أن يكونَ سببَ التوحيد من علمِكم سببَ الإشراك. فالفاءُ عاطفةٌ للتسبُّبِ والتفريع، دخلتِ الهمزةُ عليه؛ لأنَّ المنكرَ الاتخاذُ بعد العلم، لا العلمُ، ولا هما معاً.

ووصفُ الأولياءِ بما ذكر ممَّا يقوِّي الإنكارَ ويؤكِّدهُ.

ويفهم ـ على ما قيل ـ من كلام البعض أنَّ هذا دليلٌ ثانٍ على ضلالهم وفساد رأيهم في اتِّخاذهم أولياءَ رجاء أن ينفعوهم. واختُلف في الدليل الأول فقيل: هو ما يُفهم من قوله تعالى: «قل أفاتخذتم من دونه أولياء» وقيل: هو ما يُفهم من قوله سبحانه: «والذين يدعون من دونه» إلخ، فتدبَّر.

﴿قُلْ﴾ تصويراً لآرائهم الركيكةِ بصورة المحسوس: ﴿هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ﴾ الذي

(١) هو مكي بن ابي طالب، وقوله في المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٧٨.
(٢) في تفسيره ٣/ ١٢

هو المشركُ الجاهل بالعبادة ومستحقِّها ﴿وَٱلْبَصِيرُ﴾ الذي هو الموحِّدُ العالِمُ بذلك. وإلى هذا ذهب مجاهد، وفي الكلام عليه استعارةٌ تصريحية. وكذا على ما قيل: إنَّ المرادَ بالأول الجاهلُ بمثل هذه الحجَّة، وبالثاني العالمُ بها، وقيل: إنَّ الكلام على التشبيه، والمراد: لا يستوي المؤمنُ والكافرُ، كما لا يستوي الأعمى والبصير، فلا مجاز. ومن الناس من فسَّر الأولَ بالمعبود الغافلِ، والثاني بالمعبود العالِم بكلِّ شيء. وفيه بعدٌ.

﴿أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ﴾ التي هي عبارةٌ عن الكفر والضلال ﴿وَٱلنُّورُ﴾ الذي هو عبارةٌ عن الإيمان والتوحيد. ورُوي ذلك عن مجاهد أيضاً. وجمع الظلمات؛ لتعدُّدِ أنواع الكفر، ككفر[1] النصارى وكفر المجوس وكفر غيرهم، وكونُ الكفر كلِّه ملَّةً واحدةً أمرٌ آخرُ. و«أم» كما في «البحر»[2] منقطعةٌ، وتقدَّرُ بـ: «بل»، والهمزةُ على المختار، والتقدير: بل أَهَلْ تستوي، و«هل» وإن نابَتْ عن الهمزة في كثيرٍ من المواضع فقد جامعَتها أيضاً كما في قوله:

أَهَـلْ رأَوْنـا بـوادي الـقُـفِّ ذي الأَكَـمِ[3]

وإذا جامعَتْها مع التصريح بها فَلأَن تجامعَها مع «أم» المتضمنةِ لها أَولى، ويجوز فيها بعد «أم» هذه أن يؤتى بها؛ لشبهها بالأدوات الاسمية التي للاستفهام في عدم الأصالة فيه، كما في قوله تعالى: ﴿أَمَّن يَمْلِكُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ﴾ [يونس:٣١]. ويجوز أن لا يُؤتى بها؛ لأن «أم» متضمِّنةٌ للاستفهام، وقد جاء الأمران في قوله:

---

(١) في (ط): ككفرة.

(٢) ٥/ ٣٧٩.

(٣) البيت لزيد الخيل، وصدره:

سـائِـلْ فـوارسَ يَـرْبُـوعٍ بـشَـدَّتِـنـا

وهو في ديوانه ص١٠٠، ومغني اللبيب ص٤٦٠، والخزانة١١/ ٢٦١ - وروايتهم: بسفح القاع، بدل: بوادي القف - والمقتضب ١/ ٤٤، والخصائص ٢/ ٤٦٣، وأمالي ابن الشجري١/ ١٦٣، وروايتهم: بسفح القُفِّ.

ويربوع: أبو حيٍّ من العرب، الشَّدَّة: الحملة، القُفّ: هي حجارة غاص بعضها في بعض لا يخالطها سهولة، وهو جبل غير أنه ليس بطويل في السماء. الأكَم: واحدتها: أَكَمة، وهي ما ارتفع من الأرض. شرح أبيات المغني للبغدادي٦/ ٦٧ -٧٣.

هل ما علمتَ وما استُودِعْتَ مكتومُ أَمْ حَبْلُها إذ نأَتْكَ اليومَ مَصْرومُ
أَمْ هل كبيرٌ بكى لم يَقْضِ عَبْرَتَهُ إِثْرَ الأحبَّةِ يوم البَيْنِ مَشْكومُ[١]

وقرأ الأخوان وأبو بكر: «أَمْ هل يستوي» بالياء التحتية[٢]، ثمَّ إنَّه تعالى أكَّد ما اقتضاه الكلامُ السابق من تخطئة المشركين، فقال سبحانه: ﴿أَمْ جَعَلُوا﴾ أي: بل أجعلوا ﴿لِلَّهِ﴾ جلَّ وعلا ﴿شُرَكَآءَ خَلَقُوا كَخَلْقِهِۦ﴾ سبحانه وتعالى، والهمزةُ لإنكار الوقوع، وليس المنكَرُ هو الجعل؛ لأنَّه واقعٌ منهم، وإنما هو الخلق كخلقِه تعالى.

والمعنى: أنَّهم لم يجعلوا لله تعالى شركاءَ خلقوا كخلقه.

﴿فَتَشَٰبَهَ ٱلْخَلْقُ عَلَيْهِمْ﴾ بسبب ذلك، وقالوا: هؤلاء خلقوا كخلق الله تعالى، واستحقُّوا بذلك العبادةَ كما استحقَّها سبحانه؛ ليكون ذلك منشأً لخطئهم، بل إنَّما جعلوا له شركاءَ عاجزين لا يقدرون على ما يقدرُ عليه الخلقُ، فضلاً عمَّا يقدر عليه الخالق، والمقصود بالإنكارِ والنفيِ هو القيدُ والمقيَّدُ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد من المحقِّقين.

وفي «الانتصاف»[٣] أنَّ «خلقوا كخلقه» في سياق الإنكار جيءَ به للتهكُّم، فإنَّ غيرَ الله تعالى لا يخلق شيئاً، لا مساوياً ولا منحطّاً، وقد كان يكفي في الإنكار - لولا ذلك - أنَّ الآلهة التي اتَّخذوها لا تخلق.

وتعقَّبه الطيبيُّ بأنَّ إثبات التهكُّم تكلُّفٌ، فإنَّه ذِكر الشيءِ وإرادةُ نقيضه؛ استحقاراً للمخاطَب كما في قوله تعالى: ﴿فَبَشِّرْهُم بِعَذَابٍ أَلِيمٍ﴾ [آل عمران: ٢١] وها هنا «كخلقه» جيء به مبالغةً في إثبات العجز لآلهتهم على سبيل الاستدراج وإرخاء العنان، فإنَّه تعالى لمَّا أنكر عليهم أولاً اتخاذَهم من دونه شركاءَ، ووصَفَها بأنَّها لا تملك لأنفسها نفعاً ولا ضرًّا فكيف تملك ذلك لغيرها؟! وأنكرَ عليهم ثانياً على سبيل التدرُّج وصفَ الخلق أيضاً، يعني: هَبْ أنَّ أولئك الشركاءَ قادرون على

---

(١) البيتان لعلقمة الفحل، وهما في ديوانه ص٥٠، والمفضليات ص٣٩٧، والخزانة ١١/ ٢٨٦. قال البغدادي: المشكوم: المجازَى، أي: هل تجازيك ببكائك على إثرها وأنت شيخ.

(٢) الأخوان هما: حمزة والكسائي، والقراءة في: السبعة ص٣٥٨، والتيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ٢٩٧، وقرأ بها خلف أيضاً.

(٣) ٢/ ٣٥٥.

نفع أنفسهم وعلى نفع عَبَدَتِهم، فهل يقدرون على أن يخلقوا شيئاً؟! وهَبْ أنَّهم قادرون على خلق بعض الأشياء، فهل يقدرون على ما يقدرُ عليه الخالقُ مِنْ خلق السماوات والأرض؟! اهـ.

والحقُّ أنَّ الآية ناعيةٌ عليهم، مُتهكِّمةٌ بهم، فإنَّ من لا يملك لنفسه شيئاً من النفع والضرِّ أبعدُ من أن يفيدَهم ذلك، وكيف يُتوهَّم فيه أنَّه خالقٌ، وأنْ يشتبَه على ذي عقل، فينبَّه على نفيه، وهذا المقدار يكفي في الغرض فافهم.

﴿قُلِ﴾ تحقيقاً للحقِّ وإرشاداً لهم: ﴿ٱللَّهُ خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾ من الجواهر والأعراض، ويلزمُ هذا أنْ لا خالقَ سواه؛ لئلا يلزمَ التواردُ ـ وهو المقصود ـ؛ ليدلَّ على المراد وهو نفيُ استحقاقِ غيرِه تعالى للعبادة والألوهية، أي: لا خالقَ سواه فيشاركه في ذلك الاستحقاق.

وبعموم الآية استدلَّ أهلُ السنَّة على أنَّ أفعال العباد مخلوقةٌ له تعالى، والمعتزلةُ تزعمُ التخصيصَ بغير أفعالهم. ومن الناس من يحتجُّ أيضاً لما ذهب إليه أهلُ الحقِّ بالآية الأُولى، وهو كما ترى.

﴿وَهُوَ ٱلْوَٰحِدُ﴾ المتوحِّد بالألوهيَّة المنفردُ بالربوبيَّة ﴿ٱلْقَهَّٰرُ ﴿١٦﴾﴾ الغالبُ على كلِّ ما سواه، ومن جملة ذلك آلهتُهم، فكيف يكون المغلوبُ شريكاً له تعالى؟! وهذا ـ على ما قيل ـ كالنتيجة لما قبلَه.

وهو يحتمل أن يكونَ من مقول القول وأن يكون جملةً مستأنفةً.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ أي: من جهتِها على ما هو المشاهَدُ، وقيل: منها نفسها، ولا تجوُّزَ في الكلام. واستُدلَّ له بآثارٍ اللهُ تعالى أعلمُ بصحتها.

وقيل: أنزلَ منها نفسها ﴿مَآءً﴾ أي: كثيراً، أو نوعاً منه، وهو ماءُ المطرِ باعتبار أنَّ مباديه منها، وذلك لتأثير الأجرامِ الفلكيَّة في تصاعد البخار، فيُتجوَّزُ في «مِنْ».

﴿فَسَالَتْ﴾ بذلك ﴿أَوْدِيَةٌ﴾ واقعة[1] في مواقعهِ لا جميع الأودية، إذِ الأمطارُ لا تستوعبُ الأقطارَ.

---

(١) في (م): دافعة.

وهو جمعُ وادٍ، قال أبو علي الفارسيُّ[١]: ولا يعلم أنَّ فاعلاً جُمعَ على أفعلة، ويشبه أن يكون ذلك لتعاقب فاعل وفعيل على الشيء الواحد، كعالِم وعليم، وشاهد وشهيد، وناصر ونصير. ثمَّ إنَّ وزنَ فاعل يُجمع على أفعال، كصاحب وأصحاب، وطائر وأطيار. ووزنَ فعيل يجمع على أفعلة، كجريب[٢] وأجربة، ثمَّ لمَّا حصلتِ المناسبةُ المذكورة بين فاعل وفعيل لا جرَم يجمعُ فاعل جمعَ فعيل، فيقال: وادٍ وأودية، ويجمعُ فعيل جمعَ فاعل: يتيم وأيتام، وشريف وأشراف. اهـ.

ونظيرُ ذلك: نادٍ وأندية، وناجٍ وأنجية. قيل: ولا رابع لها. وفي «شرح التسهيل» ما يخالفه.

والوادي: الموضعُ الذي يسيل فيه الماء بكثرة، وبه سميت الفرجة بين الجبلين، ويطلق على الماء الجاري فيه، وهو اسمُ فاعلٍ من وَدَى إذا سال، فإن أُريدَ الأول فالإسنادُ مجازيٌّ، أو الكلام على تقدير مضافٍ كما قال الإمام[٣]، أي: مياه أودية. وإن أُريد الثاني وهو معنًى مجازيٌّ من باب إطلاق اسم المحلِّ على الحالِّ فالإسناد حقيقيٌّ، وإيثار التمثيل بالأودية على الأنهار المستمرَّة الجريان؛ لوضوح المماثلة بين شأنها وما مثَّل بها، كما سنشيرُ إليه إن شاء الله تعالى.

﴿بِقَدَرِهَا﴾ أي: بمقدارها الذي عيَّنه اللهُ تعالى واقتضَتْه حكمتُه سبحانه في نفع الناس، أو بمقدارها المتفاوتِ قلَّةً وكثرةً، بحسب تفاوت محالِّها صغراً وكبراً، لا بكونها مالئةً لها منطبقةً عليها، بل بمجرَّد قلَّتها بصغرها المستلزم لقلَّةِ موارد الماء، وكثرتها بكبرها المستدعي لكثرةِ الموارِد، فإنَّ مواردَ السيل الجاري في الوادي الصغير أقلُّ من موارد السيل الجاري في الوادي الكبير. هذا إذا ما أُريد بالأودية ما يسيلُ فيها. أمَّا إن أُريد بها المعنى الحقيقيُّ، فالمعنى: سالت مياهُها بقدر تلك الأوديةِ على نحو ما عرفته آنفاً، أو يراد بضميرها مياهُها بطريق الاستخدام، ويراد «بقدرها» ما ذُكر أولاً من المعنيين. قاله شيخ الإسلام[٤].

---

(١) ذكر كلامَه الرازيُّ في تفسيره ١٩/ ٣٦.
(٢) الجريب: مكيال. لسان العرب (جرب).
(٣) في تفسيره ١٩/ ٣٦.
(٤) هو أبو السعود في تفسيره ٥/ ١٤.

والجارُّ والمجرور على ـ ما نُقل عن الحوفيِّ ـ متعلِّقٌ بـ «سالت»[(١)]، وقال أبو البقاء[(٢)]: إنه في موضع الصفة لـ «أودية». وجوَّز أن يكون متعلِّقاً بـ «أنزل».

وقرأ زيدُ بن عليٍّ رضي الله عنهما، والأشهبُ العقيليُّ، وأبو عمرٍو في رواية: «بقَدْرها» بسكون الدال، وهي لغة في ذلك[(٣)].

﴿فَٱحْتَمَلَ﴾ أي: حمل، وجاء افْتَعل بمعنى المجرَّد كاقْتَدر وقَدَر. ﴿ٱلسَّيْلُ﴾ أي: الماء الجاري في تلك الأودية، والتعريف لكونه معهوداً مذكوراً بقوله تعالى: ﴿أَوْدِيَةٌۢ﴾. ولم يجمع؛ لأنه ـ كما قال الراغب[(٤)] ـ مصدرٌ بحسب الأصل، وفي «البحر»[(٥)]: إنَّه إنَّما عُرِّفَ؛ لأنَّه عنى به ما فُهم من الفعل، والذي يتضمنه الفعلُ من المصدر وإن كان نكرةً إلا أنَّه إذا عاد في الظاهر كان معرفةً، كما كان لو صرّح به نكرةً، وكذا يضمر إذا عاد ما دلَّ عليه الفعل من المصدر، نحو: مَنْ كذب كان شرًّا له، أي: الكذبُ، ولو جاء هنا مضمراً لكان جائزاً عائداً على المصدر المفهوم من سالت. اهـ.

وأورد عليه أنَّه كيف يجوزُ أن يعنى به ما فُهم من الفعل وهو حَدَثٌ، والمذكورُ المعرَّفُ عينٌ كما علمت؟ وأجيب بأنَّه بطريق الاستخدام. وردَّ بأنَّ الاستخدامَ أن يذكرَ لفظٌ بمعنىً ويعادَ عليه ضميرٌ بمعنىً آخرَ، حقيقياً كان أو مجازياً، وهذا ليس كذلك؛ لأنَّ الأوَّل مَصدرٌ أي: حَدَثٌ في ضمن الفعل، وهذا اسمُ عينٍ ظاهرٌ يتَّصفُ بذلك، فكيف يُتصوَّرُ فيه الاستخدام؟ نعم، ما ذكروه أغلبيٌّ لا يختصُّ بما ذكر، فإنَّ مثلَ الضمير اسمُ الإشارة، وكذا الاسم الظاهر. اهـ.

وانظر هل يجوز أن يرادَ من السيل المعنى المصدريُّ فلا يحتاج إلى حديث الاستخدام أم لا ؟.

---

(١) ينظر البحر ٥/ ٣٨١، والدر المصون ٧/ ٣٨.

(٢) في الإملاء ٣/ ٣٨١.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر ٥/ ٣٨١.

(٤) في المفردات (سال).

(٥) ٥/ ٣٨١.

وعلى الجواز يكون المعنى: فاحتمل الماءُ المنزل من السماء بسبب السيل ﴿زَبَدًا﴾ هو: الغثاءُ الذي يطرحه الوادي إذا جاش ماؤهُ واضطربت أمواجهُ، على ما قاله أبو الحجاج الأعلمُ[1]، وهو معنى قول ابن عيسى: إنه وَضَرُ الغليان وخَبَثُه[2]. قال الشاعر[3]:

ومـا الـفـراتُ إذا جـاشَـتْ غَـوارِبُـه ... تـرمـي أواذيُّـه الـعِـبْـرَيـن بـالـزَّبَـدِ

﴿رَّابِيًا﴾ أي: عالياً منتفخاً فوق الماء، ووصفُ الزبد بذلك قيل: بياناً لما أُريد بالاحتمال المحتمل؛ لكون المحمول غيرَ طافٍ كالأشجار الثقيلة، وإنَّما لم يدفع ذلك بأن يقال: فاحتملَ السيلُ زبداً فوقَه؛ للإيذان بأنَّ تلك الفوقيَّةَ مقتضى شأن الزبد، لا من جهة المحتمل، تحقيقاً للمماثلة بينه وبين ما مثَّل به من الباطل[4] الذي شأنهُ الظهور في مبادي الرأي من غير مداخلة في الحقِّ.

﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ﴾ ابتداءُ جملة ـ كما رُوي عن مجاهد ـ معطوفةٍ على الجملة الأولى؛ لضرب مثلٍ آخرَ، أي: ومن الذي يفعلون الإيقاد. ﴿عَلَيْهِ﴾ وضميرُ الجمع للناس، أُضمر مع عدم السبق؛ لظهوره.

وقرأ أكثر السبعة، وأبو جعفر، والأعرج، وشَيْبة: «توقدون» بتاء الخطاب[5].

---

(١) في أشعار الشعراء الستة الجاهليين ١/١٩٦.

(٢) نقل كلامه أبو حيان في البحر المحيط ٥/٣٥٨، والوضر: وسخ الدسم واللبن. اللسان (وضر).

(٣) البيت للنابغة الذبياني من قصيدته المشهورة، وهو في ديوانه ص٣٦، وأشعار الشعراء الستة الجاهليين١/١٩٦، وروايته هناك:

فـمـا الـفـراتُ إذا هـبَّ الـريـاحُ لـه ... تـرمـي غـواربُـه الـعِـبْـرَيـن بـالـزَّبَـد

وفي اللسان، وتاج العروس (عبر) كما ذكره المصنف هنا.

غواربه: ما علا من الموج، مفردها: غارب، عِبْر الوادي: شاطئه وناحيته، الأواذيّ: الأمواج، مفردها: آذيّ.

(٤) في (م): الباطن.

(٥) قرأ بها من السبعة: ابن كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر، وعاصم في رواية أبي بكر. التيسير ص٣٣، والنشر٢/٢٩٧ ـ ٢٩٨، والحجة للفارسي ٥/١٦. وقراءة الأعرج وشيبة من الشواذ، وهما في البحر ٥/٣٨١.

والجارُّ متعلِّق بما عندَه، وكذا قولُه تعالى: ﴿فِي ٱلنَّارِ﴾ عند أبي البقاء[١] والحوفيِّ. قال أبو عليٍّ[٢]: قد يُوقَد على الشيء وليس في النار، كقوله تعالى: ﴿فَأَوْقِدْ لِي يَـٰهَـٰمَـٰنُ عَلَى ٱلطِّينِ﴾ [القصص: ٣٨] فإنَّ الطين الذي أمر بالوقد عليه ليس في النار، وإنما يُصيبه لهبُها، وقال مكيٌّ وغيره: إن «في النار» متعلِّق بمحذوفٍ وقع حالاً من الموصول، أي: كائناً، أو ثابتاً فيها، ومنعوا تعلُّقه بـ «توقدون»، قالوا: لأنه لا يُوقد على شيء إلا وهو في النار، والتعليقُ بذلك يتضمَّن تخصيصَ حالٍ من حال أخرى، وقال أبو حيان[٣]: لو قلنا: إنه لا يُوقد على شيء إلا وهو في النار، لجاز أيضاً التعليقُ على سبيلِ التوكيد؛ كما قالوا في قوله تعالى: ﴿وَلَا طَـٰٓئِرٍ يَطِيرُ بِجَنَاحَيْهِ﴾ [الأنعام:٣٨] وقيل: إن زيادةَ ذلك؛ للإشعار بالمبالغة في الاعتمال للإذابة وحصول الزَّبَد، والمراد بالموصول نحوُ الذهب، والفضة، والحديد، والنحاس، والرصاص، وفي عدم ذِكْرها بأسمائها والعدولِ إلى وصفها بالإيقاد عليها المشعرِ بضربها بالمطارق؛ لأنه لأجله، وبكونها كالحطب الخسيس = تهاونٌ بها؛ إظهاراً لكبريائه جلَّ شأنه على ما قيل، وهو لا ينافي كونَ ذلك ضربَ مثلٍ للحقِّ؛ لأن مقامَ الكبرياء يقتضي التهاون بذلك، مع الإشارة إلى كونه مرغوباً فيه منتفَعاً به بقوله تعالى: ﴿ٱبْتِغَآءَ حِلْيَةٍ أَوْ مَتَـٰعٍ﴾ فوفي كلٍّ من المقامين حقَّه، فما قيل: إن الحَمْلَ على التهاون لا يناسب المقامَ؛ لأن المقصود تمثيلُ الحقِّ بها، وتحقيرُها لا يناسبُه = ساقط، فتأمَّل.

ونصب «ابتغاء» على أنه مفعولٌ له كما هو الظاهر، وقال الحوفي: إنه مصدرٌ في موضع الحال، أي: مبتغين وطالبين اتِّخاذَ حلية: وهي ما يُتزيَّن ويُتجمَّل به، كالحلي المتَّخذ من الذهب والفضة، واتخاذَ متاع: وهو ما يُتمتَّع به من الأواني والآلات المتخَذَة من الحديد، والرصاص، وغير ذلك من الفِلِزَّات.

﴿زَبَدٌ﴾ خَبَثٌ ﴿مِّثْلُهُۥ﴾ أي: مثلُ ما ذُكر من زَبَد الماء في كونه رابياً فوقه، ورفع «زبد» على أنه مبتدأ خبرُه «مما توقدون»، و«من» لابتداء الغاية، دالَّةٌ على مجرَّد

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨١.

(٢) الحجة للقراء السبعة ٥/ ١٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

كونه مبتدأ وناشئاً منه. واستظهر أبو حيان[1] كونَها للتبعيض؛ لأن ذلك الزَّبد بعضُ ما يُوقَد عليه من تلك المعادن، ولم يرتَضِهِ بعضُ المحقِّقين؛ لإخلاله ـ على ما قيل ـ بالتمثيل، وإنما لم يتعرَّض لإخراج ذلك من الأرض كما تعرَّض لعنوان إنزال الماء من السماء؛ لعدم دخل ذلك العنوان في التمثيل ـ على ما استعمله إن شاء الله تعالى ـ كما أنَّ للعنوان السابق دخلاً فيه، بل له إخلالٌ بذلك.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضربِ البديع المشتمِلِ على نكتٍ رائقة ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ أي: مثل الحقِّ ومثل الباطل، والحذفُ للإنباء عن[2] كمال التماثُل بين الممثَّل والممثَّل به، كأنَّ المثل المضروب عينُ الحقِّ والباطل.

﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ﴾ من كلٍّ من السَّيل وما يُوقدون عليه، وأُفرد ولم يُثَنَّ، وإن تقدَّم زبدان، لاشتراكهما في مطلق الزَّبديَّة، فهما واحدٌ باعتبار القَدْر المشترك. ﴿فَيَذْهَبُ جُفَآءً﴾ مرميًّا به، يقال: جفا الماءُ بالزَّبد: إذا قذَفَ ورمى به، ويقال: أجفأ أيضاً بمعناه، وقال ابنُ الأنباري: «جفاء» أي: متفرِّقاً، من جفأتِ الريحُ الغيمَ: إذا قطعتهُ وفرَّقته، وجفأتُ الرجلَ: صرعتُه، ويقال: جفأ الوادي وأجفأ: إذا نشف، وقُرئ: «جفالاً» باللام بدل الهمزة[3]، وهو بمعنى متفرِّقاً أيضاً، أخذاً من جفلت الريحُ الغيمَ، كجفأته، ونُسِبت هذه القراءةُ إلى رؤبة، قال ابن أبي حاتم[4]: ولا يُقرأ بقراءته؛ لأنه كان يأكلُ الفأر، يعني أنه كان أعرابيّاً جافياً، وعنه: لا تُعتبر قراءةُ الأعراب في القرآن. والنصبُ على الحاليَّة.

﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ أي: من الماء الصافي الخالص من الغُثاء، والجوهرِ المعدنيِّ الخالص من الخَبَث ﴿فَيَمْكُثُ﴾ يبقى ﴿فِى ٱلْأَرْضِ﴾ أمَّا الماءُ فيبقى بعضُه في مناقعه، ويسلك بعضُه في عروقِ الأرض إلى العيون ونحوها، وأما الجوهرُ المعدنيُّ فيُصاغ من بعضه أنواع الحلي، ويُتَّخذ من بعضه أصنافُ الآلات والأدوات، فيُنتفع

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

(٢) في الأصل و(م): للإنباء على، والمثبت من تفسير أبي السعود ٥/ ١٥ والكلام منه، وجاء في هامش (م) ما نصه: قوله: للابناء، كذا بخطِّ المؤلف، ولعله: للابتناء، تأمل. اهـ.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٦، والبحر المحيط ٥/ ٣٨٢.

(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعل الصواب: أبو حاتم؛ كما في البحر والقراءات الشاذة.

بكلٍّ من ذلك أنواع الانتفاعات مدَّةً طويلة، فالمرادُ بالمُكث في الأرض ما هو أعمُّ من المُكْث في نفسها، ومن البقاء في أيدي المتقلِّبين فيها.

وتغييرُ ترتيبِ اللفِّ الواقع في الفَذْلكةِ الموافقِ للترتيب الواقعِ في التمثيل؛ قيل: لمراعاة الملاءمة بين حالتي الذهابِ والبقاء، وبين ذِكْرهما؛ فإنَّ المعتبرَ إنما هو بقاءُ الباقي بعد ذهاب الذاهب، لا قبلَه، وقيل: النكتةُ في تقديم الزَّبد على ما ينفَع هو أن الزَّبد هو الظاهرُ المنظورُ أولاً، وغيرُه باقٍ متأخِّرٌ في الوجود؛ لاستمراره، والآيةُ من الجمع والتقسيم كما لا يخفى.

وحاصلُ الكلام في الآيتين أنه تعالى مثَّل الحقَّ ـ وهو القرآنُ العظيم عند الكثير ـ في فيضانه من جَناب القُدْس على قلوبٍ خاليةٍ عنه متفاوتةِ الاستعدادِ، وفي جريانه عليها ملاحظةً وحفظاً، وعلى الألسنة مذاكرةً وتلاوةً، مع كونه مُمِدًّا لحياتها الرُّوحانية وما يتلوها من المَلَكات السَّنِيّة والأعمال المرضيةً = بالماء النازل من السماء، والسائل في أوديةٍ يابسةٍ لم تجرِ عادتُها بذلك، سيلاناً مقدَّراً بمقدارٍ اقتضتهُ الحكمةُ في إحياء الأرض وما عليها، الباقي فيها حسبما يدورُ عليه منافعُ الناس، وفي كونه حِلْيةً تتحلَّى بها النفوسُ، وتصلُ إلى البهجة الأبدية، ومتاعاً يُتمتَّع به في المعاش والمعاد بالذهب والفضة، وسائر الفِلِزَّات التي يُتَّخذ منها أنواعُ الآلات والأدوات، وتبقى منتَفَعاً بها مدةً طويلة، ومثَّل الباطلَ الذي ابتُلي به الكَفَرةُ لقصورِ نظرهم بما يظهر فيهما من غيرِ مداخلةٍ له فيهما وإخلال بصفائهما من الزَّبد الرابي فوقَهما المضمَحِلِّ سريعاً.

وصحَّ عن أبي موسى الأشعريِّ أنه قال: قال رسول الله ﷺ: «إنَّ مَثَل ما بعثني الله تعالى به من الهدى والعلم مَثَلُ غيثٍ أصاب أرضاً، فكانت منها طائفةٌ طيِّبةٌ قَبِلت الماءَ، فأنبتت الكلأَ والعشبَ الكثيرَ، وكانت منها أجادِبُ اكتسبت الماء، نفَعَ الله تعالى بها الناس، فشربوا منها، وسقوا، ورعوا، وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي قِيْعان، لا تمسكُ ماءً، ولا تُنبت كَلَأً، فذلك مثَلُ من فقه في دين الله تعالى، ونفعه ما بعثني الله تعالى به، فعَلِمَ وعلَّمَ، ومثَلُ مَنْ لم يرفع بذلك رأساً، ولم يقبَلْ هدى الله تعالى الذي أُرسِلتُ به»[1].

---

(١) صحيح البخاري (٧٩)، وصحيح مسلم (٢٢٨٢)، وقد سلف ٩/ ١٦٥.

وقال ابن عطية[1]: صدرُ الآية تنبيهٌ على قدرة الله تعالى، وإقامة الحجَّة على الكفرة، فلما فرغ من ذلك جعلَه مثالاً للحقِّ والباطل، والإيمان والكفر، واليقين في الشرع والشكِّ فيه، وكأنه أراد بعطف الإيمان وما بعده التفسيرَ للمراد بالحقِّ والباطل. وعن ابن عباس: جعل الزَّبَد إشارة إلى الشَّكِّ، والخالص منه إشارة إلى اليقين.

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الضرب العجيب ﴿يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ ﴿١٧﴾﴾ في كلِّ باب؛ إظهاراً لكمال اللُّطف والعناية في الإرشاد، وفيه تفخيمٌ لشأن هذا التمثيل، وتأكيدٌ لقوله سبحانه: «يضرب الله الحقَّ والباطل» إما باعتبار ابتناءِ هذا على التمثيل الأول، أو بجَعْل ذلك إشارةً إليهما جميعاً.

وبعد ما بيَّن تعالى شأنه شأنَ كلٍّ من الحقِّ والباطل حالاً ومآلاً أكملَ بيانٍ، شرَعَ في بيان حال أهل كلٍّ منهما مآلاً؛ تكميلاً للدعوة ترغيباً وترهيباً، فقال سبحانه: ﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ إذ دعاهم إلى الحقِّ بفنون الدعوة التي من جملتها ضربُ الأمثال؛ فإنَّ له ـ لما فيه من تصوير المعقول بصورة المحسوس ـ تأثيراً بليغاً في تسخير النفوس. والجارُّ والمجرور خبرٌ مقدَّم.

وقوله سبحانه ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ أي: المثوبةُ الحسنى، وهي الجنةُ كما قال قتادة وغيرُه، وعن مجاهد: الحياةُ الحسنى، أي: الطَّيِّبة التي لا يَشُوبُها كَدَر أصلاً. وعن ابن عباس أن المراد جزاءُ الكلمة الحسنى، وهي لا إله إلا الله، وفيه من البُعد ما لا يخفى = مبتدأٌ مؤخَّر.

﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ سبحانه، وعاندوا الحقَّ الجَليَّ ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ من أصناف الأموال ﴿جَمِيعًا﴾ بحيث لم يشذَّ منه شاذٌّ في أقطارها، أو مجموعاً غيرَ متفرِّق بحسَب الأزمان ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ أي: بالمذكور مما في الأرض ومثله معه جميعاً؛ ليتخلَّصوا عمَّا بهم، وفيه من تهويل ما يلقاهم ما لا يُحيط به البيان، والموصولُ مبتدأ، والجملةُ الشرطية خبرُه، وهي ـ على ما قيل ـ واقعةٌ موقع السُّوأى المقابلةِ للحسنى الواقعةِ في القرينة الأولى، فكأنه قيل: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى.

---

(١) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٧.

وتُعقِّب بأن الشرطيةَ وإن دلَّت على سوء حالهم لكنَّها بمعزلٍ عن القيام مقام لفظ السُّوأى مصحوباً باللام الجارَّة الداخلةِ على الموصول أو ضميره، وعليه يدور حصولُ المرام، فالذي ينبغي أن يعوَّل عليه أن الواقعَ في تلك المقابلةِ «سوءُ الحساب» في قوله تعالى: ﴿أُولَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ وحيث كان اسمُ الإشارة الواقعُ مبتدأ في هذه الجملة عبارةً عن الموصول الواقعِ مبتدأ في الجملة السابقة كان خبرُه ـ أعني الجملةَ الظرفيةَ ـ خبراً عن الموصول في الحقيقة، ومبيِّناً لإبهام مضمون الشرطية الواقعةِ خبراً عنه أولاً، ولذلك ترك العطف، فكأنه قيل: والذين لم يستجيبوا له لهم سوءُ الحساب، وذلك في قوةِ أن يقال: وللذين لم يستجيبوا له سوءُ الحساب مع زيادةِ تأكيدٍ، فتمَّ حُسن المقابلة على أبلغ وجهٍ وآكَدِهِ.

واعتُذر بأنه يمكن أن يكون المراد أن «لو أنَّ لهم ما في الأرض جميعاً» إلى آخر الآية واقعٌ موقع ذلك، على معنى أن رعايةَ حُسْن المقابلة لقوله تعالى: «للذين استجابوا لربهم الحسنى» تقتضي أن يقال: وللذين لم يستجيبوا له السُّوأى، ولا يُزاد على ذلك، لكنه جيء بقوله سبحانه: «لو أن لهم» إلخ بدلَ ما ذكر، ولعل في كلام الطِّيبي ما يُستأنس به لذلك.

وإلى اعتبار السُّوأى في المقابلة ذهب أيضاً صاحب «الكشف» قال: إن قولَه تعالى: «لو أن لهم» في مقابلة الحُسنى بدلَ السُّوأى مع زيادةِ تصويرٍ وتحسير، وأُوثر الإجمالُ في الأول دلالةً على أن جزاء المستجيبين لا يدخل تحت الوصف، فتدبَّر، والمرادُ بسوء الحساب، أي: الحساب السيِّئ ـ على ما رُوي عن إبراهيم النَّخعي والحسن ـ أن يُحاسَبوا بذنوبهم كلِّها، لا يغفر لهم منها شيء، وهو المعنيُّ بالمناقشة. وعن ابن عباس: هو أن يحاسبوا، فلا تُقبل حسناتُهم، ولا تُغفر سيِّئاتُهم.

﴿وَمَأْوَىٰهُمْ﴾ أي: مرجِعُهم ﴿جَهَنَّمُ﴾ بيانٌ لمؤدَّى ما تقدم، وفيه نوعُ تأييدٍ لتفسير «الحسنى» بالجنة. ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٨﴾﴾ أي: المستقرُّ، والمخصوص بالذمِّ محذوفٌ، أي: مهادُهم، أو جهنم.

وقال الزمخشريُّ[1]: اللام في قوله تعالى: «للذين استجابوا» متعلِّقةٌ

(١) الكشاف ٢/ ٣٥٦.

بـ «يضرب الله الأمثال»، وقولُه سبحانه: «الحسنى» صفةٌ للمصدر، أي: استجابوا الاستجابةَ الحُسنى، وقوله عزَّ وجلَّ: «والذين لم يستجيبوا» معطوفٌ على الموصول الأول، وقولُه جلَّ وعلا: «لو أن لهم» إلخ كلامٌ مستأنفٌ مسوقٌ لبيان ما أُعدَّ لغير المستجيبين من العذاب، والمعنى: كذلك يضرب الله تعالى الأمثالَ للمؤمنين المستجيبين والكافرين المعاندين، أي: هما مَثَلا الفريقين. انتهى.

قال أبو حيان[1]: والتفسيرُ الأول أَولى؛ لأن فيه ضربَ الأمثال غيرَ مقيَّد بمثل هذين، والله تعالى قد ضرب أمثالاً كثيرةً في هذين، وفي غيرِهما، ولأن فيه ذكرَ ثوابِ المستجيبين، بخلاف هذا؛ ولأن تقديرَ الاستجابة الحسنى مشعرٌ بتقييد الاستجابة ومقابلها، ليس نفيَ الاستجابة مطلقاً، وإنما هو نفي الاستجابة الحسنى، والله تعالى قد نفى الاستجابةَ مطلقاً، ولأنه حينئذٍ يكون «لو أن لهم» إلخ كلاماً مفلتاً أو كالمفلت؛ إذ يصيُر المعنى: كذلك يضربُ الله الأمثال للمؤمنين والكافرين «لو أنَّ لهم» إلخ، ولو كان هناك حرفٌ يربط «لو» بما قبلَها زال التفلُّت، وأيضاً إنه يُوهم الاشتراكَ في الضمير، وإن كان تخصيصُ ذلك بالكافرين معلوماً.

وتُعقِّب بأنه لا كلامَ في أولوية التفسير الأول، لكن كونُ ما ذُكر وجهاً لها محلُّ كلامٍ؛ إذ لا مقتضى في التفسير الثاني لتقييد الأمثال عموماً بمثل هذين، ألا ترى قولَه تعالى: «كذلك»، ثم إن فيه تفهيم ثوابِ المستجيبين أيضاً، ألا يُرى إلى القصر المستفاد من تقديم الظرف؟ وأيضاً قوله تعالى: «الحسنى» صفةٌ كاشفةٌ لا مفهومَ لها؛ فإنَّ الاستجابةَ لله تعالى لا تكون إلا حُسْنى، وكيف يكون قولُه سبحانه: «لو أن لهم» إلخ مفلَّتاً، وقد قالوا: إنه كلامٌ مبتدأ لبيان حال المستجيبين، يعنون أنه استئنافٌ بيانيٌّ جواب للسؤال عن مآل حالهم؟ ثم كيف يُتوهم الاشتراكُ مع كون تخصيصه بالكافرين معلوماً؟ انتهى.

قال بعضُ المحقِّقين: إن ما ذُكر متوجِّه بحسَب بادئ الرأي والنَّظْرة الأولى، أما إذا نُظِر بعين الإنصاف بعد تسليم أنَّ ذاك أولى وأقوى، عُلم أن ما قالَه أبو حيان واردٌ؛ فإنَّ قوله تعالى: «كذلك» يقتضي أن هذا شأنُه وعادتُه عزَّ شأنُه في ضرب

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٣.

الأمثال، فيقتضي أن ما جَرَت به العادة القرآنية مقيَّد بهؤلاء، وليس كذلك، وما ذكره المتعقِّبُ ولو سلِّم فهو خلافُ الظاهر.

وأما قوله: إن ثوابَ المستجيبين معلومٌ مما ذَكَره، ففرقٌ بين العلم ضمناً والعلم صراحةً، وأما أن الصفة مؤكِّدة، أو لا مفهوم لها، فخلافُ الأصل أيضاً، وكون الجملة غيرَ مرتبطةٍ بما قبلَها ظاهر، والسؤالُ عن حال أحدِ الفريقين مع ذكرهما مُلْبِس، وعودُ الضمير على ما قبلَه مطلقاً هو المتبادر وما ذُكر لا يدفع الإيهام.

وفي «إرشاد العقل السليم»(١) بعد نقل التفسير الأخير وحمل الأمثال فيه على الأمثال السابقة: وأنت خبيرٌ بأن عنوانَ الاستجابة وعدمِها لا مناسبةَ بينه وبين ما يدورُ عليه أمرُ التمثيل، وأنَّ الاستعمالَ المستفيضَ دخولُ اللام على مَنْ يُقصَد تذكيرُه بالمثل، نعم قد يُستعمل في هذا المعنى أيضاً كما في قوله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱمْرَأَتَ فِرْعَوْنَ﴾ [التحريم: ١١] ونظائرِه، على أن بعضَ الأمثال المضروبةِ لاسيما المثل الأخير الموصول بالكلام ليس مثل الفريقين، بل مثلٌ للحقِّ والباطل، ولا مساغَ لجعل الفريقين مضروباً لهم أيضاً، بأن يُجعل في حكم أن يقال: كذلك يضربُ الله الأمثال للناس؛ إذ لا وجهَ حينئذٍ لتنويعهم إلى المستجيبين وغيرِ المستجيبين.

ويؤيِّد هذا ما في «الكشف» حيث قال: إن جعل «للذين استجابوا» من تتمة الأمثال لا من صلة «يضرب» متكلَّف؛ لأنهما مثلا الحقِّ والباطل بالأصالة، ومن صلةِ «يضرب» أبعد؛ لأن الأمثال إنما ضُرِبت لمن يعقل.

ثم إن كون المراد بالأمثالِ الأمثالَ السابقةَ مبنيٌّ على أن ما تقدَّم كان أمثالاً، والمشهور أنه مَثَلان، نعم أخرج ابنُ جرير(٢) وغيره عن قتادة أنه قال في الآية: هذه ثلاثةُ أمثالٍ ضَرَبَها الله تعالى في مَثَلٍ واحد.

وبعد هذا كلِّه لا شكَّ في سلامة التفسير الأول من القيل والقال، وأنه الذي

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ١٦.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٠١.

يستدعيه النظمُ الجليل؛ لأن تمامَ حُسْن الفاصلة أن تكون كاسمها، ولهذا انحطَّ قولُ امرئ القيس:

ألا أيُّها الليلُ الطويل ألا انجلي ... بِصبحٍ وما الإصباح منك بأمثَلِ[١]

عن قول المتنبي[٢]:

إذا كان مدحاً فالنسيبُ المقدَّم ... أكلُّ فصيحٍ قال شعراً متيَّمُ

وهو الذي فهمه السلفُ من الآية، ومن هنا كان أكثرُ الشيوخ يقفون على «الأمثال»، ويبتدؤون بقوله تعالى: «للذين استجابوا». وقال صاحبُ «المرشد»: إنه وقفٌ تامٌّ، والوقفُ على «الحسنى» حسنٌ، وكذا على «لافتدوا به». والعجبُ من الزمخشريِّ كيف اختار خلافَ[٣] ذلك مع وضوحه! والله تعالى أعلم.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة: ﴿الٓمٓرۚ﴾ أي: الذاتُ الأحديةُ، واسمُه العليم، واسمُه الأعظم، ومظهَرُه الذي هو الرحمةُ ﴿تِلْكَ ءَايَٰتُ﴾ علامات ﴿ٱلْكِتَٰبِۗ﴾ الجامع الذي هو الوجودُ المطلق.

﴿ٱللَّهُ ٱلَّذِى رَفَعَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ بِغَيْرِ عَمَدٍ تَرَوْنَهَاۖ﴾ أي: بغير عمدٍ مرئية، بل بعمدٍ غير مرئية، وجعل الشيخُ الأكبر قُدِّس سرُّه[٤] عمادَها الإنسان الكامل، وقيل: النفس المجرَّدة التي تحرّكها بواسطة النفس المنطبعة، وهي قوةٌ جسمانية سارية في جميع أجزاء الفلك، لا يختصُّ بها جزءٌ دون جزء؛ لبساطته، وهي بمنزلة الخيال فينا. وفيه ما فيه. وقيل: رفع سماوات الأرواح بلا مادة تعمدها، بل مجردةً قائمة بنفسها. ﴿ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِۖ﴾بالتأثير والتقويم، وقيل: عرش القلب بالتجلِّي.

﴿وَسَخَّرَ ٱلشَّمْسَ﴾ شمسَ الرُّوح بإدراك المعارف الكلية، واستشرافِ الأنوار

---

(١) ديوانه ص١٨، وسلف ٨/ ٣١٢.

(٢) ديوانه ٤/ ٦٩.

(٣) وقد نقل المصنف اختياره هذا قريباً.

(٤) الفتوحات، الباب التاسع والخمسون وخمس مئة.

العالية ﴿وَٱلْقَمَرَ﴾ قمر القلب بإدراك ما في العالمين، والاستمداد من فوق ومن تحت، ثم قَبول تجلِّيات الصفات. ﴿كُلٌّ يَجْرِي لِأَجَلٍ مُّسَمًّى﴾ وهو كمالُه بحسب الفطرة.

﴿يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ﴾ في البداية بتهيئة الاستعداد، وترتيب المبادئ. ﴿يُفَصِّلُ ٱلْآيَٰتِ﴾ في النهاية بترتيب الكمالات والمقامات ﴿لَعَلَّكُم بِلِقَآءِ رَبِّكُمْ﴾ عند مشاهدة آيات التجلِّيات ﴿تُوقِنُونَ﴾ عين اليقين.

وقال ابن عطاء: يدبِّر الأمر بالقضاء السابق، ويُفَصِّل الآيات بأحكام الظاهر لعلَّكم توقنون أنَّ الله تعالى الذي يُجري تلك الأحوالَ لابدَّ لكم من الرُّجوع إليه سبحانه.

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى مَدَّ ٱلْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ قلوبِ أوليائه ببسط أنوارِ المحبة ﴿وَجَعَلَ فِيهَا رَوَٰسِىَ﴾ المعرفة لئلَّا تتزلزل بغلبةِ هيجان المواجيد، ﴿و﴾ جعل فيها ﴿أَنْهَٰرًا﴾ من علوم الحقائق ﴿وَمِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ جَعَلَ فِيهَا زَوْجَيْنِ ٱثْنَيْنِ﴾ وهي ثمراتُ أشجار الحِكَم المتنوعة. ﴿يُغْشِى ٱلَّيْلَ ٱلنَّهَارَ﴾ تجلِّي الجلال، وتجلِّي الجمال. ﴿إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ في آيات الله تعالى.

قال أبو عثمان: الفكرُ: إراحة القلب من وساوس التدبير، وقيل: تصفيتُه لوارد الفوائد.

وقيل: الإشارة في ذلك إلى مدِّ أرض الجسد، وجعل رواسي العظام فيها، وأنهار العروق، وثمرات الأخلاق من الجود والبخل، والفجور والعفَّة، والجبن والشجاعة، والظلم والعدل وأمثالها، والسواد والبياض، والحرارة والبرودة، والمَلاسة والخشونة ونحوها، وتغشيةِ ليل ظلمة الجسمانيَّات نهار الروحانيات، وفي ذلك آياتٌ لقوم يتفكرون في صنع الله تعالى، وتطابُقِ عالَمَيه الأصغرِ والأكبر.

﴿وَفِى ٱلْأَرْضِ قِطَعٌ مُّتَجَٰوِرَٰتٌ﴾ فقلوبُ المحبين مجاورةٌ لقلوب المشتاقين، وهي لقلوب العاشقين، وهي لقلوب الوالهين، وهي لقلوب الهائمين، وهي لقلوب العارفين، وهي لقلوب الموحِّدين، وقيل: في أرض القلوب قِطَع متجاورات: قطع النفوس، وقطع الأرواح، وقطع الأسرار، وقطع العقول، والأُولى تنبتُ شوكَ

الشهوات، والثانية زهرَ المعارف، والثالثةُ نباتَ كواشف الأنوار، والرابعةُ أشجارَ نورِ العلم، ﴿وَ﴾ فيها ﴿جَنَّٰتٌ مِّنْ أَعْنَٰبٍ﴾ أي: أعناب العشق ﴿وَزَرْعٌ﴾ أي: زرع دقائق المعرفة ﴿وَنَخِيلٌ﴾ أي: نخل الإيمان ﴿صِنْوَانٌ﴾ في مقام الفَرْق ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ في مقام الجمع.

وقيل: ﴿صِنْوَانٌ﴾ إيمانٌ مع شهود، و﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ إيمانٌ بدونه. ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وهو التجلِّي الذي يقتضيه الجودُ المطلق. ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ فِى ٱلْأُكُلِ﴾ في الطعم الرُّوحاني.

وقيل: أُشير أيضاً إلى أن في أرض الجسد قطعاً متجاورات من العظم، واللحم، والشحم، والعصب، وجنات من أشجار القوى الطبيعية والحيوانية والإنسانية، من ﴿أَعْنَٰبٍ﴾ القوى الشهوانية التي يُعصَر منها هوى النفس، والقوى العقلية التي يُعصَر منها خمرُ المحبة والعشق، ﴿وَزَرْعٌ﴾ القوى الإنسانية، ﴿وَنَخِيلٌ﴾ سائر الحواسِّ الظاهرة والباطنة، ﴿صِنْوَانٌ﴾ كالعينين والأذنين ﴿وَغَيْرُ صِنْوَانٍ﴾ كاللسان وآلة الفكر والوهم، ﴿يُسْقَىٰ بِمَآءٍ وَٰحِدٍ﴾ وهو ماء الحياة، ﴿وَنُفَضِّلُ بَعْضَهَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ في أُكُلِ الإدراكات والملكات، كتفضيل مُدْرَكات العقل على الحسِّ، والبصر على اللمس، ومَلَكة الحِكْمة على العفة، وهكذا.

﴿وَإِن تَعْجَبْ فَعَجَبٌ قَوْلُهُمْ﴾ بعد ظهور الآيات ﴿أَءِذَا كُنَّا تُرَٰبًا أَءِنَّا لَفِى خَلْقٍ جَدِيدٍ﴾ ولم يعلموا أن القادرَ على ذلك قادرٌ على أن يُحيي الموتى.

وقيل: منشأ التعجُّب أنهم أنكروا الخلقَ الجديد يومَ القيامة، مع أنَّ الإنسان في كلِّ ساعةٍ في خلق آخر جديدٍ، بل العالمُ بأسره في كلِّ لحظةٍ يتجدَّد بتبدُّل الهيآت، والأحوال، والأوضاعِ، والصُّور، وإلى كون العالم كلَّ لحظةٍ في خلق جديد ذهب الشيخُ الأكبر قدِّس سرُّه[1]، فعنده الجوهرُ ـ وكذا العَرَض ـ لا يبقى زمانين، كما أنَّ العَرَض عند الأشعريِّ كذلك، وهذا عند الشيخ قدِّس سرُّه مبنيٌّ على أن الجواهر والأعراض كلَّها شؤونه[2]، تعالى عمَّا يقولُه الظالمون علوًّا كبيرًا،

(١) وقد تكرر تصريحه بذلك، فمنه ما ذكره في الباب الخامس والتسعين والمئتين من الفتوحات.

(٢) الفتوحات، الباب الثامن والخمسون وخمس مئة.

وهو سبحانه ﴿كُلَّ يَوْمٍ﴾ أي: وقت ﴿فِي شَأْنٍ﴾، وأكثرُ الناس ينكرون على الأشعريِّ قولَه بتجدُّد الأعراض، والشيخ قدِّس سرُّه زاد في الشطرنج جَمَلاً، ولا يكاد يُدرَكُ ما يقولُه بالدليل، بل هو موقوفٌ على الكشف والشهود، وقد اغترَّ كثير من الناس بظاهرِ كلامه، فاعتقَدوه من غير تدبُّرٍ، فضلُّوا وأضلُّوا.

﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِرَبِّهِمْ﴾ فلم يعرفوا عظمتَه سبحانه. ﴿وَأُولَٰئِكَ الْأَغْلَالُ فِي أَعْنَاقِهِمْ﴾ فلا يقدرون أن يرفعوا رؤوسَهم المُنتكسة إلى النظر في الآيات. ﴿وَأُولَٰئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ﴾ لِعظَم ما أتوا.

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالسَّيِّئَةِ قَبْلَ الْحَسَنَةِ﴾ بمناسبة استعدادهم للشرِّ. ﴿وَقَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِمُ الْمَثُلَاتُ﴾ عقوبةُ أمثالهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَذُو مَغْفِرَةٍ لِّلنَّاسِ عَلَىٰ ظُلْمِهِمْ﴾ أنفسَهم باكتسابِ الأمور الحاجبةِ لهم عن النور ولم ترسَخْ فيهم. ﴿وَإِنَّ رَبَّكَ لَشَدِيدُ الْعِقَابِ﴾ لمن رسَخت فيه.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ لعَمَى بصائرهم عن مشاهدة الآيات الشاهدة بالنبوَّة ﴿لَوْلَا أُنزِلَ عَلَيْهِ آيَةٌ﴾ تشهدُ له ﷺ بذلك. ﴿إِنَّمَا أَنتَ مُنذِرٌ﴾ ما عليك إلا إنذارُهم لا هدايَتهم ﴿وَلِكُلِّ قَوْمٍ هَادٍ﴾ هو الله تعالى. وقيل: لكلِّ طائفة شيخٌ يُعرِّفُهم طريقَ الحقِّ. ﴿اللَّهُ يَعْلَمُ مَا تَحْمِلُ كُلُّ أُنثَىٰ﴾ فيعلم ما تحمل أنثى النفس من ولد الكمال، أي: ما في قوة كلِّ استعداد. ﴿وَمَا تَغِيضُ الْأَرْحَامُ﴾ أي: تغيض أرحامُ الاستعداد بترك النفس وهواها. ﴿وَمَا تَزْدَادُ﴾ بالتزكية وبركة الصُّحبة ﴿وَكُلُّ شَيْءٍ﴾ من الكمالات ﴿عِندَهُ﴾ سبحانه ﴿بِمِقْدَارٍ﴾ معيَّنٍ على حسَب القابلية.

﴿سَوَاءٌ مِّنكُم مَّنْ أَسَرَّ الْقَوْلَ﴾ في مكمَنِ استعدادِه ﴿وَمَن جَهَرَ بِهِ﴾ بإبرازه إلى الفعل. ﴿وَمَنْ هُوَ مُسْتَخْفٍ بِاللَّيْلِ﴾ ظلمةِ ظُلمِهِ نفسَه. ﴿وَسَارِبٌ بِالنَّهَارِ﴾ بخروجه عن مقام النفس، وذهابِه في نهار نورِ الروح.

﴿لَهُ مُعَقِّبَاتٌ مِّن بَيْنِ يَدَيْهِ وَمِنْ خَلْفِهِ يَحْفَظُونَهُ مِنْ أَمْرِ اللَّهِ﴾ إشارةٌ إلى سوابقِ الرحمة الحافظةِ له من خاطفات الغضب، أو الإمدادات الملكوتية الحافظةِ له من جنِّ القوى الخيالية والوهمية والسبعية والبهيمية وإهلاكِها إياه.

﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ﴾ من النعم الظاهرةِ أوالباطنة ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾

من الاستعداد وقوةِ القَبول. قال النصرآبادي: إن هذا الحكم عامٌّ، لكنَّ مناقشة الخواصِّ فوق مناقشة العوامِّ.

وعن بعض السلف أنه قال: إن الفأرةَ مزَّقت خُفِّي، وما أعلم ذلك إلا بذنبٍ أحدثتُه، وإلا لما سلَّطها عليَّ، وتمثَّل بقول الشاعر(١):

لو كنتُ من مازنٍ لم تَستبح إبلي بنو اللَّقيطةِ من ذُهْلِ بن شَيْبانا

﴿وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوْمٍ سُوٓءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥ ۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٍ﴾ إذ الكلُّ تحت قهرِه سبحانه، قال القاسم: إذا أراد الله تعالى هلاكَ قوم حسَّن مواردَه في أعينهم حتى يمشون إليها بتدبيرهم وأرجلهم، ولله تعالى درُّ من قال:

إذا لم يكن عونٌ من الله للفتى فأوَّلُ ما يجني عليه اجتهادُه(٢)

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُرِيكُمُ ٱلْبَرْقَ﴾ أي: برقَ لوامعِ الأنوار القدسيَّة ﴿خَوْفًا﴾ خائفين من سرعة انقضائه، أو بطء رجوعِه ﴿وَطَمَعًا﴾ طامعين في ثباته وسرعةِ رجوعه. ﴿وَيُنشِئُ ٱلسَّحَابَ ٱلثِّقَالَ﴾ بماءِ العلم والمعرفة، وقيل: يُري المحبِّين برقَ المكاشفة، ويُنشئ للعارفين سحابَ العَظَمة الثِّقالِ بماء الهيبة، فيُمطر عليهم ما يُحييهم به الحياةَ التي لا تُشبِهُها حياة، وأنشدوا للشِّبليِّ:

أظلَّت علينا منكَ يوماً غمامةٌ أضاءت لنا برقاً وأبطا رِشاشُها

فلا غيمُها يصحو فييأسَ طامعٌ ولا غيثُها يأتي فيَروى عِطاشُها(٣)

وعن بعضهم أنَّ البرق إشارةٌ إلى التجلِّيات البرقية التي تحصُلُ لأربابِ الأحوال، وأشهرُ التجلِّيات في تشبيهه بالبرقِ التجلِّي الذاتيُّ، وأنشدوا:

ما كان ما أوليتَ من وَصْلنا إلا سراجاً لاح ثم انطفى(٤)

---

(١) هو قُرَيط بن أُنَيف من بَلْعَنبر، وهو في ديوان الحماسة بشرح المرزوقي ١/٢٣، وخزانة الأدب ٨/٤٤٦.

(٢) البيت في الديوان المنسوب إلى سيدنا علي ﷺ ص٤٦، وقد سلف ٢/١١٥.

(٣) لم نقف على من نسب البيتين إلى الشبلي، وهما في عيون الأخبار ٣/١٤٥ منسوبان إلى عبد الصمد بن الفضل الرقاشي، وفي معاهد التنصيص ٢/٥٢ منسوبان إلى بشار بن برد، وفي النجوم الزاهرة ٥/٢٧ منسوبان إلى مِهْيار بن مرزويه الديلمي.

(٤) أورده القشيري في تفسيره ٢/٢٢١ من غير نسبة.

وذكر الإمام الرباني قُدِّس سرُّه في «المكتوبات»[1] أن التجلِّي الذاتيَّ دائميٌّ للكاملين من أهل الطريقة النقشبندية، لا برقيٌّ، وأطال الكلامَ في ذلك مخالفاً لكبار السادة الصوفية كالشيخ محيي الدين وغيره، والحقُّ أن ما ذكره من التجلِّي الذاتيِّ ليس هو الذي ذكروا أنه برقيٌّ؛ كما لا يخفى على من راجع كلامَه وكلامَهم.

﴿وَيُسَبِّحُ ٱلرَّعْدُ﴾ أي: رعدُ سطوةِ التجلِّيات الجلاليَّة، ويُمَجِّد الله تعالى عما يتصوَّره العقلُ ملتبساً ﴿بِحَمْدِهِۦ﴾ وإثباتِ ما ينبغي له عزَّ شأنُه ﴿وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ﴾ وتسبِّح ملائكةُ القوى الرُّوحانية ﴿مِنْ خِيفَتِهِۦ﴾ من هَيبة جلاله جلَّ جلاله ﴿وَيُرْسِلُ ٱلصَّوَٰعِقَ﴾ هي صواعقُ السُّبحات الإلهية عند تجلِّي القهر الحقيقيِّ المتضمِّن للُّطف الكلِّي ﴿فَيُصِيبُ بِهَا مَن يَشَآءُ﴾ فيحرِقُه عن بقية نفسه، وفي الخبر: «إن لله تعالى سبعين ألفَ حجابٍ من نور وظلمة، لو كشَفَها لأحرقَتْ سُبُحات وجهه ما انتهى إليه بصرُه من خلقه»[2]. وقال ابنُ الزنجانيِّ: الرعدُ: صعقاتُ الملائكة، والبرقُ: زفرات أفئدتهم، والمطر: بكاؤُهم. وجعل الزمخشريُّ[3] هذا من بِدَع المتصوِّفة.

وكأني بك تقول: إن أكثر ما ذُكر في باب الإشارة من هذا الكتاب من هذا القَبِيل. والجواب: أنَّا لا ندَّعي إلا الإشارة، وأما أن ذلك مدلولُ اللفظ، أو مراد الله تعالى، فمعاذ الله تعالى من أن يمرَّ بفكري، واعتقادُ ذلك هو الضلالُ البعيد، والجهلُ الذي ليس عليه مزيد، وقد نصَّ المحقِّقون من الصوفية على أن معتقدَ ذلك كافرٌ، والعياذُ بالله تعالى، ولعلَّكَ تقول: كان الأولى مع هذا تركُ ذلك. فنقول: قد ذَكَر مِثْلَه[4] مَنْ هو خير منَّا، والوجه في ذلك غيرُ خفيٍّ عليك لو أنصفتَ.

---

(١) ينظر ١/١٩٦ وما بعده، و٣/١٠٠-١٠٢.

(٢) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وأخرج أبو يعلى (٧٥٢٥) من حديث سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: «دون الله سبعون ألف حجاب نور وظلمة، وما تسمع نفس شيئاً من حسّ تلك الحجب إلا زهقت نفسُها». وفيه موسى بن عبيدة الربذي؛ قال عنه الهيثمي في المجمع ١/٧٩: لا يحتج به.
والصحيح من أحاديث الباب ما أخرجه مسلم (١٧٩) (٢٩٣) من حديث أبي موسى الأشعري قال: قام فينا رسول الله ﷺ بخمس كلمات ..... وفيه: «حجابه من نور - وفي رواية: النار -، لو كشفه لأحرقت سبحات وجهه ما انتهى إليه بصره من خلقه».

(٣) الكشاف: ٢/٣٥٣.

(٤) في الأصل: ذلك، والمثبت من (م).

﴿وَهُمۡ يُجَٰدِلُونَ فِي ٱللَّهِ﴾ بالتفكُّر في ذاته، والنظرِ للوقوف على حقيقة صفاته ﴿وَهُوَ﴾ سبحانه ﴿شَدِيدُ ٱلۡمِحَالِ﴾ في دفع الأفكار والأنظار عن حَرَم ذاته، وحمى صفاته جلَّ جلاله:

هيهاتَ أن تصطاد عنقاءَ البقا   بلُعابهنَّ عناكبُ الأفكار

﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ أي: الحقَّة الحقيقة بالإجابة لا لغيره سبحانه ﴿وَٱلَّذِينَ يَدۡعُونَ﴾ الأصنام ﴿لَا يَسۡتَجِيبُونَ لَهُم بِشَيۡءٍ إِلَّا كَبَٰسِطِ كَفَّيۡهِ إِلَى ٱلۡمَآءِ لِيَبۡلُغَ فَاهُ﴾ أي: إلا استجابةً كاستجابة من ذكر؛ لأن ما يدعونَه بمعزلٍ عن القدرة. ﴿وَمَا دُعَآءُ ٱلۡكَٰفِرِينَ﴾ المحجوبين ﴿إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ﴾ أي: ضياع؛ لأنهم لا يدعون الإله الحقَّ، وإنما يدعون إلهاً توهَّموه ونحتوه في خيالهم.

﴿وَلِلَّهِ يَسۡجُدُ﴾ ينقاد ﴿مَن فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلۡأَرۡضِ﴾ من الحقائق والرُّوحانيات ﴿طَوۡعٗا وَكَرۡهٗا﴾ شاؤوا أو أبوا ﴿وَظِلَٰلُهُم﴾ هياكلهم ﴿بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ﴾ أي: دائماً، وقيل: يسجد مَنْ في السماوات، وهو الرُّوحُ والعقل والقلب، وسجودُهم طوعاً، ومَنْ في الأرض وهو النفسُ وقواها، وسجودُهم كَرْهاً. وقيل: الساجدون طوعاً: أهلُ الكشف والشُّهود، والساجدون كرهاً: أهلُ النَّظر والاستدلال.

﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ﴾ من سماءِ روح القُدُس ﴿مَآءٗ﴾ أي: ماءَ العلم ﴿فَسَالَتۡ أَوۡدِيَةُۢ﴾ أي: أوديةُ القلوب ﴿بِقَدَرِهَا﴾ بقدر استعدادِها ﴿فَٱحۡتَمَلَ ٱلسَّيۡلُ زَبَدٗا﴾ من خَبَثِ صفات أرض النفس ﴿رَّابِيٗاۖ﴾ طافياً على ذلك ﴿وَمِمَّا يُوقِدُونَ عَلَيۡهِ فِي ٱلنَّارِ﴾ نارِ العشق من المعارفِ والكُشوف والحقائق والمعاني التي تُهيِّجُ العشقَ ﴿ٱبۡتِغَآءَ حِلۡيَةٍ﴾ طلب زينة النفس؛ لكونها كمالاتٍ لها ﴿أَوۡ مَتَٰعٖ﴾ من الفضائل الخلقية التي تحصُلُ بسببها؛ فإنها مما تتمتَّع به النفسُ ﴿زَبَدٞ﴾ خَبَث ﴿مِّثۡلُهُۥۚ﴾ كالنظر إليها ورؤيتها، والإعجابِ بها، وسائرِ ما يعدُّ من آفات النفس ﴿فَأَمَّا ٱلزَّبَدُ فَيَذۡهَبُ جُفَآءٗۖ﴾ منفيّاً بالعلم ﴿وَأَمَّا مَا يَنفَعُ ٱلنَّاسَ﴾ من المعاني الحقَّة، والفضائل الخالصة ﴿فَيَمۡكُثُ فِي ٱلۡأَرۡضِۚ﴾ أرضِ النفس.

وقال بعضُهم: إنه تعالى شبَّه ما ينزلُ من مياه بحارِ ذاته وصفاته وأسمائه وأفعاله إلى قلوب الموحِّدين والعارفين والمكاشفين والمريدين بما يَنزِلُ من السماء إلى الأودية، فكما تحمِلُ الأوديةُ حسب اختلافها ماءَ المطر تحملُ تلك القلوبُ مياهَ هاتيكَ البحار حسب اختلاف حواصِلِها وأقدارِ استعداداتها في المحبَّة والمعرفة

والتوحيد، وكما أن قطراتِ الأمطار تكونُ في الأودية سيلاً، فيحتملُ السيلُ زبداً وحُثالةً وما يكون مانعاً من الجريان، يكون تواترُ أنوارِ الحقِّ سبحانه سيلَ المعارف والكشوفات، فيسيلُ في أودية القلوب، فيحتمِلُ من أوصاف البشرية وما دون الحقِّ الذي يمنع القلوبَ من رؤيةِ الغيوب ما يحتمِلُه، فيذهب جُفاء، فتصيرُ حينئذٍ مقدَّسةً عن زَبَد الرياء والسُّمعة والنفاق، والخواطر المذمومة، وتبقى سائحةً في أنوار الأزل والأبد بلا مانعٍ من العرش إلى الثَّرى. وشبَّه سبحانه أعمالَ الظاهر والباطن، وما ينفتحُ بمفاتيحها من الغيب، بجواهر الأرض من الذهب والفضة وغيرهما إذا أُذيبا للانتفاع بهما، وبيَّن تعالى أن لهما زَبَداً مثل زَبَد السَّيل، وأنه يذهب ويمكثُ أصلُهما الصافي، فكذلك أعمالُ الظاهر والباطن تدخل في بَوْدَقةِ الإخلاص ويُوقد عليهما نيرانُ الامتحان، فيذهب ما فيه حظُّ النفس، ويبقى ما هو خالصٌ لله تعالى، وهكذا الخواطرُ يبقى منها خاطرُ الحقِّ، ويضمحلُّ سريعاً خاطرُ الباطل.

وعن بعضهم: القلوبُ أوعيةٌ، وفيها أوديةٌ، فقلبٌ يسيل فيه ماءُ التوبة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الرحمة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الخوف، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الرجاء، وقلبٌ يسيل فيه ماءُ المعرفة، وقلبٌ يسيلُ فيه ماءُ الأنس، وكلُّ ماءٍ من هذه المياه يُنبت في القلب نوعاً من القُرْبة والقُرْب من الله عزَّ وجلَّ، ومن القلوب ما حُرِم ذلك والعياذُ بالله تعالى.

وقال ابنُ عطية[1]: رُوي عن ابن عباس أنه قال في قوله تعالى: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ إلخ: يريد بالماء الشرعَ والدِّين، وبالأودية القلوبَ، ومعنى سيلانها بقدرها أخذُ النبيلِ بحظِّه والبليد بحظِّه. ثم قال: وهذا قولٌ لا يصحُّ ـ والله تعالى أعلم ـ عن ابن عباس؛ لأنه ينحو إلى قولِ أصحاب الرموز، وقد تمسَّك به الغزاليُّ[2] وأهلُ ذلك الطريق، وفيه إخراجُ اللفظ عن مفهوم كلام العرب بغير داعٍ إلى ذلك، وإن صحَّ ذلك عن ابن عباس فيقال فيه: إنما قصدَ رضي الله عنه أن قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْحَقَّ وَٱلْبَٰطِلَ﴾ معناه: الحق الذي يتقرَّر في القلوب، والباطل الذي يعتريها. اهـ.

---

(١) المحرر الوجيز ٢/٣٠٨.

(٢) الإحياء ١/١٠٢، وليس في كلامه ما يدل على تمسكه بهذا التفسير، بل المفهوم من كلامه عدم قبول مثل هذه التأويلات كما سينبه عليه المصنف قريباً.

ونحن نقول: إن صحَّ ذلك فمقصود الحبْر منه الإشارةُ، وإن كان يريد غير ظاهر فيه، وحجَّةُ الإسلام الغزاليُّ عليه الرحمةُ أشدُّ الناس على أهل الرُّموز القائلين بأن الظاهر ليس مرادَ الله تعالى كما لا يخفى على متتبِّعي كلامِهِ.

وسمعتُ من بعض الناس أن أهل الكيمياء تكلَّموا في هذه الآية على ما يوافق غرضَهم، ولم أقف على ذلك.

﴿لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِرَبِّهِمُ﴾ بتصفية الاستعداد عن كُدورات صفاتِ النفس ﴿ٱلْحُسْنَىٰ﴾ المثوبةُ الحسنى، وهو الكمال الفائضُ عليهم عند الصفاء ﴿وَٱلَّذِينَ لَمْ يَسْتَجِيبُوا۟ لَهُۥ﴾ تعالى وبقوا في الرذائل البشرية والكُدورات الطبيعية ﴿لَوْ أَنَّ لَهُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾ الجهةِ السُّفلية من الأموال والأسباب التي انجذبوا إليها بالمحبَّة، فأهلكوا أنفسَهم بها ﴿وَمِثْلَهُۥ مَعَهُۥ لَٱفْتَدَوْا۟ بِهِۦٓ﴾ مما ينالُهم من الحجاب والحِرْمان ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ لَهُمْ سُوٓءُ ٱلْحِسَابِ﴾ لوقوفهم مع الأفعال في مقام النفس ﴿وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ﴾ الحِرْمانُ ﴿وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾ جهنَّم، والعياذُ بالله تعالى، ونسألُه العفوَ والعافية.

❁ ❁ ❁

﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ﴾ من القرآن الذي مُثِّل بالماء المُنزَلِ من السماء، والإبريز الخالص في المنفعةِ والجدوى هو ﴿ٱلْحَقُّ﴾ الذي لا حقَّ وراءه، أو الحقُّ الذي أُشير إليه بالأمثال المضروبة فيستجيب له ﴿كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ عمى القلب لا يدركُهُ، ولا يُقدِّر قدرَه وهو هو، فيبقى حائراً في ظلمات الجهل وغَياهب الضلال، ولا يتذكَّر بما يُضرب من الأمثال؟ والمراد كمن لا يعلم ذلك، إلا أنه أُريد زيادةُ تقبيح حالِهِ، فعبَّر عنه بالأعمى، والهمزةُ للإنكار، وإيرادُ الفاء بعدها لتوجيه الإنكار إلى ترتُّب توهُّم المماثلة على ظهور حال كلٍّ منهما بما ضُرب من الأمثال، وما بُيِّن من المصير والمآل، كأنه قيل: أَبْعَدَ ما بُيِّن حالُ كلٍّ من الفريقين ومآلهما يُتوهَّم المماثلةُ بينهما؟!

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: (أومن يعلم) بالواو مكان الفاء[1].

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٤.

﴿إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ﴾ بما ذُكر من المذكِّرات، فيقفُ على ما بينهما من التفاوت والتنائي ﴿أُوْلُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ۝١٩﴾ أي: العقولُ الخالصة المبرَّأة من متابعة الإلفِ ومعارضةِ الوهم، فاللبُّ أخصُّ من العقل، وهو الذي ذهب إليه الراغبُ[1]، وقيل: هما مترادفان، والقصدُ بما ذكر دفعُ ما يُتوهَّم من أن الكفار عقلاءُ مع أنهم غيرُ متذكِّرين، ولو نُزِّلوا منزلةَ المجانين حسُنَ ذلك.

والآيةُ[2] على ما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما في حمزةَ رضي الله عنه وأبي جهل، وقيل: في عمر رضي الله عنه وأبي جهل، وقيل: في عمار بن ياسر رضي الله عنه وأبي جهل، وقد أشرنا إلى وجه اتِّصالها بما قبلَها، والعلامةُ الطِّيبي بعد أن قرَّر وجهَ الاتصال بأن (أَفَمَن يَعْلَمُ) عطفٌ على جملة (لِلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟)، والهمزةَ مقحمةٌ بين المعطوف والمعطوف عليه، وذَكَر من معنى الآية على ذلك ما ذَكَر، قال: ثم إنك إذا أمعنتَ النظرَ وجدتَها متصلةً بفاتحة السورة، يعني بقوله تعالى: (وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يُؤْمِنُونَ) وهو كما ترى.

﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ﴾ بما عَقدُوا على أنفسهم من الاعتراف بربوبيَّته تعالى حين قالوا: بلى، أو بما عَهِدَ الله تعالى عليهم في كتبه من الأحكام، فالمرادُ بهم ما يشمَلُ جميعَ الأمم. وإضافةُ العهد إلى الاسم الجليل من باب إضافةِ المصدر إلى مفعوله على الوجه الأول، ومن باب إضافةِ المصدرِ إلى فاعله على الثاني، وإذا أُريد بالعهد ما عَقَده الله تعالى عليهم يوم قال سبحانه: ﴿أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ [الأعراف:١٧٢] كانت الإضافة مطلقاً من باب إضافةِ المصدر إلى الفاعل، وهو الظاهر كما في «البحر»[3]. وحُكي حملُ العهد على عهد (أَلَسْتُ) عن قتادة، وحملُه على ما عُهِد في الكتب عن بعضهم، ونُقل عن السدِّي حملُه على ما عُهد إليهم في القرآن، وعن القفَّال حملُه على ما في جِبِلَّتهم وعقولهم من دلائل التوحيد والنبوَّات، إلى غير ذلك، واستُظهر حملُه على العموم.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (لب).

(٢) في هامش الأصل: «أفمن يعلم» إلخ.اهـ. منه. وهي في هامش (م) كذلك بزيادة: هي، في أولها.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.

﴿وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ ۝٢٠﴾ ما وثَّقوا من المواثيق بين الله تعالى وبينهم من الإيمان به تعالى، والأحكام، والنذور، وما بينهم وبين العباد، كالعقود وما ضاهاها، وهو تعميمٌ بعد تخصيص، وفيه تأكيدٌ للاستمرار المفهوم من صيغة المستقبل.

وقال أبو حيان[1]: الظاهرُ أن هذه الجملةَ تأكيدٌ للتي قبلها؛ لأن العهدَ هو الميثاق، ويلزمُ من إيفاء العهدِ انتفاءُ نقضِه، وقال ابنُ عطية[2]: المرادُ بالجملة الأولى: يوفُون بجميع عهودِ الله تعالى، وهي أوامرُه ونواهيه التي وصَّى الله تعالى بها عبيدَه، ويدخلُ في ذلك التزامُ[3] جميع الفروض، وتجنُّبُ جميع المعاصي، والمراد بالجملة الثانية أنهم إذا عقَدوا في طاعة الله تعالى عهداً لم ينقضوه. اهـ. وعليه فحديثُ التعميم بعد التخصيص لا يتأتَّى كما لا يخفى.

وقد تقدَّم الله سبحانه إلى عبادِهِ في نقض الميثاق ونَهَى عنه في بضعٍ وعشرين آيةً من كتابه، كما رُوي عن قتادة.

ومن أعظمِ المواثيق ـ على ما قال ابنُ العربيِّ[4] ـ أن لا يَسأل العبدُ سوى مولاه جلَّ شأنه. وفي قصة أبي حمزة الخُراساني ما يشهَدُ لعِظَم شأنه؛ فقد عاهَدَ رَبَّه أن لا يسأل أحداً سواه، فاتفَقَ أن وقع في بئرٍ، فلم يسأل أحداً من الناس المارِّين عليه إخراجَه منها، حتى جاء من أخرجَه بغير سؤال، ولم يَرَ مَنْ أخرجَه، فهتَفَ به هاتفٌ: كيف رأيتَ ثمرة التوكُّل؟ فينبغي الاقتداءُ به في الوفاء بالعهد، على ما قال أيضاً. وقد أنكر ابنُ الجوزيِّ[5] فعلَ هذا الرجل، وبيَّن خطأه، وأن التوكُّلَ لا ينافي الاستغاثةَ في تلك الحال، وذكر أن سفيانَ الثوريَّ وغيرَه قالوا: لو أن إنساناً جاع فلم يسأل حتى ماتَ دخلَ النارَ، ولا يُنكَر أن يكون الله تعالى قد لطَفَ بأبي حمزةَ الجاهل، نعم لا ينبغي الاستغاثةُ بغير الله تعالى على النحوِ الذي يفعلُه الناس اليوم مع أهل القبور الذين يتخيَّلون فيهم ما يتخيَّلون، فآهاً ثم آهاً مما يفعلون.

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣٠٩.

(٣) قوله: التزام، من (م).

(٤) أحكام القرآن ٣/ ١٠٩٩.

(٥) تلبيس إبليس ص٢٩٤ ـ ٢٩٥، وصفوة الصفوة ١/ ٢٦ ـ ٢٨.

﴿وَالَّذِينَ يَصِلُونَ مَا أَمَرَ اللَّهُ بِهِۦ أَن يُوصَلَ﴾ الظاهرُ العموم في كلِّ ما أمر الله تعالى به في كتابه وعلى لسان نبيِّه ﷺ، وقال الحسن: المراد صلةُ الرسولِ ﷺ بالإيمان به، ورُوي نحوه عن ابن جُبير، وقال قتادة: المراد صلةُ الأرحام، وقيل: صلةُ الإيمان بالعمل، وقيل: صلةُ قرابة الإسلام بإفشاء السلام، وعيادةِ المرضى، وشهودِ الجنائز، ومراعاة حقِّ الجيران والرُّفقاء والخدم. ومَنْ ذهب إلى العموم أدخل في ذلك الأنبياء عليهم السلام، ووَصْلُهم أن يؤمن بهم جميعاً، ولا يفرِّق بين أحد منهم، والناسَ على اختلافِ طبقاتهم، ووَصْلُهم بمراعاة حقوقهم، بل سائرَ الحيوانات، ووَصْلُها بمراعاة ما يُطلب في حقِّها وجوباً أو ندباً.

وعن الفضيل بن عياض أنَّ جماعةً دخلوا عليه بمكة، فقال: من أين أنتُم؟ قالوا: من أهل خراسان[1]، قال: اتقوا الله تعالى وكونوا من حيث شئتُم، واعلموا أنَّ العبدَ لو أحسَنَ الإحسانَ كلَّه وكانت له دجاجةٌ فأساء إليها لم يكن محسناً.

ومفعولُ (أَمَرَ) محذوفٌ، والتقدير: ما أمرَهم الله به، و(أَن يُوصَلَ) بدلٌ من الضمير المجرورِ، أي: ما أمَرَ الله بوصلِهِ.

﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ أي: وعيدَه سبحانه، والظاهرُ أن المراد به مطلقاً، وقيل: المرادُ وعيدُه تعالى على قَطْع ما أُمروا بوصله. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ الْحِسَابِ ﴿٢١﴾﴾ [الرعد: ٢١] فيحاسبون أنفسَهم قبل أن يُحاسَبوا، وهذا من قَبِيل ذِكْر الخاصِّ قبل العامِّ؛ للاهتمام، والخشيةُ والخوفُ؛ قيل: بمعنى، وفي «فروق» العسكري[2] أن الخوف يتعلَّق بالمكروه ومُنزِلِهِ، تقول: خفتُ زيداً، وخفتُ المرضَ، والخشيةُ تتعلَّق بالمُنزِل دون المكروه نفسِهِ، ولذا قال سبحانه: «يخشون» أولاً، و«يخافون» ثانياً، وعليه فلا يكون اعتبارُ الوعيد في محلِّه، لكنَّ هذا غيرُ مسلَّم؛ لقوله تعالى: ﴿خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍ﴾ [الإسراء: ٣١] و﴿لِمَنْ خَشِىَ الْعَنَتَ مِنكُمْ﴾ [النساء: ٢٥] وفرَّق الراغبُ[3] بينهما، فقال: الخشيةُ: خوفٌ يَشُوبُه تعظيمٌ، وأكثرُ ما يكون ذلك عن

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: كأنهم تعرفوا إليه بأنهم من منشئه، فأجاب بأن الجامع التقوى لا المولد، وقيل: كأنهم افتخروا بأنهم من خراسان، والأول أولى. اهـ. منه.

(٢) الفروق في اللغة ص٤٢٦.

(٣) مفردات ألفاظ القرآن: (خشي).

عِلْم، ولذلك خُصَّ العلماءُ بها في قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يَخْشَى ٱللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ ٱلْعُلَمَٰٓؤُا۟﴾ [فاطر:٢٨]. وقال بعضُهم: الخشيةُ: أشدُّ الخوفِ؛ لأنها مأخوذةٌ من قولهم: شجرةٌ خَشِيَّة أي: يابسة، ولذا خُصَّت بالربِّ في هذه الآية، وفُرِّق بينهما أيضاً بأن الخشية تكونُ من عِظَم المخشيِّ، وإن كان الخاشي قويًّا، والخوفُ من ضعفِ الخائف، وإن كان المَخُوفُ أمراً يسيراً، يدلُّ على ذلك أن تقاليبَ الخاء والشين والياء تدلُّ على الغفلة، وفيه تدبُّر.

والحقُّ أن مثل هذه الفروق أغلبيٌّ لا كليٌّ وضعيٌّ، ولذا لم يفرِّق كثيرٌ بينهما، نعم اختار الإمام(١) أن المراد من «يخشون ربهم» أنهم يخافونَه خوفَ مهابةٍ وجلالة، زاعماً أنه لولا ذلك يلزَمُ التكرار، وفيه ما فيه.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟﴾ على كلِّ ما تكرهُهُ النفسُ من المصائبِ المالية والبدنية، وما يخالفُه هوى النفس، كالانتقام ونحوه، ويدخُلُ فيما ذُكر التكاليف ﴿ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ طلباً لرضاه تعالى من غير أن ينظروا إلى جانب الخلق رياءً أو سمعةً، ولا إلى جانبِ أنفسِهم زينةً وعُجْباً، وقيل: المرادُ طالبين ذلك، فنصب «ابتغاء» على الحالية، وعلى الأول هو منصوبٌ على أنه مفعولٌ له، والكلامُ في مثل الوجه منسوباً إليه تعالى شهيرٌ.

وفي «البحر»(٢): أن الظاهرَ منه هنا جهةُ الله تعالى، أي: الجهةَ التي تُقصَدُ عنه سبحانه بالحسنات ليقَعَ عليها المثوبةُ، كما يقال: خرج زيدٌ لوجهِ كذا، وفيه أيضاً(٣) أنه جاءت الصلةُ هنا بلفظ الماضي، وفيما تقدَّم بلفظ المضارع على سبيل التفنُّن في الفصاحة؛ لأن المبتدأ في معنى اسم الشرط، والماضي كالمضارع في اسم الشرط، فكذلك فيما أشبَهَه، ولذا قال النحويون: إذا وقع الماضي صلةً أو صفةً لنكرةٍ عامةٍ احتَمَلَ أن يُراد به المُضِيُّ، وأن يُراد به الاستقبالُ، فمن الأول: ﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ﴾ [آل عمران:١٧٣] ومن الثاني: ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُوا۟ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهِمْ﴾ [المائدة:٣٤] ويظهر أيضاً أن اختصاصَ هذه الصلةِ بالماضي وما تقدم

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٤٢.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٦.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٥.

بالمضارع، أنَّ ما تقدَّم قُصِدَ به الاستصحابُ والالتباس، وأما هذه فقد قُصِد بها تقدُّمُها على ذلك؛ لأنَّ حصول تلك الصِّلات إنما هي مرتَّبة على حصول الصبر وتقدُّمِهِ عليها، ولذا لم يأتِ صلةٌ في القرآن إلا بصيغةِ الماضي؛ إذ هو شرطٌ في حدوث التكاليف وإيقاعها.

وفي «إرشاد العقل السليم»[1]: حيث كان الصبر مَلاكَ الأمر في كلِّ ما ذُكر من الصِّلات السابقة واللاحقة أُورد بصيغة الماضي؛ اعتناءً بشأنه، ودلالةً على وجوب تحقُّقه؛ فإنَّ ذلك مما لا بدَّ منه إما في نفس الصِّلات، كما فيما عدا الأولى والرابعة والخامسة، أو في إظهار أحكامها، كما في الصلات الثلاث المذكورات؛ فإنها وإن استغنت عن الصَّبر في أنفسِها حيث لا مشقَّةَ على النفس في الاعتراف بالربوبيَّة والخشية والخوف، لكنَّ إظهارَ أحكامها والجريَ على موجبها غيرُ خالٍ عن الاحتياج إليه. وهو لا يخلو عن شيء، والأولى ـ على ما قيل ـ الاقتصارُ في التعليل على الاعتناءِ بشأنه.

وعطف قوله سبحانه: ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ وكذا ما بعدَه على ذلك ـ على ما نصَّ عليه غيرُ واحد ـ من باب عطفِ الخاصِّ على العامِّ، والمرادُ بـ (ٱلصَّلَوٰةَ)؛ قيل: الصلاةُ المفروضة، وقيل: مطلقاً، وهو أَولى. ومعنى إقامتها: إتمامُ أركانها وهيآتها.

﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَـٰهُمْ﴾ بعضَ ما أعطيناهم، وهو الذي وجَبَ عليهم إنفاقهُ، كالزكاة، وما يُنفقُ على العيال والمماليك، أو ما يشمَلُ ذلك، والذي نُدب ﴿سِرًّا﴾ حيث يحسُنُ السِّرُّ، كما في إنفاق من لا يُعرف بالمال إذا خشي التهمةَ في الإظهار، أو من عُرِفَ به لكن لو أظهرَه ربما داخَلَه الرياءُ والخُيَلاء، وكما في الإعطاء لمن تمنعُهُ المروءةُ من الأخذِ ظاهراً. ﴿وَعَلَانِيَةً﴾ حيث تحسُنُ العلانيةُ، كما إذا كان الأمرُ خلاف ما ذُكر.

وقال بعضُهم: إن الأولَ مخصوصٌ بالتطوُّع، والثاني بأداء الواجب، وعن الحسن أن كلا الأمرين في الزكاة المفروضة، فإن لم يُتَّهم بتركِ أداء الزكاة فالأَولى

(١) تفسير أبي السعود ٥/١٧.

أداؤُها سرًّا، وإلا فالأولى أداؤُها علانيةً. وقيل: السرُّ: ما يؤدِّيه بنفسه، والعلانيةُ: ما يؤدِّيه إلى الإمام، والأولى الحملُ على العموم، ولعلَّ تقديمَ السرِّ للإشارة إلى فضلِ صدقته، وجاء في الصَّحيح عدُّ المتصدِّق سرًّا من الذين يُظلُّهم الله تعالى في ظِلِّه يومَ القيامة[1].

﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ﴾ أي: يدفعون الشرَّ بالخير، ويُجازون الإساءةَ بالإحسان، على ما أخرجَه ابنُ جريرٍ عن ابن زيد[2]، وعن ابن جُبير: يردُّون معروفاً على من يُسيء إليهم. فهو كقوله تعالى: ﴿وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُواْ سَلَٰمًا﴾ [الفرقان:٦٣] وقال الحسن: إذا حُرِموا أعطَوا، وإذا ظُلموا عَفَوا، وإذا قُطِعوا وَصَلوا. وقيل: يُتْبِعون السيئةَ بالحسنة فتمحوها. وفي الحديث: أن مُّعاذاً قال: أوصني يا رسول الله؟ قال: «إذا عملت سيئة فاعمل بجنبها حسنة تمحها، السر بالسر، والعلانية بالعلانية»[3]. وعن ابن كَيْسان: يدفعون بالتوبةِ معرَّةَ الذنب. وقيل: بلا إله إلا الله شِرْكَهم، وقيل: بالصدقةِ العذابَ. وقيل: إذا رأوا منكراً أَمَروا بتغييره، وقيل وقيل، ويُفهِمُ صنيعُ بعضهم[4] اختيارَ الأول، فهم كما قيل:

يَجْزُون من ظُلم أهل الظلم مغفرةً ... ومن إساءةِ أهلِ السُّوء إحساناً[5]

وهذا بخلاف خُلُق بعضِ الجهلة:

جريءٍ متى يُظْلَم يعاقِبْ بظلمه ... سريعاً وإن لا يُبْدَ بالظُّلم يَظْلِمِ[6]

وقال في «الكشف»: الأظهر التعميمُ، أي: يدرؤون بالجميل السيئَ، سواء كان

(١) صحيح البخاري (٦٦٠)، وصحيح مسلم (١٠٣١)، وسلف ٣/ ٤٦٦.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥١٠.
(٣) أخرجه هناد في الزهد (١٠٧٢)، والطبراني في الكبير ٢٠/ (٣٧٤)، والبيهقي في شعب الإيمان (٥٤٨).
قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٤/ ٢١٨: رواه الطبراني، وأبو سلمة لم يدرك معاذاً، ورجاله ثقات.
(٤) في (م): بعض المحققين.
(٥) البيت لقُرَيط بن أُنَيف العنبري، وهو من قصيدة في الحماسة ١/ ٣١ بشرح المرزوقي، والخزانة ٧/ ٤٤١.
(٦) البيت من معلقة زهير بن أبي سلمى، وهو في ديوانه ص٢٤.

لأذاهم أو لا، مخصوصاً بهم أو لا، طاعةً أو معصية، مكرُمةً أو منقصة. ولعل الأمرَ كما قال.

وتقديمُ المجرور على المنصوب؛ لإظهار كمال العناية بالحسنة.

﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ أي: المنعوتون بالنعوتِ الجليلة والمَلَكات الجميلة، وليس المرادُ بهم أناساً بأعيانهم، وإن كانت الآيةُ نازلةً ـ على ما قيل ـ في الأنصار. واسمُ الإشارة مبتدأٌ، خبرُه الجملةُ الظرفية، أعني قولَه سبحانه: ﴿لَهُمْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٢﴾﴾ أي: عاقبةَ الدنيا، وما ينبغي أن يكون مآلُ أمرِ أهلها، وهي الجنة، فتعريفُ (ٱلدَّارِ) للعهد، والعاقبة المطلقةُ تفسَّر بذلك، وفُسِّرت به في قوله تعالى: ﴿وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [الأعراف: ١٢٨] وفسَّرها الزمخشريُّ[(١)] أيضاً بالجنة، إلا أنه قال: لأنَّها التي أرادَ الله تعالى أن تكون عاقبةَ الدنيا ومرجِعَ أهلِها، وفيه ـ على ما قيل ـ شائبةُ اعتزال.

وجُوِّز أن يُراد بـ (ٱلدَّارِ) الآخرة، أي: لهم العُقْبى الحسنةُ في الدار الآخرة.

وقيل: الجارُّ والمجرور خبرُ اسمِ الإشارة، و(عُقْبَى) فاعلُ الاستقرار، وأيّاً ما كان فليس فيه قصرٌ حتى يَرِدَ أنَّ بعضَ ما في حيِّزِ الصِّلة ليس من العزائم التي يخلُّ إخلالُها بالوصول إلى حُسْن العاقبة.

وقال بعضهم: إنَّ المراد: مآلُ أولئك الجنة من غير تخلُّلٍ بدخول النار، فلا بأس لو قيل بالقصر، ولا يلزَمُ عدمُ دخولِ الفاسق المعذَّبِ الجنةَ، والقول: إنه موصوفٌ بتلك الصفات في الجملة كما ترى. والجملةُ خبرٌ للموصولات المتعاطفة إن رُفعت بالابتداء، أو استئنافٌ نحويٌّ أو بيانيٌّ في جواب: ما بالُ الموصوفين بهذه الصفات؟ إن جعلت الموصولات المتعاطفة صفاتٍ لـ «أولي الألباب» على طريقة المدح، من غير أن يقصد أن يكون للصِّلات المذكورةِ مدخلٌ في التذكُّر، والأول أوجهُ؛ لما في «الكشف» من رعاية التقابُلِ بين الطائفتين، وحُسْنِ العطفِ في قوله تعالى: (وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ) وجَرْيهما على استئناف الوصف للعالِم ومَنْ هو كأعمى.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٥٨.

وقوله سبحانه: ﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ﴾ بدلٌ من «عقبى الدار» كما قال الزجّاج[(١)]، بدلُ كلٍّ من كلّ، وجوَّز أبو البقاء[(٢)] وغيرُه أن يكون مبتدأً خبرُه قوله تعالى: ﴿يَدۡخُلُونَهَا﴾، وتُعقِّب بأنه بعيدٌ عن المقام، والأولى أن يكون خبر[(٣)] مبتدإٍ محذوفٍ كما ذكر في «البحر»[(٤)]، ورُدَّ بأنه لا وجهَ له؛ لأن الجملةَ بيانٌ لـ «عقبى الدار»، فهو مناسبٌ للمقام. والعدن: الإقامة والاستقرار، يقال: عدن بمكان كذا: إذا استقرَّ، ومنه المعدِنُ لمستقرِّ الجواهر، أي: جنات يقيمون فيها، وأخرج غيرُ واحدٍ عن ابن مسعود أنه قال: «جنات عدن»: بُطْنان الجنة، أي: وسطها، ورُوي نحو ذلك عن الضحَّاك، إلا أنه قال: هي مدينة وسط الجنة، فيها الأنبياءُ والشهداء وأئمَّة الهدى، وجاء فيها غيرُ ذلك من الأخبار، ومتى أُريد منها مكانٌ مخصوصٌ من الجنة كان البدلُ بدلَ بعضٍ من كلّ.

وقرأ النخَعيُّ: «جنة» بالإفراد، ورُوي عن ابن كثير وأبي عَمرو: «يُدخَلونها» مبنيّاً للمفعول[(٥)].

﴿وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ﴾ جمع أبوي كلِّ واحد منهم، فكأنه قيل: من آبائهم وأمهاتهم ﴿وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾، وهو ـ كما قال أبو البقاء[(٦)] ـ عطفٌ على المرفوع في «يدخلونها»، وإنما ساغ ذلك مع عدم التأكيد؛ للفصل بالضمير الآخر، وجُوِّزَ أن يكون مفعولاً معه. واعتُرض بأن واو المعيَّة لا تدخلُ إلا على المتبوع. ورُدَّ بأن هذا إنما ذُكر في «مع»، لا في الواو، وفيه نظر.

والمعنى: أنه يلحَقُ بهم مَنْ صلح من أهليهم، وإن لم يبلُغْ مبلَغَ فضلهم؛ تبعاً لهم؛ تعظيماً لشأنهم. أخرج ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ، عن ابن جُبير قال: يدخُلُ

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٤٧.
(٢) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٢ ـ٣٨٣.
(٣) ليست في (م).
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٨٦.
(٥) البحر ٥/ ٣٨٦ ـ ٣٨٧، وقراءة ابن كثير وأبي عمرو هذه من الشواذ، والمشهور عنهما كسائر القراء.
(٦) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٣.

الرجل الجنةَ، فيقول: أين أمي؟ أين ولدي؟ أين زوجتي؟ فيقال: لم يعملوا مثلَ عملك، فيقول: كنتُ أعملُ لي ولهم، ثم قرأ الآية[1].

وفُسِّر «من صلح» بمن آمن، وهو المرويُّ عن مجاهد، ورُوي ذلك عن ابن عباس رضي الله عنهما، وفسَّر ذلك الزجاجُ[2] بِمَنْ آمنَ وعمل صالحاً، وذكر أنه تعالى بيَّن بذلك أن الأنساب لا تنفعُ إذا لم يكن معها أعمالٌ صالحة، بل الآباءُ والأزواجُ والذرية لا يدخلون الجنةَ إلا بالأعمال الصالحة.

وردَّ عليه الواحدي [3] فقال: الصحيحُ ما رُوي عن ابن عباس؛ لأن الله تعالى جعل من ثوابِ المطيع سرورَه بحضورِ أهله معه في الجنة، وذلك يدلُّ على أنهم يدخلونَها كرامةً للمطيع الآتي بالأعمال الصالحة، فلو دخلوها بأعمالهم، لم يكن في ذلك كرامةٌ للمطيع، ولا فائدة في الوعد به؛ إذ كل مَنْ كان مصلحاً في عمله يدخُلُ الجنة.

وضعَّف ذلك الإمامُ[4] بأن المقصودَ بشارةُ المطيع بكلِّ ما يزيدُه سروراً وبهجةً، فإذا بشَّر الله تعالى المكلَّف بأنه إذا دخل الجنةَ يحضُرُ معه أهلُه يعظُم سرورُه، وتقوى بهجتُه. ويقال: إن من أعظم سرورِهم أن يجتمعوا، فيتذاكروا أحوالَهم في الدنيا، ثم يشكرون الله تعالى على الخَلَاص منها، ولذلك حكى سبحانه عن بعضِ أهلِ الجنة أنه يقول: ﴿يَٰلَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ ۝ بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ ٱلْمُكْرَمِينَ﴾ [يس: ٢٦-٢٧].

وعلى هذا لا تكونُ الآيةُ دليلاً على أن الدرجةَ تعلو بالشفاعة. ومنهم من استدلَّ بها على ذلك على المعنى الأول لها.

وتُعقِّب بأنها أيضاً لا دلالةَ لها على ما ذُكر. وأُجيب بأنه إذا جاز أن تعلوَ بمجرَّد التبعيَّة للكاملين في الإيمان؛ تعظيماً لشأنهم، فالعلوُّ بشفاعتهم معلومٌ بالطريق الأولى.

---

(١) ليس في مطبوع تفسير ابن أبي حاتم، وأورده السيوطي في الدر ٤/ ٥٧.
(٢) معاني القرآن ٣/ ١٤٧.
(٣) انظر الوسيط ٣/ ١٤.
(٤) تفسير الرازي ١٩/ ٤٤ - ٤٥.

وقال بعضُهم: إنهم لمَّا كانوا بصلاحهم مستحقِّين لدخول الجنة، كان جعلُهم في درجتهم مقتضَى طلبِهم، وشفاعتُهم لهم بمقتضى الإضافة.

والحقُّ أن الآيةَ لا تصلُحُ دليلاً على ذلك، خصوصاً إذا كانت الواو بمعنى «مع»، فتأمَّل، والظاهر أنه لا تمييزَ بين زوجةٍ وزوجةٍ، وبذلك صرَّح الإمام [1]، ثم قال: ولعلَّ الأولى مَنْ مات عنها، أو ماتت عنه. وما رُوي عن سَوْدَة أنها لمَّا همَّ رسولُ الله ﷺ بطلاقها قالت: دَعْني يا رسولَ الله أُحشرُ في جملة نسائك [2]. كالدليلِ على ما ذُكر.

واختُلف في المرأة ذاتِ الأزواج إذا كانوا قد ماتُوا عنها: فقيل: هي في الجنةِ لآخرِ أزواجها، ويؤيِّده كونُ أمهاتِ المؤمنين زوجاتُه ﷺ فيها، من كونِ أكثرهنَّ كنَّ قد تزوَّجن قبلُ بغيره عليه الصلاة والسلام. وقيل: هي لأولِ أزواجها، كامرأةٍ أخبرَها ثقةٌ أن زوجَها قد مات، ووقع في قلبها صدقُه، فتزوَّجت بعد انقضاء عدَّتها، ثم ظهرت حياتُه؛ فإنها تكونُ له. وتُعقِّب بأن هذا ليس من هذا القَبِيل، بل هو يُشبه ما لو ماتَ رجلٌ، وأخبر معصومٌ كالنبيِّ بموته، فتزوَّجت امرأتُه بعد انقضاء العِدَّة، ثم أحياه الله تعالى، وقد قالوا في ذلك: إن زوجتَه لزوجها الثاني. وقيل: إن الزوجةَ تُخيَّرُ يومَ القيامة بين أزواجها، فمن كان منهم أحسَنَهم خُلُقاً معها كانت له، وارتضاه جمعٌ.

وقرأ ابنُ أبي عَبْلة: «صلُح» بضمِّ اللام، والفتحُ أفصح، وعيسى الثقفيُّ: «ذريَّتِهم» بالتوحيد [3].

﴿وَالْمَلَٰٓئِكَةُ يَدْخُلُونَ عَلَيْهِم مِّن كُلِّ بَابٍ ﴿٢٣﴾﴾ من أبواب المنازل.

وأخرج ابنُ أبي حاتم عن أنس بن مالك أنه قرأ الآيةَ حتى خَتَمها، ثم قال: إنَّ المؤمن لفي خيمةٍ من دُرَّةٍ مجوَّفة، ليس فيها جِذْعٌ ولا وصل، طولُها في الهواء

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.

(٢) أخرجه البيهقي في السنن الكبرى ٧/ ٧٥ من حديث عائشة ﵂، وخبر تخيير سودة وجَعْلِ يومها لعائشة عند أحمد (٢٤٨٥٩)، والبخاري (٢٥٩٣)، ومسلم (١٤٦٣) عن عائشة ﵂.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.

ستُّون ميلاً، في كلِّ زاويةٍ منها أهلٌ ومال، لها أربعةُ آلاف مِصْراع من ذهب، يقوم على كلِّ بابٍ منها سبعون ألفاً من الملائكة، مع كلِّ ملكٍ هديَّةٌ من الرحمن ليس مع صاحبه مثلُها، لا يَصِلون إليه إلا بإذن، بينه وبينهم حجاب[1]، ورُوي عن ابن عباس ما هو أعظمُ من ذلك.

وقال أبو بكر الأصمّ[2]: أريد: من كلِّ بابٍ من أبواب البِرِّ، كباب الصلاة، وباب الزكاة، وباب الصبر، وقيل: من أبواب الفتوح والتحف. قيل: فعلى هذا المرادُ بالباب النوع، و«من» للتعليل، والمعنى: يدخلون لإتحافهم بأنواع التحف، وتُعقِّب بأن في كونِ الباب بمعنى النوع كالبابَةِ نظراً؛ فإن ظاهرَ كلام «الأساس»[3] وغيرِه يقتضي أن يكون مجازاً، أو كنايةً عما ذُكر؛ لأن الدار التي لها أبوابٌ إذا أتاهم الجمُّ الغفيرُ يدخلونها من كلِّ بابٍ، فأريدَ به دخولُ الأرزاق الكثيرةِ عليهم، وأنها تأتيهم من كلِّ جهةٍ، وتعدُّد الجهات يُشعر بتعدُّد المأتيَّات؛ فإن لكلِّ جهة تُحفة.

﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم﴾ أي: قائلين ذلك، وهو بشارةٌ بدوام السلامة، فالجملةُ مقولٌ لقولٍ محذوف واقعٍ حالاً من فاعل «يدخلون». وجُوِّزَ كونُها حالاً من غير تقديرٍ، أي: مسلمين، وهي في الأصل فعليَّة، أي: يسلِّمون سلاماً.

وقوله تعالى: ﴿بِمَا صَبَرْتُمْ﴾ متعلِّقٌ ـ كما قال أبو البقاء[4] ـ بما تعلَّقَ به «عليكم»، أو به نفسِهِ؛ لأنَّه نائبٌ عن متعلّقه، ومنَعَ هذا ـ كما قال السيوطيُّ ـ السَّفاقسيُّ، وقال: لا وجهَ له، والصحيحُ أنه متعلِّقٌ بما تعلَّق به «عليكم»، وجوَّز الزمخشريُّ تعلُّقَه بـ «سلام» على معنى: نسلِّم عليكم، ونكرمُكم بصبركم؛ ومنعه أبو البقاء[4] بأنَّ فيه الفصلَ بين المصدر ومعموله بالأجنبيِّ وهو الخبرُ، ووجَّه ذلك في «الدرِّ المصون»[5] بأن المنع إنما هو في المصدر المؤوَّل بحرفٍ مصدريٍّ، وهذا ليس منه،

---

(١) ليس في المطبوع من تفسير ابن أبي حاتم، وأورده السيوطي في الدر ٤/ ٥٧.

(٢) تحرف في (م) إلى: أبو الأصم. والتصحيح من تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.

(٣) الأساس (بوب).

(٤) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٣.

(٥) الدر المصون ٧/ ٤٥.

مع أنَّ الرضيَّ[١] جوَّز ذلك مع التأويل أيضاً، وقال: لا أراه مانعاً؛ لأن كلَّ مؤوَّل بشيءٍ لا يثبُتُ له جميع أحكامه، وجوَّز لهذه العلَّةِ العلَّامةُ الثاني تقديمَ معمولِ المصدر المؤوَّل بـ «أنْ» والفعل عليه في نحو قوله تعالى: ﴿وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ﴾ [النور: ٢] وقال في «الكشف»: إنَّ «عليكم» نظراً إلى الأصل غيرُ أجنبيٍّ، فلذلك جاز أن يُفصل به، على أن الزمخشريَّ لم يصرِّح بأنه معمولُه، بل من مقتضاه، ولذا قال: أي: نسلِّم إلخ[٢]، فدلَّ على أنَّ التعلُّق معنويٌّ يُقدَّر ما يناسبه، ولو جُعل معمولاً للظرف المستقرِّ، أعني «عليكم»، فيكون متعلِّقاً معنى بـ «سلام» ضرورةً، لكان وجهاً خالياً من التكلُّف، وجعلَه أبو حيان[٣] خبرَ مبتدأ محذوفٍ، و«ما» مصدريةٌ، والباء سببيةٌ أو بدليةٌ، أي: هذا الثوابُ الجزيلُ بسبب صبركم في الدنيا على المشاقِّ، أو بَدَله. وعن أبي عمران: بما صبرتُم على دينكم. وعن الحسن: عن فضول الدنيا. وعن محمد بن النَّضر: على الفقر. والتعميمُ أولى، وتخصيصُ الصبر بالذِّكر من بين الصِّلات السابقة؛ لما أنه ملاكُ الأمر، والأمرُ المعتنى به كما علمت.

﴿فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٢٤﴾﴾ أي: فنعم عاقبةُ الدنيا الجنة، وقيل: المراد بالدارِ الآخرةُ، وقال بعضُهم: المراد أنهم عُقبوا الجنةَ من جهنم، قال ابنُ عطية[٤]: وهذا مبنيٌّ على ما ورد من أنَّ كلَّ رجل من أهل الجنة قد كان له مقعدٌ من النار، فصرفَه الله تعالى عنه إلى النعيم، فيُعْرَضُ عليه ويقال له: هذا مقعدُكَ من النار أبدلَكَ الله تعالى منه الجنةَ[٥] بإيمانك وصبرِك[٦].

وقرأ ابن يعمر: «فنَعِم» بفتح النون وكسر العين، وذلك هو الأصل، وابنُ وثَّاب: «فنَعْم» بفتح النون وسكون العين، وتخفيفُ فَعِلَ لغةُ تميم[٧]، وجاء فيها ـ

---

(١) شرح الرضي ٣/ ٤٠٦.
(٢) الكشاف ٢/ ٣٥٨.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.
(٤) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٠.
(٥) في الأصل و(م): بالجنة، والمثبت من المحرر الوجيز.
(٦) أخرجه أحمد (١٢٢٧١)، والبخاري (١٣٣٨)، ومسلم (٢٨٧٠) من حديث أنس بن مالك، وليس فيه التقييد بالإيمان والصبر.
(٧) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧، والدر المصون ٧/ ٤٥، وجاء في مطبوع القراءات الشاذة ص٦٦: =

كما في «الصحاح»[١] ـ: «نِعِم» بكسر النون وإتباعِ العين لها، وأشهرُ استعمالاتها ما عليه الجمهور.

وأخرج ابنُ جرير[٢]: عن محمد بن إبراهيم قال: كان النبيُّ ﷺ يأتي قبور الشهداء على رأس كلِّ حولٍ، فيقول: «﴿سَلَٰمٌ عَلَيْكُم بِمَا صَبَرْتُمْ فَنِعْمَ عُقْبَى ٱلدَّارِ﴾»، وكذا كان يفعلُ أبو بكر، وعمر، وعثمان ﷺ.

وتمسَّك بعضُهم بالآية على أن الملَكَ أفضلُ من البشر، فقال: إنه سبحانه ختَمَ مراتب سعاداتِ البشر بدخولِ الملائكة عليهم على سبيل التحيَّةِ والإكرام، والتعظيم والسلام، فكانوا أجلَّ مرتبةً من البشر لمَّا كان دخولُهم عليهم لأجل السلام والتحيةِ موجباً علوَّ درجاتهم، وشرفَ مراتبهم، ولا شكَّ أن من عاد من سفرِه إلى بيته، فإذا قيل في معرض كمالِ مرتبته: إنه يزورُه الأمير والوزير والقاضي والمفتي، دلَّ على أن درجة المزور أقلُّ وأدنى من درجات الزائرين، فكذا هاهنا، وهو من الرَّكاكة بمكان.

ولم لا يجوزُ أن يكون ما هنا نظيرُ ما إذا أتى السلطانُ بشخصٍ من عمَّاله الممتازين عندَه قد أطاعه في أوامره ونواهيه إلى محلِّ كرامته، ثم بعد أن أنزلَه المنزلَ اللائقَ به أرسل خدَمَه إليه بالهدايا والتحف، والبشارة بما يسرُّه؟ فهل إذا قيل: إن فلاناً قد أحلَّه السلطانُ محلَّ كرامته، ودارَ حكومته، وأنزلَهُ المنزلَ اللائقَ به، وأرسل خدَمَه إليه بما يسرُّه، كان ذلك دليلاً على أن أولئك الخدمَ أعلى درجةً منه؟ لا أظنُّك تقول ذلك.

نعم جاء في بعض الأخبار ما يؤيِّد بظاهره ما تقدَّم؛ فقد أخرج أحمد، والبزَّار، وابنُ حبان، والحاكم وصحَّحه، وجماعةٌ عن عبد الله بن عَمرو قال: قال رسول الله ﷺ: «أولُ مَنْ يدخل الجنةَ منْ خَلْق الله تعالى فقراءُ المهاجرين، الذين تُسَدُّ بهم الثُّغور، وتُتَّقى بهم المكاره، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاءً، فيقول الله تعالى لمن يشاء من ملائكته: ائتوهم فحيُّوهم، فتقول

= فنِعِم، وعزاها لابن وثَّاب، وهي القراءة التي سيذكرها المصنف بعدها.

(١) مادة: (نعم).

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥١٣، وأخرجه أيضاً عبد الرزاق في المصنَّف (٦٧١٦).

الملائكة: ربَّنا، نحن سكَّانُ سمائك، وخِيرتُك مِنْ خَلْقك، أفتأمُرنا أن نأتي هؤلاء فنسلِّمَ عليهم؟ فيقول الله تعالى: إن هؤلاء عبادٌ لي، كانوا يعبدوني ولا يشركون بي شيئاً، وتُسدُّ بهم الثغور، وتتَّقى بهم المكاره، ويموتُ أحدُهم وحاجتُه في صدره لا يستطيع لها قضاءً. فتأتيهم الملائكةُ عند ذلك، فيدخلون عليهم من كلِّ بابٍ: سلامٌ عليكم بما صبرتُم فنعمى عقبى الدار»[1].

ومن أنصَفَ ظهرَ له أن هذا لا يدلُّ على أنَّ الملائكةَ مطلقاً أفضلُ من البشر مطلقاً كما لا يخفى، وذكر الإمام الرازيُّ[2] في تفسير الآية على الوجه المرويِّ عن الأصمِّ في تفسير دخول الملائكة من كلِّ بابٍ: أنَّ الملائكةَ طوائفُ: منهم روحانيون، ومنهم كروبيون، فالعبد إذا راضَ نفسه بأنواع الرياضات؛ كالصَّبر، والشكر، والمراقبة، والمحاسبة، ولكلِّ مرتبة من هذه المراتب جوهرٌ قدسيٌّ، وروح علويٌّ، مختصٌّ بتلك الصفة مزيدَ اختصاص، فعند الموت أشرقت تلك الجواهرُ القدسيَّة تجلَّت فيها من كلِّ روح من الأرواح السماوية ما يناسبُها من الصفات المخصوصة، فيفيضُ عليها من ملائكة الصَّبر كمالات مخصوصة نفسانيَّة لا تظهرُ إلا في مقام الصَّبر، ومن ملائكة الشكر كمالات روحانية لا تتجلَّى إلا في مقام الشكر، وهكذا القولُ في جميع المراتب. اهـ.

وتعقَّبه أبو حيان[3] بأنه كلامٌ فلسفيٌّ، لا تفهمُه العربُ، ولا جاءت به الأنبياء عليهم السلام، فهو مطروحٌ لا يلتفتُ إليه المسلمون. وأنتَ تعلم أن مثلَ هذا كلامُ كثيرٍ من الصوفيَّة.

﴿وَٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهۡدَ ٱللَّهِ﴾ أُريد بهم من يقابلُ الأوَّلين ويعاندُهم بالاتِّصاف بنقائض أوصافهم ﴿مِنۢ بَعۡدِ مِيثَٰقِهِۦ﴾ الاعتراف به، قيل: المراد بالعهد قوله سبحانه: ﴿أَلَسۡتُ بِرَبِّكُمۡ﴾ [الأعراف: ١٧٢] وبالميثاق ما هو اسمُ آلةٍ، أعني ما يوثَقُ به الشيء، وأُريدَ به الاعترافُ بقول: ﴿بَلَىٰ﴾. وقد يُسمَّى العهدُ من الطرفين

---

(١) مسند أحمد (٦٥٧٠)، ومسند البزار (٢٤٥٧)، وصحيح ابن حبان (٧٤٢١)، والمستدرك للحاكم ٢/ ٧١-٧٢.

(٢) تفسير الرازي ١٩/ ٤٥.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٨٧.

ميثاقاً؛ لتوثيقه بين المتعاهدين، وفسَّر الإمامُ[1] عهدَ الله تعالى بما ألزمه عبادَه بواسطةِ الدلائل العقلية؛ لأن ذلك أوكَدُ كلِّ عهدٍ وكلِّ أيمان؛ إذ الأيمان إنما تُفيد التوكيدَ بواسطةِ الدلائل الدالَّة على أنها توجبُ الوفاءَ بمقتضاها، ثم قال: والمرادُ من نقضها أن لا ينظُرَ المرءُ فيها، فلا يمكنُه حينئذٍ العملُ بموجبها، أو بأن ينظُرَ ويعلم صحَّتها، ثم يعاندَ، فلا يعمَلُ بعلمه، أو بأن ينظُرَ في الشُّبه فلا يعتقد الحقَّ، والمراد بقوله سبحانه: «من بعد ميثاقه» من بعد أن أوثَقَ إليه تلك الأدلَّة وأحكامَها؛ لأنه لا شيء أقوى مما دلَّ الله تعالى على وجوبه في أنه ينفع فعلُه ويضرُّ تركُه.

وأورد أنه إذا كان العهدُ لا يكون إلا بالميثاق فما فائدةُ: «من بعد ميثاقه»؟ وأجاب بأنه لا يمتنعُ أن يكون المراد مفارقةَ من تمكَّن من معرفته بالحلف لمن لم يتمكَّن، أو لا يمتنع أن يكون المرادُ الأدلةَ المؤكِّدةَ؛ لأنه يقال: قد تؤكد إليك بدلائل أخرى سواء كانت عقليةً أو سمعية. اهـ.

ولا يخفى أنه إذا أُريد بالعهد ذلك القولُ، وبالميثاق الاعترافُ به، لم يحتَجْ إلى القيل والقال. وحمَلَ بعضُهم العهدَ هنا على سائر ما وصَّى الله تعالى به عبادَه، كالعهد فيما سبق، والميثاق على الإقرار والقَبول.

والآيةُ ـ كما رُوي عن مقاتل ـ نزلت في أهل الكتاب.

﴿وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ من الإيمان بجميع الأنبياء عليهم السلام المجتمعين على الحقِّ حيث يؤمنون ببعضٍ ويكفرون ببعضٍ، ومن حقوق الأرحام، وموالاة المؤمنين، وغير ذلك.

وإنما لم يتعرَّض ـ كما قال بعضُ المحقِّقين ـ لنفي الخشيةِ والخوف عنهم صريحاً؛ لدلالة النقض والقطع على ذلك. وأما عدمُ التعرُّض لنفي الصبر المذكورِ فلأنه إنما اعتُبر تحقُّقه في ضمن الحسنات المعدودة ليقَعْنَ معتدًّا بهنَّ، فلا وجهَ لنفيه عمَّن بينه وبين الحسنات بُعْدُ المشرقين، لا سيما بعدَ تقييدِهِ بكونه ابتغاءَ وجهِهِ تعالى، كما لا وجه لنفي الصلاة والإنفاق بناءً على أن المراد منه إعطاءُ الزكاة ممَّن لا يحوم حولَ الإيمان بالله تعالى، فضلاً عن فروع الشرائع، وإن أُريد بالإنفاق

---

(١) تفسير الرازي ١٩/٤٦.

ما يشمل ذلك وغيرَه فنفيُه مندرجٌ تحت قَطْع ما أمَرَ الله تعالى بوصله، بل قد يُقال باندراج نفي الصلاة أيضاً تحت ذلك، وأما درءُ السيئةِ بالحسنة فانتفاؤه عنهم ظاهرٌ مما سبق ولَحِقَ؛ فإنَّ من يُجازي إحسانَه عزَّ وجل بنقضِ عهدِهِ سبحانه، ومخالفةِ الأمر، ويباشرُ الفساد حسبما يحكيه قولُه عزَّ وجلَّ: ﴿وَيُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ﴾ بالظلم لأنفسهم وغيرهم، وتهييج الفتن بمخالفة دعوة الحق، وإثارة الحرب على المسلمين = كيف يُتصوَّر منه الدرءُ المذكور؟.

على أنه قيل: إن ذلك يُشعر بأن له دخلاً في الإفضاء إلى العقوبة التي يُنبئ عنها قولُه سبحانه: ﴿أُوْلَٰٓئِكَ﴾ إلخ، أي: أولئك الموصوفون بتلك القبائح ﴿لَهُمُ﴾ بسبب ذلك ﴿ٱللَّعْنَةُ﴾ أي: الإبعاد من رحمة الله تعالى ﴿وَلَهُمْ﴾ مع ذلك ﴿سُوٓءُ ٱلدَّارِ ﴿٢٥﴾﴾ أي: سوءُ عاقبة الدار، والمرادُ بها الدنيا، وسوءُ عاقبتها عذابُ جهنم، أو جهنم نفسُها، ولم يقل: سوءُ عاقبةِ الدار؛ تفادياً أن يجعلَها عاقبةً حيثُ جعل العاقبةَ المطلقةَ هي الجنة، وجُوِّز أن يراد بـ «الدار» جهنم، وبسوئها عذابُها، والأول أوجه؛ لرعايةِ التقابُل، ولأنَّ المبادر[1] إلى الفهم من الدار الدنيا بقرينةِ السابق، ولأنها الحاضرةُ في أذهانهم، ولما ذُكر من النُّكتة السرية، وذلك لأنَّ ترتيبَ الحكم على الموصول يُشعر بعِلِّية الصِّلة له، ولا يخفى أنه لا دخلَ له في ذلك على أكثر التفاسير؛ فإن مُجازاةَ السيئة بمثلها مأذون فيها، ودفعُ الكلام السيِّئ بالحسن، وكذا الإعطاء عند المنع، والعفو عند الظلم، والوصل عند القطع، ليس مما يُورِثُ تركُه تبعةً.

وأما ما اعتُبر اندراجُه تحت الصِّلة الثانية من الإخلال ببعض الحقوق المندوبة فلا ضيرَ في ذلك؛ لأن اعتبارَه من حيث إنه من مستتبعات الإخلال بالعزائم؛ كالكفر ببعض الأنبياء عليهم السلام، وعقوقِ الوالدين، وتركِ سائر الحقوق الواجبة.

وقُيِّد بالأكثر؛ لأنه على الكثير مما ذكرناه في تفسيره المدخليةُ ظاهرة، وقيل: إنه سُلِكَ في وصف الكَفَرة وذمِّهم، وذِكْر ما لهم في مآلهم ما لم يُسلَك في وصف المؤمنين ومدحهم، وشَرْح ما أعدَّ لهم، وما ينتهي إليه أمرُهم، فأتي في

(١) كذا في الأصل و(م)، ولعل صوابه: المتبادر.

أحدهما بموصولات متعدِّدة، وصلاتٍ متنوعة، إلى غير ذلك، ولم يُؤت بنحو ذلك في الآخر؛ تنبيهاً على مزيد الاعتناء بشأن المؤمنين قولاً وفعلاً، وعدمِ الاعتناء بشأن أضدادهم؛ فإنهم أنجاسٌ يُتمضمض من ذِكْرهم هذا، مع الجزم بأن مقتضى الحال هو هذا. وقيل: إنَّ المسلكين من آثار الرحمة الواسعة، فتأمَّل.

وتكرير «لهم»؛ للتأكيد والإيذان باختلافهما، واستقلال كلٍّ منهما في الثبوت.

﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ﴾ أي: يوسعُه ﴿لِمَن يَشَآءُ﴾ من عباده ﴿وَيَقۡدِرُۚ﴾ أي: يُضيِّق، وقيل: يُعطي بقَدْر الكفاية، والمراد بالرزقِ الدنيويُّ، لا ما يعمُّ الأخرويَّ؛ لأنه - على ما قيل - غيرُ مناسب للسياق، وقال صاحب «الكشف»: إنه شاملٌ للرزقين: الحسيِّ والمعنويِّ، الدنيويِّ والأخرويِّ، وذَكَر في بيان ربط الآية على ذلك ما ذَكَر.

وهي - كما رُوي عن ابن عباس - نزلت في أهل مكة، ثم إنها وإن كانت كذلك عامةٌ، وكأنها دفعٌ لما يُتوهَّم من أنه كيف يكونون[1] - مع ما هم عليه من الضلال - في سَعَةٍ من الرزق، فبيَّن سبحانه أن سَعَة رزقهم ليس تكريماً لهم، كما أن تضييقَ رزق بعض المؤمنين ليس إهانةً لهم، وإنما كلٌّ من الأمرين صادرٌ منه تعالى لحِكَم إلهيَّة يعلمُها سبحانه، وربما وسَّع على الكافر إملاءً واستدراجاً له، وضيَّق على المؤمن زيادةً لأجره.

وتقديمُ المسنَدِ إليه في مثل هذه الآية للتقوِّي فقط عند السَّكاكيِّ[2]، والزمخشريّ[3] يرى أنه لا مانع من أن يكون للتقوِّي والتخصيصِ، ولذا قال: أي: اللهُ وحدَه هو يبسطُ ويقدِرُ دون غيره سبحانه.

وقرأ زيد بنُ عليٍّ رضي الله عنهما: «ويقدُر» بضمِّ الدال حيث وقع[4].

﴿وَفَرِحُواْ﴾ استئنافٌ ناعٍ قُبْحَ أفعالهم مع ما وسَّعه عليهم. والضميرُ؛ قيل: لأهل مكة، وإن لم يسبق ذِكْرُهم، واختاره جماعةٌ، وقال أبو حيان[5]: لـ «الذين

---

(١) في الأصل: يكون، والمثبت من (م).

(٢) مفتاح العلوم ص٢٢١.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٥٩.

(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٨٨.

(٥) البحر المحيط ٥/ ٣٨٨.

ينقضون»، وزعم بعضُهم أن الجملةَ معطوفةٌ على صلة «الذين»، وفي الآية تقديمٌ وتأخير، ومحلُّ هذا بعد «يفسدون في الأرض»، ولا يخفى بُعْده للاختلاف عموماً وخصوصاً، واستقبالاً ومُضِيًّا، أي: فرحوا فَرَحَ أَشَرٍ وبَطَر، لا فَرَحَ سرورٍ بفضل الله تعالى.

﴿بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا﴾ أي: بما بسَط لهم فيها من النعيم؛ لأن فرَحَهم ليس بنفسِ الدنيا، فنِسبةُ الفرح إليها مجازيَّةٌ، أو هناك تقديرٌ، أي: يبسُطُ الحياةَ، أو «الحياة الدنيا» مجازٌ عمَّا فيها.

﴿وَمَا ٱلْحَيَوٰةُ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ﴾ أي: كائنةٌ في جَنْبِ نعيمها. فالجارُّ والمجرور في موضع الحال، وليس متعلِّقاً بـ «الحياة» ولا بـ «الدنيا» كما قال أبو البقاء[1]؛ لأنهما ليسا فيها.

و «في» هذه معناها المقايسةُ، وهي كثيرةٌ في الكلام، كما يقال: ذنوبُ العبدِ في رحمة الله تعالى كقطرةٍ في بحر، وهي الداخلةُ بين مفضولٍ سابقٍ وفاضلٍ لاحق، وهي الظرفيَّةُ المجازيَّةُ؛ لأن ما يُقاس بشيء يُوضَع بجنبه.

وإسنادُ «متاع» في قوله تعالى: ﴿إِلَّا مَتَٰعٌ ﴿٢٦﴾﴾ إلى «الحياة الدنيا» يحتملُ أن يكون مجازيًّا، ويحتملُ أن يكون حقيقيّاً، والمرادُ أنها ليست إلا شيئاً نَزْراً يتمتَّع به، كعُجالة الراكب، وزادِ الراعي يُزوِّدُه أهلُه الكفَّ من التمر، أو الشيءَ من الدقيق، أو نحوَ ذلك، والمعنى إنهم رضُوا بحظِّ الدنيا معرِضين عن نعيم الآخرة، والحالُ أنَّ ما أَشِروا[2] به في جَنْب ما أعرضوا عنه نَزْر النفعِ سريعُ النفاد.

أخرج الترمذيُّ وصحَّحه عن عبد الله بن مسعود قال: نام رسولُ الله ﷺ على حصيرٍ، فقام وقد أثَّرَ في جنبه، فقلنا: يا رسول الله، لو اتَّخذنا لك [وطاءً]؟ فقال: «مالي وللدنيا، ما أنا في الدنيا إلا كراكبٍ استظلَّ تحت شجرةٍ، ثم راح وترَكَها»[3].

---

(١) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٤.
(٢) الأَشَر: البَطَر. مختار الصحاح (أشر).
(٣) سنن الترمذي (٢٣٧٧)، وما بين حاصرتين منه، وأخرجه أيضاً أحمد (٣٧٠٩)، وابن ماجه (٤١٠٩).

وقيل: معنى الآيةِ كالخبرِ: «الدنيا مزرعةُ الآخرة»[1]. يعني: كان ينبغي أن يكون ما بسَطَ لهم في الدنيا وسيلةً إلى الآخرةِ، كمتاعِ تاجرٍ يبيعُه بما يهمُّه، وينفقُه في مقاصده، لا أن يفرحوا بها ويعدُّوها مقاصد بالذَّات. والأول أولى وأنسب.

﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: أهلُ مكةَ عبد الله بنُ أبي أميَّةَ وأصحابُه. وإيثارُ هذه الطريقة على الإضمار مع ظهورِ إرادتهم عَقِيبَ ذِكْر فَرَحِهم بناءً على أن ضمير «فرحوا» لهم؛ لذمِّهم والتسجيلِ عليهم بالكفر فيما حكى عنهم من قولهم: ﴿لَوْلَآ أُنزِلَ عَلَيْهِ ءَايَةٌ مِّن رَّبِّهِۦٓ﴾ فإنَّ ذلك في أقصى مراتبِ المكابرة والعناد؛ كأنَّ ما أُنزل عليه عليه الصلاة والسلام من الآيات العِظام الباهرةِ ليست عندهم بآيةٍ حتى اقترحوا ما لا تقتضيه الحكمةُ من الآيات، كسقوطِ السماء عليهم كِسَفاً، وسَيْر الأخشبين، وجَعْل البِطاح محارثَ ومُفْتَرَساً كالأردنّ، وإحياءِ قصيٍّ لهم، وإلى غير ذلك.

﴿قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ﴾ إضلالَه، مشيئته تابعةٌ للحكمةِ الداعية إليها، وهو كلامٌ جارٍ مجرى التعجُّب من قولهم؛ وذلك أن الآياتِ الباهرة المتكاثرة التي أُوتيها ﷺ لم يُؤْتَها نبيٌّ قبلَه، وكفى بالقرآن وحدَه آيةً، فإذا جحدوها ولم يعتدُّوا بها كان ذلك موضعاً للتعجُّب والإنكار، وكان الظاهرُ أن يقال في الجواب: ما أعظمَ عنادَكم، وما أشدَّ تصميمَكم على الكفر ونحوه، إلا أنه وُضع هذا موضعَه للإشارة إلى أن المتعجَّب منه، يقول: «إنَّ الله يضلُّ» إلخ، أي: إنه تعالى يخلق فيمن يشاء الضلال بصرف اختياره إلى تحصيله، ويدعه منهمِكاً فيه؛ لعلمه بأنه لا ينجع فيه اللطفُ، ولا ينفعُه الإرشادُ؛ لسوء استعداده، كمن كان على صفتكم من المكابرة والعناد، وشدَّةِ الشكيمةِ والغلوِّ في الفساد، فلا سبيلَ له إلى الاهتداء ولو جاءته كلُّ آية.

﴿وَيَهْدِىٓ إِلَيْهِ﴾ أي: إلى جانبه العليِّ الكبير. وقال أبو حيان[2]: أي: إلى دينه وشرعه سبحانه هدايةً موصلةً إليه، لا دلالةً مطلقةً إلى ما يُوصِل؛ فإن ذلك غيرُ

---

(١) خبر موضوع، أورده السخاوي في المقاصد الحسنة(٤٩٧)، وقال: لم أقف عليه مع إيراد الغزالي له في الإحياء. اهـ. وانظر تتمة كلامه.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٩.

مختصٌ بالمهتدين، وفيه من تشريفهم ما لا يُوْصَفُ، وقيل: الضميرُ للقرآن، أو للرسول عليه الصلاة والسلام، وهو خلافُ الظاهر جدّاً.

﴿مَنْ أَنَابَ ﴿٢٧﴾﴾ أي: أقبلَ على الحقِّ، وتأمَّلَ في تضاعيف ما نزل من دلائله الواضحة. وحقيقةُ الإنابة الرجوعُ إلى نَوْبةِ الخير، وإيثارُها في الصلة على إيراد المشيئة كما في الصلة الأولى ـ على ما قال مولانا شيخُ الإسلام[1] ـ للتنبيه على الداعي إلى الهداية، بل إلى مشيئتها، والإشعارِ بما دعا إلى المشيئة الأولى من المكابرة، وفيه حثٌّ للكَفَرة على الإقلاع عمَّا هم عليه من العُتُوِّ والعناد.

وإيثارُ صيغة الماضي للإيماء إلى استدعاء الهداية السابقة، كما أنَّ إيثارَ صيغة المضارع في الصلة الأولى للدلالة على استمرار المشيئة الأولى حسب استمرار مكابرتهم.

والآيةُ صريحةٌ في مذهب أهل السنة في نسبةِ الخير والشر إليه عزَّ وجلَّ، وأوَّلها المعتزلةُ، فقال أبو علي الجُبَّائي: المعنى: يُضِلُّ من يشاءُ عن ثوابه ورحمته عقوبةً له على كفره، فلستم ممن يُجيبه الله تعالى إلى ما يسألُ؛ لاستحقاقكم العذابَ والإضلال عن الثواب، ويهدي إلى جنَّته من تاب وآمَنَ، ثم قال: وبهذا تبيَّن أن الهُدى هو الثوابُ من حيث عُلِّق بقوله تعالى: «من أناب»، والهدى الذي يفعلُه سبحانه بالمؤمن هو الثوابُ؛ لأنه يستحقُّه على إيمانه، وذلك يدلُّ على أنه تعالى يضلُّ عن الثواب بالعقاب، لا عن الدِّينِ بالكفرِ على ما ذهب إليه مَنْ خالَفَنا. اهـ. ولا يخفى ما فيه.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ بدلٌ من «من أناب» بدلُ كلٍّ من كلٍّ؛ فإن أُريد بالهداية الهدايةُ المستمرَّة فالأمرُ ظاهرٌ؛ لظهورِ كون الإيمان مؤدِّياً إليها، وإن أُريد إحداثها فالمرادُ بالذين آمنوا: الذين صارَ أمرُهم إلى الإيمان كما قالوا في ﴿هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ٢] أي: الصائرين إلى التقوى، وإلا فالإيمانُ لا يؤدِّي إلى الهداية نفسِها، ويجوز أن يكون عطفَ بيانٍ على ذلك، أو منصوباً على المدحِ، أو خبرَ مبتدأ محذوفٍ، أي: هم الذين آمنوا ﴿وَتَطْمَئِنُّ قُلُوبُهُم﴾ أي: تستقرُّ وتسكنُ ﴿بِذِكْرِ اللَّهِ﴾

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٠.

أي: بكلامه المعجزِ الذي لا يأتيه الباطلُ من بين يديه ولا من خلفِهِ، وهو المرويُّ عن مقاتل، وإطلاقُ الذِّكر على ذلك شائعٌ في الذِّكر، ومنه قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا ذِكْرٌ مُّبَارَكٌ﴾ [الأنبياء: ٥٠] و﴿إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا ٱلذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُۥ لَحَٰفِظُونَ﴾ [الحجر: ٩] وسببُ اطمئنانِ قلوبهم بذلك؛ علمُهم أنْ لا آيةَ أعظمُ منه، ومن ذلك لا يقترحون الآيات التي يقترحُها غيرُهم، والعدولُ إلى صيغة المضارع لإفادةِ دوام الاطمئنان وتجدُّدِه حسب تجدُّد المنزَلِ من الذِّكر.

﴿أَلَا بِذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ وحدَه ﴿تَطْمَئِنُّ ٱلْقُلُوبُ ﴿٢٨﴾﴾ دون غيرِه من الأمور التي تميلُ إليها النفوسُ الدنيويَّات، وإذا أُريدَ سائرُ المعجزات فالقصرُ من حيث إنها ليست في إفادة الطمأنينة بالنسبة إلى مَنْ لم يشاهدها بمثابةِ القرآن المجيد؛ فإنه معجزةٌ باقيةٌ إلى يوم القيامة يشاهدُها كلُّ أحدٍ وتطمئنُّ به القلوبُ كافةً، وفيه إشعارٌ بأن الكَفَرة لا قلوبَ لهم، وأفئدتُهم هواءٌ حيث لم يطمئنُّوا به ولم يعدُّوه آيةً، وهو أظهرُ الآياتِ وأبهَرُها، وقيل: في الكلام مضافٌ مقدَّر، أي: تطمئنُّ قلوبُهم بذِكر رحمته تعالى ومغفرته بعد القلقِ والاضطراب من خشيته تعالى، كقوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَلِينُ جُلُودُهُمْ وَقُلُوبُهُمْ إِلَىٰ ذِكْرِ ٱللَّهِ﴾ [الزمر: ٢٣] وهذا مناسبٌ على ما في «الكشف» للإنابة إليه تعالى، والمصدرُ عليه مضافٌ إلى الفاعل، وقيل: المرادُ بذِكر الله دلائلُه سبحانه الدالَّةُ على وحدانيته عزَّ وجلَّ والاطمئنان عن قلقِ الشكِّ والتردُّد، وهذا مناسب لذِكر الكفر ووقوعه في مقابلته، وقيل: المراد بذِكْره تعالى أُنساً به وتبتُّلاً إليه سبحانه، فالمرادُ بالهداية دوامُها واستمرارُها. قيل: وهذا مناسبٌ أيضاً حديثَ الكفر؛ لأنَّ الكَفَرة إذا ذُكر الله تعالى وحدَه اشمأزَّتْ قلوبهم، والمصدرُ على القولين مضافٌ إلى المفعول. والوجهُ الأولُ أشدُّ ملاءمةً للنظم، لاسيَّما لقوله تعالى: «لولا أُنزِل عليه آية من ربِّه»، والمصدرُ فيه بمعنى المفعول.

ومن الغريب ما نُقل في «تفسير الخازن»(١) أن هذا في الحَلِفِ بالله، وذلك أنَّ المؤمن إذا حُلِفَ له بالله تعالى سكَنَ قلبُه، وروى نحوَ ذلك أبو الشيخ عن السدِّي؛ فإنَّ الحملَ عليه هنا مما لا يُناسب المقام، وأما ما رُوي عن أنس من أنه ﷺ قال لأصحابه حين نزلت هذه الآية: «هل تدرونَ ما معنى ذلك»؟ قالوا: الله ورسولُه

---

(١) ٣/ ٢٠.

أعلم. قال: «من أحبَّ الله ورسولَه، وأحبَّ أصحابي»(١). ومثلُه ما رُوي عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَهُ من أنه عليه الصلاة والسلام قال حين نزلت: «ذاك من أحبَّ الله ورسولَه، وأحبَّ أهل بيتي صادقاً غيرَ كاذب، وأحبَّ المؤمنين شاهداً وغائباً»(٢). فليس المرادُ منه تفسير المراد بذِكر الله، بل بيان أن الموصوفين بما ذُكر مَنْ أحبَّ الله تعالى ورسولَه ﷺ، إلخ، وهو كذلك؛ إذ لا يكادُ يتحقَّقُ الانفكاكُ بين هاتيك الصفات، فليتأمَّل.

ولا تنافيَ بين هذه الآيةِ على سائر الأوجُه وقولِهِ تعالى: ﴿إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ﴾ [الأنفال: ٢] لأنَّ المراد هناك: وَجِلَت من هيبتِه تعالى واستعظامِه جلَّت عظمتُه.

وذكر الإمامُ(٣) في بيان اطمئنان القلب بذِكره تعالى وجوهاً، فقال: إن الموجودات على ثلاثة أقسام: مؤثِّر لا يتأثَّر، ومتأثِّر لا يؤثِّر، وموجودٌ يؤثِّر ويتأثَّر، فالأول: هو الله تعالى. والثاني: هو الجسمُ؛ فإنه ليس له خاصيةٌ إلا القَبول للآثار المتنافية، والصفات المختلفة. والثالث: الموجودات الروحانيةُ؛ فإنها إذا توجَّهت إلى الحضرة الإلهية صارت قابلةً للآثار الفائضة عليها منها، وإذا توجَّهت إلى أعلام الأجسام اشتاقت إلى التصرُّف فيها؛ لأنَّ عالَمَ الأرواح مدبِّرٌ لعالَم الأجسام؛ فإذا عرف هذا فالقلبُ كلَّما توجَّه إلى مطالعة عالم الأجسام حصَلَ فيه الاضطرابُ والقلقُ، والميلُ الشديد إلى الاستيلاء عليه والتصرُّف فيه، وإذا توجَّه إلى مطالعة الحضرة الإلهية، وحصلت فيه الأنوارُ الصَّمَدية فهناك يكون ساكناً مطمئنّاً، وأيضاً إن القلب كلَّما وصل إلى شيءٍ فإنه يطلبُ الانتقالَ منه إلى أمرٍ آخر أشرف منه؛ لأنه لا سعادةَ في عالَم الجسم إلا وفوقها مرتبةٌ أخرى، أما إذا انتهى إلى الاستعداد بالمعارف الإلهية والأنوار القُدسية ثبَتَ واستقرَّ، فلم يقدر على الانتقال من ذلك ألبتَّةَ؛ لأنه ليس هناك درجةٌ أخرى في السعادة أعلى منه وأكملُ، وأيضاً إن الإكسير إذا وقعت ذرَّةٌ منه على الجسم النُّحاسي انقلب ذهباً باقياً على ممرِّ الدهور، صابراً

---

(١) أخرجه أبو الشيخ فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨.
(٢) أخرجه ابن مردويه فيما ذكر السيوطي في الدر المنثور ٤/٥٨.
(٣) تفسير الرازي ١٩/٤٩.

على الذَّوبان الحاصل بالنار، فإكسيرُ نور الله تعالى إذا وقع في القلب أولى أن يقلِبَه جوهراً باقياً صافياً نورانياً لا يقبلُ التغيُّر والتبدُّل، ولهذه الأوجه قال سبحانه: «ألا بذِكْر الله تطمئن القلوب». اهـ.

والأولى أن يقال: إنَّ سبب الطمأنينةِ نورٌ يُفيضه الله تعالى على قلب المؤمن بسبب ذِكْره، فيُذهِبُ ما فيه من القلق والوحشة ونحوِ ذلك، وللمناقشة فيما ذُكر مجال، وسيأتي إن شاء الله تعالى في باب الإشارة ما يُشبه ذلك.

﴿الَّذِينَ ءَامَنُوا وَعَمِلُوا الصَّلِحَتِ﴾ بدلٌ من «القلوب» أي: قلوب الذين آمنوا، والأظهرُ أنه بدلُ الكلِّ؛ لأن القلوبَ في الأول قلوبُ المؤمنين المطمئنِّين، وكذلك لو عُمِّم القلبُ على معنى أنَّ قلوب هؤلاء الأجلَّاء كلُّ القلوب؛ لأنَّ الكفار أفئدتُهم هواء، وأما الحملُ على بدلِ البعض ليُعمَّم القلب من غير الملاحظة المذكورة واستنباطِ هذا المعنى من البدل فبعيدٌ، وأما احتمالُه لبدل الاشتمال، وإن استحسنه الطِّيبي، فكلا.

أو مبتدأٌ، خبرُه الجملةُ الدعائية على التأويل، أعني: قولَه سبحانه: ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ أي: يقال لهم ذلك، أو لا حاجةَ إلى التأويل، والجملةُ خبريةٌ، أو خبرُ مبتدأ مضمَرٍ، أو نصب على المدح، فـ«طوبى لهم» حالٌ مقدَّرة، والعاملُ فيها الفعلان.

وقال بعضُ المحقِّقين: لعلَّ الأشبه وجهٌ آخر: وهو أن يتمَّ الكلامُ عند قوله تعالى: «من أناب»، ثم قيل: «الذين آمنوا وتطمئنُّ قلوبهم» في مقابلة «ويقول الذين كفروا لولا أُنزل»، وقولُه سبحانه: «ألا بذِكْر الله» جملةٌ اعتراضيةٌ تفيدُ: كيف لا تطمئنُّ قلوبُهم به، ولا اطمئنانَ للقلب بغيره؟! وقولُه عزَّ وجل: «الذين آمنوا» بدلٌ من الأول. وفيه إشارةٌ إلى أن ذِكْر الله أفضلُ الأعمال الصالحة، بل هو كلُّها، و«طوبى لهم» خبرُ الأول، فيتمُّ التقابُلُ بين القرينتين: «يقول الذين كفروا» و«الذين آمنوا وتطمئنُّ»، وبين جُزْئي التذييل: «يضلُّ من يشاء ويهدي إليه من أناب».

ومن الناس من زعم أن الموصولَ الأول مبتدأٌ، والموصول الثاني خبرُه، و«ألا بذكر الله» اعتراضٌ، و«طوبى لهم» دعاءٌ، وهو كما ترى. و«طوبى»: قيل: مصدرٌ من طاب؛ كبُشْرى وزُلْفى، والواو منقلبةٌ من الياء، كمُوْسِر ومُوْقِن.

وقرأ مَكْوَزَةُ الأعرابيُّ: «طِيْبَى» ليسلم الياء[١]، وقال أبو الحسن الهنائي: هي جمع طِيْبة، كما قالوا في كِيْسة: كُوْسى. وتعقَّبه أبو حيان[٢] بأن فِعْلى ليست من أبنية الجموع، فلعله أراد أنه اسمُ جمع.

وعلى الأول فلهم في المعنى المراد عبارات: فأخرج ابنُ جرير[٣] وغيرُه عن ابن عباس أن المعنى: فرحٌ وقرَّة عينٍ لهم، وعن الضحَّاك: غِبْطة لهم، وعن قتادة: حُسْنى لهم، وفي روايةٍ أخرى عنه: أصابوا خيراً، وعن النَّخَعيِّ: خيرٌ كثير لهم، وفي رواية أخرى عنه: كرامةٌ لهم، وعن سُمَيط بن عَجْلان[٤]: دوامُ الخير لهم. ويرجعُ ذلك إلى معنى: العيش الطيِّب لهم.

وفي رواية عن ابن عباس وابن جُبَير أن «طوبى» اسمٌ للجنة بالحبشيَّة، وقيل: بالهنديَّة، وقال القرطبيُّ[٥]: الصحيحُ أنها عَلَم لشجرةٍ في الجنة؛ فقد أخرج أحمدُ، وابنُ جرير، وابنُ أبي حاتم، وابنُ حبَّان، والطبرانيُّ، والبيهقيُّ في «البعث والنشور»، وصحَّحه السُّهيليُّ وغيرُه عن عُتْبة بن عَبْد قال: جاء أعرابيٌّ إلى رسول الله ﷺ، فقال: يا رسول الله، أفي الجنة فاكهةٌ؟ قال: «نعم، فيها شجرةٌ تُدْعى طوبى، هي نطاقُ الفردوس». قال: أيُّ شجرِ أرضنا تُشْبه؟ قال: «ليس تُشْبه شيئاً من شجرِ أرضك، ولكن أتيتَ الشام»؟ قال: لا. قال: «فإنها تُشْبه شجرةً بالشام تُدعى: الجَوْزة، تنبتُ على ساق واحدٍ، ثم ينتشر أعلاها». قال: ما عِظَمُ أصلها؟ قال: «لو ارتحلتَ جَذَعةً من إبلِ أهلك ما أحطتَ بأصلها حتى تنكسر

---

(١) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٥٩، والبحر ٥/ ٣٩٠، والدر المصون ٧/ ٤٩، وتحرف مكوزة في البحر إلى: بكرة.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٨٩.

(٣) تفسير الطبري ٣/ ٥٢١.

(٤) كذا في الأصل و(م)، وصوابه: شميط، بالشين المعجمة، نص على ذلك ابن ماكولا في الإكمال، وقيل فيه: سميط، بالسين.

وهو أبو عبيد الله البصري، التيمي، العابد، روى عن مؤذن بني عدي، وروى عنه الصَّعْق بن حَزْن. الثقات لابن حبان ٦/ ٤٥١، والمؤتلف والمختلف للدارقطني ٣/ ١٢٤٧، والإكمال ٤/ ٣٦١.

(٥) تفسير القرطبي ١٢/ ٦٨.

تَرْقُوتاها هرماً». قال: فهل فيها عنبٌ؟ قال: «نعم». قال: ما عِظَم العنقودِ منه؟ قال: «مسيرةُ شهرٍ للغراب الأبقع»[١].

والأخبارُ المصرِّحة بأنها شجرةٌ في الجنة منتشرةٌ جداً. وحينئذٍ فلا كلام في جواز الابتداء بها، وإن كانت نكرةً، فمسوِّغ الابتداءِ بها ما ذهب إليه سيبويه[٢] من أنه ذهَبَ بها مذهبَ الدعاء، كقولهم: سلامٌ عليك. إلا أنه ذهب ابنُ مالك إلى أنه التزَم فيها الرفعَ على الابتداء، وردَّ عليه بأن عيسى الثقفيَّ قرأ: «وحسنَ مَآب» بالنصب[٣]، وخرَّج ذلك ثعلبٌ على أنه معطوفٌ على «طوبى»، وأنها في موضع نصبٍ، وهي عنده مصدرٌ معمولٌ لمقدَّر، أي: طاب، واللامُ للبيان كما في: سُقيا له، ومنهم من قدَّر: جعَلَ طوبى لهم. وقال صاحب «اللوامح»: إن التقدير: يا طوبى لهم، ويا حسن مآب، فـ «حسن» معطوفٌ على المنادى، وهو مضافٌ للضمير، واللامُ مقحمةٌ كما في قوله:

يـا بـؤسَ لـلـجـهـل ضـرَّاراً لأقـوام[٤]

ولذلك سقط التنوينُ من بؤس، وكأنه قيل: يا طوباهم، ويا حسنَ مآبهم، أي: ما أطيَبَهم وأحسنَ مآبهم، كما تقول: يا طِيْبَها ليلةً، أي: ما أطيَبَها ليلةً. ولا يخفى ما فيه من التكلُّف.

وأجاب السفاقسيُّ عن ابن مالك بأنه يجوز نصبُ «حسن» بمقدَّر، أي: ورزَقَهم حسنَ مآب، وهو بعيدٌ.

وقُرِئ: «حُسْنَ مآبٌ» بفتح النون ورفع «مآب»[٥]، وخُرِّج ذلك على أن «حسن»

---

(١) مسند أحمد (١٧٦٤٢)، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٢٨، وصحيح ابن حبان (٦٤٥٠)، والمعجم الكبير للطبراني ١٧/ (٣١٣)، والبعث والنشور (٣٠٠)، وتصحيح السهيلي له في التعريف والإعلام ص٨٤.

(٢) الكتاب ١/ ٣٣٠ ـ ٣٣١.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٩٠.

(٤) عجز بيت للنابغة الذبياني، وصدره كما في ديوانه ص١٠٥:

قـالـت بـنـو عـامـرٍ خـالـوا بـنـي أسـدٍ

(٥) البحر المحيط ٥/ ٣٩٠.

فعلٌ ماض أصلُه حَسُنَ، نُقلت ضمةُ السين إلى الحاء، ومثلُه جائزٌ في فعله إذا كان للمدح أو الذمِّ، كما قالوا:

.... حُسْنَ ذا أدبا[1]

﴿كَذَٰلِكَ﴾ أي: مثل ذلك الإرسال العظيم الشأنِ المصحوبِ بالمعجزة الباهرة، ويجوزُ أن يراد: مثل إرسال الرسل قبلَكَ ﴿أَرْسَلْنَاكَ فِيٓ أُمَّةٍ﴾، فيكون قد شبَّه إرسالَه ﷺ بإرسال مَنْ قبله، وإن لم يَجْرِ لهم ذِكْر؛ لدلالة قوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ﴾ أي: مضت ﴿مِن قَبْلِهَآ أُمَمٌ﴾ كثيرةٌ قد أُرسل إليهم رسلٌ عليهم، ورُوي هذا عن الحسن، وقيل: الكاف متعلِّقة بالمعنى الذي في قوله تعالى: (قُلْ إِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ) إلخ، أي: كما أنفَذْنا ذلك أرسلناك، ونُقل نحوُه عن الحوفي.

وقال ابنُ عطية[2]: الذي يظهر أنَّ المعنى: كما أجرَينا العادةَ في الأمم السابقة بأن نُضِلَّ ونَهدي بوحي لا بالآيات المقترحةِ، كذلك أيضاً فعلنا في هذه الأمة وأرسلناك إليهم بوحي لا بالآيات المقترحة، فنُضلُّ مَنْ نشاء ونهدي من أناب. وقال أبو البقاء[3]: التقديرُ: الأمر كذلك. والحَسَنُ ما قدَّمناه وما رُوي عن الحَسَن.

و«في» بمعنى «إلى»، كما في قوله تعالى: ﴿فَرَدُّوٓاْ أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ﴾ [إبراهيم: ٩] وقيل: هي على ظاهرها، وفيها إشارةٌ إلى أنه من جملتهم، وناشئٌ بينَهم، ولا تكون بمعنى «إلى»؛ إذ لا حاجةَ لبيان من أُرسل إليهم، وفيه نظرٌ ظاهر. وهي متعلِّقة بالفعل المذكور، وقولُ الزمخشريِّ[4] في معنى الآية: يعني: أرسلناك[5] إرسالاً له شأنٌ وفضلٌ على الإرسالات، ثم فسَّر كيف أرسلَه بقوله: «إلى أمةٍ قد خَلَتْ من قبلها أمم»، أي: أرسلناك في أمة قد تقدَّمها أممٌ كثيرةٌ، فهي آخرُ الأمم، وأنت خاتمُ الأنبياءِ = لم يُرِدْ به أنها لا تتعلَّق بالمذكور، بل أراد أن المُشار إليه

(١) جزء من بيت لسهم بن حنظلة الغنوي، كما في الأصمعيات ص٥٦، وسلف ٦/ ١٣٤.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٢.
(٣) إملاء ما منَّ به الرحمن ٣/ ٣٨٥.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٥٩.
(٥) في الأصل و(م): أرسلنا. والمثبت من الكشاف.

المبهَمَ لمَّا كان ما بعدَه تفخيماً، كان بيانُه بصِلَة ذلك الفعل حتى يزول الإبهامُ، ويجوزُ أن يريد ذلك، فيقدّر: أرسلناك ثانياً، ويكون قولُه: أي: أرسلناك في أمة، إظهاراً للمحذوف أيضاً، لا بياناً لحاصل الآية، وهو الذي آثَره العلامةُ الطِّيبي. والتعلُّق بالمذكور هو الظاهر.

وجملة «قد خلت» إلخ في موضع الصِّفة لـ «أمة»، وفائدةُ الوصف بذلك: قيل: ما أشار إليه الزمخشريُّ. واعتُرض بأنه لا يلزم من تقدُّم أممٍ كثيرة قبلُ أن لا يكون أمةٌ يُرسَل إليها بعدُ حتى يلزَمَ أن يكون ﷺ خاتم الأنبياء عليهم السلام، وبحثَ فيه الشهابُ[1] بأن المراد بكون إرساله عليه الصلاة والسلام عجيباً أن رسالتَه أعظمُ من كلِّ رسالة، فهي جامعةٌ لكلِّ ما يحتاج إليه، فيلزم أن لا نسخَ؛ إذ النسخُ إنما يكون للتكميل، والكامل أتمَّ كمالٍ غيرُ محتاج لتكميل، كما قال تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾ [المائدة:٣]. اهـ.

ولَعَمري إن الاعتراضَ قويٌّ، والبحث في غاية الضَّعف؛ إذ لا يلزمُ من كون إرساله ﷺ عجيباً ما ادَّعاه، ولو سلَّمنا ذلك لا يلزمُ منه أيضاً كونُه عليه الصلاة والسلام خاتماً؛ إذ بِعثةُ مقرِّر دينه الكامل ـ كما بُعث كثيرٌ من أنبياء بني إسرائيل لتقرير دين موسى عليه السلام ـ لا يأبى ما ذُكر من جامعية رسالته عليه الصلاة والسلام، ولزومِ عدمِ النسخ لذلك كما لا يخفى، ولعلَّه لهذا اختار بعضُهم ما رُوي عن الحسن، وقال منبِّهاً على فائدة الوصف: يعني مثلَ إرسال الرسل قبلَكَ أرسلناك إلى أممٍ تقدَّمتها أممٌ أُرسلوا إليهم، فليس بِبِدْعٍ إرسالُك إليها.

﴿لِّتَتْلُوَا۟﴾ لتقرأ ﴿عَلَيْهِمُ ٱلَّذِىٓ أَوْحَيْنَآ إِلَيْكَ﴾ أي: الكتابَ العظيمَ الشأن، ويُشعر بهذا الوصف ذِكْر الموصول غيرَ جارٍ على موصوف، وإسنادُ الفعل في صلته إلى ضمير العَظَمة، وكذا الإيصال إلى المخاطَب المعظَّم بدليل سابِقِه على ما سمعتَ أولاً. وتقديمُ المجرورِ على المنصوب من قَبِيل الإبهام ثم البيان، كما في قوله تعالى: ﴿وَوَضَعْنَا عَنكَ وِزْرَكَ﴾ [الشرح:٢] وفيه ما لا يخفى من ترقُّب النفس إلى ما سيرد، وحُسْن قَبولها له عند ورودِه عليها. وضميرُ الجمع للأمة باعتبار معناها، كما رُوعي في ضمير «خلت» لفظُها.

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٨.

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِٱلرَّحْمَٰنِ﴾ أي: بالبليغ الرحمة، الذي أحاطت بهم نعمتُه، ووَسِعَت كلَّ شيء رحمتُه، فلم يشكروا نعمَه سبحانه، لا سيَّما ما أنعم به عليهم بإرسالك إليهم، وإنزالِ القرآن الذي هو مدارُ المنافع الدينيةِ والدنيوية عليهم، بل قابلوا رحمتَه ونعمَه بالكفر، ومقتضى العقلِ عكسُ ذلك.

وكان الظاهر: بنا، إلا أنه التُفِتَ إلى الظاهر، وأُوثِرَ هذا الاسمُ الدالُّ على المبالغة في الرحمة للإشارة إلى أن الإرسال ناشئٌ منها، كما قال سبحانه: ﴿وَمَآ أَرْسَلْنَٰكَ إِلَّا رَحْمَةً لِّلْعَٰلَمِينَ﴾ [الأنبياء:١٠٧] وضميرُ الجمع للأمة أيضاً، والجملةُ في موضع الحال من فاعل «أرسلنا»، لا من ضمير «عليهم»؛ إذ الإرسالُ ليس للتلاوة عليهم حالَ كفرهم، ومنهم مَنْ جوَّز ذلك، والتلاوةُ عليهم حالَ الكفرِ ليقفوا على إعجازه، فيصدِّقوا به؛ لعلمهم بأفانينِ البلاغة، ولا ينافي تلاوتَه عليهم بعد إسلامهم.

وجُوِّز في الجملة أن تكون مستأنفةً، والضمير حسبما علمتَ، وقيل: إنه يعودُ على الذين قالوا: لولا أُنزل عليه آيةٌ من ربِّه، وقيل: يعودُ على «أُمة» وعلى «أمم»، ويكون في الآية تسليةٌ له ﷺ.

وعن قتادة، وابن جُرَيج، ومقاتل أن الآيةَ نزلت في مشركي مكة لمَّا رأوا كتابَ الصُّلح يوم الحُدَيبية، وقد كتَبَ فيه عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَهُ: بسم الله الرحمن الرحيم فقال سُهَيل بن عَمرو: ما نعرِفُ الرحمنَ إلا مُسَيلمةَ. وقيل: سمِعَ أبو جهلٍ قولَ رسول الله ﷺ: «يا الله، يا رحمن»، فقال: إن محمداً ينهانا عن عبادة الآلهة وهو يدعو إلهين. فنزلت. وعن ابن عباس ﵄ أنه لمَّا قيل لكفَّار قريش: اسجدوا للرحمن، قالوا: وما الرحمنُ؟ فنزلت[1]. وضُعِّف كلُّ ذلك بأنه غيرُ مناسبٍ؛ لأنه يقتضي أنهم يكفرون بهذا الاسم وإطلاقِهِ عليه سبحانه وتعالى، والظاهرُ أنَّ كفرَهم بمسمَّاه.

﴿قُلْ﴾ حين كفروا به سبحانه ولم يوحِّدوه ﴿هُوَ﴾ أي: الرحمنُ الذي كفرتُم به ﴿رَبِّى﴾ خالقي ومتولِّي أمري، ومُبلغي إلى مراتب الكمال. وإيرادُ هذا قبل قوله

(١) انظر تفسير البغوي ٣/ ١٩، وتفسير القرطبي ١٢/ ٦٩ ـ ٧٠.

تعالى: ﴿لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ﴾ أي: لا مستحقَّ للعبادة سواه، تنبيهٌ على أن استحقاقَ العبادة منوطٌ بالرُّبوبية، والجملةُ داخلة في حيِّز القول، وهي خبرٌ بعد خبرٍ عند بعض، وقال بعضٌ آخر: إنه تعالى بعد أن نَعَى على الكفَرَة حالَهم وعَكْسهم مقتضى العقل، أمرَ نبيَّه عليه الصلاة والسلام أن يُنبِّههم على خاصَّة نفسه، ووظيفته من الشكر، ومآلِ أمره؛ تأنيباً لهم، فقال: قل هو ربِّي الذي أرسلَني إليكم، وأيَّدني بما أيَّدني، ولا ربَّ لي سواه.

﴿عَلَيْهِ﴾ لا على أحدٍ سواه ﴿تَوَكَّلْتُ﴾ في جميع أموري، لا سيَّما في النُّصْرة عليكم ﴿وَإِلَيْهِ﴾ خاصَّة ﴿مَتَابِ ﴿٣٠﴾﴾ أي: مرجعي، فيُثيبُني على مصابرتكم ومجاهدتكم. وقوله سبحانه: (لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ) اعتراضٌ أكَّد به اختصاصَ التوكُّل عليه سبحانه، وتفويضَ الأمور عاجلاً وآجلاً إليه، ومثلُه قولُه تعالى: ﴿اتَّبِعْ مَآ أُوحِىَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ﴾ [الأنعام:١٠٦]. اهـ. وإلى القول بالاعتراض ذهب صاحبُ «الكشف» وحمَلَ على ذلك كلامَ «الكشاف»[١] حيث ذكر بعد: «هو ربي»: الواحدُ المتعالي عن الشركاء، فقال: جعلَه فائدةَ الاعتراض بـ «لا إله إلا هو»، أي: هذا البليغُ الرَّحمة، و«لا إله إلا هو»، فهو بليغُ الانتقام كما هو بليغُ الرحمة، يرحمني وينتقمُ لي منكم، وهو تمهيدٌ أيضاً لقوله: «عليه توكلتُ» ولم يُجعل خبراً بعد خبر؛ إذ ليس المقصودُ الإخبار بأنه تعالى متوحِّدٌ بالإلهية، بل المقصودُ أن المتوحِّد بها ربِّي، وذلك يفيدُه الاعتراض، وأما أنَّ المفهوم من كلامه أنه حالٌ، ولذلك أُجري مجرى الوصف فكلَّا، إلا أن يُجعل حالاً مؤكِّدةً، ولا يُغاير الاعتراضَ إذاً كثيرَ مغايرة، لكن الأول أَمْلأُ بالفائدة. اهـ.

ولا يخفى ما في توجيه كلام «الكشاف» بذلك من الخفاء، وفي كون المقصود أن المتوحِّد بالإلهية ربي، دون الإخبارِ بأنه تعالى متوحِّدٌ بها ـ على ما قيل ـ تأمُّلٌ. ولعلَّ مبناه أن ما أثبته أوفقُ بالغرض الذي يُشير كلامُه إلى اعتباره مساقاً للآية، وفيه من المبالغة في وصفه تعالى بالتوحُّد ما لا يخفى.

نعم، قيل: للقول بالاعتراض وجهٌ وأنَّه حينئذٍ لا يبعد أن يقال: إنَّه تعالى بعد أن ذكر إرساله ﷺ إليهم، وأنَّ حالَهم أنهم يكفرون بالبليغ الرحمة، ولا يقابِلون

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٠.

رحمتَه بالشكر فيؤمنوا به ويوحِّدوه، أمرَه بالإخبار بتخصيص توكُّله واعتمادِه على ذلك البليغِ الرحمةِ، ورجوعِه في سائر أموره إليه، إيماءً إلى أن إصرارَهم على الكفر لا يضرُّه شيئاً، وأن له عليه الصلاة والسلام عاقبةً محمودةً، وأنه سبحانه سينصُرُه عليهم، وفي ذلك من تسفيهِ رأيهم في الإصرار على الكفر، واستنهاضِهم إلى اتِّباعه ما فيه، إلا أنه عزَّ شأنُه أمرَهَ أن يقول أولاً: «هو ربي» توطئةً لذلك، وجيء بـ «لا إله إلا هو» اعتراضاً للتأكيد.

والذي يميلُ إليه الطبعُ بعد التأمُّل وملاحظةِ الأسلوب القولُ بالاعتراض، ثم لا يخفى أن حمل «وإليه متاب» على: إليه رجوعي في سائر أموري، خلافُ الظاهر، وأنه على ذلك يكونُ كالتأكيد لما قبله، وقال شيخُ الإسلام في «تفسيره»(١): أي: إليه توبتي، كقوله تعالى: ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ﴾ [غافر: ٥٥] أُمر عليه الصلاة والسلام بذلك إبانةً لفضل التوبة ومقدارها عند الله تعالى، وأنها صفةُ الأنبياء، وبعثاً للكَفَرة على الرجوع عمَّا هم عليه بأبلغِ وجهٍ وألطفِهِ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام حيث أُمر بها وهو منزَّه عن شائبة اقتراف ما يُوجِبُها من الذنب وإن قلَّ، فتوبتُهم وهم عاكفون على أنواع الكفرِ والمعاصي مما لا بدَّ منه أصلاً. اهـ.

وفيه أن هذا إنما يصلُحُ باعثاً للإقلاع عن الذنب على أبلغِ وجهٍ وألطفه لو كان الكلامُ مع غير الكَفَرة الذين يحسَبون أنهم يُحسنون صنعاً، ولعلَّ ذلك ظاهرٌ عند المنصف، وقال العلَّامةُ البيضاويُّ في ذلك(٢): أي: إليه مرجعي ومرجعُكم، وكأنه أراد أيضاً: فيرحمُني وينتقِمُ منكم، والانتقامُ من الرحمن أشدُّ كما قيلَ، أعوذُ بالله تعالى من غَضَب الحليم.

وتُعقِّب بأنه إنما يتمُّ لو كان المضافُ إليه المحذوفُ ضميرَ المتكلِّم ومعه غيرُه، أي: متابُنا؛ إذ يكون حينئذٍ مرجعي ومرجعُكم تفصيلاً لذلك، ولا يكاد يقول به أحدٌ مع قوله بكسر الباء؛ فإنه يقتضي أن يكون المحذوفُ الياءَ، على أن ذلك الضميرَ لا يناسبُ ما قبلَه، ولعلَّ العلَّامةَ اعتبرَ أنَّ في الآية اكتفاءً على ما قيل،

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢١.

(٢) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٩.

أي: متابي ومتابُكم، أو أن الكلام دالٌّ عليه التزاماً، وهذا أولى على ما قيل، فتأمل.

﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ أي: قرآناً ما، والمرادُ به المعنى اللغويُّ، وهو اسمُ «أنَّ»، والخبرُ قولُه تعالى شأنه: ﴿سُيِّرَتْ بِهِ ٱلْجِبَالُ﴾، وجوابُ «لو» محذوفٌ؛ لانسياقِ الكلام إليه، كما في قوله:

فأُقسِمُ لو شيءٌ أتانا رسولُه سواكَ ولكن لم نجدْ لكَ مدفعاً[1]

والمقصود إما بيانُ عِظَم شأن القرآن[2]، وفسادِ رأي الكَفَرة حيث لم يَقْدُروا قدرَه، ولم يعدُّوه من قَبِيل الآيات، واقترحوا غيرَه، وإما بيانُ غلوِّهم في المكابرة والعِناد، وتماديهم في الضلالة والفساد.

والمعنى على الأول: لو أن كتاباً سُيِّرت بإنزاله أو بتلاوته الجبالُ، وزُعزِعت عن مقارِّها، كما فُعل ذلك بالطُّور لموسى عليه السلام ﴿أَوْ قُطِّعَتْ بِهِ ٱلْأَرْضُ﴾ أي: شُقِّقت وجُعلت أنهاراً وعيوناً، كما فُعِل بالحَجَر حين ضرَبه موسى عليه السلام بعصاهُ، أو جُعلت قطعاً متصدِّعةً، ﴿أَوْ كُلِّمَ بِهِ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ أي: كلَّم أحدٌ به الموتى بأنْ أحياهم بقراءته، فتكلَّم معهم بعدُ، وذلك كما وقع الإحياءُ لعيسى عليه السلام، لكان ذلك هذا القرآن؛ لكونه الغايةَ القُصوى في الانطواء على عجائب آثارِ قدرة الله تعالى وهيبتِه عزَّ وجل، كقوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَٰذَا ٱلْقُرْءَانَ عَلَىٰ جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُۥ خَٰشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾ [الحشر: ٢١] قاله بعضُ المحقِّقين.

وقيل: في التعليل: لكونه الغايةَ في الإعجاز، والنهايةَ في التذكير والإنذار. وتُعقِّب بأنه لا مدخلَ للإعجاز في هذه الآثار، والتذكيرُ والإنذارُ مختصَّان بالعقلاء، مع أنه لا علاقةَ لذلك بتكليم الموتى، واعتبارُ فيضِ العقول إليها مخلٌّ بالمبالغة المقصودة، وبُحث فيه بأن ما ذُكر أولاً من مزيد الانطواء على عجائب آثار قدرة الله تعالى أمرٌ يرجعُ إلى الهَيبة، وهي أيضاً مما لا يترتَّب عليها تكليمُ الموتى[3]، بل

---

(١) البيت لامرئ القيس، وهو في ديوانه ص٢٤٢.
(٢) بعدها في (م): العظيم.
(٣) اضطربت العبارة في الأصل، والمثبت من (م).

لعلّها مانعةٌ من ذلك؛ لأنها حيث اقتضت تزعزُعَ الجبال، وتقطُّعَ الأرض، فلأَنْ تقتضي موتَ الأحياء دون إحياء الأموات الذي يكون التكليمُ بعده من بابٍ أَولى، وفيه نظر.

والباء في المواضع الثلاثة للسببيَّة، وجُوِّز في الثالث منها أن تكون صلةَ ما عندَها. وتقديمُ المجرور فيها على المرفوع لقصد الإيهام[1]، ثم التفسيرُ لزيادة التقريرِ على ما مرَّ غير مرَّة، و«أو» في الموضعين لمنع الخُلُوِّ، لا الجمع، والتذكير في «كُلِّم» لتغليب المذكَّر من الموتى على غيره.

واقتراحُهم وإن كان متعلِّقاً بمجرَّد ظهور مثل هذه الأفاعيل العجيبة على يده ﷺ، لا بظهورها بواسطة القرآن، لكنَّ ذلك حيث كان مبنيًّا على عدم اشتماله في زعمهم على الخوارق نِيْطَ ظهورُها به؛ مبالغةً في شأن اشتماله عليه، وأنه حقيقٌ بأن يكون مصدراً لكلِّ خارقٍ، وإبانةً لركاكةِ رأيهم في شأنه الرفيع، كأنه قيل: لو أنَّ ظهورَ أمثالِ ما اقترحوه من مقتضيات الحكمة لكان مظهرُها هذا القرآن الذي لم يعدُّوه آيةً، وفيه من تفخيم شأنه العزيز، ووصفِهم بركاكةِ العقل ما لا يخفى. كذا حقَّقه بعضُ الأجلَّة، وهو من الحُسْن بمكان.

وعلى الثاني: لو أن قرآناً فُعلت به هذه الأفاعيلُ العجيبةُ لما آمنوا به، كقوله تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّنَا نَزَّلْنَآ إِلَيْهِمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةَ وَكَلَّمَهُمُ ٱلْمَوْتَىٰ﴾ الآية [الأنعام:١١١]، والكلامُ على ما استظهره الشهابُ[2] على التقديرين حقيقةٌ على سبيل الفَرض، كقوله:

ولو طار ذو حافرٍ قبلَها ... لطارت ولكنَّه لم يطِرْ[3]

وجعلُه على الأول تمثيلاً كالآية المذكورةِ هناك ـ على ما قال ـ لا وجهَ له، وتمثيلُ الزمخشريِّ[4] بها لبيان أن القرآن يقتضي غايةَ الخشية، وصنيعُ كثيرٍ من المحقِّقين ظاهرٌ في ترجيح التقدير الأول.

---

(١) في (م): الإبهام.
(٢) حاشية الشهاب ٥/ ٢٣٩.
(٣) البيت لأُبيّ بن ربيعة، وهو من أبيات الحماسة ٢/ ٥٥٦ بشرح المرزوقي.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٠.

وفي «الكشف»: لو تأمَّلت في هذه السورة الكريمة حقَّ التأمل وجدتَ بناءَ الكلام فيها على حقِّيَّة[1] الكتاب المجيد، واشتماله على ما فيه صلاحُ الدارين، وأن السعيد كلَّ السعيد مَنْ تمسَّك بحبله، والشقيَّ كلَّ الشقيِّ من أعرض عنه إلى هواه، حيث قال تعالى أولاً: ﴿وَٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ﴾ [الرعد:١]، ثم تعجَّب من إنكارهم ذلك بقوله سبحانه: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد:٧]، ثم قال تعالى: ﴿لَهُۥ دَعۡوَةُ ٱلۡحَقِّۖ﴾ فأثبتَ حقيَّته بالحجَّة، ثم قال جلَّ وعلا: ﴿أَنزَلَ مِنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً﴾ [الرعد:١٧]، وهو مَثَلٌ للحقِّ الذي هو القرآن ومَن انتفع به، على ما فسَّره المحقِّقون. ثم صرَّح تعالى بنتيجة ذلك كلِّه بالبرهان النيِّر في قوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعۡلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيۡكَ مِن رَّبِّكَ ٱلۡحَقُّ كَمَنۡ هُوَ أَعۡمَىٰٓۚ﴾ [الرعد:١٩] ثم أعاد جلَّ شأنُه قوله: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ [الرعد:٢٧] دلالةً على إنكارهم أولَ ما أتاهم، وبعد رصانةِ علمهم بحقِّيَّته فهم متمادون في الإنكار، ثم كرَّ إلى بيان الحقِّيَّة فيما نحنُ فيه، وبالَغَ المبالغةَ التي ليس بعدها، سواء جُعل داخلاً في حيِّز القول، أو جُعل ابتداءَ كلامٍ منه تعالى تذييلاً، وهو الأبلغُ؛ ليكون مقصوداً بذاته في الإفادة المذكورة، مؤكِّداً لمجموع ما دلَّ عليه قولُه تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ أَرۡسَلۡنَٰكَ﴾ [الرعد:٣٠] من تعظيمِ الرسول عليه الصلاة والسلام وما أُنزل عليه، وشدَّة إنكارهم وتصميمهم، لا علاوة في أن لم يبقَ إلا التوكُّل والصبر على مجاهدتكم؛ إذ لا وراءَ هذا القرآن حتى أجيءَ به لتُسلموا، ثم فخَّمه ونعى عليهم مكابرتَهم بقوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ حُكۡمًا عَرَبِيًّاۚ﴾ [الرعد:٣٧] وأيَّد حقِّيَّةَ الكتاب فيمن أُنزل عليه في خاتمة السورة بقوله جلَّ وعلا: ﴿كَفَىٰ بِٱللَّهِ﴾ [الرعد:٤٣] إلى قوله سبحانه: ﴿عِلۡمُ ٱلۡكِتَٰبِ﴾ [الرعد:٤٣] تنبيهاً على أنه مع ظهور أمره في إفادة الحقائق العرفانيَّة، والخلائق الإيمانيَّة، لا يَعلم حقيقةَ ما فيه إلا من تفرَّد به وبإنزاله تبارك وتعالى. اهـ.

وفي سبب النزول ـ وستعلمُه قريباً إن شاء الله تعالى ـ ما يؤيِّد الثاني، والظاهرُ ـ على ما حقَّقه وأشرنا إليه أولاً ـ أنَّ الآية على الأول متعلِّقةٌ بقوله تعالى: ﴿وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوۡلَآ أُنزِلَ عَلَيۡهِ ءَايَةٌ﴾ [الرعد:٧]، وهي على الثاني متعلِّقة بقوله سبحانه:

---

(١) في الأصل: حقيقة، والمثبت من (م).

﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَنِ﴾ [الرعد: ٣٠] بياناً لتصميمهم في كفرهم وإنكارهم الآياتِ ومَنْ أتى بها لا بذلك؛ لبعد المرمى من غير ضرورة.

وقوله تعالى: ﴿بَل لِّلَّهِ ٱلْأَمْرُ جَمِيعًا﴾ أي: له الأمرُ الذي يدور عليه فلَكُ الأكوان وجوداً وعدماً، يفعل ما يشاءُ، ويحكم ما يريدُ حسبما تقتضيه الحكمةُ البالغة؛ قيل: إضرابٌ عمَّا تقتضيه الشرطيَّةُ من معنى النفي، لا بحسبِ منطوقِهِ، بل باعتبار موجَبه ومؤدَّاه، أي: لو أنَّ قرآناً فُعل به ما ذُكر لكان ذلك هذا القرآن، ولكن لم يفعل سبحانه، بل فعل ما عليه الشأنُ الآن؛ لأنَّ الأمرَ كلَّه له وحدَه، فالإضرابُ ليس بمتوجِّهٍ إلى كون الأمر لله تعالى، بل إلى ما يؤدِّي إليه ذلك من كون الشأن على ما كان لما تقتضيه الحكمة. وقيل: إن حاصلَ الإضراب لا يكونُ تسييرَ الجبال مع ما ذُكر[1] بقرآنٍ، بل يكون بغيره ممَّا أراده الله تعالى؛ فإنَّ الأمر له سبحانه جميعاً، وزعم بعضُهم أنَّ الأحسن العطفُ على مقدَّرٍ، أي: ليس لك من الأمر شيء، بل الأمرُ لله جميعاً.

ومعنى قوله سبحانه: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟﴾ أفلم يعلموا، وهي[2] - كما قال القاسم بنُ معن[3] - لغةُ هَوازن، وقال ابنُ الكلبيِّ: هي لغةُ حيٍّ من النَّخَع[4]، وأنشدوا على ذلك قولَ سُحَيم بن وَثِيل الرِّياحي:

أقول لهم بالشِّعْب إذ يأسرونني ... ألم تيأسوا أني ابنُ فارس زَهْدَمِ[5]

وقولَ رَباح بن عَدِيٍّ:

ألم ييأس الأقوامُ أنِّي أنا ابنُه ... وإن كنتُ عن أرض العشيرة نائياً[6]

---

(١) قوله: مع ما ذكر، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).
(٢) جاءت في الأصل هكذا: أفلم يعلم واو هي. والمثبت من (م).
(٣) هو القاسم بن معن بن عبد الرحمن بن عبد الله بن مسعود الصحابيِّ الهذلي، من علماء الكوفة بالعربية واللغة والفقه والحديث والشعر، له: النوادر، وغريب المصنف. (ت١٧٥هـ). بغية الوعاة ٢/ ٢٦٣.
(٤) قبيلة باليمن. القاموس (نخع).
(٥) البيت في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٥، والعقد الفريد ٥/ ٢٤١.
(٦) البيت في تفسير القرطبي ١٢/ ٧٣، وغير منسوب في تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٦.

فإنكارُ الفرَّاء(١) ذلك، وزعمُه أنه لم يسمع أحد من العرب يقول: يئستُ بمعنى علمت، ليس في محلِّه، ومَنْ حفِظَ حجةٌ على من لم يحفظ.

والظاهرُ أن استعمال اليأس في ذلك حقيقةٌ، وقيل: مجازٌ؛ لأنه متضمِّنٌ للعلم؛ فإنَّ الآيس عن الشيء عالمٌ بأنه لا يكون، واعتُرض بأنَّ اليأسَ حينئذٍ يقتضي حصولَ العلم بالعدم، وهو مستعملٌ في العلم بالوجود؟ وأُجيب بأنه لما تضمَّن العلمَ بالعدم تضمَّن مطلقَ العلم، فاستُعمل فيه.

ويشهد لإرادة العلم هنا قراءةُ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابنِ عباس، وعليِّ بن الحسين ﵄، وعكرمة، وابن أبي مُلَيكة، والجَحْدري، وأبي يزيد المدني، وجماعةٍ: «أفلم يتبيَّن»، من تبيَّنتُ كذا: إذا علمتَه، وهي قراءةٌ مسندةٌ إلى رسول الله ﷺ(٢)، ليست مخالفةً للسواد؛ إذ كتبوا «ييئس» بغير صورة الهمزة(٣)، وأما قولُ من قال: إنما كتبه الكاتبُ وهو ناعسٌ، فسوَّى أسنان السين، فهو قولُ زنديقٍ ملحدٍ على ما في «البحر»(٤)، وعليه فروايةُ ذلك - كما في «الدر المنثور»(٥) - عن ابن عباس ﵄ غيرُ صحيحة، وزعَمَ بعضُهم أنها قراءةُ تفسيرٍ، وليس بذاك.

والفاءُ للعطف على مقدَّر؛ أي: أَغَفِلوا عن كون الأمر جميعه لله تعالى، فلم يعلموا ﴿أَن لَّوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ﴾ بتخفيف «أنْ» وجعل اسمها ضميرَ الشأن، والجملة الامتناعية خبرها، و«أنْ» وما بعدها سادٌّ مسدَّ مفعولي العلم. ﴿لَهَدَى ٱلنَّاسَ جَمِيعًا﴾ بإظهار أمثال تلك الآثار العظيمة، والإنكارُ على هذا متوجِّهٌ إلى المعطوفين جميعاً،

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٤.

(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣، وتفسير القرطبي ١٢/ ٧٣، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٣ - ٥٤.
وبيَّن أبو حيان معنى قوله: قراءة مسندة إلى رسول الله ﷺ، بأنها ليست تفسيراً لقوله تعالى: ﴿أَفَلَمْ يَاْيْـَٔسِ﴾ ممن قرأ بها، وإنما أرادوا إسناد قراءتها إلى النبي ﷺ.

(٣) جاء في هامش (م) ما نصه: إن رسم ييأس ولا تيأسوا بألف، ورسم غيرهما من نظائرهما بدونهما، فليراجع. اهـ منه.

(٤) البحر ٥/ ٣٩٣.

(٥) الدر المنثور ٤/ ٦٣.

أو أَعَلموا كونَ الأمر جميعاً لله تعالى، فلم يعلموا ما يوجبُه ذلك العلمُ مما ذُكر، وحينئذٍ هو متوجِّهٌ إلى ترتُّب المعطوف على المعطوف عليه، أي: تخلّف العلم الثاني عن العلم الأول.

وأيًّا ما كان فالإنكارُ إنكارُ الوقوع لا الواقع، ومناطُ الإنكار ليس عدمَ علمهم بمضمون الشرطيَّة فقط، بل عدم علمهم بعدم تحقُّق مقدَّمها، كأنه قيل: ألم يعلموا أنَّ الله تعالى لو شاء هدايتَهم لهداهم، وأنه سبحانه لم يشأ ذلك، وذلك لما رُوي عن ابن عباس رضي الله عنهما أنَّ الكفار لما سألوا الآيات ودَّ المؤمنون أن يُظهرها الله تعالى ليجتمعوا على الإيمان، هذا على التقدير الأول، وأما على التقدير الثاني فالإضرابُ متوجِّهٌ إلى ما سلف من اقتراحهم مع كونهم في العِناد على ما شُرح، والمعنى: فليس لهم ذلك، بل لله تعالى الأمرُ، إن شاء أتى بما اقترحوا، وإن شاء سبحانه لم يأتِ به، حسبما تستدعيه حكمتُه الباهرةُ من غير أن يكون لأحدٍ عليه جلَّ جلاله حكمٌ واقتراح.

واليأسُ بمعنى القنوط كما هو الشائعُ في معناه، أي: ألم يعلم الذين آمنوا حالَهم هذه، فلم يقنطوا من إيمانهم حتى ودُّوا ظهورَ مقترحاتهم؟ فالإنكارُ متوجِّه إلى المعطوفين. أو: أَعلِموا ذلك فلم يقنطوا من إيمانهم؟ فهو متوجِّه إلى وقوعِ المعطوف بعد المعطوف عليه، أي: إلى تخلُّفِ القُنوط عن العلم المذكور، والإنكارُ على هذين التقديرين إنكارُ الواقعِ لا الوقوع؛ فإنَّ عدمَ قنوطهم من ذلك مما لا مردَّ له، وقولُه تعالى: «أن لو يشاء الله» إلى آخره مفعولٌ به لِعِلْماً محذوفٌ وقع مفعولاً له، أي: أفلم ييأسوا من إيمان الكفار عِلْماً منهم بأنه لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، وأنه لم يشأ ذلك، وقد يُجعل العلمُ في موضع الحال، أي: عالمين بذلك، ولم يُعتبر التضمينُ؛ لبُعده، ويجوز أن يكون متعلِّقاً بـ «آمنوا» بتقدير الباء، أي: أفلم يقنَطِ الذين آمنوا وصدَّقوا بأنْ لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، على معنى: أفلم ييأس من إيمان هؤلاء الكفرةِ المؤمنون بمضمون هذه الشرطيَّة، وبعدمِ تحقُّقها المنفهم من مكابرتهم، حسبما يحكيه كلمةُ «لو»، فالوصفُ المذكور من دواعي إنكار يأسهم[1].

---

(١) في الأصل: رأيهم، والمثبت من (م).

وبما أشرنا إليه ينحلُّ ما قيل: من أن تعلُّق الإيمان بمضمون الشرطيَّة وتخصيصَه بالذِّكر يقتضي أنَّ لذلك دخلاً في اليأس من الإيمان، مع أنَّ الأمر بالعكس؛ لأن قدرةَ الله تعالى على هداية جميع الناس يقتضي رجاءَ إيمانهم لا اليأسَ منه، وذلك لاعتبار العلم بعدمِ تحقُّق المضمون أيضاً.

وقال بعضُهم في الجواب عن ذلك: إن وجه تخصيصِ الإيمان بذلك أنَّ إيمانَ هؤلاء الكَفَرة المصمِّمين كأنه محالٌ متعلِّقٌ بما لا يكون؛ لتوقُّفه على مشيئة الله تعالى هدايةَ جميع الناس، وذلك ما لا يكونُ بالاتفاق، وهو في معنى ما أُشير إليه.

وذكر أبو حيَّان احتمالاً آخر في الآية: وهو أن الكلامَ قد تمَّ عند قوله سبحانه: «أفلم ييأس الذين آمنوا»، وهو تقرير، أي: قد يئسَ المؤمنون من إيمانِ هؤلاء المعاندين، و«أن لو يشاء» إلخ جوابُ قسمٍ محذوفٍ، أي: أقسمُ لو يشاءُ الله لهدى الناسَ جميعاً، ويدلُّ على إضمار القسم وجودُ «أن» مع «لو» كقوله:

أمـا والله أنْ لـو كـنـتَ حـرًّا ... ومـا بـالـحـرِّ أنـتَ ولا الـعـتـيـقِ(١)

وقوله:

فـأقـسـمُ أنْ لـوِ الـتـقـيـنـا وأنـتـمُ ... لـكـان لـنـا يـومٌ مـن الـشـرِّ مـظـلـمُ(٢)

وقد ذكر سيبويه(٣) أنَّ «أنْ» تأتي بعد القَسَم، وجعلَها ابنُ عصفور رابطةً للقسم بالجملة المقسَم عليها(٤). انتهى. وفيه من التكلُّف ما لا يخفى.

ومن الناس من جعل الإضرابَ مطلقاً عما تضمَّنه «لو» من معنى النفي، على معنى: بل اللهُ تعالى قادرٌ على الإتيان بما اقترحوا، إلا أنَّ إرادتَه لم تتعلَّق بذلك؛ لعلمه سبحانه بأنه لا تلينُ له شكيمتُهم. ولا يخفى أنه ظاهرٌ على التقدير الثاني، وأما على التقدير الأول فقد قيل: إنَّ إرادةَ تعظيم شأن القرآن لا تنافي الردَّ على

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٢، والبيت من شواهد ابن هشام في المغني ص٥٠.
(٢) البيت للمسيب بن علس، وهو من شواهد سيبويه في الكتاب ٣/ ١٠٧، وهو كذلك في المغني ص٥٠، وخزانة الأدب ١٠/ ٨٠.
(٣) الكتاب ٣/ ١٠٧.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٩٢ ـ ٣٩٣.

المقترحين، وأُيِّد جانبُ الردِّ بما أخرجه ابنُ أبي شيبة، وابنُ المنذر، وغيرُهما عن الشَّعبيِّ قال: قالت قريش لرسول الله ﷺ: إن كنتَ نبياً كما تزعمُ فباعِدْ جَبلَي مكةَ أخشبَيْها هذين مسيرةَ أربعة أيام أو خمسة؛ فإنها ضيِّقةٌ، حتى نزرعَ فيها ونرعى، وابعثْ لنا آباءنا من الموتى حتى يُكلِّمونا ويُخبرونا أنك نبيٌّ، أو احملنا إلى الشام، أو إلى اليمن، أو إلى الحِيْرة حتى نذهبَ ونجيءَ في ليلة كما زعمتَ أنكَ فعلتَه. فنزلت هذه الآية[١].

وأخرج ابنُ جريرٍ وأبو الشيخ عن ابن عباس أنهم قالوا: سَيِّر بالقرآن الجبالَ، قَطِّعْ بالقرآن الأرضَ، أَخرِجْ به موتانا. فنزلت[٢]. وعلى هذا لا حاجةَ إلى الاعتذار في إسناد الأفاعيل المذكورة إلى القرآن كما احتيجَ إليه فيما تقدَّم. وعلى خبر الشعبيِّ يُراد من تقطيع الأرض قطعُها بالسير.

ويشهدُ لتفسيره بما قدَّمنا أولاً ما أخرجه أبو نُعيم في «الدلائل» وغيرُه من حديث الزُّبير بن العوَّام، أنه لما نزلت ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ ٱلْأَقْرَبِينَ﴾ [الشعراء: ٢١٤] صاح رسولُ الله ﷺ على أبي قُبَيس: «يا آلَ عبدِ مَناف، إني نذير» فجاءته عليه الصلاة والسلام قريش، فحذَّرهم وأنذرهم، فقالوا: تزعم أنك نبيٌّ يُوحى إليك، وأنَّ سليمان سُخِّر له الريحُ والجبال، وأن موسى سُخِّر له البحر، وأن عيسى كان يُحيي الموتى، فادعُ الله تعالى أن يُسيِّر عنَّا هذه الجبال، ويُفجِّر لنا الأرضَ أنهاراً، فنتخذ محارِثَ، فنزرعَ ونأكلَ، وإلا فادعُ الله تعالى أن يُحيي لنا موتانا، فنكلِّمهم ويكلِّمونا، وإلا فادعُ الله تعالى أن يجعل هذه الصخرةَ التي تحتك ذهباً، فننحِتَ منها وتُغنينا عن رحلة الشتاء والصيف، فإنك تزعمُ أنك كهيئتهم.. الخبر. وفيه: فنزلت: ﴿وَمَا مَنَعَنَآ أَن نُّرْسِلَ بِٱلْـَٔايَٰتِ إِلَّآ أَن كَذَّبَ بِهَا ٱلْأَوَّلُونَ﴾ [الإسراء: ٥٩] إلى تمامِ ثلاث آيات، ونزلت: ﴿وَلَوْ أَنَّ قُرْءَانًا﴾ الآية[٣].

---

(١) المصنف لابن أبي شيبة ١٤/ ٣٠١-٣٠٢.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٣٣.

(٣) الدر المنثور ٤/ ٦٢-٦٣، ولم نقف عليه في مطبوع الدلائل، وأخرجه أيضاً أبو يعلى في مسنده (٦٧٩). قال الهيثمي في مجمع الزوائد ٧/ ٨٥: رواه أبو يعلى من طريق عبد الجبار بن عمر الأيلي، عن عبد الله بن عطاء، وكلاهما وثق، وضعفهما الجمهور.

هذا، وعن الفرَّاء(١) أن جواب «لو» مقدَّم، وهو قولُه تعالى: ﴿وَهُمْ يَكْفُرُونَ بِالرَّحْمَٰنِ﴾ وما بينهما اعتراضٌ(٢)، وهو - كما قيل - مبنيٌّ على جوازِ تقديم جواب الشرط عليه، ومن النحويين مَنْ يراه، ولا يخفى أنَّ في اللفظ نَبْوةً عن ذلك؛ لكون تلك الجملةِ اسميَّةً مقترنةً بالواو، ولذا أشار السَّمينُ(٣) إلى أن مرادَه أن تلك الجملةَ دليلُ الجواب، والتقديرُ: ولو أن قرآناً فُعِل به كذا وكذا لكفروا بالرحمن. وأنتَ تعلم أنه لا فرقَ بين هذا وتقدير: لَمَا آمنوا، في المعنى. وجُوِّز جعل «لو» وصليةً، ولا جوابَ لها، والجملةُ حاليَّة، أو معطوفةٌ على مقدَّر.

﴿وَلَا يَزَالُ الَّذِينَ كَفَرُوا﴾ من أهل مكة على ما رُوي عن مُقاتل ﴿تُصِيبُهُم بِمَا صَنَعُوا﴾ أي: بسبب ما صنعوه من الكفر والتمادي فيه، وإبهامُه، إما لقصد تهويلِه أو استهجانِه، وهو تصريحٌ بما أشعر به بناءُ الحكم على الموصول من عِلِّيَّة الصِّلة له، مع ما في صيغة الصُّنع من الإيذان برسوخهم في ذلك. ﴿قَارِعَةٌ﴾ من القرع، وأصلُه: ضربُ شيء بشيء بقوَّة، ومنه قولُه:

ولما قَرَعنا النَّبْعَ بالنَّبْعِ بعضَه ببعضٍ أَبَت عِيدانُه أن تَكَسَّرا(٤)

والمرادُ بها الرَّزيَّة التي تقرعُ قلبَ صاحبها، وهي هنا: ما كان يُصيبهم من أنواع البلايا والمصائب، من القتل والأسر، والنَّهب والسَّلب.

وتقديمُ المجرور على الفاعل لما مرَّ غير مرَّةٍ من إرادة التفسير إثرَ الإبهام؛ لزيادة التقرير والإحكام، مع ما فيه من بيانِ أنَّ مدار الإصابة من جهتهم آثر ذي أثير.

﴿أَوْ تَحُلُّ﴾ تلك القارعةُ ﴿قَرِيبًا﴾ مكاناً قريباً ﴿مِّن دَارِهِمْ﴾ فيفزعون منها،

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٣.

(٢) قوله: وما بينهما اعتراض، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).

(٣) الدر المصون ٧/ ٥١.

(٤) نسبه البغدادي في الخزانة ٣/ ١٧١ للنابغة الجعدي من قصيدة طويلة أنشدها بين يدي النبي ﷺ، وهو في ديوانه ص٧١، ونسبه صاحب الحماسة ١/ ١٥٥ بشرح المرزوقي إلى زفر بن الحارث الكلابي.

قال المرزوقي: النبع: خير الأشجار التي يتخذ منها القِسِيُّ وأصلبها.

ويتطايرُ إليهم شرَرُها، شبَّه القارعةَ بالعدوِّ المتوجِّه إليهم، فأسند إليها الإصابةَ تارةً والحلولَ أخرى، ففيه استعارةٌ بالكناية، وتخييلٌ وترشيح.

﴿حَتَّىٰ يَأْتِيَ وَعْدُ ٱللَّهِ﴾ أي: موتُهم، أو القيامةُ؛ فإنَّ كلًّا منهما وعدٌ محتوم لا مردَّ له، وفيه دلالةٌ على أن ما يُصيبهم حينئذٍ من العذاب أشدُّ، ثم حقَّقَ ذلك بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٣١﴾﴾ أي: الوعد، كالميلاد والميثاق بمعنى الولادة والتَّوثِقة، ولعلَّ المراد به ما يندرجُ تحتَه الوعدُ الذي نُسب إليه الإتيانُ لا هو فقط، قال القاضي: وهذه الآيةُ تدلُّ على بطلان من يجوِّز الخُلفَ على الله تعالى في ميعادِه، وهي وإن كانت واردةً في حقِّ الكفار إلا أن العبرةَ بعموم اللفظ لا بخصوص السبب، وعمومُه يتناول كلَّ وعيدٍ ورد في حقِّ الفسَّاق، وأجاب الإمامُ[1] بأنَّ الخُلْف غير، وتخصيص العموم غير، ونحنُ لا نقول بالخلف، ولكن نخصِّصُ عمومات الوعيد بالآيات الدالَّة على العفو.

وأنتَ تعلم أن المشهورَ في الجواب أن آيات الوعد مطلقةٌ، وآيات الوعيد وإن وردت مطلقةً لكنها مقيدةٌ، حُذف قيدُها لمزيد التخويف، ومنشأ الأمرين عِظَمُ الرحمة، ونهايةُ الكرم، والفرقُ بين الوعد والوعيد أظهَرُ من أن يذكر. نعم قد يُطلق الوعد على ما هو وعيدٌ في نفس الأمر لنكتةٍ، وليتأمَّل فيما هنا على الوجه الذي تقرَّر.

وعن ابن عباس رضي الله عنهما أن المراد بالقارعة السَّرايا التي كان رسولُ الله ﷺ يبعثُها، وكانوا بين غارةٍ، واختطاف، وتخويفٍ بالهجوم عليهم في دارهم، فالإصابةُ والحلول حينئذٍ من أحوالهم، وجُوِّز على هذا أن يكون قوله تعالى: «أو تحل» خطاباً لرسول الله ﷺ مراداً به حلولُ الحُدَيبية، والمرادُ بوعد الله تعالى ما وعَدَ به من فتح مكة، وعزا ذلك الطبريُّ[2] إلى ابن عباس، ومجاهد، وقتادة، ورُوي عن مُقاتل، وعِكْرمة. وذهب ابنُ عطية[3] إلى أن المرادَ بـ «الذين كفروا» كفار قريش والعرب، وفسَّر القارعةَ بما ينزلُ بهم من سرايا رسول الله ﷺ. وعن الحسن وابنِ

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٥٤.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٤٠ ـ ٥٤٢.

(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٣.

السائب أن المرادَ بهم الكفارُ مطلقاً، قالا: وذلك الأمرُ مستمرٌّ فيهم إلى يوم القيامة، ولا يتأتَّى على هذا أن يُراد بالقارعة سرايا رسولِ الله ﷺ، فيُراد بها حينئذٍ ما ذُكر أولاً، وأنتَ تعلم أنه إذا أُريد جنسُ الكَفَرة لا يلزم منه حلولُ ما تقدَّم بجميعهم.

وقرأ مجاهدٌ وابن جُبير: «أو يَحُلُّ» بالياء على الغَيبة[1]، وخُرِّج ذلك على أن يكون الضميرُ عائداً على القارعة باعتبار أنها بمعنى البلاء، أو بجَعْل هائها للمبالغة، أو على أن يكون عائداً على الرسول عليه الصلاة والسلام. وقرآ أيضاً: «من ديارهم» على الجمع[2].

﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ أي: تركتُهم ملاوةً ـ أي: من الزمان، ومنه: المَلَوان ـ في أمنٍ وَدَعَة، كما يُملى للبهيمة في المرعى، وهذا تسليةٌ للحبيب ﷺ عمَّا لقي من المشركين من الاستهزاء به عليه الصلاة والسلام وتكذيبه، وعدم الاعتدادِ بآياته، واقتراحِ غيرِها، وكلُّ ذلك في المعنى استهزاءٌ ووعيدٌ لهم، والمعنى: أن ذلك ليس مختصًّا بك، بل هو أمرٌ مطَّرد قد فُعِلَ برسل جليلةٍ كثيرة كائنةٍ من قبلك، فأمهلتُ الذين فعلوه بهم.

والعدولُ في الصلة إلى وصفِ الكفر ليس لأنَّ المُملَى لهم غيرُ المستهزئين، بل للإشارة إلى أنَّ ذلك الاستهزاءَ كفرٌ كما قيل. وفي «الإرشاد»[3]: لإرادة الجمع بين الوصفين، أي: فأمليتُ للذين كفروا بكفرهم مع استهزائهم، لا باستهزائهم فقط.

﴿ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ أي: عقابي إيَّاهم، والمراد التعجيبُ مما حلَّ بهم، وفيه من الدلالة على شدَّته وفظاعته ما لا يخفى.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ﴾ أي: رقيبٌ ومهيمنٌ ﴿عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍ﴾ كائنة ما كانت ﴿بِمَا كَسَبَتْ﴾ فعلت من خير أو شرٍّ، لا يخفى عليه شيء من ذلك، ولا يفوتُه ما يستحقُّه

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٥.
(٢) القراءات الشاذة ص٧٧، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٣، والدر المصون ٧/ ٥٥.
(٣) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٤.

كلٌّ من الجزاء، وهو الله تعالى شأنه، وما حكاه القرطبيُّ[(١)] عن الضحَّاك من أن المراد بذلك الملائكةُ الموكَّلون ببني آدم، فممَّا لا يكاد يُعرَّج عليه هنا.

و«من» مبتدأ، والخبر محذوفٌ، أي: كمن ليس كذلك؟ ونظيرُه قوله تعالى: ﴿أَفَمَن شَرَحَ اللَّهُ صَدْرَهُ لِلْإِسْلَامِ فَهُوَ عَلَىٰ نُورٍ مِّن رَّبِّهِۦ﴾ [الزمر:٢٢] وحَسَّنَ حذفَه المقابلةُ، وقد جاء مثبتاً كثيراً، كقوله تعالى: ﴿أَفَمَن يَخْلُقُ كَمَن لَّا يَخْلُقُ﴾ [النحل:١٧] وقوله سبحانه: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ﴾ [الرعد: ١٩] إلى غير ذلك. والهمزةُ للاستفهام الإنكاريِّ، وإدخالُ الفاء؛ قيل: لتوجيه الإنكار إلى توهُّم المماثلة غِبَّ ما عُلم مما فعَلَ سبحانه بالمستهزئين من الإملاء والأخذ، ومن كونِ الأمر كله له سبحانه، وكونِ هداية الناس جميعاً منوطةً بمشيئته جلَّ وعلا، ومن تواترِ القوارع على الكَفَرة حتى يأتي وعدُه تعالى، كأنه قيل: الأمرُ كذلك، فمَنْ هذا شأنه كما ليس في عِداد الأشياء حتى يُشركوه به. فالإنكار متوجِّهٌ إلى ترتُّب المعطوف، أعني: توهُّم المماثلة على المعطوف عليه المقدَّر، أعني: كونَ الأمر كما ذُكر[(٢)]، لا إلى المعطوفين جميعاً[(٣)]. وفي «الكشف»: أنه ضمَّنَ هذا التعقيبَ الترقي في الإنكار، يعني: لا عجبَ من إنكارهم لآياتكَ الباهرة مع ظهورها، إنما العجبُ كلُّ العجب جعلُهم القادرَ على إنزالها، المجازي لهم على إعراضهم عن تدبُّرِ معانيها وأمثالها بقوارع تَتْرى، واحدةً غِبَّ أُخرى، يشاهدونها رأيَ عين تترامى بهم إلى دار البَوَار وأهوالها، كمَنْ لا يملكُ لنفسه ضرًّا ولا نفعاً، فضلاً عمَّن اتخذه ربًّا يرجو منه دفعاً أو جلباً! وزعم بعضُهم أن الفاءَ للتعقيب الذِّكري، أي: بعد ما ذُكر أقولُ هذا الأمر، وليس بذاك.

﴿وَجَعَلُواْ لِلَّهِ شُرَكَآءَ﴾ جملةٌ مستأنفةٌ، وفيها دلالةٌ على الخبر المحذوف، وجُوِّز أن تكون معطوفةً على«كسبت» على تقدير أن تكون «ما» مصدريةً لا موصولةً، والعائدُ محذوفٌ، ولا يلزم اجتماعُ الأمرين حتى يخصَّ كلّ نفس بالمشركين، وأبعَدَ

---

(١) تفسير القرطبي ١٢/ ٧٧.

(٢) جاء في حاشية (م) ما نصه: كما في قولك: أتعلم الحق فلا تعمل به. اهـ منه.

(٣) جاء في حاشية (م) ما نصه: كما في قولك: ألا تعلم الحق فلا تعمل به. اهـ منه.

من قال: إنها عطفٌ على «استهزئ». وجُوِّز أن تكون حاليةً على معنى: أفمن هذه صفاتُه كمن ليس كذلك؟ وقد جعلوا له شركاء لا شريكاً واحداً!

وقال صاحب «حل العقد»[(١)]: المعنى على الحالية: أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت موجودٌ والحالُ أنهم جعلوا له شركاء، وهذا نظيرُ قولك: أجَوادٌ يعطي الناسَ ويُغنيهم موجودٌ ويحرم مِثْلي؟!

ومنهم من أجاز العطفَ على جملة: «أفمن هو قائمٌ على كلِّ نفس بما كسبت» كمن ليس كذلك؟ لأنَّ الاستفهامَ الإنكاريَّ بمعنى النفي، فهي خبريةٌ معنًى.

وقدَّر آخرون الخبر: لم يُوحِّدوه، وجعل العطفَ عليه، أي: أفمن هذا شأنُه لم يوحِّدوه وجعلوا له شركاء؟ وظاهرُ كلامهم اختصاصُ العطف على الخبر بهذا التقدير دون تقدير: كمن ليس كذلك. قال البَدْر الدَّمامينيُّ: ولم يظهر وجهُ الاختصاص، ووجَّه ذلك الفاضلُ الشُّمُنِّي[(٢)] بأن حصولَ المناسبة بين المعطوف والمعطوفِ عليه التي هي شرطُ قَبول العطف بالواو إنما هو على التقدير الأخير دون التقدير الأول، ويدل على الاشتراطِ قولُ أهل المعاني: زيدٌ يكتب ويشعر، مقبول، دون يعطي ويشعر.

وتعقَّبه الشهاب[(٣)] بأنه من قلَّة التدبُّر؛ فإنَّ مرادَهم أنه على التقدير الأول يكونُ الاستفهامُ إنكاريًّا، بمعنى: لم يكن، نفياً للتشابه على طريق الإنكار، فلو عطف جعلُهم شركاء عليه يقتضي أنه لم يكن، وليس بصحيح، وعلى التقدير الأخير الاستفهامُ توبيخيٌّ، والإنكارُ فيه بمعنى: لم كان؟ وعدمُ التوحيد وجعلُ الشركاء واقعٌ موبَّخٌ عليه منكَرٌ، فيظهرُ العطفُ على الخبر، وأما ما ذُكر من حديث التناسب فغفلةٌ؛ لأن المناسبة بين تشبيه الله سبحانه بغيره والشِّرك تامَّةٌ، وعلى الوجه الأخير عدمُ التوحيد عينُ الإشراك، فليس محلًّا للعطف عند أهل المعاني على ما ذَكره، فهو محتاجٌ إلى توجيه آخر.

---

(١) نقله الرازي في تفسيره ١٩/ ٥٦. ونقله عنه أبو حيان في البحر ٥/ ٣٩٤.

(٢) المنصف من الكلام على مغني ابن هشام ١/ ٢٣. ولم نقف على قول الدماميني في حاشيته على المغني، وقد نقله الشمني، ونقله أيضاً الشهاب في حاشيته ٥/ ٢٤٢.

(٣) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٢.

واختار بعض المحقِّقين التقديرَ الأول، وفي ذلك الحذفِ تعظيمٌ للقالة، وتحقيرٌ لمن زنَّ بتلك الحالة، وفي العدول عن صريح الاسم في «أفمن هو قائم» تفخيمٌ فخيمٌ بواسطة الإبهام المضمَر في إيراده موصولاً، مع تحقيق أنَّ القيام كائنٌ وهم محققون، وفي وضع الاسم الجليل موضعَ الضميرِ الراجع إلى «من» تنصيصٌ على وحدانيته تعالى ذاتاً واسماً، وتنبيهٌ على اختصاصه باستحقاق العبادة، مع ما فيه من البيان بعد الإبهام، ولعلَّ توجيه الوضع المذكور مما لا يختصُّ به تقديرٌ دون تقدير، وخصَّه بعضُهم فيما يُحتاج عليه إلى ضمير.

﴿قُلْ سَمُّوهُمْ﴾ تبكيتٌ إثرَ تبكيت، أي: سمُّوهم مَنْ هم؟ وماذا أسماؤهم؟ وفي «البحر»(١): أن المعنى أنهم ليسوا ممن يُذكر ويُسمَّى، إنما يذكر ويُسمَّى مَنْ ينفع ويضرُّ، وهذا مثل أن يُذْكَر لك أن شخصاً يُوقَّر ويُعظَّم وهو عندك لا يستحقُّ ذلك، فتقول لذاكره: سمِّه حتى أُبيِّن لك زَيْفَه، وأنه بمعزلٍ عن استحقاق ذلك. وقريبٌ منه ما قيل: إنَّ ذلك إنما يقال في الشيء المستحقَرِ الذي يبلغ في الحقارةِ إلى أن لا يُذكر ولا يوضَع له اسمٌ، فيقال: سَمِّه، على معنى أنه أخسُّ من أن يُذكر ويُسمَّى، ولكن إن شئتَ أن تضَعَ له اسماً فافعل، فكأنه قيل: سمُّوهم بالآلهة، على التهديد، والمعنى: سواءٌ سمَّيتُموهم بذلك أم لم تسمُّوهم به؛ فإنهم في الحقارة بحيث لا يستحقُّون أن يَلتفِتَ إليهم عاقلٌ، وقيل: إن التهديدَ هنا نظيرُ التهديد لمن نُهي عن شرب الخمر، ثم قيل له: سمِّ الخمر بعد هذا، وهو خلافُ الظاهر، وقيل: المعنى: أُذكروا صفاتهم، وانظروا هل فيها ما يستحقُّون به العبادة ويستأهلون الشّركة.

﴿أَمْ تُنَبِّئُونَهُ﴾ أي: بل أتخبرون الله تعالى ﴿بِمَا لَا يَعْلَمُ فِي الْأَرْضِ﴾ أي: بشركاء مستحقِّين للعبادة لا يعلمُهم سبحانه وتعالى. والمرادُ نفيها بنفي لازمها على طريق الكناية؛ لأنه سبحانه إذا كان لا يعلمُها، وهو الذي لا يعزبُ عن علمه مثقالُ ذرَّةٍ في الأرض ولا في السماء، فهي لا حقيقةَ لها أصلاً.

وتخصيصُ الأرض بالذِّكر؛ لأنَّ المشركين إنما زعموا أنه سبحانه له شركاء فيها، والضميرُ المستقرُّ في «يعلم» على هذا التفسير لله تعالى، والعائد على «ما»

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٤.

محذوفٌ كما أشرنا إلى ذلك. وجُوِّز أن يكون العائدُ ضميرَ «يعلم»، والمعنى: أتنبِّئون الله تعالى بشركة الأصنام التي لا تتَّصف بعلمٍ ألبتَّةَ؟ وذكر نفي العلم في الأرض لأنَّ الأرضَ مقرُّ الأصنام، فإذا انتفى علمُها في المقرِّ التي هي فيه فانتفاؤه في السماوات العُلى أحرى.

وقرأ الحسنُ: «أتُنْبِئونه» بالتخفيف من الإنباء[1].

﴿أَم بِظَـٰهِرٍ مِّنَ ٱلْقَوْلِ﴾ أي: بل أتسمُّونهم شركاء بظاهرٍ من القول من غير معنى متحقِّق في نفس الأمر؟ كتسمية الزنجيِّ كافوراً، كقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكَ قَوْلُهُم بِأَفْوَٰهِهِمْ﴾ [التوبة: ٣٠] ورُوي عن الضحَّاك وقتادة أن الظاهرَ من القول الباطلُ منه، وأنشدوا من ذلك قوله:

أَعَيَّرْتَنا ألبانَها ولحومَها وذلك عارٌ يا ابنَ رَيْطة ظاهرُ[2]

ويُطلق الظاهر على الزائل كما في قوله:

وعيَّرها الواشون أني أُحبُّها وتلك شكاةٌ ظاهرٌ عنك عارُها[3]

ومَنْ أراد ذلك هنا فقد تكلَّف. وعن الجُبَّائي أن المراد من «ظاهر من القول» ظاهرُ كتابٍ أنزله الله تعالى وسمَّى به الأصنام آلهةً حقَّة، وحاصلُ الآية نفي الدليل العقليِّ والدليل السمعيِّ على حقِّيَّة عبادتها واتخاذِها آلهة. وجُوِّز أن تكون «أم» متَّصلةً، والانقطاعُ هو الظاهر.

ولا يخفى ما في الآية من الاحتجاج والأساليب العجيبة ما ينادي بلسانٍ طَلْقٍ ذَلقٍ أنه ليس من كلام البشر، كما نصَّ على ذلك الزمخشريُّ[4]، وبيَّن ذلك صاحبُ «الكشف» بأنه لما كان قولُه تعالى: «أفمن هو قائم» كافياً في هدم قاعدةِ الإشراك؛ للتفرُّع السابق، والتحقُّق بالوصف اللاحق مع ما ضُمِّن من

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٣٩٥.
(٢) البيت لسَبْرة بن عمرو الفَقْعسي، وهو من أبيات الحماسة ١/ ٢٣٨ بشرح المرزوقي، وقال: لم عيرتنا ألبان الإبل ولحومها، واقتناء الإبل مباح لا محظور في القديم والحديث؟!
(٣) البيت لأبي ذؤيب الهذلي. شرح أشعار الهذليين ١/ ٧٠.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٢.

زيادات النكت، وكان إبطالاً من طرفِ الحقِّ، وذَيَّل بإبطاله من طرف النقيض على معنى: وليتهم إذ أشركوا بمن لا يجوز أن يُشرَكَ به أشركوا مَنْ يُتوهَّم فيه أدنى توهُّم. ورُوعي فيه أنه لا أسماءَ للشركاء فضلاً عن المسمَّى على الكناية الإيمائية، ثم بُولغ فيه بأنه لا يستأهلُ السؤالَ عن حالها بظهور فسادها، وسلك فيه مسلك الكناية التلويحيَّة من نفي العلم بنفي المعلوم، ثم منه بعدم الاستئهال.

والهمزةُ المضمَّنة فيها تدلُّ على التوبيخ وتقريرِ أنهم يريدون أن يُنبِّؤوا عالِمَ السرِّ والخفيَّات بما لا يعلمُه، وهذا محالٌ على محال، وفي جعله اتخاذَهم شركاء ومجادلَتَهم رسولَ الله ﷺ نكتةٌ سرية، بل نكتٌ سرية، ثم أضرب عن ذلك، وقيل: قد بيَّن الشمس لذي عينين، وما تلك التسميةُ إلا بظاهرٍ من القول من غير أن يكون تحتَه طائلٌ، وما هو إلا مجرَّد صوت فارغ حقَّ لمن تأمَّل فيه حقَّ التأمُّل أن يعترف بأنه كلامٌ مصون عن التعمُّل، صادرٌ عن خالق القوى والقدر، تتضاءل عن بلوغ طرف من أسراره أفهامُ البشر.

وقد ذيَّل الزمخشريُّ[1] كلامَه بقوله: فتبارك الله أحسنُ الخالقين، وهي كما في «الانتصاف» كلِمةُ حقٍّ أُريد بها باطلٌ[2]، يُدندن بها مَنْ هو عن حلية الإنصاف عاطلٌ.

هذا، ﴿بَلْ زُيِّنَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟﴾ إضرابٌ عن الاحتجاج عليهم، ووُضع الموصولُ موضع الضميرِ ذمًّا لهم، وتسجيلاً عليهم بالكفر، كأنه قيل: دَعْ هذا؛ فإنه لا فائدةَ فيه؛ لأنهم زُيِّن لهم ﴿مَكْرُهُمْ﴾ كيدُهم للإسلام بشركهم أو تمويههم الأباطيل، فتكلَّفوا إيقاعَها في الخيال من غير حقيقة، ثم بعد ذلك ظنُّوها شيئاً؛ لتماديهم في الضلال، وعلى هذا: المرادُ مكرُهم بأنفسهم، وعلى الأول: مكرُهم بغيرهم، وإضافةُ «مكر» إلى ضميرهم من إضافة المصدر إلى الفاعل، وجُوِّز على الثاني أن يكون مضافاً إلى المفعول، وفيه بُعْد.

---

(١) الكشاف ٢/ ٣٦٢.

(٢) الانتصاف ٢/ ٣٦٢. وعلل قوله: أريد بها باطل، بقوله: لأنه يُعرِّض فيها بخلق القرآن، فتنبَّه لها.

وقرأ مجاهدٌ: «بل زَيَّن» على البناء للفاعل، و«مكرَهم» بالنصب[1].

﴿وَصُدُّوا عَنِ السَّبِيلِ﴾ أي: سبيل الحقِّ، فتعريفُه للعهد أو ما عداه، كأنه غير سبيل، وفاعلُ الصدِّ إما «مكرهم» ونحوه، أو الله تعالى بختمِهِ على قلوبهم، أو الشيطانُ بإغوائه لهم، والاحتمالان الأخيران جاريان في فاعل التزيين.

وقرأ ابنُ كثير، ونافع، وأبو عمرو، وابن عامر: «وصَدُّوا» على البناء للفاعل[2]، وهو كالأول، من صدَّه صدًّا، فالمفعولُ محذوفٌ، أي: صَدُّوا الناسَ عن الإيمان، ويجوز أن يكون من صدَّ صدوداً، فلا مفعول. وقرأ ابنُ وثَّاب: «صِدُّوا» بكسر الصاد، وقال بعضهم: إنه قرأ كذلك في «المؤمن»، والكسر هنا لابن يَعْمَر[3]، والفعلُ على ذلك مجهولٌ نُقلت فيه حركةُ العين إلى الفاء إجراءً له مجرى الأجوف، وقرأ ابنُ أبي إسحاق: «وصَدٌّ» بالتنوين عطفاً على «مكرهم»[4].

﴿وَمَن يُضْلِلِ اللَّهُ﴾ أي: يخلقُ فيه الضلالَ؛ لسوء استعداده ﴿فَمَا لَهُ مِنْ هَادٍ (٣٣)﴾ يوفِّقُه للهدى، ويوصلُه إلى ما فيه نجاتُه.

﴿لَهُمْ عَذَابٌ﴾ شاقٌّ ﴿فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا﴾ بالقتل والأَسْر وسائرِ ما يُصيبهم من المصائب؛ فإنها إنما تُصيبهم عقوبةً من الله تعالى على كفرهم، وأما وقوعُ مثل ذلك للمؤمن فعلى طريقِ الثواب ورفعِ الدرجات ﴿وَلَعَذَابُ الْآخِرَةِ أَشَقُّ﴾ من ذلك؛ لشدَّته ودوامه.

﴿وَمَا لَهُم مِّنَ اللَّهِ﴾ أي: من عذابه سبحانه ﴿مِن وَاقٍ (٣٤)﴾ من حافظٍ يعصمُهم من ذلك، فـ«من» الأولى صلةُ «واق»، والثانيةُ مزيدةٌ للتأكيد، ولا يضرُّ تقديمُ معمول المجرور عليه؛ لأنَّ الزائدَ لا حكم له. وجُوِّز أن تكون «من» الأولى ظرفاً مستقرًّا وقع حالاً من «واق»، وصلتُه محذوفة، والمعنى: ما لهم واقٍ وحافظٌ من عذاب الله تعالى حالَ كون ذلك الواقي من جهته تعالى ورحمته، و«من» على هذا

---

(١) البحر ٥/ ٣٩٥، وزاد ابن خالويه في القراءات الشاذة ص٦٧ نسبتها لابن عباس.

(٢) التيسير ص١٣٣، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٣٩٥، وزاد القرطبي ١٢/ ٧٩ نسبة هذه القراءة لعلقمة.

(٤) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٦٢، والبحر ٥/ ٣٩٥.

للتبيين، وجُوِّز أيضاً أن تكون لغواً متعلّقةً بما في الظرف ـ أعني: «لهم» ـ من معنى الفعل، وهي للابتداء، والمعنى: ما حصَلَ لهم من رحمة الله تعالى واقٍ من العذاب.

﴿مَّثَلُ ٱلْجَنَّةِ﴾ أي: نعتُها وصفتُها؛ كما أخرجه ابنُ أبي حاتم وأبو الشيخ عن عكرمة[1]، فهو ـ على ما في «البحر»[2] ـ من مثَّلت الشيء: إذا وصفتَه وقرَّبته للفهم، ومنه: ﴿وَلَهُ ٱلْمَثَلُ ٱلْأَعْلَىٰ﴾ [الروم:٢٧] أي: الصفةُ العليا، وأنكر أبو عليٍّ ذلك، وقال: إنَّ تفسيرَ المَثَل بالصفة غيرُ مستقيم لغةً، ولم يوجد فيها، وإنما معناه الشبيه. وقال بعض المحقِّقين: إنه يُستعمل في ثلاثة معان: فيُستعمل بمعنى الشبيه في أصل اللغة، وبمعنى القول السائر المعروف في عُرف اللغة، وبمعنى الصِّفة الغريبة، وهو معنى مجازيٌّ له مأخوذٌ من المعنى العرفيِّ بعلاقة الغرابة؛ لأن المَثَل إنما يسيرُ بين الناس لغرابته، وأكثرُ المفسِّرين على تفسيره هنا بالصِّفة الغريبة، وهو حينئذٍ مبتدأ، خبرُه ـ عند سيبويه[3] ـ محذوفٌ، أي: فيما يُقصُّ ويُتلى عليكم صفةُ الجنة.

﴿ٱلَّتِى وُعِدَ ٱلْمُتَّقُونَ﴾ أي: عن الكفر والمعاصي، وقُدِّر مقدَّماً؛ لطول ذيل المبتدأ، ولئلَّا يُفصل بينه وبين ما يتعلَّق به معنى.

وقوله تعالى: ﴿تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَـٰرُ﴾ جملةٌ مفسِّرة، كـ: (خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ) في قوله سبحانه: ﴿إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ﴾ [آل عمران:٥٩]، أو مستأنفةٌ استئنافاً بيانياً، أو حالٌ من العائد المحذوف من الصِّلة، أي: التي وُعِدَها، وقيل: هي الخبر، على طريقة قولك: شأنُ زيد يأتيه الناسُ ويعظِّمونه.

واعتُرض بأنه غيرُ مستقيم معنى؛ لأنه يقتضي أنَّ الأنهار في صفة الجنة، وهي فيها لا في صفتها، وفيه أيضاً تأنيثُ الضمير العائد على «مَثَل» حملاً على المعنى، وقد قيل: إنه قبيحٌ.

---

(١) وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٤ ونسبه لهما.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٣٩٥.
(٣) الكتاب ١/ ١٤٣.

وأُجيب: بأن ذاك على تأويلِ أنها تجري، فالمعنى: مَثَلُ الجنة جريانُ الأنهار، أو أنَّ الجملة في تأويل المفرد، فلا يعودُ منها ضميرٌ للمبتدأ، أو المرادُ بالصفة ما يقال فيه هذا إذا وُصف، فلا حاجة إلى الضمير كما في خبر ضمير الشأن.

وقال الطِّيبي: إن تأنيثَ الضمير لكونه راجعاً إلى «الجنة» لا إلى المَثَل، وإنما جاز ذلك لأنَّ المقصود من المضاف عينُ المضاف إليه، وذِكْره توطئةٌ له، وليس نحو غلام زيد.

وتَعقَّب كلَّ ذلك الشهابُ[1] بأنه كلامٌ ساقطٌ متعسّف؛ لأنَّ تأويل الجملة بالمصدر من غير حرف سابكٍ شاذٌّ، وكذا التأويلُ بأنه أُريد بالصفة لفظُها الموصوفُ به، وليس في اللفظ ما يدلُّ عليه، وهو تجوُّزٌ على تجوُّزٍ، ولا يخفى تكلُّفه، وقياسه على ضمير الشأن قياسٌ مع الفارق، وأما عَوْدُ الضمير على المضاف إليه دون المبتدأ في مِثْل ذلك فأضعفُ من بيتِ العنكبوت، فالحزمُ الإعراضُ عن هذا الوجه.

وعن الزَّجاج[2] أن الخبرَ محذوفٌ، والجملةُ صفةٌ له، والمرادُ: مثلُ الجنة جنةٌ تجري، إلى آخره، فيكون سبحانه قد عرَّفنا الجنةَ التي لم نَرَها بما شاهدناه من أمور الدنيا وعايَنَّاه. وتعقَّبه أبو عليٍّ ـ على ما في «البحر»[3] ـ بأنه لا يصحُّ لا على معنى الصِّفة، ولا على معنى الشَّبَه؛ لأن الجنةَ التي قدَّرها جثَّةٌ، ولا تكونُ صفةً، ولأنَّ الشبه عبارةٌ عن المماثلة التي بين الشيئين، وهو حَدَثٌ، فلا يجوز الإخبار عنه بالجنة الجثَّة. ورُدَّ بأن المراد بالمَثَل المثيل، أو الشبيه، فلا غبارَ في الإخبار.

وقيل: إن التشبيهَ هنا تمثيليٌّ منتزَعٌ وجهُه من عدَّة أمورٍ من أحوال الجِنان المشاهَدَة، من جريان أنهارها، وغَضارةِ أغصانها، والتفافِ أفنانها ونحوه، ويكونُ قوله تعالى: ﴿أُكُلُهَا دَآئِمٌ وَظِلُّهَاۚ﴾ بياناً لفضل تلك الجنان، وتمييزها عن هذه الجِنان المشاهدة. وقيل: إنَّ هذه بيانٌ لحالِ جنان الدنيا على سبيل الفَرض، وأن

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٤.

(٢) معاني القرآن ٣/ ١٥٠.

(٣) البحر المحيط ٥/ ٣٩٦.

فيما ذُكر انتشاراً واكتفاءً في النظير بمجرَّد جريان الأنهار، وهو لا يُناسب البلاغةَ القرآنيَّةَ، وهو كما ترى.

ونُقل عن الفرَّاء أن الجملةَ خبرٌ أيضاً[١]، إلا أن المَثَل بمعنى الشَّبه مقحمٌ، والتقديرُ: الجنة التي وُعِد المتقون تجري من تحتها الأنهار، إلى آخره، وقد عُهد إقحامُه بهذا المعنى، ومنه قولُه تعالى: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَىْءٌ﴾ [الشورى: ١١] وتعقَّبه أبو حيان[٢] بأنَّ إقحام الأسماء لا يجوز. ورُدَّ بأنه في كلامهم كثيرٌ، كـ :

... ثـم اسـمُ الـسـلام عـلـيـكـمـا[٣]

و«لا صدقةَ إلا عن ظهرِ غنى»[٤]، إلى غيرِ ذلك، والأولى بعد القيل والقال الوجهُ الأول؛ فإنَّه سالمٌ من التكلُّف، مع ما فيه من الإيجاز والإجمال والتفصيل.

والظاهرُ أن المراد من الأكل ما يؤكلُ فيها، ومعنى دوامه أنه لا ينقطعُ أبداً، وقال إبراهيم التيميُّ: إن لذَّته دائمةٌ، لا تُزاد بجوعٍ، ولا تُمَلُّ بشبعٍ. وهو خلافُ الظاهر.

وفسَّر بعضُهم الأكل بالثمرة، فقيل: وَجْهُه أنه ليس في جنة الدنيا غيرُه، وإن كان في الموعودةِ غيرُ ذلك من الأطعمة، واستُظهر أنَّ ذلك لإضافته إلى ضمير «الجنة»، والأطعمةُ لا يقال فيها: أُكُل الجنة، وفيه تردُّد، والظِّلُّ في الأصل ضدُّ الضحِّ، وهو عند الراغب[٥] أعمُّ من الفيء؛ فإنه يقال: ظلُّ الليل، ولا يقال: فيئُه، ويقال لكلِّ موضعٍ لم تصل إليه الشمسُ: ظلّ، ولا يُقال: الفيء، إلا لما زالت عنه، وفي «القاموس»: هو الضِّحّ والفيء، أو هو بالغداة، والفيءُ بالعشيِّ، جمعُه ظلالٌ وظُلول وأظلال، ويُعبَّر به عن العزَّة والمَنَعة[٦] وعن الرَّفاهة، والمشهور تفسيرُه هنا بالمعنى الأول.

---

(١) معاني القرآن ٢/ ٦٥، والكلام الآتي ليس فيه، وإنما نقله المصنف عن البحر المحيط.

(٢) البحر المحيط ٥/٣٩٦.

(٣) جزء من بيت للبيد، وهو في ديوانه ص٢١٤، وقد سلف ١١/ ٤٥٦.

(٤) أورده البخاري معلَّقاً قبل الحديث (٢٧٥٠)، وأخرجه مسنداً (١٤٢٧) بلفظ: «خير الصدقة ما كان عن ظهر غنًى» عن أبي هريرة ﷺ، وقد سلف بهذا اللفظ ٣/ ٢٥٣.

(٥) مفردات ألفاظ القرآن: (ظلل).

(٦) كذا نقل المصنف عن القاموس: (ظلل)، غير أن فيه: الظل بالكسر نقيض الضح، أو هو الفيء... إلخ.

وهو مبتدأ محذوفُ الخبر، أي: وأُكُلها كذلك، أي: دائمٌ، والجملةُ معطوفةٌ على الجملة التي قبلَها.

ومعنى دوامه أنه لا يُنسخ كما يُنسخ في الدنيا بالشمس؛ إذ لا شمسَ هناك على الشائع عند أهل الأثر، أو لأنها لا تأثيرَ لها على ما قيل.

ويجوزُ عندي أن يُراد بالظلِّ العزَّة والرفاهية[1]، وأن يُراد المعنى الأول، ويجعل الكلامُ كناية عن دوام الراحة.

وأكفر خارجةُ بنُ مصعب[2] ـ كما رَوى عنه ذلك ابنُ المنذر وأبو الشيخ ـ القائلَ بعدمِ دوام الجنة كما يُحكى عن جَهْم وأتباعِهِ؛ لهذه الآية.

وبها استدلَّ القاضي على أنها لم تُخلق بعدُ؛ لأنها لو كانت مخلوقةً لوجب أن يفنى وينقطِعَ أُكُلها؛ لقوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] لكنَّ أُكُلَها لا ينقطعُ ولا يفنى؛ للآية المذكورة، فوجب أن لا تكون مخلوقةً بعدُ، ثم قال: ولا ننكِرُ أن يكون الآن جنانٌ كثيرة في السماء يتمتَّع بها مَنْ شاء الله تعالى من الأنبياء والشهداء وغيرِهم، إلا أنَّا نقول: إنَّ جنةَ الخلد إنما تُخلق بعد الإعادة. وأجاب الإمامُ[3] عن ذلك بأن دليلَه مركَّب من شيئين: قوله تعالى: ﴿كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ﴾ [القصص:٨٨] وقوله سبحانه: «أكلها دائم»، فإذا أدخلنا التخصيصَ في أحدِ هذين العمومين سقط الدليلُ، فنحن نخصِّصُ أحدَهما بالدلائل الدالَّةِ على أن الجنةَ مخلوقةٌ، كقوله تعالى: ﴿وَجَنَّةٍ عَرۡضُهَا ٱلسَّمَٰوَٰتُ وَٱلۡأَرۡضُ أُعِدَّتۡ لِلۡمُتَّقِينَ﴾ [آل عمران:١٣٣]. اهـ.

ويَرِدُ على الاستدلال أنه مشتركُ الإلزام؛ إذ الشيءُ في قوله تعالى: (كُلُّ شَيۡءٍ هَالِكٌ إِلَّا وَجۡهَهُۥ) الموجودُ مطلقاً، كما في قوله تعالى: ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيۡءٍ وَهُوَ بِكُلِّ شَيۡءٍ

---

(١) في (م): أو الرفاهة.

(٢) هو: أبو الحجاج، الضُّبَعي، السَّرخسي، المحدِّث، عالم أهل خراسان على لينٍ فيه، رحل في طلب العلم وهو كبير، وسمع الكثير، توفي سنة (١٦٨ هـ). الوافي بالوفيات ١٣/ ٢٤٢، والسير ٧/ ٣٢٦.
وقوله في تكفير الجهمية بهذه الآية أورده السيوطي في الدر ٤/ ٦٤ ـ ٦٥.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٥٨.

﴿عَلِيمٌ﴾[1] [الأنعام:١٠١] والمعنى أن كلَّ ما يوجدُ في وقت من الأوقات يصيرُ هالكاً بعد وجوده، فيصحُّ أن يقال: لو وجدت الجنةُ في وقتٍ لوجَبَ هلاكُ أُكُلِها؛ تحقيقاً للعموم، لكنَّ هلاكه[2] باطلٌ؛ لقوله تعالى: «أكلها دائم»، فوجودُها في وقتٍ من الأوقات باطلٌ.

وأُجيب بأنه لعلَّ المراد من الشيء: الموجود في الدنيا فإنها دارُ الفناء، دون الموجودِ في الآخرة فإنها دارُ البقاء، وهذا كافٍ في عدم اشتراك الإلزام، وفيه أنه إن أُريد أنَّ معنى الشيء هو الموجودُ في الدنيا فهو ظاهرُ البطلان، وإن أُريد أنَّ المراد ذلك بقرينةِ كونِهِ محكوماً عليه بالهلاك، وهو إنما يكونُ في الدنيا؛ لأنها دارُ الفناء، فنقول: إنه تخصيصٌ بالقرينة اللفظية، فنحن نخصُّه بغير الجنة؛ لقوله تعالى: ﴿أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ﴾، و: «أكلها دائم»، فلا يتمُّ الاستدلال.

وأجاب غيرُ الإمام بأنَّ المراد هو الدوامُ العرفيُّ، وهو عدمُ طَرَيان العدم زماناً يُقيَّد به، وهذا لا ينافي طَرَيان العدمِ عليه، وانقطاعَهُ لحظةً، على أنَّ الهلاك لا يستلزمُ الفناءَ، بل يكفي فيه الخروجُ عن الانتفاعِ المقصود، ولو سُلِّم يجوز أن يكون المرادُ أن كلَّ ممكنٍ فهو هالكٌ في حدِّ ذاته؛ بمعنى أنَّ الوجودَ الإمكانيَّ بالنظرِ إلى الوجود الواجبيِّ بمنزلة العدم.

وقيل في الجواب أيضاً: إنَّ المراد بالدوام المعنى الحقيقيُّ، أعني عدمَ طَرَيان العدم مطلقاً، والمراد بدوام الأُكُل داومُ النوع، وبالهلاك هلاكُ الأشخاص، ويجوز أن لا ينقطعَ النوعُ أصلاً مع هلاك الأشخاص، بأن يكون هلاكُ كلِّ شخصٍ معيَّنٍ من الأُكُل بعد وجودِ مثله. وهذا مبنيٌّ على ما ذهب إليه الأكثرون من أن الجنةَ لا يطرأُ عليها العدمُ ولو لحظةً، وأما على ما قيل من جريانه عليها لحظةً فلا يتمُّ؛ لأنه يلزم منه انقطاعُ النوع قطعاً، كما لا يخفى.

وقرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، وابنُ مسعود رضي الله عنه: «مثال الجنة»، وفي

---

(١) جاء أول هذه الآية في الأصل و(م): ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ...﴾، وليس هنالك آية بهذا السياق، وأثبتنا ما رأيناه أقرب إلى مراد المصنف، ولعله أراد قوله تعالى: ﴿خَلِقُ كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ وَكِيلٌ﴾ [الزمر: ٦٢].

(٢) في الأصل: هلاكها، والمثبت من (م).

«اللوامح» عن السُّلَميّ: «أمثالُ الجنة»، أي: صفاتها[1].

﴿تِلْكَ﴾ الجنةُ المنعوتةُ بما ذُكر ﴿عُقْبَى الَّذِينَ اتَّقَوا﴾ الكفرَ والمعاصي، أي: مآلُهم ومنتهى أمرِهم. ﴿وَعُقْبَى الْكَافِرِينَ النَّارُ ﴿٣٥﴾﴾ لا غير، كما يُؤذِنُ به تعريفُ الخبر، وحُمل الاتِّقاءُ على اتِّقاء الكفرِ والمعاصي؛ لأنَّ المقام مقامُ ترغيبٍ، وعليه يكونُ العصاةُ مسكوتاً عنهم، وقد يُحمل على اتِّقاء الكفر، بقرينةِ المقابلة، فيدخُلُ العصاةُ في «الذين اتَّقوا»؛ لأنَّ عاقبتَهم الجنةُ، وإن عُذِّبوا.

﴿وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ نزلت - كما قال الماورديُّ[2] - في مؤمني أهل الكتابين، كعبد الله بن سَلَام، وكعبٍ، وأضرابِهما من اليهود، وكالذين أسلموا من النصارى، كالثمانين المشهورين، وهم أربعون رجلاً بنَجْران، وثمانيةٌ باليمن، واثنان وثلاثون بالحبشة، فالمرادُ بـ «الكتاب» التوراةُ والإنجيل.

﴿يَفْرَحُونَ بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ﴾ إذ هو الكتابُ الموعود فيما أُوتوه.

﴿وَمِنَ الْأَحْزَابِ﴾ أي: من أحزابهم: وهم كَفَرَتُهم الذين تحزَّبوا على رسول الله ﷺ بالعداوة، ككعب بن الأشرف وأصحابه، والسيدِ والعاقب أُسقُفَّي نجران وأشياعهما. وأصله جمع حِزْبٍ بكسر وسكون: الطائفةُ المتحزِّبة، أي: المجتمعة لأمرٍ ما، كعداوةٍ وحربٍ وغير ذلك، وإرادةُ جماعةٍ مخصوصةٍ منه بواسطة العهد.

﴿مَن يُنكِرُ بَعْضَهُ﴾ وهو ما لا يوافقُ كتبَهم من الشرائع الحادثة إنشاءً أو نسخاً، وأما ما يوافقُ كتبَهم فلم ينكروه، وإن لم يفرحوا به.

وعن ابن عباس وابن زيد أنها نزلت في مؤمني اليهود خاصَّة، فالمراد بـ «الكتاب» التوراةُ، وبـ «الأحزاب» كَفَرَتُهم. وعن مجاهد، والحسن، وقتادة أن المراد بالموصول جميعُ أهل الكتاب؛ فإنهم كانوا يفرحون بما يوافقُ كتبَهم، فالمرادُ بـ «ما أُنزل إليك» بعضُه، وهو الموافق.

---

(١) البحر المحيط ٥/٣٩٦، وكذلك نقل الفراء في معاني القرآن ٢/٦٥ قراءة السلمي، وأسند إليه رواية عن علي رضي الله عنه بمثل هذه القراءة.

(٢) النكت والعيون ٣/١١٦، وهو أحد أقوال ثلاثة ذكرها، ولم يرجح شيئاً منها.

واعتُرض عليه بأنه يأباه مقابلةُ قوله سبحانه: ﴿وَمِنَ ٱلْأَحْزَابِ مَن يُنكِرُ بَعْضَهُۥ﴾؛ لأنَّ إنكار البعض مشتركٌ بينهم.

وأُجيب بأن المراد من الأحزاب مَنْ حظُّه إنكارُ بعضه فحسب، ولا نصيبَ له من الفرح ببعضٍ منه؛ لشدَّة بُغضه وعداوته، وأولئك يفرحون ببعضه الموافِقِ لكتبهم.

وقيل: الظاهر أنَّ المعنى أنَّ منهم من يفرح ببعضه إذا وافَقَ كتبَهم، وبعضهم لا يفرح بذلك البعض، بل يغتمُّ به وإن وافقَها، وينكر الموافقة؛ لئلا يتَّبع أحدٌ منهم شريعتَه ﷺ كما في قصَّة الرجم.

وأنت تعلم أن الجوابين ليسا بشيء، وعلى تفسير الموصول بعامَّة أهل الكتاب فسَّر البعضُ البعضَ بما لم يوافق ما حرَّفوه، وبيَّن ذلك بأنَّ منهم مَنْ يفرح بما وافَقَ، ومنهم من يُنكره؛ لعناده وشدَّة فساده، وإنكارُهم لمخالفة المحرَّف بالقول دون القلب؛ لعلمهم به، أو هو بالنسبة لمن لم يُحرِّفه، ولعل نَعْي الإنكار أوفَقُ بالمقام من نَعْي التحريف عليهم على ما لا يخفى على المتأمِّل.

وقيل: المرادُ بالموصول مطلقُ المسلمين، وبـ «الأحزاب» اليهودُ والنصارى والمجوس[1]. وأخرج ذلك ابنُ جرير[2] عن قتادة، فالمرادُ بـ «الكتاب» القرآن، ومعنى «يفرحون» استمرارُ فَرَحهم وزيادتُه. وقالت فرقة: المرادُ بـ «الأحزاب» أحزابُ الجاهلية من العرب، وقال مقاتل: هم بنو أُميَّة، وبنو المغيرة، وآلُ أبي طلحة.

﴿قُلْ﴾ صادعاً بالحقِّ غيرَ مكترثٍ بمنكِرِ بعضِ ما أُنزل إليك: ﴿إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ أي: شيئاً من الأشياء، أو لا أفعل الإشراكَ به سبحانه، والظاهرُ أن المراد قَصْرُ الأمر على عبادته تعالى خاصَّةً، وهو الذي يقتضيه كلامُ الإمام[3]، حيث قال: إنَّ «إنَّما» للحصر، ومعناه: إني ما أُمرت إلا بعبادة الله تعالى، وهو يدلُّ

(١) جاء في هامش (م) ما نصه: وهم لا ينكرون كثيراً من القصص.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٥٦.
(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٦٠.

على أنه لا تكليفَ ولا أمرَ ولا نهيَ إلا بذلك. وقيل: معناه: إنما أُمرت بعبادته تعالى وتوحيده، لا بما أنتُم عليه.

وفي «إرشاد العقل السليم»[١] أن المعنى: إلزاماً للمنكرين، وردًّا لإنكارهم إنما أُمرت... إلى آخره، والمرادُ قصر الأمر بالعبادة على الله تعالى، لا قصرُ الأمر مطلقاً على عبادته سبحانه، أي: قل لهم: إنما أُمرتُ فيما أُنزل إليَّ بعبادة الله تعالى وتوحيده، وظاهرٌ أن لا سبيل لكم إلى إنكاره؛ لإطباق جميعِ الأنبياء عليهم السلام والكتبِ على ذلك؛ لقوله تعالى: ﴿تَعَالَوْا إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾ [آل عمران: ٦٤] فما لكم تُشركون به عُزَيراً والمسيحَ عليهما السلام؟!

ولا يخفى أنَّ هذا التفسير مبنيٌّ على كون المراد من «الأحزاب» كَفَرَةُ أهل الكتابين، وهذا الكلامُ إلزامٌ لهم.

واعتُرض بأنَّ منهم مَنْ يُنكر التوحيد وإطباقَ جميع الأنبياء والكتب عليه، كالمثلِّثة من النصارى. وأُجيب بأنهم مع التثليث يزعمون التوحيد ولا يُنكرونه كما يدلُّ عليه قولهم: باسم الآب والابن وروح القُدُس إلهاً واحداً. وأنتَ تعلم أنَّ هذا مما لا يُحتاج إليه، والاعتراضُ ناشئٌ من الغفلة عن المراد.

وقد يقال: المعنى: إنما أُمرتُ بعبادة الله تعالى وعدمِ الإشراك به، وذلك أمرٌ تستحسنُه العقولُ وتَصْدح به الدلائلُ الآفاقيَّة والأنفسيَّة:

وفي كلِّ شيءٍ له آيةٌ تدلُّ على أنه واحدُ[٢]

فإنكارُه دليلُ الحماقة وشاهدُ الجهالة، لا ينبغي لعاقلٍ أن يلتفتَ إليه، ويجري هذا على سائر تفاسير «الأحزاب».

وقرأ أبو خليد عن نافع: «ولا أشركُ»[٣] بالرفع على القطع، أي: وأنا

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٥ ـ ٢٦.

(٢) البيت لأبي العتاهية، وهو في ديوانه ص١٠٤، وسلف ١/ ٢٧١.

(٣) القراءات الشاذة ص٦٧، والكشاف ٢/ ٣٦٢، وتفسير القرطبي ١٢/ ٨٣، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٧، وقد تحرف أبو خليد في القراءات الشاذة والبحر المحيط إلى: خليل. وأبو خليد: =

لا أشرك، وجُوِّز أن يكون حالاً، أي: أن أعبد الله غيرَ مشركٍ به. قيل: وهو الأولى، لخلوِّ الاستئنافِ عن دلالة الكلام، على أنَّ المأمور به تخصيصُ العبادة به تعالى، وفيه بحث.

﴿إِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله تعالى خاصَّةً على النَّهج المذكور من التوحيد، أو إلى ما أُمرت به من التوحيد ﴿أَدۡعُواْ﴾ الناسَ، لا إلى غيره، ولا إلى شيء آخر ممَّا لا يُطبق عليه الكتبُ الإلهية والأنبياء عليهم السلام، فما وجهُ إنكاركم؟ قاله في «الإرشاد» أيضاً[(١)]. والأولى عودُ الضمير إلى الله تعالى، كنظيرِه السابق، وكذا اللاحق في قوله سبحانه: ﴿وَإِلَيۡهِ﴾ أي: إلى الله تعالى وحدَه ﴿مَـَٔابِ ٣٦﴾ أي: مرجعي للجزاء، وعلى ذلك اقتصر العلَّامة البيضاويُّ[(٢)]، وكان قد زاد: ومرجعُكم، فيما تقدَّم غير بعيد. واعتُرض بأنه كان عليه أن يزيدَه هنا أيضاً، بل هذا المقامُ أنسبُ بالتعميم؛ ليدلَّ على ثبوت الحشر عموماً، وهو المرويُّ عن قتادة.

وقد جعل الإمامُ[(٣)] هذه الآية جامعةً لكلِّ ما يحتاجُ المرءُ إليه من معرفة المبدأ والمَعاد، فقوله سبحانه: «قل إنما أمرت أن أعبد الله ولا أشرك به» جامعٌ لكلِّ ما ورد التكليفُ به، وقوله تعالى: «إليه أدعو» مشيرٌ إلى نبوَّته عليه الصلاة والسلام، وقولُه جلَّ وعلا: «وإليه مآب» إشارةٌ إلى الحشر والبعث والقيامة.

وأجاب الشهابُ[(٤)] عن ذلك بقوله: إنَّ قول الزمخشريِّ[(٥)]: إليه لا إلى غيرِه مرجعي، وأنتم تقولون مثل ذلك، فلا معنى لإنكاركم، فيه بيانٌ لنكتةِ التخصيص من أنهم ينكرون حقيقةً أو حكماً، فلا حاجةَ إلى ما يقال: لا حاجةَ لذكره هنا؛ لدلالة قوله تعالى: (تِلۡكَ عُقۡبَى ٱلَّذِينَ ٱتَّقَواْۖ وَّعُقۡبَى ٱلۡكَٰفِرِينَ ٱلنَّارُ). انتهى. وهو كما ترى.

= هو عتبة بن حماد الحكمي الدمشقي البلاطي، روى القراءة عن نافع، وله عنه نسخة. طبقات القراء ١/ ٤٩٨.

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦.

(٢) تفسير البيضاوي على هامش حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٦.

(٣) تفسير الرازي ١٩/ ٦٠ ـ ٦١.

(٤) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٦.

(٥) الكشاف ٢/ ٣٦١ ـ ٣٦٣.

ولعلَّ الأظهر أن يقال: إن دلالةَ الكلام عليه هنا ليست كدلالته عليه هناك؛ إذ مساقُ الآية فيه للتخويفِ اللائق به اعتبارُه، ومساقُها هنا لأمرٍ آخرَ، والاقتصارُ على ذلك كافٍ فيه.

وأنتَ تعلمُ أنه لا مانعَ من اعتباره، ويكون معنى الآية: قل في جوابهم: إني إنَّما أَمرني الله تعالى بما هو من معالي الأمور، وإليه أدعو وقتاً فوقتاً، وإليه مرجعي ومرجعُكم، فيُثيبني على ما أنا عليه، وينتقمُ منكم على إنكاركم وتخلُّفكم عن اتِّباع دعوتي، أو فحينئذٍ يظهرُ حقِّيَّةُ جميع ما أُنزل إليَّ، ويتبيَّن فسادُ رأيكم في إنكاركم شيئاً منه، وقد يقال على عدم اعتباره نحو ما قيل فيما قبل: إنَّ المعنى: قل في مقابلة إنكارهم: إني إنما أَمرني الله تعالى بما أَمرني به، وإليه أَدعو، وإليه مرجعي فيما يعرِضُ لي في أمر الدعوة وغيرِه، فلا أُبالي بإنكاركم؛ فإنه سبحانه كافٍ مَنْ رجع إليه. ولعلَّ هذا المعنى هنا من حيث إنه فيه تأسيسٌ محضٌ أولى منه هناك.

واقتصر في «الإرشاد»[1] على جعل الكلام إلزاماً، وجعله نكتةَ أمرِه ﷺ بأن يُخاطبهم بذلك، وذكر أن قوله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلْنَٰهُ حُكْمًا عَرَبِيًّا﴾ شروعاً[2] في ردِّ إنكارهم لفروع الشرائع الواردة ابتداءً، أو بدلاً من الشرائع المنسوخة ببيان الحكمة في ذلك، وأن الضمير راجعٌ لـ «ما أنزل إليك» والإشارة إلى مصدر «أنزلناه»، أو «أنزل إليك»، أي: مثلُ ذلك الإنزال البديعِ الجامعِ لأصولٍ مجمع عليها، وفروعٍ متشعِّبةٍ إلى موافقةٍ ومخالفةٍ حسبما يقتضيه قَضيةُ الحكمةِ، أنزلناه حاكماً يحكم في القضايا والواقعات بالحق، أو يحكم به كذلك.

والتعرُّض لهذا العنوان مع أنَّ بعضَه ليس بحكم؛ لتربية وجوبِ مراعاته، وتحتُّم المحافظةِ عليه، والتعرُّض لكونه عربيًّا، أي: مترجماً بلسان العرب؛ للإشارة إلى أنَّ ذلك إحدى موادِّ المخالفة للكتب السابقة، مع أنَّ ذلك مقتضى الحكمة؛ إذ بذلك يسهُلُ فهمُه وإدراكُ إعجازه، يعني بالنسبة إلى العرب، وأما بالنسبة إلى غيرهم فلعلَّ الحكمةَ أن ذلك يكون داعياً لتعلُّم العلوم التي يتوقَّف عليها ما ذُكر.

---

(١) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٦.

(٢) في (م): شروع.

ومنهم من اقتصرَ على اشتمال الإنزال على أصول الديانات المجمَع عليها حسبما يُفيده ـ على رأيٍ ـ قولُه تعالى: «إنما أمرت أن أعبد» إلخ. وتُعقِّب بأنه يأباه التعرُّض لاتِّباع أهوائهم، وحديثُ المحوِ والإثبات، وأنه لكلِّ أجلٍ كتابٌ؛ فإن المجمَعَ عليه لا يُتصوَّر فيه الاستتباعُ والاتِّباع. وقيل: إن الإشارةَ إلى إنزال الكتب السالفة على الأنبياء عليهم السلام، والمعنى: كما أنزلنا الكتبَ على مَنْ قبلك أنزلنا هذا الكتابَ عليك؛ لأنَّ قولَه تعالى: ﴿وَالَّذِينَ ءَاتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ﴾ يتضمَّن إنزالَه تعالى ذلك، وهذا الذي أنزلناه بلسانِ العرب، كما أنَّ الكتب السالفةَ بلسان مَنْ أُنزلت عليه ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] وإلى هذا ذهب الإمامُ وأبو حيان[١]، وقال ابنُ عطية[٢]: المعنى: كما يسَّرنا هؤلاء للفرح، وهؤلاء لإنكار البعض، أنزلناه حكماً، إلخ. وليتَه ما قيل، والأبلغ الاحتمالُ الأول مما أشرنا إليه.

ونصب «حكماً» على الحال من منصوب «أنزلناه»، وإذا أُريد به حاكماً، كان هناك مجازٌ في النسبة كما لا يخفى، ونصب «عربياً» على الحال أيضاً؛ إمَّا من ضمير «أنزلناه» كالحال الأولى، فتكونُ حالاً مترادفةً، أو من المستترِ في الأولى، فتكون حالاً متداخلةً، ويصحُّ أن يكون وصفاً لـ «حكماً» الحال، أو هي موطِّئةٌ، وهي الاسمُ الجامد الواقعُ حالاً لوصفه بمشتقٍّ، وهو الحال في الحقيقة، والأول أولى؛ لأنَّ «حكماً» مقصودٌ بالحاليَّة هنا، والحال الموطِّئةُ لا تُقصد بالذَّات.

واختار الطبرسيُّ[٣] أن معنى «حكماً» حكمةً، كما في قوله تعالى: ﴿وَءَاتَيْنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا﴾[٤] [مريم: ١٢] وهو أحدُ أوجهٍ ذكرها الإمامُ[٥]، ونصبه على الحال أيضاً، فلا تغفل.

واستدلَّ المعتزلةُ بالآية على حدوثِ القرآن من وجوه: الأول: أنه تعالى وصَفَه

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٦١، والبحر المحيط ٥/ ٣٩٧.
(٢) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٦.
(٣) مجمع البيان ١٣/ ١٨٣.
(٤) في الأصل و(م): «وآتيناه الحكم والنبوة»، وليس هنالك آية بهذا السياق، وقد تابع المصنف الطبرسي في سياقه لها.
(٥) تفسير الرازي ١٩/ ٦١.

بكونه مُنْزَلاً، وذلك لا يليقُ إلا بالمحدَث. الثاني: أنه وصَفَه بكونه عربيًّا، والعربيُّ أمرٌ وضعيٌّ، وما كان كذلك كان محدَثاً. الثالث: أنها دلَّت على أنه إنَّما كان حكماً عربيًّا؛ لأنَّ الله تعالى جعلَه كذلك، والمجعولُ محدَثٌ.

وأجاب الإمامُ[1] بأن كلَّ ذلك إنما يدلُّ على أن المركَّبَ من الحروف والأصوات محدَثٌ، ولا نزاعَ فيه أي: بين المعتزلة والأشاعرة، وإلا فالحنابلةُ على ما اشتهر عنهم قائلون بقِدَم الكلامِ اللفظيِّ، وقد أسلفنا في المقدِّمات كلاماً نفيساً في مسألة الكلام، فارجع إليه، ولايهولنَّك قعاقِعُ المخالفين لسلف الأمة.

﴿وَلَئِنِ ٱتَّبَعْتَ أَهْوَآءَهُم﴾ التي يدعونَكَ إليها، كالصلاة إلى بيت المَقْدس بعد تحويل القِبلة إلى الكعبة، وكتركِ الدعوة إلى الإسلام ﴿بَعْدَ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ﴾ العظيم الشأن، الفائضِ عليك من ذلك الحُكم العربيِّ، أو العلم بمضمونه ﴿مَا لَكَ مِنَ ٱللَّهِ﴾ من جَنابه العزيزِ جلَّ شأنُه. والالتفاتُ من التكلُّم إلى الغَيبة، وإيرادُ الاسمِ الجليل؛ لتربيةِ المهابة. ﴿مِن وَلِيٍّ﴾ يلي أمرَكَ، وينصُرُك على مَنْ يبغيكَ الغوائل. ﴿وَلَا وَاقٍ ۝٣٧﴾ يَقيكَ من مصارع السُّوء. وحيث لم يستلزِمْ نفيُ الناصر على العدوِّ نفيَ الواقي من نكايته أدخَلَ في المعطوف حرفَ النفي؛ للتأكيد كقولك: ما لي دينارٌ ولا درهمٌ. أو: مالَكَ من بأسِ الله تعالى من ناصرٍ وواقٍ؛ لاتِّباعك أهواءهم بعد ما جاءك من الحقِّ.

وأمثالُ هذه القوارع إنما هي لقطعِ أطماع الكَفَرة، وتهييجِ المؤمنين على الثبات في الدِّين، لا للنبيِّ ﷺ؛ فإنه عليه الصلاة والسلام بمكانٍ لا يحتاج فيه إلى باعثٍ أو مهيِّجٍ، ومن هنا قيل: إنَّ الخطاب لغيره ﷺ.

واللامُ في «لئن» موطِّئةٌ، و«من» الثانية مزيدةٌ، و«مالك» سادٌّ مَسَدَّ جوابي الشرط والقَسَم.

﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا﴾ كثيرةً كائنةً ﴿مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ أي: نساءً وأولاداً كما جعلناها لك.

رُوي عن الكلبي أنَّ اليهود عيَّرت رسولَ الله ﷺ، وقالوا: ما نرى لهذا الرجل

---

(١) تفسير الرازي ١٩/ ٦٢.

همَّةٌ إلا النساء والنكاح، ولو كان نبيّاً كما زعم لشغلَه أمرُ النبوّة عن النساء. فنزلت ردّاً عليهم؛ حيث تضمَّنت أنَّ التزوَّج لا ينافي النبوةَ، وأن الجمعَ بينهما قد وقَعَ في رسلٍ كثيرةٍ قبلَه.

ذُكر أنه كان لسليمان عليه السلام ثلاث مئة امرأةٍ مهرية، وسبع مئة سُرِّيَّة، وأنه كان لداود عليه السلام مئة امرأة.

ولم يتعرَّض جلَّ شأنُه لردِّ قولهم: ما نرى لهذا الرجل همَّةً إلا النساء؛ للإشارة إلى أنه لا يستحقُّ جواباً؛ لظهور أنه عليه الصلاة والسلام لم يشغله أمرُ النساء عن شيءٍ ما من أمرِ النبوة.

وفي أدائه ﷺ للأمرين على أكملِ وجهٍ دليلٌ وأيُّ دليلٍ على مزيدِ كماله مَلَكِيَّةً وبشريةً، ومما يُوضح ذلك أنه ﷺ كان يجوع الأيامَ حتى يشدَّ على بطنه الشريفِ الحجرَ، ومع ذا يطوفُ على جميعِ نسائه في الليلةِ الواحدة، ولا يمنَعه ذاك عن هذا.

وفي تكثير نسائه عليه الصلاة والسلام فوائدُ جَمَّة، ولو لم يكن فيه سوى الوقوفِ على استواءِ سِرِّه وعَلَنِه لكفى، وذلك لأنَّ النساء من شأنهنَّ أن لا يحفظنَ سرّاً كيفما كان، فلو كان منه عليه الصلاة والسلام في السرِّ ما يُخالف العَلَن لوقفنَ عليه مع كثرتهنَّ، ولو كنَّ وقفنَ لأفشَيْنَه؛ عملاً بمقتضى طباع النساء، لاسيَّما الضَّرائر، ومَنْ وقف على الآثار، وأحاط خُبْراً بما رُوي عن هاتيك النساء الطاهرات علم أنهنَّ لم يتركنَ شيئاً من أحواله الخفيَّة إلا ذكروه. وناهيكَ ما رُوي أن الصحابةَ ﷺ اختلفوا في الإيلاج بدون إنزال: هل يُوجب الغُسْل أم لا؟ فسألوا عائشةَ ﷺ فقالت ـ ولا حياءَ في الدين ـ: فعَلَ ذلك رسول الله ﷺ معي فاغتسلنا جميعاً(١).

ورُوي أنهم طعنوا في نبوَّته بالتزوُّج، وبعدم الإتيان بما يقترحونَه من الآيات، فنزل ذلك.

وقوله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِۗ﴾ أي: وما صحَّ، وما استقام، ولم يكن في وُسْع رسولٍ من الرسل الذين من قبلُ أن يأتي مَنْ أرسل

---

(١) أخرجه أحمد (٢٦٢٨٩)، والترمذي (١٠٨)، والنسائي في الكبرى (١٩٤). وأصله عند مسلم (٣٤٩).

إليهم بآيةٍ ومعجزة يقترحونها عليه إلا بتيسير الله تعالى ومشيئتِهِ المبنيةِ على المصالح والحكم التي يدورُ عليها أمرُ الكائنات.

وقد يُراد بالآيةِ الآيةُ الكتابيَّةُ النازلةُ بالحكم على وفق مراد المرسَل إليهم، وهو أوفقُ بما بعد، وجُوِّز إرادةُ الأمرين باعتبار عموم المجاز، أي: الدالِّ مطلقاً، أو على استعمال اللفظ في معنييه بناءً على جوازه. والالتفاتُ لما تقدَّم، ولتحقيق مضمون الجملة بالإيماء إلى العلَّة.

﴿لِكُلِّ أَجَلٍ﴾ أي: لكلِّ وقتٍ ومدَّةٍ من الأوقات والمُدَد ﴿كِتَابٌ ﴿٣٨﴾﴾ حكمٌ معيَّن يُكتب على العباد حسبما تقتضيه الحكمةُ؛ فإنَّ الشرائعَ كلَّها لإصلاح أحوالهم في المبدأ والمَعاد، ومن قضية ذلك أن تختلفَ حسب أحوالهم المتغيِّرةِ حسب تغيُّرِ الأوقات، كاختلاف العلاج حسب اختلاف أحوالِ المرضى بحسب الأوقات. وهذا عند بعضٍ ردٌّ لما أنكروه عليه ـ عليه الصلاةُ والسلام ـ من نسخِ بعض الأحكام، كما أنَّ ما قبله ردٌّ لطعنهم بعدم الإتيان بالمعجزات المقترَحة.

﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ أي: ينسخُ ما يشاء نَسْخَه من الأحكام لما تقتضيه الحكمةُ بحسَبِ الوقت ﴿وَيُثْبِتُ﴾ بدلَه ما فيه الحكمةُ، أو يبقيه على حاله غيرَ منسوخٍ، أو يُثبت ما يشاءُ إثباتَه مطلقاً، أعمّ منهما ومن الإنشاء ابتداءً.

وقال عكرمة: يمحو بالتوبة جميعَ الذنوب، ويثبت بدلَ ذلك حسناتٍ، كما قال تعالى: ﴿إِلَّا مَن تَابَ وَءَامَنَ وَعَمِلَ عَمَلًا صَٰلِحًا فَأُوْلَٰٓئِكَ يُبَدِّلُ اللَّهُ سَيِّـَٔاتِهِمْ حَسَنَٰتٍ﴾ [الفرقان: ٧٠].

وقال ابنُ جُبير: يغفر ما يشاءُ من ذنوب عباده، ويتركُ ما يشاء فلا يغفرُه، وقال: يمحو ما يشاءُ ممَّن حان أجلُه، ويثبتُ ما يشاءُ ممَّن لم يأت أجلُه.

وقال عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه: يمحو ما يشاءُ من القرون؛ لقوله تعالى: ﴿أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا قَبْلَهُم مِّنَ الْقُرُونِ﴾ [يس: ٣١] ويثبتُ ما يشاءُ منها؛ لقوله تعالى: ﴿ثُمَّ أَنشَأْنَا مِنۢ بَعْدِهِمْ قُرُونًا ءَاخَرِينَ﴾ [المؤمنون: ٤٢].

وقال الرَّبيع: هذا في الأرواح حالةَ النومِ، يقبضُها الله تعالى إليه، فمن أراد

موتَه فجأةً أمسكَ روحَه فلم يرسلها، ومن أراد بقاءَه أرسل روحَه، بيانُه قوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَتَوَفَّى ٱلْأَنفُسَ حِينَ مَوْتِهَا﴾ الآية [الزمر:٤٢].

وعن ابن عباس والضحَّاك: يمحو من ديوان الحَفَظَة ما ليس بحسنةٍ ولا بسيئةٍ؛ لأنهم مأمورون بكَتْبِ كلِّ قولٍ وفعلٍ، ويُثبت ما هو حسنةٌ أو سيئةٌ.

وقيل: يمحو بعضَ الخلائق، ويثبت بعضاً من الأناسِيِّ وسائر الحيوانات، والنباتات، والأشجار، وصفاتها وأحوالها. وقيل: يمحو الدنيا ويُثبت الآخرة.

وقال الحسن وفرقةٌ: ذلك في آجالِ بني آدم، يكتبُ سبحانه في ليلة القدر ـ وقيل: في ليلة النِّصف من شعبان ـ آجالَ الموتى، فيمحو أناساً من ديوان الأحياء، ويُثبتهم في ديوان الأموات.

وقال السُّديُّ: يمحو القمرَ ويُثبت الشمسَ، بيانه قولُه تعالى: ﴿فَمَحَوْنَآ ءَايَةَ ٱلَّيْلِ وَجَعَلْنَآ ءَايَةَ ٱلنَّهَارِ مُبْصِرَةً﴾ [الإسراء:١٢].

وفي رواية عن ابن عباس رضي الله عنهما: يمحو الله تعالى ما يشاءُ من أمورِ عبادِه ويُثبت، إلا السعادةَ والشقاوة والآجال؛ فإنها لا محوَ فيها، ورواه عنه مرفوعاً ابنُ مردويه.

وقيل: هو عامٌّ في الرِّزق والأجل، والسعادة والشقاوة، ونُسب إلى جماعةٍ من الصحابة والتابعين، وكانوا يتضرَّعون إلى الله تعالى أن يجعلَهم سعداءَ؛ فقد أخرج ابنُ أبي شَيْبة في «المصنَّف» وغيرُه عن ابن مسعود رضي الله عنه قال: ما دعا عبدٌ قطُّ بهذه الدعوات إلا وُسِّعَ عليه في معيشته: يا ذا المنِّ ولا يُمَنُّ عليه، يا ذا الجلال والإكرام، يا ذا الطَّول [والإنعام]، لا إله إلا أنتَ، ظهرَ اللاجئين، وجارَ المستجيرين، ومَأْمَنَ الخائفين، إن كنتَ كتبتني عندك في أمِّ الكتاب شقيّاً فامْحُ عنِّي اسمَ الشقاوة، وأثبتني عندك سعيداً، وإن كنتَ كتبتَني عندك في أمِّ الكتاب محروماً مقتَّراً عليَّ رزقي، فامْحُ حِرْماني، ويسِّر رزقي، وأثبتني عندك سعيداً موفَّقاً للخير؛ فإنك تقولُ في كتابك الذي أنزلتَ: «يمحو الله ما يشاء ويثبت وعنده أم الكتاب»[1].

---

(١) المصنف (٢٩٥٢١)، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦ ونسبه له ولابن أبي الدنيا في الدعاء، وما بين حاصرتين من المصادر.

وأخرج عَبْد بنُ حُمَيد وغيرُه عن عمر رضي الله عنه أنه قال وهو يطوفُ بالبيت: اللهمَّ إن كنتَ كتبتَ عليَّ شقوةً أو ذنباً فامحُه، واجعله سعادةً ومغفرةً؛ فإنك تمحو ما تشاءُ وتثبتُ، وعندكَ أمُّ الكتاب[1].

وأخرج ابنُ جرير[2] عن شَقيقٍ أبي وائلٍ أنه كان يُكثر الدعاءَ بهذه الدعوات: اللهمَّ إن كنتَ كتبتَنا أشقياءَ فامحُنا، واكتبنا سعداءَ، وان كنتَ كتبتنا سعداء فأثبتنا؛ فإنك تمحو ما تشاءُ وتُثبت.

وأخرج ابنُ سَعْدٍ وغيرُه عن الكلبيِّ أنه قال: يمحو الله تعالى من الرِّزق ويزيدُ فيه، ويمحو من الأجل ويزيد فيه، فقيل له: مَنْ حدَّثك بهذا؟ فقال: أبو صالحٍ عن جابر بن عبد الله بن رئاب الأنصاريِّ عن النبيِّ ﷺ[3].

وأبو حيَّان[4] يقول: إنْ صحَّ شيء من ذلك ينبغي تأويلُه، فمن المعلوم أنَّ السعادةَ والشقاوة والرزقَ والأجلَ لا يتغيَّر شيءٌ منها.

وإلى التعميم ذهب شيخُ الإسلام[5]، قال بعد نقل كثيرٍ من الأقوال: والأنسبُ تعميمُ كلٍّ من المحوِ والإثبات ليشمَلَ الكلَّ، ويدخلُ في ذلك موادُّ الإنكار دخولاً أوليًّا.

وما أخرجه ابنُ جريرٍ[6] عن كعبٍ من أنه قال لعمر رضي الله عنه: يا أميرَ المؤمنين، لولا آيةٌ في كتاب الله تعالى لأُنبِّئنَّك بما هو كائنٌ إلى يوم القيامة. قال: وما هي؟ قال: قولُه تعالى: ﴿يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ﴾ الآية = يُشعر بذلك.

وأنتَ تعلم أنَّ المحوَ والإثباتَ إذا كان بالنسبة إلى ما في أيدي الملائكة ونحوه، فلا فرقَ بين السعادة والشقاوة، والرزقِ والأجل، وبين غيرها في أنَّ كُلًّا

---

(١) وكذلك أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٦٣، وزاد السيوطي نسبته في الدر المنثور ٤/ ٦٦ إلى ابن المنذر.
(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٣.
(٣) الطبقات الكبرى ٣/ ٥٣١، وأخرجها مطولة الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٦٥ ـ ٥٦٦.
(٤) البحر المحيط ٥/ ٣٩٨.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٧.
(٦) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٥.

يقبَلُ المحوَ والإثبات، وإن كانا بالنسبة إلى ما في العلم فلا فرقَ أيضاً بين تلك الأمور وبين غيرها في أن كلًّا لا يقبَلُ ذلك؛ لأنَّ العلم إنما تعلَّق بها على ما هي عليه في نفس الأمر، وإلا لكان جهلاً، وما في نفس الأمر مما لا يُتصوَّر فيه التغيُّر والتبدُّل، وكيف يُتصوَّر تغيُّر زوجية الأربعة مثلاً، وانقلابُها إلى الفرديَّة مع بقاء الأربعة أربعةً، هذا ممَّا لا يكون أصلاً، ولا أظنُّك في مِرْيةٍ من ذلك، ولا يأبى هذا عمومُ الأدلَّة الدالَّة على أنه ما شاء الله تعالى كان؛ لأنَّ المشيئةَ تابعة للعلم، والعلمُ بالشيء تابعٌ لما عليه الشيء في نفس الأمر، فهو سبحانه لا يشاءُ إلا ما عليه الشيءُ في نفس الأمر.

قيل: ويُشير إلى أن ما في العلم لا يتغيَّر قولُه سبحانه: ﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ ۝٣٩﴾ بناءً على أن «أمّ الكتاب» هو العلم؛ لأنَّ جميع ما يُكتب في صُحُف الملائكة وغيرِها لا يقعُ حيثُما يقعُ إلا موافقاً لما ثبَتَ فيه، فهو أمٌّ لذلك، أي: أصلٌ له، فكأنه قيل: يمحو ما يشاءُ محوَه، ويُثبت ما يشاءُ إثباتَه مما سطر في الكتب، وثابتٌ عنده العلم الأزليُّ الذي لا يكون شيءٌ إلا على وفق ما فيه. وتفسيرُ «أمّ الكتاب» بعلم الله تعالى ممَّا رواه عبدُ الرزَّاق، وابنُ جرير[1] عن كعبٍ رضي الله عنه، والمشهورُ أنها اللوحُ المحفوظ، قالوا: وهو أصلُ الكتب؛ إذ ما من شيء من الذاهب والثابت إلا وهو مكتوبٌ فيه كما هو، والظاهرُ أن المراد الذاهبُ والثابتُ ممَّا يتعلَّق بالدنيا[2]، لا ممَّا يتعلَّق بها وبالآخرة أيضاً؛ لقيام الدليلِ العقليِّ على تَناهي الإبعاد مطلقاً، والنقليِّ على تَناهي اللوحِ بخصوصه؛ فقد جاء أنه من دُرَّةٍ بيضاءَ، له دُفَّتان من ياقوت، طولُه مسيرةُ خمس مئة عام[3]، وامتناعُ ظرفيَّة المُتَناهي لغير المُتَناهي ضروريٌّ، ولعلَّ من يقولُ بعموم الذاهب والثابت يلتزمُ القولَ بالإجمال حيث يتعذَّر التفصيل.

وقد ذهب بعضُهم إلى تفسير «أمّ الكتاب» بما هو المشهور، والتزمَ القولَ بأن ما فيه لا يتغيَّرُ، وإنما التغيُّر لما في الكتب غيره، وهذا قائلٌ بعدم تغيُّر ما في العلم؛ لما علمت.

---

(١) تفسير عبد الرزاق ١/ ٣٣٨، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٧٢.

(٢) جاء في هامش (م) ما نصه: وفي الأخبار ما يؤيد ذلك. اهـ منه.

(٣) أخرجه الطبري في التفسير ١٣/ ٥٧٠ عن ابن عباس رضي الله عنهما.

ورأيتُ في نسخةٍ لبعض الأفاضل كانت عندي، وفُقدت في حادثة بغداد، أَلَّفت في هذه المسألة، وفيها أنه ما من شيء إلا ويمكنُ تغييرُه وتبديلُه، حتى القضاءُ الأزلي، واستدلَّ لذلك بأمورٍ منها: أنه قد صحَّ من دعائه ﷺ في القنوت: «وقني شرَّ ما قضيتَ»[١]، وفيه طلبُ الحِفْظ من شرِّ القضاء الأزليِّ، ولو لم يمكن تغييرُه ما صحَّ طلبُ الحفظ منه.

ومنها ما صحَّ في حديث التراويح من عُذْره ﷺ عن الخروج إليها، وقد اجتمع الناس ينتظرونه؛ لمزيد رغبتهم فيها؛ بقوله: «خشيتُ أن تُفرض عليكم فتعجَزوا عنها»[٢]، فإنه لا معنى لهذه الخشيةِ لو كان القضاءُ الأزليُّ لا يقبل التغيير؛ فإنه إن كان قد سبَقَ القضاءُ بأنها ستُفرض فلابدَّ أن تُفرض، وإن سبق القضاءُ بأنها لا تُفرض فمحالٌ أن تُفرض على ذلك الفَرض، على أنه قد جاء في حديث فرضِ الصلاة ليلةَ المعراج بعد ما هو ظاهرٌ في سَبْق القضاء بأنها خمسُ صلوات مفروضةٍ لا غير، فما معنى الخشية بعد العلم بذلك لولا العلمُ بإمكان التغيير والتبديل.

ومنها ما صحَّ أنه ﷺ كان يضطرب حالُه الشريفُ ليلةَ الهواء الشديد حتى إنه لا ينام، وكان يقول في ذلك: «أخشى أن تقوم الساعةُ»[٣]؛ فإنه لا معنى لهذه الخشية أيضاً مع إخبار الله تعالى أن بين يديها ما لم يُوجد إذ ذاك، كظهور المهديِّ، وخروج الدجَّال، ونزولِ عيسى عليه السلام، وخروجِ يأجوج ومأجوج، ودابةِ الأرض، وطلوع الشمس من مغربها، وغير ذلك مما يستدعي تحقُّقُه زماناً طويلاً، فلو لم يكن عليه الصلاةُ والسلام يعلم أن القضاء يمكنُ تغييرُه، وأنَّ ما قضى من أشراطها يمكنُ تبديلُه، ما خشي ﷺ من ذلك.

ومنها أن المبشَّرين بالجنة كانوا من أشدِّ الناس خوفاً من النار، حتى إن منهم من كان يقول: ليت أمِّي لم تلدني، وكان عمر رضي الله عنه يقول: لو نادى منادٍ: كلُّ

---

(١) أخرجه أحمد (١٧١٨)، وأبو داود (١٤٢٥)، والترمذي (٤٦٤)، والنسائي في المجتبى ٣/ ٢٤٨، وابن ماجه (١١٧٨) من حديث الحسن بن علي رضي الله عنهما.

(٢) أخرجه البخاري (٧٢٩)، ومسلم (٧٦١) عن عائشة رضي الله عنها، وسلف ٨/ ٧٩.

(٣) لم نقف عليه بهذا اللفظ، وينظر ما سلف ٨/ ٧٨.

الناس في الجنة إلا واحداً، لظننتُ أنّي ذلك الواحد، وهذا مما لا معنى له مع إخبار الصادق وتبشيرِه له بالجنة، والعلمِ بأنَّ القضاء لا يتغيَّر.

ومنها أنه لولا إمكانُ التغيير للغا الدعاءُ؛ إذ المدعو به إمَّا أن يكون قد سبَقَ القضاءُ بكونه، فلا بدَّ أن يكون، وإلا فمحالٌ أن يكون، وطلبُ ما لا بدَّ أن يكون، أو محالٌ أن يكون لغوٌ، مع أنه قد ورد الأمرُ به، والقولُ بأنه لمجرَّد إظهارِ العبوديَّة والافتقارِ إلى الله تعالى، وكفى بذلك فائدةً = يأباه ظاهرُ قوله تعالى: ﴿ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾ [غافر: ٦٠]. وأيضاً أخرج الحاكم وصحَّحه عن ابن عباس قال: لا ينفع الحَذَر من القدر، ولكنَّ الله تعالى يمحو بالدعاء ما يشاءُ من القدر(١). وأخرج ابنُ مردويه وابنُ عساكر عن عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهه أنه سأل رسولَ الله ﷺ عن قوله تعالى: (يَمْحُوا اللَّهُ مَا يَشَاءُ) الآية، فقال له عليه الصلاة والسلام: «لأُقرَّنَّ عينَك بتفسيرها، ولأُقرَّنَّ عينَ أُمتي بعدي بتفسيرها: الصدقةُ على وجهها، وبرُّ الوالدين، واصطناعُ المعروف، محوِّلُ الشقاءِ سعادةً، ويزيدُ في العمر، ويقي مصارعَ السُّوء»(٢). وهذا لا يكاد يُعقَلُ على تقدير أنَّ القضاء لا يتغيَّر. وفي الأخبار والآثار مما هو ظاهرٌ في إمكان التغيُّر ما لا يُحصى كثرةً، ولعلَّ من ذلك الدعاءُ المارُّ عن ابن مسعود، ثم إن القضاءَ المعلَّقَ يرجع في المآل إلى القضاء المبرَم عند مثبته، فلا يفيده التعلُّق بذلك في دفع ما يَرِدُ عليه، ودفعِ ما يَرِدُ على القول بالتغيُّر من أنه يلزم منه التغيُّر في ذاته تعالى؛ لما أنه ينجرُّ إلى تغيُّر العلم، وهو يوجب التغيُّر في ذاته تعالى من صفةٍ إلى أخرى، أو يلزمُ من ذلك الجهل، وهذا مأخوذٌ من الشبهة التي ذكرها جمهورُ الفلاسفة في نفي علم الله تعالى بالجزئيات المتغيِّرة؛ فإنهم قالوا: إنه تعالى إذا علم مثلاً أن زيداً في الدار الآن، ثم خرج عنها؛ فإما أن يزول ذلك العلمُ ولا يعلمَ سبحانه أنه في الدار، أو يبقى ذلك العلم بحاله، والأولُ يوجبُ التغيُّر في ذاته سبحانه، والثاني يُوجب الجهلَ، وكلاهما نقصٌ يجب تنزيهُ الله تعالى عنه بما دفعوا به تلك الشُّبهة، وهو ما ذُكر في «المواقف» و«شرحه»(٣) من

(١) المستدرك ٢/ ٣٨٠.

(٢) لم نقف عليه في تاريخ دمشق، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٦، وفيه: يحول، بدل: محول.

(٣) المواقف مع شرح الجرجاني ٨/ ٦٨ وما بعدها.

منع لزوم التغيُّر فيه تعالى، بل التغيُّر إنما هو في الإضافات؛ لأن العلم عندنا إضافةٌ مخصوصة، وتعلُّق بين العالم والمعلوم، أو صفةٌ حقيقية ذاتُ إضافة، فعلى الأول يتغيَّر نفسُ العلم، وعلى الثاني يتغيَّر إضافاتُه فقط، وعلى التقديرين لا يلزمُ تغيُّرٌ في صفةٍ موجودة بل في مفهوم اعتباريٍّ، وهو جائز.

وأجاب كثيرٌ من الأشاعرة والمعتزلة بأنَّ العلمَ بأن الشيء وُجد، والعلم بأنه سيوجد واحدٌ؛ فإنَّ مَنْ علم أن زيداً سيدخلُ البلدَ غداً فعند حصول الغد يعلم بهذا العلم بأنَّه دخل البلدَ الآن إذا كان علمُه هذا مستمرًّا بلا غفلةٍ مزيلةٍ له، وإنما يحتاج أحدُنا إلى علم آخر متجدِّد يعلم به أنه دخل الآن؛ لطَرَيان الغفلة عن الأول، والباري تعالى يمتنعُ عليه الغفلةُ، فكان علمُه سبحانه بأنه وُجِدَ عينُ علمه بأنه سيوجد، فلا يلزم من تغيُّرِ المعلوم تغيُّر في العلم، ونهايةُ كلامه في هذا المقام أنه يجوز أن يتغيَّر ما في علم الله تعالى، وإلا لتعيَّن عليه سبحانه الفعلُ أو التركُ، وفيه من الحَجْر عليه جلَّ جلالُه ما لا يخفى، ولا يلزمُ من ذلك التغيُّر سوى التغيُّر في التعلُّقات وهو غيرُ ضارٍّ.

واعتُرض بأنه على هذا القول لا يبقى وثوقٌ بشيء من الأخبار الغيبية، كالحشر والنشر، وكذا لا يبقى وثوقٌ بالإخبار بأنه ﷺ خاتمُ النبيين؛ لجواز أن يكون الله تعالى قد علم ذلك حين أخبر، ثم تعلَّق علمُه بخلافه، لكنه سبحانه لم يُخبر، ولا نقص في الإخبار الأول؛ لأنه إخبارٌ عمَّا كان متعلَّق العلم إذ ذاك، وأيضاً يلزمُ من ذلك نفيُ نفس الأمر، أو نفيُ كون تعلُّق العلم على وفقه، وكلا النفيين كما ترى.

بقي الجوابُ عما تمسَّك به، وهو عن بعض ظاهرٌ، وعن بعض يحتاج إلى تأمُّل، فتأمَّل.

واستدلَّ بالآية بعضُ الشيعة القائلين بجواز البَدَاء على الله سبحانه، وفيه ما فيه.

هذا، ويخطُر لي في الآية معنًى لم أرَ مَنْ ذكره: وهو أن يُراد بقوله سبحانه: «يمحو اللهُ ما يشاءُ ويُثبِت» ما ذكرناه أولاً قبل حكاية الأقوال، وهو مما رواه

البيهقيُّ في «المدخل» وغيره عن ابن عباس[1]، وابنُ جريرٍ عن قتادة[2]، ويُخصَّص ذلك بالأحكام الفرعيَّة، ويُراد بـ «أمّ الكتاب» الأحكام الأصليَّة؛ فإنها ممَّا لا يقبل النسخَ، وهي أصل لكلِّ كتاب باعتبار أن الأحكامَ الفرعيَّة التي فيه إنما تصحُّ ممن أتى بها، لكن لا يساعد على هذا المأثورُ عن السلف. نعم هو مناسب للمقام كما لا يخفى، وزعم الضحَّاك والفرَّاء[3] أن في الآية قلباً، والأصل: لكلِّ كتاب أَجَل. وتُعقِّب بأنه لا يجوزُ ادِّعاء القلب إلا في ضرورة الشعر، على أنه لا داعي إليه هنا، بل قد يُدَّعى فسادُ المعنى عليه، وأيّاً ما كان فـ «أل» في «الكتاب» للجنس، فهو شامل للكثير، ولهذا فسَّره غيرُ واحد بالجمع.

وقرأ نافعٌ وابنُ عامر: «ويثبِّت» بالتشديد[4].

﴿وَإِمَّا نُرِيَنَّكَ﴾ أصله: إن نريك، و«ما» مزيدة لتأكيد معنى الشرط، ومن ثَمَّ أُلحقت النونُ بالفعل، قال ابن عطية[5]: ولو كانت «إن» وحدَها لم يجز إلحاقُ النون، وهو مخالف لظاهر كلام سيبويه، قال ابن خروف: أجاز سيبويه الإتيان بـ «ما» وعدم الإتيان بها، والإتيان بالنون مع «ما» وعدم الإتيان بها.

والإراءة هنا بصريَّةٌ، والكافُ مفعول أوَّل، وقولُه سبحانه: ﴿بَعْضَ ٱلَّذِى نَعِدُهُمْ﴾ مفعولٌ ثانٍ، والمرادُ: بعض الذي وعدناهم من إنزالِ العذاب عليهم، والعدولُ إلى صيغة المضارع لحكايةِ الحال الماضية، أو: نعدُهم وعداً متجدِّداً حسب ما تقتضيه الحكمةُ من إنذارٍ عَقِيب إنذار. وفي إيراد البعض رمزٌ - على ما قيل - إلى إراءة بعض الموعود.

﴿أَوْ نَتَوَفَّيَنَّكَ﴾ قبل ذلك ﴿فَإِنَّمَا عَلَيْكَ ٱلْبَلَٰغُ﴾ أي: تبليغُ أحكام ما أنزلنا عليك، وما تضمَّنه من الوعد والوعيد، لا تحقيقُ مضمون الوعيد الذي تضمَّنه ذلك

---

(١) أخرجه الطبري في تفسيره ١٣/ ٥٦٦، وليس في المطبوع من المدخل للبيهقي، وقد عزاه له السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٧.

(٢) تفسير الطبري ١٣/ ٥٦٧.

(٣) معاني القرآن ٢/ ٦٥.

(٤) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٨.

فالمقصورُ عليه «البلاغ»، ولهذا قدّم الخبر، وهذا الحصرُ مستفاد من «إنما» لا من التقديم، وإلا لانعكس المعنى.

وقوله تعالى: ﴿وَعَلَيْنَا الْحِسَابُ ۝﴾ الظاهر أنه معطوف على ما في حيِّز «إنما» فيصيرُ المعنى: إنما علينا محاسبةُ أعمالهم السيئة، والمؤاخذة بها، دون جَبْرِهم على اتِّباعك، أو إنزال ما اقترحوه عليك من الآيات.

واعتبر الزمخشريُّ(١) عطفَه على جملة «إنما عليك البلاغ»، فيصيرُ المعنى: وعلينا لا عليكَ محاسبةُ أعمالهم. قيل: وهو الظاهرُ؛ ترجيحاً للمنطوق على المفهوم إذا اجتمع دليلا حصرٍ.

وحاصلُ معنى الآية كيفما دارت الحال: أريناكَ بعضَ ما وعدناهم من العذاب الدنيويِّ أو لم نُرِكَهُ، فعلينا ذلك، وما عليك إلا التبليغُ، فلا تهتمَّ بما وراء ذلك، فنحنُ نكفيكه ونُتمُّ ما وعدناك به من الظَّفَر، ولا يُضْجِرك تأخُّرُه؛ فإنَّ ذلك لما نعلم من المصالح الخفيَّة. وفي «البحر»(٢) عن الحوفي أنه تقدَّم في الآية شرطان: «نرينَّك»، و«نتوفينَّك»؛ لأن المعطوفَ على الشرط شرطٌ. وقوله تعالى: «فإنَّما عليك البلاغ» لا يصلحُ أن يكون جواباً للشرط الأول، ولا للشرطِ الثاني؛ لأنه لا يترتَّب على شيء منهما، وهو ظاهرٌ، فيحتاج إلى تأويل، وهو أن يقدَّر لكلِّ شرطٍ منهما ما يناسب أن يكون جزاءً مترتِّباً عليه، فيقال والله تعالى أعلم: وإما نُرينَّك بعضَ الذي نعدُهم، فذلك شافيك من أعدائك، ودليلُ صدقك، وإمَّا نتوفينَّك قبل حلوله بهم فلا لومَ عليك ولا عتبَ، ويكونُ قوله تعالى: «فإنما» إلخ دليلاً عليهما، والواقعُ من الشرطين هو الأول كما في بدر.

ثم إنه سبحانه طيَّبَ نفسَه عليه الصلاة والسلام بطلوع تباشير الظَّفَر، فقال جلَّ شأنه: ﴿أَوَلَمْ يَرَوْا﴾ إلخ، والاستفهامُ للإنكار، والواو للعطف على مقدَّر يقتضيه المقام، أي: أأنكروا نزولَ ما وعدناهم، أو: أشكُّوا، أو: ألم ينظروا في ذلك ولم يروا ﴿أَنَّا نَأْتِي الْأَرْضَ﴾ أي: أرضَ الكَفَرة ﴿نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ من جوانبها؛ بأن

---

(١) الكشاف ٢/٣٦٣.

(٢) البحر المحيط ٥/٣٩٩.

نفتَحَها شيئاً فشيئاً ونُلحِقَها بدار الإسلام، ونُذهِبَ منها أهلَها بالقتل والأسرِ والإجلاء[1]، أليس هذا مقدِّمة لذاك؟

ومثل هذه الآية قولُه تعالى: ﴿أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّا نَأْتِي ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَآ أَفَهُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ﴾ [الأنبياء: ٤٤] ورُوي ذلك عن ابن عباس، والحسن، والضحاك، وعطية، والسدِّي، وغيرهم. ورُوي عن ابن عباس أيضاً، وأخرجه الحاكم عنه وصحَّحه[2]، أن انتقاصَ الأرض موتُ أشرافها وكُبرائها، وذهابُ العلماء منها. وفي رواية عن أبي هريرة يرفعُه إلى رسول الله ﷺ الاقتصارُ على الأخير[3]، ورُوي أيضاً عن مجاهد، فالمرادُ من الأرض جنسُها، والأطرافُ ـ كما قيل ـ بمعنى الأشراف، ومجيءُ ذلك بهذا المعنى محكيٌّ عن ثعلب، واستشهد له الواحديُّ بقول الفرزدق:

واسأل بنا وبكم إذا وَرَدَتْ مِنىً ... أطرافُ كلِّ قبيلةٍ مَنْ يَمنع[4]

وقريبٌ من ذلك قولُ ابن الأعرابي: الطَّرَفُ والطَّرْف: الرجلُ الكريم، وقولُ بعضهم: طرفُ كلِّ شيء خيارُه، وجعلوا من هذا قولَ عليٍّ كرَّم الله تعالى وجهَه: العلوم أوديةٌ، في أيِّ وادٍ أخذتَ منها خسرتَ، فخذوا من كلِّ شيء طرفاً. قال ابن عطية[5]: أراد كرَّم الله تعالى وجهه خياراً، وأنتَ تعلمُ أن الأظهر: جانباً، وادَّعى الواحديُّ أن تفسير الآية بما تقدَّم هو اللائقُ. وتعقَّبه الإمام[6] بأنه يمكن القولُ بلياقة الثاني، وتقريرُ الآية عليه: أوَلم يروا أنَّا نُحْدِث في الدنيا من الاختلافات خراباً بعد عمارة، وموتاً بعد حياة، وذلّاً بعد عِزٍّ، ونَقْصاً بعد كمال؟وهذه تغييرات مدرَكَة بالحسِّ، فما الذي يُؤمنهم أن يقلبَ الله تعالى الأمرَ عنهم، فيجعلهم أذلَّة بعد أن كانوا أعزَّة، ومقهورين بعد أن كانوا قاهرين؟ وهو كما ترى، وقيل: نقصُها:

---

(١) في الأصل: الجلاء، والمثبت من (م).
(٢) المستدرك ٢/ ٣٥١.
(٣) أخرجه ابن مردويه فيما ذكره السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٨.
(٤) البيت في ديوانه ١/ ٤٢٤، وجاء فيه: من يسمع، بدل: من يمنع.
(٥) المحرر الوجيز ٣/ ٣١٩.
(٦) تفسير الرازي ١٩/ ٦٧.

هلاكُ مَنْ هلك من الأمم قبل قريش، وخراب أرضهم، أي: أَوَلم يروا إهلاكَ مَنْ قبلهم، وخرابَ ديارهم؟ فكيف يأمنون من حلولِ ذلك بهم؟ والأولُ أيضاً أوفق بالمقام منه، ولا يخفى ما في التعبير بالإتيان المُؤْذِنِ بعظيم الاستيلاء من الفخامة، كما في قوله تعالى: ﴿وَقَدِمْنَآ إِلَىٰ مَا عَمِلُوا۟ مِنْ عَمَلٍ فَجَعَلْنَٰهُ هَبَآءً مَّنثُورًا﴾ [الفرقان: ٢٣] وفي «الحواشي الشِّهابية»[١] أن المعنى: يأتيها أمرُنا وعذابُنا، وجملةُ «ننقصها» في موضع الحال من فاعل «نأتي»، أو من مفعوله.

وقرأ الضحَّاك: «ننقِّصُها» مثقَّلاً، من نقَّص، عدَّاه بالتضعيف من نقَصَ اللازم على ما في «البحر»[٢].

﴿وَٱللَّهُ يَحْكُمُ﴾ ما يشاءُ كما يشاء، وقد حكم لك ولأتباعكَ بالعزِّ والإقبال، وعلى أعدائكَ ومخالفيك بالقهر والإذلال، حسبما يشاهدُه ذوو الأبصارِ من المخائل والآثار، وفي الالتفاتِ من التكلُّم إلى الغَيبة، وبناءِ الحكم على الاسم الجليل من الدَّلالة على الفخامة، وتربيةِ المهابة، وتحقيق مضمون الخبر بالإشارة إلى العلَّة ما لا يخفى، وهي جملةٌ اعتراضيَّةٌ جيءَ بها لتأكيد فحوى ما تقدَّمَها.

وقوله سبحانه: ﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ اعتراضٌ أيضاً لبيان علوِّ شأن حكمِه جلَّ وعلا، وقيل: هو نصبٌ على الحال، كأنه قيل: واللهُ تعالى يحكم نافذاً حكمُه، كما تقول: جاءني زيدٌ لا عمامةَ على رأسه ولا قلنسوة، أي: حاسراً، وإليه ذهب الزمخشريُّ[٣]. قيل: وإنما أوَّل الجملةَ الاسمية بالمفرد لأنَّ تجرُّدَها من الواو إذا وقعت حالاً غيرُ فصيحٍ عنده، ولا يخفى عليك أن جعلَها معترضةً أولى وأعلى، والمعقِّبُ: من يكُرُّ على الشيء فيبطلُه، وحقيقتُه: الذي يعقب الشيءَ بالإبطال، ومنه يسمَّى الذي يطلب حقّاً من آخر معقِّباً؛ لأنه يعقب غريمَه ويتبعه للتقاضي، قال لَبِيد:

حتى تَهَجَّرَ بالرَّواح وهاجَها … طلبُ المعقِّبِ حقَّه المظلومُ[٤]

---

(١) حاشية الشهاب ٥/ ٢٤٧.

(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٠، ونسبها ابن خالويه ص٦٧ إلى عطية العوفي.

(٣) الكشاف ٢/ ٣٦٤.

(٤) ديوان لبيد ص١٢٨.

وقد يُسمَّى الماطلُ معقِّباً؛ لأنه يُعقب كلَّ طلبٍ بردٍّ، وعن أبي عليٍّ: عقَّبني حقِّي، أي: مطلني، ويقال للبحث عن الشيء: تعقُّب، وجوَّز الراغبُ[١] أن يُراد هذا المعنى هنا على أن يكون الكلامُ نهياً للناس أن يخوضوا في البحث عن حُكْمه وحِكْمته إذا خفيت عليهم، ويكونُ ذلك من نحو النَّهي عن الخوض في سرِّ القَدَر.

﴿وَهُوَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ۝٤١﴾ فعمَّا قليلٍ يُحاسبُهم ويُجازيهم في الآخرة بعد ما عذَّبهم بالقتل والأسر والإجلاء في الدنيا حسبما يرى، وكأنه قيل: لا تستبطئ عقابَهم؛ فإنه آتٍ لا محالةَ، وكلُّ آتٍ قريبٌ. وقال ابنُ عباس: المعنى: سريعُ الانتقام.

﴿وَقَدْ مَكَرَ﴾ الكفَّار ﴿الَّذِينَ﴾ خَلَوا ﴿مِن قَبْلِهِمْ﴾ من قَبْل كفَّار مكة بالأنبياء وبالمؤمنين كما فعل هؤلاء. وهذا تسليةٌ لرسول الله ﷺ بأنه لا عبرةَ بمَكْرِهم ولا تأثير، بل لا وجودَ له في الحقيقة، ولم يُصرِّح سبحانه بذلك اكتفاءً بدلالة القَصْر المستفاد من تعليله، أعني قوله تعالى: ﴿فَلِلَّهِ الْمَكْرُ﴾ أي: جنسُ المَكْر ﴿جَمِيعًا﴾ لا وجودَ لمكرهم أصلاً؛ إذ هو عبارةٌ عن إيصال المكروه إلى الغير من حيث لا يشعرُ به.

وحيث كان جميعُ ما يأتون ويَذَرون بعلمِهِ وقدرتِهِ سبحانه، وإنما لهم مجرَّدُ الكسبِ من غير فعلٍ، ولا تأثير حسبما بيَّنه قولُه تعالى: ﴿يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ﴾ ومن قضيَّته عصمةُ أوليائه سبحانه، وعقابُ الماكرين بهم توفيةً لكلِّ نفسٍ جزاءَ ما كسبت = ظهَرَ أنْ ليس لمَكْرِهم بالنسبة إلى مَنْ مكروا بهم عينٌ ولا أثَر، وأن المكر كلَّه لله تعالى، حيث يُؤاخذهم بما كَسَبوا من فنونِ المعاصي التي من جملتها مكرُهم من حيث لا يحتسبون. كذا قاله شيخُ الإسلام[٢]، وقد تكلَّف قدِّس سرُّه في ذلك ما تكلَّف، وحَمَلَ الكسبَ على ما هو الشائعُ عند الأشاعرة، واللهُ تعالى لا يفرِّقُ بينه وبين الفعل، وكذا رسولُه ﷺ، والصحابةُ ﷺ، والتابعون، واللغويُّون.

---

(١) مفردات ألفاظ القرآن: (عقب).
(٢) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٨.

وقيل: وجهُ الحصر أنه لا يُعتدُّ بمَكْرِ غيرِه سبحانه؛ لأنه سبحانه هو القادرُ بالذات على إصابة المكروه المقصودِ منه، وغيرُه تعالى إنْ قَدَر على ذلك فبتمكينه تعالى وإذنه، فالكلُّ راجعٌ إليه جلَّ وعلا.

وفي «الكشاف»(١) أن قولَه تعالى: «يعلم ما تكسب كل نفس» إلخ، تفسيرٌ لقوله سبحانه: «فللَّه المكر جميعاً»؛ لأنَّ مَنْ علم ما تكسبُ كلُّ نفسٍ، وأعدَّ لها جزاءها، فهو له المكرُ؛ لأنه يأتيهم من حيث لا يعلمون وهم في غفلةٍ مما يُراد بهم.

وقيل: الكلامُ على حذف مضافٍ، أي: فللَّه جزاءُ المَكْر. وجوّز في «أل» أن تكون للعهد، أي: له تعالى المكرُ الذي باشروه جميعاً لا لهم، على معنى أن ذلك ليس مكراً منهم بالأنبياء، بل هو بعينه مكرٌ من الله تعالى بهم وهم لا يشعرون، حيث لا يَحيقُ المكرُ السيِّئ إلا بأهله.

﴿وَسَيَعْلَمُ الكَافِرُ﴾ حين يأتيه(٢) العذابُ ﴿لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ أي: العاقبةُ الحميدةُ من الفريقين، وإن جُهِلَ ذلك قبلُ، وقيل: السينُ لتأكيد وقوع ذلك وعلمِهِ به حينئذٍ، والمرادُ من «الكافر» الجنسُ، فيشمل سائر الكفار، وهذه قراءةُ الحِرميَّين وأبي عمرو، وقرأ باقي السبعة: «وسيعلمُ الكفَّار» بصيغةِ جمع التكسير(٣).

وقرأ ابنُ مسعود: «الكافرون» بصيغة جمع السلامة، وقرأ أُبَيٌّ: «الذين كفروا»، وقُرئ: «الكُفْرُ»، أي: أهله، وقرأ جَناح بن حُبَيش: «وسيُعلم» بالبناء للمفعول من أُعلم، أي: سيُخبر(٤).

واللامُ للنفع، وجُوِّز أن تكون للملك على معنى: سيعلم الكَفَرة من يملك الدنيا آخراً، وفسر عطاءٌ «الكافر» بالمستهزئين، وهم خمسة، والمُقْسِمين، وهم

---

(١) ٢/ ٣٦٤.

(٢) في (م): ﴿وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ﴾ حين يأتيهم.

(٣) التيسير ص١٣٤، والنشر ٢/ ٢٩٨.

(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨١، والقراءات الشاذة ص٦٧، والمحرر الوجيز ٣/ ٣١٩، والبحر المحيط ٥/ ٤٠١، وهي مُفسرة عند بعضهم. وقد تحرف لفظ حبيش إلى حبيس، في الأصل و(م).

ثمانية وعشرون، وقال ابنُ عباس: يريدُ بـ «الكافر» أبا جهلٍ. وما تقدَّم هو الظاهرُ، ولعلَّ ما ذُكر من باب التمثيل.

﴿وَيَقُولُ الَّذِينَ كَفَرُوا لَسْتَ مُرْسَلًا﴾ قيل: قاله رؤساءُ اليهود. وأخرج ابنُ مَرْدويه عن ابن عباس قال: قدم على رسول الله ﷺ أُسقُفٌ من اليمن، فقال له عليه الصلاة والسلام: «هل تجدُني في الإنجيل رسولاً؟» قال: لا. فأنزل الله تعالى الآيةَ[1]. فالمرادُ من «الذين كفروا» ـ على هذا ـ هذا ومَنْ وافَقَه ورضي بقوله.

وصيغةُ الاستقبال لاستحضارِ صورة كَلِمَتهم الشَّنعاء تعجيباً منها، أو للدلالةِ على تجدُّدِ ذلك منهم واستمرارِه.

﴿قُلْ كَفَىٰ بِاللَّهِ شَهِيدًا بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ﴾ فإنه جلَّ وعلا قد أظهر على رسالتي من الأدلَّة والحُجَج ما فيه غنًى عن شهادة شاهدٍ آخر. وتسميةُ ذلك شهادةً مع أنه فعلٌ وهي قولٌ مجازٌ من حيث إنه يُغني غناها، بل هو أقوى منها.

﴿وَمَنْ عِندَهُ عِلْمُ الْكِتَابِ ﴿٤٣﴾﴾ أي: علمُ القرآن وما عليه من النظم المعجِزِ.

قيل: والشهادةُ إن أُريد بها تحمُّلها فالأمر ظاهرٌ، وإن أُريد بها أداؤها فالمرادُ بالموصول المتَّصف بذلك العنوان مَنْ تَرَكَ العنادَ وآمن.

وفي «الكشف» أن المعنى: كفى هذا العالم شهيداً بيني وبينكم، ولا يلزمُ من كفايته في الشهادة أن يؤدِّيها، فمن أدَّاها فهو شاهدٌ أمين، ومن لم يؤدِّها فهو خائنٌ، وفيه تعريضٌ بليغٌ بأنهم لو أنصفوا شهدوا.

وقيل: المراد بـ «الكتاب»: التوراةُ والإنجيل، والمراد بمن عندَه علمُ ذلك: الذين أسلموا من أهل الكتابين، كعبد الله بنِ سلام وأضرابه؛ فإنهم يشهدون بنَعتِه عليه الصلاة والسلام في كتابهم، وإلى هذا ذهب قتادةُ؛ فقد أخرجَ عبد الرزَّاق، وابنُ جرير، وابن المُنذر عنه أنه قال في الآية: كان من أهل الكتاب قومٌ يشهدون بالحقِّ ويعرفونه، منهم عبد الله بنُ سلام، والجارود، وتميمٌ الداريُّ، وسلمانُ الفارسيُّ[2].

---

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩.

(٢) مصنف عبد الرزاق ١/ ٣٣٩، وتفسير الطبري ١٣/ ٥٨٣، وأورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩، وزاد نسبته إلى ابن أبي حاتم.

وجاء عن مجاهد وغيرِه ـ وهي روايةٌ عن ابن عباس ـ أن المراد بذلك عبدُ الله، ولم يذكروا غيرَه.

وأخرج ابنُ مردويه من طريق عبد الملك بن عُمَير، عن جُنْدب قال: جاء عبد الله بنُ سلام حتى أخذ بعضادتَي باب المسجد، ثم قال: أنشُدُكم بالله تعالى، أتعلمون أنِّي الذي أُنزلت فيه: «ومن عنده علم الكتاب»؟ قالوا: اللهمَّ نعم[(١)]. وأنكر ابنُ جُبَير ذلك؛ فقد أخرج سعيد بنُ منصور وجماعةٌ عنه أنه سُئل: أهذا الذي عنده علمُ الكتاب هو عبد الله بنُ سلام؟ فقال: كيف وهذه السورةُ مكيةٌ؟![(٢)] والشعبيُّ أنكر أن يكون شيء من القرآن نزل فيه وهذا لا يعوَّل عليه، فمن حَفِظَ حجَّة على مَنْ لم يحفظ، وأُجيب عن شبهة ابن جُبير بأنهم قد يقولون: إن السورة مكيةٌ، وبعض آياتها مدنيةٌ، فلتكن هذه من ذلك، وأنتَ تعلمُ أنه لا بدَّ لهذا من نقل.

وفي «البحر»[(٣)] أن ما ذُكر لا يستقيم إلا أن تكون هذه الآيةُ مدنيةً، والجمهورُ على أنها مكيةٌ. وأُجيب بأن ذلك لا ينافي كونَ الآيةِ مكيةً، بأن يكون الكلامُ إخباراً عما سيشهد به، ولك أن تقول: إذا كان المعنى على طرز ما في «الكشف»، وأنه لا يلزم من كفاية من ذُكر في الشهادة أداؤها، لم يضرَّ كونُ الآية مكيةً، وعدمُ إسلام عبد الله بن سَلَام حين نزولها، بل ولا عدمُ حضوره، ولا مانعَ أن تكون الآيةُ مكية، والمرادُ من «الذين كفروا» أهلُ مكة، وممن عنده علم الكتاب اليهودُ والنصارى؛ كما أخرجه ابن جرير[(٤)] من طريق العوفيِّ عن ابن عباس، ويكون الحاصل الجواب بذلك: إنكم لستُم بأهل الكتاب، فاسألوا أهلَه؛ فإنهم في جواركم. نعم قال شيخ الإسلام[(٥)]: إنَّ الآيةَ مدنيةٌ بالاتفاق. وكأنه لم يقف على الخلاف، وقيل: المرادُ بـ «الكتاب» اللوح، و«من» عبارة عنه تعالى، ورُوي هذا

(١) أورده السيوطي في الدر المنثور ٤/ ٦٩.
(٢) سنن سعيد بن منصور (١١٧٧التفسير)، وأخرجه الطبري ١٣/ ٥٨٦.
(٣) البحر المحيط ٥/ ٤٠١.
(٤) تفسير الطبري ١٣/ ٥٨٢.
(٥) تفسير أبي السعود ٥/ ٢٩.

عن مجاهد والزجَّاج[١]، وعن الحسن: لا والله ما يعني إلا الله تعالى. والمعنى ـ كما في «الكشاف»[٢] ـ: كفى بالذي يستحقُّ العبادةَ، وبالذي لا يعلم علمَ ما في اللوح إلا هو شهيداً بيني وبينكم، وبهذا التأويل صار العطفُ مثله في قوله:

إلى الملك القَرْمِ وابنِ الهُمام وليثِ الكتيبة في المزدَحَمِ[٣]

فلا محذورَ في العطف، والحصرُ إما من الخارج؛ لأن علم ذلك محصورٌ به تعالى، أو للذهاب إلى أنَّ الظرف خبرٌ مقدَّم، فيفيد الحصرَ. وقَسَمُ الحسنِ للمبالغة في ردِّ ما زعموا على ما قيل. وفي «الكشف»: إنما بالغ الحسنُ لما قدَّمنا من بناء السُّورة الكريمة على ما بني، وجعل السابقة مثلَ الخاتمة، وما في العطف من النكتة، ولهذا فسَّره الزمخشريُّ بقوله: كفى بالذي إلخ، عطفَهُ عطفَ ذاتٍ على ذاتٍ؛ إشارةً إلى الاستقلال بالشهادة من كلِّ واحد من الوصفين من غيرِ نظرٍ إلى الآخر، فالذي يستحقُّ العبادةَ قد شهد بما شحن الكتاب من الدَّعوة إلى عبادته، وبما أيَّد عبدَه من عندِه بأنواع التأييد، والذي لا يعلم علمَ ما في اللوح، أي: علمَ كلِّ شيء إلا هو قد شهد بما ضمَّنَ الكتابَ من المعارف، وأنزله على أسلوبٍ فائق على المتعارَف، ويعضُدُ ذلك القول أنه قرأ عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهَه، وأُبَيٌّ، وابن عباس، وعكرمة، وابن جبير، وعبد الرحمن بن أبي بَكْرة، والضحَّاك، وسالم بن عبد الله بن عمر، وابنُ أبي إسحاق، ومجاهد، والحَكَم، والأعمش: «ومِنْ عِنْدِهِ علمُ الكتاب»[٤] بجعل «من» حرفَ جرٍّ، والجارّ والمجرور خبر مقدَّم، و«علم» مبتدأ مؤخَّر.

وقرأ عليٌّ ـ كرَّم الله تعالى وجهه ـ أيضاً، وابنُ السَّمَيْفَع، والحسنُ بخلاف عنه: «ومِنْ عندِهِ» بحرف الجر، و«عُلِمَ الكتابُ»[٥] على أن «عُلِمَ» فعلٌ مبنيٌّ للمفعول،

---

(١) معاني القرآن ٣/ ١٥١، واقتصر على قوله: و«من» يعود على الله عز وجل.
(٢) ٢/ ٣٦٤.
(٣) سلف البيت ٢/ ٣٥٠.
(٤) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٤٠٢.
(٥) القراءات الشاذة ص٦٧، والبحر ٥/ ٤٠٢، وذكر ابن خالويه أن الحسن قرأ كذلك: «ومِنْ عندِهِ أُمُّ الكتاب».

و«الكتابُ» نائب الفاعل؛ فإن ضمير «عنده» على القراءتين راجع لله تعالى كما في القراءة السابقة على ذلك التأويل، والأصل توافقُ القراءات، وقيل: المراد بـ «الكتاب» اللوحُ، وبـ «من» جبريل عليه السلام. وأخرج تفسير «من» بذلك ابنُ أبي حاتم عن ابن جُبير، وهو كما ترى.

وقال محمد ابنُ الحَنَفيَّة والباقرُ؛ كما في «البحر»[(١)]: المراد بـ «من» عليٌّ كرَّم الله تعالى وجهه، والظاهر أن المراد بـ «الكتاب» حينئذٍ القرآنُ، ولَعَمري إن عنده رضي الله عنه علمُ الكتاب كملاً، لكن الظاهر أنه كرَّم الله تعالى وجهه غيرُ مراد.

والظاهر أن «من» في قراءة الجمهور في محل جرٍّ بالعطف على لفظ الاسم الجليل، ويؤيِّده أنه قُرئ بإعادة الباء في الشواذِّ[(٢)]، وقيل: إنه في محلِّ رفعٍ بالعطف على محلِّه؛ لأن الباء زائدةٌ، وقال ابنُ عطية[(٣)]: يحتمل أن يكون في موضع رفعٍ على الابتداء، والخبرُ محذوفٌ تقديرُه: أعدلُ أو أمضى قولاً، أو نحو هذا مما يدلُّ عليه لفظُ «شهيداً»، ويُراد بذلك الله تعالى، وفيه من البُعد ما لا يخفى.

والعلمُ في القراءة التي وقع «عنده» فيها صلةً مرفوعٌ بالمقدَّر في الظرف، فيكون فاعلاً؛ لأن الظرفَ إذا وقع صلةً أوغَلَ في شَبَه الفعل؛ لاعتماده على الموصول، فعمل عمل الفعل، كقولك: مررتُ بالذي في الدار أخوه. فأخوه فاعلٌ، كما تقول: بالذي استقرَّ في الدار أخوه. قاله الزمخشريُّ[(٤)]، وليس بالمتحتِّم؛ لأن الظرفَ وشبهُهُ إذا وقعا صِلَتين، أو صفتين، أو حالين، أو خبرين، أو تقدَّمَهما أداةُ نفي أو استفهام، جاز فيما بعدَهما من الاسم الظاهر أن يرتفعَ على الفاعلية، وهو الأجود، وجاز أن يكون مبتدأً والظرفُ أو شبهُهُ في موضع الخبر، والجملةُ من المبتدأ والخبر صلةٌ، أو صفةٌ، أو حال، أو خبر، وهذا مبنيٌّ على اسم الفاعل، فكما جاز ذلك فيه، وإن كان الأحسنُ إعمالَه في الاسم الظاهر، فكذلك يجوزُ فيما ناب عنه من ظرفٍ أو مجرور، وقد نصَّ سيبويه على

---

(١) البحر المحيط ٥/ ٤٠١.
(٢) البحر المحيط ٥/ ٤٠٢، والدر المصون ٧/ ٦٣.
(٣) المحرر الوجيز ٣/ ٣٢٠.
(٤) الكشاف ٢/ ٣٦٥.

إجازة ذلك في نحو: مررتُ برجلٍ حسنٌ وجهُه، فأجاز رفع حسن على أنه خبرٌ مقدَّم. وقد توهَّم بعضُهم أن اسم الفاعل إذا اعتمد على شيء مما ذُكر تحتَّم إعمالُه في الظاهر، وليس كذلك. وقد أعرب الحوفيُّ «عنده علم الكتاب» مبتدأ وخبراً في صلة «من»، وهو ميلٌ إلى المرجوح، وفي الآية على القراءتين بـ «من» الجارَّة دلالةٌ على أن تشريفَ العبد بعلوم القرآن من إحسان الله تعالى إليه وتوفيقه، نسألُ الله تعالى أن يُشرِّفنا بهاتيك العلوم، ويوفِّقنا للوقوف على أسرار ما فيه من المنطوق والمفهوم، ويجعلَنا ممَّن تمسَّك بعروته الوثقى، واهتدى بهداه، حتى لا يضلَّ ولا يشقى، ببركة النبيِّ ﷺ.

❁ ❁ ❁

ومن باب الإشارة في الآيات: ﴿ٱلَّذِينَ يُوفُونَ بِعَهْدِ ٱللَّهِ وَلَا يَنقُضُونَ ٱلْمِيثَٰقَ﴾ قيل: عهدُ الله تعالى مع المؤمنين القيامُ له سبحانه بالعبودية في السرَّاء والضرَّاء. ﴿وَٱلَّذِينَ يَصِلُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ﴾ فيَصِلُون بقلوبهم محبَّتَه، وبأسرارهم مشاهدتَه سبحانه وقربتَه. ﴿وَيَخْشَوْنَ رَبَّهُمْ﴾ عند تجلِّي الصفات في مقام القلب، فيشاهدون جلالَ صفة العظمة، ويلزَمُهم الهيبةُ والخشية. ﴿وَيَخَافُونَ سُوٓءَ ٱلْحِسَابِ﴾ عند تجلِّي الأفعال في مقام النفس، فينظرون إلى البطش والعقاب، فيلزمهم الخوف.

وسُئل ابنُ عطاء: ما الفرقُ بين الخشية والخوف؟ فقال: الخشيةُ من السقوط عن درجات الزُّلفى، والخوف من اللُّحوق بدَرَكات المَقْت والجفا. وقال بعضُهم: الخشيةُ أدقُّ، والخوفُ أصلب.

﴿وَٱلَّذِينَ صَبَرُوا۟ ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ رَبِّهِمْ﴾ صبروا عمَّا دون الله تعالى بالله سبحانه لكشفِ أنوار وجهه الكريم، أو صبروا في سلوك سبيله سبحانه عن المألوفات طلباً لرضاه. ﴿وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ﴾ صلاةَ المشاهدة، أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات البدنية. ﴿وَأَنفَقُوا۟ مِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ سِرًّا وَعَلَانِيَةً﴾ أفادوا مما مَنَنَّا عليهم من الأحوال والمقامات والكشوف، وهذَّبوا المريدين حتى صار لهم ما صار لهم ظاهراً وباطناً، أو اشتغلوا بالتزكية بالعبادات المالية أيضاً[1]. ﴿وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ﴾ الحاصلةِ لهم من تجلِّي الصفة

(١) قوله: أيضاً، لم يرد في الأصل، والمثبت من (م).

الإلهية السَّنِيَّة ﴿ٱلسَّيِّئَةَ﴾ التي هي صفةُ النفس. وقال بعضُهم: يعاشرون الناسَ بحُسْن الخُلق، فإن عامَلَهم أحدٌ بالجفاء قابلوه بالوفاء. ﴿أُوْلَٰٓئِكَ لَهُمۡ عُقۡبَى ٱلدَّارِ﴾ البقاءُ بعد الفناء، أو العاقبةُ الحميدة.

﴿جَنَّٰتُ عَدۡنٖ يَدۡخُلُونَهَا وَمَن صَلَحَ مِنۡ ءَابَآئِهِمۡ وَأَزۡوَٰجِهِمۡ وَذُرِّيَّٰتِهِمۡۖ﴾ قيل: يدخلون جنةَ الذات ومَنْ صلح من آباء[1] الأرواح، ويدخلون جنةَ الصفات بالقلوب، ويدخلون جنةَ الأفعال ومَنْ صلح من أزواج النفوس وذُرِّيات القوى، أو يدخلون جناتِ القربِ والمشاهدة والوِصال، ومَنْ صلح من المذكورين تبعٌ لهم، ولأجلِ عينٍ ألفُ عين تكرم.

﴿وَٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَدۡخُلُونَ عَلَيۡهِم مِّن كُلِّ بَابٖ ٢٣ سَلَٰمٌ عَلَيۡكُم بِمَا صَبَرۡتُمۡۚ فَنِعۡمَ عُقۡبَى ٱلدَّارِ ٢٤﴾ يدخل عليهم أهلُ الجبروت وأهل المَلَكوت من كلِّ بابٍ من أبواب الصفات، محيِّين لهم بتحايا الإشراقات النورية، والإمدادات القدسية، أو يدخلُ عليهم الملائكةُ الذين صَحِبُوهم في الدنيا من كلِّ بابٍ من أبواب الطاعة، مسلِّمين عليهم بعد استقرارهم في منازلهم كما يُسلِّم أصحابُ الغائب عليه إذا قدم إلى منزله واستقرَّ فيه.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾ الإيمانَ العلميَّ بالغيب. ﴿وَتَطۡمَئِنُّ قُلُوبُهُم بِذِكۡرِ ٱللَّهِۗ﴾ قالوا: ذِكْرُ النفس باللسان والتفكرِ في النِّعم، وذِكْرُ القلب بالتفكُّر في المَلَكوت، ومطالعةِ صفات الجمال، وذِكْرُ السرِّ بالمناجاة، وذِكْرُ الروح بالمشاهدة، وذِكْرُ الخفاء[2] بالمناغاة في العشق[3]، وذِكر الله تعالى بالفناء فيه.

﴿أَلَا بِذِكۡرِ ٱللَّهِ تَطۡمَئِنُّ ٱلۡقُلُوبُ﴾ وذلك أن النفسَ تضطربُ بظهور صفاتها وأحاديثها، وتطيشُ فيتلوَّن القلبُ ويتغيَّر لذلك، فإذا تفكَّر في المَلَكوت، ومطالعةِ أنوار الجمال والجبروت، استقرَّ واطمأنَّ، وسائرُ أنواع الذِّكْر إنما يكون بعد الاطمئنان، قال الهزجوري[4]: قلوبُ الأولياء مطمئنَّة لا تتحرَّك دائماً؛ خشيةَ أن

---

(١) في الأصل: من آبائهم، والمثبت من (م).
(٢) في الأصل: وذكر الخفي، والمثبت من (م).
(٣) في الأصل: بالعشق، والمثبت من (م).
(٤) كذا في الأصل و(م)، ولعله تحريف، صوابه: الهُجْويري، وهو أبو الحسن علي بن

يتجلَّى الله تعالى عليها فجأةً، فيجدَها غيرَ متَّسِمةٍ بالأدب.

﴿ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ﴾ تخليةً وتحليةً ﴿طُوبَىٰ لَهُمْ﴾ بالوصول إلى الفِطْرة وكمالِ الصفات ﴿وَحُسْنُ مَـَٔابٍ﴾ بالدخول في جنة القلب، وهي جنةُ الصفات، أو «طوبى لهم» الآن حيث لم يُوجد منهم ما يُخالف رضاء محبوبهم، «وحسنُ مآبٍ» في الآخرة حيث لا يجدون من محبوبهم خلافَ مأمولهم.

﴿أَفَمَنْ هُوَ قَآئِمٌ عَلَىٰ كُلِّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ﴾ أي: بحسب كَسْبها ومقتضاه، أي: كما تقتضي مكسوباتُها من الصفات والأحوال التي تعرضُ لاستعدادها يُفيض عليها من الجزاء.

﴿قُلْ إِنَّمَآ أُمِرْتُ أَنْ أَعْبُدَ ٱللَّهَ وَلَآ أُشْرِكَ بِهِۦٓ﴾ ما أَخرج سبحانه أحداً من العبودية حتى سيِّد أحرارِ البَرِيَّة ﷺ. وفسَّرها أبو حفص بأنها تركُ كلِّ ملكٍ، وملازمةُ المأمور به. وقال الجُنيد قُدِّس سرُّه: لا يرتقي أحدٌ في درجات العبودية حتى يُحكِمَ فيما بينه وبين الله تعالى أوائلَ البدايات، وهي الفروضُ والواجبات، والسُّنن والأوراد، ومطايا الفضل عزائمُ الأمور، فمن أحكَمَ على نفسه هذا، مَنَّ الله تعالى عليه بما بعدَه. ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلًا مِّن قَبْلِكَ وَجَعَلْنَا لَهُمْ أَزْوَٰجًا وَذُرِّيَّةً﴾ فيه ـ على ما قيل ـ إشارةٌ إلى أنه إذا شرَّف الله تعالى شخصاً بولايته لم يضرَّ به مباشرة أحكام البشرية من الأهل والولد، ولم يكن بسطُ الدنيا له قَدْحاً في ولايته.

وقوله سبحانه: ﴿وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأْتِىَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ﴾ فيه منعُ طلبِ الكرامات واقتراحِها من المشايخ. ﴿لِكُلِّ أَجَلٍ كِتَابٌ﴾ لكلِّ وقتٍ أمرٌ مكتوبٌ يقع فيه ولا يقع في غيره، ومن هنا قيل: الأمور مرهونة لأوقاتها. وقيل: لله تعالى خواصّ في الأزمنة والأمكنة والأشخاص.

﴿يَمْحُواْ ٱللَّهُ مَا يَشَآءُ وَيُثْبِتُ﴾ قيل: يمحو عن ألواحِ العقول صورَ الأفكار،

= عثمان بن أبي علي الجلابي الحسيني، الحنفي الغَزْنوي، من قرية هُجْويرة من مضافات غَزْنين، صنف: كشف حجب المحجوب لأرباب القلوب، وهو من شروح الفصوص، وثواقب الأخبار. توفي بلاهور سنة (٤٦٥هـ). تاج العروس: (هجر)، وكشف الظنون ٢/١٤٨٨ و١٤٩٤، وهدية العارفين ٥/٦٩١.

ويثبتُ فيها أنوار الأذكار، ويمحو عن أوراق القلوب(١) علومَ الحدثان، ويثبتُ فيها لدُنيَّات علمِ العرفان، وقيل: يمحو العارفين بكشف جلاله، ويُثبتهم في وقتٍ آخر بلطفِ جماله، وقال ابنُ عطاء: يمحو أوصافَهم، ويُثبت أسرارَهم؛ لأنها موضعُ المشاهدة. وقيل: يمحو ما يشاء عن الألواح الجزئيَّة التي هي النفوسُ السماويَّة من النقوش الثابتة فيها، فيعدم عن المواد ويفني، ويثبتُ ما يشاء فيها فيوجد.

﴿وَعِندَهُۥٓ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ﴾ العلمُ الأزليُّ القائمُ بذاته سبحانه، وقيل: لوحُ القضاء السابق الذي هو عقلُ الكلِّ، وفيه كلُّ ما كان ويكون أزلاً وأبداً على الوجهِ الكليِّ المنزَّهِ عن المحوِ والإثبات. وذكروا أن الألواح أربعةٌ: لوحُ القضاء السابق العالي عن المحو والإثبات، وهو لوحُ العقل الأول، ولوحُ القدر، وهو لوحُ النفس الناطقة الكلية التي يُفصل فيها كلياتُ اللوح الأول، وهو المسمَّى باللوح المحفوظ، ولوحُ النفوس الجزئيَّة السماويَّة التي يُنتقش فيها كلُّ ما في هذا العالم بشكله وهيئته ومقداره، وهو المسمَّى بالسماء الدنيا، وهو بمثابة خيال العالم، كما أنَّ الأول بمثابة روحه، والثاني بمثابة قلبه، ثم لوحُ الهُيولى القابلُ للصور في عالم الشهادة. اهـ. وهو كلامٌ فلسفي.

﴿أَوَلَمْ يَرَوْاْ أَنَّا نَأْتِى ٱلْأَرْضَ نَنقُصُهَا مِنْ أَطْرَافِهَا﴾ قيل: ذلك بذهابِ أهل الولاية الذين بهم عمارةُ الأرض، وقيل: الإشارةُ أنَّا نقصِدُ أرضَ الجسد وقت الشيخوخة، ننقُصُها من أطرافها بضعفِ الأعضاء والقوى الظاهرة والباطنة شيئاً فشيئاً، حتى يحصلَ الموتُ، أو نأتي أرضَ النفس وقتَ السلوك ننقُصُها من أطرافها بإفناء أفعالها بأفعالنا أوَّلاً، وبإفناء صفاتها بصفاتنا ثانياً، وبإفناء ذاتها في ذاتنا ثالثاً.

﴿لَا مُعَقِّبَ لِحُكْمِهِۦ﴾ لا رادَّ ولا مبدِّل لكلِّ ما حكم به، نسألُ الله تعالى أن يحكُمَ لنا بما هو خيرٌ وأولى في الآخرة والأولى، بحرمةِ النبيِّ ﷺ وشرَّفَ وعظَّم وكرَّم.

---

(١) في الأصل: العقول، والمثبت من (م).